



الرسالة

الجزء الأول

الإعداد للمشروع الرسالي
وبعثة الرسل الأوائل

الشيخ علاء السالم

إصدارات أنصار الإمام المهدي / العدد ٢٣٨

الرسالة

الجزء الأول

الإعداد للمشروع الرسالي وبعثت الرسل الأوائل

علاء السالم

الفهرست الإجمالي

تمهيد:	٥
(١) أدلة إثبات المرسل وهدف الكون والحياة الأرضية	١٧
أولاً - الإنسان هدف الكون:	١٨
ثانياً - الإنسان هدف الحياة الأرضية:	٦٩
(٢) الإعداد الإلهي للمشروع الرسالي	٨٧
تمهيد:	٨٧
نشوء الحياة الاجتماعية واللغة والتفكير:	٩٠
الهجرة من أفريقيا واستيطان الوادي الخصيب:	١٠٨
خلق آدم والنفس الإنسانية:	١١٥
مجتمع آدم وتاريخ ظهوره على الأرض:	١٣١
(٣) بعثة آدم عليه السلام	١٦١
الحاجة إلى الرسل ودليل التعرف عليهم:	١٦١
نبوة آدم (ع):	١٧٠
وفاة آدم ووصيته وصحفه:	٢١٦
أنبياء بعد آدم:	٢٣٦
(٤) بعثة نوح عليه السلام	٢٥٣
رسالة نوح (ع):	٢٥٣
طوفان نوح:	٢٦٩
نوح وقومه بعد الطوفان حتى الوفاة:	٣٠٢
أنبياء بعد نوح (ع):	٣٢٠
(٥) الدين السومري وما يتصل به	٣٣٣
تمهيد: لماذا البحث في سومر؟	٣٣٣
الدين السومري:	٣٣٧
تأثر أديان الشرق وفلسفتهم بالدين السومري:	٣٩٩
ملحق - ١: مأساة دموزي ومذبحة الحسين (ع)	٤٢٩
ملحق - ٢: جلجامش والمهدي (ع)	٤٥٧

المصادر ٤٨٥

الفهرست ٤٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

محمد (ص) رسول الله:

قال تعالى: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ..." الفتح: ٢٩.

صلى الله على محمد وعلى آل محمد الطاهرين وعلى سائر رسل الله الطيبين.

لم يرد التعريف المذكور في الآية بحق غيره من رسل الله في كل آيات الكتاب، وكأن الله سبحانه يريد أن يقول لعباده: "إنَّ الرسول الحقيقي الذي يراد الوصول إليه هو عبيدي محمد"، وهذا يعني أنَّ كل رسل الله الذين سبقوه بعثة على هذه الأرض مهّدوا له، بل ورسالاتهم وبعثاتهم متقومة به، فلولا ما كانوا وما بعثوا!

عن الإمام الباقر صلوات الله عليه، قال: (يَمَصُّونَ الثَّمَادَ (الماء القليل) ويدعون النهر العظيم، قيل له: وما النهر العظيم؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله والعلم الذي أعطاه الله، إنَّ الله عز وجل جمع لمحمد صلى الله عليه وآله سنن النبيين من آدم وهلم جرّاً إلى محمد صلى الله عليه وآله، قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيين بأسره، وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله صيّر ذلك كله عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال له رجل: يا ابن رسول الله فأمر المؤمنين أعلم أم بعض النبيين؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: اسمعوا ما يقول؟ إنَّ الله يفتح مسامع من يشاء، إني حدثته أنَّ الله جمع لمحمد صلى الله عليه وآله علم النبيين وأنه جمع ذلك كله عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النبيين) ^(١).

(عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما تكاملت النبوة لنبي في الأظلة حتى عرضت عليه ولايتي وولاية أهل بيتي ومثلوا له فأقروا بطاعتهم وولايتهم) ^(١).

(وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في حديث الإسراء: فإذا ملك أتاني فقال: يا محمد! سل من أرسلنا قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ فقلت: معاشر الرسل والنبیین! على ما بعثتم؟ فقالوا: على ولايتك يا محمد وولاية علي بن أبي طالب) ^(٢).

المشروع الرسالي الإلهي على الأرض ابتداءً بآدم عليه السلام وختم بالرسول محمد صلى الله عليه وآله، وشاء الله أن يكون ختام رسالة محمد صلى الله عليه وآله وبآخر أوصيائه وهو المهدي الثاني عشر كما نصّت وصيته المقدسة ليلة وفاته ^(٣)، وبين الرسالتين أو البعثتين آلاف الرسل الإلهيين:

عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن أول وصي كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم وما من نبي مضى إلا وله وصي وكان جميع الأنبياء مائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، منهم خمسة أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وإن علي بن أبي طالب كان هبة الله لمحمد، وورث علم الأوصياء، وعلم من كان قبله، أما إن محمداً ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين) ^(٤).

ولما كان المنهج الإلهي في التعريف بالرسل يقوم بالأساس على النص، نجد النص وتبشير كل رسول بمن يأتي بعده سنة إلهية دائمة ومستمرة إلى أن بلغ المشروع الرسالي الهدف المرجو والختام المنشود أعني بعث وإرسال سيد الرسل محمد بن عبد الله صلى

١- بصائر الدرجات، الصفار: ٩٣.

٢- المحتضر، حسن بن سليمان الحلي: ١/ ٢٢٢.

٣- وصية رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة وفاته نصّت على أن أوصياء الرسول هم اثنا عشر إماماً واثنا عشر مهدياً، أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم الأئمة والمهديين من ولد الحسين؛ إمام بعد إمام ومهدي بعد مهدي حتى آخرهم وهو المهدي الثاني عشر. انظر: الغيبة، الطوسي: ١٥٠ - ١٥١.

٤- الكافي، الكليني: ١/ ٢٢٤.

الله عليه وآله ثم آل محمد الأوصياء من بعده الذين بهم تتم رسالته حتى بلوغ الإنسانية يومها الأخير على هذه الأرض.

معنى الرسالة:

أصل الدين الإلهي - أو الرسالة الإلهية عموماً - يتقوم بثلاثة أركان وأسس، هي: المرسل (الله)، الرسول (نبي، رسول، إمام)، الرسالة.

الرسالة (كأحد أركان الدين الإلهي) يقصد بها: العلم الذي يختص الله به رسوله وبيعه به. ولا شك أن العلم بهذا المعنى يعد محورياً أساسياً في التعرف على الرسول نفسه وإثبات صدق دعوته ورسالته من الله، فهو (أي العلم) أحد فقرات القانون الإلهي المعرف برسل الله؛ الذي يتألف من فقرات ثلاث: "النص، العلم، والدعوة إلى الله وحاكميته"، وهو قانون محكم وقطعي بدلالة العقل والنقل وبه يُعرف رسل الله جميعاً كما سيتضح.

ولما كانت الرسالة = العلم الديني، فينبغي الالتفات إلى أن العلم الديني ليس صنفاً واحداً وإنما هو منظومة مؤلفة من ثلاث شعب رئيسية، هي: العقيدة، الشريعة، الأخلاق عموماً. وأن الجانب العقائدي من "الرسالة" هو الأهم بلا أدنى شك؛ لخطورة موضوعه باعتبار أنه يتصل بوجود الله وتوحيده ومعرفته، وهذا هو لب وجوهر الرسالة الإلهية. ثم يأتي الجانب التشريعي الذي يوضح فيه الرسول الإلهي للناس كيفية طاعة الله وعبادته عملياً من خلال بيان الأحكام (الأوامر والنواهي: واجبات، محرمات، مستحبات، مكروهات ... إلخ) المتعلقة بعبادات الإنسان ومعاملاته عموماً.

الأمر الآخر المهم في "الرسالة": هو معرفة طرق نيل المعارف والحقائق الدينية الراقية كوجود الله وتوحيده ونحو ذلك، وهنا يجب أن نعرف أن رسل الله منذ اليوم الأول لبدء المشروع الرسالي على الأرض أكدوا على وجود طريقين يمكن بواسطتهما نيل المعارف الدينية والارتقاء، هما:

١- طريق الوحي والاستشراق الروحي.

٢- طريق العقل والنظر والاستدلال.

يعتمد الطريق الأول على مبدأ التقوى (التخلية عن الرذائل والتحلي بالفضائل): "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" البقرة: ٢٨٢؛ وشيئاً فشيئاً وبضميمة الإخلاص لله تتسامى روح الإنسان وتكون مؤهلة لأن تشرق عليها المعارف ويتعرف على الحقائق بالوحي من خلال الرؤى والكشوفات. ولذا أسمىناه بطريق الوحي، وربما يسميه آخرون بالتصوف أو العرفان أو الإشراق ... إلخ.

أما الطريق الثاني فيعتمد على مبدأ طرح الحجج والاستدلال العقلي المبني على النظر والبحث ومقايضة مواد البرهان ومعالجتها وصولاً لحقيقة بديهية مثل: العدم لا ينتج شيئاً أو فاقد الشيء لا يعطيه الذي يعد تطبيقاً لمبدأ "امتناع اجتماع النقيضين" البديهي: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" الطور: ٣٥، وواضح أنّ السير المعرفي في الطريق الثاني يسير من التعقيد إلى البساطة ومن التنظير إلى البدهة.

الطريقان قديمان بقدم المشروع الرسالي الإلهي على الأرض، وهما طريقان يفترض أنهما رافقا الإنسان منذ بعثة آدم عليه السلام قبل آلاف السنين، بل هذا هو الحق، ولهذا يمكننا أن نقرأ "ملحمة جلجامش" الواردة ضمن تراث سومر (وهي أقدم حضارة على الأرض وصلنا شيء من تراثها الحضاري والأدبي، وسيتضح أنّ الكثير منه عبارة عن نصوص دينية تضمنت تعاليم وإخبارات الرسل الأوائل) على أساس أنها نص ديني يجسد طريق الوحي والإشراق الروحي بأبهى صورة سعى إليها رجل إلهي عزم على التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل فاستحق أن يوصف بالسيد والمعلم والمنقذ للإنسان من بهيميته!

سومر (أو بلاد ما بين النهرين، أو بابل لاحقاً) عرفت طريق الوحي من خلال رسل الله الذين بعثوا فيها وبين أهلها آلاف السنين، وكذا الطريق العقلي بالتأكيد، وأما ما يشاع من أنّ الاتجاهين إنما هما من مبتكرات الفلسفة اليونانية في القرن الرابع ق.م؛ إذ ينسب الاتجاه العقلي الاستدلالي (أو المشائي؛ بحسب تسمية الفلاسفة) لأرسطو طاليس، وينسب المذهب الإشراقي لأفلاطون (أستاذ أرسطو)، فهو من الجهل حقيقة! فمن جهة: ما نال طاليس (كأول فيلسوف يوناني بنى عليه من أتى بعده) الذي نال لولا فترة تعلّمه في بابل! واليونان لم تتأثر ببابل على مستوى الفلسفة فحسب، ولكن تأثرت أيضاً على مستوى علوم الفلك والرياضيات والأرصاد وغيرها، بل حتى فلسفة أفلاطون الإشراقية (أو المثل الأفلاطونية كما يعرف بها) ما كان له أن يطرحها لولا وجود جذورها وأصولها التي

سبقه إليها حكماء بلاد ما بين النهرين وبابل الذين كانوا يعتقدون بوثوق الصلة بين العالم العلوي والسفلي الذي يعيش فيه الإنسان كما سنقرأه عند التعرض لـ "دين سومر".

لسنا الآن بصدد تصحيح طرق التصوف والعرفان والإشراق (بحسب التسميات المختلفة لدى أصحابها)، بقدر ما نريد أن نؤكد الحقيقة التالية: أن الأصل في كل ذلك هو طريق الوحي الذي بيّنه رسل الله منذ انطلاقة أولهم على هذه الأرض (آدم عليه السلام) ثم أكده من تلاه من الرسل وصولاً إلى الرسول محمد وآله صلوات الله عليهم، وهو طريق يتلخص ببساطة بمعادلة سهلة: (إخلاص لله + تقوى "تخلّي وتحلي" = تعليم من الله من خلال الوحي "رؤى وكشوفات").

وبما تقدم، نعرف أن من الجهل بمكان أن نقرأ أو نسمع بتنازع أطراف مدارس العرفان والتصوف الإسلامية وغيرها على موقع الصدارة، ويزداد الجهل ضراوة بدخول الفلاسفة على الخط بشتى مذاهبهم واتجاهاتهم، ليحتدم النقاش فيما بينهم على موقع الريادة بهدف جعل الآخرين تابعين له! والحق، إن قدم السبق في كل خير يبلغه الإنسان يعود لرسول الله دائماً دون أدنى شك أوريب.

وعموماً، كان هذا إيضاح مختصر يتعلق بـ "الرسالة" التي استهدفت الإنسان في بعده الروحي والمادي وبلوغه الهدف المرجو من خلقه ووجوده ومن ثم تمييزه عن غيره من الأحياء التي تشاركه العيش على الأرض (وسيتضح ذلك جلياً في بحوث الكتاب). وبالتأكيد إدراك ذلك يسهم بمعرفة قيمة عطاء الرسل وقدر تضحياتهم في هذا الدرب الطويل وعظم ما لاقوه من عناء وآلام لإنقاذ الإنسان من "البهيمية" التي رافقته دوماً، وانتشاله من الحالة التي نقرت عنه ملائكة الله في لحظة الاختبار بخليفة من جنسه، لكن الرسل بصبرهم وعزيمتهم صمّموا على الأخذ بيده نحو الرقي والتكامل والعروج به عالياً نحو الطهارة والقدس بحيث لا يدانيه ملك مقرب، وتلك هي إرادة الله!

آلاف السنين تعاقبت إلى أن بلغت رسالة الله يومنا الذي نحن فيه وستبقى مستمرة تسير مع الإنسان وترافقه حتى يومه الأخير في دنيا الامتحان (عالمنا الذي نحن فيه). علماً، أن كتاب "الرسالة" الذي نحن بصدد التمهيد له لا يعنى بالرسالة بهذا المعنى "أي العلم الديني"، وإنما المعنى أولاً وبالذات هو الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

الرسول محمد (ص) هو هدف الكتاب:

كتاب "الرسالة" مخصّص بالأصل لعرض رسالة سيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله؛ لأنه قوام الرسالة وعمادها وهدفها الحقيقي المراد بلوغه كما عرفنا، لكن لما كان كل من سبقه من رسل الله مهّدوا له، فإنصافاً لتضحياتهم وتقديراً لجهودهم نعرض شيئاً من رسائل أولي العزم وبعض الأنبياء منهم كحد أدنى في الجزئين الأول والثاني من الكتاب فجاء عنوان "الرسالة" مراعيّاً لذلك.

وبطبيعة الحال، كانت البداية والشروع بعرض رسالة آدم عليه السلام؛ باعتباره أول المبعوثين من الله وبه افتتح خط الرسائل الإلهي على هذه الأرض. وليحقق الجزء الأول من "الرسالة" هدفه بوضوح، استلزم بحث المحاور الرئيسية التالية:

- ١- أدلة إثبات المرسل وهدف الكون والحياة الأرضية.
- ٢- الإعداد الإلهي للمشروع الرسالي.
- ٣- بعثة آدم عليه السلام.
- ٤- بعثة نوح عليه السلام.
- ٥- الدين السومري وما يتصل به.

بينما ضمّ الجزء الثاني من "الرسالة" المحاور التالية:

- ١- رسالة إبراهيم الخليل.
- ٢- رسالة موسى الكليم.
- ٣- رسالة عيسى كلمة الله.

علماً، أنّ كل محور من هذه المحاور تضمّن عرض مباحث فرعية كثيرة لها مساس بتحقيق هدف ورسالة الكتاب بالتأكيد.

على أن تتكفل أجزاء "الرسالة" اللاحقة؛ ابتداءً من جزئها الثالث فما بعد عرض ودراسة وتحليل رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

ملاحظة هامة: لفظ "رسل، رسول" في كل الكتاب لا يقصد به بالضرورة معناه الاصطلاحي الذي يعني المقام الخاص الأرقى من النبوة، وإنما يقصد به مطلق الخليفة والحجة الإلهي المبعوث: سواء كان نبياً أو رسولاً أو إماماً.

هذا الجزء من سلسلة "الرسالة" حظيت بحوثه بإشراف ومراجعة السيد أحمد الحسن، كما تضمّن حوارات عديدة معه واحتوى الكثير من أجوبته على العديد من المسائل الغامضة والمحيرة التي لم تتضح أجوبتها سابقاً؛ خصوصاً في مثل حالة الرسل الأوائل الذين تفصلنا عنهم آلاف السنين، وبطبيعة الحال لم تتضح أجوبة الكثير من المسائل المتعلقة بهم وبيعثاتهم والأحداث التي رافقتهم كما هو معلوم، فجزاه الله عن رسل الله وعنّا خير جزاء المحسنين.

أسأل الله أن يكتبنا في سجل شيعة رسل الله، وأن يتفضل علينا برضاه، ويختم لنا بخير، والحمد لله أولاً وآخراً.

علاء السالم
وادي السلام - النجف
٢٠٢٦/٢/١ م

عن الإمام الباقر صلوات الله عليه، قال:

(إنَّ الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم أن لا يقرب هذه الشجرة فلما بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها وهو قول الله عزوجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً"، فلما أكل آدم عليه السلام من الشجرة أهبط إلى الأرض فولد له هابيل وأخته توأم وولد له قابيل وأخته توأم. ثم إنَّ آدم عليه السلام أمر هابيل وقابيل أن يقربا قرباناً وكان هابيل صاحب غنم وكان قابيل صاحب زرع فقرب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه وقرب قابيل من زرعه ما لم ينق فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وهو قول الله عزوجل: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر - إلى آخر الآية -"، وكان القربان تأكله النار فعمد قابيل إلى النار فبني لها بيتاً وهو أول من بنى بيوت النار فقال: لأعبدن هذه النار حتى تتقبل مني قرباني.

ثم إنَّ إبليس لعنه الله أتاه - وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق - فقال له: يا قابيل قد تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانك وإنك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون نحن أبناء الذي تقبل قربانه فاقتله كيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبك فقتله فلما رجع قابيل إلى آدم عليه السلام قال له: يا قابيل أين هابيل؟ فقال: اطلبه حيث قربنا القربان فانطلق آدم عليه السلام فوجد هابيل قتيلاً فقال آدم عليه السلام: لعنت من أرض كما قبلت دم هابيل وبكى آدم عليه السلام على هابيل أربعين ليلة.

ثم إنَّ آدم سأل ربه ولداً فولد له غلام فسماه هبة الله لأن الله عزوجل وهبه له وأخته توأم. فلما انقضت نبوة آدم عليه السلام واستكمل أيامه أوحى الله عزوجل إليه أن يا آدم قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والايمن والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في العقب من ذريتك عند هبة الله فإني لن أقطع العلم والايمن والاسم الأكبر وأثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيما بينك وبين نوح. وبشر آدم بنوح عليه السلام فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح وإنه يدعو إلى الله عز ذكره ويكذبه قومه، فيهلكهم الله بالطوفان وكان بين آدم وبين نوح عليهما السلام عشرة آباء أنبياء وأوصياء كلهم وأوصى آدم عليه السلام إلى هبة الله أن من أدركه منكم فليؤمن له وليتبعه وليصدق به فإنه ينجو من الغرق.

ثم إنَّ آدم عليه السلام مرض المَرَضَة التي مات فيها فأرسل هبة الله وقال له: إنَّ لقيت جبرئيل أو من لقيت من الملائكة فاقرأه مني السلام وقل له: يا جبرئيل إنَّ أبي يستهيك من ثمار الجنة، فقال له جبرئيل: يا هبة الله إنَّ أباك قد قبض وإنا نزلنا للصلاة عليه فارجع فرجع فوجد آدم عليه السلام قد قبض فأراه جبرئيل كيف يغسله فغسله حتى إذا بلغ الصلاة عليه، قال هبة الله: يا جبرئيل تقدم فصلِّ على آدم فقال له جبرئيل: إنَّ الله عز وجل أمرنا أن نسجد لأبيك آدم وهو في الجنة فليس لنا أن نُؤم شيئاً من ولده، فتقدم هبة الله فصلى على أبيه وجبرئيل خلفه وجنود الملائكة وكَبَّر عليه ثلاثين تكبيرة فأمر جبرئيل عليه السلام فرفع خمساً وعشرين تكبيرة - والسنة اليوم فينا خمس تكبيرات، وقد كان يكبر على أهل بدر تسعاً وسبعاً -. ثم إنَّ هبة الله لما دفن أباه أياه قابيل فقال: يا هبة الله إني قد رأيت أبي آدم قد خصَّك من العلم بما لم أخص به أنا وهو العلم الذي دعا به أخوك هابيل فتقبل قربانه وإنما قتلته لكيلا يكون له عقب فيفتخرون على عقبي فيقولون: نحن أبناء الذي تقبل قربانه وأنتم أبناء الذي ترك قربانه فإنك إن أظهرت من العلم الذي اختصك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل فلبث هبة الله والعقب منه مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث النبوة وآثار علم النبوة حتى بعث الله نوحاً عليه السلام وظهرت وصية هبة الله حين نظروا في وصية آدم عليه السلام فوجدوا نوحاً عليه السلام نبياً قد بشر به آدم عليه السلام فأمنوا به واتبعوه وصدقوه وقد كان آدم عليه السلام وصى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يوم عيدهم فيتعاهدون نوحاً وزمانه الذي يخرج فيه وكذلك جاء في وصية كل نبي حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله، وإنما عرفوا نوحاً بالعلم الذي عندهم وهو قول الله عز وجل: "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه - إلى آخر الآية -. وكان من بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين ولذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يسموا كما سمي من استعلن من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهو قول الله عز وجل: "ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك" يعني لم أسم المستخفين كما سميت المستعلنين من الأنبياء عليهم السلام. فمكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، لم يشاركه في نبوته أحد ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء عليهم السلام الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام وذلك قول الله عز وجل: "كذبت قوم نوح المرسلين" يعني من كان بينه وبين آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى قوله عز وجل: "وإن ربك لهو العزيز الرحيم".

ثم إن نوحاً عليه السلام لما انقضت نبوته واستكملت أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا نوح قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في العقب من ذريتك، فإني لن أقطعهما كما لم أقطعهما من بيوتات الأنبياء عليهم السلام التي بينك وبين آدم عليه السلام ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني وتعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيما بين قبض النبي إلى خروج النبي الآخر وبشر نوح ساماً يهود عليه السلام وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء عليهم السلام وقال نوح: إن الله باعث نبياً يقال له: هود وإنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه والله عز وجل مهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله عز وجل ينجي من عذاب الريح، وأمر نوح عليه السلام ابنه ساماً أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يومئذ عيداً لهم، فيتعاهدون فيه ما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وموارث العلم وأثار النبوة فوجدوا هوداً نبياً عليه السلام وقد بشر به أبوه نوح عليه السلام فأمنوا به واتبعوه وصدقوه فنجوا من عذاب الريح وهو قول الله عز وجل: "وإلى عاد أخاهم هوداً" وقوله عز وجل: "كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون". وقال تبارك وتعالى: "ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب" وقوله: "ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا (لنجعلها في أهل بيته) ونوحاً هدينا من قبل" لنجعلها في أهل بيته وأمر العقب من ذرية الأنبياء من كان قبل إبراهيم لإبراهيم عليه السلام وكان بين إبراهيم وهود من الأنبياء صلوات الله عليهم وهو قول الله عز وجل: "وما قوم لوط منكم ببعيد" وقوله عز ذكره: "فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي" وقوله عز وجل: "وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم [إن كنتم تعلمون]" فجري بين كل نبين عشرة أنبياء وتسعة وثمانية أنبياء كلهم أنبياء وجري لكل نبي ما جرى لنوح صلى الله عليه وكما جرى لآدم وهود وصالح وشعيب وإبراهيم صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ثم صارت من بعد يوسف في أسباط إخوته حتى انتهت إلى موسى عليه السلام فكان بين يوسف وبين موسى من الأنبياء عليهم السلام فأرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وهامان وقارون ثم أرسل الرسل تترى: "كلما جاء أمة رسولهم كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث"، وكانت بنو إسرائيل تقتل نبياً واثنان قائمان ويقتلون اثنين وأربعة قيام حتى أنه كان ربما قتلوا في اليوم الواحد سبعين نبياً ويقوم سوق قتلهم آخر النهار، فلما نزلت التوراة على موسى

عليه السلام بَشَّرَ بمحمد صلى الله عليه وآله وكان بين يوسف وموسى من الأنبياء وكان وصي موسى يوشع بن نون عليه السلام وهو فتاه الذي ذكره الله عز وجل في كتابه.

فلم تنزل الأنبياء تبشّر بمحمد صلى الله عليه وآله حتى بعث الله تبارك وتعالى المسيح عيسى ابن مريم فبَشَّرَ بمحمد صلى الله عليه وآله وذلك قوله تعالى: "يجدونه (يعني اليهود والنصارى) مكتوباً (يعني صفة محمد صلى الله عليه وآله) عندهم (يعني في التوراة والإنجيل) يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر" وهو قول الله عز وجل يخبر عن عيسى: "ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد"، وبَشَّرَ موسى وعيسى بمحمد صلى الله عليه وآله. وآله كما بَشَّرَ الأنبياء عليهم السلام بعضهم ببعض حتى بلغت محمداً صلى الله عليه وآله. فلما قضى محمد صلى الله عليه وآله نبوته واستكملت أيامه أوحى الله تبارك وتعالى إليه يا محمد قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في أهل بيتك عند علي بن أبي طالب عليه السلام فإني لم أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة من العقب من ذريتك كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم وذلك قول الله تبارك وتعالى: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم"، وإن الله تبارك وتعالى لم يجعل العلم جهلاً ولم يكل أمره إلى أحد من خلقه لا إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولكنه أرسل رسولاً من ملائكته فقال له: قل كذا وكذا فأمرهم بما يحب ونهاهم عما يكره فقص إليهم أمر خلقه بعلم فعلم ذلك العلم وعلم أنبياءه وأصفياه من الأنبياء والاخوان والذرية التي بعضها من بعض فذلك قوله عز وجل: "فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً"، فأما الكتاب فهو النبوة وأما الحكمة فهم الحكماء من الأنبياء من الصفوة وأما الملك العظيم فهم الأئمة [الهداة] من الصفوة وكل هؤلاء من الذرية التي بعضها من بعض والعلماء الذين جعل الله فيهم البقية وفيهم العاقبة وحفظ الميثاق حتى تنقضي الدنيا والعلماء، ولولا الأمر استنباط العلم وللهادة.

فهذا شأن الفضل من الصفوة والرسول والأنبياء والحكماء وأئمة الهدى والخلفاء الذين هم ولادة أمر الله عز وجل واستنباط علم الله وأهل آثار علم الله من الذرية التي بعضها من بعض من الصفوة بعد الأنبياء عليهم السلام من الآباء والاخوان والذرية من الأنبياء،

فمن اعتصم بالفضل انتهى بعلمهم ونجا بنصرتهم ومن وضع ولادة أمر الله عز وجل وأهل استنباط علمه في غير الصفوة من بيوتات الأنبياء عليهم السلام فقد خالف أمر الله عز وجل وجعل الجهال ولادة أمر الله والمتكلفين بغير هدى من الله عز وجل وزعموا أنهم أهل استنباط علم الله فقد كذبوا على الله ورسوله ورغبوا عن وصيه عليه السلام وطاعته ولم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلوا وأضلوا أتباعهم ولم يكن لهم حجة يوم القيامة، إنما الحجة في آل إبراهيم عليه السلام لقول الله عز وجل: "لقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكم والنبوة وآتيناهم ملكا عظيما" فالحجة الأنبياء عليهم السلام وأهل بيوتات الأنبياء عليهم السلام حتى تقوم الساعة لأن كتاب الله ينطق بذلك، وصية الله بعضها من بعض التي وضعها على الناس فقال: عز وجل: "في بيوت أذن الله أن ترفع" وهي بيوت الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى. فهذا بنيان عروة الإيمان التي نجا بها من نجا قبلكم وبها ينجو من يتبع الأئمة وقال الله عز وجل في كتابه: "ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين" وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ... أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين" فإنه وكل بالفضل من أهل بيته والاخوان والذرية وهو قول الله تبارك وتعالى: إن تكفريه أمتك فقد وكلت أهل بيتك بالإيمان الذي أرسلتك به فلا يكفرون به أبداً ولا أضيع الإيمان الذي أرسلتك به من أهل بيتك من بعدك علماء أمتك وولادة أمري بعدك وأهل استنباط العلم الذي ليس فيه كذب ولا إثم ولا زور ولا بطر ولا رياء، فهذا بنيان ما ينتهي إليه أمر هذه الأمة.

إن الله عز وجل طهر أهل بيت نبيه عليهم السلام وسألهم أجر المودة وأجرى لهم الولاية وجعلهم أوصيائه وأحباءه ثابتة بعده في أمته، فاعتبروا يا أيها الناس فيما قلت حيث وضع الله عز وجل ولايته وطاعته ومودته واستنباط علمه وحججه، فإياه فتقبلوا وبه فاستمسكوا تنجوا به وتكون لكم الحجة يوم القيامة وطريق ربكم جل وعزولا تصل ولاية إلى الله عز وجل إلا بهم فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يكرمه ولا يعذبه ومن يأت الله عز وجل بغير ما أمره كان حقاً على الله عز وجل أن يذله وأن يعذبه (الكافي، الكليني: ١١٣/٨).

(١)

أدلة إثبات المرسل وهدف الكون والحياة الأرضية

الدين الإلهي يقوم على أصل أصيل ذي ثلاث شعب: مرسل، رسول، رسالة.

- المرسل: هو الله سبحانه.
- الرسول: أي المبعوث من الله سواء كان نبياً أو رسولاً أو إماماً.
- الرسالة: هي دين الله بمنظومته العامة التي تشمل العقيدة والشريعة والأخلاق.

لا شك، أن بحثنا يتركز على رسالة الله، وهذا يفترض أن يكون الإيمان بوجود الله أصلاً مفروغاً منه، لكننا سنشير إجمالاً لبعض الأدلة العقلية التي تثبت وجوده سبحانه باختصار ضمن إثبات محورية المشاهد الذكي (الإنسان) واعتباره هدفاً وغاية استهدفها الخالق الحكيم سواء على مستوى وجود الكون ككل أو على مستوى الحياة الأرضية بالخصوص، والملفت أن هذه الحقيقة بحد ذاتها هي أحد الأدلة العقلية على إثبات وجود الله أيضاً، فالحقيقتان متداخلتان من بعض الجهات كما سيتضح.

تنبيه: الدليل العقلي على إثبات وجود الله هو أحد طريقي الإثبات، وهناك دليل آخر أشرف منه وهو طريق الوحي^(١).

١- طريق الوحي يعتمد على فطرة الإنسان، فإذا أخلص الإنسان لله وطهر نفسه وزكاها بتقوى الله، استتبعه تفضّل الله عليه بالمعرفة والتعليم، قال تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" البقرة: ٢٨٢. لمزيد من الاطلاع على هذا الطريق يمكن مراجعة كتاب "عقائد الإسلام" للسيد أحمد الحسن: بحث "الأصل الأول: المستخلف".

أولاً - الإنسان هدف الكون:

اخترت أن يكون الوصول إلى هذه الحقيقة (أعني: الإنسان هدف وجود الكون) من خلال استعراض بعض الأدلة العقلية على إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، ولا شك أن هذا الأسلوب يحقق لنا غرضين أساسيين:

الأول: التذكير ببعض أدلة إثبات وجود الله (المُرسل)، وهو أمر مهم ينبغي الابتداء به؛ خصوصاً وأن الحديث بالأساس سيعتزل على رسالته في الأرض.

الثاني: بلوغ الهدف المقصود، أعني: إثبات أهمية الإنسان كمشروع إلهي استهدفه وجود الكون والحياة الأرضية معاً، وهو تمهيد أراه مناسباً قبل الشروع ببيان رسالة الله بأول الأنبياء والرسول أعني آدم عليه السلام.

١ - الكون حادث وبحاجة إلى محدث:

المحدث القديم ضرورة:

بحسب معطيات العلم وما انتهى إليه علماء الكونيات، لم يكن لكوننا الذي نعيش فيه وجود قبل ١٣,٨ مليار سنة^(١)، وهذا يعني أن الكون له بداية انطلق منها، أي أن وجوده حادث وليس قديماً. وبالبداية، كل حادث بحاجة إلى محدث. والمحدث الموجد للكون: لابد أن ينتهي إلى موجود قديم غني في نفسه ولا يمكن أن يكون حادثاً، وإلا لاحتاج بدوره إلى محدث أيضاً، والمحدث الثاني لو كان حادثاً (في نفسه) لاحتاج إلى محدث ثالث وهكذا يستمر الحال إلى سلسلة غير متناهية من المحدثات ولما وجد شيء أصلاً. والتسلسل باطل عقلاً^(٢)؛ لأن نتيجته عدم وجود الشيء في الواقع (الكون في حالته)، لكن الواقع القطعي

١- التحديد المذكور لعمر الكون (١٣,٨) معتمد لدى وكالة الفضاء الأوروبية، انظر:

https://www.esa.int/Science_Exploration/Space_Science/Planck/Planck_science_highlights

٢- كمثال لبطلان التسلسل: لو أراد زيد أن يرفع عطشه وطلب من ولده أن يأتيه بالماء، فأحال الولد الطلب إلى شخص، وأحال الشخص الطلب إلى شخص ثاني وأحاله الثاني إلى ثالث وأحاله الثالث إلى رابع، وهكذا استمرت

يشهد بوجود الكون، إذن لابد أن يكون وجوده استند بالنهاية إلى علة وسبب اتصف بالقدم الذاتي لا الحدوث.

والنتيجة: الكون له محدث قديم أوجده، نحن نسميه: "الله"، والفارسي: "خدا"، والإنجليزي: "God"، والأسباني: "Dios"، والألماني: "Gott"، والفرنسي: "Dieu"، والصيني: "Shàngdì" أو "Ānlā"، والهندي: "Bhagwan" أو "Ishwar"، وهكذا.

ملاحظات:

١- اعتقادنا بأن الله خالق الكون لا يعني أنه السبب المباشر لخلقه وإيجاده، وبالتالي لا مانع (عقلاً) من توسط علل وأسباب وصولاً إلى العلة المباشرة التي كانت سبباً في إيجاده بأمر الله. فلمهم بالنسبة لنا هو انتهاء سلسلة الأسباب إليه سبحانه بوصفه مسبب الأسباب وعلة العلل، بل هذا هو الثابت دينياً.

٢- فلسفياً، كل ما في الوجود لا يخلو من الاتصاف إما بالحدوث أو القدم. هذه حقيقة لا يشذ عنها شيء في عالم الوجود إطلاقاً.

الحادث: هو الموجود الذي له بداية ابتدأ منها، بخلاف القديم: الذي لا بداية له.

الموجود الحادث لم يكن موجوداً ثم وجد، أي أنّ وجوده مسبوق بالعدم، الوجود بالنسبة للحادث ليس أمراً ذاتياً له وإلا لما كان معدوماً قبل لحظة إيجاده، وهذا يعني أنّ "الحادث" بحسب حقيقته أمر قابل للوجود وللعدم، أو يمكننا القول: إنه موجود يحمل عدمه معه، فهو متساوي النسبة إليهما أي "ممکن الوجود"، ولهذا يكون بحاجة إلى علة

الإحالة إلى سلسلة لا متناهية من الأشخاص، فهذا يعني عدم تحقق الإتيان بالماء أصلاً وعدم ارتفاع عطش زيد. والحال نفسه بالنسبة إلى وجود الكون، فلو كان موجد حادثاً، فهو بحاجة إلى محدث، وهذا المحدث إن كان قديماً ثبت وجود الله، وإن كان حادثاً فهو بحاجة إلى محدث أيضاً، وفي حال استمرت السلسلة هكذا فهذا يعني عدم وجود الكون أصلاً، لكن الكون وجد وشوهد ورصد فهذا يستلزم بالضرورة انتهاء سلسلة الأسباب إلى سبب قديم وغني، وهو الله سبحانه وتعالى.

وسبب (مرجح) يرجح له جانب الوجود إن أُريد له الوجود، وهذا يكشف عن أنّ هوية الموجود الحادث تتلخص بالفقر والحاجة والتقوم بالغير.

أما الموجود القديم، فالوجود بالنسبة له أمر ذاتي أزلي لا يفارقه، ومن ثمّ كانت هويته الغنى والقيام بالنفس وعدم الاحتياج للغير إطلاقاً. القديم لما كان الوجود أمراً ذاتياً بالنسبة له فهو إذن واجب الوجود، وبالتالي لا يحتاج إلى سبب يرجح له جانب الوجود أو يمنحه إليه؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر: ١٥.

٣- لا شك أنّ الدليل العقلي على إثبات وجود الله، أعني دليل الحدوث، هو أحد تطبيقات قانون السببية البديهي، وقانون السببية تعرض لإشكال وجهه إليه بعض الملحدين بزعم أنه يشمل وجود الله، فكما أنّ وجود الكون له سبب فوجود الله مثله، وإذا استثنى وجود الله عن القانون فليكن وجود الكون مثله أيضاً، علماً أنّ كثرة الاستثناءات تفقد قانون السببية صفته القانونية التي تستلزم العموم والشمول بطبيعة الحال!؛

لكن إدراك الحقيقة المتقدمة كافٍ لدفع هذا التوهم، أعني تقسيم الوجود إلى حادث (ممكن الوجود) وقديم (واجب الوجود)، فقانون السببية (كل مسبب له سبب) إنما يجري في الوجود الحادث لا القديم؛ باعتبار أنّ الوجود ليس أمراً ذاتياً بالنسبة له كما عرفنا، وبالتالي فهو بحاجة إلى مرجح وسبب يمنحه الوجود، وليس الحال كذلك بالنسبة إلى القديم الغني الذي يعد الوجود ذاتياً له ويشكّل هويته وحقيقته، وبالتالي فهو غير مشمول بقانون السببية المختص بالحوادث والممكنات لا غير.

بداية الكون وتشكّله:

الكون حادث، وكل حادث له محدث أوجده. وهذا يكفي - عقلاً - من يعتقد بوجود إله بعد انتهاء سلسلة الأسباب إليه، ف (كون الأثر دال على المؤثر لا يعني أنّ كل أثر دال على

الله مباشرة، بل إن سلسلة الآثار والمؤثرات لا بد أن تنتهي إلى مؤثر أصيل "قديم أزلي وغني"؛ لأن العدم غير منتج^(١).

وعلاوة الحدوث أيضاً - إضافة إلى البداية - التغير، فالشيء الذي يتغير وينتقل من حالة إلى أخرى (لم تكن ثم كانت) لا يمكن أن يكون قديماً أزلياً وإلا لما تغير، وبالتالي لا يمكن قبول أزلية "شيء ما" مع القول بتغيره أيضاً؛ لأن معناه: أن يكون الشيء الواحد حادثاً وقديماً (أزلياً) في نفس الوقت، وهو محال؛ إذ لا يمكن أن يكون الشيء الواحد له بداية وليس له بداية. والنتيجة هي أن:

- الكون له بداية، وكل ما له بداية فهو حادث، إذن الكون حادث.
- الكون متغير، وكل متغير فهو حادث، إذن الكون حادث.

وكلا الأمرين (الحدوث، التغير) معطىً عليّ ثابت بشكل قطعي.

في فروض نشأة الكون يمكننا ملاحظة:

١- القول بأزلية الكون لا قيمة علمية له الآن بعد الأدلة القطعية التي قدمتها النظريات الفيزيائية الحديثة على حدوث الكون وأن له بداية^(٢).

٢- مقولة حدوث الكون على شكل دفعات في مراحل، تبناها أغلب رجال الدين المسلمين، حيث يرون أن الله خلق (الكون = العالم) في ستة أيام (مراحل) استناداً لظواهر بعض النصوص، وينظرون أن يمكن خلقه دفعة واحدة!

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٤٤ - ٢٢٤.

٢- بعض الملحدين حاول الهروب إلى الإمام (كما يقال) فأقرباً للكون بداية لكنه قال بأزلية المادة أو الطاقة التي ابتدأ بها الكون، وهو فرض لا قيمة علمية له أيضاً بعد معرفتنا بأن الطاقة أو المادة متغيرة ومتبدلة، ولا أقل فإن نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين تثبت تبدل كل منهما إلى الآخر، والتغير علامة الحدوث كما قلنا. وعموماً، فكرة "أزلية الكون" لم تكن فيزيائية بحتة، ولكنها مسألة فلسفية قديمة طرحها أرسطو بعنوان "قدم العالم" وتابعه عليها بعض الفلاسفة، وهي فكرة باطلة بمقولات الدين والعلم معاً.

- (إنَّ خلق العالم كان في ستة أزمنة متوالية ومتتابعة، مع أنَّ الله قادر على أن يخلق العالم كله في لحظة واحدة...) (١).
- (خلق الله سبحانه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما أخبر وهو الصادق جل وعلا أنه خلقها في ستة أيام، وهو قادر على أن يخلقها في لمحة بصر) (٢).

علماء، أنَّ المسألة لا ربط لها بالقدرة الإلهية ليقال إنَّ الله قادر على خلق الكون بلحظة أو في لمحة بصر، ولكن القصور في "القابل" نفسه. وعموماً، ما ذكر غير صحيح، ويصطدم مع التفسير العلمي لنشوء الكون وكيفية تكوُّن العناصر والنجوم ثم المجرات والكواكب فيه وصولاً إلى نشوء الأرض والحياة الذكية عليها التي استغرقت مليارات السنين من عمر الكون قبل الوصول لها.

٣- نظرية الانفجار العظيم "Big Bang"، أو النموذج القياسي:

هي نظرية علمية تفسر نشأة الكون، وقد لاقت في السنين الأخيرة قبولاً واسعاً في المحافل العلمية وتحديدأ لدى علماء الفيزياء النظرية والفلك بعد أن صدقت تنبؤاتها وأيدتها الاكتشافات العلمية المستمرة إلى يومنا هذا.

النموذج القياسي لنشأة الكون تنبأ به أينشتاين عام ١٩١٥ م عندما وضع نظرية النسبية العامة لتفسير الجاذبية في الكون وأنها نتيجة انحناء الأبعاد الكونية الأربعة (نسيج الزمكان) بسبب المادة والطاقة. وما يهمنا الآن هو أن نعرف أنَّ الانفجار العظيم بدأ بمفردة "كم" صغير جداً:

(كان الكون لحظة الانفجار الهائل "Big Bang" قد تفجّر عن كتلة ميكروسكوبية إذا ما قورنت بحبة رمل لبدت حبة الرمل عظيمة الحجم) (٣).

١- تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: ٤٧٥ / ٦.

٢- مجموع فتاوى ابن باز: ٢٨ / ١٠٠.

٣- الكون الأنيق، برايان غرين: ١٨، ترجمة: د. فتح الله الشيخ.

من جانب آخر: كثير من علماء الفيزياء كانوا يعتقدون بكون ثابت "استاتيكي" لا يتمدد، وحتى لا ينهار "الكون الثابت" على نفسه بفعل جاذبية المادة والطاقة الموجودة في الكون أدخل أينشتاين الثابت الكوني (مضاد الجاذبية) في معادلته في النسبية العامة لمقاومة تلك الجاذبية وبالتالي الحصول على كون ثابت لا يتقلص ولا يتمدد^(١)، مع أنّ النظرية في حد نفسها تتنبأ بكون غير ثابت!

لكن الفيزيائي الروسي "فريدمان" تمكّن من حل معادلة أينشتاين عام ١٩٢٢ م بدون افتراض وجود ثابت كوني واستنتج منها فكرة "تمدد الكون"، وأبدى أينشتاين موافقته على الحل واعترف بخطئه، وقد وضع فريدمان ثلاثة نماذج لتمدد الكون عرفت بـ "نماذج فريدمان":

- ١- أن يكون تمدد الكون موجب التقوس كسطح كرة.
- ٢- أن يكون تمدد الكون سالب التقوس كسرج حصان.
- ٣- أن يكون تمدد الكون صفري التقوس أي مسطح.

في النموذج الأول لن يستمر تمدد الكون دون توقف وسيؤول الأمر في نهاية المطاف إلى انكماش الكون بفعل الجاذبية. بخلاف النموذج الثاني الذي يستمر تمدد الكون فيه دون توقف. وأما النموذج الثالث فإنّ تمدد الكون فيه لن يتوقف لكنه سيتباطأ متجهاً نحو الصفر ولن يكون صفراً، وهكذا كون تكون (طاقته الموجبة التي توفرها المادة = طاقته السالبة التي توفرها الجاذبية).

- الملفت أنّ: (كل حلول فريدمان فيها الملمح بأنه في وقت ما من الماضي (منذ ما بين عشرة إلى عشرين ألف مليون سنة) كانت المسافة بين المجرات المتجاورة هي ولا بد صفراً)^(٢).

- (كل نماذج فريدمان تتنبأ بأنّ المسافة بين المجرات كانت صفراً عند بداية الكون

١- في عام ١٩٩٠ م تمت العودة مرة أخرى إلى "الثابت الكوني" الذي افترضه أينشتاين بعد اكتشاف أنّ الكون يتمدد بسرعة كبيرة. انظر: ٢٩٣٩-٢٠٠٠ <http://bahisoon.com>

٢- تاريخ موجز للزمان، هوكنج: ٥٢.

أي إن حجم الكون كان صفراً وكانت كثافته لا متناهية، ومعنى هذا أن نماذج فريدمان التي بنيت على النظرية النسبية تقول: إن هناك نقطة بدأ منها الكون تنهار عندها النظرية النسبية العامة نفسها وهذه النقطة تسمى بنقطة تفرد "singularity" بدأ عند هذه النقطة الانفجار العظيم^(١).

من جهته، دعم عالم الفلك الأمريكي إدوين هابل Edwin Hubble عام ١٩٢٩ م فكرة تمدد الكون حين أكد (من نتائج رصد المجرات انزياح تردد الضوء الصادر منها نحو اللون الأحمر وازدياد هذا الانزياح كلما ازدادت بعداً، وهذا وفق ظاهرة دوبلر يعني أنها تبتعد عن بعضها وبتسارع)^(٢).

وبمجرد اكتشاف توسع الكون وتمدده أدرك العلماء أنه بات من المؤكد أن الكون كان أصغر في الماضي. بل في فترة ما من الماضي السحيق كان الكون بأكمله عبارة عن نقطة منها كانت بداية الكون الذي نعرفه اليوم، فالكون في حالة تغير مستمر وهو السبب في عدم انهياره وليس كما افترض أينشتاين وغيره.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٨٩.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٨٨.

تأثير أو "ظاهرة دوبلر" اكتشفها كريستيان دوبلر Christian Doppler (فيزيائي نمساوي: ١٨٠٣ - ١٨٥٣ م) عام ١٨٤٢ م ويمكن وصفها بأنها تغير يطرأ على "التردد أو الطول الموجي" عند رصده من قبل مراقب متحرك بالنسبة للمصدر الموجي "صوتي أو ضوئي"، فمثلاً سيارة الإسعاف التي تصدر صوتاً سيجد المراقب أن تردد صوتها يرتفع أكثر كلما اقتربت منه ثم ينخفض تدريجياً كلما ابتعدت عنه، وهذا يعني أننا يمكننا أن نحدد اقتراب أو ابتعاد المصدر الموجي على أساس هذا التغير. ونفس الحال يحصل بالنسبة للضوء، فهو موجات كهرومغناطيسية تُترجم كألوان وتشكل ألوان الطيف السبعة، ويختلف كل لون من حيث تردده وطوله الموجي. فأكبرها طولاً هو الأحمر وأصغرها هو الأزرق، فتأثير دوبلر هو تغير يحصل في التردد أو الطول الموجي للضوء أو الإشعاع بسبب الحركة النسبية للمصدر، وبالتالي فكلما كانت الموجة تتمتع بتردد عالي وطول موجي قصير (يتزاح للأزرق) فمصدرها يقترب من المراقب، وكلما قل ترددها وازداد طولها الموجي (يتزاح للأحمر) فمصدرها يبتعد عن المراقب. وهذا بالضبط ما استفاد منه "هابل" لاكتشاف تمدد الكون. حيث انتهى في رصده ومرآته إلى أن الضوء القادم من المجرات والنجوم البعيدة يتزاح للون الأحمر ويزداد الانزياح كلما كانت النجوم بعيدة عنا أكثر، ما يعني أن الكون يتمدد وبتسارع. ملاحظة: الفرق بين تردد الموجة وطولها: أن التردد هو عدد مرات تكرار الموجة ويقاس بوحدة الهرتز، وأما الطول فهو المسافة الفاصلة بين نقطتين في موجتين متشابهتين ويقاس بوحدة المتر. وكلما زاد التردد قل طول الموجة والعكس صحيح.

يقول السيد أحمد الحسن: (وهذا يعني أنّ المجرات ومادة الكون كانت في الماضي أقرب من بعضها وكلما عدنا للماضي يزيد التقارب حتى نصل لحجم صفر، وهذا يعني أنّ النموذج الثابت أو الاستاتيكي للكون غير صحيح. ولم يعد يصح أن يقال: إنّ الكون الذي نعيش فيه أزلي، وكذا لم يعد صحيحاً أن يقال: إنّ الكون خلق مباشرة كما هو الآن) انتهى^(١).

ما توصّل إليه فريدمان وهابل من تمدد الكون، أعقبه نجاح الفيزيائي الروسي جورج غامو George Gamow (أحد طلبة فريدمان) في عام ١٩٤٨ م من تفسير التخليق النووي الابتدائي في اللحظات الأولى من عمر الكون وكيفية تكوّن نوى العناصر الخفيفة كالهيدروجين والهيليوم، إذ افترض أنّ الكون كان عبارة عن "حساء بدائي" لا تعرف مكوناته يتمتع بحرارة عالية جداً، ومع تمدد الكون أخذت حرارته تهبط تدريجياً، وبعد مضي ٣٨٠ ألف سنة من عمر الكون تكوّنت أولى ذرات العناصر الخفيفة حينما انخفضت الحرارة إلى ٣٠٠٠ كلفن كما أنّ تضاءل طاقة الفوتونات وتقييد حركة الإلكترونات أدى إلى أن يصبح الكون شفافاً.

غامو لم يستطيع تفسير تكوّن العناصر الكيميائية الثقيلة في نموذجهِ، وهي نقطة الضعف التي استغلها عالم الكونيات الإنجليزي فريد هويل صاحب نظرية الحالة المستقرة للكون، فأطلق عام ١٩٥٠ م في تصريح له إذاعي اسم "Big Bang الانفجار العظيم" على سبيل السخرية والتهكم، لكنه الاسم الذي يحكي ما حصل فعلاً فاشتهرت به النظرية لاحقاً.

واصل جورج غامو تطوير نموذجهِ في نشأة الكون مفترضاً أنه مع تمدد الكون وانخفاض درجة حرارته نجحت الفوتونات في التحرر من المادة، وتنبأ بأنّ إشعاعاً - سمي لاحقاً بإشعاع الخلفية الكوني - ما زال يتردد كأثر باقي يحكي تلك الفترة الغابرة من ماضي الكون لما كان صغيراً وساخنًا ومكتظاً بالأشعة (الفوتونات)، وكلما ازداد تمدد الكون ازداد معه تمدد ذلك الإشعاع الكهرومغناطيسي ليعم أرجاء الكون، وبالتالي فهو إشعاع يمكن رصده. لهذا يمكن اعتبار ثبوت (أو عدم ثبوت) إشعاع الخلفية الكوني حداً فاصلاً بين

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٩٢.

نموذجي "غامو" أو "هويل" بعد أن كان كلا النموذجين يقبلان بتمدد الكون. وبالنسبة لمرحلة كفة غامو بعد اكتشاف الإشعاع بالفعل في عام ١٩٦٥ م حيث تمكّن الفيزيائيان الأمريكيان أرنو بنزياس وزميله روبرت ويلسون من كشف وتسجيل تلك الموجات الميكروية (قصيرة الطول) التي جاءت مطابقة لما تنبأ به غامو، ولاحقاً تم قياس درجة حرارته بدقة عالية فكانت (٢,٧٣ كلفن).

لكن مجرد اكتشافه لا يكفي لحسم النتيجة لصالح النموذج القياسي في تفسير نشأة الكون ما لم ينضم له إثبات أنّ درجة حرارته - أي إشعاع الخلفية - تزداد سخونة كلما عدنا إلى الماضي وبالتالي إثبات أنّ الكون كان أسخن وأصغر كما تفترضه نظرية الانفجار العظيم. وبالفعل هذا ما حصل، فمن خلال رصد غاز السيانوجين (المركب من الكربون والنيتروجين) في المجرات الأبعد والأصغر عمراً بطبيعة الحال لوحظ نشاطه واستثارته، وهذا يعني أنه مغمور بإشعاع ميكروي أكثر دفئاً من الموجود عندنا ^(١).

وهكذا حسم العلماء الأمر لصالح نظرية الانفجار العظيم.

صار من المؤكد - وفق نظرية الانفجار الكبير - أنّ الكون مرّ بسنة التطور الكونية، حيث ابتداءً بنقطة تفرد متناهية في الصغر وذات كثافة وحرارة عالية جداً قبل ١٣,٧ - ١٣,٨ مليار سنة، ثم تطور شيئاً فشيئاً إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم.

ومما يؤكد هذه الحقيقة: وفرة عنصر الهيدروجين في الكون، حيث يشكل (مع الهيليوم) النسبة الأكبر من المادة المقاسة في الكون؛ حصة الهيدروجين منها تفوق الهيليوم بعشر مرات بحسب بروفيسورة الكيمياء ماي نيمان May Nyman، وتضيف:

١- (وهذا تكون مركبات السيانوجين بمنزلة ترمومتر كوني. ونحن نرصدها في مجرات أبعد، ومن ثم أصغر عمراً، سنجدتها مغمورة في إشعاع خلفية كوني أدقاً من الموجود في مجرتنا؛ مجرة درب التبانة.... يوضح طيف السيانوجين في المجرات البعيدة أنّ الموجات الميكروية لها درجة الحرارة عينها التي نتوقعها في هذه الأوقات الكونية المبكرة، هذا أمر لا يمكن اختلاقه) البدايات، تايسون وسميث: ٤٦.

"إنَّ الأوكسجين يقع في المرتبة الثالثة ونسبته أقل بحوالي ١٠٠٠ مرة من الهيدروجين، وبشكل عام كلما ازداد العدد الذري قلَّت وفرة العنصر في الكون" (١).

والسبب المعقول لتفسير وفرة الهيدروجين هو القول بأنه العنصر الأقدم في الكون قبل وجود أي عنصر آخر، ولما كان يشكل أبسط العناصر الكيميائية على الإطلاق - فذرتة تتألف من (بروتون واحد وإلكترون واحد) فقط - فهذا يعني أنَّ كوننا سار من البساطة إلى التعقيد.

يقول السيد أحمد الحسن: (فبداية العناصر الذرية التي يتكوّن منها عالمنا كانت الهيدروجين ثم الهليوم والليثيوم ثم النجوم العملاقة التي كانت بمثابة مصانع عملاقة للمواد التي تمتلك تركيباً ذرياً أكثر تعقيداً، وبعد أن تطبخ الطبخة في النجم ينفجر النجم إذا كان كبيراً بما يكفي لينثر نتاج طبخته في الفضاء - والتي تتكوّن من عناصر أكثر ثقلاً وتعقيداً - بصورة كتل وصخور وركام وغبار وتتجمع بعضها لتشكيل كواكب وكويكبات ...) انتهى (٢).

وإني لأعجب حقيقة ممّن ينكر نظرية التطور على مستوى الحياة الأرضية وسير الكائنات الحية فيها من البساطة إلى التعقيد بعد أن كان الكون برمته خاضع لهذه السّنة الإلهية كما أكده النموذج القياسي في تفسير نشأة الكون.

يقول السيد أحمد الحسن: (معرفتنا ببدايات الكون إنما هي بالرجوع إلى الوراء والتاريخ السابق حاملين معنا معطيات الحاضر التي حصلنا عليها من المراقبة والقياس ومتسلحين بمعادلات وقوانين المادة المثبتة كمعادلة اينشتاين ونظريته النسبية الخاصة والعامة ونظرية الكم لبلائك، فما يطرحه علماء الكون والفيزياء النظرية في النموذج القياسي ونظرية الانفجار الكبير ومسيرة الكون وخصوصاً في دقائقه الأولى كثير منها أمور مبنية على قياسات دقيقة لما يحويه كوننا الحالي. نعم، نحن لم نعتدها في حياتنا اليومية ونعتبرها غريبة ربما ولكنها ليست خيلاً بل هي حقائق تحيطنا، فالثقوب السوداء التي

١- انظر: <https://ibelieveinsci.com/?p=36577>

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٩٤.

توقعت وجودها نظرية اينشتاين العامة تم رصد أثرها في الكون وأخيراً تم رصدها في القرن الواحد والعشرين بشكل دقيق ولم تعد مجرد احتمال تتوقعه نظريات علمية كنظرية اينشتاين، وبوزون هيكلز تم رصده في القرن الواحد والعشرين في مصادم الهادرونات، وهكذا بقية الجسيمات الكمية الأخرى في الفيزياء الحديثة التي بدأت مع نظرية الكم لماكس بلانك ونظرية اينشتاين النسبية ومعادلاته حول الطاقة والمادة. لم تعد الأمور كما اعتادها الناس، فلم يعد مفهوم الزمان والمكان كما كان ولم يعد جسم الإنسان قريباً لبقية الحيوانات والنباتات وتربطه بهم نفس الخريطة الجينية التي تشكّلت في بداية نشوء الحياة الأرضية فحسب بل أصبح الإنسان قريباً لكل صخرة وحجر وقطعة حديد وكل عنصر من عناصر المادة حتى وإن لم يحتويه الجسم الحي، فالكل مكوّنون من لببتونات ومن هادرونات مكونة من كواركات) انتهى (١).

(ويبدو أنّ كل ما نشاهده في عالمنا الأرضي أو السماوي مصنوع من اتحاد الإلكترونات والكواركات العليا والكواركات السفلى) (٢).

والخلاصة: إنّ الكون نشأ من انفجار عظيم، والنظرية مثبتة بأدلة علمية كثيرة منها ما هو مبني على المعادلات والأدلة الرياضية، ومنها ما هو مبني على الرصد والقياس، ولا زالت الاكتشافات العلمية تدعم النظرية التي تحظى اليوم باحترام جميع المحافل والجامعات العلمية العالمية. وإذا كان الكون نشأ بانفجار عظيم فهذا يؤكد بالقطع أنّ له بداية ابتداء منها، إذن فهو حادث ومتغير، وبمقتضى قانون السببية المتقدم لا بد للانفجار العظيم من سبب أوجده وبالتالي أوجد الكون كله، وهذا يكفينا حتى مع افتراض أنّ سببه موجود حادث؛ لأنه لا بد أن تنتهي سلسلة الأسباب بالنتيجة إلى سبب نهائي قديم غني بذاته وهو الله سبحانه.

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٥٠٣ - ٥٠٤.

- لببتون: جسيم أولي على عدة أشكال أشهرها الإلكترون.

- هادرون: جسيم أولي له عدة أشكال أشهرها البروتون والنيوترون، ويتألف من كواركات.

- كوارك: جسيم أولي أدق يؤلف من اجتماعه بكوارك آخر هادرون.

٢- الكون الأنيق، برايان غرين: ٢٢، ترجمة: د. فتح الله الشيخ.

هذا هو الموقف الصحيح للتعاطي مع النظريات العلمية المثبتة بالدليل العلمي القطعي، الموقف الذي يدعونا إلى قبول الحقيقة العلمية وفي نفس الوقت يمكننا من إثبات الحقيقة المطلقة (الله سبحانه)، وليس كما يفعل بعض المحسوسين على الدين فإنهم يتصورون أنهم برفضهم للنظريات العلمية المثبتة يكونون قد دافعوا عن دين الله، والحال أنهم أضروا به ضرراً بليغاً؛ لأنه سيكون من السهل جداً للعلم أن يثبت خطأهم وبالتالي خطأ الدين الذي يدعون تمثيله^(١)!

نعم، ربما يتصور بعض علماء الدين وعلماء الكونيات الملحدون أنّ تفسير وجود الكون على ضوء نظرية الانفجار العظيم مكّنهم من العثور على سبب وجوده، كما أنّ قوانين ميكانيك الكم^(٢) والجاذبية كافية لتفسير الانفجار العظيم، ولأن المعرفة (بحسبهم طبعاً) محصورة بهذا الكون المادي فلم تعد هناك حاجة لوجود "الإله"!

والحق، إنّ نظرية الانفجار العظيم لا تغني عن وجود "الإله" لعدة أسباب:

١. إنّنا نتحدث عن العلة الأصلية لوجود الكون، العلة التي يتصف وجودها بالغنى والقدم، ولا نتحدث عن السبب المباشر أو المتوسط الذي يتصف وجوده بالحدوث وتكون له بداية.
٢. النظرية أثبتت أنّ للكون بداية، إذن فهو حادث بما في ذلك الانفجار نفسه، وبذلك فهو بحاجة إلى سبب ومحدث قديم وإلا لما وجد أصلاً كما تقدم.

١- وكمثال لأجوبة بعضهم: هذا موقف مركز متخصص في الأبحاث العقائدية تابع لمرجعية دينية مشهورة من نظرية الانفجار العظيم؛ إذ ورد في إجابتهم عن النظرية:

(الاسلام لا يؤيد أصل النظرية التي تعزو حصول الكون الى سبب غامض لا علاقة للخالق تبارك وتعالى به. فالعشوائية التي على أساسها يفسر أصحاب هذه النظرية نشوء الكون ومن ثم انبثاق النظام عنه تتعارض مع التفسير الديني حسب ما ورد في مراحل خلق السماوات والارض في القرآن الكريم)

يمكن مراجعته على: <https://www.aqaed.com/faq/٥٤٤١>

٢- باختصار، ميكانيك الكم: هو مجموعة نظريات فيزيائية تختص بدراسة سلوك وخواص المادة والطاقة في المستوى الذري وما دون الذري (عالم الذرة والجسيمات الأولية للمادة). وقد اعتمدت جميع تلك النظريات - بشكل عام - على "نظرية الكم" للفيزيائي الألماني ماكس بلانك Max Planck، والتي أحدثت ثورة عملاقة في عالم الفيزياء وغيّرت ملامحه بشكل كبير. بل يمكن عدّها - مع نظرية النسبية العامة - حجر الأساس في البناء الفيزيائي الحديث. و"الكم": هو وصف لأصغر كمية ووحدة ممكنة (منفصلة لا متصلة) من الطاقة أو المادة.

٣. إنها أثبتت أنَّ الكون مقنَّن بدرجة فائقة جداً، والمقنَّن بحاجة إلى مقنَّن، وسنقف على شيء من التقنين لاحقاً.

يقول السيد أحمد الحسن في بيان خطأ التصور المتقدم:

(وذلك لأنَّ الأمر لابد أن يدور حول وجود السبب الأصيل أو العلة الأصيلية التي لا تحتاج إلى علة ففرض وجود قانون الجاذبية في البداية مثلاً يحتم وجود علة قبله أوجدته حيث لابد للجاذبية من جسيمات الكرافيتون أو أوتار الكرافتون حسب نظرية M^(١) وهذه الجسيمات أو الأوتار أو الأغشية لابد من سبب لوجودها وهكذا تستمر السلسلة، فإن وجدوا أنَّ سبب نشوء الكون عند الزمن صفر هو قانون الجاذبية فهذا لا يعني نفي وجود الإله بل هو يؤكد وجوده؛ حيث إنهم أثبتوا حدوث العالم المادي وأنَّ له بداية عند الانفجار الكبير وبدايته معتمدة على قوانين وهذه القوانين معتمدة على وجود يقننها، وهكذا فهم قد أثبتوا أنَّ السلسلة مستمرة إلى ما قبل الانفجار العظيم حتى تنتهي إلى العلة الأزلية وتتوقف، ونحن نقول: إنَّ هذه العلة الأزلية هي الله سبحانه) انتهى (٢).

و أيضاً: ربما يعتبر بعض الملحدین نظرية الانفجار العظيم سبباً لنفي وجود خالق من جهة الزمن، فبما أنَّ الزمان بدأ بالانفجار العظيم وقبل ذلك لا يوجد زمان إذن لا يحتاج الكون - بحسبهم - إلى خالق يوجده!

واضح أنه إشكال قائم على افتراض أنَّ (كل الوجود = الوجود الزماني)، مع أنه أمر غير ثابت علمياً، بل الثابت خلافه فنظرية الأكوان المتعددة مثلاً (٣) لا تفترض تقيّد بقية

١- نظرية - إم (M-theory) واحدة من الحلول المقترحة لنظرية كل شيء التي ينتظر منها أن تدمج نظريات الأوتار الفائقة الخمس مع الأبعاد الأحد عشر للثقالة الفائقة. قدمت النظرية من قبل "إدوارد ويتن" الذي صرح شخصياً بأنَّ هذه النظرية ما تزال تحتاج للكثير من العمل الرياضي وإيجاد أدوات رياضية جديدة لتطوير وإدراك مضامينها. انظر: ويكيبيديا - الموسوعة الحرة.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٦٣.

٣- طرح طالب دراسات عليا في جامعة برنستون Princeton الأمريكية اسمه هيو ايفرت Hugh Everett في رسالته العلمية للدكتوراه التي أشرف عليها عالم الفيزياء الشهير جون ويلر فكرة "الأكوان المتعددة"، وبرهن عليها رياضياً، وبالرغم من أنها نالت إعجاب جون ويلر (مشرف بحثه) إلا أنَّ الأخير لما عرضها على "نيلز بور" رفضها لمعارضتها لرأيه، لكن مع هذا نشرت الرسالة عام ١٩٥٧ م بعد إجراء الحذف والتعديل عليها، ولم يدري في فكر ايفرت - الذي

الأكوان والعوالم بالأبعاد الأربعة التي تحكم كوننا وعالمنا هذا، بل الأكثر من هذا إذ يمكن الاستغناء عن بُعد "الزمان" حتى في كوننا هذا (ولا أقل في لحظة بدايته) كما افترضه هوكنج في تصوير البداية اللاحدية للكون حيث جعله بُعداً مكانياً رابعاً كما سيأتي.

٢- إنَّ الزمان - في أحسن أحواله - بُعد رابع في هذا الكون المادي الذي نعيش فيه، ونحن لما نقول: "إنَّ للكون خالقاً" نقصد بذلك الإله الذي يتصف وجوده بالغنى المطلق والقدم فهو غير محدود بحد وخارج أطر الزمان والمكان وإلا لأصبح حادثاً.

يقول السيد أحمد الحسن عن الإشكال أعلاه: (هذا إشكال غير صحيح، حيث إنَّ الزمن هو أحد أبعاد الكون المادي الذي نعيش فيه والإله غير محدود ومطلق وهو قديم أزلي ليس له بداية فلا يمكن أن تقيده الأبعاد أو تحويه وإلا لأصبح حادثاً، بل حتى فيما يطرح علمياً بحسب نظرية الأكوان المتعددة فإنَّ الأكوان أو العوالم المفترضة الموازية لعالمنا لا يمكن أن تقيّد بنفس أبعاد عالمنا التي أحدها الزمن، ...) انتهى^(١).

دلالة قرآنية وروائية على نشوء الكون وتعدد الأكوان:

يقول السيد أحمد الحسن: (تنبيه: إنَّ ما توصّل له العلم الحديث إجمالاً له شواهد وأدلة في القرآن وفي روايات خلفاء الله الماضين صلوات الله عليهم، فالانفجار العظيم

توفي بعمر ٥١ سنة - ما كان يخبؤه الزمن لنظريته ونجوعها في حل أكثر من مشكلة فيزيائية (في ميكانيك الكم تحديداً) حتى شهد عام ٢٠٠٧ م الاحتفاء بالذكرى الخمسين لها على غلاف مجلة Nature العلمية.

وفي آخر مقال له قبل وفاته، أيد ستيفن هوكنج نظرية الأكوان المتعددة ورفض فكرة حصر الإنسان بكون واحد، قال: (لسنا محصورين في كون واحد فريد من نوعه، لكنَّ أبحاثنا أظهرت أن الأكوان المحتملة هي أقل بكثير مما يعتقده بعض الباحثين) تصريحه متاح على: <https://bit.ly/٢TeTYy٧>.

المؤيدون لنظرية "الأكوان المتعددة" عادة ما يعتبرونها أكوان متوازية ويشبهونها بفقاعات متجاورة وبمستوى وجودي واحد. لكن لا يوجد مبرر علمي يدعو لذلك، ولا أنَّ نفس الحسابات الرياضية التي قادت هيو ايفرت لاكتشافها تحصر مسألة تعدد الأكوان بـ "التوازي" والتجاور، وبالتالي فيمكن افتراض أنها مترتبة طولياً أي بعضها فوق بعض، ويكون ترتيبها بحسب رقي ودقة القوانين التي تحكم كل كون وعالم منها بحيث إنَّ الأعلى رتبة يكون مؤثراً في الأدنى منه بل ويعتمد عليه في وجوده كما أشار السيد أحمد الحسن لذلك، انظر: وهم الإلحاد: ٥٤٨.

وتوسع الكون الجسماني الذي نعيش فيه مبين في القرآن، قال تعالى: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" أي: إِنَّ السماء بنيت "بأيدي" والمعنى: إِنَّ هناك عللاً وأسباباً سببها الله هي التي بنت السماء، والسماء في توسع، وهذا ما أكدته الأرصاد والمشاهدات للمجرات من حولنا؛ حيث إنها تتباعد متسارعة بحسب ظاهرة دوبلر وغيرها من الأدلة على توسع الكون التي تعرفنا عليها فيما تقدم من الكتاب.

والخلق الذين سبقوا آدم على هذه الأرض والحياة في الكواكب الأخرى والأكوان المتعددة كل هذه الأمور بيّنها آل محمد عليهم السلام بتفصيل جيد منذ أكثر من ألف عام، وهذه بعض الروايات لمن يريد معرفة الحقيقة ومعرفة فضل محمد وآل محمد، وأيضاً هي معجزة إخبارات غيبية أثبتتها إجمالاً العلم الحديث، فللملحدين أن يتبينوا الحقيقة إذا كانوا فعلاً يطلبون معرفة الحقيقة، وأظن أَنَّ العاقل يعمل ويحتاط لدفع الضرر المحتمل فكيف إذا أصبح الضرر شبه مؤكد!

أظن أَنَّ تطابق أقوال آل محمد عليهم السلام مع نظريات وحقائق العلم الحديث تدفع العاقل إلى أن يبحث ويدقق فيما هو فيه، أما غير العاقل فشأنه يفعل ما يشاء.

.....) انتهى (١).

١- نقل السيد أحمد الحسن عدة روايات بهذا الشأن، منها:

- الإمام الباقر عليه السلام: "..... وتري أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين" التوحيد، الصدوق: ٢٧٧؛ وذكره أيضاً في "الخصال".

- الإمام الصادق عليه السلام: "إن الله عز وجل اثني عشر ألف عالم؛ كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن الله عز وجل عالماً غيرهم وأنا الحجة عليهم" الخصال، الصدوق: ٦٣٩.

- الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال لمنجم: "هل أدلك على رجل قد مرّ من دخلت علينا في أربع عشر عالماً؛ كل عالم أكبر من الدنيا ثلاث مرات لم يتحرك من مكانه؟ قال: من هو؟ قال: أنا" بصائر الدرجات، الصغار: ٤٢٠ - ٤٢١.

- الإمام الصادق عليه السلام قال عن نفسه أنه: "يسير في ساعة من النهار مسيرة شمس سنة حتى يقطع اثني عشر ألف مثل عالمكم هذا ما يعلمون أن الله خلق آدم ولا إبليس، قال: فيعرفونكم؟ قال: نعم، ما افترض عليهم إلا ولايتنا والبراءة من عدونا" نفس المصدر، انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٦٧ - ٥٦٨.

ما بعد الانفجار العظيم وصولاً إلى تشكّل كوكب الأرض:

نشأ الكون إثر انفجار كبير في "نقطة تفرد" ذات كثافة وحرارة عالية لا متناهية قبل حوالي ١٣,٨ مليار سنة. وهي ظروف لا تنطبق عليها قوانين الفيزياء الحالية بسبب أنّ قوى الطبيعة الأربعة الأساسية (الجاذبية، الكهرومغناطيسية، النووية القوية، والضعيفة) كانت جميعها متحدة في قوة واحدة أساسية. وبعد (١٠^{-٤٣})^(١) من أجزاء الثانية انخفضت حرارته إلى درجة مكّنت قوة الجاذبية من الانفصال عن بقية القوى، ومن هذه اللحظة بالذات صار بإمكان الفيزياء أن تقدم تفسيراً للأحداث المتعاقبة بالاعتماد على النسبية العامة ونظرية الكم لتفسير القوى الثلاثة التي لا زالت متحدة.

بعد زمن بلانك تواصلت حرارة الكون بالانخفاض ووصلت حدّاً مكّن القوة النووية الكبرى من الانفصال، رافق ذلك تدفق هائل للطاقة بدأت معه مرحلة تضخم الكون وتمدده بسرعة فائقة، ولم تكن المادة التي نعرفها موجودة بعدُ وإنما كانت مكوناته عبارة عن جسيمات وجسيمات مضادة^(٢). أي كواركات ولبتونات ومضاداتها وبوزونات^(٣)، لكن هناك تفوّق دائماً لجسيمات المادة على المادة المضادة بمقدار واحد بالمليار، فمثلاً مقابل فناء مليار زوج من "كوارك وكوارك مضاد" يبقى في الكون كوارك واحد وهكذا، ومع أنّ هذا التفوق للمادة - بالنسبة المحددة (واحد بالمليار) - هو السبب في وجود الكون الذي نشاهده بكل ما فيه من مجرات وكواكب ونجوم بما في ذلك أجسامنا نحن كبشر، لكن

١- وهو المعروف فيزيائياً بـ "زمن بلانك"، وهو رقم ١ وعلى شماله ٤٣ صفراً بعد الفاصلة العشرية.

٢- المادة المضادة، باختصار: هي نفس المادة المعروفة لكنها تخالفها في الشحنة.

٣- كل الجسيمات المعروفة في الكون تنقسم بحسب دوراتها المغزلي (حول نفسها) إلى:

- فرميونات: وهي الجسيمات التي تصنع المادة في الكون.

- وبوزونات: وهي الجسيمات التي تنشأ عنها القوى بين جسيمات المادة.

انظر: تاريخ موجز للزمان، هوكنج: ٦٨.

ينتهي إلى الفرميونات: الإلكترون والبروتون والنيوترون، وكذلك مضاداتها.

وينتهي إلى البوزونات: الفوتون (جسيم الضوء وناقل الطاقة) والغلوون (مسؤول عن ربط الكواركات فيما بينها) وبوزون W و Z (ناقلة القوة النووية الضعيفة) وبوزون هيغز (مسؤول عن اكتساب المادة لكتلتها) والجرافيتون (ناقل قوة الجاذبية).

العلماء (ربما لسبب مقصود بالنسبة إلى بعضهم) لم يستطيعوا تفسير سبب هذا التفوق وبهذه النسبة بالذات!

وبعد جزء من المليون جزء من الثانية برد الكون أكثر وتمكّنت الكواركات من الاتحاد مع بعضها بفعل القوة النووية القوية لتكوين جسيمات مادية أثقل تسمى الهادرونات (البروتونات والنيوترونات)، ومقابلها تكوّنت هادرونات مضادة مع تفوق للمادة على مضاداتها بنفس النسبة المتقدمة (واحد بالمليار). ومع نهاية الثانية "الثانية" وبداية "الثالثة" من عمر الكون كانت سخونته وطاقة فوتوناته كافية لإنتاج إلكترونات ومضاداتها (بوزيترونات)، بتفوق بنسبة واحد بالمليار لصالح الإلكترون أيضاً. وبهذا يكون الكون قد توفر على البروتون والنيوترون والإلكترون وهي البنى الأساسية للذرات.

وبعد أقل من ١٠٠ ثانية من عمر الكون - واستمرار تمدّده وانخفاض حرارته - تمكّنت الهادرونات من الالتحام مع بعضها لتبدأ مرحلة التخليق النووي الابتدائي الذي وصفه "غامو" - سابقاً - لتشكيل نوى العناصر الخفيفة كالهيدروجين والهيليوم. غير أنّ أولى الذرات لم تتكوّن إلا بعد مضي ٣٨٠ ألف سنة من عمر الكون عندما بلغت درجة حرارته ٣٠٠٠ كلفن وضعفت طاقة الفوتونات التي كانت تحول دون ثبات الإلكترونات حول النوى الذرية بسبب شدة التصادم بها، وبسبب تقييد حركة الإلكترونات في الذرات والسماح للفوتونات بالتحرك بحرية أصبح الكون شفافاً ويسمح بالرؤية^(١).

بدا الكون في أولى مراحل نشأته مليئاً بسحابات الهيدروجين والهيليوم الموزعة في أرجائه. وبمرور الزمن بدأت قوة الجاذبية بإحداث اضطرابات على هذه السحب مكّنت من تفتيتها إلى شظايا صغيرة، لتتأثر حول بعضها مكونة أجساماً أكبر شيئاً فشيئاً. وتكونت

١- (ومع تمدد الكون انخفضت الطاقة التي يحملها كل فوتون. وفي النهاية، حين وصل عمر الكون إلى ٣٨٠ ألف عام، انخفضت درجة حرارته لما دون الثلاثة آلاف درجة، وكان من نتيجة ذلك أن تمكّنت البروتونات وأنوية الهيليوم من اقتناص الإلكترونات بشكل دائم، وبهذا ظهرت الذرات إلى الوجود. في الحقب السابقة على ذلك كان كل فوتون يتمتع بطاقة كافية لتمزيق أي ذرة حديثة التكون إرباً، لكن الآن فقدت الفوتونات هذه القدرة، وذلك بفضل التمدد الكوني) البدايات، تايسون وسميث: ٤١.

أولى النجوم بعد حوالي ١٠٠ مليون سنة من بداية الكون، وداخل النجوم تشكلت نوى العناصر الكيميائية الأثقل.

أما تشكل كوكب الأرض، فلم يحصل إلا بعد مرور ما يزيد على ٩ مليارات سنة من بداية نشوء الكون وحدث الانفجار العظيم، فقد حدّد العلماء عمر الأرض بـ ٤,٦ مليارات سنة، لكن هذا لا يعني إمكانية ظهور الحياة فيها، وإنما احتاجت إلى مرور مليارات سنة أزيد حتى تبرد وتصلح لأن تكون موطناً لظهور أولى طلائع الحياة عليها^(١).

أطروحة البداية اللاحدية للكون والمبدأ الإنساني:

أن يكون للكون بداية - كما تفترضه نظرية الانفجار العظيم - يعني أنه حادث، وكل حادث لابد له من محدث وموجد أظهره من العدم. وهذه النتيجة - كما هو واضح - تلتقي تماماً مع الاعتقاد بوجود "إله" كما عرفنا.

عرفنا أيضاً أنّ النموذج القياسي يفترض أنّ الكون نشأ من انفجار كبير لـ "مفردة" متناهية في الصغر ذات كثافة وحرارة لا متناهية، ولأن هذه المفردة تنهار عندها قوانين الفيزياء المعروفة كما يصرح علماء الكونيات، فالانطلاق منها - والحال هذه - لتوقع (ما بعدها) أو السؤال (عما قبلها) لا يأتي بنتيجة علمية دقيقة، وهذا يعني أنّ بداية الكون غير محكومة بقوانين العلم؛ الأمر الذي يشكل عثرة خصوصاً بالنسبة لمنظري الإلحاد الذين أزعجهم - بكل تأكيد - بقاء نتيجة نظرية الانفجار العظيم على ما هي عليه أعني أن يكون للكون بداية. لهذا حاول الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكينج أن يصوّر بداية للكون تحافظ - من جهة - على المعطى العلمي (الانفجار العظيم) في تفسير نشأة الكون، ومن

١- (يؤمن أغلب علماء الحفريات بأنّ الحياة ظهرت على الأرض منذ ما لا يقل عن ٣ مليارات عام، ومن الممكن أن تكون ظهرت بالفعل منذ ٤ مليارات عام، في خلال أول ٦٠٠ مليون عام بعد تكوّن كوكب الأرض. يستند استنتاجهم إلى افتراض منطقي بشأن الكائنات الأولية. فمنذ أقل من ٣ مليارات عام مضت بقليل بدأت كميات وفيرة من الأوكسجين في الظهور في الغلاف الجوي للأرض. ونحن نعلم هذا من واقع السجل الجيولوجي للأرض بشكل مستقل عن أي بقايا للحفريات، ...) البدايات، تايسون وسميث: ٢٠٢.

جهة أخرى تصور بداية للكون لا يكون فيها محتاجاً إلى فرض وجود إله ليبدأ، وهي التي أسماها في كلماته بـ "بداية لا حدية".

بحسب هوكنج بدل أن يكون لبداية الكون تاريخ واحد سيكون له عدة تواريخ بعدد الاحتمالات والأكوان المحتملة تماماً كما ذكر فاينمان Feynman^(١)؛ منها تاريخ كوننا الذي وجدنا أنفسنا فيه، على أن تلك التواريخ ليست مستقلة عن بعضها البعض، وتشخص كوننا من غيره يعتمد على المشاهدة والقياس^(٢).

وأما سبب تعيينه لنا من بين بقية الأكوان الأخرى فلأنه الكون الوحيد الصالح لنوجد ونعيش فيه ونشاهده، ولو لم يكن لما وجدنا نحن وبالتالي ما كان هناك أحد يرصده ويشاهده، وهو ما يعرف بالمبدأ الإنساني في نشأة الكون، يقول هوكنج:

(وبالتالي سيكون لدينا وفرة فائقة من الأكوان الممكنة، ما الذي يتخبر بالذات الكون الذي نعيش فيه من بين سائر الأكوان الممكنة كلها؟ إحدى النقاط المهمة التي يمكن لنا أن نلاحظها هي أن الكثير من التواريخ الممكنة للكون لن تمر بالسلسلة المتعاقبة التي تتشكل فيها المجرات والنجوم، وهي سلسلة ضرورية لنشأتنا نحن. وإذا كان من الجائز إمكان تطوركائنات ذكية من غير مجرات ونجوم، إلا أن هذا يبدو من غير المرجح. ومن ثم، فإن حقيقة أننا موجودون ككائنات نفسها تتساءل "لماذا يكون الكون بما هو عليه؟" لحي قيد على التاريخ الذي نعيش فيه. فهي تتضمن أنه واحد من التواريخ قليلة العدد التي فيها مجرات ونجوم. وهذا مثل ما يسمى المبدأ الإنساني. ويقول المبدأ الإنساني إن الكون يجب أن يكون تقريباً كما نراه، لأنه لو كان مختلفاً لما وجد أحد ليلاحظه. يكره علماء كثيرون المبدأ الإنساني لأنه يبدو غامضاً نوعاً، كما لا تظهر له قدرة كبيرة على التنبؤ. إلا أن المبدأ

١- رتشارد فاينمان (١٩١٨ - ١٩٨٨ م)، فيزيائي أمريكي، صاحب نظرية ما يعرف بـ "التواريخ البديلة" أو "مخطط فاينمان" والذي يعني أن الجسم في حركته وتأثره يسلك كل احتمالات المسار الممكنة عند عدم الرصد.

٢- يقول هوكنج: (فالتواريخ "الأحداث" التي تسهم في محصلة فينمان ليس لها وجود مستقل، لكنها تعتمد على ما تم قياسه. ونحن نخلق التاريخ "الأحداث" من خلال ملاحظتنا "مشاهدتنا"، بدلاً من أن التاريخ "الأحداث" هو الذي يخلقنا) التصميم العظيم: ١٦٩ - ١٧٠.

الإنساني يمكن أن تعطى له صياغة دقيقة، ويبدو أنه مبدأ أساسي عند تناول أصل الكون^(١).

ويقول أيضاً: (الأحداث التي تساهم في نظرية فينمان ليس لها وجود مستقل عن بعضها لكن تعتمد على ما تم قياسه. نحن نخلق الأحداث من خلال مشاهداتنا وليس الأحداث هي التي تخلقنا)^(٢).

بهذا يظن هوكنج أنه صوّر بداية للكون غير حدية ومستغنية عن الرب!

من جهته، رد السيد أحمد الحسن على طرح هوكنج بشكل مفصل ودقيق في كتابه "وهم الإلحاد"، وما يهمننا منه الآن هو الإشارة إلى أنّ هوكنج اضطر إلى إدخال المشاهد الذي (الإنسان) في معادلة نشوء الكون دون أن يلتفت إلى أنّ نفس هذا الإدخال يثبت وجود الله ويجعل الإنسان هدفاً وقيمة عليا في الكون، كما أشار لذلك السيد أحمد الحسن في نقاشه لأطروحة ستيفن هوكنج.

وهذا بعض ما ورد في نقاشه لأطروحة البداية اللاحدية:

١- مجرد افتراض أنّ الأكوان والاحتمالات البديلة لكوننا تزول بالرصد والمشاهدة كما افترض هوكنج، فإنه يعطي قيمة وأهمية للمشاهد الذي (الإنسان) لا تتناسب مع متبنيات التنظير الإلحادي الذي يرى نشوء الكون بصورة تلقائية دون أن يكون هناك أي هدف أو حكمة معينة من وجوده. هذا، ولكن إعطاء كل تلك الأهمية للمشاهد تجعل منه محوراً وشرطاً وهدفاً لوجود الكون!

يقول السيد أحمد الحسن: (وبالتالي فمقولة هوكنج المتقدمة "نحن نخلق الأحداث من خلال مشاهداتنا وليس الأحداث هي التي تخلقنا"، لا تنفعه في إثبات أنّ الكون ليس

١- الكون في قشرة جوز، هوكنج: ٨٤ - ٨٥.

٢- التصميم العظيم، هوكنج: الفصل السادس.

بحاجة لإله؛ لأنها باختصار جعلتنا شرطاً لوجود الكون بأسره أي إنّ الكون وجد لأجلنا أي إنّنا هدف وهناك هادف) انتهى^(١).

٢- بالنسبة للمبدأ الإنساني في تفسير نشأة الكون، فهو من جهة لا يفسر سبب ترجيح ظهور كوننا بالذات دون باقي الأكوان الأخرى، ومن جهة ثانية يعقد الأمر على من ينكر وجود الإله وتدخّله في إيجاد الكون، لأنه - أي المبدأ الإنساني - ينتهي إلى نتيجة أنّ الكون لا معنى له بدون وجودنا نحن، وهذا يعني أننا هدف الكون وواضح أنّ وراء كل هدف هادف أراد ذلك، وهذا يهدم غرض هوكنج الإلحادي تماماً.

يقول السيد أحمد الحسن: (أما المبدأ الإنساني فلا يحل إشكال ظهور كوننا بالذات، بل ربما يعقد الأمر أكثر بالنسبة لمن يريدون إنكار وجود الإله وتدخّله في إيجاد الكون؛ حيث إنّ المبدأ الإنساني يجعل وجودنا الأهم على مستوى الكون ككل ويجعلنا هدف وجود الكون الأول، وهذا يثبت وجود الإله. فلأننا هنا ولأننا أذكاء ونرصد، ماذا نفهم منها مثلاً؟!

وفي كل حال، فإنّ أي فرض يجعل لوجودنا أثراً فيما نرصد أي في حالتنا هذه رصدنا مؤثر في الكون نفسه ستكون النتيجة المستخلصة منه أنّ الكون لا معنى لوجوده بدون وجودنا نحن الذين قمنا برصده؟! وسيكون هذا الأمر بحد ذاته دلالة واضحة على أنّ الكون وجد من أجلنا؟! انتهى^(٢).

ملاحظة: كلام هوكنج المتقدم "نحن نخلق الأحداث من خلال مشاهداتنا وليس الأحداث هي التي تخلقنا" يؤكد أنّ عملية الرصد التي يقوم بها المشاهد الذكي للكون هي السبب في خلقه ووجوده، وهو صحيح لو أريد بذلك جعل المشاهد هدفاً لوجود الكون (أي لولاه لما وجد الكون)، وأما من يعتبر المشاهد سبباً وجودياً للكون (أي أوجد الكون) - كما قد توهمه كلمات بعضهم - فكلامه غير صحيح.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٤٧.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٤٧.

نسبة تفوق المادة على المادة المضادة:

المادة المضادة هي نفس المادة العادية ولكنها تحمل شحنة مغايرة لها، فمثلاً الإلكترون يحمل شحنة سالبة والمضاد له (البوزيترون) يحمل شحنة موجبة، وهكذا يوجد لكل جسيم في الكون جسيم مضاد له يخالفه في شحنته ^(١)، تماماً كصورتك في المرآة التي تعكسك أنت ولكن اليمين سيصبح يساراً فيها ^(٢).

المادة المضادة لها نفس ما للمادة العادية من كتلة، وتستجيب للجاذبية حالها حال المادة، والفرق فقط في مخالفتها في الشحنة كما قلت، لذا فعند تصادم المادة مع المادة المضادة يفنيان معاً ويطلقان طاقة هائلة تتناسب مع كتلتهما بحسب قانون أينشتاين في النسبية الخاصة.

نظرياً، كان يجب أن تكون كمية المادة والمادة المضادة متساوية بعد حدوث الانفجار العظيم، لكن المادة - بالنتيجة - هيمنت على الوجود في كوننا على نظيرها المضاد بفضل نسبة تفوق يحددها العلماء بـ (واحد بالمليار) لصالح المادة على المادة المضادة، أي مقابل فناء كل زوج من مادة ومادة مضادة ينجو جسيم واحد من المادة، ولم يتمكن العلماء إلى الآن من تفسير هذا اللغز المحير بالنسبة لهم ^(٣).

١- بما في ذلك النيوترون، فمعروف أن شحنته صفرية (لا هي سالبة ولا موجبة) وكذلك المضاد له يكون صفرية الشحنة، لكنهما يتكونان من كواركات تحمل شحنات متخالفة فيما بينها.

٢- أول من تنبأ بوجود المادة المضادة الفيزيائي البريطاني بول ديراك Paul Dirac في عام ١٩٢٨ م عند محاولته دمج معادلاتي نظرية النسبية الخاصة ونظرية ميكانيك الكم لوصف طاقة الإلكترون فرأى أنها كما تعطي نتائج موجبة تعطي نتائج سالبة أيضاً، ثم اكتشف الفيزيائي الأمريكي كارل أندرسون Carl Anderson مضاد الإلكترون وسعي (بوزيترون) في عام ١٩٣٢ م. وفي عام ١٩٥٥ م اكتشف الفيزيائي الأمريكي أوين تشامبرلين Owen Chamberlain مضاد البروتون، وهكذا توالى اكتشافات جسيمات المادة المضادة، انظر:

<https://www.arageek.com/٢٠١٦/٠١/١٤/facts-about-antimatter.html>

٣- يقول هوكينج: (لماذا ينبغي أن يكون هناك كواركات هكذا أكثر كثيراً من مضادات الكواركات؟ لماذا لا يوجد عدد متساوٍ من كل؟ من المؤكد أنه من حسن حظنا أن الأعداد ليست متساوية؛ لأنها لو كانت متماثلة فإن ما يقرب من كل الكواركات ومضاداتها كانت سيفني أحدها الآخر في الكون المبكر لتترك كوناً مليئاً بالإشعاع ولا يكاد يحوي أي مادة، ووقتها لن يكون ثمة مجرات أو نجوم أو كواكب يمكن أن تنشأ عليها حياة بشرية) تاريخ موجز للزمان: ٧٥.

و أيضاً هم يسعون لفهم سبب بقاء الكون المادي وعدم تدميره لنفسه بسبب تصادم المادة والمادة المضادة الذي كان من المفترض أن يحدث فيه ^(١).

علمياً، ليس ثمة شك عند العلماء بوجود المادة المضادة، لكن بقاء المادة في كوننا وعدم فنائها بسبب المادة المضادة كما كان منتظراً يؤشر إلى أنّ الأخيرة قد تكون موجودة في نطاق آخر بعيد أو مفصول بطريقة ما عنا!

يقول السيد أحمد الحسن: (ولهذا فمن المنطقي جداً أن يفترض وجود مادة مضادة في أحد أطراف الكون ربما في زاوية بعيدة عن المادة التي نراها حيث إنّ المادة المضادة لو كانت موجودة ضمن نفس نطاق المادة وحدث اصطدام بين كتلة من المادة وأخرى من المادة المضادة بحدود حجم أحد النجوم فإنّ الطاقة المتولدة من تفانيهما ستكون عالية جداً بحسب قانون اينشتاين $E = mc^2$ ربما يمكن أن تقدّر بأنها تعادل طاقة مليارات النجوم. وطاقة بهذا القدر تنطلق في وقت واحد حتماً يمكن ملاحظتها حتى وإن كانت في أبعد المجرات خصوصاً مع التقدم الكبير في علم الفلك، ولهذا فلو كانت المادة المضادة موجودة فلا بد أنها في زاوية أخرى من الكون غير الزاوية التي تقبع بها عنا قيد المجرات المادية التي نراها ونعرفها ونعيش في أحدها) انتهى ^(٢).

مهم أيضاً أن نعرف أنّ جسيمات المادة المضادة تهطل باستمرار على الأرض ولكنها بكميات قليلة جداً، كذلك توجد مصادر إنتاج قريبة منا فمثلاً ينتج الموزمادة مضادة (١) بوزيترون) كل ٧٥ دقيقة تقريباً نتيجة احتوائه على بوتاسيوم ٤٠ (أحد نظائر البوتاسيوم)، ولأنّ أجسامنا يوجد فيها هذا النظير (بوتاسيوم ٤٠) فربما نحن أيضاً ننتج

١- (يبدو الكون اليوم في حالة مقلقة من عدم التوازن؛ فنحن نتوقع أن تُخلّق الجسيمات والجسيمات المضادة بأعداد متساوية، لكننا نجد الكون بأسره تهيمن عليه الجسيمات العادية، التي تبدو مستقرة تماماً دون الجسيمات المضادة. هل هناك جيوب خفية من المادة المضادة في الكون تفسر عدم التوازن هذا؟ هل انتهك أحد قوانين الفيزياء أو تسبب في هذا الوضع قانون فيزيائي غير معروف؟ إبان مرحلة الكون المبكر، بحيث تسبب في ترجيح كفة المادة العادية على المادة المضادة إلى الأبد؟ قد لا نعرف إجابات هذه الأسئلة) البدايات، تايسون وسميث: ٣٩.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥١٦.

مادة مضادة ونطلقها للخارج لكنها سرعان ما تفنى بسبب المادة، فالمادة المضادة إذن أقرب لنا مما نتصور^(١).

حقاً نحن موجودات فقيرة، ولا أقل من جهة أننا نحمل عدماً معنا!

وبالنتيجة، فإن نسبة التفوق (واحد بالمليار) لصالح المادة على المادة المضادة كانت السبب في دوام الكون وبلوغه ما هو عليه، وأكد أنها (أي النسبة المذكورة) واحدة من بين احتمالات كثيرة جداً يصعب وضع رقم يحصيها؛ ومع هذا تم انتخابها، وهو دليل يؤكد أن وراء الكون مقنناً لا سيما وأنها الخيار الوحيد الذي يسمح بدوام الكون واستمرار نشوء المجرات والكواكب وصولاً إلى نشوء الحياة الأرضية فيه بعد مليارات السنين من بداية نشوء الكون!

ضبط الثابت الكوني (لامدا = λ):

بعد أن وضع ألبرت آينشتاين نظرية النسبية العامة، كان يعتقد - كبقية علماء عصره - أن الكون ثابت ولا يتمدد، وكون هذه صفته أكيد أنه سينكمش وينهار على نفسه بمرور الوقت بفعل الجاذبية، فحتى لا ينهار على نفسه اضطر لوضع مضاد لها أسماه بـ "ثابت كوني"، وهو تصحيح رياضي يمثل كثافة طاقة موجودة في الكون (وتحديداً في الفراغ الخالي من المادة والطاقة المرئية) تعمل بالضد من تأثير الجاذبية مما يجعل الكون ثابتاً^(٢).

ولفترة مؤقتة، استغنى العلماء عن الثابت الكوني بعد إثبات تمدد الكون وتمكّنهم من حل معادلات آينشتاين في النسبية العامة بدون فرض وجوده، لكنهم فكّروا بجدية في عودته مرة أخرى في عام ١٩٨٠ م بعد اكتشاف تمدد الكون بتسارع وهي الظاهرة المعروفة

١- انظر:

<https://nasainarabic.net/education/articles/view/ten-things-you-might-not-know-about-antimatter>

٢- الثبات هنا لا يقصد به السكون وعدم التحرك، فلا شك أن كل ما في الكون يتحرك، لكن المقصود أنه يتوسع مع الحفاظ على نفس النسبة أي أن متوسط المسافة بين أجسام الكون تبقى كما هي مع توسعه.

بـ "التضخم الكوني". ثم استقروا أخيراً في عام ١٩٩٨ م على ضرورة وجود الثابت الكوني للطاقة المظلمة التي تشكل الغالبية العظمى من مساحة الكون، فهي التي تقاوم جاذبية المادة الكونية وتسمح للكون بالتمدد بشكل متسارع^(١).

من جانب آخر: النتيجة التي انتهى إليها علماء الفيزياء الكونية والفلك هي أنّ كوننا يتمدد بشكل مسطح (النموذج الثالث من نماذج فريدمان المتقدمة)، والكون المسطح يعني أنه صفري التقوس^(٢). ومن الواضح أنّ الكون مؤلف من مادة وطاقة (بما في ذلك الطاقة المظلمة) ونسيج زمكان، وهناك "كثافة فعلية" للمادة والطاقة الموجودة في الكون، وأيضاً هناك "كثافة حرجة" تسمح بأن يكون الكون صفري التقوس لا غير^(٣).

على هذا، ولكي نحافظ على كوننا المسطح فمن المتوقع - نظرياً - أن يكون الثابت الكوني المعبر عن الطاقة المظلمة "رقماً معيناً" يحافظ على المعدل الصفري بين الكثافتين، لكن وبسبب حجم وكثافة الطاقة المظلمة في الكون فالحاصل فعلاً أنّ الثابت الكوني (المعوض لها) رقم كبير جداً ربما يؤدي إلى انهيار الكون بعد فترة قصيرة من انطلاقته؛ حيث إنّ كثافة الكون الفعلية ستكون أكبر بكثير من الكثافة الحرجة بسبب كتلة الطاقة المظلمة التي تشكّل أغلب مساحة الكون، وبالتالي فليس فقط لا يستمر كوننا بالتمدد بشكل مسطح وإنما سينهار بوقت زمني قصير قبل أن يسمح بتشكّل النجوم والمجرات وظهور أي حياة، هذا ولكننا لا زلنا نرى الكون موجوداً ولا زال يتمدد بتسارع!

يقول السيد أحمد الحسن: (وهذا يعني أنّ الثابت الكوني بمقداره الحالي المناسب لظهور الحياة في الكون دليل على أنّ الكون مقنّن لتظهر فيه الحياة؛ لأن احتمالات الثابت الكوني كثيرة جداً، ومن غير المعقول أن يصادف دون قصد مسبق أن يكون الثابت الكوني

١- انظر: مشكلة الثابت الكوني، مجلة Skeptical Briefs، المجلد ٢١، ١، ربيع ٢٠١١ م.

٢- في قبال موجب التقوس (سطح كرة)، وسالب التقوس (سرج حصان)، كما تقدم.

٣- الكثافة الفعلية للكون إن كانت أكبر من الكثافة الحرجة فهذا يعني أنّ الكون موجب التقوس كسطح كرة، وإذا كانت الكثافة الفعلية أقل من الكثافة الحرجة فهذا يعني أنّ الكون سالب التقوس كسرج حصان، أما إذا تساوت الكثافتان فهذا يعني أنّ الكون صفري التقوس وهو كون مسطح سيستمر تمدده لكنه يتباطأ بمرور الزمن ولن يكون صفراً، انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٢٠، فما بعد.

بحسب المشاهدات الكونية أصغر بكثير مما هو متوقع نظرياً، وبالتالي يكون مناسباً لتشكيل المجرات والنجوم والكواكب وظهور الحياة) انتهى^(١).

بعض الفيزيائيين أمثال ليونارد سوسكايند leonard suskind (صاحب نظرية الأوتار) في كتابه "The Cosmic Landscape" يعتقد أن احتمال تحقق ثابت كوني بقيمة تسمح بنشوء الكون والحياة كما هي الآن تساوي ١ من ١٠^{١٢٢} (رقم ١ وعن يمينه ١٢٣ صفراً)، وهو احتمال ضئيل جداً بحيث إن إمكانية تحقيقه بـ "الصدفة" أمر بعيد جداً بل يكاد يكون مستحيلاً ولا يمكن تحقيقه إلا بمعجزة مقصودة!

لغز ضبط الثابت الكوني الذي حير العلماء حاولوا تفسيره بأمور:

- منها: افتراض أن هناك أكواناً متعددة غير متصلة ببعضها نشأت باحتمالات وانفجارات كثيرة، وكوننا هو أحدها تشكّل بثابت كوني يناسبه ويسمح بظهور الحياة فيه بخلاف أغلب الأكوان الأخرى^(٢).

لكن تعليل ضبط الثابت الكوني بالأكوان المتعددة لا يصح بدون افتراض وجود جهة مقننة هادفة قامت بضبطه وتهدف إلى وجود الإنسان!

يقول السيد أحمد الحسن: (يفترض من يعللون ضبط الثابت الكوني بمسألة الأكوان المتعددة أن هذه الأكوان في نفس المستوى وأنها تعود بأجمعها لأصل واحد أو كما يصورونها دائماً مثل فقاعات تخرج من قدر ماء يغلي، ونحن يمكن أن نفترض - وهو ما نعتقد - أنها أكوان متعددة ولكن في مستويات مختلفة وبعضها صدر من بعض، فالأدنى مستوى صدر من الكون الأعلى منه في المستوى، وهذه الأكوان يؤثر بعضها في بعض. وبحسب هذا الفرض يمكن أن نعلل ظهور التفاوتات الكمومية في الفراغ بالنسبة لكوننا،

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٥٢٧.

٢- يقول هوكنج: (إن الضبط الدقيق في قوانين الطبيعة يمكن تفسيره بوجود الأكوان المتعددة. ... فإن مفهوم تعدد الأكوان يمكنه أن يفسر الضبط الدقيق للقانون الفيزيائي دون الحاجة لوجود خالق محسن يقوم بخلق الكون لمصلحتنا) التصميم العظيم، هوكنج: ١٩٨.

ولكن لا يمكن أن نعلل ضبط الثابت الكوني إلا أن يكون هناك من قام بضبطه وهو يهدف إيجاد الكون، وبالتالي يثبت وجود إله يريد إيجادنا.

ولا يوجد علمياً ما يرجح فرض أن الأكوان المتعددة في مستوى واحد على ما افترضناه من أنها ليست في مستوى واحد، بل ربما التفاوتات الكمومية في الفضاء ترجح فرض أن الأكوان في مستويات مختلفة؛ حيث إن هذه الكموم تمثل الجسيمات الأولية التي صدر منها كوننا، فإذا كانت من تأثير كون آخر فهي بالتأكيد من تأثير كون صدر منه كوننا، وهذا يؤيد أن الأكوان المتعددة ليست في مستوى واحد ومن أصل واحد بل هي في مستويات مختلفة وصدر بعضها من بعض، وكل كون له مصدر يختلف عن الأكوان الأخرى وبالتالي فإن له حيثيات خلق ووجود وتركيب تختلف، وهذا يجعل الأكوان المتعددة غير صالحة لتعليل ضبط الثابت الكوني) انتهى^(١).

أضف إليه: إنَّ تعليل ضبط الثابت الكوني بالأكوان المتعددة بالنسبة لهم مجرد فرضية واحتمال غير قابل للاختبار والتأكيد بنظر بعض الفيزيائيين^(٢).

• ومنها: المبدأ الإنساني لحل إشكالية ضبط الثابت الكوني، بمعنى: لأننا هنا ورصدنا الكون تقيدت قيمة الثابت الكوني بشكله الحالي الذي سمح بوجود الكون والحياة الذكية المؤهلة لرصده ومشاهدته، وإلا فلولم نكن موجودين فلا مانع من أن يكون الثابت الكوني أكبر من قيمته الحالية أي كما هو مثبت ومتوقع نظرياً.

وهذا يعني أنه: (بحسب المبدأ الإنساني أو المقاربة الإنسانية أصبح الثابت الكوني والكون بلا قيمة دون وجود الإنسان الذي يرصده - كما بينا سابقاً في ميكانيك الكم - وبهذا أصبح الإنسان ووجوده أهمية كبرى حيث لا قيمة معرفية وعلمية للكون دون وجود الراصد (الإنسان)، فلا وجود للكون كما نعرفه الآن من دون الإنسان وهذا يعني أن

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٥٤.

٢- (فوفق مفهوم الكون المتعدد يُطمر الوجود بأسره في أبعاد أعلى، وبهذا يظل فضاء كوننا بمعزل عن أي كون آخر، والعكس صحيح. إن الافتقار إلى أي تفاعل ممكن ولو من الناحية النظرية مع أكوان أخرى يضع نظرية الكون المتعدد في مصاف الفرضيات غير القابلة للاختبار، ومن ثم غير القابلة للتأكيد، على الأقل إلى أن تجد عقول أذكى سبلاً يمكن من خلالها اختبار صحة نموذج الكون المتعدد) البدايات، تايسون وسميث: ٨٥.

الإنسان هو الهدف الكوني الأول وطالما كان هناك هدف فمن ورائه قوة عليا هادفة أو إله (١).

أضف إليه: إنّ المنادين بالمقاربة الإنسانية في تفسير ضبط الثابت الكوني ينبغي أن يفرّقوا بين (الهدف) و(الفاعل)، فالإنسان هو هدف الكون وليس علة فاعلية له، وبحدود موضوع بحثنا الآن أقول: إنّ الإنسان بمشاهدته للكون لا يعني أنه أوجد الثابت الكوني وحدّد قيمته التي تسمح باستمرار الكون وتمدده ومن ثمّ نشوء الحياة الذكية فيه بتلك المشاهدة، وإنما يعني أنّ الكون بقضيه وقضيضه وثابته الكوني (المحدّد سلفاً) من قبل (موجده المقيّن) وجد لأجل أن يرصده الإنسان ويشاهده.

ثوابت أخرى في الكون:

يقول ستيفن هوكنج:

- (يبدو أنّ كوننا وقوانينه كليهما مصمّمان على يد خياط ماهر لدعم وجودنا) (٢).
- (الحقيقة الواضحة بخصوص الثوابت الكونية تؤكد على أنها صُممت بعناية تتيح الحياة وبمنتهى الضبط المدهش) (٣).

الكون الذي نرصده ما كان له أن يكون لولا قوانين وثوابت فيزيائية مضبوطة بدقة فائقة لا تسمح بخرق ولو بسيط جداً، وجميعها ينشد ويتيح نشوء الحياة الذكية في الكون، أي: وجود الإنسان (المشاهد الذكي). وهذه بعض الأمثلة:

١- سرعة تمدّد الكون حرجة جداً بعد الانفجار العظيم:

سرعة توسع الكون حرجة جداً إلى درجة أنها لو كانت في الثانية الأولى من الانفجار أقل من جزء واحد من مليون مليار جزء لانهار الكون حول نفسه قبل أن يصل إلى وضعه

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٢٨ - ٥٢٩.

٢- التصميم العظيم، هوكنج: ١٩٥.

٣- تاريخ موجز للزمان، هوكنج: ١٢٥.

الحالي. وهذا يعني أنّ أي تغيير ولو ضئيل جداً في نسب القوى الطاردة أو الجاذبة في الكون عند بداية نشوئه سيؤدي إما إلى توسع الكون أكثر من اللازم بحيث لن يسمح بتشكيل المجرات ونشوء الحياة، أو التوسع ببطء أكثر من اللازم ما يؤدي إلى انهياره بشكل سريع!

٢- القوى الكونية الأساسية الأربع: (الجاذبية، الكهرومغناطيسية، القوة النووية القوية، والضعيفة)، يرى علماء الكونيات أنها تحدت قيمها في ظرف أقل من واحد على مليون من الثانية بعد الانفجار الكبير، وأي تغيير في قيمة أي قوة من هذه القوى ولو بمقدار ضئيل لا يسمح بنشوء الكون الذي نشاهده الآن^(١)!

٣- أبعاد الفضاء هي الأخرى مضبوطة بدقة عالية لنشوء الحياة الذكية^(٢).

٤- ضبط نوى الهيدروجين في الكون بدقة تسمح بنشوء باقي العناصر أيضاً:

عندما تتحد ذرتان من الهيدروجين فإنّ ما نسبته ٠,٧ % من كتلة الهيدروجين تتحول إلى طاقة، ولو كانت النسبة ٠,٦ % فإنّ البروتون لن يتحد بالنيوترون ولظل الكون مجرد هيدروجين فحسب ولما تكونت باقي العناصر. ولو كانت النسبة ٠,٨ % لأصبح اتحادهما

١- يقول هوكنج: (إنّ تغييراً ضئيلاً بقيمة ٠,٥ % من شدة القوة النووية أو ٤ % من القوة الكهربائية، يجب أن تدمر تقريباً إما كل الكربون أو كل الأوكسجين في كافة النجوم، ومن ثم تدمر إمكانية الحياة كما نعرفها. فلتقم بتغيير تلك القواعد في الكون بشكل طفيف، وعندها ستختفي شروط وجودنا) التصميم العظيم: ١٩٢.

ويقول ماكس تيجمارك: (إذا كانت القوى الكهرومغناطيسية أضعف مما هي عليه بـ ٤ % فقط لانفجرت الشمس فور تكونها، وستصبح نفس النتيجة إذا زادت القوة الكهرومغناطيسية عما هي عليه، إن ثوابت الطبيعة تبدو مُعدّة بعناية عند مستوى ما، وإذا كانت القوى النووية الضعيفة أقل مما هي عليه الآن لن يتكوّن الهيدروجين، وبالتالي سيظل الكون مجرد غبار كوني، وإذا كانت أقوى قليلاً فإن جسيمات النيوترينو neutrinos ستعجز عن مغادرة المستعرات العملاقة - السوبرنوفا Supernova - وبالتالي لن تنتقل العناصر اللازمة للحياة خارج المستعرات العملاقة - النجوم المتفجرة -). انظر: ماكس تيجمارك Max Tegmark عالم الكونيات الأمريكي، متاح على:

space.mit.edu/home/tegmark/multiverse.pdf

٢- يقول هوكنج: (لو افترض المرء أن عدة مئات من ملايين السنين في مدار مستقر هي أمر ضروري لكي تتطور الحياة الكوكبية، فإنّ عدد أبعاد الفضاء سيكون مضبوطاً أيضاً لوجودنا) التصميم العظيم: ١٩٣.

سريعاً جداً وفي الهيدروجين فوراً من الكون قبل أن تتشكل المجرات والنجوم وتظهر الحياة فيه.

٥- الموقع المثالي لكوكب الأرض:

موقع الأرض مثالي جداً لصلاحية كوكب الأرض للعيش ونشوء الحياة، وأي تغيير ولو بسيط في الموقع سيؤثر على هذه النتيجة، فالحياة على الأرض تتطلب - مثلاً - توفر عناصر كيميائية معينة، ولو كان نظامنا الشمسي أبعد عن مركز المجرة لندرت تلك العناصر ولو كان أقرب لتعرضت الأرض إلى تزايد إشعاعات خطيرة تؤدي بالنتيجة إلى انعدام الحياة عليها، إذن "نحن نعيش في العقار الأفضل على الإطلاق" بحسب المجلة العلمية الأمريكية Scientific American^(١).

وأيضاً: مدار الأرض مثالي جداً، فهو يبعد عن الشمس بحدود ١٥٠ مليون كيلومتر، وهذه المسافة بالذات تضمن للأرض عدم التجمد من جهة وعدم الاحتراق من جهة ثانية، كما أن "الشمس" بحجمها وبمقدار ما تبثه من كمية طاقة مستدامة ملائمة جداً للحياة.

أيضاً: لو قدر للأرض أن تنتخب جاراً لها لما وجدت أفضل من "القمر"، فهو يؤثر تأثيراً هاماً على بيئة الأرض وظاهرة المد والجزر وضبط ميلان محورها فبدونه تترج الأرض كالدوامة. ومن حيث الحجم فإن قطره يتجاوز ربع الأرض تقريباً وهو بهذا يعد كبيراً جداً قياساً بالأقمار الأخرى الموجودة في نظامنا الشمسي، وكأنه مفصل على مقاس الأرض ومسخرًا لظهور الحياة فيها.

ميلان محور الأرض بمقدار ٢٣,٤ درجة يتسبب بتعاقب الفصول الأربعة عليها سنوياً وتنظيم درجات الحرارة والأحزمة المناخية فيها، وهذه الدرجة للميلان بالذات مناسبة

١- مجلة Scientific American في عددها الخاص ٢٠٠٨ م، ص ١١.

Scientific American, Special Issue ٢٠٠٨ entitled "Majestic Universe," p. ١١

تماماً. ومثله سرعة دورانها حول محورها لتوليد الليل والنهار، فلو كانت أبطأ لطالت الأيام واحترق الجانب المواجه للشمس وتجمد الآخر.

أيضاً: وجود درعين يحميان الأرض كانا سبباً مهماً في نشوء الحياة عليهما، هما: الحقل المغناطيسي الذي يولده الحديد المنصهر في مركز الأرض ولِهما، وهذا الحقل الضخم والقوي يمتد بعيداً في الفضاء ليقى الأرض من الإشعاعات واللهب الكونية المخرصة. والدرع الثاني: طبقة الغلاف الجوي فهو لا يدعم عملية التنفس فحسب ولكنه يحوي ما يعرف بـ "الأوزون" الذي يمتص ٩٩% من الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من الشمس، إضافة إلى حماية الأرض من الأجسام والصخور وحرقها قبل وصولها إلى الأرض مشكلاً ما يعرف بالشهب. وبالرغم من أن هذين الدرعين يحميان الأرض إلا أنهما لا يعيقان وصول الأشعة الضرورية للحياة كالحرارة والضوء. بل ويسهم الغلاف الجوي في توزيع الحرارة بطريقة تبطل تبدها في الليل.

أيضاً: تحتوي الأرض على دورات طبيعية تدعم وجود الحياة فيها، ولولاها لانعدمت الحياة كدورة الماء، ودورة الكربون والأوكسجين والنيتروجين، وبهذه الدورات تحصل الأرض على ما تحتاجه من مياه وهواء وغذاء بشكل طبيعي تماماً، والملاحظ أن هذه الدورات تتم في غاية الإبداع والإتقان وبها أيضاً تتخلص الأرض من فضلاتها دون ترك أي مخلفات مخرصة على الحياة أصلاً.

والخلاصة: إنَّ الثوابت الكونية كثيرة: ذكر منها عالم الكونيات البريطاني مارتن ريس Martin Rees ستة ثوابت أساسية في كتابه "Just Six Numbers ستة أرقام فقط"، بينما حدّد الفيزيائي جون بارو John Barrow أستاذ الرياضيات في جامعة كامبريدج خمسة وعشرين ثابتاً أساسياً تعتمد عليها بنية الكون مثل (سرعة الضوء، وثابت بلانك، ... وغيرها). وجميعها مقنّن بعناية فائقة إلى درجة لا يسع أحد إلا أن يقول بالإعداد المسبق والتصميم الفائق للكون، فكل ما يتعلق بنشوء الكون بعد الانفجار العظيم وسرعة تمدده ومادته وطاقته وكثافته وقيم قواه الأساسية الأربعة والنسب فيما بينها، وكذلك نسب الجسيمات بالمستوى الذري وما دونه وما فوقه وقيم كتلتها وطاقتها وكثافتها، ثم ما يتعلق بالمجرات والنجوم والكواكب والمدارات وغير ذلك وصولاً لظهور الحياة الأرضية، كله معد ومصمّم بطريقة تسمح - هي وحدها لا غير - بنشوء الكون الذي نتواجد فيه

الحياة الذكية ومن ثم إمكانية رصده من قبل المشاهد (الإنسان)، وإن أدنى إخلال في قيمة أي ثابت من تلك الثوابت (التي تقف على شفرة سكين) سوف لن يسمح بوجود الكون الذي نراه اليوم^(١).

طبعاً، حاول بعض علماء الفيزياء والفلك تعليل هذا التقنين والتصميم الفائق بفرضية "تعدد الأكوان" اللانهائية، لكننا رأينا سابقاً أنها لا تصلح لتفسير ضبط الثابت أو الثوابت الكونية.

(إنّ افتراض وجود ترليون ترليون كون بدلاً من القبول بإله واحد لتفسير الانتظام في كوننا يبدو أمراً في قمة اللاعقلانية)^(٢).

وبهذا نكون قد انتهينا إلى أن ليس بوسع أحد (يحترم المنطق العلمي) إلا الاعتراف بالتصميم والتقنين العظيم للكون، وإذا كان كذلك فأكيد أنّ وراءه مقنناً ومصمماً عظيماً.

٣- للكون هدف ووراءه هادف:

بملاحظة ما انتهينا إليه فيما سبق، نتوصل إلى نتيجة مفادها: إنّ للكون هدفاً وهو المشاهد الذكي (الإنسان)، وإذا كان كذلك فمن ورائه "هادف" قاصد له أثناء مراحل التخطيط والتصميم والتنفيذ للمشروع الكوني، وهذا يكفي لإثبات وجود "الله" ولو بعد انتهاء سلسلة الأسباب إليه سبحانه.

١- (إن المشكلة الحقيقية في إعداد الكون بعناية أنّ هذه المعطيات التي تقف على حافة السكين كلها مستقلة عن بعضها البعض وفي الوقت نفسه تتلاقى لتسمح فقط بإحداث الحياة وتغيّر أي مُعطى من هذه المعطيات التي نشأت مستقلة لم يكن يسمح لها بالتلاقي فضلاً عن إمكانية إيجاد حياة أو حتى منظومة كونية) مقولة للفيزيائي الشهير ليونارد سوسكايند: متاح على:

https://www.edge.org/conversation/lee_smolin-leonard_susskind-smolin-vs-susskind-the-anthropic-principle

٢- مقولة للفيلسوف الألماني ريتشارد سوينبورن.

ونحن من خلال ما سبق وقفنا على حجم الأهمية التي تحظى بها عملية الرصد والمشاهدة الذكية، وباعتراف كبار العلماء (بما فيهم الملحدون) فإنَّ المراقب والمشاهد له تأثير كبير على سلوك الجسيمات في المستوى دون الذري، حتى لقد بدا القلق الشديد ينتاب رواد ميكانيكا الكم الأوائل؛ لأنه إذا كانت الطريقة التي يتصرف بها الكون تتوقف على كيفية مشاهدتنا له فهذا يؤشر - في أحد مدلولاته - إلى فساد النظرة الموضوعية التقليدية والصورة النمطية المتداولة للواقع آنذاك، كما أنَّ الملحدين منهم بالخصوص لديهم حساسية بالغة من أن يكون للمشاهد الذكي (الإنسان) كل هذه الأهمية التي تجعل منه هدفاً للكون كله، فدخول "الهدفية" على خط وجود الكون وسلوكه سيسمح - ولا شك - بنفوذ الفاعل المدرك والحكيم الهادف في المعادلة، الأمر الذي لا يتناسب مع التلقائية والعفوية والصدفة التي يحاول علماء الكم تفسير نشوء الكون بها.

من ثمَّ، فـ "المبدأ الإنساني" في نشوء الكون لم يكن - في الحقيقة - خياراً يروق للفيزيائيين الملحدين فرضه في معادلة الكون لولا أنَّ المعطيات العلمية ألجأهم لذلك كما لاحظنا في كلام هوكنج المتقدم؛ لأنه ببساطة يجعل المشاهد هدفاً وشرطاً لوجود الكون كله والهدف يستدعي وجود جهة هادفة ومدركة وقاصدة له بكل وضوح.

أن تكون للمشاهد (الإنسان) قيمة عليا وموقع محوري في الكون أمر مفروغ منه في نصوص الدين الإلهي، لكن أن يصل ميكانيك الكم والفيزياء الحديثة إلى نفس النتيجة فهو الأمر الجديد في الموضوع، فمن هو الإنسان يا ترى؟

الإنسان فيزيائياً:

إذا نظرنا للإنسان كجسم فيزيائي فهو لا يختلف عن سائر الأجسام الأخرى الموجودة في الكون، فهو مؤلَّف من ذرات وعناصر أساسية ساهمت بصناعتها النجوم قبل مليارات السنين. فمثلاً: جسم إنساني بوزن ٧٠ كغم يتألف من ٧ مليار مليار ذرة (أي ٧ متبوعة بـ ٢٧ صفراً)، يشكل فيها عنصر الهيدروجين نسبة ٦٥ ٪، بينما يحتل الأوكسجين

نسبة ٢٤ %، والكربون ١٠ %، ويبقى ١ % لبقية العناصر الأخرى كالزرنينخ والراديوم والنحاس والرصاص والحديد... الخ^(١).

وبالرغم من هذا العدد الهائل من الذرات التي تؤلف أجسامنا، إلا أنّ الملف حقاً أن نعرف أنّ الفراغ يحتل ما يزيد على ٩٩ % من مساحة أجسامنا^(٢)!

جميعنا يعرف أنّ الذرة تتألف من نواة (بروتون + نيوترون) وقشرة خارجية يدور فيها الإلكترون حول النواة، ونواة الذرة لا تحتل سوى مساحة صغيرة جداً أصغر بـ ١٠٠,٠٠٠ مرة من مساحة الذرة، والآن لو قدّر لنا أن نزيل كل الفراغ غير المستعمل في ذرات أجسامنا أي نضغط الفراغ الموجود بين الأنوية والإلكترونات لما تعدّى حجم الواحد من "ذرة غبار"، ولما تعدّى حجم مادة البشرية جمعاء حفنة من حبيبات السكر التي تفيض عنها راحة اليد!

قد نستغرب ونسأل: إذا كانت حقيقة أجسامنا بهذا الوصف، فلم لا نتصرف كذرات الغبار ونخترق النواذير المغلقة كما لو كنّا أشباحاً، ولم نشعر بصلاية الأشياء كما لو أنّها كبيرة فعلاً، لماذا أشعر بيد صديقي عند مصافحته لي مثلاً؟

يفترض بمن طالع بحوث ميكانيك الكم أن يتمكن من إجابة هذا السؤال ولا أقلّ يتيسر عليه استيعاب الجواب، فقد ذكروا أنّ الإلكترون - وكل جسيم وفق ما أثبتته تجارب ميكانيك الكم - يتصرف كموجة عند عدم رصده، وبالتالي فيمكنه أن يتواجد في كل موضع يمكن أن يتواجد فيه، تماماً كأجنحة المروحة عندما تدور بسرعة عالية، فأنت - في هذه الحالة - ليس بوسعك أن تمرّ يدك بينها وستسبب بالأذى لنفسك إن فعلت ذلك، ولكن عدم تمكّنك من إمرار يدك لا لعدم وجود الفراغ بينها بل لأنها تتحرك بسرعة عالية وتكاد تملأ كل الفراغ الذي لم يعد بوسعك تشخيصه إلا بعد أن تطفأها وتوقف حركة أجنحتها. كذلك حال الإلكترونات في جسم الإنسان، فهي لما كانت تتحرك بسرعة عالية في الذرات فتبدو وكأنّها ملأت كل الفراغ، وبالتالي فمصافحتك يد زميلك أو لمسك

١- انظر: <https://nasainarabic.net/education/articles/view/atoms-in-person>

٢- انظر: <https://nasainarabic.net/education/articles/view/99-99999999-of-your-body-is-empty-space>

للأشياء لم يكن - في الحقيقة - لمس وتحسس لنفس المادة (أعني أنوية الذرات لكل منكما) وإنما هو شعور وإحساس بالقوة الكهرومغناطيسية المتبادلة التي تُحدثها إلكترونات كل منكما ولا شيء آخر.

وهذا يعني أن الإنسان - أي إنسان - لو قُدِّر له أن يُزود بجهاز رصد ومرآة دقيقة في كيانه ووجوده يتمكن بواسطته من أن يرصد الإلكترونات وحركتها السريعة في الأشياء المادية التي يراها أمامه، فإنَّ رصده لها سيتسبَّب بانزياح دالتها الموجية وستتصرف الإلكترونات حينئذٍ كجسيمات نقطية ويتحدد موضعها، وبالتالي سيعود الشيء المادي - أي شيء - بنظر هذا "المراقب الفائق" كما لو أنه ذرة غبار أو حفنة تراب مهما كان عظيمًا وكبيرًا ومخيفًا في نظر غيره من المخدوعين!

حقيقة الإنسان الفيزيائية تُلقَى - ولا شك - بظلالها على الاستحقاق المتقدم (أعني أن يكون الإنسان هدفًا للكون)، فكيف تسنَّى لمن حجمه الحقيقي (ذرة غبار) أن يحتل كل هذه المواقع المحوري في كوننا الذي نعيش فيه؟

يبدو أن قصة "الإنسان" لا يمكن اختزالها بجانبها الفيزيائي المادي، وهذا مؤكد.

الإنسان كائن واعي ومريد:

ذرة الغبار التي تساوي الإنسان فيزيائياً، لا تبقى بنفس القيمة إذا ما تدخل "الوعي" و"الإرادة الحرة" في المعادلة.

الوعي - في بعض معانيه - يشير إلى "كمية المعلومات" التي تشكّل المعرفة والإدراك لدى (الإنسان = الكائن الذكي).

وبالرغم من أهمية هذه الخاصية التي تميّزها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، لكن الملفت أن علماء الأحياء التطورية لم يحسموا - في دراساتهم القليلة نسبياً - مسألة رجوع الوعي إلى جنبه بيولوجية تطورية في الإنسان، وإذا كان فعلاً صفة بيولوجية متطورة فلماذا الندرة في طرحها للنقاش العلمي في سياق نظرية التطور الداروينية التي تحتل موقع الريادة في علم الأحياء تماماً كريادة نظرية الكم البلانكية في ميكانيك الكم!

وكمثال لهذه الندرة: النموذج الذي تم طرحه في العقد الأخير والمعروف بـ "مخطط الانتباه" "Attention Schema Theory" "AST"، وهو نموذج يفترض واضعوه أنّ الوعي هو نتيجة تتابع تطوري قام به الدماغ لحل مشكلة أساسية تواجه الجهاز العصبي؛ وهي مشكلة المعالجة المركزية لتدفق كمية هائلة من المعلومات^(١). لكن هذا النموذج يبقى - على كل حال - مجرد فرضية لم يثبت صحتها بعد.

ومع أنّ أحداً لا يشك بضرورة وجود ما يمكن أن نسميه بـ "مركز قيادة وسيطرة" لدى الإنسان يقوم بتحليل المعلومات ومعالجتها خصوصاً وأنّ كميتها هائلة جداً، ومع افتراض صحة الأبحاث التي انتهت إليها علماء الأعصاب في إخضاع "الوعي" لعمل النصف الأيسر من المخ، لكنهم في نفس الوقت لم يتمكنوا إلى الآن من أن يحددوا - بشكل قطعي - وجود مثل هكذا مركز بيولوجي في دماغ الإنسان ويسمّوه لنا على نحو التعيين بالرغم من كل ما وقّرتهم لهم التكنولوجيا المتقدمة وكل عمليات المسح التفصيلي للدماغ.

فمجرد تحديد النصف الأيسر المخي كموضع تظهر عليه آثار الأنشطة الواعية التي يقوم بها الإنسان لا يعني بالضرورة أن يكون مركز تحليل ومعالجة المعلومات موجوداً فيه، بل ربما يعني أنه مجرد وسط ناقل من وإلى المركز، أي يكون الدماغ بمثابة الفاكس الذي ينقل المعلومات من وإلى المصدر الذي يمكن أن يكون موجوداً بالأساس في كون وعالم أرقى.

مقولة "الأكوان المتعددة" ووجود عدة عوالم يؤثر بعضها ببعض، استطاع السيد أحمد الحسن من خلالها أن يفسّر بعض الإشكاليات التي اعترضت مسير علماء ميكانيك الكم، وأضاف أيضاً:

(ميكانيك الكم فتح باباً في علم الفلك (الكوزمولوجي) لمقولة تعدد العوالم أو الأكوان التي يمكن أن يؤثر بعضها ببعض.

١- يمكنك مراجعة: <https://nasainarabic.net/main/articles/view/how-consciousness-evolved>

هذا البحث المتقدم إن لم يكن كافياً لإثبات وجود النفس أو الروح الإنسانية، فمن المؤكد أنه يجعل كل عاقل يتساءل عن مدى واقعية أن يكون وجودنا محصوراً بهذا الكون فقط وأننا مجرد أجسام خلقت من مادة هذا الكون، ألا يمكن أن تكون تلك الأكوان المتعددة ألطف من هذا الكون وجسيماتها أدق من جسيمات المادة والطاقة التي في كوننا بحيث إنها تسمح بالانتقال بسرعة أكبر من سرعة الضوء التي تتحرك بها جسيمات الطاقة أو الفوتونات في هذا الكون، ألا يمكن أن يكون كوننا والحال هذه مجرد وجود شبحي لكون أرقى منه؟! انتهى^(١).

ميكانيك الكم ليس فقط فتح الباب أمام مقولة الأكوان والعوالم المتعددة التي تعد بحق نافذة لإثبات النفس الإنسانية وعالمها، وأيضاً: ليس "الوعي" لدى الإنسان يقودنا لنفس النتيجة، ولكن ميكانيك الكم - كذلك - فتح باباً واسعاً لإثبات الإرادة الحرة واختيار الإنسان الحر بعد أن لاحظنا محورية "المشاهد" وأثره في رصد الأحداث الكمومية التي تحصل في الكون الذي لولاه لما وجد، كما عرفنا.

يقول السيد أحمد الحسن: (وهكذا يمكن أن نقول: إن ميكانيك الكم الذي يستخدمه أصحاب مقولة "كون من لا شيء" لإنكار وجود الإله أصبح أيضاً باباً لإثبات الإرادة الحرة للإنسان وأن الإنسان يمكن أن تكون له مدخلية في صنع مستقبله، فالإنسان ليس مجبوراً ولا مقهوراً على أن يسلك طريقاً ترسمه له حتمية كونية لا مفر منها، بل وأكثر فالإنسان يمكن أن يكون مؤثراً في الأحداث المحيطة به والتي يقوم برصدها بل ربما يكون للإنسان تأثيراً في الكون، فالكون كله منظومة كمية والإنسان يقوم برصدها) انتهى^(٢).

الاختيار والإرادة الحرة هو الآخر - كمسألة الوعي - بحاجة إلى مركز لاتخاذ القرارات، ومثل هذا المركز غير محدد - أيضاً - على نحو التعيين في دماغ الإنسان بيولوجياً، وبهذا يمكن اعتباره نافذة أخرى تضاف لإثبات النفس الإنسانية. وأما محاولة بعض الفيزيائيين التنصل عن ذلك واعتبارهم حرية الإرادة والاختيار مجرد "وهم" كما فعل هوكنج في كتابه

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٧٢.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٦٠ - ٤٦١.

"التصميم العظيم" فهو أمر لا يتناسب ومبادئ ميكانيك الكم التي عرفناها سابقاً، وقد فصل د. توفيق مسرور ذكر مقولاته والجواب عليها في بحثه "أصل الأخلاق الإنسانية" (١).

الآن صار بوسعنا أن نعرف أنّ الإنسان (المشاهد الذكي) الذي يُعد وجوده شرطاً وهدفاً لوجود الكون هو الكائن الواعي ذو الإرادة الحرة، وليس الإنسان الفيزيائي المادي الذي لا يعدو أن يكون بحجم تافه جداً!

يمكننا أن نعرف أنّ هذا الكم المادي الفيزيائي البسيط جداً لما تواصلت معه النفس من عالمها أعطته كل هذه القيمة الكبيرة.

ويمكننا أن نعرف أيضاً: أنّ الإنسان لما يتنازل عن الوعي والإرادة الحرة ويختار الجهل والعبودية لغيره فإنه يفقد قيمته الحقيقية ولم يتبقّ منه سوى "ذرة غبار" لا غير مهما حاول أن ينفخ نفسه ويخدع الآخرين.

الإنسان في الكون هدف لا فاعل:

بحسب معطيات ميكانيك الكم - كما لاحظنا - فإنّ محورية المشاهد الذكي (الإنسان) في الكون أمر مؤكد وبرهنت عليه تجارب ميكانيك الكم بوضوح تام.

والسؤال الآن: هل هذه المحورية تنسجم مع كونه هدفاً لوجود الكون، أم أنه سبب وجودي (موجد = فاعل) له؟

باختصار - حتى لا نستغرق في البحث الفلسفي - يقسم الفلاسفة العلة (المؤثر في غيره) إلى أربعة أقسام (٢):

- علة فاعلية: تفيض وجود المعلول وتفعله.
- علة مادية: الجزء المادي الذي يتركب المعلول منه ومن الصورة.

١- انظر: أصل الأخلاق الإنسانية، د. توفيق مسرور: ٤٥٨ فما بعد.

٢- انظر: خلاصة علم الكلام، عبد الهادي الفضلي: ٤٤.

- علة صورية: الجزء الشكلي الذي يتركب المعلول منه ومن المادة.

- علة غائية: الغرض والهدف المتوخى من وجود المعلول.

ونحن لما نقول إنّ الكون - وفق مبادئ ميكانيك الكم - مَدين في وجوده للمشاهد الذكي، أو أنّ المشاهد الذكي يؤثر في المنظومة ويجعلها واقِعاً فعلياً مشخّصاً، فهذا يعني أنّ الإنسان هو هدف الكون، ولولاه لما وجد أصلاً؛ لأنه سوف لا يتواجد من يرصده ويشاهده وبالتالي يكون وجوده عبثياً ولا معنى له.

"المشاهد = الإنسان" وفق هذا التصور يكون علة غائية (هدف) للكون، والهدف لابد أن يكمن وراءه جهة هادفة حكيمة قاصدة له، وبالتالي تكون "الهدفية" في ميكانيك الكم إحدى سبل إثبات وجود الله سبحانه.

ومن جهة أخرى: إنّ المشاهد الذكي (الإنسان) لا يقتصر دوره فقط على كونه هدفاً (علة غائية) للكون، وإنما قد يكون (علة فاعلية) بحدود واقعه الأرضي فيقوم بدور التصنيع والتخليق وبالتالي يضيف مفردات جديدة للواقع، لكن فاعليته - مهما تصورناها - تبقى ناقصة ومفتقرة؛ لأنها قائمة بالأساس على إعادة تدوير وهيكلية للجسيمات الأولية والذرات الموجودة في الكون سلفاً (بلا تدخل من الإنسان في وجودها أصلاً)، بل لا وجود لشيء اسمه "تخليق وإيجاد" بدون توفّر تلك المادة الخام الأولية نهائياً، وبالتالي فهي فاعلية وتصنيع من "شيء موجود" فعلاً وليس فاعلية غنية بذاتها أي تتمكن من أن تخلق شيئاً من العدم "لا شيء".

وبهذا نعرف أنّ الحاجة إلى فرض وجود "الإله" لا تنحصر فقط بكون الإنسان هدفاً للكون، ولكن حتى بلحاظ دوره الذي يمارس فيه الإيجاد والتخليق لا زالت ضرورة فرض "الإله" موجودة أيضاً؛ لأنّ تخليقه وفاعليته - كما قلت - ناقصة ومفتقرة ومتقومة بغيرها (ولو من جهة المادة الخام التي يعيد هيكلتها)، وذلك الغير إن كانت خالقيته غنية بذاتها ثبت وجود "الإله"، وإن كان أيضاً مفتقراً إلى غيره لزم حينئذٍ فرض "ثالث" وهكذا حتى ننتهي إلى فاعل وخالق قديم غني بذاته أي يتصف بأنه خالق من العدم وال "لا شيء" وهو الله سبحانه لا غير.

على أنّ التخليق في كوننا بمعنى (الإيجاد من شيء) لا يختص به الإنسان وإنما يتصف به غيره، فالنجوم - مثلاً - تعتبر مطابخ عملاقة لتخليق العناصر الأساسية الأثقل من الهيدروجين، ويبقى الفرق بين النجوم وبين الإنسان أنّ تخليق الأخير - أي الإنسان - متأخر عنها ويعتمد على المادة الخام التي توفرها له، إضافة إلى أنّ تخليقه يقتزن بالوعي والإرادة الحرة وهو مفقود في النجوم بكل تأكيد.

٤ - التطور على الأرض له هدف ووراءه هادف:

ما تقدم بيانه من إثبات وجود الله وإثبات كون الإنسان (المشاهد الذكي) هدفاً، إنما كان بلحاظ وجود الكون ككل. أما بالنسبة إلى الأرض وتطور الحياة فيها، فيفترض أن يكون الحال فيها كذلك، أي أنّ تطور الحياة فيها له هدف ويقف وراءه هادف مدرك وحكيم.

وبخصوص الإنسان أو المشاهد الذكي، فيفترض أن يكون حاله أوضح؛ فهو لما كان هدفاً لوجود الكون برمته فسيكون - دون أدنى شك - الهدف من وجود الأرض والحياة المنتورة عليها، بل من باب أولى يكون كذلك؛ باعتبار أنّ الأرض لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً جداً من سعة الكون الفسيح.

وهذا ما يفسّر ظهور الإنسان العاقل متأخراً على الأرض بعد بدء الحياة عليها بفترة طويلة جداً فاقت ٣,٥ مليار عام من عمر الأرض الـ ٤,٦ مليار عام تقريباً، بعد أن سبقه في الظهور إلى الحياة عليها معظم الأحياء؛ باعتبار أنّ وجود الهدف يتحقق عادة في نهاية المطاف. وسنقف على هذه الحقيقة بالتفصيل لاحقاً.

قدم السبق في الإشارة لبعض حقائق الكون:

لا شك أنّ "براءة الاختراع" في أيّ اكتشاف تُمنح للمخترع الأول، وأنّ أيّ اكتشاف أو تطبيق يأتي بعده يُفترض أن يكون مديناً له. ومن يطالع بعض النتائج التي أثبتتها تجارب ميكانيك الكم يجد لها أصلاً في كلمات خلفاء الله (آل محمد عليهم السلام بالتحديد)، من قبيل:

- ١- الطبيعة المزدوجة لجسيمات الكون.
- ٢- القيمة العليا للمشاهد وتأثيره في المنظومة الفيزيائية الكونية.
- ٣- تعدد الأكوان والعوالم.
- ٤- الكون حادث وله بداية.
- ٥- تفرّع "المستقبل" إلى احتمالات كثيرة جداً يصعب معها التنبؤ بالخيار الذي سيكون واقعاً فعلياً.
- ٦- ظاهرة الترابط الكمومي والتأثير الشبحي عن بُعد^(١).

١- الترابط الكمومي: ظاهرة فيزيائية تحصل لجسيمين كانا متشابكين كمومياً سابقاً ثم تم فصلهما، فإنك بمجرد معرفة خاصية فيزيائية لأحدهما فإنك تعرفها في الآخر آنياً بغض النظر عن مقدار المسافة التي تفصل بينهما. وكمثال لتبسيط الفكرة: لو كان لدينا إلكترونين (A) و (B) كانا في وقت ما متشابكين كمومياً ونشأت بينهما رابطة كمومية خاصة في الموضع (س)، فلو افترضنا حدوث الفصل بينهما وتحركا معاً بنفس الزخم (كمية الحركة) لكن توجه أحدهما إلى يمين النقطة (س) والآخر إلى يسارها، والآن اذا أردت أن تعرف موضعهما (أو أي صفة فيزيائية أخرى)، وتوجهت بالقياس إلى الإلكترون (A) فبمجرد أن تعرف أنه يقع على بعد ١٠٠٠ كم - مثلاً - عن يمين (س) فستعرف في نفس اللحظة أنّ موضع الإلكترون (B) يقع على بعد ١٠٠٠ كم عن يسار (س) من دون أن تتوجه له بالقياس والمشاهدة. وهذا يعني أنّ التفاعل والترابط بين الجسيمين سيظل باقياً بغض النظر عن حجم المسافة التي تفصل بينهما.

في عام ١٩٦٤ م أجرى الفيزيائي الإيرلندي جون ستيوارت بيل John Stewart Bell تجربة لإثبات الترابط الكمومي من خلال قياس اللف المغزلي (Spin) (دوران الجسيم حول نفسه) لأحد الجسيمين، وخلص إلى أنّ التغيرات (كمعرفة خاصية اللف) التي نشهدها في أحدهما يمكن أن يحدث آنياً بالنسبة للآخر، حتى لو كانا بعيدين عن بعضهما ملايين السنين الضوئية. واضح جداً أنّ الترابط الكمومي والنتيجة التي تترتب عليه يخرق (ولا أقل حاجة إلى ملائمة مع) ثلاثة أمور مهمة بنظر الفيزياء الحديثة:

الأول: عملية القياس والرصد، فهي مع كونها مؤثرة في تشخيص الواقع الفيزيائي للجسيم وتحديد سلوكه الجسيمي أو الموجي بحسب معطيات ميكانيك الكم، لكنها لم تعد مهمة في حالتنا، إذ تم تشخيص موضع الجسيم الثاني (الإلكترون B في مثالنا) دون وجود عملية قياس ورصد مباشر له.

الثاني: مبدأ الرتبة واللايقين الذي يفترض أنّ الخصائص الفيزيائية غير محددة إلى أن يتم قياسها، في حين أننا في المثال أعلاه تمكنا من معرفة موضع الجسيم (B) دون التوجه المباشر إليه بالقياس والرصد.

الثالث: نظرية النسبية الخاصة التي يفترض فيها أينشتاين أن لا شيء في الكون بإمكانه أن يسير بسرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠ كم/ثانية تقريباً) في حين أننا في مثالنا وجدنا أنّ تحديد موضع الإلكترون (B) تمت معرفته ليس بسرعة فاقت سرعة الضوء فحسب ولكنها سرعة لا متناهية، فموضعه تحدد في نفس الآن واللحظة التي تحدد فيها موضع الإلكترون (A) تماماً، أي إن الزمن الفاصل بين تحديد الموضعين معدوم وقيمهته (صفر).

والآن إذا ما أردنا أن نقارن هذه النتائج العلمية المبرهنة بما طرحه نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وما طرحه آل محمد صلوات الله عليهم من رؤية عامة للكون وعالم الحياة الدنيا بناءً على ما أشارت إليه نصوصهم الدينية قبل ما يزيد على ١٠٠٠ عام، فإنَّ المقارنة - والحال هذه - ستمنحنا أفقاً معرفياً مهماً يمكننا من الحكم بأحقية الرسول محمد وآله الطاهرين وتبعاً لذلك أحقية الدين الإلهي الذي بعثوا به.

١ - ازدواجية عالم الحياة الدنيا:

في ميكانيك الكم يتصف الجسيم - أي جسيم - بطبيعة ازدواجية فيسلك مرة سلوكاً جسيماً وأخرى سلوكاً موجياً شبيحاً، وتنوع السلوك هذا يعتمد على وجود (أو عدم وجود) المشاهد (المراقب). ثم إنَّ الكون لما كان حدثاً كمومياً مؤلفاً من تلك الجسيمات لا غير إذن فهو بأكمله ذو طبيعة مزدوجة يتصرف في حال وجود المشاهد كجسيم ويتصرف

لذا فمن الطبيعي - بالنسبة لأينشتاين - أن يتسم موقفه بالرفض لظاهرة الترابط الكمومي واصفاً إياها بأنها "عمل شبحي عن بعد"، معتبراً في الوقت نفسه أن ميكانيك الكم ليس سوى نظرية جزئية لا تروي القصة كاملة في الحقائق الفيزيائية التحتية، انظر: مبدأ الرتبة، لندي: ٢٣٦.

منطقياً، إما أن يكون الترابط الكمومي واقعاً فيزيائياً صحيحاً، وحينها لابد من رفع اليد عن النسبية الخاصة (ولا أقل تعديلها إن كان ذلك ممكناً)، أو يُصار إلى قبول ما ذكره أينشتاين من أنَّ ميكانيك الكم لا يروي كامل القصة والحقيقة في الفيزياء الكمومية (أو التحتية على حد قوله).

وعموماً، وضع السيد أحمد الحسن في كتابه "وهم الإلحاد" حلاً لهذا المشكلة: بافتراض: (أنَّ المعلومات التي تنتقل بين الجسيمين تنتقل بينهما في كون آخر، لهما فيه وجود شبحي، وهذا الكون الآخر يسمح بأن تنتقل الأشياء فيه بسرعة أكبر من سرعة الضوء..... وهذا يعني ولا شك - إن كانت النسبية الخاصة صحيحة - أنَّ هذه المعلومات تنتقل في كون آخر تسمح قوانينه بهذه الأمور المستحيلة في كوننا، وهذا الكون الآخر لابد أنه مؤثر في كوننا ومتصل به وأنَّ للأشياء التي في كوننا وجوداً شبيحاً في ذلك الكون بحيث إنها يمكن أن تتواصل فيه وتنتقل المعلومات فيما بينها بسرعة لا متناهية، أو ربما نكون نحن والموجودات في هذا الكون أشباحاً لحقائق أرقى موجودة في كون أرقى من كوننا. ميكانيك الكم فتح باباً في علم الفلك "الكوزمولوجي" لمقولة تعدد العوالم أو الأكوان التي يمكن أن يؤثر بعضها ببعض) وهم الإلحاد: ٤٧١ - ٤٧٢.

وأخيراً في العام ٢٠١٩ م نشرت مجلة Science Advances تحت عنوان "Imaging Bell-type nonlocal behavior" ورقة بحثية لفريق فيزيائي من جامعة غلاسكو Glasgow الأسكتلندية بقيادة د. بول أنطوان مورو كشفت تمكنهم من التقاط صورة مرئية لظاهرة الترابط الكمومي، وهو أمر يحصل لأول مرة. يمكنك مراجعة المقال على:

<https://phys.org/news/2019-07-scientists-unveil-first-ever-image-quantum.html>

كموجة شبحية في حال عدم وجود المشاهد. فحقيقة الكون بغض النظر عن المشاهد مجرد شبح لا تشخص حقيقي وفعلي له. وهذا بالضبط حال عالم "الحياة الدنيا" الذي نحن فيه الآن بقضه وقضيضه، فالحياة الدنيا حقيقتها فناء وزوال و أفول، بل لا شيء منها وفيها باقي:

- الإمام الباقر: "الدنيا دار فناء وزوال ولكن أهل الدنيا أهل غفلة" ^(١)،
- الإمام علي، عن الدنيا: "إنها غُرُورٌ حَائِلٌ وَضَوْءٌ أَفِلٌ وَظِلٌّ زَائِلٌ وَسِنَادٌ مَائِلٌ" ^(٢)،
- حديث قدسي: "فإنَّ الدنيا كفيء زائل" ^(٣).
- الإمام الباقر: "فأنزل الدنيا كمنزل نزلته ثم ارتحلت عنه، أو كمالٍ وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء" ^(٤).

الدنيا مجرد فيء زائل ووجود ظلي شبحي، قد يبدو لناظرها (الراصد والمراقب) أنها وجود ماهر لكن حقيقتها أشبه بالمنام الذي سرعان ما يستيقظ منه المراقب. هي "لا شيء" حقيقة بما فيها من ملذات ومتاع وزخرف ربما يغتر به الكثيرون ويتعلقون به، لكنه لا وجود حقيقي له وإلا لما زال وفني واندثر، وبعبارة علمية فيزيائية: الدنيا دار تتساوى فيها قيمة الطاقة الموجبة والسالبة وبالتالي فالمعدل الكلي للطاقة صفري بكل وضوح.

"الدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا" ^(٥)، تماماً ككل الكون بنظر ميكانيك الكم فلولا المشاهد الذكي (الإنسان) لما وجد!

إذن، عالم الدنيا (كحدث كمومي) يتصرف كجسيم له أثر مشخص عند المراقبة والرصد فقط، وإلا فهو مجرد شبح وظل لا تشخص فيه وهويته أقرب إلى الفناء والزوال، وفي كلا الحالتين لا وجود "حقيقي" له.

١- الكافي، الكليني: ٢ / ١٣٣.

٢- نهج البلاغة: ١٤، تحقيق: صبحي الصالح.

٣- الكافي، الكليني: ٨ / ١٤١.

٤- الكافي، الكليني: ٢ / ١٣٣.

٥- نهج البلاغة: ٥٥٧، تحقيق: صبحي الصالح.

- الإمام علي عليه السلام: "إِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الْأَعْمَى، لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَالْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بِصَرِّهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ"^(١).

طبيعة عالم الدنيا المزدوجة تجعلها داراً مثالية لأداء الدور الذي خلقت لأجله، وهي أن تكون قاعة امتحان كبرى يؤدي فيها الإنسان (المشاهد الذكي) امتحانه الذي جاء ليؤديه هنا، وسيترتب الخلق الممتحنون بين من يتزود لها ويتعامل معها كما لو أنها حقيقة بل كل الحقيقة فيشغف بها، وهناك من يتزود منها لدار أخرى وأما هي بذاتها فيشخص عنها بكل قلبه وبصره ولا يغتر بظاهرها ويتعامل معها على أنها شبح وظل زائل بل "لا شيء" حقيقة وهو حالها فعلاً، وبين هاتين النظرتين يترتب الخلق وينال كلٌ نتيجته باستحقاق.

٢- الإنسان مشروع الله في الكون:

لاحظنا مدى الأهمية التي يحظى بها المشاهد الذكي (الإنسان) في ميكانيك الكم، وبالرغم من كل الحذر الذي أبداه الملحدون تجاه كل ما له مساس بالدين والإله في بحوثهم، لكن كثيرين منهم اضطروا إلى تبني "المبدأ الإنساني" للكون أي قبول "أن لولا الإنسان لما كان لوجود الكون معنى"; لأنه سوف لا يوجد من يشاهده أصلاً كما عرفنا.

ما انتهى إليه الملحدون أمر نادى به الدين الإلهي قبل أكثر من ١٤٠٠ عام:

- "لولاك لما خلقت الأفلاك"^(٢).

- "عبدى خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي"^(٣).

كل شيء في الكون مسخر للإنسان ومخلوق لأجله، قال تعالى:

١- نهج البلاغة: ١٩١، تحقيق: صبيح الصالح.

٢- حديث قدسي، انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ١٦ / ٤٠٦.

٣- حديث قدسي، انظر: الجواهر السننية، الحر العاملي: ٣٦١.

- "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الجاثية: ١٣.
- "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" النحل: ١٢.

إذن، الإنسان هدف الكون بكل وضوح، ولذا رأينا سابقاً أنَّ كل الثوابت الكونية مصمَّمة بطريقة توصل بالنهاية إلى نشوء الحياة الذكية (الإنسانية) وأنَّ أيَّ اختلال في ضبط ثابت منها ما كان يسمح بظهور الكون كما نشاهده اليوم واحتلال الكائن الذكي موقع الريادة فيه، فحقاً: الإنسان هو مشروع الله في الكون.

أما لماذا "الإنسان" دون غيره من سائر المخلوقات؟ فذاك بحث آخر فصلته النصوص الدينية ويمكن الرجوع إلى ما كتبه السيد أحمد الحسن ككتاب "وهم الإلحاد" و"عقائد الإسلام" للوقوف على السبب تفصيلاً، وباختصارها هنا أقول: إنَّ "الإنسان" هو المخلوق الأكمل فطرة ومعرفة، فهو المخلوق الأوحد الذي تتجلى فيه الأسماء والصفات الإلهية بآتم ما يكون، وبذا استحق مقام الخلافة الإلهية في الأرض، وصار هدفاً لوجود الكون كله.

٣- رب العالمين "العوالم":

اضطر علماء ميكانيك الكم لقبول نظرية العوالم والأكوان المتعددة لهيو ايفرت؛ لثبوتها رياضياً وتمكَّنها من حل أكثر من مشكلة أساسية صادفتهم، النظرية اكتشفت في منتصف القرن العشرين لكنها أمر مفروغ منه في الدين الإلهي الذي بعث به محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، ونصوصهم التي صدرت منهم بين (١٢٠٠ - ١٤٠٠ عام) شهادة على ذلك، وهذا نموذج منها:

- "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" الفاتحة: ٢. فهي عوالم متعددة لا عالم واحد، والله سبحانه ربهما جميعاً.

- الإمام الصادق: "لعلك ترى أنَّ الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أنَّ الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين" (١).

وكما ذكرنا سابقاً، لا مبرر علمي يدعو إلى اعتبار العوالم المتعددة متوازية، بل الدليل العلمي والديني معاً قائم على أنها عوالم بعضها أرقى وجودياً من بعض، والأرقى مؤثراً في الأدنى، فعلمياً، وتر الجاذبية - مثلاً - المترشح من كون آخر إلى كوننا يكشف عن أنَّ الكون والعالم الذي ترشح منه أرقى من كوننا. ودينياً، عالم الأنفس - مثلاً - يعتبر أرقى من عالم الأجسام (عالمنا الحالي) ومؤثر فيه بل ومدبر له.

٤ - حدوث الكون:

حسم ميكانيك الكم الجدل الفيزيائي القائم حول حدوث الكون أو قدمه، وأثبت الحدوث بالدليل العلمي القاطع وأنَّ للكون بداية ابتداء منها.

والملفت أنَّ هذه الحقيقة العلمية التي كشفت عنها نظرية الانفجار العظيم واشتهرت بهذا الاسم في خمسينيات القرن الماضي أمر أكدّه الدين الإلهي ليس قبل زمن نظرية الانفجار الكبير بقرن أو قرنين ولكن قبل ما يزيد على عشرة قرون، ما يؤكد قدم سبق الكشف الديني على الكشف العلمي الفيزيائي.

قال السيد أحمد الحسن: (فالانفجار العظيم وتوسع الكون الجسماني الذي نعيش فيه مبين في القرآن، قال تعالى: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" أي: إِنَّ السماء بنيت (بأيدي) والمعنى: إِنَّ هناك عللاً وأسباباً سببها الله هي التي بنت السماء، والسماء في توسع، وهذا ما أكدته الأرصاد والمشاهدات للمجرات من حولنا؛ حيث إنها تبتعد متسارعة بحسب ظاهرة دوبلر وغيرها من الأدلة على توسع الكون التي تعرفنا عليها فيما تقدم من الكتاب) انتهى (٢).

١- التوحيد، الصدوق: ٢٧٧.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٥٦٧.

- الإمام الصادق عليه السلام: سئل (ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال: إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى ولو كان قديماً ما زال ولا حال لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث)^(١).

- الإمام الرضا عليه السلام: (دخل عليه رجل فقال له: يا ابن رسول الله ما الدليل على حدث العالم؟ قال: أنت لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكون نفسك ولا كونك من هو مثلك)^(٢).

سبق آل محمد لم يتوقف عند هذا الحد، بل حتى تشبيهه ستيفن هوكنج للكون في بدايته بكرة صغيرة شبيهة بقشرة الجوز في كتابه الذي يحمل عنوان "الكون في قشرة جوز" سبقه إليه آل محمد عليهم السلام: الإمام الصادق تحديداً، إذ قال:

- "إن الدنيا مثلت لصاحب هذا الأمر في مثل فلة الجوزة فقال: يا حمزة ذا والله حق فأنقلوه إلى أديم".

- "إن الدنيا تمثل للإمام في فلة الجوز فما تعرض لشيء منها وأنه ليتناولها من أطرافها كما يتناول أحدكم من فوق مائدته ما يشاء فلا يعزب عنه منها شيء"^(٣).

٥- البدء:

بنظر ميكانيك الكم لا تشخص للشيء كواقع فعلي بدون عملية الرصد والمشاهدة، ومن ثم لا يكون المستقبل مشخصاً لنا؛ لأنه غير مرصود أساساً، وبهذا فهو (أي المستقبل) سيتضمن احتمالات كثيرة "موجة" ونحن سنكون في أحدها في لحظة ما في المستقبل.

نفس هذه النتيجة التي أوضحها نظريات وتجارب ميكانيك الكم في القرن العشرين، أشار لها الدين الإلهي المتمثل بآل محمد عليهم السلام قبل مئات السنين من خلال ما

١- التوحيد، الصدوق: ٢٩٧.

٢- التوحيد، الصدوق: ٢٩٣.

٣- بصائر الدرجات، الصغار: ٤٢٨.

يعرف بـ"البداء"، وتعرضوا بسبب قولهم به للطعن من قبل مخالفهم بزعم أنه قول يؤدي إلى نسبة الجهل لله تعالى، مع أنّ الأمر لا يחדش العلم الإلهي من قريب أو بعيد!

عن أبي عبد الله عليه السلام، سئل عن قول الله: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب"، قال: "إنّ ذلك الكتاب كتاب يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت، فمن ذلك الذي يرد الدعاء القضاء، وذلك الدعاء مكتوب عليه، والذي يرد به القضاء، حتى إذا صار إلى أم الكتاب، لم يغني الدعاء فيه شيئاً"^(١).

وفق العقيدة الحقة التي نطق بها القرآن الكريم فيما يتعلق بعلم الله سبحانه، يوجد ما أسماه القرآن "اللوح المحفوظ" أو "أم الكتاب"، ويوجد أيضاً "لوح المحو والإثبات" أو "المتشابهات". أما على مستوى اللوح المحفوظ (وهو علم الله الذي تتصف به ذاته المقدسة) فهو علم ثابت والأمور فيه محددة ومشخصة بالدقة بلا أي تغيير أو تبدل. نعم، التبدل والتغير ووجود عدة احتمالات إنما يكون على مستوى "لوح المحو والإثبات" بحكم المتغيرات التي تحصل في عالم الخلق ومنها أفعال العباد أنفسهم وسعيهم في عالم الامتحان، فمثلاً: يوجد عدة احتمالات لموت زيد أحدها: أنه يموت بعمر ٤٠ سنة، لكن إذا دعا الله وتصدق يضاف لعمره ١٠ سنوات أخرى فيموت بعمر ٥٠ سنة وهو الاحتمال الآخر لعمره، وهكذا يوجد ربما احتمالات أخرى مرهونة بشروط معينة، أو مثلاً: مقدّر له أن يمرض أو يسجن من قبل الظالم في يوم "كذا" لكنه إذا دعا الله وعمل عملاً صالحاً يدفع عنه المرض والسجن، وهكذا. فواضح أنّ التغيير والتبدل إنما هو في العلم المتعلق بساحة وعالم الخلق وليس العلم الخاص بذات الله (العلم الذي تتصف به ذاته المقدسة). وهذه حقيقة بديهية وفطرية ويتعامل بها (عملياً) جميع المؤمنين بالله بمختلف مذاهبهم وقد نطق بها القرآن، قال تعالى: "يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" الرعد: ٣٩، وإلا فأين يمحو الله ويثبت إن لم يكن في عالم الخلق! وأيضاً: الروايات المتواترة تؤكد هذه الحقيقة، بل وتؤكد سيرة المؤمنين بالله ورسله عموماً كما قلت، وإلا لماذا يسعى المهوم أو المريض أو الناس الذي يمرون بظروف سيئة عموماً في الدنيا إلى تبدل حالهم ووضعهم إذا كانت الأمور بعالم الخلق مرهونة سلفاً بخيار واحد لا تبدل فيه ولا تغيير!

يقول السيد أحمد الحسن: (ومن علمه ما أظهره في عوالم الخلق ليطلع عليه من خلقه من شاء أن يطلعه عليه، وهذا هو لوح المحو والإثبات، وفيه لكل حادث احتمالات يعتمد حدوث كل واحد منها على العبد وما يحيط به، فعندما يحين حينها يحدث أحدها، ...) انتهى^(١).

القول بالبداء يعني أنّ الشيء الواحد الفعلي في حاضر الإنسان لا يمكن التنبؤ بمستقبله على وجه الدقة: لأنّ خط سيره يتفرّع إلى احتمالات ومسارات كثيرة، والإنسان سيكون في أحد تلك المسارات في المستقبل اعتماداً على توفير شروط وأسباب معينة كالسعي والدعاء وغير ذلك من أسباب كثيرة ذاتية وموضوعية، وكل تلك الاحتمالات مثبتة في لوح "المحو والإثبات"، كما أنّ الخيار والمسار الذي سيكون فيه الإنسان في خاتمة المطاف هو المثبت في لوح "أم الكتاب" لا غير من دون أن يطلع عليه أحد غير الله ومن شاء أن يطلعه عليه من خلقه.

٦- التأثير والتأثر للأجساد والأرواح عن بُعد:

ظاهرة الترابط الكمومي - أو التأثير الشبكي عن بُعد كما أسماها آينشتاين - أيضاً لها (أو ما يقاربها) شواهد دينية، والدين لما كان لا يحصر وجود الإنسان بالجسم فقط ويتعداه للروح والنفس فظاهرة الترابط والتأثير المتبادل عن بُعد نجدها واضحة فيها.

ربما صادفك يوماً شعرت فيه بأنك مغتم دون أن تعرف سبب ذلك، والسبب يوضحه الإمام الباقر عليه السلام:

(عن جابر الجعفي قال: تقبّضت بين يدي أبي جعفر عليه السلام فقلت: جعلت فداك ربما حزنت من غير مصيبة تصيبني أو أمر يتزل بي، حتى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي فقال: نعم يا جابر إن الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم

١- عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن: ١٨٣.

من ربح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه، فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حزن حزنت هذه لأنها منها^(١).

الترابط الكمومي في نظر القائمين على الدين الإلهي ليس مجرد ترابط بين جسيمين كموميين كانا متشابهين في وقت سابق ثم انفصلا، بل الأمر - بحدود الإنسان لا أقل - أوسع من ذلك بكثير.

يقول السيد أحمد الحسن: (الترابط الكمومي أو عدم الانفصال له أبعاد أكبر بكثير من حال جسيمين أو فوتونين انطلقا من أصل واحد، حيث إنَّ الكون كله حدث كمي ويرجع إلى أصل واحد عند الانفجار العظيم، وبعض الجسيمات كانت متقاربة وملتصقة ببعضها في الماضي، فجسيم في أطراف الكون أو في جسد كائن حي آخر ربما كان في يوم ما في لحظة ما ملتصقاً بجسيم موجود في جسدك الآن، ويمكن أن تتأثر أنت بتأثره هو، كما يمكن أن تؤثر أنت بطريقة ما بالأشياء عن طريق الترابط الكمومي) انتهى^(٢).

الخلاصة:

بعض النتائج التي توصّل لها علماء ميكانيك الكم رأينا كيف سبقهم إليها رسل الله (محمد وآله صلوات الله عليهم) قبل قرون عديدة، وأما طريقة عرضهم الإجمالي لها فلأنهم يخاطبون أهل زمانهم ويطرحونها بما يناسب حالهم. ولا شك، إنَّ التقاء نتائج النظريات العلمية الحديثة مع نصوص الدين الإلهي الذي بعث به محمد وآله صلوات الله عليهم يؤكد بوضوح تام صحة وأحقية منهجهم ورسالتهم الإلهية، وإلا فمن أين عرف محمد وآل محمد النتائج التي خلصت لها أحدث نظريات وتجارب ميكانيك الكم في العقود الأخيرة مثل: وجود الطبيعة المزدوجة لكل حدث في الكون وأنَّ موجة الاحتمالات تبقى قائمة ما لم يحصل لها عملية رصد ومشاهدة فتتهار دالة الموجة حينئذٍ ويحصل التشخيص لواقع معين؟! من أين عرفوا بحدوث الكون، وتعدد العوالم والأكوان، وظاهرة الترابط الكمومي، وتفترع مسار المستقبل إلى "موجة" مسارات واحتمالات كثيرة

١- الكافي، الكليني: ٢ / ١٦٦.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٧٢.

جداً بسبب عدم الرصد!! من أين علموا بأنّ الإنسان (المشاهد الذكي) هو هدف وجود الكون ولولاه لما وجد إذ ليس هناك من يرصده أصلاً؟!

لا يمكن معرفة تصميم الكون على وجه الدقة خصوصاً في زمن لا يعرف الناس فيه شيئاً عن العالم الذري فما دون إلا بإخبار من قبل المصمّم الحكيم والهادف نفسه!

ثانياً - الإنسان هدف الحياة الأرضية:

نشوء الحياة على الأرض:

قصة بدء الحياة على الأرض تبدأ من معرفتنا بعمر الأرض الذي حدّده العلماء بـ ٤,٦ مليارات سنة تقريباً، وكانت في بداية تشكّلها غير صالحة لظهور الحياة عليها بسبب ارتفاع حرارتها حيث احتاجت إلى ما لا يقل عن المليارات من السنين لتبرد وتصلح لظهور طلائع الحياة البدائية.

في تفسير بداية نشوء الحياة على الأرض قدّم بعض علماء الأحياء فروضاً لا يصلح أيٌّ منها لأن يشكّل نظرية علمية مبرهنة وقادرة على تقديم تفسير منطقي ومعقول لنشوء الحياة الأولى على الأرض، فمعلوم أنّ كروموسوم الخلية الحية أو حمضها النووي هو سر الحياة المادية فيها؛ إذ بواسطته يحصل النسخ والنمو والتكاثر، وبالتالي فهو سبب ديمومة وتطور الحياة الأرضية، إلا أنّ وجوده وتخليقه من مواد كيميائية غير حيّة بلا تدخل خارجي إعجازي (جهة مدركة وحكيمة وهادفة) يتطلب فرض احتمالات خيالية صعبة التحقق بل أشبه ما تكون بالمستحيل!

أوضح ذلك السيد أحمد الحسن في كتابه "وهم الإلحاد"^(١).

١- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٦٦ - ٦٨.

وبعد مناقشة الفروض الخيالية التي طرحها بعض الملحدون لتفسير ظهور الحياة من مواد كيميائية غير حية، قال السيد أحمد الحسن:

(النتيجة: لا توجد فرضية ذات قيمة علمية في تفسير قصة نشوء الحياة على الأرض بشكل منطقي مقبول دون فرض أمور صعبة التحقق علمياً، وبالتالي فهناك فرصة منطقية ومقبولة على الأقل حتى الآن لفرض تدخل الإله والجانب الغيبي ليفسر حدوثها في موازاة تلك الفروض صعبة - أو شبه مستحيلة - التحقق) انتهى^(١).

النتيجة التي انتهى إليها السيد أحمد الحسن اعترف بها بعض العلماء أيضاً^(٢).

تطور الحياة على الأرض:

الأحياء الأرضية سواء كانت حيوانات أو نباتات لم توجد جميعها على الأرض دفعة واحدة، وإنما تواجدت بالتدرج والتطور من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً. هذا ما أثبتته دارون في نظرية التطور الشهيرة التي قام بطرحها في كتابه "أصل الأنواع"، مستنداً فيها إلى أدلة حصل عليها نتيجة المراقبة والتشريح المقارن، ثم تراكمت الأدلة لاحقاً بعد التطور التكنولوجي وأثره الإيجابي في دراسة الأحفوريات والتشريح المقارن والجينات.

يقول السيد أحمد الحسن: (ملخص ما جاء به داروين وعلماء الأحياء من بعده في مسألة التطور هو: إنّ مجموع التمايز بين الأفراد - نتيجة تمايز خرائطهم الجينية مثلاً - مع عملية الانتخاب للطبيعة المحيطة بهم مع الوراثة ينتج تطوراً يتناسب مع تلك الطبيعة المحيطة، وهذه مسألة لا تحتاج أحفوريات لإثباتها؛ لأنها مسألة قطعية التحقق إذا فهم القارئ معنى تمايز الخرائط الجينية واحتفاظ أو انتقاء الطبيعة للأعراق المفضلة.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٧٤.

٢- (السؤال الحاسم بشأن الكيفية التي بدأت بها الحياة على الأرض، سواء مرة واحدة أو عدة مرات، ليس له إجابة وافية، مع أنّ التخمينات بشأن هذا الموضوع لها تاريخ طويل ومثير للاهتمام، وتنتظر من يستطيعون حل هذا اللغز مكاسب عظيمة. وعلى مر التاريخ، من ضلع آدم إلى وحش فرانكشتاين، أجاب البشر عن هذا السؤال من خلال الاستعانة بفكرة قوة الحياة الغامضة التي تبث الحياة في الجماد) البدايات، تايسون وسميث: ٢٠٦.

فالمسألة ببساطة؛ عندما يكون لدينا تمايز مع اختيار أو انتقاء مع وراثية فإننا سنحصل حتماً على تطور، والتمايز موجود ولا يوجد أدنى شك بوجوده بين أفراد النوع الواحد، والاختيار أو الانتقاء أيضاً موجود حتماً؛ لأنه ملازم للطبيعة ومتطلباتها والمتغيرات التي تطرأ باستمرار كإنخفاض مستوى المياه والجفاف وارتفاع وانخفاض درجة الحرارة ودخول مفترس أو طرائد جديدة، والوراثة أيضاً حتمية ما دام هناك توالد وتكاثر. إذن، فمسألة التطور مسألة حتمية في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل؛ لأن مقدماتها كلها موجودة وكانت موجودة، فالمسألة إذن لا تحتل نعم أو لا؛ لأنها واضحة كوضوح دوران الأرض، وإضافة إلى ما تقدم هناك أدلة متراكمة من علم التشريح المقارن ومن الأحفريات وعلم الجينات تؤكد مسألة التطور، هذا مع أن التطور واضح حتى في سلسلة الأحياء الحالية التي بين أيدينا) انتهى^(١).

استعرض السيد أحمد الحسن أدلة التطور بالتفصيل وشرحها بأسلوب علمي مبسط في كتابه "وهم الإلحاد"، وباختصار، أقول:

١- نظرية التطور تسهم بتفسير كثير من الظواهر المشاهدة في الكائنات الحية، فمثلاً: أصول الإنسان الأوروبي ترجع إلى أفريقيا المعروف إنسانها بلون بشرته السوداء، لكنه الآن أبيض بل ويتدرج بياضه بين جنوب أوروبا وشمالها، والسبب هو أن الطبيعة انتقلت البشرية البيضاء والفاتحة ورسختها بمرور الوقت وأخرجت ما سواها عن المنافسة؛ باعتبارها العرق المفضل واللون المناسب للمحيط في تلك البيئة التي تتصف بقلة أشعة الشمس من الأساس، بينما اللون الأسود والداكن عموماً يقلل امتصاص أشعة الشمس الأمر الذي يتسبب حتماً بنقص فيتامين "D" وتهديد الحياة. والشواهد في هذا المجال كثيرة جداً.

٢- علم التشريح المقارن يؤكد صحة نظرية التطور، ومثال عصب الحنجرة من بين الأمثلة الشهيرة التي تطرح بهذا الصدد، فهو عصب موجود في السمكة وفي البرمائيات والغزال والزرافة والإنسان، وهو في السمكة (الأقدم وجوداً) يسير من الدماغ إلى الخيشوم ملتفاً حول القلب، ونفس هذا الالتفاف نجده لدى البقية (التي وجدت لاحقاً)

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٧٥ - ٧٦.

ولم يوصل العصب فيها من الدماغ إلى الحنجرة بشكل مباشر، لكن الالتفاف حول القلب بقي كما هو مع أنه في الزرافة مثلاً أخذ مسافة طويلة بسبب بعد القلب عن الحنجرة، وهذا يكشف عن أنه إرث تاريخي في وجود تلك الأحياء، وإلا فلو كان كل حيوان منها قد صمّم على حدة ولم يتطور عن السمكة فسيكون متصلاً من الدماغ إلى الحنجرة بشكل مباشر خصوصاً مع قرب المسافة بلا أن يكون هناك أي هدر اقتصادي في التصميم.

٣- الأحفوريات سواء ما يتعلق منها بالكائنات الحيّة عموماً أو الإنسان بالخصوص، حيث أمكنها أن توفر لنا سجلاً جيولوجياً تاريخياً لطبقات الأرض، وأن كل طبقة منها كلما كانت أقدم احتوت على أحياء أبسط وكلما كانت أحدث احتوت على أحياء أرقى والأمر متدرج، وهذه حقائق تثبت نظرية التطور وتبطل الاعتقاد بالخلق فجأة ودفعه واحدة.

٤- كذا الحال بالنسبة إلى الأدلة الجينية، وهي كثيرة (١).

وأيضاً: الكون برمته خاضع لسنة التطور الإلهية كما ذكرنا سابقاً؛ حيث رأيناه بعد لحظة نشوئه بالانفجار العظيم سار شيئاً فشيئاً وطوراً فطوراً متدرجاً من البساطة إلى التكاثر والتعقيد فمثلاً: على مستوى تكوين العناصر ابتدأ بأبسطها وجوداً "عنصر الهيدروجين" ثم الأثقل فالأثقل وصولاً إلى نشوء الكواكب والمجرات ... إلخ، ولا شك أنّ الأرض بما فيها من حياة ما هي إلا جزء بسيط جداً من منظومة الكون الواسعة لا أكثر!

يقول السيد أحمد الحسن عن الاعتقاد بتطور الحياة الأرضية:

(وهذا إضافة إلى أنه موافق للعلم فهو أيضاً موافق للعقيدة الدينية الصحيحة في الخلق وموافق لسنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير؛ حيث إن السماوات السبع والوجود الممكن أو المخلوق عموماً بدأ بصادر أول بسيط ثم نشأ بعده التكاثر والتعقيد، فمثلاً: نحن كلما تحركنا بعيداً (بعداً معرفياً) عن مصدر الوجود سنجد أن الموجودات تتكثرت وتعقد ويزيد التنافي بين الموجودات، فالسماوات السادسة أعقد وفيها تكاثر أكثر من السماء السابعة والخامسة أكثر من السادسة وهكذا، وأيضاً لودرسنا وضع السماء الجسمانية على حدة

١- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٩٢ - ١٠١.

نجدها بحسب نظرية الانفجار الكبير بدأت بصورة بسيطة واتجهت نحو التعقيد والتكثر، فما المانع أن تكون الحياة الأرضية محكومة بنفس القانون الكوني أو يمكن أن نسميه السنة الإلهية التي لا تتبدل، بل إن مقتضى عدم تبدل السنة يقول إنها لا بد أن تكون كذلك، وبهذا تكون بدايتها بسيطة ومن ثم نشأ التكثر والتعقيد من تلك البداية البسيطة كما هي سنة الله في السماوات السبع وكما هي سنة الله في السماء الجسمانية) انتهى^(١).

وبعد استعراض أدلة التطور، ختم السيد أحمد الحسن بحث الأدلة بقوله:

(إيجاز: الأدلة على صحة نظرية التطور كثيرة جداً، والإشكالات التامة على القول بالخلق دفعة واحدة كثيرة، كما تقدم إشكال عصب الحنجرة ومثله غيره من إشكالات التشريح المقارن، وإشكالات الجيولوجيا التاريخية التي أثبتت بشكل قطعي أن الحيوانات والنباتات وجدت في صورة مترقية في فترات زمنية متتالية، فوجدت البكتريا وبعد زمن طويل وجدت خلية حقيقية النواة، ومن ثم وجدت كائنات متعددة الخلايا، وهكذا تطورت الحياة شيئاً فشيئاً، فإذا كان الخلق دفعة واحدة، وكان الله هدفه الإنسان والبيئة والكائنات التي تحيط به، والإنسان لم يوجد إلا في فترة قريبة جداً بالنسبة للتاريخ الجيولوجي للأرض، فما هو الداعي أن يخلق الدفعات الأولى ويجعلها مرتبة، بحيث إن كل دفعة خلق أحدث تكون مشابهة وأكثر رقياً وتطوراً من الدفعة الأقدم، هل مثلاً أن الله خلقهم بهذا التدرج الزمني والارتقائي لأنه أراد أن يخدع الإنسان ويجعله يعتقد بالتطور عندما يرى أن الخلق مرتب بصورة مترقية بالتدرج في الطبقات الجيولوجية؟ أكيد لا، فالله يريد أن يعرف الإنسان الحقيقة كما هي، ويريد أن يؤمن الإنسان بالله وبالخلق كما أوجده الله.

الجواب الوحيد المقنع والمنطقي والمقبول لما نراه في الجيولوجيا التاريخية هو: أن الحياة بدأت بسيطة ثم تطورت وارتقت بالتدرج. وإذا كان لدى القائلين بالخلق دفعة واحدة جواباً منطقياً ومقنعاً وله قيمة علمية وتؤيده الأبحاث الجينية والتشريح المقارن وسلسلة الأحياء الموجودة و... و... و... الخ فليقدموه، أما أن يرفضوا نظرية التطور هكذا؛ لأنها لا تعجبهم، أو لأن بعض الملحدين يستغلونها لإنكار وجود الله سبحانه ويعجز

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٨٩.

هؤلاء عن ردهم فيلجؤون إلى العناد ورفض نظرية التطور رغم الأدلة القائمة على صحتها، ورغم الإشكالات العلمية التامة على القول بالخلق دفعة، ورغم أنه حتى النص الديني يدل على التطور، فهذا يكون تعسفاً وعناداً مقيتاً) انتهى^(١).

تنبيه:

التطور لا يعني "أنَّ الإنسان أصله قرد" كما يصوّره بعض الجبهة لعامة الناس بهدف تنفيرهم، فلا القرد أصل للإنسان ولا العكس، والصحيح أنَّ كلاهما فرع أحيائي مستقل عن الآخر بعد أن انفصلا من أصل مشترك قبل ملايين السنين. التطور يعني وجود سلف مشترك أولي (البذرة الأولى) انطلقت منه الحياة الأرضية ثم بمرور الوقت تطورت وتفرعت شجرة الأحياء وصولاً إلى ظهور الإنسان العاقل من أحد أفرعها.

بالتأكيد، الأمر لا يقف عند السلف المشترك الأولي، فهو سلف لجميع الأحياء، وإنما هناك سلف مشترك قريب يكون أصلاً لأكثر من صنف أحيائي تلتقي عنده، وأيضاً: يوجد سلف مشترك متوسط (يقع بين السلف الأولي والقريب) ضمن مسيرة التطور الطويلة التي استغرقت مئات ملايين السنين.

الأمر أشبه ما يكون بالشجرة التي كبرت وتفرعت وازدادت أغصانها بمرور الوقت، فبالرغم من أنَّ بدايتها كانت بذرة، لكنها بمرور الوقت تفرعت إلى أغصان في مرتبة رقم ١، ثم كل غصن منها تفرع إلى أغصان فرعية في مرتبة رقم ٢، ثم أغصان فرعية في مرتبة رقم ٣ ... وهكذا، وهذا يعني أنَّ أغصان فرعية بالمرتبة الرابعة مثلاً تلتقي في سلف قريب (غصن بالمستوى الثالث بحسب المثال) وسلفها المتوسط هو غصن بالمستوى الثاني وهكذا نزولاً إلى أن نصل إلى البذرة الأولى التي هي سلف مشترك لجميع الأحياء الأرضية.

السير التطوري للأحياء على الأرض دائماً يتجه من البساطة إلى التعقيد، وهذا يقتضي (وهو ما حصل بالفعل) أن تكون البداية بخلايا بدائية النواة كالتي توجد في البكتيريا ثم بعد مرور وقت طويل ارتقت الأحياء ووجدت الخلايا حقيقة النواة، ثم ارتقت

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٠١ - ١٠٢.

تدريجياً وصولاً إلى الكائنات متعددة الخلايا، وهكذا استمر الارتقاء طوراً بعد طور بشكل تدريجي. علماً، أن كل طور من هذه الأطوار يحتاج إلى وقت طويل يقدر بملايين السنين.

وبخصوص الإنسان العاقل (الهومو سابينس)، فهو لم يظهر إلا في فترة قريبة جداً بالنسبة للتاريخ الجيولوجي للأرض، وبالتحديد في الـ ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف سنة الأخيرة من عمر الحياة على الأرض الذي يمتد إلى ما يزيد على ٣,٥ مليار عام، بل ولم يكتمل شكله النهائي الحالي إلا في الـ ١٠٠ ألف سنة الأخيرة تقريباً^(١).

دلالة قرآنية وروائية على التطور:

يقول السيد أحمد الحسن: (نظرية التطور عبارة عن نظرية علمية، ولهذا فنحن عندما نورد نصوصاً دينية متوافقة معها فهذا لا يعني أننا نريد إثبات نظرية التطور من خلال النص الديني، بل غاية ما نريد هو إثبات توافق النص الديني مع هذا الاكتشاف العلمي، وربما أيضاً إثبات أحقية الدين من خلال إثبات المعارف الغيبية التي احتواها النص الديني، حيث يمكن أن يقال مثلاً: إِنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَ التَّطَوُّرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا"، وفي حين لم يتمكن الإنسان من اكتشاف هذه الحقيقة العلمية إلا حديثاً، وبهذا تثبت أحقية القرآن وأحقية الرسول محمد صلى الله عليه وآله من خلال إخباره الغيبي عن حقيقة علمية قبل أن تكتشف بأكثر من ألف عام، ومثله يمكن أن يقال في إخبارات آل محمد عليهم السلام، حيث أخبروا قبل أكثر من ألف عام عن وجود النسناس أو أشباه الناس قبل وجود الإنسان، وهذه حقيقة علمية اكتشفت الآن، فبحسب البحوث الجينية ثبت وجود إنسان النياندرتال المختلف جينياً عن الإنسان الحديث، كما اكتشفت احفوريات الهومو إركتس والهومو سابينس الأفريقي.

١- أشارت الأبحاث العلمية إلى ظهور الإنسان العاقل قبل ٣٠٠ ألف سنة في (جبل إغود - المغرب) مع نطاق يحدد أحياناً ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف سنة، في حين كان الاكتمال بحدود ١٠٠ ألف سنة بحسب أبحاث Nature، المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي ببريطانيا، وموقع برنامج "أصول الإنسان" بمؤسسة سميثسونيان، انظر:

- قوله تعالى: "وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً" نوح: ١٤ - ١٧.

"وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً": الطُّور: هو الحال المميزة المترقية، وسمي الجبل طوراً لتمييزه بالارتفاع والارتقاء عن محيطه، ويسمى الطائر (وجمعه الطير)؛ لأنه يتميز بامتلاكه أدوات تمكنه من الارتفاع والارتقاء نحو الأعلى عن محيطه عادة وهي الأجنحة، والأطوار: هي الحالات المتميزة المترقية والمترفعة، وبهذا يكون معنى "وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً": إنَّ الله خلقكم في الماضي الذي تحقق وانتهى ^(١) ومررتكم بأحوال متعددة ومتميزة ومترقية، أي أطواراً جسمانية مترقية تصاعدياً مررنا بها حتى وصلنا إلى جسم يمتلك آلة ذكاء فائق، وبالتالي أصبح مؤهلاً فاتصلت به نفس آدم عليه السلام، ولا يمنع أن تكون أطوار الترقى أنجزت خلال مليارات السنين حتى وصل الأمر إلى الجسم المناسب لنزول نفس آدم عليه السلام وبثها في فرد منه وهو في الرحم.

"أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً": أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ: أي إذا أردتم معرفة كيف خلقكم أطواراً فهي مسألة تشبه مسألة السماوات. إذن، فالأطوار إذا لم تتضح لنا سابقاً فهي تماماً كحال السماوات السبع التي تتميز بأن بعضها فوق بعض وبعضها أرقى من بعض رتبة، إذن هذه الآية أوصلتنا إلى نفس النتيجة السابقة وهي أن جسم آدم مرَّ بأطوار ترقى كما أن السماوات تتدرج بأطوار ارتقاء وترقى.

"وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً": أظن أن هذه الآية لا تحتاج أي شرح لشدة وضوحها، فالآية تقول أنتم بذرة بذرت في هذه الأرض ونبتت وأنجبت. كالنبات أنبتكم الله، والنبات لا ينتج مباشرة بل يمر بأطوار ويترقى، فالبداية تكون بذرة صغيرة تبذر في الأرض وتسقى الماء، ثم تنبت نبتة صغيرة من البذرة والأرض والماء وتكبر هذه النبتة وترقى ومن طور إلى طور حتى تكتمل وتبدأ بإنتاج الثمر، وهذا هو ما حصل معكم، خريطة الله الجينية بذرت في هذه الأرض وترقت حتى وصلت إلى منتهائها وحقت الغرض، وسيأتي إن شاء الله بيان

١- "قد": حرف تحقيق هنا أي: إنَّ خلقكم أطواراً قد تحقق وانتهى فيما مضى، وبهذا يكون المراد بالأطوار هي أطوار الترقى والتطور الجسماني التي سبقت إنزال نفس آدم عليه السلام إلى هذا العالم واتصالها بجسم آدم عليه السلام.

كيف أن هذه الخريطة هي دليل واضح على وجود الله سبحانه وتعالى، وبهذا تكون نظرية التطور دليلاً على وجود الله سبحانه وتعالى وليس العكس) انتهى^(١).

وأما على مستوى الروايات، فقد أكدت روايات آل محمد عليهم السلام على وجود التطور من خلال بيان أن آدم عليه السلام لم يكن الجسم الإنساني الأول على الأرض، وإنما سبقه خلق يشبهونه في الجسم أسمتهم الروايات بـ "النسناس" أو "أشباه الناس" بحسب المصطلح الذي يطلقه بعض علماء الأحياء التطورية، وهم: الهومو ارتكس والهومو سابينس والنياندرتال الذين ظهروا على الأرض قبل آدم عليه السلام.

وهذا مثال للروايات: عن الإمام الباقر عليه السلام: (لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض، فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثم خلق الله عز وجل أبا هذا البشر وخلق ذريته منه)^(٢).

يقول السيد أحمد الحسن: (وهذه الرواية تبين أن الله خلق قبل آدم عليه السلام على الأرض سبعة أنواع من أشباه الناس على الأقل، وهم ليسوا من ولد آدم، وسبقوا آدم عليه السلام على هذه الأرض) انتهى^(٣).

هدف التطور الأرضي:

لما نتحدث عن هدف التطور في الحياة الأرضية فنحن أمام مستويين من الأهداف: مستوى قريب: كأن يوفر الطفر والتغير الجيني خلية تحسس للضوء مثلاً قابلة لأن تتطور بمرور الوقت إلى عين باصرة، وحيث إن هذا الجين يوفر فرصة بقاء أفضل للكائن الحي سيتم انتخابه وترسيخه وبقوله، فالتطور – والحال هذه – عملية هادفة على المدى القريب بإقرار جميع علماء الأحياء، لكن ما ينكره الملحدون هو أن يكون التطور هادفاً على المدى البعيد، أي إنكار الهدف على مستوى تطور الإنسان ككل والحياة الأرضية عموماً،

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٣٢ - ١٣٣.

٢- الخصال، الصدوق: ٣٥٩.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٣٢ - ١٣٣.

والسبب في ذلك واضح وهو تبنيهم للإلحاد ونفي وجود إله، فموقفهم أقرب لأن يكون موقفاً فلسفياً منسجماً مع إيديولوجية فكرية مسبقة من كونه نتيجة علمية موضوعية وحيادية ومبرهنة كما يفترض أن يكون بصفتهم علماء متخصصين في حقل علمي معين!

وعموماً، يقول السيد أحمد الحسن: (الحقيقة، إنّ التفسير العلمي للحياة الأرضية يثبت وجود إله وليس العكس؛ حيث لو تم التدقيق في نظرية التطور (النشوء والارتقاء) فسنجد أنها عبارة عن عملية تنفيذ للخريطة الجينية المقتنة الهادفة، وهذا يجعلها دالة على مقنن هادف، وبالتالي فهي ليست فقط لا تتعارض بل تتوافق تماماً مع الأدلة العقلية التي ساقها القرآن لإثبات وجود إله، وبالاختصاص دليل (صفة الأثر دالة على صفة المؤثر)، فالتطور هادف بمجموعه.

وبالنسبة للتطور، فإنّ دوكنز ومن يريدون تسويق الإلحاد بما أنهم انطلقوا من الإنكار وليس التشكيك، فقد جرّؤوا التطور بنظرتهم وقالوا: انظر هناك طفر جيني عشوائي^(١)، وهناك انتخاب طبيعي غير عشوائي هادف على المدى القصير، فقط حيث إنّ ما يحصل هو انتخاب الأفضل والأقدر على العيش في المحيط الطبيعي، فلا يوجد إذن هدف نهائي أو بعيد المدى، فالنتائج النهائي أو الحالي حصل من تراكم نتائج هذه العملية مع الزمن، إذن فهي عملية عمياء غير هادفة في النهاية.

ولو أنهم لم ينطلقوا من الإلحاد والكفر بوجود إله وانطلقوا من الشك في وجود إله ونظروا إلى التطور ككيان واحد لرأوا أنه يسير بنظام دقيق منتج كأفضل مصنع سباكة يمكن أن نراه، ففي مصنع السباكة لا تخرج القطع من موقع الصب مصقولة عادة بل تجري عليها عدة عمليات صقل وربما قطع حتى تخرج القطعة بشكلها النهائي المطلوب، والتطور كذلك. وأيضاً لو أنهم نظروا له على أنه كيان واحد لحكموا من خلال كونه منتجاً

١- وصف الطفر بالعشوائي (غير مقنن ومنظم وهادف) دائماً إنما هو بحسب علماء الأحياء التطورية (الملحدون منهم بالخصوص)، مع أنه مجرد احتمال لم يتم إثباته علمياً، ويبقى احتمال كونه قانونياً منظماً هادفاً أو أنه خليط من العشوائي والقانوني المنظم الهادف وارد أيضاً. والحق، أنّ الموجود في الخارج كنتيجة أنتجها التطور تؤكد أنّ الطفر والتغير الجيني حصل ويحصل ضمن قانون منظم وهادف وليس أمراً عشوائياً بدليل أنه أنتج بالنهاية آلة الذكاء "الدماغ". وبالتالي، لا يمكن الحكم بأنّ الخريطة الجينية غير مقننة وغير منظمة وهي في الواقع مقننة ومنظمة، واستهدفت إنتاج الذكاء الفائق! انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٢٠٥ - ٢٠٧.

على أنه هادف، فقد أنتج التطور الذكاء وبالتالي الحكمة والإيثار والأخلاق، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلو لم يكن هادفاً ومن ورائه مقنن لما أنتج هذا الإنتاج القيّم.

ولكنهم للأسف يجزئون التطور وينظرون إلى أجزائه، وبالتالي لا يمكن أن يرون نتاجه على أنه نتاج يخصه، هم يفعلون تماماً كمن يجزئ صناعة كبيرة إلى خطوط إنتاجية منفصلة ليتم تشتيت نظر الباحث بأهداف قصيرة المدى لخطوط الإنتاج عن الهدف النهائي للصناعة ككل) انتهى^(١).

واضح من كلام السيد أحمد الحسن أنّ الوصول إلى آلة الذكاء والإنسان الذي هو الهدف من التطور، لذلك يقول أيضاً:

(فصل الخطاب "التطور هادف"):

لدينا جينات وطفر جيني وقانون البقاء للجينة الأفضل أو يمكن أن نقول: للكائن الأفضل، فالفرق بين الجينة والكائن كالفرق بين خريطة بناء البيت والبيت نفسه وقانون البقاء للجينة المفضلة يصقل هذه الجينات، ونحن نعلم الآن بشكل قطعي أن آلة البقاء الأفضل بالنسبة للحياة الأرضية على الإطلاق هي آلة الذكاء (الدماغ)، ورغم أنّ كلفة آلة الذكاء أو الدماغ الاقتصادية عالية جداً على الكائن الحي حيث إنه يحتاج كمية غذاء كبيرة ولكن التطور بالنتيجة مُجبر على أن يسير بهذا الاتجاه أي أن يطور آلة الذكاء.

فطالما أنّ الطفر الجيني موجود منذ البداية فلا بد أن تتوفر جينات بناء آلة الذكاء (الدماغ مثلاً) عاجلاً أم آجلاً حتى وإن كان الطفر الجيني عشوائياً تماماً.

وبما أنّ قانون البقاء للجينات الأفضل أو للكائن الأفضل^(٢) هو الحاكم في عملية التطور، إذن فالنتيجة أننا الآن يمكننا الجزم بأنّ التطور منذ البداية متجه وهادف لإنتاج جينات آلة ذكاء أو كائن ذكي، فالتطور إذن هادف.

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ١٩٤ - ١٩٥.

٢- الجينات والكائن كخريطة البناء والبناء نفسه فالجينات تمثل الخريطة والكائن الحي يمثل ناتج تنفيذ الخريطة.

وأعتقد أنّ هذا الاستدلال التام كافٍ لنقض نظرية د. دوكتز الإلحادية ضمن نطاق الحياة الأرضية القائمة على أنّ التطور غير هادف على المدى البعيد.....

هكذا نكون قد وصلنا إلى فصل الخطاب وحسم الخلاف حول إمكان إثبات وجود رب أو إله بحسب نظرية التطور، فقد أثبتنا للحياة صفة الهدف وأنها هادفة والتطور هادف، وحيث إنّ صفة الأثر دالة على صفة المؤثر فيثبت للمؤثر صفة أنه هادف ومدرك وعالم، وبهذا أثبتنا وجود مؤثر هادف ومدرك وعالم، وبالنسبة لثبوت وجود رب أو إله سواء كان هو المؤثر المباشر أم كان المؤثر المباشر أثراً من آثاره دالاً عليه بصفته أيضاً، أي صفة الهادف التي أثبتناها، وهذا بحد ذاته كافٍ لنقض النظرية الإلحادية الحديثة المبنية على أساس أنّ التطور غير هادف على المدى البعيد) انتهى^(١).

تنبيه:

من يريد التوسع والتأكد أكثر من حقيقة أنّ التطور بمجمل أركانه (التمايز الجيني، الانتخاب الطبيعي، الوراثة) هادف ومنتج، وأنّ الخريطة الجينية للأحياء مقنّنة وتهدف إلى إنتاج كائن ذكي فيمكنه الرجوع إلى كتاب "وهم الإلحاد" للسيد أحمد الحسن وقراءة الفصل الرابع منه. وعموماً، بالنسبة إلى هدف تطور الحياة الأرضية فقد تحقق ووجد الإنسان الذكي وتحقق مراد الله سبحانه؛ سواء أقر علماء الأحياء بقانونية التطور وهدفه أو أنكروا!

علماء، أنّ البحوث السابقة تكفّلت ببيان التقنين ودقة النظام ووجود الهدف على مستوى الكون ككل، والأرض والحياة الأرضية ما هي إلا جزء بسيط من الكون لا أكثر. وإذا كان بعض علماء الأحياء الملحدون يستثقلون حقيقة أن يكون الإنسان الذكي هدفاً لتطور الحياة على الأرض فقد أثبتت دراسات وبحوث الفيزياء الكونية وميكانيك الكم أنّ "المشاهد الذكي" هدف لوجود الكون برمته كما تقدم بيانه.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٩٦ - ١٩٧.

ظهور الإنسان العاقل على الأرض:

سجل الإنسان الأحفوري:

هناك أنواع كثيرة من الجنس الإنساني تقع ضمن عائلة البشر في خط السير التطوري الطويل، لكنها انقرضت بمرور الوقت وتسيّد آخرها ظهوراً على الأرض - أعني "الإنسان العاقل" - وانفرد باستعمار الأرض والانتشار فيها، وكان آخر المزامين له هو إنسان النياندرتال الذي انقرض قبل ٢٤ ألف سنة^(١).

التاريخ الأحفوري للإنسان يؤكد وجود كائن منتصب على قدمين يشبه الإنسان الحالي قبل ما يقرب من ٤,٤ مليون سنة، يشار له مختصراً باسم "آردي"، ويقع علمياً ضمن شجرة تطور الإنسان الحالي. كما أنّ الأحفوريات سجلت بداية ظهور أشباه الإنسان أو الإنسان ذو الجسم المنتصب المنزوع الشعر (الهومواركتس) قبل ٢ مليون سنة تقريباً. وقد أشارت البحوث العلمية إلى أنّه تمكن من استعمال النار وأدوات صيد بسيطة كالقؤوس الحجرية، ولديه حياة اجتماعية بسيطة في الأغلب^(٢).

من الهومو اركتس تفرّع هومو هايدلبرغ قبل ٧٠٠ ألف سنة تقريباً، والإنسان أو أشباه الإنسان في هذه الفترة كان يملك دماغاً بحجم كبير، وتمكن من صناعة الرمح وصيد الفرائس الكبيرة. هاجر من أفريقيا، ثم بمرور الوقت تطور إلى إنسان النياندرتال الذي انتشر في أوروبا إلى أن انقرض قبل ٢٤ ألف عام تقريباً.

١- بحسب بعض الدراسات الحديثة: فإنّ القصة بدأت بظهور الإنسان الماهر (هومو هابيليس) الذي عاش في شرق أفريقيا بين ١,٤ - ٢,٣ مليون سنة، ثم ظهور الإنسان المنتصب (هومو اركتس) قبل ١,٩ مليون سنة واستمر حتى وقت انقراضه قبل ١٣٠ ألف سنة بحسب أحدث الدراسات، وأما إنسان هايدلبرغ فقد ظهر على الأرض قبل ٧٠٠ ألف سنة تقريباً وانقرض قبل ٢٠٠ ألف سنة، بينما ظهر إنسان النياندرتال متفرعاً عنه قبل ٤٠٠ ألف سنة وانقرض قبل ٢٤ ألف سنة، وأما الإنسان العاقل (هومو سايننس) فقد ظهر قبل ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف سنة، وهو الوحيد الذي يعيش على الأرض الآن. علماً، توجد أنواع أخرى من الإنسان لكن فترة تواجده على الأرض كانت قصيرة.

٢- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١١٤.

بحسب السجل الأحفوري أيضاً؛ فإنَّ الإنسان العاقل (الهومو سابينس) ظهر قبل ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف سنة تقريباً منشقاً عن الهومو اركتس أو هومو هايدلبرغ، ثم استمر بالتكامل إلى شكله النهائي الحالي قبل ١٠٠ ألف عام تقريباً^(١).

العصور الحجرية:

من جانب آخر: اعتاد علماء الآثار والانثروبولوجيا على تقسيم تاريخ الإنسان الموغل في القدم إلى عصرين أساسيين، هما: عصور ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية.

عصور ما قبل التاريخ Pre-History: يقصد بها العصور التي مرَّ بها الإنسان في سيره التطوري قبل اختراع الكتابة وبداية ظهور الحضارة والتمدن في بلاد ما بين النهرين كأولى الحضارات وأقدمها^(٢). وهذا يعني أنَّ عصور ما قبل التاريخ سيكون لها الحيز الأكبر من تاريخ الإنسان التطوري الذي يعود إلى الوراثة بملايين السنين، ولا أقل مليوناً عام مضت على ظهور الهومو اركتس؛ الإنسان المنتصب متزوع الشعر الذي انشق منه الإنسان العاقل لاحقاً، بينما لا يتبقى للعصور التاريخية (من تاريخ اكتشاف الكتابة إلى يوم الناس هذا) سوى خمسة آلاف عام فقط!

١- بحسب أبحاث مجلة Nature العلمية، والمتحف الوطني للتاريخ الطبيعي ببريطانيا، وكذلك موقع برنامج "أصول الإنسان" بمؤسسة "سميثسونيان"، انظر:

New fossils from Jebel Irhoud, Morocco and the pan-African origin of Homo sapiens | Nature

٢- جدير بالذكر، إنَّ تحديد نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية أمر مشكك ويختلف بين منطقة وأخرى، فلما كانت "سومر" موطن اكتشاف الكتابة ومهد الحضرة الأسبق (الألف الثالث قبل الميلاد) فهذا يعني أنَّ العصور التاريخية بدأت فيها قبل غيرها من بقاع العالم الأخرى، ففي اليونان مثلاً: يرى العلماء أنَّ بداية العصور التاريخية فيها كان في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، بينما تأخرت مناطق شمال أوروبا إلى القرن الأول قبل الميلاد لتنتهي حقبة عصور ما قبل التاريخ وتبدأ مرحلة العصور التاريخية فيها، انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. د. طه باقر: ١ / ١٨٥.

عصور ما قبل التاريخ يطلق عليها "العصور الحجرية"؛ والسبب في ذلك واضح، فالإنسان فيها اقتصر على الحجر في صنع أدواته وآلاته البسيطة ولم يكن قد اهتدى إلى المعادن والتعدين. وقد تعارف بين العلماء تقسيم عصور ما قبل التاريخ إلى طورين أساسيين: اعتماداً على أساليب عيش الإنسان والأدوات والمهارات التي استعملها، هما:

العصر الحجري القديم Palaeolithic: الذي أخذ الحيز الأكبر من تاريخ الإنسان القديم، استعمل فيه الإنسان أدوات حجرية بسيطة مع اعتماد جمع القوت باليد عن طريق الالتقاط والصيد كأسلوب فريد لتحصيل الغذاء والعيش.

العصر الحجري الحديث Neolithic: ابتداءً هذا العصر باكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات؛ إذ تمكن الإنسان من تغيير أسلوب عيشه وصار يعتمد على إنتاج قوته بيده، إضافة إلى أن الأدوات الحجرية التي كان يستعملها بدت أكثر تطوراً من سابقتها.

أما الفترة التي فصلت بين العصرين فقد سميت بالعصر الحجري الوسيط Mesolithic. كما أن نهاية طور العصر الحجري الحديث وبداية عصور التاريخ بالكتابة والتحضّر شهدت فترة انتقالية يمكن عدها بمثابة فجر الحضارة الذي مهّد لظهور الحضارة الفعلية في "سومر" مطلع الألف الثالث ق.م، أسماها العلماء "العصر الحجري - المعدني" Chalcolithic^(١).

رحلة طويلة وشاقة خطاها أشباه الإنسان والإنسان حتى وصل إلى عصر التحضر والمدنية، بدأت من حياة الهومو أركتس الذي تمكن - كما قلنا - من استعمال النار وأدوات بسيطة حجرية، وكانت لديه حياة اجتماعية بسيطة بحسب ما انتهى إليه العلماء. وبالتأكيد، سبق ذلك استعمال أدوات حجرية أكثر بدائية إضافة إلى استعمال العصي والأغصان وعظام الحيوانات للدفاع عن النفس أو الاستعانة بها لاقتناص الطرائد في ظل البيئة القاسية التي كانت تحيط به آنذاك.

١- انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. د. طه باقر: ١ / ١٨٧.

البحوث العلمية أكدت أيضاً: أنَّ التوحش كان هو السمة الغالبة التي طبعت حياة أشباه الإنسان والإنسان في الفترات الأولى التي سبقت الإرهاصات التي مهّدت لبلوغ مرحلة الأدمية التي تحققت عند بعثة نبي الله آدم عليه السلام، وهي حقيقة أشارت لها النصوص الدينية أيضاً عند ذكرها لأشباه الناس "النسناس" وبيان أفعالهم على الأرض.

السير التطوري للإنسان على الأرض، تدريجياً وبمرور الوقت، وقّره مزايابولوجية مهمة وبارزة لم تتوفر لغيره من الأحياء، منها: حجم وتركيب دماغه الذي أهله للاتصاف بالذكاء (خاصية البقاء الأفضل على الإطلاق)، واكتمال قلبه البايولوجي اللغوي الذي منحه القدرة على الكلام، وأيضاً: انتصاب قامته وقدرته على المشي على رجله فقط؛ الأمر الذي حرّريه ومكّنه من استعمالهما بمهارة في العمل وصنع الأدوات والآلات البدائية؛ خصوصاً بعد انفصال الإبهام عن بقية الأصابع.

ويرى بعض الآثاريين والانثروبولوجيين أنَّ صنع الأدوات واللغة تزامن ظهورهما لدى الإنسان القديم^(١).

العصر الحجري القديم (بكل أدواره وأطواره المتعددة) يقع ضمن الدهر الجيولوجي المعروف بلايستوسين Pleistocene الذي دام زهاء مليون عام، وكان يتصف بمناخ بارد جداً وشهد عدة عصور جليدية في فترات زمنية متباعدة؛ أولها كان في حدود ٦٠٠ ألف سنة ق.م، وانتهى آخرها في حدود ١٠ - ١٥ ألف سنة ق.م.

وأيضاً: دهر البلايستوسين يتألف من عدة عصور وحقب؛ آخرها العصر المسمى "ورم" الذي استغرق فترة تزيد على قرن من الزمن بين (١٢٠ ألف إلى ١٠ - ١٥ ألف عام ق.م)^(٢).

١- انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. د. طه باقر: ١ / ١٨٩.

٢- انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. د. طه باقر: ١ / ١٨٩ - ١٩١، ١٩٧.

الفترة المذكورة شهدت أحداث مهمة ومحورية بالنسبة للإنسان، منها:

- اكتمال تطور الإنسان العاقل Homo sapiens على الأرض قبل ١٠٠ ألف عام.
- هجرته من أفريقيا إلى شبه الجزيرة العربية التي حدثت قبل ٧٠ ألف عام.
- انقراض إنسان النياندرتال قبل ٢٤ ألف عام بعد أن كان سائداً في العصر الحجري الأوسط، وكذلك شهدت انقراض كل الأصناف الأخرى التي أشارت لها بعض البحوث والدراسات العلمية الحديثة، مثل: "هومو فلوريسينسيس"^(١)، و"هومو لوزونينسيس"^(٢)، و"هومو دينيسوفان"^(٣)، ولم يبقَ على الأرض غير الإنسان العاقل "هومو سابينس" متفرداً بوجوده عليها.
- اكتشاف الزراعة والتدجين؛ الأمر الذي ساهم بإحداث نقلة نوعية كبيرة في حياة الإنسان العاقل، وقد لاحظنا أنّ علماء الآثار والأنثروبولوجيا اعتبروا الزراعة حداً فاصلاً ينتهي عنده العصر الحجري القديم ويبدأ معه العصر الحجري الحديث.

وأيضاً: الفترة المذكورة شهدت في ربيعها الأخير، وهو الحدث الأهم بالنسبة لبحثنا، بعثة رسل الله و انطلاق المشروع الرسالي السماوي مع الإنسان العاقل والذكي، من خلال

١- اكتشف في آسيا – أندونيسيا، سنة ٢٠٠٣ م، ويعتقد أنه عاش قبل ١٠٠ ألف سنة وانقرض قبل ٥٠ ألف سنة متاح على:

<https://humanorigins.si.edu/evidence/human-fossils/species/homo-floresiensis>

٢- اكتشف في آسيا – الفلبين، سنة ٢٠٠٤ م، ويعتقد أنه عاش قبل ٦٧ ألف سنة وانقرض قبل ٥٠ ألف سنة، متاح على:

https://www.bbc.com/news/science-environment-٤٧٨٧٣٠٧٢?_x_tr_hist=true

٣- بحسب بعض الدراسات، عاش قبل ٣٧٠ ألف سنة في أوراسيا، وانقرض قبل حوالي ٣٠ ألف سنة، تم اكتشافه في روسيا – سيبيريا سنة ٢٠٠٨ م، متاح على:

www-britannica-com.translate.goog/topic/Denisovan

بعثة أول الأنبياء والرسل وهو آدم عليه السلام في ال ٢٠ - ٣٠ ألف سنة الأخيرة كما
سيتضح.

(٢)

الإعداد الإلهي للمشروع الرسالي

تمهيد:

قلنا: إنَّ الإنسان العاقل "هوموسابينس" ظهر على الأرض بحدود ٢٠٠ – ٣٠٠ ألف سنة الأخيرة، و اكتمل تطوره قبل ١٠٠ ألف سنة.

ظهور الإنسان العاقل على الأرض و اكتمال تطوره يعني أنَّ الكون الذي نشأ قبل ١٣,٨ مليار سنة ^(١) أنتج وبلغ هدفه المقصود الذي يتمثل بوجود المشاهد العاقل والذكي القادر على الرصد والمراقبة كما عرفنا.

ظهور الإنسان العاقل و اكتمال تطوره يعني أنَّ الأرض التي نشأت في الثلث الأخير من عمر الكون (قبل ٤,٥٤ مليار سنة ^(٢)) أنتجت وبلغت الهدف المقصود، ويعني أيضاً: أنَّ الحياة الأرضية التي ظهرت في الربع الأخير من عمر الكون (قبل ٣,٥ – ٣,٧ مليار سنة ^(٣)) أثمرت و أنتجت الإنسان العاقل القادر على رصد الكون والأرض والتفكر في خلق الله!

١- وكالة الفضاء الأوروبية حددت عمر الكون بـ ١٣,٨ مليار سنة، انظر:

https://www.esa.int/Science_Exploration/Space_Science/Planck/Planck_science_highlights

٢- هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية (USGS) حددت عمر الأرض بـ ٤,٥٤ مليار سنة، انظر:

<https://pubs.usgs.gov/gip/geotime/age.html>

٣- تشير الأبحاث والتقارير العلمية المنشورة إلى أنَّ أقدم دلائل الحياة على الأرض تعود إلى ٣,٧ مليار سنة في حين توفرت أدلة متينة أكثر على ظهورها بتاريخ يعود إلى ٣,٥ مليار سنة، انظر تقارير ومقالات:

Nature, PBS, Science, Nature Communications/UNSW.

<https://www.nature.com/articles/nature٢٠١٦,٢٠٥٠٦>.

وبحسب الزمن: لو تصورنا عمر الكون "ساعة" مؤلفة من دقائق كان موقع ظهور الإنسان هو ثواني الدقيقة الأخيرة!

وإذا أردنا معرفة النسبة الرياضية المئوية الدقيقة التي يمثلها تاريخ ظهور الإنسان العاقل واكتماله بالنسبة إلى "ظهور الحياة" على الأرض و"عمر الأرض" و"عمر الكون"، أمكننا أن نقول:

بالنسبة لظهور الحياة على الأرض قبل ٣,٧ مليار سنة:

فإن نسبة الـ ٢٠٠ ألف (تاريخ ظهور الإنسان) لظهور الحياة هي: 0.005405405 % أي: ١ من ١٨,٥٠٠، بينما نسبة الـ ١٠٠ ألف (تاريخ اكتمال الإنسان) لعمر الحياة هي: 0.002702703 % أي: ١ من ٣٧,٠٠٠.

أما نسبة الـ ٢٠٠ ألف لعمر الأرض (٤,٥٤ مليار سنة) فهي: 0.004405286 % أي: ١ من ٢٢,٥٠٠، ونسبة الـ ١٠٠ ألف لعمر الأرض هي: 0.002202643 % أي: ١ من ٤٥,٤٠٠.

يبقى نسبة تاريخ ظهور الإنسان واكتماله لعمر الكون، وهي:

نسبة الـ ٢٠٠ ألف لعمر الكون هي: 0.001449275 % أي: ١ من ٦٩,٠٠٠. ونسبة الـ ١٠٠ ألف لعمر الكون هي: 0.000724638 % أي: ١ من ١٣٨,٠٠٠.

بمعنى: أننا لو جزّأنا عمر الكون إلى ١٣٨,٠٠٠ جزء فإن حصة الإنسان العاقل المكتمل منها هو جزء واحد، وهو الجزء الأخير، وهذا يعني أن بقية الأجزاء الـ ١٣٧,٩٩٩ التي سبقت كلها كانت تمهد لظهور الإنسان العاقل واكتمال نشأته على الأرض ليحقق الدور المناط به والمأمول منه القيام به!

الحقيقة، إن كل ما سبق ظهور الإنسان العاقل والذكي على الأرض منذ بداية نشوء الكون ثم نشوء الأرض وصولاً إلى بدء الحياة عليها، والتي استغرقت ما يزيد على ١٣,٧ مليار سنة، يمكن اعتباره تمهيداً يستهدف بلوغ المراد الإلهي، أي الوصول إلى ظهور الإنسان

العاقل القادر على حمل رسالة الله في الأرض كموطن ثانٍ ينجز فيه الامتحان بعد إنجاز امتحان الذرفي السماء الأولى.

ولو أردنا الاقتصار فقط على بيان خط السير التطوري لدماغ الإنسان حتى مرحلة الاكتمال بقدرات فائقة؛ كمّا (كيلوغه الحجم المطلوب أي "١٤٠٠ مل") وكيفاً، وأردنا تغطية جوانب الموضوع لطال بنا البحث، ويمكن لمحي هذا النوع من البحوث مراجعتها في كتب الأحياء التطورية، لكن إجمالاً أقول:

ليست المسألة بالسهولة التي ربما يتخيلها البعض وأنّ الهدف المطلوب يمكن أن يتحقق بيوم وليلة، وإنما الصحيح أنّ المسألة – وفق النظام والقانون المصمّم لهذا العالم والحياة الأرضية فيه من قبل الله سبحانه – احتاجت إلى سير حثيث وورقي متواصل لآلة الدماغ شيئاً فشيئاً من خلال إحداث طفرات جينية كثيرة وبوتيرة متسارعة في بعض الأحيان استغرقت ملايين السنين قبل بلوغ النتيجة وإنتاج آلة ذكاء بمستوى فائق لدى الإنسان العاقل بشكل لا نظير له في بقية الأحياء على الإطلاق.

فمثلاً: توفير آلة ذكاء بمستوى عالٍ يتطلب حجماً معيناً للدماغ بمعدل أكبر من الموجود لدى سلف الإنسان "الهومو"، وهذا الأمر يستدعي اتساع الحوض لدى أنثى الإنسان لتتمكن من إيلاد أطفال برؤوس كبيرة، ومسألة اتساع الحوض تستدعي هي الأخرى ميزة الاستقامة والانتصاب، أي أن يمشي الإنسان منتصباً وبدون ذلك لا يحصل الاتساع المطلوب في الحوض. كما أنّ انتصاب القامة يعني إطلاق اليدين وتحررها، وهي مسألة مهمة جداً، ليس فقط من جهة تأثيرها في تنمية قدرة الإنسان على الإبداع واكتساب مهارات مثالية في مجال أداء الأعمال، ولكن أيضاً من جهة أنه أمر مطلوب بالحاح باعتبار وضوح تأثيره على صقل جينات آلة الذكاء (الهدف الأساس بحسب الفرض) ودفعها باتجاه الرقي والتحسين، وهكذا تستمر مجموعة من الأمور بالتكامل وشحن بعضها بعضاً (وفق ما اقتضته إرادة الله سبحانه وقانونه المحكم والهادف) وصولاً إلى تحقق الهدف وإنتاج آلة الذكاء الفائق، أي الوصول إلى إنسان عاقل وذكي قادر على حمل الرسالة الإلهية كما قدّمت.

وعموماً، قبل عرض أحداث بعثة أول الأنبياء والرسل الإلهيين (آدم عليه السلام)، أعرض بعض الأمور التي مهّدت للمشروع الرسالي الإلهي بشكل ملحوظ؛ باعتبار صلتها الوثيقة بإبلاغ رسالة الله للناس كاللغة والتفكير مثلاً، فهما أمران لهما علاقة بالمبلغ أي آدم عليه السلام وبالمتلقي أيضاً أي المجتمع الإنساني الذي بُعث فيه، وهذا يجرتنا لبحث مسألة نشوء الحياة الاجتماعية أيضاً؛ سواء الحياة العامة منها، أو تكوين الأسرة والعائلة المستقرة بالخصوص. إذن، لدينا ثلاثة أمور: الحياة الاجتماعية (العامة والعائلية)، اللغة، والتفكير. وهي ما سنبحثه الآن بإيجاز.

نشوء الحياة الاجتماعية واللغة والتفكير:

تكوين الأسرة المستقرة:

ترجع بعض النظريات الاجتماعية تاريخ نشوء العائلة والأسرة إلى تاريخ حديث بحدود ١٠ آلاف سنة، والسبب في نشوئها هو اجتماع الأبناء حول الأم؛ لعدم معرفتهم بأبائهم بعد انتشار المشاعية الجنسية وعدم وجود ظاهرة الزواج المقنّن بحسب هذه النظرية^(١).

انتقد السيد أحمد الحسن هذه النظرية أو الفرضية، وأثبت بطريق علمي ظهور الأسرة والحياة المستقرة في حياة الإنسان بتاريخ موغل في القدم، بل يسبق اكتمال تطور الإنسان العاقل "هومو سابينس" على الأرض أصلاً.

القصة عند السيد أحمد الحسن تبدأ من معرفتنا بأنّ آلية التطور تقوم بالأساس على قانون البقاء للأفضل، ولما كان التكاثر الجنسي يوفر آلية بقاء أفضل من التكاثر اللاجنسي^(٢) فهذا يعني أنّ التطور – بمرور الوقت – سينتهي إلى انتخاب وصقل الجينات

١ - انظر مثلاً: الحضارات القديمة، ف. دياكوف وس. كوفاليف: ١ / ٢٧ - الفصل الثالث "أوج النظام المشاعي البدائي"، ترجمة: نسيم اليازجي.

٢ - السبب في ذلك: أنّ التكاثر اللاجنسي لنوع أحيائي يوفر نسخ متطابقة ومكررة من الخريطة الجينية العائدة له، وبالتالي فأيّ ثغرة يمكن أن يستغلها عدو "فايروس مثلاً" ستؤدي إلى هلاك النوع وانقراضه بسهولة، بخلاف التكاثر الجنسي الذي يوفر عدداً كبيراً جداً من الخرائط الجينية التي تعود لأفراد النوع الواحد، وهذه ميزة تمكّن

التي تضمن حصول هذه الميزة (التكاثر الجنسي) في الإنسان. ولا شك أنّ التكاثر الجنسي يتطلب الاقتراب بين الزوجين واجتماعهما في مكان واحد، وهذه كانت الخطوة الأولى في بداية مشوار تكوين العائلة الإنسانية المستقرة وليست كل شيء؛ باعتبار أنّ غاية الاقتراب بين الزوجين إذا كانت محدودة وتهدف إلى التكاثر وحسب فهو أمر ينحصر بوقت التلقيح فقط، لذلك يحتاج تفسير ظهور العائلة المستقرة لدى الإنسان إلى توفر عوامل وخطوات أخرى، ومنها: ارتداء الملابس، وهو أمر حصل (بحسب بعض الأبحاث العلمية) قبل ١٧٠ ألف سنة. ولا شك، أنّ مسألة ارتداء الإنسان للملابس أمر يمكن لآليات التطور أن تصل إليه، بل هذا هو المرجح والمتوقع حصوله؛ ليس بسبب الوقاية من البرد وحسب، ولكن لأجل الحماية من الأعداء أيضاً سواء كانوا من جنس الهومو أو بقية الأنواع كقرون الطرائد مثلاً، ولعل هذا ما يفسر انقراض بعض أنواع الهومو وبقاء الهومو سابينس؛ باعتبار أنه لم يكتشف أسلحة هجومية فقط وإنما اكتشف وسائل دفاعية منها ارتدائه للملابس الجلدية التي تشكل درعاً وقائياً له.

بعد ارتداء الإنسان للملابس وتغطية الجسد، وبمرور الزمن، تحولت العملية الجنسية لدى الإنسان من كونها رغبة محصورة بوقت التلقيح والتكاثر إلى رغبة مستمرة، وهو أمر معلن جينياً أيضاً؛ باعتبار أنّ التقارب بين الزوجين واتصالهما جنسياً باستمرار يوفر فرصة أكبر في تمرير جيناتهم للأجيال اللاحقة من الذين يكتفون بالتقارب بشكل محدود عند وقت التكاثر فقط. وبالتأكيد، فإنّ تطور العلاقة الجنسية إلى علاقة مستمرة سيؤدي إلى تعميق الصلة بين الزوجين وزيادة الترابط فيما بينهما.

يقول السيد أحمد الحسن بعد بيان علمي دقيق لظهور العائلة المستقرة:

(وبهذا فقد أثبتنا بمنهج علمي أنّ الأسرة تكوّنت منذ زمن بعيد جداً سبق خروج الهومو سابينس من أفريقيا؛ لأنّ لبس الهومو عموماً للملابس يرجع إلى ١٧٠ ألف عام تقريباً، وهناك بعض الأدلة ربما ترجح ارتدائه للملابس قبل هذا الوقت بزمن).

ويقول أيضاً: (أعتقد أنّ ما قدمت من بيان علمي لهذه المسألة كافٍ للنقض على النظرية الاجتماعية المبنية على أنّ العائلة حديثة التكوين - بحدود عشرة آلاف سنة - وتكوّنت نتيجة اجتماع الأبناء حول الأم؛ لأنهم لم يكونوا ليعرفوا آباءهم لوجود المشاعية الجنسية بحسب هذه النظرية، فالآن لدينا الدليل على أنّ العائلة ربما تكوّنت منذ زمن بعيد جداً، وربما حتى قبل أن يظهر الهومو سابينس) انتهى^(١).

الحياة الاجتماعية العامة واللغة:

اللغة هي سبيل التفاهم والتواصل الاجتماعي الأمثل، وبالتالي فهي ظاهرة اجتماعية بامتياز تهدف إلى تحقيق التفاهم والتواصل بين الأفراد، هذا ما يقرّه الواقع ويقول به علماء اللغة واللسانيات قديماً وحديثاً. وهذا يعني أنّ اللغة (ولو بالإشارة مثلاً) ضرورة ملحة في لحظة تصور نشوء حياة جماعية أولى، وبدون ذلك لا يمكن ظهور حياة جماعية بأي مستوى كانت بدون توفر سبيل للتفاهم والتواصل بين أفراد الجماعة.

أما لماذا الحياة الجماعية؟ فلأنه أسلوب عيش يقتضيه التصميم الجيني لدى الإنسان، وتوضيحه باختصار: أنّ الحياة على الأرض - كما تقدم بيانه - محكومة بقانون التطور الذي يهدف إلى بناء آلة الذكاء الفائقة "الدماغ" وبالنتيجة ظهور الإنسان العاقل الذي كما أراد الله سبحانه. والدماغ - كما هو معروف علمياً - كلفته الاقتصادية على الجسم عالية جداً؛ لأنه يحتاج إلى طاقة كبيرة لتشغيله وممارسة عمله مقارنة ببقية أعضاء الجسم، وبطبيعة الحال هذا يستدعي ضرورة توفير كميات أكبر من الغذاء.

من جهة أخرى: ظهور آلة الذكاء (ولو بمستوى معين قبل اكتمالها في الإنسان العاقل بمرور الزمن) في وجود سلف الإنسان العاقل "الهومو = أشباه الإنسان" دفعه باتجاه الحياة الجماعية أي العيش كجماعات بدل الحياة الفردية؛ باعتبار أنّ هذا الأسلوب من العيش - إضافة إلى أنه يسهّل عملية الحصول على كميات الغذاء المطلوبة التي يستدعيها

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٢٢٦، ٢٢٨.

الدماغ – يوفر فرص بقاء أكبر؛ لأنه أسلوب يمكن الأفراد من مواجهة الخطر المحدق بهم من كل جانب في ظل البيئة القاسية التي كانوا يعيشون في محيطها.

ثم إن وجود "الجماعة" حتى يكتب لها النجاح والنجاة لابد من توفر سبيل تفاهم وتواصل بين أفرادها كما قلت، وبهذا تكون اللغة ضرورة ملحة، ولهذا فالأمران (أعني: الحياة الجماعية واللغة) يكاد أن يكونا متلازمين في الظهور على مسرح حياة سلف الإنسان الموغل في القدم، مع الالتفات إلى أن نشأة اللغة – كأي ميزة أخرى في الحياة الأرضية – محكومة لسنة التطور الإلهية، بمعنى أن اللغة خضعت للتطور والتدرج في الوجود وسارت بموجبه من البساطة إلى التعقيد شيئاً فشيئاً وطوراً فطوراً.

يقول السيد أحمد الحسن: (ولعل أهم ما يميز أسلاف الإنسان في أفريقيا في الملايين الأخيرة هو حياتهم الاجتماعية فهم يصيدون ويجمعون قوتهم ويتمكنون من النجاة كجماعات بشكل أكبر، وأكد أن التواصل الأمثل بين أفراد الجماعة هو محور بناء الجماعة الناجحة التي تحقق النجاة، ولتحقق التواصل الأمثل يحتاجون إلى لغة تتطور أكثر فأكثر لتفي حاجة تواصلهم وبالتالي فكل جيل جديد ربما يجد نفسه في مواجهة مفردات ومعلومات أكثر من سابقه ولابد لهم من حفظها وهي تزيد مع الزمن وربما تتطور وتزداد صعوبة، فالبدائية قد تكون لغة إشارات وأصوات قليلة ولكنها مع الزمن تتكثر وتتعدد وهكذا تزيد حاجتهم إلى تحسين آلة الحفظ أو الدماغ، فمتى ما وفر الطفر الجيني هذا التحسين فسيتم حتماً انتقاؤه وترسيخه من قبل الانتخاب الطبيعي حيث إن الأفراد الذين سيحملونه سيكونون الأقدر على النجاة والتكاثر وانتقال جيناتهم إلى الأجيال اللاحقة وجينات تحسين الدماغ كما وكيفاً ستبقى تزيد وستترسخ في مجموع الجينات الموجودة في الطبيعة وهكذا شيئاً فشيئاً يزيد حجم الدماغ) انتهى^(١).

واضح أن العلاقة بين آلة الدماغ واللغة – في الفترة التي سبقت اكتمال الإنسان العاقل في الـ ١٠٠ ألف عام الأخيرة من عمر التطور على الأرض – كانت علاقة طردية وتخاذم متبادل، فمن جهة: تسهم اللغة بصقل جينات آلة الذكاء وتحسنها، ومن جهة مقابلة: كلما تطورت آلة الذكاء نمت وتطورت اللغة معها، وهكذا وصولاً إلى بلوغ آلة ذكاء

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٢٦٦.

فائق، وهي المرحلة التي اكتمل فيها ما يمكن أن نسميه "القالب اللغوي" من الناحية البيولوجية لدى الإنسان، وسيأتي مزيد من التوضيح لهذا الأمر لاحقاً.

الإنسان واللغة والتفكير:

ينبغي معرفة أنّ وجود اللغة يعني توفر القدرة على التفكير والتجريد ولو بمستوى معين؛ لأن كل من اللغة والتفكير يتطلبان تجريد الأشياء من المادة والتعامل مع الصور الذهنية عند إرادة الفهم والتفهم، بل نفس استعمال اللغة هو نوع من التفكير أصلاً، بل والتفكير أيضاً لا يكون إلا بلغة تتضمن صوراً ومعاني للأشياء كما هو واضح.

والملفت أنّ خاصية الاجتماع واللغة والتفكير لا ينفرد بها الإنسان العاقل عن بقية الأحياء التي تشاركه العيش على الأرض، بل هناك بعض الأحياء لديها حياة اجتماعية تناسيها ولديها القدرة على التفكير بمستوى معين كبعض أنواع القردة مثل الشمبانزي الذي يتمكن من التقليد والتعلم ويستعمل لغة الإشارة كما هو المشاهد من سلوكه. وكذا النمل والنحل مثلاً لديها هذه الخاصية ولو بمستوى أقل، فلديها حياة اجتماعية معينة ومستوى من التفاهم من خلال وسائل لغوية خاصة بها وتؤدي الغرض بالنسبة لها. وهذا الأمر كما يؤكد العلم تؤكد النصوص الدينية أيضاً^(١).

الفرق بين الإنسان وبقية الأحياء بخصوص الأمور المذكورة أعني: "الاجتماع واللغة والتفكير" لا يعود فقط إلى الجانب الكمي (أي: حجم الأفراد وطرق تنظيمهم أو حجم المفردات اللغوية أو حجم المعلومات) بحكم تفوق الإنسان على باقي الأحياء بآلة ذكاء فائق يختص بها دون غيره، وإنما يعود - في الحقيقة - إلى الجانب النوعي (الكيفي)، وهو الجانب الأهم في المسألة كما سيتضح.

١- فقد ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير لذلك، منها: قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ" النمل: ١٨ - ٢٢. وقوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" الأنعام: ٣٨.

بحث في نشوء وتطور اللغة الإنسانية وتأثير الدين عليها:

نشوء اللغة الإنسانية وتطورها:

هذه بعض الملاحظات التي تسهم بتوضيح موضوع نشأة اللغة لدى الإنسان:

١ - اللغة نتاج تطور:

خضوع اللغة إلى التطور يعني أنّ بدايتها كانت بأبسط ما يكون ولو من خلال إشارات وأصوات بسيطة وقليلة لبعض الأمور الأكثر إلحاحاً بالنسبة إلى أشباه الإنسان (سلف الإنسان العاقل) الذين بدأوا باستعمالها لتحقيق التواصل بين أفراد الجماعة؛ وهو الأسلوب الذي يوفر لهم فرص بقاء أفضل كما عرفنا. وبمرور الوقت، ومع صقل آلة الذكاء بصورة أكبر توسعت لغة الإنسان، وكل فترة تمر تزيد فيها مفردات القاموس اللغوي البدائي عن سابقه (بالأصوات التي تناسب بدائيته) بما يلي حاجة كل جيل بشري، وهكذا شيئاً فشيئاً تطورت اللغة وتوسعت على مستوى الصوت وعلى مستوى سعة مفرداتها، وربما المثال الذي يقرب مسألة تطور اللغة الإنسانية هو حالة الطفل الذي تبدأ لغته بإشارات وأصوات للتعبير عن حاجته ثم بمرور الوقت يتحصل على بعض المفردات الملحة بالنسبة له بأصوات معينة ومختصرة وهكذا تنمو لغته تدريجياً إلى أن تكتمل بالنهاية ويتمكن من التواصل مع أسرته ومحيطه.

٢ - اللغة ظاهرة ونتاج اجتماعي خاضع للتطور:

اللغة ظاهرة اجتماعية؛ الغرض منها تحقيق التواصل بين الأفراد، وهي ظاهرة تخضع للتطور بمرور الوقت.

هذه الحقيقة هي الأمر الثابت في علم اللغة وعلم الاجتماع بحسب أحدث الدراسات والبحوث العلمية^(١). وهي حقيقة - إضافة إلى دلالتها على خضوع اللغة لسنة التطور كما تقدم - تؤكد اتصاف اللغة بصفات الظاهرة الاجتماعية^(٢).

بنظر علماء اللغة أيضاً: لا وجود لأي مبرر منطقي وعلي يدعو للتفاضل بين اللغات بعد أن كان جميعها يحقق الغرض أي حصول التواصل والتفاهم بين الناس^(٣).

٣- هل اللغة توقيف أم تواضع؟

التوقيف: أي هبة ومنحة إلهية حصلت دفعة واحدة بالوحي والإلهام وما شابه، والتواضع: يعني توافق وتواطؤ جماعة من الناس. وكلا هذين القولين - وتحديداً الأول - نجده رائجاً لدى أصحاب الفكر الديني.

من اختار التوقيف "اللغة صنع الله" - ومنهم ابن فارس مثلاً^(٤) - استند إلى ظاهر نص ديني، وهو قوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" البقرة: ٢٣١. فبحسب هؤلاء أن الله سبحانه علّم آدم عليه السلام أسماء الأشياء "اللغة"، ثم هو علّمها للبشر. لكن أي لغة تعلّمها آدم من الله بعد أن كان عدد اللغات التي يتحدث بها الناس كثيرة جداً؟ هنا برز التعصّب العرقي

١- انظر على سبيل المثال: علم اللغة العام، دي سوسير: ٢٧، ٣٤، ٨٧، ٩٤: اللغة والمجتمع، علي عبد الواحد وافي: ٥ - ٦: مشكلات حياتنا اللغوية، أمين الخولي: ٤٠، ٤٦، كذلك يمكن مراجعة بحوث د. نعوم تشومسكي ود. ستيفن بنكر، فكلاهما يؤكد خضوع اللغة للتطور أيضاً.

٢- الظاهرة الاجتماعية، بحسب عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم، لها ثلاث صفات: أولاً: نظام عام يتبعه المجتمع ككل ويتخذ أساساً لتنظيم حياة أفراد. وثانياً: يصنعها العقل الجمعي بتلقائية وليست من صنع الأفراد. وثالثاً: يقهر عليها الفرد ويلقى من المجتمع رفضاً إن هو قرّر الخروج والتمرد عليها. انظر: اللغة والمجتمع، د. علي عبد الواحد وافي: ٥.

٣- انظر على سبيل المثال: علم اللغة العام، دي سوسير: ٩١: نظريات في اللغة، أنيس فريجة: ٣١ - ٣٢، ٤٨ - ٤٩. ومن القدماء الذين أنكروا التفاضل بين اللغات: ابن حزم في "الإحكام في أصول الأحكام" ١ / ٣٢.

٤- انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، ابن فارس: ٢ - ٣.

أو الديني، ف (قال قوم: هي السريانية، وقال قوم: هي اليونانية، وقال قوم: هي العبرانية. وقال قوم: هي العربية) ^(١).

ولأن مسألة اللغة الأولى التي نطق بها آدم "أو أصل اللغات، وهل كانت واحدة أو متعددة" كانت ولا زالت معرفتها عصية عليهم، نقل السيوطي اختلاف القائلين بالتوقيف بين أقوال عدة ^(٢)! وأيضاً: نقل السيوطي عن بعض أهل التوقيف أنّ اللغة العربية ظهرت في مرحلة متأخرة عندما حشر الله الخلائق إلى بابل، ومنهم من ذهب إلى أنّ العربية ظهرت أول مرة بعد قدوم إسماعيل عليه السلام إلى مكة واستقراره بها، وأنه أول من تكلم بالعربية بعد أن نسي لسان أبيه إبراهيم عليه السلام ^(٣)!

وهكذا، فالمسألة - كما نرى - غير منضبطة عندهم وما يقال فيها - بعد عدم خضوعها للدليل القطعي - مجرد ظنون واحتمالات لا أكثر.

أما من اختار التواضع والاصطلاح، ففسّروا الآية المتقدمة بأنّ الله أقدّر آدم على التسمية والكلام "اللغة" ^(٤).

١- انظر: الأحكام في أصول الأحكام، ابن حزم: ١ / ٣٠.

٢- فمنهم من يرى أنّ اللغات كلها تم صنعها في بدء الخليقة (زمن آدم بحسبهم). ومنهم من يرى أنّ التوقيف وقع على لغة واحدة ابتداءً ثم حصل توقيف على لغات أخرى بعد طوفان نوح. وثالث يرى أنّ اللغة الأولى كانت توقيفية وما تلاها من لغات يمكن أن تكون توقيفية أو تكون حصلت بالتواضع. ورابع يرى أنّ اللغة التوقيفية الأولى هي العربية فقط واللغات الأخرى نشأت إثر التحريف الذي تعرضت له. انظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي: ١ / ١١، ٢٧، ٣٠.

٣- المصدر السابق: ٣٢ - ٣٣.

٤- فمثلاً: يصوّر الفارابي التواضع فيقول: (فهكذا تحدث أولاً حروف تلك الأمة وألفاظها الكائنة عن تلك الحروف، ويكون ذلك أولاً ممن اتفق منهم، فيتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويماً أولفظة في الدلالة على شيء ما عندما يخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك، فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به، فيكونان قد اصطالحا وتواطأ على تلك اللفظة، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند جماعة، ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم شيء احتاج أن يفهمه غيره ممن يجاوره، اخترع تصويماً فدل صاحبه عليه وسمعه منه فيحفظ كل واحد منهما ذلك وجعله تصويماً دالاً على ذلك الشيء، ولا يزال يحدث التصويّنات واحداً بعد آخر ممن اتفق من أهل ذلك البلد، إلى أن يحدث من يدبر أمرهم ويضع بالإحداث ما يحتاجون إليه من التصويّنات للأمور الباقية التي لم يتفق لها عندهم تصويّنات دالة عليها، فيكون

أول ما يرد على التواضع أنه قول بلا دليل كسابقه، وأيضاً: لم يحصل أنّ التاريخ نقل لنا أنّ اثنين (أو أكثر) من حكماء البشر أو غيرهم اجتمعوا واتفقوا على وضع اللفظ الفلاني "في أي لغة كانت" لمعناه المعين! أضف إليه: كم ستحتاج اللغة (التي تؤدي غرضها في التفاهم والتواصل) من وقت إن كانت تنشأ بطريق التواضع والاتفاق؛ خصوصاً في ظل الظروف البدائية السائدة عند الأقدمين!

نعم، ربما يصلح التواضع لأن يكون لغة خاصة (بحدود مفردات يسيرة جداً قياساً بمفردات لغة متكاملة) في جانب علمي معين، كما يحصل في العلوم كالطب والهندسة والفيزياء مثلاً. ولكن هذا الأسلوب لا يصلح أبداً أن يُنشئ لغة تفي بأداء الوظيفة المرجوة منها وحصول التفاهم والتواصل بين مجموعة كبيرة من الناس بشكل عام، علماً أنّ مثل هذا (أي نشوء لغة بل لغات متعددة) حصل ويحصل باستمرار بين الناس بكل تلقائية ويسر وسهولة، ولا يحتاج حصوله إلى أيّ من تعقيدات فرضية الوضع كعقد الاجتماعات والاتفاقات بين الواضعين وما شابه ذلك.

أضف إلى ذلك: إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية أو "كائن اجتماعي" بحسب وصف البعض لها، والظاهرة الاجتماعية لا يتسبّب بصناعتها فرد أو أفراد محددين، وإنما تكون نتيجة جهد المجموع تلقائياً وبدون قصد منهم، وهذا يؤشر إلى وجود أساس في تركيبية الإنسان البيولوجية يسهّل عملية صناعة اللغة وتكوينها بكل يسر وتلقائية. والإشارة الأخيرة بالذات يمكن أن تلاحظ بقوة من قبل أي متابع لبحوث كبار علوم اللغويات الحديثة، أمثال: نعوم تشومسكي وستيفن بنكر وأمثالهم.

٤ - خطّان مهيمان على الساحة العلمية:

في نهاية القرن التاسع عشر حاول العالم الألماني ماكس مولر البحث عن عودة اللغات إلى أصل مشترك، لكن بحثه لم يأتِ بنتيجة. من جهتها، فإنّ المدرسة السلوكية (التي تفترض أنّ الأنشطة التي تقوم بها الكائنات الحية - ومنها الإنسان - عبارة عن

هو واضع لسان تلك الأمة، فلا يزال منذ أول ذلك يدبر أمرهم إلى أن توضع الألفاظ لكل ما يحتاجون إليه في ضرورية أمرهم) كتاب الحروف: ١٣٨، تحقيق: د. محسن مهدي.

سلوكيات قابلة للملاحظة والقياس) أخضعت اللغة كنشاط إلى كونها إحدى السلوكيات التي يقوم بها الإنسان متأثراً فيها بعدة عوامل خارجية كالمحيط والبيئة، ولا علاقة لها بالعامل الداخلي في وجود الإنسان كالغريزة والعقل ونحو ذلك.

ظلت النظرة السائدة عن اللغة على هذا الحال إلى أن جاءت نظرية "النحو التوليدي" للبروفيسور نعيم تشومسكي في منتصف القرن العشرين تقريباً، فاللغة بنظره لم تعد سلوكاً وإنما هي بناء بيولوجي عقلي يستعمله الطفل بيسر وسهولة لتوليد لغته الأم من خلال تواصله مع أهله ومحيطه^(١).

يرى تشومسكي أنّ عملية اكتساب اللغة فطرية وتتم بصورة لا واعية من الإنسان، فالإنسان - أي إنسان - مبرمج داخلياً "جينياً" على معرفة اللغة، كما أنّ تلك المهارة تنمو في الطفل بصورة لا واعية تماماً كما تنمو بقية أعضائه دون وعي منه. ثم إنّ التركيبات والقوالب التي يستمد منها الطفل مهارته في اكتساب اللغة لا تنتمي إلى لغة معينة، لذا يمكن أن تكون لغته الأم أي لغة كانت. ولو كان اكتساب اللغة يعتمد على التجربة والتدريب فقط - كما يقوله السلوكيون - لما كان بإمكان الطفل أن يأتي بتركييب لغوية وجمل جديدة لم يكن قد دُرّب عليها وتعلمها أصلاً^(٢).

جدير بالذكر، إنّ تشومسكي وإن كان يرى اللغة - كقالب ونظام - غريزة وفطرة، لكنه لا يقبل إخضاعها لمبدأ التطور والانتخاب الطبيعي كما يظهر من كلامه المكتوب أو عبر اللقاءات والندوات العلمية التي يجريها، وإنما يرى ظهورها فجأة في بناء الإنسان البيولوجي بعد عدم وجود ما يدل على الإرث التطوري لدى الأسلاف فيما يتصل بها بشكل حاسم.

في قبال ذلك، يوجد خط لغوي آخر على رأسه د. ستيفن بينكر الذي يتفق مع تشومسكي في كون اللغة غريزة وفطرة لكنه في نفس الوقت يخضعها إلى مبدأ الانتخاب

١- انظر: المعرفة اللغوية، تشومسكي: ٨٠ - ٨٦، ترجمة: محمد فتّيح.

٢- نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز: ٢٤٩، ترجمة: حلي خليل.

الطبيعي، فالغريزة اللغوية بنظره تمكّنت من الظهور لدى الإنسان من خلال بناء جيني في دماغه خضع لمبدأ التطور وآليات الانتخاب الطبيعي عبر ملايين السنين.

هذان الخطّان اللغويان - تقريباً - هما المهيمنان حالياً على الساحة العلمية فيما يتعلق باكتساب اللغة. علماً أنّ كلا الخطين لا ينكران دور التربية والتعليم والبيئة المحيطة في صقل موهبة الإنسان في اكتساب اللغة، لذا يؤكد "بنكر" أنّ الأطفال الذين يُعزلون عن ذويهم ولا يسمعون منهم لغة معينة ينشؤون بكمّاً بدون لغة^(١)، وهذا يعني أنّ القالب والنظام اللغوي بالرغم من وجوده بيولوجياً في الإنسان إلا أنه يبقى غير فعّال أصلاً عند عدم تعبئته بالمفردات. وأيضاً: كلا الخطين يؤمنان بأنّ اللغة ليست جامدة وإنما تتغير وتتطور بمرور الزمن.

٥- تطورات بيولوجية ساهمت بنشوء وتطور اللغة:

اكتملت في بناء الإنسان بيولوجياً في الفترة الأخيرة من رحلة التطور الضاربة في القدم مجموعة من الأمور ساهمت بشكل كبير في نشوء وتطور اللغة عنده، وهي لم تكن لتحصل دفعة واحدة أو أنها ظهرت في تركيبه الحيائي فجأة، وإنما احتاج توفرها واكتمالها في الإنسان العاقل إلى ملايين السنين كما هو الشأن عادة في توفر سائر المزايا الأحيائية وفق منظور نظرية التطور، وأهم تلك الجوانب هي^(٢):

- أ- زيادة حجم دماغ الإنسان.
- ب- تشكّل مراكز اللغة في القشرة المخية وباقي أجزاء الدماغ.
- ج- التخصص في عمل شقي الدماغ.
- د- السيطرة على التنفس وتوظيف أعضائه في النطق.
- هـ- تطوّر منطقة الحنجرة والتجويف الحلق.
- و- تطوّر الجهاز العصبي.

١- الغريزة اللغوية، ستيفن بنكر: ٣٥٣، تعريب: حمزة بن قبالان المزيني.

٢- انظر: د. عباس الحسيني، العوامل التي أسست لظهور اللغة الإنسانية، الفصل الثالث.

ز- تطوّر جهاز النطق لأداء الوظائف اللغوية.

علمياً، توفر الأمور المذكورة (الذي تزامن مع اكتمال الإنسان العاقل قبل ١٠٠ ألف عام) يسهم بشكل حتمي في تهيئة الأرضية المناسبة لنمو اللغة بشكل مضطرد لدى الإنسان العاقل.

وبحدود ببحثنا الآن، يكفي أن نعرف أنّ اللغة نتاج تطوري يتم السير فيه من البساطة إلى التعقيد؛ سواء من جهة بنائها وقالها البيولوجي، أو من جهة نشوء واكتساب مفرداتها، فمفردات اللغة هي نتيجة جهد متراكم لأجيال من البشر، يستكمل فيه كل قوم جهود من سبقهم ويبنون عليه ثم يكملون هم المسيرة ويطورون ويضيفون إلى أن يجد التالون أنفسهم في مرحلة متأخرة أنهم أهل لغة خاصة بهم، يحدث ذلك بصورة تلقائية وبدون وعي منهم، وهذا أمر يحصل مع جميع الأقوام الذين يتفاهمون ويتواصلون فيما بينهم، ومن ثم تعددت اللغات وتكثرت بعد أن كان الأساس (القالب والنظام) متوفراً لدى الجميع، ولهذا فـ "لم يحدث أن اكتشفت أي قبيلة خرساء" - كما يقول بنكر^(١) - في أي منطقة من العالم مهما كانت نائية أو معزولة.

وعموماً، فإنّ تطوّر أي لغة كانت ليس بالنحو الذي يفترضه التواضع (الذي قال به الأقدمون)، بل هو أسرع ممّا هو متوقع بكثير؛ لأنّ عملية تطوّر اللغة لا تعني ابتداءها من الصفر، وإنما هي - كما قلت - عملية تراكمية.

٦- سير اللغة من البساطة إلى التعقيد:

شأنها شأن أي كائن متطور، فإنّ اللغة سارت من البساطة إلى التعقيد كحال الإنسان نفسه، فهي في تطوّر مستمر مع الإنسان بحسب دواعيه وأغراضه وتنوع حاجاته واهتماماته، إلخ، ولولا ذلك ما أضافت قواميس لغات العالم المهمة إلى نفسها كلمات جديدة كل فترة.

١- الغريزة اللغوية، ستيفن بنكر: ٣٤، تعريب: حمزة بن قبلان المزيني.

مجتمع الإنسان العاقل "هومو سابينس" الذي هاجر من أفريقيا باتجاه شبه الجزيرة العربية قبل ٧٠ ألف - وسيأتي التعرض للهجرة - ثم استقراره أخيراً في الوادي الخصيب "الخليج الحالي"، أكيد كانت لديه لغة منطوقة معينة (مهما كانت بدائية وبسيطة) كوسيلة للتفاهم والتواصل بين أفرادها؛ خصوصاً بعد اكتمال نظام اللغة البيولوجي لديهم قبل فترة هجرتهم من أفريقيا. ثم بعد امتلاء الوادي "الخليج" بمياه البحر إثر الطوفان الذي حصل بحدود (١٥ - ٨ ألف سنة ق.م) ونزوحهم إلى جنوب العراق (بلاد سومر لاحقاً) ومنه إلى الصين وشمال أفريقيا وبقية العالم، فهم - بكل تأكيد - كانوا يحملون معهم الإرث اللغوي البدائي "اللغة الأم" لأبائهم وأسلافهم، وحتماً أنه تطور على أيديهم بحكم تعقد حياتهم ونمط معيشتهم لا سيما بعد اكتشاف الزراعة والتدجين. ثم بتفرقهم وتشتت مناطق استقرارهم يحصل الاختلاف في لهجة كل فئة منهم بتقادم الزمن حتى يبلغ مرحلة الانفصال عن اللغة الأم وتكوين لغة جديدة تصبح لغة أم مع مرور الوقت، ثم تتطور الأخيرة إلى لهجات ابتداء ثم إلى لغات أم جديدة، وهكذا تكونت شجرة اللغات بمرور الزمن وتعاقب القرون والأجيال وتعقدت وتشعبت بتعقد حياة الإنسان وازدياد اكتشافاته وحاجاته وتنوعها، تماماً كما حصل مع شجرة الكائنات الأحيائية في علم الأحياء، حتى بلغ الأمر بالنهاية إلى ظهور اللغات المتعددة وصولاً إلى اللغات الموجودة في عالمنا اليوم.

ثم إنّ بعض اللغات تصمد (ضمن حدود قانون الانتخاب والبقاء للأقوى) وتمرر للأجيال اللاحقة وتستمر في سيرها التطوري، وبعضها ينقرض في سباق التنافس على البقاء نتيجة ظروف معينة كنسبة المتحدثين بها أو اختلاط أهلها واحتكاكهم بلغة أقوى منها واستيلاء الأخيرة عليها تدريجياً، تماماً كما هو الحال في كل الأمور الواقعية تحت هيمنة التطور وآلياته.

وعموماً، ما تقدم كافٍ للكشف عن أنّ اللغة نتاج تطوري ولم تحصل دفعة بشكل توقيفي منحه الله سبحانه لأدم عليه السلام كما ذكر البعض، ولم يحصل بتواضع واصطلاح بالطريقة التي قال بها بعض اللغويين المتقدمين. علماً، أننا لا ننكر تأثير الدين الإلهي على تطور لغة الإنسان بعد بعثة آدم عليه السلام، لكن ليس بالنحو الذي ذكره

القائلون بالتوقيف، وإنما له معنى آخر، وأيضاً: تعليم الله سبحانه لأدم "الأسماء" كما صرّحت به الآية له معنى آخر غير ما فهمه القائلون بالوقف كما سيتضح الآن.

تأثير الدين الإلهي على اللغة الإنسانية:

وفق التخطيط الإلهي للإنسان العاقل، لا يصح اختزال وجود الإنسان بوصفه نتاجاً تطورياً لخريطة جينية أنتجت جسماً ذكياً مكوناً من عناصر الأرض وترايبها، فهذا – ولا شك – أحد جانبي هويته في عالمنا الذي نحن فيه، وقد استهدف الكون وتطور الحياة الأرضية وجود هذا الجانب كما عرفنا، لكن هناك جانب آخر أصيل في وجود الإنسان يتحقق ويتم تفعيله عند بعثة آدم عليه السلام يتمثل بالنفس الإنسانية الأدمية المؤهلة لحمل التكليف الرسالي من الله والاعتقاد بدين الله، وهذا الجانب أيضاً له خريطة أنتجته (إن جازت التسمية)، لكنها خريطة سماوية وليست أرضية.

ولهذا، أريد لوجود الإنسان أن يحتوي مزيجاً من خمس قوى أساسية؛ ثلاث منها أرضية بحتة هي: الشهوة والقوة والحياة (أو المدرج بحسب تعبير النص الديني)، واثنان سماوية روحية بحتة، هما: روح القدس وروح الإيمان^(١).

والنفس الإنسانية شاء الله سبحانه أن تُخلق بكيفية تؤهلها لأن تستوعب وتتواصل مع ما هو روعي بحت وما هو أرضي بحت، وبالتالي يمكنها استيعاب وتبدير القوى الخمس، وسيأتي توضيح هذه الحقيقة لاحقاً.

١- روى الكليني بسنده: (عن جابر الجعفي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا جابر إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق ثلاثة أصناف وهو قول الله عز وجل: "وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون" فالسابقون هم رسل الله عليهم السلام وخاصة الله من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح أيدهم بروح القدس فيه عرفوا الأشياء، وأيدهم بروح الإيمان فيه خافوا الله عز وجل وأيدهم بروح القوة فيه قدروا على طاعة الله، وأيدهم بروح الشهوة فيه اشتبهوا طاعة الله عز وجل وكرهوا معصيته، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون، وجعل في المؤمنين وأصحاب الميمنة روح الإيمان فيه خافوا الله، وجعل فيهم روح القوة فيه قدروا على طاعة الله، وجعل فيهم روح الشهوة فيه اشتبهوا طاعة الله، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون) الكافي: ١ / ٢٧١ - ٢٧٢.

وعموماً، إذا عرفنا هذا الأمر، يمكننا أن نصور العلاقة بين اللغة والدين الإلهي بالنحو التالي:

أولاً: اللغة كقالب ونظام بيولوجي خاضع لقانون التطور في الحياة الأرضية اكتمل لدى الإنسان العاقل "هومو سابينس" بعد رحلة تطورية طويلة ابتدأت بسلف الإنسان وانتهت باكتمال شكل الإنسان ودماعه بشكل نهائي قبل ١٠٠ ألف عام كما تقدم، وهذا الأمر لا دخل للدين الإلهي وتعاليم الرسل الإلهيين به.

ثانياً: اللغة كمفردات مكتسبة يُعبأ بها النظام اللغوي البيولوجي ويتم تشغيله بها بشكل تدريجي بحسب الحاجة الملحة لدى الإنسان، فهنا يكون للدين الإلهي وتعاليم الرسل دورهم جداً في تطور اللغة الإنسانية وتوسعها وشمولها؛ الأمر الذي ينعكس بشكل إيجابي على مجمل حياة الإنسان بعد رقي إدراكه وتفكيره ومن ثم تنظيم سائر شؤونه وصولاً إلى تحضره بشكل ملحوظ.

توضيح ذلك: النتيجة التي انتهينا إليها من وجود جانبين للإنسان العاقل (أرضي جيني، وسماوي روحي)، تقتضي وجود منظومتين من المفردات:

الأولى: منظومة لغة جينية أرضية، أعني بها: المفردات التي تلي حاجة الجانب الجيني الأرضي لدى الإنسان، من قبيل المفردات التي تعالج جانب قوى الشهوة والقوة والحياة، مفردات تعالج مسائل الغذاء والجنس ودفع خطر العدو، ... إلخ من أمور تدفع بالبقاء على قيد الحياة على الأرض بأي سبيل كان، وبالنتيجة فهي منظومة لغوية تلي متطلبات الجينات الأنانية لا أكثر.

الثانية: منظومة لغة سماوية روحية، أعني بها: المفردات التي تغطي متطلبات الجانب الروحي السماوي لدى الإنسان، مفردات تعالج قضايا الوجود الأساسية والنقاش الفلسفي الذي يجيب الأسئلة التي تتعلق بالمبدأ والمعاد والآخرة وما يتصل بها مثل: عبادة الله، طاعته، كتبه، أنبيائه ورسله، فعل أوامره، ترك نواهيه، التخلق بأخلاقه من حكمة ورحمة وصدق إلى غير ذلك، وأيضاً: طرح قيم إنسانية عليا كالعدل والإيثار والفضيلة

والحق والتضحية من أجله ... إلخ، وهي منظومة واسعة من المفردات اللغوية التي تلي حاجة روعي القدس والإيمان.

علماء، أنّ القوى الأرضية الثلاث (الشهوة، القوة، الحياة) موجودة لدى بقية الأحياء الأرضية كما تقدم أنه يوجد لدى بعضها لغة وتفكير وحياء اجتماعية بشكل يلي حاجة الجينات وإن كان بمستوى أقل من الإنسان، لكنها - على أي حال - لا تصلح لأن تعد ميزة ينفرد بها الإنسان عن غيره من الأحياء.

ما ينفرد به الإنسان عن غيره هو جانب المنظومة اللغوية الذي يغطي حاجة روعي القدس والإيمان، لأن هاتين الروحين خُصَّ بهما الإنسان دون سواه من بقية المخلوقات التي تشاركه العيش على هذه الأرض (دار الامتحان الثاني).

بكلمة ثانية: إنَّ وصف "الإنسانية" للغة الإنسان العاقل إنما يصح في حال شمول لغته لكلا جانبيه؛ روحه وجسده، فالإنسان لا يبقى إنساناً تاماً لو همشت روحه؛ لأنها في أقل الأحوال تشكل نصف هويته المقومة لوجوده، وبالتالي فوصف لغته بالإنسانية في حال الاقتصر على ما يلي جسده وجيناته فقط سيكون وصفاً ناقصاً بكل تأكيد، بل الأصح أن توصف (والحال هذه) بأنها لغة نصف إنسانية في أحسن الأحوال، ونصف إنسانية = بهيمية، ولذا رأينا اشتراك أصناف أحيائية مع الإنسان في هذا الجانب اللغوي، وكيفينا لإدراك صفة الـ "نصف إنسانية" أننا نشهد اليوم مقطوعاً زمنياً خطيراً من حياة الأرض، وجميع سكانها تقريباً يحبسون أنفاسهم خوفاً من حرب نووية كبرى لا تبقي ولا تذر قد يتسبب بها خطأ بسيط يصدر من أحد الأطراف المتناحرة، ولو كانت اللغة السائدة إنسانية تامة وروعية متطلبات روعي القدس والإيمان ولم يختزل الإنسان بقواه الأرضية الثلاث (الشهوة والقوة والحياة) فقط لما بلغت البشرية هذا المنحدر الخطير!

الحقيقة، لغة الإنسان لو قدّر لها أن تكتفي بمنظومتها الجينية فقط لرأيناها تقتصر على ما يلي حاجة جسد الإنسان فقط، لغة تلي شهوة بطنه وفرجه وضمنا سلامته وبقائه هو ومن يتصلون به جينياً بالدرجة الأساس، وحينئذٍ لا يختلف الحال بالنسبة له سواء عاش في غابات أفريقيا الاستوائية أو في أرقى مدن العالم اليوم يتقلب بين ناطحات سحابها!

لكنها، مشيئة الله سبحانه التي اقتضت بعثة آدم عليه السلام ودخول الدين الإلهي على خط مسير الإنسان العاقل، فأدخل في منظومة لغة الإنسان مفردات تعاليم الدين الإلهي والجمال الروحي والبعد العقلي الفلسفي ومفردات النقاش الوجودي للكون والحياة وما يحيط بالإنسان، ولنا أن نتصور أنّ مظاهر الحياة الاجتماعية في مجتمع الهوموسابينس (الإنسان العاقل) في الخليج ومجالسهم التي لم تكن تفارق المسائل ذات الصلة بالبعد الجيني عموماً صارت تشهد نوعاً آخر من الاهتمامات التي لم تكن معهودة قبل بعثة آدم عليه السلام، اهتمامات تخص إثبات وجود الله وعبادته وبيان طاعته وأوامره ونواهيه ... إلخ، وأيضاً: مواضيع يتبين فيها إجابة الأسئلة الوجودية الكبرى: من أين، وفي أين، وإلى أين؟

أكيد أنّ الدين الإلهي – من هذه الجهة – أثر على لغة الإنسان وأنماها وطورها بشكل كبير، وتطور اللغة يعني تطور التفكير لدى الإنسان بعد شدة التلازم بين الأمرين كما تقدم، بمعنى أنّ توسع اللغة وتطورها سير افقه حتماً زيادة في معدل التفكير وقوته واتساع أفقه، وبمرور الزمن وتراكم المعرفة وسعة التفكير بشكل أكبر سيكون ظهور حضارة لدى هذه المجموعة الإنسانية التي احتضنت رسالة الله ورسل الله أمراً متوقعاً بل مرجح جداً إن لم يكن أمراً حتمياً، وهذا ما حدث بالضبط، فظهرت حضارة "سومر" في بلاد ما بين النهرين لاحقاً.

والحقيقة، إنّ القفزة الثقافية التي حصلت في "سومر" ولدى السومريين بالذات ما هي إلا نتاج تراكمي للجهد الذي قام به نبي الله آدم عليه السلام ومن تلاه من رسل الله تبعاً؛ وصولاً إلى نبي الله نوح عليه السلام ثم إبراهيم عليه السلام، فكل هؤلاء الرسل عاشوا مع "السومريين الأوائل" ثم عاشوا مع خلفهم من بعدهم أعني "السومريين" الذين وصل لنا نتائجهم في ألواح سومر الطينية، وسيأتي دراسة هذا الأمر بتفصيل أكبر لاحقاً.

وأيضاً: دخول الدين الإلهي على الخط لم يقتصر تأثيره على اللغة والتفكير فحسب، ولكن تعداه إلى تغيير هوية وهدف الحياة الاجتماعية، فبعد أن كان الهدف من التجمع جيني بحث، صار الاجتماع – بحكم تعاليم الدين الإلهي – له أكثر من قيمة إنسانية عليا وأرقى من مجرد تحقيق دافع جيني يتمثل بتحصيل الأكل ودفع العدو مثلاً! وفرق كبير بين أن تجتمع بمن حولك لتحقيق شهوة أو رغبة جينية معينة وبين أن تجتمع بهم لتعين

مسكيناً أو ترأف بيتيم أو لتعلم جاهلاً وترشد ضالاً عن الهدى ونحو ذلك من وجوه البر والفضيلة والصالح الذي يرتضيه الله، خصوصاً إذا كنت تستحضر الإخلاص ونية التقرب لله بعملك كما هو المعروف في تعاليم الدين الإلهي، وهي تعاليم تحمل نفس التوجه عند جميع الأنبياء والرسل على طول الخط الرسالي من البداية حتى النهاية.

لذلك قلت سابقاً: "الفرق بين الإنسان وبقية الأحياء بخصوص الاجتماع واللغة والتفكير لا يعود فقط إلى الجانب الكمي (أي: حجم الأفراد وطرق تنظيمهم أو حجم المفردات اللغوية أو حجم المعلومات) بحكم تفوق الإنسان على باقي الأحياء بآلة ذكاء فائق يختص بها دون غيره، وإنما يعود - في الحقيقة - إلى الجانب النوعي (الكيفي)، وهو الجانب الأهم في المسألة".

والآن، ربما صار بوسعنا إدراك معنى التأثير الكيفي والنوعي للدين الإلهي على تطوير اللغة والتفكير والحياة الاجتماعية. علماً، أنَّ التأثير الكمي - بخصوص اللغة والتفكير - متوفر أيضاً؛ إذ لا شك أنَّ دخول الدين الإلهي على الخط أدى إلى توسع كبير في مفردات اللغة الإنسانية وفي حجم المعلومات كذلك.

يقول السيد أحمد الحسن: (تأثير الدين الإلهي على اللغة أمر لا نقاش فيه. وحتى نفهم أثر الدين على لغة الإنسان لنقم بإبعاد الدين ونفترض أنَّ الإنسان عاش في بيئة ومحيط مادي بحت، كيف ستكون لغته التي يحتاجها كسبيل للتواصل والتفاهم؟ بالتأكيد سنلاحظ أنَّ لغته محصورة بمفردات لغوية تعالج مسائل معينة يقتضيها وجوده المادي مثل الأكل والشرب والتكاثر والبقاء وما شابه، لكن هل نتوقع وجود مفردات تغطي جانب الاهتمام الفلسفي والماورائي والأخلاقي مثلاً؟ أبداً لا يمكن توقع ذلك؛ لأنها أمور لا يحتاجها وجوده المادي وتصميمه الجيني، وبالتالي فهي ليست من اهتمامه أصلاً ليضطر إلى وضع مفردات لغوية تعالج مسائلها.

توفر مقدار لغوي يمثل جزء اللغة ومفردات تغطي المسائل الأخلاقية والفلسفية والماورائية في لغة الإنسان - كما هو الحاصل فعلاً منذ بداية عصر التحضر الإنساني - يعني دخول الدين على الخط، فالدين أثرى لغة الإنسان وطوّرها بدون أدنى شك.

أما كيف حصل هذا الإثراء والتطور؟ فجوابه بسيط؛ باعتبار أن الدين لما بدأ بطرح الحقائق الماورائية والفلسفية والأخلاقية للناس فأكد أنهم سيجدون ألفاظاً مناسبة تعبّر عن تلك الحقائق وتشير إليها وبمرور الوقت أصبحت جزءاً من لغتهم، وطرح مثل هذه الحقائق – ولا شك – ابتداءً بآدم عليه السلام عند بعثته نبياً من الله) انتهى^(١).

إذا اتضح موضوع الحياة الاجتماعية واللغة والتفكير لدى الإنسان العاقل، أعود الآن لاستكمال باقي خطوات الإعداد الإلهي للإنسان قبل بعثة آدم عليه السلام.

الهجرة من أفريقيا واستيطان الوادي الخصيب:

من بين مراحل إعداد الإنسان العاقل لاستقبال بعثة أول أنبياء الله ورسله إلى البشر (آدم عليه السلام) كانت الهجرة من أفريقيا باتجاه الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية.

الهجرة من أفريقيا نحو الشرق الأوسط ومنه إلى العالم:

الإنسان العاقل تعود أصوله إلى أفريقيا. هذه حقيقة علمية ثابتة.

يقول السيد أحمد الحسن: (يسجل علم الآثار بتتبع الأدوات ظهور المهارات لدى الهومو سابينس وهجرته بحدود ٧٠ ألف سنة تقريباً، وهذه الهجرة كانت هجرة ناجحة أدت إلى انتشار البشر في كل الأرض، وقد كانت هجرة مجموعة صغيرة (منتقاة) عن طريق باب المندب في البحر الأحمر من أفريقيا إلى الجزيرة العربية، وكانت في تلك الفترة المياه منحسرة، فتمكنّت مجموعة من العبور، وأخذت هذه المجموعة المنتخبة من هومو سابينس أفريقيا تتقدم في جنوب شبه الجزيرة العربية؛ لوجود ينابيع المياه على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في ذلك الوقت حيث كانت مكشوفة قبل أن تغطيها مياه البحر نتيجة ارتفاع مستوى سطح البحر، وهذه الينابيع ساعدتهم على تجنب صحراء الجزيرة، وتمكنوا من أن يقطعوا الجزيرة العربية على الخط الساحلي مروراً باليمن وعمان

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

الحاليين حتى وصلوا إلى منطقة الخليج المغطاة بالمياه حالياً، وهي لم تكن مغطاة بالماء المالح بعد في تلك الفترة بل كانت وادياً دافئاً^(١) تجري فيه الأنهار التي تدخله من الشمال (أي من جنوب العراق الحالي وجنوب غرب إيران الحالي)، وكان الوادي (الخليج الحالي) مكاناً مناسباً جداً للعيش فيه، فهو مليء بالأنهار والبحيرات والأهوار والغابات ودافئ، وهذا أمر مهم جداً في تلك الفترة، حيث مرت الأرض بفترة صقيع وبرد قاسية مع نهاية العصر الجليدي الأخير، فكان هذا الوادي مكاناً مثالياً لنمو البشر الأوائل، مكان مليء بالمياه العذبة والثمار والغذاء، ويمكن أن نقول: إنه أفضل مكان لنمو الإنسان العاقل في تلك الفترة، وهنا تكاثرت أعدادهم، وهاجر بعضهم إلى بقية أنحاء العالم، وبقيت مجموعة في هذا الوادي حتى تاريخ فيضان هذا الوادي عندما تسببت مياه البحر بملئه، ويقدر تاريخ ملء الخليج بالماء^(٢) علمياً بين (٨ - ١٥) آلاف سنة قبل الميلاد، وبعد الفيضان فإن المجموعة المنتقاة أو الناجين من الفيضان انتقلوا إلى أعلى جنوب العراق الحالي وجنوب إيران الحالي متبعين الأنهار التي كانت تجري إلى وادهم الخصب الذي أصبح خليجاً تغطيه المياه المالحة^(٣).

وبعد هذا الفيضان فإن أجزاء من أقصى جنوب العراق الحالي غطتها المياه المالحة، وعانت آلاف السنين من هذا الفيضان حتى تمكنت المياه العذبة وفيضانات الأنهار من غسلها من الملوحة وردمها بالترسبات التي تسببت بتكوين أراضي صالحة للزراعة ومتاخمة للأهوار المليئة بالأسماك، وهذا كان يدفع السكان للزحف باتجاه الخليج مرة أخرى واستيطان الأراضي التي تكشف أو التي تظمر بعد الفيضان، وهذا الأمر استمر آلاف السنين.

١- والدفع كان يعني الكثير خصوصاً في العصر الجليدي الذي مرت به الأرض وانتهى قبل ١٠ آلاف عام تقريباً، كان دفع هذا الوادي وتوفر الغذاء فيه كفيلاً بنمو أعداد الهومو سابينس فيه وانتشارهم منه بعد ذلك إلى كل أنحاء الأرض.

٢- أي في نهاية العصر الجليدي تقريباً، حيث ذابت الثلوج وارتفع مستوى سطح البحر.

٣- فمن غير المعقول مثلاً أن يتجهوا للصحراء وهم يعرفون المنطقة وأن مصدر المياه العذبة هو شمال منطقة الوادي الخصب أو الخليج حالياً.

وعموماً، يمكننا اعتبار سكان هذا الوادي (الخليج الحالي) أصحاب أول حضارة إنسانية على وجه الأرض، وهم من بدأوا بتكوين القرى السومرية أو الأكادية في جنوب العراق التي سبقت الحضارة السومرية الأكادية التي وصلتنا، ولهذا يمكن أن نقول عنهم: إنهم السومريون الأوائل، أو هم أولئك الأجداد الذين نقرأ للسومريين كتاباتهم في الرقم الطينية وهم يفتخرون بهم وبحضارتهم وقيمهم الأخلاقية العليا.

وأيضاً: هؤلاء السومريون الأوائل أولنقل سلف السومريين انتشروا إلى باقي الأرض، فهم انتقلوا إلى مصر وبنوا أسس الحضارة المصرية القديمة التي سبقت الحضارة المصرية التي وصلتنا، وبحسب الدراسات الجينية الأخيرة فإن كل إنسان على الأرض الآن إذا لم يكن من الذين بقوا في أفريقيا فهو يعود في أصوله إلى هذه المجموعة الصغيرة المنتقاة التي هاجرت من أفريقيا إلى جنوب الجزيرة العربية (اليمن وعمان والإمارات الحالية)، ثم إلى الحوض الخصب (الخليج حالياً) وإلى العالم، ثم إلى جنوب العراق ثم منه أيضاً إلى العالم، ولم تساعد الظروف الطبيعية اللاحقة في أفريقيا الكثرة الباقين فيها كما ساعدت القلة الذين هجروها، وهذا فقد تكاثرت المجموعة المنتقاة وبشكل كبير وملأوا الأرض^(١)، حتى وصل الأمر إلى أن يهاجروا هجرة عكسية من الوادي الخصب وجنوب العراق إلى شمال أفريقيا، فسكان شمال أفريقيا - من مصر حتى المغرب العربي بل حتى السودان -

١- جدير بالذكر أنَّ الصينيين يعتقدون أنهم من جنس يختلف عن بقية البشر، حيث يعتقد الصينيون أنهم يرجعون إلى الهومو إركتس الذي هاجر من أفريقيا منذ وقت مبكر وهذه النظرية تدرس في الصين بناء على بعض الأحفورات التي وجدت هناك ولكن مؤخراً أجرى البروفسور (جن لي) وهو من كبار علماء الوراثة الصينيين بحثاً علمياً حيث أخذ الحمض النووي لأكثر من ١٦٠ عرقاً من شرق آسيا، وقال إنه لم يجد أي واحد من آلاف العينات التي أخذها يمكن أن يعتبر من نسل الهومو إركتس القديم، بل صرح لقناة (BBC) أن كل شخص في الصين وفي شرق آسيا يعود إلى المجموعة الأفريقية المهاجرة من الهومو ساينيس المنحدرة من الهومو إركتس، وقال رغم أنه صيني وكان يدرس أنهم الصينيين يختلفون ومن جنس مختلف وكان يتمنى أن يجد شيئاً مختلفاً، ولكن النتائج والأدلة العلمية التي وصل لها واضحة تمام الوضوح أن الإنسان في كل اصقاع الأرض ليسوا مختلفين، وأنها جميعاً أقارب، فلا بد أن نكون كلنا سعيدين. البحث منشور في مجلة أخبار العلوم الأمريكية sciencenews، الإصدار ١٥٤، العدد ١٤ في ٣ أكتوبر ١٩٩٨، تحت عنوان: (Asian DNA Enters Human Origin Fray).

http://www.sciencenews.org/pages/sn_arc٩٨/١٠_٣_٩٨/fob١.htm

قناة فيديو كتاب وهم الإلحاد (٢٠١٣/٠٩/١٠). البروفسور جن لي جميع الصينيين أصلهم من أفريقيا. متاح على:

<http://www.youtube.com/watch?v=١BNyZR٦ohtQ>

هم مهاجرون من الوادي ومن جنوب العراق القديم بحسب بعض البحوث الجينية، وبهذا فقد حصلت الغلبة والهيمنة للمجموعة المنتقاة (المنتخبة)، ونجت من ظروف أفريقيا أولاً ومن غرق الخليج ثانياً وعادت واستعمرت شمال أفريقيا أخيراً^(١) انتهى.

وها هنا ملاحظات:

١- لم تكن هجرة الإنسان العاقل من شرق أفريقيا إلى غرب آسيا (شبه الجزيرة العربية تحديداً واستقراره أخيراً في حوض الخليج) هي الأولى في تاريخ جنس "الهومو، سلف الإنسان"، وإنما كانت هناك عدة هجرات قام بها "الهومو" من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا، لكنها هجرات فاشلة وانقرض القائلون بها ولم يتركوا أثراً بيننا اليوم سوى بعض الأحفوريات التي عُثر عليها مؤخراً، وأما البشرية اليوم فالأغلبية الساحقة فيما ترجع أصولهم الجينية إلى المجموعة المهاجرة إلى حوض الخليج، وقلة من سكان الأرض ترجع أصولهم إلى الإنسان العاقل الذي بقي في أفريقيا ولم يهاجر. ولذا تسمي بعض الدراسات الهجرات السابقة بـ "التشتت الفاشل"، بخلاف الهجرة الأخيرة التي قام بها الإنسان العاقل قبل ٧٠ ألف عام فإنها كانت ناجحة بامتياز ومحورية في حياة الإنسان وأدت لاحقاً إلى انتشاره في العالم وإعلان سيادته على الأرض.

٢- لا يصح الاختصار على الدافع الجيني فقط عند إرادة تحليل الهجرة الناجحة كما أشارت له بعض الدراسات العلمية^(٢)، إذ افترضت أنّ التأثيرات المناخية السيئة التي شهدتها أفريقيا في ذلك الوقت دفعت الإنسان العاقل إلى الهجرة والبحث عن مكان أكثر أمناً وتوفر فيه فرص بقاء أفضل.

١- وهم الإلحاد: ١١٥ - ١١٨، علماً أنّ الهوامش الواردة ضمن المقطع المقتبس أعلاه هي من المصدر، أي: من السيد أحمد الحسن.

٢- انظر: المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي ببريطانيا "Natural History Museum"، مقال بعنوان: متى وكيف انتشر البشر المعاصرون، الإنسان العاقل، من أفريقيا وحول العالم؟ بواسطة جيمس آشورث، متاح على:

<https://www.nhm.ac.uk/discover/when-how-did-modern-humans-homo-sapiens-spread-out-of-africa.html>

أقول: لا ننفي أن يكون لسوء المناخ تأثير في الدفع باتجاه الهجرة بنحو جزء السبب (بأي نسبة تأثير كانت)، لكن الإشكال في حصر السبب فيه واعتباره علة تامة؛ إذ لو كان الدافع رغبة جينية فقط لما تخلف أحد من أفراد الهومو سايننس عن الهجرة، أو لا أقل كان المهاجرون هم الأغلبية أو حتى نسبة جيدة من العدد الكلي لأفراد الهومو سايننس وهو عدد ضخم جداً بلا شك. هذا، ولكن المهاجرين كانوا مجموعة منتقاة ويشكلون قلة قليلة جداً!

بحسب تصريح البعض فإنّ تفسير هجرة القلة أمر غير محسوم بين العلماء^(١)، وهو بالتأكيد يؤشر إلى أنّ مسألة الهجرة أبعد من أن يقف وراءها الدافع الجيني بمفرده!

وما يزيد هذه الإشارة وضوحاً هو تمكّن المجموعة المهاجرة من عبور البحر الأحمر (الفاصل بين شرق أفريقيا وغرب آسيا) من نقطة مضيق باب المندب مع أنهم لا يمتلكون أبسط الوسائل التي تسهّل عليهم مهمة عبور مياه البحر! هم بالنتيجة عبروا ونجحت هجرتهم وكانت سبباً في بقاء الإنسان العاقل وانتشاره في عموم الأرض بعد أن تعرض الباقون في أفريقيا إلى شبه إبادة، لكن السؤال: كيف اجتازوا عرض البحر وهي مسافة تقدر بعدة كيلومترات على أقل تقدير؛ خصوصاً ونحن نتحدث عن مجموعة بشرية تضم الذكر والأنثى وأكيد معهم صغارهم أو بعض كبار السن؟! وقبل ذلك: لماذا قرّروا العبور والمخاطرة بأنفسهم؟!

يقول السيد أحمد الحسن: (مسألة الهجرة يمكن للعلم أن يقطع بها؛ لوجود أدلة كثيرة عليها، ولكن ما لا يمكن تفسيره بدقة هو تمكّن هؤلاء من عبور باب المندب، فحتى لو كان الماء منحسراً فستكون هناك بضعة كيلومترات من مياه البحر لا بد من اجتيازها، وهذا يضع عدة تساؤلات يصعب الإجابة عليها دون القول إنّ عملية العبور حصلت بصورة غير طبيعية، فكيف تمكّنوا من السباحة لعدة كيلومترات وهم لا يملكون أي تقنية أو أداة للطفو والتحرك باتجاه محدد؟! لماذا عبر هؤلاء، وما الذي اضطرهم لهذه المجازفة والعبور إلى المجهول؟! لماذا لم يحصل عبور أعداد كبيرة لو كان الأمر متيسراً أو سهلاً أو حتى فيه فائدة كبيرة مغرية للغريزة الحيوانية للجميع؟! فلا يمكن إذن أن نتصور هذا العبور على

١- انظر: المصدر السابق.

أنه عبثي وليس فيه أي انتقائية أو اصطفاء، وإذا لم نقل إنه اصطفاء غيبي هيئاً ظروف العبور الملائمة لهذه المجموعة المصطفاة، فعلى الأقل هو اصطفاء طبيعي بحسب نظرية التطور، فالعابرون من باب المندب هم مجموعة متميزة عن الآخرين، وأقل ما يميزها هو قدرتها على عبور عدة كيلومترات من ماء البحر دون الآخرين) انتهى^(١).

كلام السيد أحمد الحسن واضح في أنّ الدافع الجيني وحده لا يصحح تعليل الهجرة وتحمل قرار المجازفة بعبور البحر، وبهذا يفتح الباب أمام إمكانية أن يكون العبور تم بصورة غير طبيعية من خلال تدخل "الغيب" في الموضوع، فالمجموعة التي اختارت الهجرة وعبور البحر تم اصطفاؤها لإنجاز الهدف الإلهي المرسوم والمقدر له أن يكون في حوض الخليج "الوادي الخصيب" بعد أن يصل إليه المهاجرون في نهاية رحلتهم ويحطوا فيه رحالهم، وصولاً إلى ظهور أول أنبياء الله آدم عليه السلام لاحقاً بين هؤلاء المهاجرين وبعثه من الله لهم.

استقرار المهاجرين في الوادي الخصيب:

الدراسات العلمية المتخصصة، وهي كثيرة جداً، حدّدت منطقة الوادي الخصيب كهدف نهائي استقر فيه المهاجرون من أفريقيا في نهاية المطاف^(٢).

وبعد أن بلغوه لم يتعاملوا معه كتعاملهم مع غيره من الأماكن التي صادفوها في طريقهم بعد عبور البحر من جهة مضيق باب المندب: كاستقرارهم المؤقت في جنوب اليمن ثم استقرارهم المؤقت في جنوب عمان مثلاً نتيجة وجود عيون المياه العذبة في كلا المنطقتين، فما يميز حوض الخليج هو أنهم اعتبروه موضع استقرارهم الدائم.

أما لماذا حوض الخليج بالذات؟ فلأنه البيئة الملائمة والمثالية للعيش والاستقرار في ذلك الوقت؛ إذ لم يكن حينذاك مغموراً بالمياه بل كان سهلاً تصب فيه أنهار المياه العذبة كدجلة والفرات اللذين ينحدران إليه من الشمال (جنوب العراق) ونهر الكارون الذي

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١١٦ - هامش ١.

٢- سيأتي عرض نماذج من الدراسات العلمية بهذا الصدد.

ينحدر إليه من الجنوب الغربي لإيران^(١)، وبالتالي فهو مكان مليء بالأشجار الكثيفة والثمار التي يمكن أن يتغذى عليها الإنسان، بل وموضع مناسب جداً لنشوء أولى القرى الزراعية لاحقاً بعد صلاحية أرضه للزراعة بدرجة عالية جداً.

يقول السيد أحمد الحسن: (بدأ تشكل الهومو سابينس في أفريقيا قبل ٣٠٠ ألف سنة، وانتهى إلى شكله الحالي قبل ١٠٠ ألف سنة، وخلال هذه الفترة لم يخرج الهومو سابينس من أفريقيا بهجرة ناجحة مثمرة. نعم، خرجت مجموعة من الهومو ارتكس - الذين يختلفون عن الإنسان العاقل في الشكل - إلى آسيا وأوروبا.

هجرة الإنسان العاقل من أفريقيا حصلت بتاريخ أقصاه ٧٠ ألف سنة، وكانت هجرتهم من أفريقيا إلى الجزيرة العربية. بالتأكيد، المجموعة المهاجرة كانت بشرتها تمتاز بلون داكن يميل إلى السواد؛ لأنه الملائم لتقليل آثار أشعة الشمس القوية التي تسبب بأمراض سرطانية، في حين أنّ ما يلائم المنطقة الجديدة كما يبدو لنا من نتائج التطور هو لون بشرة أفتح؛ وهو اللون المناسب لأن يأخذ الجسم ما يحتاج إليه من أشعة الشمس دون التسبب بأي إشكال أو ضرر عليه، وهذا يعني أنهم استوطنوا في بيئة لا تكون فيها أشعة الشمس قوية ومباشرة، أي أن فيها ظلالاً تخفف من أشعة الشمس؛ باعتبار أنّ الإنسان حتى ينجو في هكذا بيئة ويتمكن من تمرير جيناته إلى الجيل اللاحق يحتاج إلى أن يفتح لون بشرته (أي تصبح سمراء وليست سوداء)؛ ليتمكن من أخذ قدر كفايته من أشعة الشمس ولا يحصل عنده نقص في فيتامين "D" الذي يتسبب بعدة مشاكل كالكساح - مثلاً - وحصول تضيق لدى المرأة في منطقة الحوض وبالتالي لا تتمكن من أن تلد بسهولة.

هذا يعني أن المهاجرين استقروا في منطقة تحوي مياه عذبة وظلالاً وغابات كثيفة، والمكان الذي تتوفر فيه هذه الصفات في منطقة الجزيرة العربية هو حوض الخليج قبل غمره بالمياه. وبالفعل، استقروا فيه وبدأت ألوان بشرتهم تتغير تدريجياً بمرور الوقت، مع الانتباه إلى أنّ تحقق هكذا أمر يحتاج إلى وقت طويل وأجيال كثيرة جداً. بل نفس

١- انظر: دراسة علمية منشورة في مجلة "نيتشر" العلمية في عام ٢٠٢٤ م، متاحة على:

<https://www.nature.com/articles/s41467-024-61111-7>

استقرارهم في منطقة الوادي "حوض الخليج" لم يحصل مباشرة بعد عبورهم البحر من جهة مضيق باب المندب، وإنما تخلل بين تاريخ العبور وتاريخ الوصول إلى الوادي والاستقرار فيه توقفات في الطريق استغرقت فترات زمنية.

وعموماً، ازدهر حال المجموعة المهاجرة بعد استقرارها في الوادي "حوض الخليج" بسبب طبيعة الحياة فيه كوفرة المياه العذبة التي تصب فيه من الشمال وكثرة الأشجار وقلة المفترسات قياساً بالبيئة السابقة ... إلخ.

وبالنسبة إلى آدم عليه السلام، فإنه ولد لاحقاً من هذه المجموعة) انتهى^(١).

خلق آدم والنفس الإنسانية:

عالم الأنفس:

قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" الطلاق: ١٢.

سبع سماوات: أي سبعة عوالم رئيسية، أو "أكوان" حسب التعبير الفيزيائي^(٢).

بحسب ما نعتقد، فإنَّ العلاقة بين العوالم طولية وليست عرضية (كما افترض بعض الفيزيائيين)، والطولية تعني: أنها مترتبة وجودياً بحيث إنَّ كل عالم أدنى متقوم بالأرقى منه وجوداً، فأرقى العوالم هو السماء السابعة (عالم العقل)، ثم الأقل رقيّاً منه وهو السماء السادسة (أرقى عوالم المثل والملكوت)، ثم الخامسة المثالية الأقل رقيّاً، وهكذا وصولاً إلى السماء الثانية (بداية عالم الأرواح)، ثم الأقل رقيّاً منها وهي السماء الأولى (عالم الأنفس).

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٢- كما نصّت عليه نظرية تعدد الأكوان للفيزيائي الأمريكي هيو إيفرت، وقد تقدمت الإشارة لها.

أما عالمنا الجسماني الذي نعيش فيه (الكون المادي بقضيه وقضيضه) فهو جزء سفلي تابع في وجوده لعالم السماء الأولى (عالم الأنفس) الذي يقوم بتدبير عالم الأجسام تماماً كتدبير النفس لجسم الإنسان وهيمنتها عليه وإدارتها له وتحكمها به.

لما كان الترتب بين العوالم طولياً، فهذا يعني أنّ هناك أسبقية في الخلق لبعض العوالم على البعض الآخر، ولم تُخلق جميع العوالم دفعة واحدة، ولذا وردت نصوص دينية أكدت خلق الأرواح قبل الأبدان^(١). وبخصوص نفس الإنسان وجسده المادي، فإنّ النفس لما كانت هي المدبّرة للجسد فالنفس – والحال هذه – لا بد أن تكون مخلوقة قبل الجسد، ولهذا ورد في النصوص الدينية أنّ الأنفس أجرت امتحانها الأول في عالم الذر (في السماء الأولى) قبل نزولها إلى هذا العالم وارتباطها بالأجساد لأداء الامتحان الثاني كما شاء الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (لو قد قام القائم لأنكره الناس، لأنه يرجع إليهم شاباً موفقاً لا يثبت عليه إلا من قد أخذ الله ميثاقه في الذر الأول)^(٢).

"أخذ الله عليه ميثاقه": أي امتحنه ونجح في الامتحان. و"الذر الأول": أي الامتحان الأول الذي خضعت له أنفس الخلق في عالم الذر في السماء الأولى.

وعالم الذر هو المشار إليه في قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" الأعراف: ١٧٢. أشهدهم على أنفسهم: أي أنّ الامتحان هو امتحان للأنفس.

١- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (قال رجل لأُمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يا أمير المؤمنين أنا والله أحبك، قال فقال له: كذبت، قال: سبحانه الله يا أمير المؤمنين أحلف بالله أنني أحبك فتقول: كذبت؟ قال: وما علمت أن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام وأسكنها الهواء ثم عرضها علينا أهل البيت فوالله ما منها روح إلا وقد عرفنا بدنه، فوالله ما رأيته فيها، فأين كنت؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: كان في النار بصائر الدرجات، الصفار: ١٠٧.

٢- الغيبة، النعماني: ١٩٤.

خلق آدم في عالم الأنفس والعالم الجسماني:

ذكر القرآن الكريم مسألة خلق آدم، ومع أنّ القصة برمتها تحكي ما جرى في عالم الأنفس لكن علماء الدين والمحسوبين عليه الذين تكلموا في هذه المسألة توهموا أنّ عملية الخلق هذه كانت لآدم في الأرض والعالم الجسماني، وأنّ الجنة التي عاش فيها آدم في البداية ثم أُخرج منها هي جنة أرضية، فكانت هذه عثرتهم الأولى ثم تبعها بالتأكيد خطوات وعثرات أبعدتهم أكثر عن فهم الحقيقة.

والصحيح هو ما بيّنه السيد أحمد الحسن، وهذا توضيحه بنقاط إجمالاً، ومن أحب التفصيل فيمكن الرجوع إلى كتاب "وهم الإلحاد"^(١):

١ - حقيقة النفس الإنسانية والامتحان الإلهي المقدّر لها:

اقتضت مشيئة الله سبحانه أن يخلق الإنسان ويجري عليه الامتحان في دارين، امتحان الأنفس (عالم الذر) في السماء الأولى، وامتحان العالم الجسماني في الأرض، فخلق الله الأنفس في السماء الأولى قبل إنزالها إلى هذا العالم (عالم الأجسام)، وكانت النفس الأولى التي خلقها الله في عالم الأنفس هي نفس آدم.

عالم الأنفس هو عالم وسطي يقع بين عالمين؛ إذ يحده من جهة العلو عالم الأرواح (السماء الثانية)، ومن جهة الدنو عالم الأجسام الذي نحن فيه، وهذا يقتضي أن تُخلق النفس بطريقة يمكنها أن تتعامل مع جهتي العلو والدنو أو لنقل: التعامل مع الروح والجسد، وبالتالي فلما تتصل نفس الإنسان بجسده في (الامتحان الثاني الأرضي) تكون كلتا جهتي الجذب موجودتين لديه، وكل منهما تجذبه باتجاه تحقيق ما يلائمها، والنجاح أو الفشل في الامتحان يخضع لقانون ترجيح وتفعيل أي من الجهتين أو الكفتين في وجوده. ومرّبنا سابقاً أنّ جهة العلو (الروح) تمثلها روحا القدس والإيمان، بينما جهة الدنو

١- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٤٣ - ١٥٣.

(الجسد) تمثلها قوى الشهوة والقوة والحياة "المدرج"^(١). وهذا يعني أَنَّ النفس الإنسانية هي خليط مركب من جزئين: جزء مادي أرضي "مرفوع"، وجزء روحي سماوي "منزل"^(٢)، ولهذا صارت النفس مؤهلة لأن تستوعب وتتواصل مع ما هو روحي وما هو أرضي، وبالتالي يمكنها استيعاب القوى الخمس في وجود الإنسان.

خلق النفس في عالمها من هذا الخليط المركب من جزئين يستدعي بالضرورة حضور ممثلين يمثل كل منهما عالمه بكل ما فيه؛ ممثّل عن العالم الأرضي الجسماني وممثّل عن عالم الروح؛ لتكون النفس الإنسانية (بعد خلقها بمزجهما) قادرة على السير بأي من الاتجاهين (ترقي، تسافل) بحسب إرادة واختيار الإنسان في دار الامتحان، وبخصوص ما يمثل عالم الأرواح فقد عبّر عنه القرآن الكريم بـ "التسوية، النفخ"^(٣)، وأما ما يمثل عالم الأجسام فهو "الطينة" بحسب تعبير النص الديني^(٤).

١- تألف الإنسان من خمس قوى أو أرواح أشارت له النصوص الدينية، منها: ما روي (عن جابر الجعفي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا جابر إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق ثلاثة أصناف وهو قول الله عز وجل: "وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون" فالسابقون هم رسل الله عليهم السلام وخاصة الله من خلقه. جعل فيهم خمسة أرواح أيدهم بروح القدس فيه عرفوا الأشياء، وأيدهم بروح الايمان فيه خافوا الله عز وجل، وأيدهم بروح القوة فيه قدروا على طاعة الله، وأيدهم بروح الشهوة فيه اشتها طاعة الله عز وجل وكرهوا معصيته، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجبتون، وجعل في المؤمنين وأصحاب الميمنة روح الايمان فيه خافوا الله، وجعل فيهم روح القوة فيه قدروا على طاعة الله، وجعل فيهم روح الشهوة فيه اشتها طاعة الله، وجعل فيهم روح المدرج الذي به يذهب الناس ويجبتون) الكافي، الكليني: ١ / ٢٧١ - ٢٧٢.

٢- النزول هنا يقصد به: عكس الرفع، وسيأتي بيان معنى الرفع لاحقاً.

٣- قال تعالى: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر: ٢٩.

(عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: "ونفخت فيه من روحي" كيف هذا النفخ؟ فقال: إن الروح متحرك كالريح وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح وإنما أخرجه عن لفظة الريح، لأن الأرواح مجانسة الريح وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح، كما قال لبيت من البيوت: بيتي، ولرسول من الرسل: خليلي، وأشباه ذلك وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبر) الكافي، الكليني: ١ / ١٣٣ - ١٣٤.

٤- قال الإمام الصادق عليه السلام: (كانت الملائكة تمر بآدم عليه السلام أي بصورته وهو ملقى في الجنة من طين فتقول: لأمر ما خلقت) قصص الأنبياء، الراوندي: ٤١.

يقول السيد أحمد الحسن: (فالنفس باعتبار أنها مخلوقة من الطين فإن لها قابلية استيعاب القوى أو الأرواح المادية الجسمانية وهي الشهوة والقوة والمدرج أو حياة البدن، والنفس باعتبار أنها مخلوقة من نفخ الروح فهي مؤهلة للارتقاء واستيعاب روعي الإيمان والقدس، ولهذا زُفِع الطين وخلق منه ومن نفخ الروح؛ لأنها في علم الله ستعود إلى الطين أو عالم الأجسام المادي أو الأرض بالخصوص، ولأنها مخلوقة منه فستكون مؤهلة للتفاعل مع ما هو أرضي واستيعابه والاندماج معه أي الجسم بحيث يمثل امتحاناً ملائماً لها، وفي نفس الوقت لأنها من نفخ الروح السماوي فستكون مؤهلة للارتقاء واستيعاب ما هو سماوي أي روح الإيمان وروح القدس.....) انتهى^(١).

ملاحظة: بخصوص الطينة الأرضية، بالتأكيد أن قوانين السماء الأولى تختلف (كما قلنا) عن قوانين عالم الأجسام الأكثر كثافةً، وبالتالي فالطينة بكثافتها التي هي عليها في عالم الأجسام لا يسمح لها بالمرور إلى السماء الأولى التي هي أرقى وأقل كثافةً حتماً، ولهذا وصفها السيد أحمد الحسن بـ "الطين المرفوع" أو "المثالي"^(٢) الذي ليس فيه مادة الأرض المتكثفة، وسيوضح معنى الرفع بتقريب علمي فيزيائي في البحث القادم.

وعموماً، حضر في السماء الأولى ما يمثل الأرض (الطين المرفوع)، وبقي ملقى على باب الجنة الدنيوية (جنة موجودة في السماء الأولى، عاش فيها آدم بعد انتهاء امتحان عالم الذروقيبيل إنزاله إلى الأرض لأداء الامتحان الثاني) إلى أن تهيأت الأرض لاستقبال آدم، كما أوضحه السيد أحمد الحسن في كلامه.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣١٩.

٢- المثال: أي صورة الشيء بدون أن يكون فيها تكثف مادي جسماني، كما لاحظناه في وصف الإمام الصادق عليه السلام لطينة آدم الملقاة على باب الجنة إذ قال: "كانت الملائكة تمر بأدم عليه السلام أي بصورته..." قصص الأنبياء، الراوندي: ٤١.

٢- خلق الأنفس وأداء الامتحان الأول في السماء الأولى وعالم النذر:

لما تهيأت الأرض لاستقبال آدم عليه السلام، حصل لآدم (طينه المرفوع أو جسده المثالي) مسألتين:

الأولى: الخلق والتسوية، وهذا حصل بنفخ "روح الإيمان" في جسده المثالي، قال تعالى: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ..."^(١)، "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ..."^(٢).

الثانية: النفخ والتصوير، وهذا حصل بنفخ "روح القدس" في جسده المثالي (الطين المرفوع)، قال تعالى في تكملة الآيتين السابقتين: "... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي"، "... ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ". وشاء الله أن يصوّر آدم على صورته^(٣)، ولذا أصبح الإنسان صاحب الفطرة الأعظم بين بقية الخلق، فالإنسان مفطور على معرفة كل أسماء الله^(٤).

وبعد أن تم خلق آدم وتصويره في السماء الأولى كأول نفس إنسانية، أمر الله الملائكة بالسجود له، قال تعالى في تكملة الآيتين السابقتين: "... فَسَجَدُوا لَهُ سَاجِدِينَ"، "... قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"، فانقسم الخلق بين ساجد مقرب ومتكبر مطرود.

ثم خلق الله نفس حواء عليها السلام من نفس آدم بالاشتقاق^(٥)، ثم خلق سائر ذرية آدم (الذكور والإناث) منهما بالاشتقاق والبعث، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

١- في الآية: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَسَجَدُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر: ٢٩.

٢- في الآية: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ" الأعراف: ١١.

٣- عن محمد بن مسلم، قال: (سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته، فقال: هي صورة، محدثة، مخلوقة واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي") الكافي، الكليني: ١/ ١٣٤.

٤- قال تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ..." البقرة: ٣١.

٥- قال الإمام الصادق عليه السلام: (إنَّ الله تعالى خلق آدم من الطين وخلق حواء من آدم) قصص الأنبياء، الراوندي: ٤٢.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" النساء: ١.

الاشتقاق واللبث: سبيل التكاثر والتعدد وفق قوانين ونظام السماء الأولى، كما أن لعالمنا الجسماني سبيل للتعدد والتكاثر خاص به.

وبعد خلق أنفس آدم وحواء وذريتهما جميعاً امتحنهم الله الامتحان الأول في عالم الذر (عالم الأنفس)، وكان امتحانهم بسؤال واحد، قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" الأعراف: ١٧٢، والمتقدم في الامتحان هو من يرى ويسمع ويجب أولاً.

٣- الامتحان الثاني في الأرض وعالم الأجسام:

لما انتهى امتحان عالم الذر، شاء الله أن يتم ما في علمه السابق من إنزال آدم إلى الأرض وإجراء الامتحان الثاني، وهذا الأمر تم عبر مرحلتين:

الأولى: خلق الله آدم (ومعه حواء) في السماء الأولى (في الجنة الدنيوية تحديداً) وامتحنه هو حواء فيها، ثم بعد الفشل في الامتحان كما كان مقدراً لهما أخرجا منها، قال تعالى:

- "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" البقرة: ٣٥.

- "وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" الأعراف: ١٩.

- "فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى" طه: ١١٧ - ١٢١.

يقول السيد أحمد الحسن: (فالأيات واضحة: أن آدم عليه السلام لم يكن أرضياً، ولم يخلق في الأرض ابتداءً بل في الجنة في السماء الأولى، وهي غير جنة الخلد "فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى"، وهذه الجنة ليست كالأرض التي يمكن أن يجوع فيها الإنسان ويعرى ويعطش ويضحي وتؤذيه الشمس والظروف الجوية إذا لم يعمل ويجمع الثمار أو يزرع ويصيد أو يربي الحيوانات ويتخذ احتياطاته لدفع الضرر، إذن هي شيء آخر غير أرضي).

ثم لننظر إلى حال آدم المميز في هذه الآيات، وهل يتناسب مع حال الأرض والأجسام فيها، فجسم الإنسان الأرضي إذا لم يغط جزءاً منه باللباس سيكون مكشوفاً وأكيداً يراه صاحبه ويراه غيره، ولو كان آدم يلبس لباساً أرضياً فإنّ هذا اللباس الأرضي لا يصبح معدوماً عندما يعصي الإنسان الله، فلو كان آدم وحواء في الأرض وكنا عاريين من البداية لانتبهنا إلى حالهما منذ البداية وليس عند المعصية، ولو كانا في الأرض ولبسان ملابس فلا تختفي عنهما بمجرد المعصية.

إذن، فالأمر ليس أرضياً والقصة ليست أرضية، فالأمر كما يذكره الله في القرآن لا يتناسب مع حال الأرض ومن فيها أبداً، بينما لو كان آدم وحواء عند المعصية في الجنة الدنيوية في السماء الأولى فمن الطبيعي أن تبدولهما سوءاتهما عندما يعصيان وليس قبل ذلك، لأن اللباس الذي يستر العورة هناك هو لباس التقوى وهو لباس تلبسه النفس كنتيجة طبيعية لطاعة الله ومخالفة الهوى والشيطان، ولباس التقوى أهم وأفضل من لباس الجسد؛ لأن الله ينظر لنفس وروح الإنسان وما تلبس وليس إلى جسد الإنسان وما يغطيه: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" الأعراف: ٢٦.

وعند المعصية ينزع هذا اللباس وتتكشف عورة الإنسان أمام ربه (١)، أي أن آدم وحواء عليهما السلام كانا يلبسان لباساً منذ البداية في الجنة، كانا يلبسان لباس التقوى

١- أي إنسان وليس آدم فقط، فتراه الملائكة عارياً من التقوى وتعرف أنه عاصي، لهذا اهتم آدم وحواء بما حصل فهو على أقل تقدير أمر مخجل أن يصدر من آدم معلّم الملائكة، ولهذا أخذ يستغفر ليرجع له لباس التقوى: "فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ".

ثم نزع عنهما؛ فهما لم يكونا عاريين في البداية وانكشف لهما حالهما الأولي، بل الذي انكشف لهما هو حالهما بعد المعصية ونزع لباس التقوى: "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ" الأعراف: ٢٧.

فالآية واضحة أن لباس آدم نزع عنه بسبب معصيته: "لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا"، وهذا اللباس عاد بالاستغفار: "فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ".

والآيات واضحة أن هبوط آدم عليه السلام وحواء من الجنة الدنيوية في السماء الأولى إلى الأرض لا يمكن أن يقال إنه هبوط من جنة في هذه الأرض إلى الأرض: "قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، فهو هبوط من السماء الأولى إلى السماء الجسمانية وإلى الأرض بالخصوص، والإمام الصادق عليه السلام بين أن آدم طلب أن يرجع إلى الجنة التي كان فيها وقد أجابه الله، وهذا يبين بوضوح أنها جنة سيدخلها بعد انفصال نفسه - بالموت - عن هذا الجسد مرة أخرى ويعود كما كان سابقاً.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "لما طاف آدم عليه السلام بالبيت مائة عام ما ينظر إلى حواء، ولقد بكى على الجنة حتى صار على خديه مثل النهرين العجاجين العظيمين من الدموع، ثم أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: حياك الله وبياك، فلما أن قال: "حياك الله" تبلى وجهه فرحاً وعلم أن الله قد رضي عنه، ولما قال: "وبياك" ضحك ومعنى بياك أضحكك، قال: ولقد قام على باب الكعبة وثيابه جلود الإبل والبقر، فقال: اللهم أقلني عثرتي واغفر لي ذنبي وأعدني إلى الدار التي أخرجتني منها، فقال الله جل ثناؤه: قد أقلتكَ عثرتك وغفرت لك ذنبك وسأعيدك إلى الدار التي أخرجتك منها" (١).

هذه قصة خلق آدم عليه السلام من الطين المرفوع إلى السماء الأولى ونفخ الروح فيه، فأدم خلق في الجنة الدنيوية الموجودة في السماء الأولى^(١)، فنحن سماويون وقد خلقت أنفسنا من الروح المنفوخ في الطين المرفوع لكي يتم امتحاننا في هذه الأرض، وتتمكن الأنفس من التواصل مع الأجسام الأرضية التي ستكون حيز امتحانها في هذا العالم الجسماني المادي) انتهى^(٢).

الثانية: نزول نفس آدم من السماء الأولى واتصالها بجسده في الأرض، وكذا حواء:

أداء آدم وحواء للامتحان الثاني على الأرض تم من خلال عدة خطوات، تمثل أولاهما بخلق النفسين في السماء الأولى، ثم (وهي الخطوة الثانية) إنزال النفسين إلى الأرض (للتمهيد) ابتداءً، ثم (وهي ثالث الخطوات) اتصال النفسين بجسديهما المخلوقين في الأرض لما حان وقتهما.

وبخصوص جسد آدم (وكذا حواء)، فإن الفروض المحتملة لخلق جسميهما ثلاثة:

الأول: أن يحصل تجسّد لنفس آدم ونفس حواء مباشرة بدون الحاجة إلى ماء وتراب الأرض، وهو فرض يصطدم مع الحقائق العلمية التي تعرف حقيقة الجسم الإنساني عموماً بالتفصيل.

الثاني: أن يُخلق لكل من آدم وحواء جسم من مادة هذه الأرض (طين وماء) بشكل دفعي ومباشر ثم تلجه نفسيهما، وهذا يتنافى مع صريح القرآن الكريم الذي يبيّن أنّ خلق آدم وحواء كان في السماء الأولى ابتداءً قبل إنزالهما إلى الأرض، ويتنافى أيضاً مع الحقائق العلمية التي أكدتها نظرية التطور.

١- السماء الدنيا تتكون من جزئين أو مرتبتين وهما: السماء الجسمانية: وهي هذه السماء المادية الجسمانية التي فيها المجرات والشموس والأقمار والأرض التي نعيش فيها، والسماء الأولى: وهي سماء الأنفس، وفيها خلق آدم، وفيها الجنة الدنيوية التي وضع فيها آدم وحواء أول خلقهما قبل أن ينزلا إلى الأرض بعد المعصية، والسماء الأولى هي نفسها سماء عالم النذر.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٤٦ - ١٤٩.

فيبقى (وهو الفرض الثالث في المسألة) أن نفسهما نزلتا من السماء الأولى إلى الأرض قبل وقتهما، ثم لما حان وقتهما اتصلت نفس كل منهما بجسده وهو في رحم أمه، فجسد كل منهما - والحال هذه - خلق في الأرض ضمن قانون التطور الذي مَرَّ بيانه، وهذا يعني أن كلاهما ولد لأبوين من بعض عوائل المجموعة المكلفة التي استوطنت حوض الخليج، كما تقدم.

يقول السيد أحمد الحسن بعد إبطال الفرضين الأولين:

(أن تكون البداية هي القانون الذي نظم نشوء الحياة من الخريطة الجينية ويكون هناك هدف من البذرة أو الخريطة الجينية الأولى، وهذا الهدف هو نحت جسم حيواني خلال مسيرة طويلة من التطور حتى يصبح مناسباً لتتصل به وتبث فيه - وهو في الرحم - نفس آدم وكذا الأمر بالنسبة لحواء عليهما السلام: "وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً" نوح: ١٤ - ١٧. فالآية واضحة في أن هناك أطواراً مررنا بها، وهذه الأطوار كما أن السماوات طباقاً أي بعضها فوق بعض وبعضها أرقى من بعض وبعضها مهيم على بعض، ثم تنتهي الآية ببيان خلقنا - نحن البشر - على أنه عبارة عن عملية إنبات (زرع)، وهذه الكلمة واضحة فالأمر إذن استزراع واستنبات، ولا نحتاج أكثر من أن ننظر إلى نبات الأرض لنرى أنه يبدأ ببذرة ساكنة فيها خريطة جينية ثم تبدأ البذرة بتنفيذ تلك الخريطة الجينية عندما تتوفر الظروف المناسبة لها فيكون نبات صغير الحجم وحتى ربما تكون ورقتيه الأوليتان مختلفتان عن أوراق الشجرة التي ستتطور عنه.

"وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً": أنبتنا من الأرض وكل ما احتاجه إنباتنا هو خريطة جينية منتجة لتصل إلى المنتهى الذي يريده الله سبحانه وتعالى.

وهذا الفرض مناسب جداً لإدخال آدم عليه السلام وحواء عليها السلام للامتحان في هذه الأرض دون أن يكونا مفضلين بشيء يجعلهما بمثابة معفيين من الامتحان الأرضي دون غيرهما.

"قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ": أي إنّ النفس التي خُلقت من الطين المرفوع إلى السماء الأولى أُهبطت لتتصل بجسم حيواني معين مهياً لاستقبالها ويتم امتحانها الأرضي كما أراد الله، وهذا لا يتعارض مع ما يثبته علماء الأحياء من نظرية التطور وأصل النوع الإنساني بالخصوص، فهو متوافق مع نظرية التطور والارتقاء.

فلا إشكال أن يكون هناك كائن حي ترقى من الطين والماء حتى وصل إلى تركيب جسماني حيواني له الأرواح الثلاثة الأولى (روح الحياة والقوة والشهوة)، ثم تبث نفس آدم عليه السلام فيه لتحصل نقلة شاملة لهذا الكائن من الحيوانية والبهيمية إلى الإنسانية النبوية الرسالية وثقافتها وقيمها الأخلاقية الراقية، وهذا يفسر في نفس الوقت القفزة الحضارية والثقافية التي بدأت في أرض سومر قبل آلاف السنين تفسيراً معقولاً ومقبولاً علمياً.

واستمر الأمر بعد آدم عليه السلام في ذريته، فتتجلى في نفوسهم روح الإيمان والقدس، تماماً كأن نفوسهم هي مرآة تعكس روح الإيمان والقدس فتكون نفوسهم عبارة عن فطرة إلهية تدعوهم إلى الترقى، فإن استعمل الإنسان هذا المفتاح بصورة صحيحة نجح في الامتحان وترقى إلى أعلى الدرجات وأصبحت عنده روح الإيمان ثم روح القدس حتى يصبح تجلي الله في الأرض، وهذا الأمر يشمل الجميع حتى محمداً صلى الله عليه وآله خير الخلق: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" الشورى: ٥٢، أما إن ألقى الإنسان هذا المفتاح واكتفى بالأرواح الحيوانية فقد أردى بنفسه وخسر حظه ورجع إلى أصله وحيوانيته وبهيميته: "فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ".

إذن، فهذه المرحلة هي مرحلة ثانية متأخرة عن مرحلة خلق آدم عليه السلام في السماء الأولى والتي مثلت خلق آدم الحقيقي، أما هذه المرحلة فهي مرحلة إنزال آدم أو نفس آدم عليه السلام إلى الأرض للامتحان، هي مرحلة اتصال نفس آدم بجسد مادي في هذا العالم الجسماني ليتم امتحانه وامتحان ذريته من بعده، وهذا حصل بعد نزول نفس آدم عليه السلام إلى هذه الأرض وبقائها في الأرض فترة من الزمن شاءها الله سبحانه وتعالى، فأقامت نفس آدم عليه السلام ونفس حواء عليها السلام بعض شعائر الله في هذه

الأرض. ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يوصلهما بجسدين ماديين أرضيين ويغفلهما عن حالهما السابق ليتم الامتحان^(١)، فولدا من أشباه الأدميين بعد أن تهيأت أجسام هؤلاء الأقوام لاستقبال نفس كنفس آدم عليه السلام، وأصبحت أيضاً لديهم القدرة على استقبال البلاغ الإلهي الذي سيصلهم عن طريق آدم عليه السلام الذي ولد فيهم وبعث فيهم.

ومن الغريب حقاً أن يقبل بعض الناس أن تكون بداية جسم آدم عليه السلام مباشرة من الطين أو التراب ولا يقبل أن تكون بدايته من كائن حي مع أن الكائن الحي أرقى في الدرجة الوجودية الحياتية بكثير من الطين الجماد) انتهى^(٢).

وكما شاء الله أن يكون آدم وحواء عليهما السلام مجتمعين في السماء الأولى، شاء أن يكونا كذلك أيضاً في هذا العالم، فتزوج آدم عليه السلام من حواء عليها السلام وكونا أول أسرة آدمية يحمل كل طرف فيها (الزوج والزوجة) نفساً إنسانية مؤهلة لحمل الرسالة والتكليف الرسالي الإلهي، وبآدم بدأت البشرية عهداً وطوراً جديداً.

بيان معنى الرفع:

قلنا إن نفس آدم عليه السلام مخلوقة من مزج "النفخ" مع "الطين المرفوع"، ولأجل أن تتضح لنا مسألة خلق النفس في السماء الأولى بصورة أكبر ينبغي لنا أن نعرف معنى الرفع الذي حصل لطين الأرض ومنه خلقت نفسه.

١- "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ" [سورة الواقعة، الآية ٦٢] أي إنكم كنتم في عالم سابق هو عالم الذر أو عالم الأنفس الذي خلق فيه آدم وخلقتم أنتم فيه بعده، وعالم الأنفس أو عالم الذر مثل بالنسبة لكم نشأتكم الأولى فلماذا لا تتذكرون ذلك العالم رغم أنكم كنتم فيه وعلمتموه: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ"، ولهذا فهو سبحانه يقول كما أنكم خلقتكم في عالم سابقاً وعلمتموه سابقاً ولكي أغفلتكم عنه عندما وصلت نفوسكم بالأجساد في هذه الأرض فحجبت نفوسكم عن العلم بحالها السابق فهو سبحانه قادر أن يعيد الأمر مرة أخرى ويخلقكم في عالم آخر بحال آخر ويتكرر معكم ما يحصل معكم اليوم: "نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ" [الواقعة].

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٥١ - ١٥٣.

أوضح السيد أحمد الحسن معنى الرفع في بعض كتبه، وبخصوص بحثنا أضاف توضيحاً جديداً يقرّب الرفع من الناحية الفيزيائية، يقول:

(باختصار، عالم الأجسام الذي نعيش فيه هو عالم مادة "Matter"، والمادة عبارة عن عناصر كيميائية "Elements"، وكانت بدايتها بعد حدوث الانفجار العظيم حيث تحولت كمية مهولة من الطاقة إلى جسيمات ثم تجمعت لتكون بروتونات ونيوترونات ثم تجمعت لتشكّل نواة الذرة ثم الهيدروجين وهكذا، فمن عناصر خفيفة إلى أن نصل إلى عناصر ثقيلة كالحديد إلى أن نصل إلى عناصر تتكون نتيجة انفجارات "السوبرنوفات" مثل الذهب وهكذا، وفي بعض الأحيان يحصل انهيار مادي فيتكون الثقب الأسود (انهيار نجم).

فهذا العالم الذي نسميه نحن بـ "العالم الجسماني"، أو يسموه في الفيزياء بـ "الكون Universe" متكوّن من المادة التي نعرفها، وأيضاً: يوجد في الكون أمران غير المادة:

الأول: الثقوب السوداء، وفيزيائياً: لا أحد يعرف ماذا يوجد داخل الثقب الأسود، وكل ما يمكن معرفته هو أنّ الثقب الأسود عبارة عن تكثف مادي، وأنّ المادة (أي مادة) إذا دخلته تضغط وتكبس وإن كان حجمها كبيراً، فمثلاً: الشمس الكبيرة تنسحق وتصبح بحجم بسيط وصغير داخل الثقب الأسود بسبب عملية التكثف التي تحصل لها.

وللتوضيح أكثر: الأشياء المادية كلها تتألف من عناصر، وتتألف العناصر من ذرات، والذرات – بما في ذلك نواة الذرة – تتألف من جسيمات أو أجزاء أولية مثل الإلكترونات والكواركات، وتوجد بين هذه الجسيمات مسافات، فمثلاً: ذرة أي عنصر يوجد بين نواتها وبين الإلكترونات التي تدور حولها مسافات شاسعة، وبدخول الجسم المادي إلى داخل الثقب الأسود يحصل عملية تقارب وتقصّر المسافات الواقعة بين أجزائه بحيث تحصل له عملية كبس على كل المستويات بدءاً من تقارب المواد التي يتكون منها إلى تقارب الجزيئات المادية إلى تقارب الذرات إلى تقارب مكونات الذرات وانتهاءً بتقارب الجسيمات دون الذرية، وبالتالي لا يعود المكون الجديد مادة كالتي نعرفها لا على المستوى الجزيئي ولا على المستوى الذري بل حتى الجسيمات الأولية للمادة لا يمكن أن يجزم أحد ببقائها على حالها داخل الثقب الأسود، وهذا يترك الإنسان عاجزاً تماماً من الخوض في استنباط أي قانون حقيقي يحكم الحالة داخل الثقب الأسود.

الثاني: الطاقة، ووفق قانون التكافؤ يمكن أن نقول إنها حالة مادية ولكن على عكس حال الثقب الأسود، أي يحصل تباعد بين الأجزاء التي يتكون منها الشيء، فالمادة لما تهشم ويحصل لها عملية تفكك (كما يحصل في الانفجارات النووية) تصدر منها طاقة كبيرة، وهو الأمر الذي وضع له أينشتاين قانون التكافؤ أو تحويل المادة إلى طاقة والعكس في نظرية النسبية الخاصة ($E = MC^2$)، ومعنى هذا أنه إذا كان لدينا جسم مادي بكتلة معينة وتم تحويله إلى طاقة فإن كمية هذه الطاقة ستساوي كتلة الجسم مضروبة بمربع سرعة الضوء، وهذا يتم اختباره يومياً الآن في المفاعلات النووية المنتشرة في عدد من دول العالم.

وباختصار شديد: هناك ثلاثة أشياء في الكون (طرفين ووسط): ثقوب سوداء وطاقة كطرفين، والمادة (ونحن) في الوسط! ولو صورنا المسألة بثلاثة خطوط أو مستويات: في الوسط توجد المادة العادية (نحن)، ويوجد خط ومستوى مادي أرقى فوقنا وهو الطاقة، ويوجد خط ومستوى مادي أدون تحتنا وهو الثقوب السوداء.

· مادة أقل تكثفاً = الطاقة.

· مادة عادية = نحن.

· مادة متكثفة = ثقوب سوداء.

يمكننا القول: إن بداية السماء الأولى من جهتنا (عالمنا الجسماني) هو تحول المادة إلى طاقة، فهو الحجاب والخط البرزخي بين العالمين (عالمنا الجسماني وعالم السماء الأولى)، ثم بدخول السماء الأولى تتحول الطاقة إلى ما يناسب عالم الأنفس.

هذا من جهة السماوات وحال العلو والرقى. أما من جهة الأرضين السفلى، فحالتها البرزخية هي الثقوب السوداء، ويزداد الحال تكثفاً أكثر كلما اتجهت منها إلى الأرض الأولى.

فالله سبحانه أَرانا خط بداية الأرضين السفلى بشكل واضح وملموس وهو "الثقب الأسود"، كما أَرانا خط بداية السماء الأولى بشكل واضح وملموس أيضاً وهو "الطاقة".

ما قدمته كافٍ لتتوضح مسألة الرفع ومعناها.

فإذا ما أراد الله سبحانه أن يرفع شيئاً مادياً (إنسان، طين الأرض، ... إلخ) معناه أنه يريد أن يرفّقه باتجاه السماوات العلى، والأمر المادي حتى يترقى ويحصل له الرفع فأول شيء يحصل له هو أن يُنزع عنه مادية جسده ليتمكن بعد ذلك من اختراق حجاب السماء الأولى، وبدخولها بتغيير حاله إلى ما "فوق الطاقة" بشكل يتناسب مع كل سماء وعالم أعلى، فالطاقة ترينا بداية الرقي وليس كل شيء في الموضوع. ويزداد الأمر رقياً أكثر كلما اتجهنا إلى السماوات العلى أكثر.

هذا هو خلاصة معنى الرفع بلغة مادية وعلمية، وأما بيانه بلغة دينية فقد ذكرته في أكثر من موضع (١).

والرفع الذي بيّناه الآن علمياً هو نفسه الذي حصل للطين الذي خُلِق منه آدم عليه السلام في السماء الأولى، وهو نفسه الذي حصل لعيسى عليه السلام والإمام المهدي صلوات الله عليه، كما أكدّه القرآن الكريم والروايات، فالرفع ليس أمراً جديداً في الدين الإلهي، ولا أنه أمر غير مفسّر في العلم. فالجسد المادي لا يبقى مادياً إذا رفع للسماوات.

والجسد المادي في هذا العالم مصيره الزوال والفناء حتماً. بل بقاؤه في هذا العالم (عالم الأجسام) لفترة طويلة لا يمكن حصوله إلا بإعجاز إلهي، والإعجاز لا يحصل إلا بحكمة معينة) انتهى (٢).

١- انظر: كتاب "يسألونك عن الروح" ضمن كتاب عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن؛ وأيضاً: كتاب مع العبد الصالح: الجزء الأول - معنى الرفع.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

مجتمع آدم وتاريخ ظهوره على الأرض:

مجتمع آدم:

علمياً، من المؤكد أنّ المجموعة المهاجرة التي حطت رحالها في الوادي الخصيب واستوطنت حوض الخليج بعد الهجرة من أفريقيا قبل ٥٠ - ٧٠ ألف سنة^(١)، لم تكن أشباه ناس "سلف الإنسان، هومو"، وإنما كانت مجتمعاً إنسانياً عاقلاً (هومو سابينس) اكتملت لدى كل فرد من أفرادها آلة الذكاء كمّاً وكيفاً، وصار لديهم مستوى معين من الإدراك والتفكير واللغة، وبالتالي فهم جماعة بشرية شهدت وجود علاقات اجتماعية عامة وعلاقات عائلية مستقرة، كما عرفنا سابقاً.

ونحن يمكننا تلمس ذلك من خلال نفس قضية هجرتهم من أفريقيا، فقد كانوا مجموعة صغيرة منتقاة ولم يشترك بها القسم الأعظم من أقرانهم الذين أبيدوا (غالبيتهم) لاحقاً بسبب التطورات المناخية الخطيرة التي حصلت، ولذلك أكد علم الجينات الحديث أنّ غالبية سكان الأرض اليوم ترجع أصولهم الجينية للمجموعة المهاجرة التي استوطنت حوض الخليج كما تقدم.

ليس من الصحيح التعامل مع هجرة المجموعة المنتقاة بوصفها حدثاً عشوائياً عبثياً؛ لأنها بالنتيجة أثمرت وأنتجت هدفاً حقيقياً تمثل بالحفاظ على جنس الإنسان العاقل وصولاً إلى بداية المشروع الإلهي الرسالي على الأرض ببعث أول أنبياء الله آدم عليه السلام داخل نفس المجموعة ومنها حُمل دين الله وتعاليم آدم إلى أنحاء العالم بمعية المهاجرين في الهجرات اللاحقة التي انطلقت من حوض الخليج إلى أنحاء متفرقة^(٢)؛ ولهذا نجد أنّ أغلب الأديان الأساسية الكبرى التي انتشرت لاحقاً بعد آدم عليه السلام فيها شيء

١- سيأتي عرض نماذج من الدراسات العلمية التي ذكرت هذا التحديد الزمني عند تعرضنا للتاريخ المتوقع لظهور آدم عليه السلام.

٢- تقدمت الإشارة لذلك في كلام السيد أحمد الحسن، انظر: وهم الإلحاد: ١١٨، وأيضاً: الدراسات العلمية أكدت ذلك، وسنعرض بعضاً منها عند بحث التاريخ المتوقع لظهور آدم عليه السلام فيه..

من تعاليمه وتشترك جميعها ببعض الأصول الواضحة كما سيأتي عند بيان الدين السومري الإلهي وهو نفسه دين آدم عليه السلام.

انتقاء المجموعة المهاجرة واصطفائهم من المجموع الكلي للبشر الموجودين في أفريقيا وتحقيقهم الهدف الذي أراده الله يفترض - بطبيعة الحال - أنهم (ولا أقل بعضهم) يوحى لهم بما يناسب وضعهم ومستوى إدراكهم، ومن يصعب عليه تعقل ذلك من المؤمنين فلا أقل يمكنه أن يستوعب أن الله سبحانه أوحى إلى النحل بصريح القرآن الكريم، قال تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" النحل: ٦٨. فالله الذي أوحى إلى النحل - وهي مخلوقات أدون من البشر الذين نتحدث عنهم - وعلمها كيف تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً، يمكن تعقل أنه أوحى لهؤلاء البشر المصطفين (المجموعة المهاجرة، وهم بمستوى وجودي أرقى من النحل بالتأكيد) أن يتركوا أفريقيا ويهاجروا باتجاه الوادي الخصيب ليتخذوا بيوتهم هناك ويستقروا فيه تمهيداً لبدء رسالته على الأرض.

ومسألة أن الله سبحانه كان يوحى لبعض البشر قبل بعثة آدم عليه السلام يمكننا أن نجد لها شواهد في النصوص الدينية التي نطق بها آل محمد عليهم السلام، وكمثال للنصوص:

(عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: يا زرارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفني مسائله في أربعين عاماً) ^(١).

بيت يحج: أي يقصد إليه، فهم كانوا يقصدون تلك البقاع ويتعبدون فيها وربما كانوا يؤدون بعض الأعمال التي تناسب وضعهم، ولا يعني بالضرورة أنهم كانوا يحجّون بنفس المناسك التي تؤدى في الدين الإلهي بعد آدم عليه السلام ^(٢).

١- من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ٢ / ٥١٩.

٢- هذا ما عرفته من السيد أحمد الحسن في حوار معه بهذا الخصوص.

يقول السيد أحمد الحسن معلّقاً على الرواية: (أي إنهم أقوام مكلفة يعبدون الله بحسب وضعهم وإمكاناتهم وإدراكهم) انتهى^(١).

أما كيف كان تكليفهم بالضبط؟ هل هناك رسول بينهم بمستواهم يعلمهم ويرشدهم مثلاً؟ ونحن نعرف أنّ ابتداء بعث الأنبياء والرسل حصل بآدم عليه السلام؟

يقول السيد أحمد الحسن في إجابة السؤال: (بالطبع لا بد من الوحي، أما التفاصيل فلا أعتقد أنّ الناس معنيون بها) انتهى^(٢).

وعموماً، من هؤلاء المكلفين الذين يعبدون الله ويحجّون إلى بيته بحدود وضعهم وإدراكهم ولد أبونا آدم عليه السلام لأبوين موحدّين بالتأكيد ومتزوجين بطريق مرضي لله يطيب به المولد، وكذا الحال بالنسبة إلى أمنا حواء عليها السلام:

عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إنّ الله تبارك وتعالى قسّم الناس نصفين، فكنت في النصف الخير، ثم قسّم النصف الخير ثلاثة فكنت في الثلث الخير، وما عرق فيّ عرق سفاح قط، وما عرق فيّ إلا عرق نكاح كنكاح الإسلام حتى آدم")^(٣).

يقول السيد أحمد الحسن: (إذن، فالحقيقة العلمية وهذا النص^(٤) توصلنا إلى أنّ آدم ولد لأهل مكلفين من أولئك المهاجرين، ولكنهم كانوا من نوع نفسي دون مستوى آدم وولده. وحتى التاريخ السومري يبيّن في بعض النصوص التي وصلتنا أنّ أصول السومريين تعود إلى المجموعة المهاجرة من أفريقيا، حيث إنّ السومريين يسمون أسلافهم بذوي الرؤوس السود: "وبعد أن خلق أن وانليل وانكي وننخرساج، القوم ذوي الرؤوس السود

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٢٧.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٣- قرب الإسناد، الحميري: ١١١.

٤- يقصد به: رواية زارة عن الإمام الصادق عليه السلام: "يا زارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفني مسأله في أربعين عاماً"، وقد تقدمت.

خرجت المزروعات بوفرة من الأرض" (١). ويمكننا أن نفهم من هذه العبارة أن لون أسلافهم كان أسوداً.

إذن، آدم كان من ذرية أولئك المهاجرين، وقد استوطن هو وولده وادي الخليج، ثم حصل الخلاف المذكور دينياً على أنه حادثة قتل هابيل وطرده قابيل إلى الجبال أي أعلى الوادي الخصب (الخليج الحالي) أو جنوب غرب إيران الحالية، ومن ثم انتشار المجموعة المطرودة في آسيا وأوروبا وبقية العالم، ولحقهم بعض ذرية الذين كانوا في الوادي في وقت آخر واختلطوا بهم، ولما حدث طوفان الوادي خرجت مجموعة صغيرة من الصالحين الذين بقوا في الوادي وبدأوا من جديد في وسط وجنوب العراق الحالي، ولعل التعبير السومري عنهم على أنهم بقية ذرية الإنسان وما شابه من التعبيرات الدينية التي يفهم منها أنهم فقط الناس الناجون من الطوفان سببه هو أنهم فقط المجموعة المتبقية من ذرية هابيل وشيث والصالحين من ولد آدم، ولم تختلط أنسابهم مع ذرية قابيل والطالحين من ذرية آدم) انتهى (٢).

وما يؤكد وجود مجتمع بشري في فترة بعث آدم عليه السلام هو تصريح القرآن الكريم باصطفائه على العالمين سواء أهل زمانه وغيرهم، قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" آل عمران: ٣٣. فكما أن نوحاً وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران اصطُفوا من بين أهل زمانهم، فكذا الحال بالنسبة لآدم، وإلا مَن اصطفي في زمانه إذا لم يكن هناك مجتمع بشري؟! وهل يلتزم المنكر لوجود مجتمع بشري في زمن آدم عليه السلام أنه اصطفي من بين المخلوقات الموجودة؟! وهل يظن أن اختيار آدم من بينها فيه تفضيل وتكريم لآدم النبي؟!

يقول السيد أحمد الحسن عن الاصطفاء في الآية:

(... وهذا معناه أن هناك خلقاً أرضيين آخرين كانوا موجودين واصطفى الله جسم آدم من هؤلاء أشباه الناس، فالاصطفاء لا يكون إلا من المماثل، وآدم كجسم يشبه من

١- من ألواح سومر، كريم: ٢٥٣.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٢٨.

ولد بينهم وكنفس آدمية أولى بثت بينهم يصدق عليه قول إنه أصطفي منهم. أما القول إنَّ اصطفاء آدم من بقية المخلوقات فهذا كلام لا يستقيم، فما معنى أن تقول إنك اصطفيت فرداً إنسانياً من بين مجموعة من السباع والبقر والحمير... الخ، هل هذا الكلام له معنى؟ أو حتى ينطق به حكيم؟! انتهى^(١).

ثم ما معنى أن يبعث الله أول أنبيائه ويفتح به المشروع الرسالي المنتظر منذ نشوء الكون ثم الأرض وبدء الحياة فيها في عملية خلق تطورت خلال مليارات السنين لتصل إلى الغاية والهدف المنشود، ثم يقوم ببعث آدم نبياً وهادياً وليس هناك بشري يقوم بتبليغهم وهدايتهم إلى دين الله سوى زوجته حواء؟! ولنفرض أنه عليه السلام بلغها بدين الله وأمنت وصدّقت، فهل بقي ينتظر إلى أن ولد ابنه الأول ثم انتظره ١٥ عاماً حتى يكبر ليقيم بتبليغه وهدايته لدين الله؟! ونفس الشيء فعل مع ابنه الثاني؟! ثم انتظر أحفاده يولدون ويكبرون، وهكذا؟! هل هذا هو المشروع الإلهي الذي ابتدأ بآدم عليه السلام كما يفهم هؤلاء!!؟

وعموماً، سيأتي في موضوع "بعثة آدم" عرض بعض النصوص الدينية التي تذكر نبياً في أول الخلق قام بتبليغ وإنذار قومه، والصحيح تفسيره بآدم عليه السلام. وأيضاً: نصوص تؤكد أنّ الله أوحى إلى آدم أن يرضى للناس ما يرضى لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه؛ الأمر الذي يشير إلى وجود ناس عند بعثته^(٢).

النصوص الدينية والحقائق العلمية معاً أكدت وجود مجتمع بشري قبل وعند بعثة آدم عليه السلام في التاريخ الذي نرجح ظهور آدم عليه السلام فيه (أي قبل ٢٠ - ٣٠ ألف سنة، وسيأتي بيانه بالدليل الديني والعلمي)، واصطفاء آدم كان من بين هؤلاء، كما أنّ

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٣٤.

٢- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (أوحى الله عز وجل إلى آدم عليه السلام إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات، قال: يا رب وما هن؟ قال: واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيبي وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس، قال: يا رب بيّهن لي حتى أعلمهن. قال: أما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيبي وبينك فعليك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك) الكافي، الكليني: ١٤٦/٢.

الله بعثه إليهم لإرشادهم وهدايتهم لدينه فأمن به من آمن وكفربه من كفر، ولا أقل فإنّ القرآن الكريم ذكر قصة ولدي آدم؛ هابيل (المؤمن المصدق بنبوّة أبيه) وقابيل (الكافر بنبوّة أبيه) الذي قام بقتل هابيل، وأضافت النصوص الروائية ابنه الثالث "شيث" المؤمن بأبيه، وبعد مقتل هابيل أصبح شيث وصياً لأبيه في استمرار رسالة الله على الأرض وهداية الناس بعد موت آدم عليه السلام^(١)!

يبقى أنّ وصف آدم عليه السلام بأنه "أبو البشر" كما ورد في بعض النصوص الدينية، فليس المقصود به أنه أول البشر وجوداً على الأرض، كيف! وبعض النصوص كما لاحظنا أكدت وجود بشر قبله وأوضحت عبادتهم وحيّتهم بما يناسب إدراكهم، وإنّما ربما يقصد به أنّ من بقي على وجه الأرض كلهم (أو أغلبهم) هم من ذرية آدم عليه السلام بعد فرض انقراض بقية المجموعة المهاجرة الأولى وعدم بقاء نسل تابع لهم، فبقي آدم عليه السلام وذريته ثم تكاثروا وهاجر بعضهم إلى بقية أنحاء الأرض، وبالتالي فلو نظر أحد إلى البشر لاحقاً لصح أن يقول: إنهم ولد آدم وإنّ آدم أبو البشر.

يقول السيد أحمد الحسن: (ويمكن أن نتصور أسباباً علمية كثيرة تؤدي لانقراض تلك المجموعات الأولى في الجزيرة العربية خصوصاً أنّها لم تكن صالحة للعيش سوى في طرفها الجنوبي الذي يحوي ينابيع مياه سرعان ما غطتها مياه البحر المالحة) انتهى^(٢).

تاريخ ظهور آدم على الأرض:

لماذا البحث عن تاريخ ظهور آدم عليه السلام؟

لسبب إنساني نبيل يعود إلى إنصاف رسل الله وحفظ شيء من جهودهم وتضحياتهم التي قدّموها في سبيل إخراج الإنسان من الحال اليهيمي الذي كان عليه أشباه الإنسان

١- عن الإمام الصادق عليه السلام: (إنّ آدم عليه السلام سأل الله عزوجل أن يجعل له وصياً صالحاً، فأوحى الله عزوجل إليه: أني أكرمت الأنبياء بالنبوّة، ثم اخترت خلقي، وجعلت خيارهم الأوصياء. ثم أوحى الله عزوجل إليه: يا آدم، أوص إلى شيث، فأوصى آدم إلى شيث، وهو هبة الله بن آدم (...). الأمالي، الصدوق: ٤٨٧.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٢٧.

إلى حال الإنسان المتحضر في جانبيه الديني والأخروي معاً، فرسالة الله لا تهدف إلى عمارة الآخرة فقط وإنما الدنيا أيضاً.

فمثلاً: مسألة "ظهور الزراعة" لدى الإنسان العاقل "هومو سابينس" تعد نقلة نوعية كبرى في حياته، بحيث تصلح لأن تكون حداً فاصلاً بين "ما قبل" و"ما بعد": نتيجة أهميتها الكبرى بعد ارتباطها بغذاء الإنسان، والغذاء – كما نعلم – أحد أهم المسائل الضرورية بالنسبة للإنسان لضمان بقائه حياً، فبعد أن كان يصرف وقته كله تقريباً في تحصيل وجمع غذائه عن طريق الصيد والالتقاط والجمع مع ما يكتنف هذه العملية من جهد وخطورة في ظل البيئة السائدة آنذاك، مثل اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات بالنسبة له نقلة جبارة؛ إذ صار بإمكانه أن يضمن توفير غذائه (للحال وللمستقبل عن طريق التخزين) بسبيل أيسر بكثير جداً، وأيضاً: له مردودات إيجابية عديدة تصب في صالح الإنسان ورفيئه، منها:

- ضمان تحصيل الغذاء بجهد أقل وفرص سلامة أكبر من التي كانت تهدد حياته أثناء رحلته للجمع والالتقاط والصيد.
- توفير فائض "وقتي" أكبر يمكن استغلاله في التفكير لإصلاح شؤون الحياة الأخرى، الأمر الذي يسهم بتغيير نمط حياة الإنسان عموماً نحو الأفضل.
- رفع معدل ميله نحو الهدوء والاستقرار والطمأنينة بدرجة أعلى بدل كثرة التنقل والترحال بحثاً عن الأماكن التي يتوفر فيها الغذاء^(١).

ثم إننا إذا تتبعنا مسألة ظهور الزراعة في مسرح حياة الإنسان ووجدناها – على سبيل الفرض الآن – قد ظهرت في وقت يتزامن مع ظهور آدم، وعثرنا على نصوص دينية تؤكد أن مسألة الزراعة تمت بإشراف وتوجيه من نبي الله آدم فهذا يعني أن الدين الإلهي ورسل الله هم الأصل والأساس في نشوء التحضر الإنساني على هذه الأرض، وبهذا يكون الجميع مدينين لهم ولجهودهم وعطاءهم الرسالي.

١- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال سلمان رضي الله عنه: إن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحزرت معيشتها اطمأنت) الكافي، الكليني: ٦٨/٥.

ولأجل تحديد الفترة الزمنية التي ظهر فيها آدم عليه السلام من المجموعة المهاجرة التي استوطنت حوض الخليج يجب علينا أخذ عدة متغيرات بنظر الاعتبار؛ منها:

- تاريخ هجرة الإنسان العاقل "هومو سابينس" من أفريقيا إلى الشرق الأوسط.
- الوقت الذي استغرقته الرحلة.
- تغير لون بشرتهم من اللون الداكن المائل للسواد إلى أفتح (أي أسمر).

وبالنسبة إلى تغير لون البشرة، فإن سبب أخذه بنظر الاعتبار (بخصوص تاريخ ظهور آدم عليه السلام) هو النص الديني المروي في وصف لون بشرة آدم وسبب تسميته بآدم، وهو "السمار" وشبهه بلون وجه الأرض^(١). وهذا يعني أننا إذا ما أردنا توقع ظهور آدم من المجموعة المهاجرة فلا بد من فرض مرور وقت كافٍ (علمياً) لأن تتحول فيه بشرة الإنسان من لون داكن إلى لون أفتح منه يلائم المحيط الجديد^(٢).

إذن، لدينا (لا أقل) ثلاثة أمور "متغيرات".

١- بالنسبة إلى تاريخ الهجرة من أفريقيا إلى الوادي الخصيب، فسأكتفي بذكر دراستين علميتين حديثتين في هذا الموضوع؛ الأولى نشرت في مجلة "نيتشر كميونيكيشنز Nature Communications" في مارس ٢٠٢٤ م، وقد أرجعت تاريخ خروج الإنسان العاقل من أفريقيا إلى ٦٠ - ٧٠ ألف سنة، وأوضحت أنّ ما يعرف بـ "الهضبة الفارسية" كانت بمثابة مركز سكن (HUB) أقام فيه البشر القلائل لآلاف السنين قبل ارتحالهم إلى أوراسيا قبل ٤٥ ألف سنة تقريباً.

١- قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: (وسي آدم آدم؛ لأنه خلق من أديم الأرض) علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٢. آدم: من الأدمة أو الأديم، والأدمة: هي السمرة الشديدة، والأديم: لون وجه الأرض. وآدم عليه السلام لما كان لون بشرته بلون وجه الأرض فهو إذن أسمر البشرة.

٢- شرح السيد أحمد الحسن هذا الأمر في بحث استيطان المجموعة المهاجرة في الوادي الخصيب، وباختصار: أن كشف لونهم من السواد إلى السمار يساعد أجسامهم على امتصاص فيتامين "D" بحسب بيئة الشرق الأوسط، وهو أمر ضروري لبقاء الإنسان وعدم تعرضه لمشاكل تعيق مسائل الإنجاب وتمرير الجينات للأجيال اللاحقة.

وبحسب الدراسة، فإنّ موضع الهضبة الفارسية هو المنطقة الممتدة بين جنوب بحر قزوين وحوض الخليج قبل غمره بالمياه، إذ كانت هذه المنطقة ملائمة جداً للسكن بين ٧٠ - ٣٠ ألف سنة الأخيرة، وأنّ الخليج لم يكن بحراً بالهيئة الحالية في فترات طويلة وإنما كان سهلاً نهرياً "دلتا" واسعاً يمدّ شبكات المسكن والموارد على امتداد سفوح زاغروس نحو الجنوب.

الدراسة أيضاً: أشارت إلى حصول هجرات سابقة على نطاق صغير لأوائل البشر خارج أفريقيا قبل الهجرة المحورية التي تمت قبل ٦٠ - ٧٠ ألف عام، ولكن يبدو أنّ تلك الهجرات لم تصل إلى وجهتها في نهاية المطاف ^(١).

أما الدراسة الثانية فقد نشرتها مجلة "نيتشر Nature" العلمية في يونيو ٢٠٢٥ م، واعتبرت الهجرة التي حصلت كانت المحاولة الأخيرة والوحيدة التي نجحت في تغيير مجرى البشرية، وأنّ جميع غير الأفارقة اليوم ينحدرون من المجموعة الصغيرة الذين غادروا أفريقيا قبل نحو ٥٠ ألف سنة بعد أن سبق خروجهم منها توسع تدريجي في النطاق البيئي داخل أفريقيا بدأ منذ ٧٠ ألف سنة قبل الآن. ومع أنّ الأدلة الأحفورية تكشف عن محاولات سابقة عديدة للهجرة لكنها فشلت جميعها ولم تترك أثراً وراثياً لدى البشر المعاصرين ^(٢).

ملاحظة مهمة: لا يوجد تعارض بين الدراستين وإنما الصحيح فهمهما بطريقة تكاملية بمعنى: أنّ الهجرة كبداية تمركز مبكر في منطقة الخليج بدأت بتاريخ يعود إلى ٦٠

١- اسم الدراسة: الهضبة الفارسية كانت بمثابة مركز للإنسان العاقل بعد الهجرة الرئيسية خارج أفريقيا، تأليف: ليوناردو فاليني، كارلو زامبيري، محمد جواد شوعي، وآخرون، مجلة نيتشر كومونيكتيشنز، المجلد ١٥، الصفحة ١٨٨٢، تاريخ النشر: ٢٠٢٤ م. متاح على:

<https://www.nature.com/articles/s41467-024-61161-7>

٢- اسم الدراسة: توسّع كبير في المجال البيئي للإنسان سبق الهجرة من إفريقيا، تأليف: هالت إميلي، ميشلا ليوناردي، جاكوبو سيرا سوني، وآخرون. مجلة نيتشر، المجلد ٦٤٤، الصفحات ١١٥-١٢١، تاريخ النشر: ٢٠٢٥ م. متاح على:

<https://www.nature.com/articles/s41586-025-09154-0>

٧٠ ألف سنة كما هو مؤدي الدراسة الأولى، والهجرة كموجة ناجحة ذات بصمة وراثية لدى غير الأفارقة اليوم حدثت قبل ٥٠ ألف سنة كما هو مؤدى الدراسة الثانية.

وبالنتيجة، لدينا الآن (علمياً) تاريخ هجرة ناجحة ومحورية في حياة الإنسان العاقل يمتد بين ٥٠ - ٧٠ ألف سنة مضت.

٢- وقت الرحلة: بالتأكيد أخذت رحلاتهم من شرق أفريقيا (كينيا وتنزانيا) إلى الوادي الخصيب وقتاً بحسب الظروف والإمكانيات والحالة البدائية التي كانوا عليها، ومع افتراض انخفاض منسوب مياه البحر ووجود عيون مياه عذبة في خط السير الساحلي الطويل الذي يمر بجنوب اليمن وجنوب عمان (كما هو الثابت علمياً) ^(١) فإنّ رحلاتهم شهدت توقفات ومن ثم أخذت وقتاً أطول (ربما بضع آلاف من السنين) قبل الوصول والاستيطان بشكل دائم في حوض الخليج.

٣- تغير لون البشرة إلى حد يلائم البيئة والمحيط الجديد تماماً، أي (بحسب حالتنا) يصبح لون البشرة سمراء وليست داكنة "سوداء أو قريبة من السواد"، وعلمياً، إذا لم يكن هناك ضغط تطوري قوي (وهو أمر يحصل في حالات استثنائية لسبب ما)، فإنّ الوقت المقدّر لتحقيق تصبّغات الجلد المثلّي التي تناسب بيئة ومنطقة جغرافية معينة هو ما بين ١٠ - ٢٠ ألف سنة، وفي حالات وجود الضغط التطوري تقل الفترة شيئاً ما ولكنها تبقى بحاجة إلى مرور أجيال كثيرة جداً لا تقل عن ١٠٠ جيل ^(٢).

والآن، إلى مَ يوصلنا حساب هذه المتغيرات الثلاثة في مسألة توقعنا لظهور آدم عليه السلام؟

بكل الأحوال، لا يمكننا القطع بظهور آدم عليه السلام في الـ ٥٠ ألف سنة الأخيرة؛ لأنّ تاريخ الهجرة وفق الدراسة الثانية (كما عرفنا) هو ٥٠ ألف سنة؛ وهذا "المتغير" وحده

١- قناة فيديو كتاب وهم الإلحاد (٢٠١٣/٠٩/٠٤). رحلة الإنسان من أفريقيا دكتورة اليس روبرتس. متاح على:

<http://www.youtube.com/watch?v=\QEzv\OEonA>

٢- انظر: بحوث د. نينا جابلونسكي، ٢٠١٢ م، اللون الحي. بيركلي، لوس أنجلوس، لندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا.

كافٍ لنفي هذا الفرض؛ فضلاً عن إدخال المتغيرين الآخرين أعني: "وقت الرحلة" و"تغير لون البشرة".

بل وأيضاً؛ عدم القطع بظهور آدم عليه السلام في الـ ٤٠ ألف عام الأخيرة؛ باعتبار أن الهجرة المحورية لم تكتمل إلا بتاريخ ٥٠ ألف سنة مضت (كما هو مؤدى الدراسة الثانية)، وبالتالي فالعشرة آلاف سنة المتبقية لا تكفي لأن تغطي المتغيرين الثاني والثالث (أعني: وقت الرحلة والتوقفات التي حصلت + تحول لون البشرة).

التحديد الزمني الذي يمكن أن نتوقع فيه ظهور آدم عليه السلام بشكل لا يتعارض مع النص الديني والحقائق العلمية هو التاريخ المحصور بين ٢٠ - ٣٠ ألف سنة الأخيرة، وهو تحديد ينسجم مع كلا الدراستين المتقدمتين؛ باعتبار أنهما خلصتا إلى أن الهجرة كبدائية وكموجة ناجحة تركت بصمة وراثية في حياة الإنسان حدثت بتاريخ ٥٠ - ٧٠ ألف سنة، وحتى مع افتراض أن ظهور آدم حصل في حده الأقصى (أي: قبل ٣٠ ألف سنة) يبقى الفاصل بين الـ ٥٠ ألف والـ ٣٠ ألف هو ٢٠ ألف سنة، وهي فترة كافية لتغطية مسار الرحلة من أفريقيا إلى حوض الخليج، وكذلك لتغطية الفترة التي تحتاجها البشرية حتى تتغير من داكنة إلى سمراء بلون أديم الأرض (لون بشرة آدم عليه السلام).

يقول السيد أحمد الحسن: (التطور والنقلة الحضارية التي شهدتها المجتمع الإنساني في الوادي الخصيب يمكن أن نرى بداياتها كظهور الزراعة مثلاً، لكن بدايات ظهور آدم عليه السلام كحدث محدد لا يمكننا مشاهدته ورؤيته بدقة، ومع ذلك فإذا ما أردنا تحديد الفترة التي ظهر فيها آدم عليه السلام ضمن المجموعة المهاجرة، بحسب ما متوفر بأيدينا من معطيات علمية، يمكننا القول إنها بين ٢٠ - ٣٠ ألف سنة الماضية، وهي الفترة التي بدأت فيها الحياة الجديدة للإنسان) انتهى^(١).

تنبيه: التحديد الزمني المذكور كما لا يتعارض مع الأدلة العلمية القطعية (إن لم يكن العكس أعني: أن الدراسات العلمية تؤيده)، كذلك لا يتعارض مع النصوص الدينية القطعية والصحيحة. أما ورود نص توراني يذكر عمر آدم ومن تلاه من أنبياء ويتم تفسيره

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

– بعد حساب الجدول الزمني للمذكورين – بأنَّ عمر آدم كأول إنسان على الأرض لا يتجاوز فترة ٦ – ٧ آلاف سنة^(١)، ومثله ورد في روايات وتواريخ سنّية أيضاً^(٢)، فهي بالتأكيد نصوص غير صحيحة لسببين:

الأول: أننا نعتقد أنَّ التوراة وإن كانت كتاباً إلهياً إلا أنه لم يسلم من تحريف اليهود فضلاً عن وقوع التحريف في الروايات، قال تعالى في وصف حالهم: "وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" البقرة: ٧٥، ٧٩.

والثاني: إنها نصوص تتعارض مع حقائق علمية ثابتة في أكثر من علم كعلم الجينات والآثار والأحياء التطورية، وهي حقائق أكدت وجود الإنسان المنتصب (سلف الإنسان العاقل) قبل أكثر من مليوني عام، كما أكدت ظهور الإنسان العاقل على الأرض بحدود ٢٠٠ – ٣٠٠ ألف سنة ثم اكتماله نهائياً قبل ١٠٠ ألف سنة كما تقدم ذكره، وبالتأكيد فإنَّ هذه الأرقام لا تنسجم مع التحديد الذي ذكرته النصوص المنسوبة إلى الدين زوراً!

بل لو اكتفينا فقط بمسألة الطوفان الذي حصل في زمن نبي الله نوح عليه السلام كما هو الثابت والمؤكد دينياً وعلمياً، فإنَّ الأدلة العلمية الثابتة والمؤكدة حددت حصوله بتاريخ يعود إلى ١٥ – ٨ ألف سنة، وهو تاريخ أكبر من حساب الجدول الوارد في النص التوراتي أو الروايات السنّية. علماً، أنَّ نوحاً عليه السلام يفصله عن آدم آلاف السنين!

وعموماً، ما ذكرناه من تاريخ نقطع بظهور آدم عليه السلام فيه (أي: بين ٢٠ – ٣٠ ألف سنة) لا يصطدم بحقيقة دينية قطعية أو علمية قطعية.

١- انظر النص في: العهد القديم، سفر التكوين ١: ٥ – ٣٢، ولاحظ تفسيره بالمدة المذكورة من قبل القس أنطونيوس فكري: شرح الكتاب المقدس - العهد القديم - تكوين ٥٠.

٢- انظر على سبيل المثال: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ٣٨ / ٢.

صفات آدم الجسمانية:

من القضايا التي استغلها الخط المناهض للدين الإلهي (الملحدون بالخصوص) هي ما ذكره بعض أتباع الدين من أقوال (نصوص حسبت على الدين) منحت لآدم عليه السلام صفات جسمانية غير معقولة بحسب نتائج العلوم الحديثة، فمثلاً: علم الأحياء والجينات يعرف بدقة صفات البشر التي لها صلة بأجسادهم منذ زمن سحيق من حيث الطول والحجم والعمر... إلخ، وهي نفسها الصفات الممنوحة للإنسان في عصرنا الحالي، وبالتالي فالقول بأن طول آدم ستين ذراعاً مثلاً كان مثاراً لسخرية واستهزاء الملحدين؛ والمصيبة أكبر إذا ما اعتبرت تلك الأقوال (النصوص المحسوبة على الدين) نصوص دينية مقدسة!

وكمثال لتلك الأقوال: ما نسبته أبو هريرة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وآله بحسب ما روته كتب الحديث السنية:

(عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)^(١).

ما ذكره "أبو هريرة" له أصل وجذريه يهودي، فالإشارة إلى ضخامة آدم عليه السلام وإن لم ترد صريحاً في نصوص العهد القديم، لكنها وردت في الشروحات الرسمية (التلمود والمدرش) التي وضعها كبار علمائهم المتقدمين كتفسير لنصوص التوراة^(٢).

١- صحيح البخاري: ٤/ ١٠٢؛ صحيح مسلم: ٨/ ١٤٩.

٢- فمثلاً: ورد في "التلمود البابلي (Babylonian Talmud)"، وتحديدأ في رسالة "حجيجة" (Tractate Chagigah)، الصفحة ١١٢ (a١٢) ضمن مناقشات الحاخامات حول خلق آدم وعظمة الكون: "قال الرب (الحاخام) يهوذا قال راف: آدم الأول كان يمتد من الأرض إلى السماء... فلما عصى وضع القدوس تبارك وتعالى يده عليه وصغره". وأكد ذلك: ما ورد في التلمود البابلي، رسالة "سهندين" (Sanhedrin)، الصفحة ٣٨ ب (٣٨ b) حيث كرر نفس المعنى مع إضافة تقول إنه كان يملأ العالم من المشرق إلى المغرب. وأيضاً: ما ورد في "مدرش راباه (Genesis)

من جهتنا، نحن غير معنيين بما ذكره أبوهريرة، فالناقل الرسمي لعلم الرسول محمد صلى الله عليه وآله هم أوصياؤه (علي و أبنائؤه الطاهرون صلوات الله عليهم حصراً)، وأما ما نقله غيرهم عنه فنقبل منه ما قبله أوصياء الرسول دون غيره. وبخصوص ما يتعلق بجسد آدم عليه السلام فهو جسد كباقي أجساد الأدميين، وقيمة آدم ليست في ضخامة جسده (طوله مثلاً) وإنما قيمته الحقيقية في طهارة روحه وإخلاصه الذي أهله لأن يكون أول أنبياء الله بعثاً وإرسالاً على هذه الأرض.

ذرية آدم وسبيل تكاثرها:

رجال الدين اليهود والمسيحيون (بحكم التحريف الذي طال الكتاب المقدس) يعتقدون بأن تكاثر ذرية آدم عليه السلام حصل نتيجة زواج الأخوة من الأخوات ^(١)، وانتقل هذا القول الفاسد إلى علماء أهل السنة بحجة الضرورة الداعية لذلك وبعض المرويات غير الصحيحة ^(٢). وأيضاً انتقل إلى بعض الشيعة.

لا شك أنّ هذا القول الفاسد يصور أنّ جميع الناس بعد آدم عليه السلام بما فيهم الأنبياء والأوصياء (وحاشاهم) هم نتيجة زنا محارم، وأيضاً: صار سبباً للطعن بالدين الإلهي من قبل الملحدين؛ باعتبار أنّ زواج المحارم أمر مرفوض علمياً كما سيتضح.

وعموماً، القائلون بهذا الرأي الباطل من الشيعة برّوه بأحد أمور:

- وجود نص قرآني.
- وجود نص روائي.
- زعم عدم تحريم زنا المحارم شرعاً في وقت آدم عليه السلام.

(Rabba) ١: ٨ "وهو من أقدم التفاسير اليهودية لسفر التكوين، حيث أكد أنّ طول آدم كان يمتد لملء الفضاء قبل أن يتم تقليصه!

١- مثلاً: أنطونيوس فكري في شرح آية "؛ وعرف قايين امراته فحبلت وولدت حنوك ..." سفر التكوين: ٤ - ١٧، يقول: (امراة قايين هي أخته والله سمح بهذا أولاً ليقيم نسلًا) شرح الكتاب المقدس - العهد القديم.

٢- انظر على سبيل المثال: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٢ / ٤٣ - ٤٤.

أما النص القرآني: فهو قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" النساء: ١.

إذ افترضوا أَنَّ النص يكشف عن عدم وجود خلق غير آدم وحواء ولو كانوا موجودين لقال الله: "وبث منهما ومن غيرهما ..."، وبالتالي فلا سبيل لتكاثر الذرية غير زواج الإخوة من الأخوات! هذا ما قاله السيد الطباطبائي "صاحب الميزان"، وكذا غيره ^(١).

أقول: الآية الكريمة – كما هو واضح – تتحدث عن عالم الأنفس وليس عن العالم الجسماني، وقد سبق تفصيل الكلام عن خلق آدم وحواء عليهما السلام في العالمين. ولا أقل فإن هذا الأمر يجعل الآية متشابهة ولا تدل على الخلق الجسماني بنحوق قطعي.

يقول السيد أحمد الحسن في جواب الاستدلال بالآية:

(استدل الطباطبائي على أَنَّ الناس نتاج من زنا المحارم بين أولاد وبنات آدم عليه السلام بظاهر تَوْهَمَهُ هو لقوله تعالى: "وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً" باعتبار أَنَّ الآية لم تذكر أصلاً آخر للذرية غيرهما!

والحق، إِنَّ ظاهر الآية يتكلم عن الأنفس في السماء الأولى أو الجنة التي خلق فيها آدم عليه السلام، فحتى لو قلنا: إِنَّ الآية تدل على حصر الذرية بآدم وحواء يبقى أَنَّ الآية تتكلم عن الأنفس، وهي واضحة الدلالة على أَنَّ نفس حواء خلقت من نفس آدم عليه السلام فهذا الخلق بمعنى أَنَّ نفسها شقت من نفس آدم عليه السلام، وليس أَنَّ جسم حواء خلق من جزء من جسم آدم كما في التوراة وكما يعتقد بعض فقهاء السنة.

وخلق آدم عليه السلام الأرضي أو نزوله إلى الأرض متأخر عن خلق نفسه. فنفس آدم عليه السلام خلقت في السماء من الطينة المرفوعة ونفخ الروح فيها. ثم من نفس آدم عليه السلام خلقت نفس حواء عليها السلام. ثم منهما خلقت بقية أنفس بني آدم عليه السلام،

١- انظر: تفسير الميزان: ١٤٤ / ٤ – ١٤٥؛ تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: ٨٢ / ٣.

ونفس زوجتي ابني آدم هي من هذه الأنفس. وهذا ما بينته الآية بوضوح، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" النساء: ١.

وعموماً، ظاهر الآية لا يمكن أن يكون دليلاً على أن البشرية نتاج زواج أخوة أخوات (زنا محارم) كما يدعون، فحتى من لا يقبل ما قدمته - مع شدة وضوحه - في معنى الآية وأنها تتكلم عن الأنفس كما هو ظاهرها "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا" أيضاً يلزمه أن ما قدمناه وجه لفهم ظاهرها، وبهذا أصبح ظاهرها متشابهاً عنده ولا يمكنه أن يتخذها سنداً لاعتقاده، فلا تؤخذ العقيدة من المتشابه (انتهى^(١)).

وأما الروايات: فقد استند القائلون بزواج الإخوة من الأخوات برواية أثبتت ذلك.

لكن بالمقابل توجد أكثر من رواية لآل محمد عليهم السلام نفت زواج الإخوة من الأخوات (وسنذكر بعضها لاحقاً)، ومع افتراض وجود رواية (أو أكثر) تثبت ذلك كما يتحجج هؤلاء، إذن سيحصل تعارض بين الطائفتين ولا بد أن يُصار إلى ترجيح كفة الروايات النافية؛ باعتبار أن الأئمة عليهم السلام وضعوا ما يعرف بقاعدة "الرشد في خلافهم" بمعنى: أن الأئمة نهوا أتباعهم أنهم في حال وجدوا "لمسألة ما" روايات باتجاهين متعارضين وكان أحد الاتجاهين متوافقاً مع الرأي الذي تتبنّاه الجهات المخالفة لآل محمد عليهم السلام فإن على أتباعهم أن يطرحوا هذه الروايات ويأخذوا بروايات الاتجاه الآخر، ومن الواضح أن تطبيق هذه القاعدة يؤدي إلى تقديم الروايات التي تنفي حصول زواج المحارم.

يقول السيد أحمد الحسن: (هم يقولون: إنَّ هناك طائفة من الروايات تقول إنَّ البشرية نتاج زنا محارم وقد رجحوا المروي في زواج المحارم لأنه موافق لظاهر قرآني توهموه هم، حيث إنهم اعتبروا الآية تتكلم عن الأجساد وتفيد الحصر بآدم وحواء في حين أن الواضح من ظاهرها أنها تتكلم عن النفس وليس الجسد: "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا"، وفي نفس الوقت هم غفلوا أو تغافلوا عن أن الرواية التي رجحوها

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٧٣.

موافقة لعقيدة مخالفي آل محمد عليهم السلام، وكثير من رواياتهم عليهم السلام الموافقة للمخالفين إنما صدرت تقية وهناك قاعدة "الرشد في خلافهم"، فكان الأولى عدم ترجيح الرواية التي تقول بزنا المحارم؛ لأنها موافقة لمخالف آل محمد عليهم السلام وموافقة لليهود والمسيحيين، وهم أصحاب عقائد غير صحيحة والرشد في خلافهم عند التعارض، فكان الأولى الأخذ بالروايات التي تنفيه) انتهى^(١).

وأما عدم حرمة شرعاً: فهم لم يقدموا دليلاً على عدم وجود التحريم؛ وإنما هم لم يتمكنوا من استيعاب وجود سبيل آخر تتكاثر به ذرية آدم غير القول بزواج الإخوة من الأخوات فافترضوا عدم وجود أي شريعة في ذلك الوقت تحرم زواج المحارم!

وأما بالنسبة لنا، فقد ذكرنا حال المجتمع الذي ولد فيه آدم عليه السلام، وتبين لنا (بنصوص دينية) أنه مجتمع توجد فيه تكاليف وعبادات ومنها الحج (كما بين الإمام الصادق عليه السلام) بشكل يناسب وضعهم وحالهم وإدراكهم، ولا دليل قطعي ينفي أن يكون من بين تلك التكاليف هو المنع من زواج المحارم؛ خصوصاً وأنه أمر يتوافق تماماً مع تركيبية الإنسان الجينية كما سيتضح.

يقول السيد أحمد الحسن في تقييم استدلالهم:

(لا دليل على عدم وجود أي شريعة تحرم زواج المحارم قبل آدم عليه السلام بين تلك الأقوام الأولى التي انحدر منها آدم عليه السلام، فيمكن أن تكون هناك تكاليف أولية لتلك الأمم تناسب قدرتهم الإدراكية، فمن المؤكد أن النسناس أو الأقوام الإنسانية التي سبقت أبانا آدم عليه السلام لديهم تكاليف وإن كانت تكاليف بسيطة تناسب حالهم، ولا يمكن لأحد أن يجزم بأن تحريم زواج المحارم ليس من ضمن شريعتهم، بل في الحقيقة إن التحريم هو المؤكد والذي جرى به القلم بحسب الروايات وما جرى به القلم فهو قانون جار على آدم وولده أو من سبقوهم من المكلفين) انتهى^(٢).

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٧٥.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٧٨ - ١٧٩.

"ما جرى به القلم": إشارة لقول الإمام الصادق (عليه السلام): "... وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحریم ما حرم الله عز وجل من الأخوات على الأخوة ...". وهذا يعني أنّ "زواج المحارم" مخالف للفطرة الإنسانية بكل تأكيد، وأنّ ذرية آدم تكاثرت بطريق حلال وطيب حتماً طالما أنّ القلم جرى بحرمة زواج المحارم أي أنّ الحرمة قانون إلهي عام.

روايات آل محمد تنفي زواج الإخوة من الأخوات:

وهي روايات عديدة (١).

١- هذا مثال لها:

- (عن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام كيف بدء النسل من ذرية آدم عليه السلام فإنّ عندنا أناس يقولون: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه، وأن هذا الخلق كله أصله من الإخوة والأخوات؟ قال أبو عبد الله: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً يقول من يقول هذا إن الله عز وجل جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله وحججه والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب، والله لقد ثبتت أنّ بعض الهائم تنكرت له أخته فلما نزا عليها ونزل كشف له عنها وعلم أنها أخته أخرج غرموله ثم قبض عليه بأسنانه ثم قلعه ثم خرّ ميتاً) علل الشرائع، الصدوق: ١ / ١٧.

- (عن الحسن بن مقاتل عمن سمع زرارة يقول: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن بدء النسل من آدم كيف كان، وعن بدء النسل من ذرية آدم فإنّ أناساً عندنا يقولون: إن الله عز وجل أوحى إلى آدم أن يزوج بناته ببنيه وأن هذا الخلق كله أصله من الإخوة والأخوات؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، يقول من قال هذا بأن الله عز وجل خلق صفوة خلقه وأحبائه وأنبياءه ورسله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر الطاهر الطيب، فوالله لقد تبين أن بعض الهائم تنكرت له أخته فلما نزا عليها ونزل كشف له عنها فلما علم أنها أخته أخرج غرموله ثم قبض عليه بأسنانه حتى قطعه فخر ميتاً، وآخر تنكرت له أمه ففعل هذا بعينه فكيف الإنسان في إنسيته وفضله وعلمه! غير أن جيلاً من هذا الخلق الذي ترون رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه فصاروا إلى ما قد ترون من الضلال والجهل بالعلم، كيف كانت الأشياء الماضية من بدء أن خلق الله ما خلق وما هو كائن أبداً. ثم قال: ويح هؤلاء، أين هم عما لم يختلف فيه فقهاء أهل الحجاز ولا فقهاء أهل العراق أن الله عز وجل أمر القلم فجري على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بالفي عام وأن كتب الله كلها فيما جرى فيه القلم في كلها تحریم الأخوات على الإخوة مع ما حرم، وهذا نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان أنزلها الله عن اللوح المحفوظ على رسله صلوات الله عليهم أجمعين منها التوراة على موسى عليه السلام والزبور على داود عليه السلام والإنجيل على عيسى عليه السلام

زواج المحارم أمر مرفوض بيولوجياً:

اتضح أنّ دين الله الحق المتمثل بآل محمد عليهم السلام يرفض مسألة زواج الإخوة والأخوات، وهو أمر يقره العلم أيضاً.

يقول السيد أحمد الحسن: (... فقد ثبت أنّ التطور البيولوجي عموماً يميل إلى منع زنا المحارم من خلال انتقاء الجينة التي تؤدي إلى منعه أو لنقل إنّ الأجسام المبنية بالخريطة الجينية التي تحوي جينة تدفع الجسم للامتناع عن ممارسة زنا المحارم تكون أقدر على البقاء، وأنه في حالات موجودة في الطبيعة نجح التطور في منعه بشكل جلي وواضح والهومو من تلك الحالات، ونحن نعتقد أن نمو الخريطة الجينية مقنن ليصل إلى أجسام تمتنع عن هذا الأمر.

ولو نظرنا إلى أقرب أنواع القردة العليا للإنسان وهو الشمبانزي لوجدنا الأنثى عندما تبلغ تهجر عائلتها لتذهب وتزوج من عائلة أخرى،

فإذا كان أفراد مجتمع الشمبانزي يجتنبون زنا المحارم وكانت ظاهرة اجتناب زنا المحارم موجودة في عالم الحيوان، فما الذي يمنع كونها كانت موجودة وشائعة في مجتمعات الهومو - الأدميين - وكونهم قبل آدم عليه السلام كانوا ممتنعين بشكل كامل عن ممارسة زنا المحارم!

وخصوصاً مع وجود مانع بيولوجي لزنا المحارم، فالأجسام التي تبني بخريطة جينية تحتوي على جينة تتسبب باجتناّب الأجساد لزنا المحارم ستكون خريطة جينية ناجحة في الطبيعة وسيفضلها الانتقاء الطبيعي، أي أنها ستكون الأقدر على البقاء؛ لأن الخريطة الجينية التي لا تحتوي هذه الجينة ستكون معرضة للاندثار والزوال بسبب الجينات الفتاكة الكامنة التي سيظهر أثرها جلياً من خلال زنا أو زواج المحارم، حيث إنّ الأجسام المبنية بخريطة جينية لا تحتوي على جينة منع زنا المحارم ستكون غير قادرة على تربية

والقرآن على محمد صلى الله عليه وآله وعلى النبيين عليهم السلام، وليس فيها تحليل شيء من ذلك، حقاً أقول: ما أراد من يقول هذا وشبهه إلا تقوية حجج المجوس، فما لهم قاتلهم الله) علل الشرائع، الصدوق: ١/ ١٨ - ١٩.

ذرية بقدر الأخرى؛ لأن زنا المحارم سيؤدي إلى زيادة احتمال تطابق الجينات الفتاكة الكامنة بشكل كارثي يتسبب بقتل الذرية وبالتالي فستخسر الخريطة الجينية التي تسمح بزنا المحارم أمام الخريطة الجينية التي لا تسمح به في سباق التطور والبقاء، وهكذا مع الزمن سيكون البقاء لخريطة جينية تبني أجساماً تجتنب زنا المحارم، ولهذا فمن الطبيعي أن أناث الشمبانزي والغوريلا عندما تبلغ تهجر عائلاتهن لتتزوج من عائلات أخرى ومن غرباء.....

أي إن النتيجة هو أننا بايولوجياً تبني أجسامنا على اجتناب زنا المحارم، وهذا هو نتاج طبيعي للتطور وبقاء الجينات الأقدر على البقاء في سباق المنافسة بينها، ومسألة تجنب بعض الحيوانات لزنا المحارم مثبتة بالتجربة، وبهذا يثبت بطلان عقيدة اليهود والمسيحيين وفقهاء السنة ومن تبعهم بهذه العقيدة من فقهاء الشيعة، وتثبت الحقيقة التي بينها آل محمد عليهم السلام منذ أكثر من ألف عام) انتهى (١).

ملاحظات:

١- ما ذكره آل محمد عليهم السلام في مسألة تكاثر ذرية آدم ورفضهم زواج الإخوة من الأخوات أمر انفردوا به عن سائر الاتجاهات الدينية الموجودة في زمانهم، ليأتي العلم الحديث بعدهم بأكثر من ألف عام ويثبت ما بينوه، وهو أمر يُحسب لهم ولصدق قولهم وأحقية دعوتهم ومنهجهم الإلهي.

يقول السيد أحمد الحسن: (هل هناك من ينصف آل محمد عليهم السلام:

لو كان هناك من يبحث عن الحق لكفاه أخبار آل محمد عليهم السلام قبل أكثر من ألف سنة عن هذه الحقيقة التي أثبتتها العلم الحديث، ومخالفتهم عليهم السلام للباطل المهيمن في زمانهم والذي يقول: إن البشرية من نتاج زواج أخوة وأخوات (زنا محارم)، ففي حين أن بقية طوائف المسلمين يقولون بأن البشرية نتاج زواج أخوة وأخوات نجد آل

محمد عليهم السلام يبيّنون بوضوح أنّ هذا غير صحيح وأنّ ابني آدم تزوجا نساء لا تربطهم بهما درجة قرابة تحرم الزواج) انتهى^(١).

٢- بالنسبة لرجال الدين، فإنّ قولهم (الباطل) بزواج المحارم كسبيل لتكاثر ذرية آدم لم يكن الوحيد في الإساءة لدين الله، وإنما لديهم قول آخر ذكروا فيه أنّ حواء خلقت من ضلع آدم؛ مستندين في ذلك لنصوص ومرويات باطلة ومكذوبة! وهو أمر رفضه آل محمد عليهم السلام أيضاً ويبنّوا بطلانه^(٢).

ثم جاء العلم الحديث ليثبت بطلان ذلك أيضاً^(٣).

٣- وفق ما انتهينا إليه في البحوث المتقدمة، بما أوضحه السيد أحمد الحسن، من وجود أقوام مدركة ومكلّفة (بحدود معينة) ولد بينهم آدم عليه السلام ثم بعثه الله إليهم، بالتأكيد يوجد بين تلك الأقوام البشرية المكلّفة رجال ونساء صالحون (ولو بحدود معينة تناسب وضعهم ومستوى إدراكهم)، ومنهم اختار آدم زوجات صالحات لأبنائه الصالحين.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٨٤.

٢- روى الصدوق: (... قال زرارة: ثم سئل عليه السلام (أي الإمام الصادق) عن خلق حواء وقيل له: إنّ أناساً عندنا يقولون إنّ الله عز وجل خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى؟ قال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، أيقول من يقول هذا إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لأدم زوجته من غير ضلعه، وجعل لمكلم من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام، يقول إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضاً إذا كانت من ضلعه! ما لهؤلاء حكم الله بيننا وبينهم، ثم قال: إنّ الله تبارك وتعالى لما خلق آدم من الطين وأمر الملائكة فسجدوا له ألقى عليه السبب ثم أبتدع له خلقاً، ثم جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، فأقبلت تتحرك فانتبه لتحركها فلما انتبه نوديت ان تنحى عنه فلما نظر إلى إليها نظر إلى خلق حسن تشبه صورته غير أنها أنثى فكلمها فكلمته بلغته، فقال لها من أنت؟ فقالت خلق خلقي الله كما ترى، فقال آدم عند ذلك يا رب من هذا الخلق الحسن الذي قد أنسي قرينة والنظر إليه؟ فقال الله هذه أمتي حواء أفتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحادثك وتأنمراً لأمرك؟ قال: نعم يا رب ولك بذلك الحمد والشكر ما بقيت، فقال الله تبارك وتعالى فاخطبها إلي فإنها أمتي وقد تصلح أيضاً للشهوة، وألقى الله عليه الشهوة وقد علمه قبل ذلك المعرفة، فقال يا رب فإني أخطبها إليك فما رضاك لذلك؟ فقال رضائي ان تعلمها معالم ديني، فقال ذلك لك يا رب أن شئت ذلك، قال: قد شئت ذلك وقد زوجتكها فضمها إليك، فقال: أقبلي، فقالت: بل أنت فاقبل إلي، فأمر الله عز وجل آدم ان يقوم إليها فقام، ولولا ذلك لكان النساء هن يذهبن إلى الرجال حتى خطبن على أنفسهن، فهذه قصة حواء صلوات الله عليها) علل الشرائع: ١ / ١٧ - ١٨.

٣- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٨٧.

أما ما ورد في بعض الروايات من وصفهن بـ "حوريات منزلات من الجنة"^(١)، فهو إشارة إلى صلاحهن بين أقوامهن، وأيضاً: إشارة إلى نزول أنفسهن فقد عرفنا سابقاً أنّ الأنفس مخلوقة في عالمها (السماء الأولى) قبل الأجساد في هذا العالم، وبالتالي فالنصوص التي تذكر نزولهن من الجنة تشير إلى نزول أنفسهن إلى عالم الأجسام الذي نحن فيه لأداء الامتحان؛ تماماً كما ذكرناه بالنسبة لنزول نفس آدم عليه السلام.

يقول السيد أحمد الحسن: (وما يذكر في بعض الروايات عن أزواج أبناء آدم الصالحين وأنهم حوريات، فالمراد بهذا وصف أنفسهن التي اتصلت بأجسادهن كما أنّ نفس آدم اتصلت بالجسد الإنساني الأرضي، وكانت هي بداية مسيرة آدم وذريته على الأرض، مع أنّ هذه النفس خلقت في السماء من الطينة المرفوعة والنفخ قبل أن تنزل وتتصل بالجسد) انتهى^(٢).

ظهور الزراعة:

ظهور الزراعة بالنسبة لعموم الباحثين تعد نقلة مهمة في حياة الإنسان، حتى إنّ بعض الباحثين شبهها بتوفر ميزة "المشي على قدمين" و"اكتشاف النار"، وقال: "لقد غيّرت – أي الزراعة – تماماً طريقة تفاعلنا مع البيئة، وطريقة تفاعلنا مع أنفسنا"^(٣).

١- روى زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام: (أن آدم عليه السلام ولد له شيث وأن اسمه هبة الله، وهو أول وصي أوصي إليه من الأدميين في الأرض، ثم ولد له بعد شيث يافث، فلما أدركا أراد الله عز وجل أن يبلغ بالنسل ما ترون وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرم الله عز وجل من الأخوات على الأخوة أنزل بعد العصر في يوم خميس حوراء من الجنة اسمها نزلة، فأمر الله عز وجل آدم أن يزوجه من شيث فزوجها منه، ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة واسمها منزلة فأمر الله عز وجل آدم أن يزوجه من يافث فزوجها منه، فولد لشيث غلام وولد ليافث جارية فأمر الله عز وجل آدم حين أدركا أن يزوج ابنة يافث من ابن شيث ففعل، فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من أمر الأخوة والأخوات) من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ٣ / ٣٨١.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٧٨.

٣- القول لعالم الوراثة "د. هوغو أوليفيرا" من جامعة الغارف في فارو بالبرتغال.

أرجع بعض الباحثين ظهور الزراعة إلى تاريخ ٧ - ٨ ألف عام ق. م^(١)، لكن أغلب الدراسات العلمية الحديثة ترجع ظهور الزراعة إلى ١١,٧ - ١٢ ألف سنة مضت^(٢).

أياً يكن الأمر، فإن اكتشاف الزراعة - بنظر العلماء - يستدل الستار على العصر الحجري القديم (بكل أطواره: القديم، المتوسط، الأعلى) ويبدأ معه العصر الحجري الحديث، فالنقطة الفاصلة في التحول بين العصرين القديم والحديث هو ظهور الزراعة في مسرح حياة الإنسان: نظراً لأهميتها البالغة.

أما بالنسبة إلى أسباب ودوافع ظهورها، فالأمر لا زال بطور النقاش وغير محسوم علمياً^(٣).

من جهتنا، يمكننا أن نناقش في التاريخ الذي رجّحه كثير من الباحثين لبدء ظهور الزراعة لدى الإنسان أي بحدود ١٢ ألف سنة تقريباً، ومناقشتنا ليست في أنّ التاريخ

١- يقول د. طه باقر: (إنّ الإنسان في العصر الحجري القديم اعتمد في عيشه على جمع القوت ولم ينتجه بيده بالزراعة أو تدجين الحيوان أو بكليهما، بل كان اصطياد الحيوان وجمع مصادر القوت الأخرى أساس حياته الاقتصادية، ولذلك صح إطلاق مصطلح "جمع القوت" أو "التقاط القوت" على العصر الحجري القديم Food Gathering أما في العصر الحجري الحديث فقد تبدلت حياة الإنسان تديلاً جوهرياً حيث اهتدى إلى إنتاج قوته بيده وضمن عيشه بالزراعة وتدجين الحيوان، ولذلك يسمى هذا العصر بطور إنتاج القوت Food Producing وسنرى كيف أنّ هذا الانقلاب الاقتصادي قد تحقق لأول مرة في حياة الإنسان في بقعة ما من الشرق الأدنى، ولا سيما في شمالي العراق ما بين الألف الثامن والسابع ق.م) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ١ / ١٨٧.

٢- على سبيل المثال، انظر:

<https://www.pnas.org/doi/10.1073/pnas.23.0440712>.

<https://education.nationalgeographic.org/resource/development-agriculture>

٣- بعض الباحثين أشار (كاحتمال) إلى إمكانية رجوعه إلى عدة عوامل، منها: سوء المناخ، والتوسع السكاني، ومنها أيضاً: أنّ النباتات نفسها - بحكم فائدتها - جذبت الانسان إلى فكرة تحويلها إلى غذاء، ومنها: أنّ ظهورها كان بسبب التأثير ببعض التقاليد والممارسات الدينية أو الثقافية من قبيل تقليد توفير الأعياد "العيدية"!

انظر: الكشف عن أصول الزراعة، جون كاري، المصدر: بناس، المجلد: ١٢٠ - رقم ١٥، بتاريخ: ٥ ابريل ٢٠٢٣. متاح على:

<https://doi.org/10.1073/pnas.23.0440712>.

المذكور غير دقيق في الكشف عن وجود عملية زراعية دجّن فيها الإنسان النبات لخدمته، وإنما في معنى الزراعة التي بدأت في التاريخ المذكور!

إذ من الواضح أنّ العمليات الزراعية لها صور عديدة، منها:

- جمع واستخدام النباتات البرية في عمليات مثل الطحن والعجن والتخمير... إلخ.
- الاستزراع Cultivation: وهو تدخل بشري مقصود ومنظم في دورة حياة النبات من تهيئة أرض، بعثرة بذور، إزالة أعشاب... إلخ.
- الاستئناس Domestication: أو التدجين، وهو عملية اختيار وتطوير النباتات البرية من خلال تدخل الإنسان لتصبح مفيدة له، بحيث تصبح أضعف وأقل تهديداً وتتغير وراثياً لتصبح ذات صفات مرغوبة مثل زيادة المحصول، تحسين المذاق، مقاومة الأمراض، زيادة القيمة الغذائية ونحو ذلك، أي: يصبح النبات تابعاً للإنسان وتحت تصرفه تماماً.

العمليات الزراعية – والحال هذه – ليست بمستوى واحد فبعضها أكثر تعقيداً من بعض، والمرجح أنها لم تظهر في حياة الإنسان في وقت واحد أيضاً، إذ يمكن أن تكون عمليات مثل الطحن والعجن والاستزراع (وإن كان بمستوى محدود) حصلت قبل تدجين النبات "الاستئناس" بفترة طويلة.

ما نقوله ليس مجرد افتراض، وإنما يتفق مع نتائج علمية توصلت لها بعض الفرق البحثية في دراساتها العلمية في السنوات الأخيرة، ومن هذه الدراسات:

- ١- دراسة علمية نشرت في المجلة العلمية Nature ذكر القائمون عليها أنهم أوردوا: (أقدم دليل مباشر على معالجة الإنسان لبذور الأعشاب، بما في ذلك الشعير وربما القمح، على شكل حبوب نشوية عثر عليها في قطعة أثرية حجرية مطحونة من موقع أوهالو الثاني في إسرائيل، والذي يعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى. كما عثر في هذا الموقع على أدلة مرتبطة بموقد يشبه الفرن، مما يشير إلى أن العجين المصنوع من دقيق الحبوب كان يُخبز. تشير بياناتنا إلى أنّ المعالجة الروتينية لمجموعة مختارة من الحبوب البرية، إلى جانب

الأساليب الفعالة لطهي البذور المطحونة، كانت تمارس منذ ما لا يقل عن ١٢ ألف عام قبل تدجينها في جنوب غرب آسيا^(١).

وتقدم أنّ تاريخ التدجين بدأ قبل ١١ – ١٢ ألف سنة، وهذا يعني أنّ ما اكتشفه الفريق البحثي هو عمليات كانت تُجرى قبل ٢٣ – ٢٤ ألف سنة.

٢- دراسة علمية نشرت عام ٢٠١٢ م وأعدت جامعة كامبريدج نشرها عام ٢٠١٥ م تتعلق بنفس الموقع (أي: موقع أوهالو الثاني)، قام بها نفس الفريق البحثي الذي أجرى الدراسة الأولى وتوصلوا إلى أدلة إضافية تؤكد نتائجهم السابقة، وأضافوا أنّ الصيادين والجامعين للنبات الذين عاشوا في الموقع المذكور قبل ٢٣ ألف سنة قاموا بطحن الأعشاب الصالحة للأكل كالقمح والشعير والشوفان^(٢).

٣- دراسة علمية يمكن عدها جزءاً ثالثاً يكمل الدراستين السابقتين في موقع أوهالو الثاني أيضاً، حيث عثر الفريق البحثي على أدلة أثرية أكثر تقدماً تؤكد وجود عمليات طحن واستزراع مبكرة جداً حدثت قبل ٢٣ ألف سنة قام بها مجموعة من الصيادين وسكان جميع النباتات الذين كانوا يطحنون القمح البري والشعير.

١- اسم البحث: معالجة حبوب الحبوب البرية في العصر الحجري القديم الأعلى كشف عنها تحليل حبوب النشا، تأليف: دولوريس ر. ببيرو، إيهود فايس، إيرين هولست، وداني نادل، تاريخ النشر: ٥ أغسطس ٢٠٠٤، مكان النشر: دورية نيتشر (الطبيعة)، المجلد: ٤٣٠، الصفحات: ٦٧٠ – ٦٧٣، تاريخ النشر: ٢٠٠٤، متاح على:

<https://www.nature.com/articles/nature.٢٧٣٤>

٢- اسم البحث: "أدلة جديدة على معالجة حبوب برية في أوهالو الثاني"، تأليف: داني نادل، دولوريس ر. ببيرو، إيرين هولست، عينت سنير، وإيهود فايس، نشر سنة ٢٠١٢ ثم أعيد نشره على الإنترنت بواسطة مطبعة جامعة كامبريدج في ٢ يناير ٢٠١٥ م.

الفريق البحثي خلص إلى وجود ما يعرف بـ "أعشاب مر افقة للمحاصيل proto-weeds" ومؤشرات استزراع محدود النطاق؛ الأمر الذي يؤكد أنها تجارب مبكرة جداً في الاستزراع وليس الاستئناس والتدجين الثابت للنبات (١).

النتائج التي توصلت لها هذه الدراسات تكفي لإثبات أن الزراعة (كعمليات زراعية أولى من طحن وعجن وما شابه، وأيضاً كاستزراع للنبات بتهيئة الأرض ونثر البذور وإزالة أعشاب بمستوى محدود) ظهرت لدى الإنسان قبل عملية التدجين (الاستئناس) الذي ظهر لاحقاً، وهذا كافٍ لإرجاع بداية ظهور الزراعة إلى ما قبل ٢٠ ألف سنة مضت (٢).

أضف إلى ذلك: النصوص الأولى للتاريخ المدون للإنسان (نصوص السومريين) تشير إلى أن الزراعة (الاستزراع) كان موجوداً قبل الفترة التي ذكرها العلماء، وكمثال للنصوص:

"زيوسدرا"،

الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر، ... [٣].

"زيوسدرا": هونوح عليه السلام (٤). و"الزرع": يعني بذور بعض المحاصيل الزراعية المهمة والأساسية التي يحتاجها الإنسان، وهذا يعني وجود زراعة. ووصف نوح بـ "الملك

١- اسم البحث: أوهالو ٢: مخيم صيادين وجامعين عمره ٢٣٠٠٠ عام على شاطئ بحيرة طبريا (بحر الجليل)، تأليف: داني نادل، الجزء الثالث: علم آثار التطور البشري، ضمن كتاب العصر الرباعي في بلاد الشام: البيئات، وتغير المناخ، والبشر، تحرير: يهودا إنزل وعوفر بار يوسف، الناشر: جامعة كامبريدج سنة ٢٠١٧ م.

الدراسة متاحة أيضاً على الرابط التالي:

<https://journals.plos.org/plosone/article?id=10.1371/journal.pone.0131422>

٢- نتائج الدراسات التي عرضناها تم تداولها بعنوان: "علماء يكتشفون أدلة على الزراعة الصغيرة قبل ٢٣,٠٠٠ عام"، انظر مثلاً:

<https://www.sci.news/archaeology/science-farming-ohalo-ii-israel-3052.html>

٣- من ألواح سومر، كريم: ٢٥٨.

٤- يقول د. صموئيل كريم: (ثم يأتي خبر "زيوسدرا" وهو نظير نوح التوراة، وقد وصف في الأسطورة بكونه ملكاً صالحاً تقياً يخشى الآلهة. وكان يتلهف شوقاً إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية ...) من ألواح سومر: ٢٥٤ - ٢٥٥.

الذي حافظ على الزرع وصان ذرية البشر؛ باعتبار أنه أنقذ بعض الناس من الهلاك وحمل معه البذور المهمة التي يحتاجها الإنسان في زراعته وإنتاج غذائه، وبهذا صار سبباً في استمرار حياة الإنسان. ومن غير المعقول أن يفسر "الزرع" في النص بالنبات الكامل (أي أشجار وشجيرات ... إلخ) ^(١).

ونوح عليه السلام – وفق التحديد العلمي للطوفان الذي حدث في وقته – يمكن أن يكون موجوداً قبل ١٥ ألف سنة ^(٢)، وهذا يعني أن الزراعة (الاستزراع كحد أقل) لها وجود قبل التاريخ الذي افترضه العلماء (أي: ١٢ ألف سنة).

وأيضاً: هناك نصوص سومرية يبين فيها بعض السومريين (وهم في أوج حضارتهم المدونة) أن أسلافهم في "الزمن الغابر" كانوا أرقى منهم حضارياً، وكيف يكونون أرقى إذا افترضنا أن الزراعة غير مكتشفة بالنسبة لهم ^(٣)!

والخلاصة: بالنسبة للزراعة – كما قلت – يكفي إثبات أسبقية وجود الاستزراع على التندجين، وبالنسبة للدراسات العلمية عموماً يكفي أن لا تمنع هذه الأسبقية دليل مؤكد، فكيف إذا رأينا العكس كما لاحظناه في الدراسات المتقدمة التي أرجعت ظهور الزراعة إلى ما قبل ٢٠ ألف سنة.

١- هذا التفسير غير منطقي تماماً؛ لأنه بحاجة إلى تصور أن نوحاً عليه السلام حمل المزروعات مع تربتها بطريقة معينة تحفظ تربتها التي تنتشر فيها جذورها، والمزروعات كثيرة وأحجامها مختلفة، وأيضاً: بحاجة إلى مياه صالحة لسقيها بعد أن كان ماء البحر الذي طفت عليه السفينة مالحاً، ... إلخ، وهو فرض يستلزم توفر سفينة عملاقة بتقنيات عالية لضمان سلامة نقل المزروعات، الأمر الذي يجعل المسألة شبه مستحيلة وغير منطقية تماماً في ظل الظروف والإمكانات المتاحة في ذلك الوقت.

٢- باعتبار أن التاريخ الذي ذكرته أغلب الدراسات العلمية هو الفترة الواقعة بين ١٥ – ٨ ألف سنة ق.م. أي أن العلم لا يمنع من إمكان حدوث الطوفان قبل ١٧ ألف سنة من الآن (١٥ ألف قبل الميلاد + ٢ ألف بعد الميلاد).

٣- وكمثال للنصوص: [في غابر الأزمان كانت بلاد شوبُر وهَمَازي وبلاد سومر الكثيرة الألسنة، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة وبلاد أورى البلاد التي احتوت كل ما هو لائق، وبلاد مارتو كانت آمنة مطمئنة، وجميع الكون والناس في وحدة وألفة حيث كان الجميع بمجدون أنليل بلسان واحد ...] من ألواح سومر، كريم: ٣٧٩ – ٣٨٠.

وأما على مستوى النص الديني، فهو يؤكد أنّ الزراعة بدأت من آدم عليه السلام بعد بعثته من الله:

- عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عز وجل حين أهبط آدم عليه السلام من الجنة أمره أن يحث بيده فيأكل من كدّها بعد نعيم الجنة، فجعل يجأرويبيكي على الجنة مائتي سنة، ثم إنه سجد لله سجدة فلم يرفع رأسه ثلاثة أيام ولياليها) (١).
- وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إنّ الله لما أهبط آدم عليه السلام أمره بالحث والزرع، ...) (٢).

وأيضاً: ورد أنّ ولدي آدم عليه السلام كان أحدهما "صاحب غنم" أي راعي وهو هابيل، والآخر "صاحب زرع" أي فلاح وهو قابيل، وهذا يكشف عن أنّ الزراعة وتربية الحيوان كانت موجودة في وقت آدم عليه السلام:

عن الإمام الباقر عليه السلام: (قال: إن الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم عليه السلام أن لا يقرب هذه الشجرة فلما بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها وهو قول الله عز وجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً"، فلما أكل آدم عليه السلام من الشجرة أهبط إلى الأرض فولد له هابيل وأخته توأم وولد له قابيل وأخته توأم، ثم إنّ آدم عليه السلام أمر هابيل وقابيل أن يقرّبا قرباناً وكان هابيل صاحب غنم وكان قابيل صاحب زرع، فقرّب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه وقرّب قابيل من زرعه ما لم ينق فتقبّل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وهو قول الله عز وجل: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر- إلى آخر الآية ...) (٣).

١- وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ٦ / ٣٨٢.

٢- وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ٢٥ / ٢٨٣.

٣- الكافي، الكليني: ٨ / ١١٣.

(عن ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يحدث رجلاً من قريش قال: لما قَرَّب ابنا آدم القربان، قرب أحدهما أسمن كبش كان في طأنيته وقرب الآخر ضعفاً من سنبل، فقبل من صاحب الكبش وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر...) (١).

النصوص أعلاه تكشف عن وجود الزراعة وتربية الحيوان في زمن آدم عليه السلام، وبخصوص قربان هابيل فممكّن استفادة أنه ذبيحة من نفس الآية أعني قوله تعالى: "وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ" المائدة: ٢٧، بالرغم من أنها لم تصرّح بنوع القربان:

يقول السيد أحمد الحسن: (نفس الآية دالة على امتلاك كل منهما "هابيل وقابيل" لقربان، وعادة القربان تطلق على الذبائح التي يُتَقَرَّب بها؛ أي: حيوان تمت تربيته وصرف جهد عليه) انتهى (٢).

نصوص التوراة أيضاً تؤكد أنّ آدم عليه السلام مارس الزراعة، منها: "وَقَالَ لَأَدَمُ... بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَا تَنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. يَغْرِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ" (٣).

وعموماً، بعد أن تعلّم آدم عليه السلام الزراعة (الاستزراع)، علّمها قومه ومنهم انتشرت إلى أنحاء الشرق الأوسط ثم إلى العالم، ثم تطورت بمرور الوقت إلى أن وصلت إلى التدجين "الاستئناس" الذي حدّد العلماء ظهوره قبل ١٢ ألف سنة.

أما لماذا لم يترك المجتمع الإنساني الذي عاش فيه آدم عليه السلام في الفترة التي حددناها بين ٢٠ - ٣٠ ألف سنة أثاراً واسعة وملحوظة تدل على ممارستهم الزراعة؛ فلأن آدم عليه السلام كما ذكرنا تواجد وولد بين أسلاف المجموعة المهاجرة إلى الوادي الخصيب "حوض الخليج"، وبعث من قبل الله إلى أهل القرى المستوطنة هناك في ذلك

١- تفسير القمي، علي بن إبراهيم: ١ / ١٦٦.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٣- الكتاب المقدس - العهد القديم، سفر التكوين: ٣ / ١٧ - ١٩.

الوقت، لكن منطقة الوادي وقراها غمرتها مياه البحر لاحقاً في زمن نوح كما نعرف ويعرف العلماء، وبالتالي فمن الصعب العثور على آثار زراعية فيه تحت مياه البحر المالحة. نعم، يمكن العثور على آثار زراعية في مناطق مجاورة وقريبة من الوادي؛ باعتبار أن أهلها بالتأكيد تأثروا بالنقلة النوعية التي حصلت لمجتمع آدم عليه السلام، بل وربما يكونون من أفرادهم ثم هاجروا عنه حاملين معهم تقنيات الأسلوب الجديد في توفير الغذاء ولو بحدود معينة بحكم ابتداء ظهور الزراعة في حياتهم، وهذا بالضبط ما حدث ولاحظناه في الدراسات العلمية التي قام بها المتخصصون في أرض الجليل.

قال السيد أحمد الحسن بعد أن بيّن خلق آدم عليه السلام:

(..... ومن ثم شاء الله أن يجتمع آدم وحواء جسمانياً وتتكوّن أول أسرة آدمية ليكونا أول قرية زراعية حيث شاء الله لآدم أن يزرع ويدجن ويربي الحيوانات وبدأت بآدم مسيرة الإنسانية ومسيرة الزراعة وتربية الحيوان) انتهى^(١).

(٣)

بعثت آدم عليه السلام

كشفت البحوث المتقدمة عن أنّ المجتمع الذي ولد فيه آدم عليه السلام كان لدى أفراده مستوى معين من الإدراك واللغة والعيش الذي أصبحوا به مؤهلين لاستقبال رسالة الله وبعث رسول إلهي، لا سيما وأنهم كانوا مكلفين بما يتناسب ومستوى إدراكهم بحسب ما أكدته بعض النصوص الدينية، وهكذا اقتضت مشيئة الله أن يختار أول أنبيائه ليبعثه إلى قومه بعد أن ولد ونشأ وعاش بينهم.

وقبل بحث دعوة آدم عليه السلام ونبوته، يحسن التطرق لأمرين باختصار:

١- ما سبب الحاجة إلى الرسل؟

٢- بم يُعرف الرسول؟

الحاجة إلى الرسل ودليل التعرّف عليهم:

الحاجة إلى الرسل:

ابتداءً، ينبغي معرفة أنّ لفظ "رسول، رسل، إرسال" لما نطلقه هنا لا نقصد به المعنى الاصطلاحي أي المقام الإلهي الأرقى من "النبوة" والأقل من "الإمامة"، وإنما نقصد به مطلق البعث من الله سبحانه وهذا يكون الأنبياء جميعاً رسل بهذا المعنى؛ لأنهم مبعوثون من الله سبحانه. وبالتالي، فنحن لما نبحث مسألة الحاجة إلى رسل الله فإننا في الحقيقة نبحث عن الحاجة إلى خلفاء الله في الأرض عموماً سواء كانوا أنبياء أو رسل أو أئمة.

من جانب آخر: النصوص الدينية أكدت على أَنَّ الإنسان مَفْطُورٌ على معرفة الله وتوحيده، فالإنسان بالأساس خُلِقَ على صورة الله ^(١)، أي مخلوق تتجلى فيه أسماء الله وصفاته من رحمة وعلم وعدل وحكمة ... إلخ.

قال تعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" الروم: ٣٠.

"فطرة الله": أي التوحيد ^(٢).

وأيضاً: الإنسان – كما تقدم ^(٣) – قد أجرى الله عليه الامتحان الأول (وهو امتحان عالم الذر) ^(٤).

كون الإنسان مَفْطُوراً على معرفة الله وتوحيده وعبادته، وكونه قد أُجْري عليه الامتحان وأُخذ عليه الميثاق في عالم أسبق، يَحْتَمِنُ عليه أن يتذكر بنفسه كما تذكّر الأنبياء والرسل بأنفسهم ولا ينتظر إتيان من يذكّره! وبالتالي، قد يقال: ما الحاجة إلى الرسل بعد أن كانت الفطرة كافية لإرجاع الإنسان إلى الله، وبعد أن أُخذ عليه الميثاق في امتحان الذر الأول؟!

١- عن محمد بن مسلم، قال: (سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته، فقال: هي: صورة. محدثة، مخلوقة واصطفاها الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح إلى نفسه "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي") الكافي، الكليني: ١ / ١٣٤.

٢- (عن محمد الحلي، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: "فطرة الله التي فطر الناس عليها" قال: فطرهم على التوحيد) الكافي، الكليني: ٢ / ١٣.

٣- راجع بحث: خلق آدم في السماء الأولى.

٤- (عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل: "حنفاء لله غير مشركين به"؟ قال: الحنيفية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبدل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة به، قال زرارة: وسألت عن قول الله عز وجل: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى - الآية"؟ قال: أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله كل مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خلقه، كذلك قوله: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله" الكافي، الكليني: ٢ / ١٢ - ١٣.

الجواب: "ما يُفترض" شيء و"الواقع" شيء آخر، فبالرغم من وجود الأمرين (الفطرة، تكرار الامتحان) إلا أنّ واقع الناس على الأرض يشهد بأنّ الغالبية الساحقة منهم غافلون ومعرضون عن الله وناسون لميثاقهم وما حصل معهم من امتحان في عالم أسبق، فأما الفطرة فقد لوّثوها بشوائب العالم السفلي والانشغال عن الله بالدنيا والمادة والشهوات، وأما الميثاق فهيّأت لهم أن يتذكّروه بعد إعراضهم عن الله أصلاً!

هم (أعني الناس عموماً) لوبقوا على حالهم هذا لما كانت لهم حجة على الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – بعد أن كانوا مفطورين على معرفته والرجوع إليه وبعد أن أخذ الميثاق منهم في عالم أسبق، ولكانوا أيضاً مستحقين للجزاء الذي يترتب على الغفلة والإعراض عن الله، لكن سعة رحمة الله سبحانه اقتضت أن يختار من بين أهل الأرض ثلة قليلة جداً (كالنجوم المضيئة في السماء الحالكة) ممن لم يلوثوا فطرتهم ولم يدنسوها بقبيح الإعراض والغفلة والانشغال عن الله، اختارهم ويعيهم إلى أقوامهم (كلّ في وقته)؛ ليذكّروا الغافلين والمعرضين عن الله وينبهوهم ويعيدوهم إليه سبحانه بعد أن يوقضوا فيهم ما دسّوه ودفنوه في وجودهم من عظيم صنع الله بهم وفطرته لهم^(١).

١- قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: (... وأهبطه (أي: آدم) إلى دار البلية، وتناسل النرية. واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم. وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بذل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجعلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالهم (صرفهم) الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته. فبعث فيهم رسله وو اتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدرة من سقف (سماء) فوقهم مرفوع، ومهاد (أرض) تحتهم موضوع. ومعايش تحييمهم، وأجال تفنيهم، وأوصاب (متاعب) تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة (طريق قويم) قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم. من سابق سعي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء. إلى أن بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عدته، وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة. وأهواء منتشرة، وطوائف متشتتة. بين مشبه لله بخلقه أو ملحد (منحرف) في اسمه أو مشير إلى غيره (أي مشرك). فهداهم به من الضلالة. وأنقذهم بمكانه من الجهالة. ثم اختار سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله لقاءه. ورضي له ما عنده وأكرمه عن دار الدنيا ورغب به عن مقارنة البلوى. فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله، وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ... نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ٤٣ - ٤٤، تحقيق: د. صبحي الصالح.

البعث والإرسال من الله - والحال هذه - تفضّل منه سبحانه لسعة رحمته وعظيم جوده وكرمه، وإلا فالفطرة والميثاق السابق - كما تبين - كافيتان لقطع عذر عموم الناس المعرضين عن الله. ومع هذا، فقد شاء الله أن يرسل للناس حججه (أنبياء، رسل، أئمة) بشكل دائم ومتواصل منذ لحظة بدء المشروع الرسالي على الأرض بنبي الله آدم عليه السلام وحتى آخر لحظة فيها وختامها بالمهدي الثاني عشر (آخر أوصياء الرسول محمد صلى الله عليه وآله) ^(١).

قال تعالى "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" الرعد: ٧، أي: هادي إلهي ^(٢). فالأرض لا تخلو من حجة وهادي إلهي ^(٣) ما دام يسير عليها أقوام وأناس مكلفون، وذلك زيادة في تأكيد الحجة عليهم وقطع عذر المتخلفين منهم عن الهدى والركب الرسالي، فإذا كان بوسعهم (وليسست بوسعهم ذلك) الاعتذار عن المحافظة على الفطرة وتذكر الميثاق، فليس بوسعهم إطلاقاً الاعتذار لضلالهم وإعراضهم وغفلتهم أمام الله بعدم نصب وإقامة حجة عليهم (من بينهم) يهديهم إلى مراده وما فيه رضاه، قال تعالى: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" النساء: ١٦٥.

-
- ١- حدّد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله في ليلة وفاته جميع أوصيائه من بعده إلى قيام الساعة في وصيته. علماً، أنّ الرسول أراد أن يكتبها بمحضر عامة المسلمين لولا اتهام بعض الحاضرين له بالهجر وحصول النزاع الذي أدّى إلى طردهم في الحادثة المعروفة بـ "رزية الخميس" (انظر: صحيح البخاري: ٣١ / ٤؛ صحيح مسلم: ٥ / ٧٥). ثم ذكر صلى الله عليه وآله أسماء الأوصياء من بعده لمن قبل وصيته بمحضر الخاصة فقط (انظر: الغيبة، النعماني: ٨٤). وهذا مقطع من نص الوصية كما نقله ولده جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (عن أبي عبد الله جعفر بن محمد، عن أبيه الباقر، عن أبيه ذي الثفنات سيد العابدين، عن أبيه الحسين الزكي الشهيد، عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - في الليلة التي كانت فيها وفاته - لعلي عليه السلام: يا أبا الحسن أحضر صحيفة ودواة. فأملأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصيته حتى انتهى إلى هذا الموضع فقال: يا علي إنه سيكون بعدي اثنا عشر إماماً ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً،) الغيبة، الطوسي: ١٥٠.
 - ٢- ولذا فسّرت الآية بالإمام علي عليه السلام: روى الحاكم النيسابوري بسنده: (عن علي إنما أنت منذر لكل قوم هاد قال علي: رسول الله صلى الله عليه وآله المنذرو أنا الهادي * هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه) المستدرک على الصحيحين: ٣ / ١٢٩ - ١٣٠.

٣- لاحظ أننا نتحدث عن الهداية الإلهية والمعلّمين الربّانيين المنصوص عليهم من قبل الله (أنبياء، رسل، أئمة) وليس عن المهتدين والمتعلّمين على سبيل نجاة (في أحسن الأحوال)، ليطبّقها هذا أو ذاك على علماء مذهبه وشخصيات لا نص على إمامتهم وعصمتهم بأسمائهم!

يقول السيد أحمد الحسن: (حيث إنّ تنصيب الخليفة: يهدف إلى إقامة الحجة وقطع العذر وهذا جارٍ سواء كان هناك قابل أم لم يكن هناك قابل، وأيضاً يهدف إلى استنقاذ المكلفين من غفلتهم بتذكيرهم ليقبلوا إرادة الله التي تصلهم من خلال خليفته في أرضه ...) انتهى^(١).

ولهذا ورد التأكيد بنصوص قطعية أنّ الأرض لا تخلو من حجة^(٢).

وكما قلت: كل هذا لسعة رحمته سبحانه وإلا فالفطرة والميثاق أمر كافٍ كما بيّنت. ومن العجيب بعد هذا أن نجد من يصور البعث والإرسال "أمر واجب" على الله، كما نلاحظه في كلام بعض المسلمين^(٣)!

دليل معرفة الرسل:

أخطرو أنفُس ما في الدين الإلهي هو مسألة الإيمان بالرسول، فالله سبحانه أراد أن يؤخذ دينه كله (عقيدة، شريعة، أخلاق) من رسله ولا غير، ولذا أوجب على الناس عموماً الإيمان بهم وطاعتهم والأخذ منهم والافتداء بهم والسير بسيرتهم، واعتبر الكفر بهم كفر به، والعصيان لهم عصيان له، والرد عليهم رد عليه، وهكذا.

١- عقائد الإسلام: ٣٦ - الهامش ٤.

٢- هذا مثال لها:

- الإمام الباقر عليه السلام: (والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام إلا وفيها إمام مهتدي به إلى الله وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده) الكافي، الكليني: ١ / ١٧٩.

- الإمام الصادق عليه السلام: (إنّ الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم) الكافي، الكليني: ١ / ١٧٨.

- وعنه أيضاً: (لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام وقال: إنّ آخر من يموت الامام، لنلا يحتج أحد على الله عز وجل أنه تركه بغير حجة لله عليه) المصدر نفسه.

٣- انظر على سبيل المثال: الاقتصاد، الطوسي: ١٥٢ - ١٥٣: النكت الاعتقادية، المفيد: ٣٤: قال محمد جواد مغنية: "بعثة الأنبياء وعصمتهم: "... وقال الإمامية: بل يجب بعثة الأنبياء، لأنهم يقربون الناس إلى الطاعة ويتبعون بهم عن المعصية" الشيعة في الميزان: ٧٨. وبنفس ذلك تماماً قالت المعتزلة.

القرآن الكريم مليء بالآيات الكريمة التي تشير إلى هذه الحقيقة، منها:

قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" النساء: ١٣٦، ١٥١ - ١٥١.

وأما الروايات فكثيرة (١).

مسألة التعرف على الرسل أمر في غاية الأهمية؛ لأن أي خطأ محتمل في التشخيص سيؤدي لا محال إلى تضبيع الدين الإلهي وانعدام فرصة النجاة بالنسبة للإنسان، ولهذا اقتضت حكمة الله أن يكون الدليل الموصول إلى رسله ويعرف بهم عند بعثهم وبدء دعوتهم واضح وبيّن وبمستوى من الإحكام والتحصيل يضمن فيه الوصول إليهم بشكل قطعي لمن كان طالباً للهدى والإيمان فعلاً.

بكلمة ثانية: دليل التعرف على الرسل هو قانون إلهي محكم ومحصن إلى حد لا يتمكن غير الرسل من ادعائه والتعلي به إطلاقاً. وهو قانون واحد بنفس الفقرات منذ بدء رسالة الله بآدم عليه السلام وحتى آخر رسل الله على هذه الأرض؛ لسبب بسيط، هو: أن المرسل واحد (الله)، والرسالة واحدة (دين الله)، والغاية والهدف واحد أيضاً.

إذا اتضح هذا، فالدليل المعرف برسل الله هو قانون مؤلف من ثلاث فقرات لا غير: النص، العلم، والدعوة إلى حاكمية الله (لا مطاع إلا الله ومن أمر الله بطاعته). ولأن قانون معرفة الرسل عام وينطبق على جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، فالقانون - والحال

١- منها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إن الدين وأصل الدين هو رجل وذلك الرجل هو اليقين وهو الإيمان وهو إمام أمته وأهل زمانه، فمن عرف عرف الله ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه وحدوده وشرايعه بغير ذلك الإمام، كذلك جرى بأن معرفة الرجال دين الله والمعرفة على وجهه معرفة ثابتة على بصيرة يعرف بها دين الله ويوصل بها إلى معرفة الله ...) بصائر الدجاة، الصفار: ٥٤٩.

هذه - ينبغي أن يكون له وجود وظهور في مشهد اليوم الأول الذي خلق الله فيه آدم عليه السلام، ولو دققنا لوجدنا الفقرات الثلاثة المتقدمة بأجمعها: "النص" المتمثل باختيار الله له خليفة له في أرضه، و"العلم" المتمثل بتعليم الله إياه وكشفه عن علمه، ثم "الدعوة إلى حاكمية الله" المتمثلة بأمر الخلق (الملائكة ومعهم إبليس) بالسجود له (طاعته).

يقول السيد أحمد الحسن: (القدر المتيقن للجميع حول تاريخ اليوم الأول الذي جعل فيه الله خليفة له في أرضه هو:

- ١- إن الله نص على آدم وإنه خليفته في أرضه بمحضر الملائكة عليهم السلام وإبليس.
- ٢- بعد أن خلق الله آدم عليه السلام علّمه الأسماء كلها.
- ٣- ثم أمر الله من كان يعبد في ذلك الوقت الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" البقرة: ٣٠ - ٣١. "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" الحجر: ٢٩، "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" الكهف: ٥٠.

هذه الأمور الثلاثة هي قانون الله سبحانه وتعالى لمعرفة الحجة على الناس وخليفة الله في أرضه، وهذه الأمور الثلاثة قانوناً سنّه الله سبحانه وتعالى لمعرفة خليفته منذ اليوم الأول، وستمضي هذه السنة الإلهية إلى انقضاء الدنيا وقيام الساعة: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" انتهى^(١).

١- إضاءات من دعوات المرسلين، السيد أحمد الحسن، الجزء الثالث.

القانون الإلهي في معرفة الرسل وإن كان يحكي ما جرى مع آدم عليه السلام في عالم السماء الأولى عندما خلق الله نفس آدم كما لاحظناه سابقاً^(١)، لكنه نفسه قانون الله في التعرف على رسله في الأرض أيضاً؛ لأن النفوس التي اختارها الله (لإخلاصها) ونصّبها هناك (في السماء الأولى) هي نفسها التي نصّبها الله هنا (في الأرض) بعد نزولها لأداء الامتحان الثاني، وبالتالي فالتنصيب والاختيار "النص" والتحلية بالعلم الذي كان هناك لآدم (وجميع خلفاء الله) يظهر هنا قطعاً.

ولأن القانون في جميع الرسل هو "النص" و"العلم" و"الدعوة إلى حاكمية الله"، يجد من يتلو كتب الله (القرآن الكريم مثلاً) هذه الأمور الثلاثة بوضوح كأمر يلزم جميع رسل الله، فجميع رسل الله تم اختيارهم من قبل الله وكل رسول ينص على من يليه بأمر الله، ولم يحصل أن آية أو رواية قطعية أخبرتنا بأن الله أوكل إلى الناس اختيار رسول من رسله أو استشار أحداً في ذلك إطلاقاً، فالاختيار لله دائماً^(٢). وأيضاً: جميع الرسل يتصفون بالعلم الذي يهدون به أقوامهم ويجيبون به أسئلتهم وما يحتاجون إليه، وأيضاً لم يحصل أن رسولاً من رسل الله أعياه سؤال يتعلق بهداية الخلق ولم يجب عليه! كما أن جميع الرسل يدعون إلى طاعة الله وطاعة من نصّبه الله (أي يدعون إلى حاكمية الله).

قانون معرفة الرسل بفقراته الثلاث لا يقتصر دليله على نصوص القرآن وروايات المسلمين فقط وإنما أكدته نصوص التوراة والإنجيل أيضاً، فقد وردت نصوص في التوراة

١- راجع بحث: خلق آدم والنفس الإنسانية.

٢- قال تعالى: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" القصص: ٦٨. وقال الإمام الصادق عليه السلام: (أترون الموصي منا يوصي إلى من يريد؟! لا والله، ولكن عهد من الله ورسوله صلى الله عليه وآله لرجل فرجل حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه) الكافي، الكليني: ٢٧٨ / ١.

أكدت وصايا الرسل لمن يخلفهم^(١)، وأيضاً: من طالع نصوص العهدين القديم والجديد يجد احتجاج الرسل بالعلم والحكمة^(٢)، وكذلك يجد مطالبة الرسل بحاكمية الله^(٣).

١- وكمثال: هذه نصوص تؤكد وصية موسى ليوشع ووصية داود لسليمان عليهم السلام:

- سفر التثنية - إصحاح ٣١: ١٤ وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكي تموت. أدع يشوع وقفا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا في خيمة الاجتماع ١٥ فترأى الرب في الخيمة في عمود سحب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة".

- سفر الملوك الأول - إصحاح ٢: ١١ ولما قربت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلاً ٢ أنا ذاهب في طريق الأرض كلها. فتشدد وكن رجلاً. ٣ احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه وصاياهم وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجهت. ٤ لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً إذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامي بالأمانة من كل قلوبهم وكل أنفسهم قال لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل".

٢- فمثلاً: احتج يوسف عليه السلام بالعلم والحكمة في تأويله رؤيا فرعون مصر، إذ ورد في سفر التكوين - إصحاح ٤١: ١٥ فقال فرعون ليوسف: حلمت حلماً وليس من يعبره. وأنا سمعت عنك قولاً، إنك تسمع أحلاماً لتعبرها ١٦ فأجاب يوسف فرعون قائلاً: ليس لي. الله يجيب بسلامة فرعون، ثم عبّرها له وقال: «٣٣ فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر». ومثله كانت رؤيا نبوخد نصر التي عجز أدعياء العلم وغيرهم عن تعبيرها فانزعج جداً وغضب، وبعد أن عبّرها له دانيال عليه السلام قال له: "... الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين ٤٦ حينئذ خر نبوخد نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له مقدمة وروائح سرور" سفر دانيال - إصحاح ٢. ويمكن أيضاً ملاحظة علم عيسى وحكمته، في إنجيل متى - إصحاح ١٣: ٥٤ ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ٥٥ أليس هذا ابن النجار أليست أمه تدعى مريم...».

٣- فمثلاً: ورد بحق موسى عليه السلام: "١٤ متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها فإن قلت اجعل عليّ ملكاً كجميع الأمم الذين حولي ١٥ فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك من وسط اخوتك تجعل عليك ملكاً لا يحل لك أن تجعل عليك رجلاً أجنبياً ليس هو أخاك" سفر التثنية - إصحاح ١٧.

وعن يوشع بن نون عليه السلام ورد: «١ وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى ١٠ فأمر يشوع عرفاء الشعب... قائلاً ١٣ اذكروا الكلام الذي أمركم به موسى عبد الرب ... ١٦ فأجابوا يشوع قائلين كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب ١٧ حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك إنما الرب إلهك يكون معك كما كان مع موسى ١٨ كل إنسان يعصى قولك ولا يسمع كلامك في كل ما تأمره به يقتل إنما كن متشدداً وتشجع» سفر يشوع - إصحاح ١.

و أيضاً: القانون مؤكد بدلالة العقل والحكمة^(١).

وبهذا يتضح أن قانون معرفة الرسل ثابت بالدليل النقلى (التوراة، الإنجيل، القرآن) والدليل العقلى.

والخلاصة: بالأمس منذ فجر الرسالة فى يومها الأول، واليوم، وغداً حتى مغيب الرسالة فى يومها الأخير، رسل الله يُعرفون بالنص والعلم والدعوة إلى حاكمية الله. وستتضح هذه الحقيقة أكثر عند عرض أدلة نبوة آدم عليه السلام وبعض رسل الله فى المباحث القادمة؛ وصولاً إلى سيد الرسل أعنى الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

نبوة آدم (ع):

بعد معرفتنا بقانون الله المعرف بأنبيائه ورسله، فإنّ دليل نبوة آدم عليه السلام لا يخرج عن إطار القانون المتقدم بالتأكيد أى: النص، والعلم، والدعوة إلى حاكمية الله.

دليل نبوة آدم:

١- النص:

النص الإلهى المعرف برسل الله له صورتان؛ الأولى: النص المباشر من الله أى "شهادة الله"، والثانية: النص من رسول سابق أى "الوصية" بأمر الله.

١- يقول السيد أحمد الحسن فى بيان قانون معرفة الرسل من جهة العقل والحكمة: (.. كما أنه وببساطة: أى إنسان يملك مصنعاً أو مزرعة أو سفينة أو أى شيء فيه عمال يعملون له فيه، لابد أن يُعين لهم شخصاً منهم يرأسهم، ولابد أن ينص عليه بالاسم وإلا ستعم الفوضى، كما لابد أن يكون أعلمهم وأفضلهم، ولابد أن يأمرهم بطاعته ليحقق ما يرجو، وإلا فإن قصّر هذا الإنسان فى أى من هذه الأمور الثلاثة فسيجانب الحكمة إلى السفه، فكيف يُجوز للناس على الله ترك أى من هذه الأمور الثلاثة وهو الحكيم المطلق) إضاءات من دعوات المرسلين السيد أحمد الحسن: الجزء الثالث.

واضح أنّ كلا النصين من الله، لكن الأول من الله بشكل مباشر، والثاني من الله بتوسط رسول من رسله بأمر منه. والنحو الثاني له صورتان أيضاً: الأولى: النص من رسول سابق مباشر، وهو المتوفر لدى جميع الأنبياء والرسل من آدم وحتى آخر رسول إلهي على الأرض؛ إذ لا يمضي أحد منهم إلا ويوصي لمن يليه بأمر الله (عدا آدم فإنه لم يوص إلى أحد؛ لأنه لم يسبقه رسول، وعدا المهدي الثاني عشر فإنه لا يوصي لأحد؛ لأنه لا وصي بعده). والثانية: النص من رسول سابق غير مباشر، كما في نص آدم عليه السلام على نوح عليه السلام^(١)، أو نص عيسى عليه السلام على الرسول محمد صلى الله عليه وآله^(٢).

وبالنسبة لآدم عليه السلام، فإنّ النص عليه لا يمكن أن يكون من النحو الثاني (أي الوصية)؛ لأنه المبعوث الأول من الله ولم يسبقه رسول ليوصي إليه، لذلك ينحصر النص عليه بالنص المباشر من الله أي: "شهادة الله". نعم، بالنسبة لسائر الحجج الإلهيين التاليين بعد آدم عليه السلام يتوفر فيهم كلا النحويين من النص؛ شهادة الله والوصية.

يقول السيد أحمد الحسن عن الاستخلاف الإلهي في الأرض:

(والأمر ابتداءً بالنص من الله سبحانه وتعالى مباشرة على الحجة الأول آدم عليه السلام لكونه أول الحجج، ثم تحوّل الأمر إلى النص من الحجة السابق على الحجة اللاحق، سواء كان مباشراً أم غير مباشر لوجود الحجة الذي بنصبه ووصيته على من يأتي بعده دليل واضح على تشخيصه، والأمر الأول وهو نص الله على الحجة باقي ولم يرفع، بل بقي كدليل تشخيص لخليفة الله مع النص من الخليفة السابق) انتهى^(٣).

١- عن الإمام الباقر عليه السلام: (وبشّر آدم بنوح عليه السلام فقال: إنّ الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح وإنه يدعو إلى الله عزّ ذكره ويكذّبه قومه، فيهلكهم الله بالطوفان ...) الكافي، الكليني: ١١٤ / ٨.

٢- في قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ" الصف: ٦.

٣- عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن: قانون معرفة الحجة وفقراته الثلاث - النص.

وهذه بعض الملاحظات المستقاة من كلامه ^(١) عن النص عموماً، ومن خلالها يتضح حال النص على آدم عليه السلام:

١- النص المباشر من الله (شهادة الله) الذي وجد لإثبات نبوة آدم عليه السلام لم يُرفع بعده وإنما هو باقٍ مع جميع رسل الله كدليل لتشخيصهم وإثبات صدق دعواهم، فالله الذي شهد لنبوة آدم شهد لرسالة محمد صلى الله عليه وآله، قال تعالى: "وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" النساء: ٧٩. وهكذا حتى آخر رسول إلهي (من أوصياء محمد صلى الله عليه وآله) على الأرض.

٢- النص من الله (شهادة الله) موجود مع خليفة الله (نبي، رسول، إمام) منذ أول لحظة يبدأ فيها دعوته وحتى آخر لحظة من حياته، بل حتى بعد وفاته بمعنى أنّ من يطلب من الله الآن أن يشهد له على خلافة آدم أو نوح أو موسى أو عيسى أو محمد أو آل محمد الماضين صلوات الله عليهم فإنّ الله سبحانه يشهد له.

٣- كلا نحوي النص (شهادة الله، الوصية) لا بد أن يكونا متوافقين؛ لأنهما (كلاهما) من الله، ولما كان جميع رسل الله بعد آدم لديهم كلا نحوي النص (شهادة الله + وصية) قطعاً، تكون النتيجة: إنّ كل من يدعي النبوة أو الرسالة أو الإمامة ويدعي شهادة الله له بدون وجود نص من رسول سابق (وصية) عليه فهو مدّعٍ كاذب حتماً.

٤- عند الناس: النص من الرسول السابق (الوصية) أكثر وضوحاً من النص المباشر من الله (شهادة الله)؛ بحكم أنسهم بعالم المادة وانغماسهم فيه.

٥- النص المباشر من الله يكون بالوحي، فالله الذي شهد للملائكة وأثبت لهم خلافة آدم وأمرهم بالسجود له (طاعته) عن طريق الوحي، كذلك يشهد (يوحي) لخلقه على الأرض ويثبت لهم خلافة ونبوة آدم عليه السلام. وطريق الوحي المبذول لكل الناس هو الرؤى الصادقة.

٦- شهادة الله للناس بالرؤى الصادقة باب هدى واسع لجميع الناس بلا استثناء، ولا تحتاج إلى خلفية دينية معينة، فسواء كنت يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً أو هندوسياً أو من أي ديانة أخرى وطلبت من الله أن يشهد لك بخصوص دعوة رسول إلهي (فيما مضى أو اليوم) فإنه سبحانه يشهد لك بصدقه، بل الباب مفتوح حتى للملحدين ولكن كمقدمة وقبل أن يشهد الله لرسوله يشهد لنفسه أولاً ليثبت للملحد وجود الله ثم يشهد لرسوله.

٧- شهادة الله على صدق رسله أمر موافق للحكمة والرحمة المطلقة التي يتصف بها الله، وهذا يؤكد وجودها مع كل رسول إلهي قطعاً بدلالة العقل والنقل (أي بحسب النصوص الدينية).

- عقلاً: لا يصدر منه سبحانه ما يخالف الحكمة والرحمة: تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

- ونقلًا: ثبت بنحو قطعي أن الله شهد لرسله على طول المسير منذ اليوم الرسالي الأول، وكمثال: شهد لأدم من خلال الوحي للملائكة، وشهد لأم موسى بالوحي (الرؤيا) لإثبات رسالة موسى، وشهد للحواريين بالوحي (الرؤيا) لإثبات رسالة عيسى، وشهد لمحمد صلى الله عليه وآله، وهكذا^(١).

١- شهادة الله لأدم بالوحي للملائكة تبيّنت، أما شهادته لأم موسى ففي قوله تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ" القصص: ٧. وأما شهادته للحواريين ففي قوله تعالى: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا أَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ" المائدة: ١١١. وأما شهادته لحبيبه محمد صلى الله عليه وآله فقد أشارت لها آيات كثيرة، منها: "وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" النساء: ٧٩. "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ" الرعد: ٤٣. "قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا" الإسراء: ٩٦. "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا" الفتح: ٢٨.

ما تقدم يكفي لمعرفة سر تأكيد النصوص الدينية على احترام الرؤى الصادقة ووصفها بأنها جزء من النبوة^(١)؛ والسبب الذي توضح لنا الآن أنها سبيل من سبل التعرف على "شهادة الله" المتاح لعموم الناس.

وإذا عرفنا هذا، نعرف أنّ النص الذي ثبت به صدق نبوة آدم عليه السلام هو النص المباشر من الله وهو الرؤى الصادقة بالنسبة لعموم المكلفين في زمانه.

وهذا نص ديني يوضح فيه الإمام الكاظم عليه السلام متى حدثت الرؤى الصادقة على الأرض، والنص ينطبق على آدم عليه السلام وقومه:

عن الحسن بن عبد الرحمن عن أبي الحسن "الإمام الكاظم" عليه السلام، قال: (إن الأحلام لم تكن فيما مضى في أول الخلق وإنما حدثت، فقلت: وما العلة في ذلك؟ فقال: إنّ الله عز ذكره بعث رسولاً إلى أهل زمانه فدعاهم إلى عبادة الله وطاعته فقالوا: إن فعلنا ذلك فما لنا فوالله ما أنت بأكثرنا مالاً ولا بأعزنا عشيرة، فقال: إن أطعتموني أدخلكم الله الجنة وإن عصيتموني أدخلكم الله النار، فقالوا: وما الجنة والنار؟ فوصف لهم ذلك، فقالوا: متى نصير إلى ذلك؟ فقال: إذا متم، فقالوا: لقد رأينا أمواتنا صاروا عظاماً ورفاتاً، فازدادوا له تكذيباً وبه استخفافاً، فأحدث الله عز وجل فيهم الأحلام فأتوه فأخبروه بما رأوا وما أنكروا من ذلك، فقال: إنّ الله عز وجل أراد أن يحتج عليكم بهذا هكذا تكون أرواحكم إذا متم وإن بليت أبدانكم تصير الأرواح إلى عقاب حتى تبعث الأبدان)^(٢).

واضح أنّ النص يشير إلى آدم عليه السلام وقومه باعتبار الكلام عن "أول الخلق"، ويؤكد ذلك أيضاً أنّهم لم يسمعوا إطلاقاً باسم جنة ونار، وهذا لا يمكن تصوّره إلا في قوم

١- الروايات في هذا المعنى كثيرة، منها: قول الرسول صلى الله عليه وآله: (الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة) الأمالي، الصدوق: ١٢١؛ وقوله: (الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) بحار الأنوار، المجلسي: ٥٨ / ١٧٥، وقوله: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة) بحار الأنوار، المجلسي: ٥٨ / ١٧٧. وقول الصادق عليه السلام: (رأي المؤمن ورؤياه في آخر الزمان على سبعين جزءاً من أجزاء النبوة) الكافي، الكليني: ٨ / ٩٠. ومثلها ورد في مصادر المسلمين السنة، انظر مثلاً: مسند أحمد: ١ / ٣١٥ و ٢ / ٢٣٣، ٢٦٩، ٣ / ٢٦٧.

٢- بصائر الدرجات، الصفار: ٥٤٩.

آدم؛ باعتبار أنه لم يسبقه رسول يطرح هذه الأمور بين الناس، أما بعد بدء آدم عليه السلام وما بثه (هو والأوصياء من ولده) من تعاليم الدين والمبدأ والمعاد والجنة والنار صارت ثقافة الدين جزءاً لا ينفصل عن الإنسان عموماً.

يقول السيد أحمد الحسن: (وأول الخلق المذكور في الرواية ينطبق على آدم عليه السلام، وبالتالي فالقوم الذين رافقوه في هذه الرواية هم بعض أشباه الناس الذين سبقوا آدم عليه السلام.

أيضاً: الرؤيا في النوم واليقظة هي طريق الوحي للأنبياء، فلا بد أن تكون الرؤيا قد بدأت مع أول الأنبياء عليهم السلام وهو آدم عليه السلام) انتهى (١).

٢- العلم:

دلالة العلم على صدق نبوة آدم عليه السلام أمر واضح، وقد ذكره الله سبحانه للملائكة لما بين لهم سبب اختيار آدم وتنصيبه خليفة له في أرضه. الملائكة كانوا يشاهدون ما يفعله أشباه الناس "النسناس" من فساد وجرائم على الأرض، لذلك لما كشف الله لهم أن خليفته في الأرض سيكون إنساناً ظنوا أن حاله كحال هؤلاء!

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" البقرة: ٣٠.

ما الذي يعلمه الله في آدم ولا يعلم به الملائكة؟

أهم شيء في "إني أعلم ما لا تعلمون" هو "علم آدم"؛ حيث إن الله سبحانه علّم آدم الأسماء كلها، وهو أمر لم تكن تعلم به الملائكة. وقد تقدم أن الله خلق آدم على صورته أي فطره على معرفة أسماء الله وصفاته جميعها، بخلاف بقية الخلق كالملائكة والجن (وهم مكلفون أيضاً كالإنسان)، فكل فرد منهم مفلطور على معرفة بعض الأسماء، لكن الإنسان

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٣٨.

مفطور على معرفتها كلها، الإنسان هو المخلوق الأوسع والأعظم فطرة بين الخلق، ولذا اختار الله خليفته إنساناً:

يقول السيد أحمد الحسن: (... الملائكة والجن غير قادرين على تحصيل المعرفة التي يحصلها آدم عليه السلام ذاتياً، فكان حتمياً أن يكون آدم هو الخليفة؛ لأنه القادر على تعريفهم ما يجهلون. فقد عمل ببعض ما أودع فيه من قابلية وإمكان حيث إنَّه إنسان، والإنسان هو القابل الأوسع والأعظم، فهو مخلوق على صورة الله، أي انه مفطور على معرفة أسماء الله، ومودعة فيه قابلية إظهار أسماء الله للخلق: "الله خلق آدم على صورته" (١).

ويقول أيضاً: (إنَّ الله منذ البداية ومنذ اليوم الأول نصب آدم خليفته في أرضه ثم بلغ الملائكة ليطيعوه، فلما اعترضوا وجادلوا بين الله لهم جهلهم لما سألهم، ومن ثم بين لهم علم آدم عليه السلام الذي أودعه فيه فعرفوا أحقية آدم وخضعوا للحق. ثم أمرهم الله بالسجود فسجدوا واتخذوا آدم عليه السلام إماماً ومعلماً وقبلة إلى الله يعرفهم بالله) انتهى (٢).

تنبيه: كون الإنسان صاحب الفطرة الأعظم والأوسع بين بقية الخلق لا يعني أنَّ الناس كلهم حافظوا على هذه الفطرة وفعلوها في وجودهم في هذا العالم بحيث إنهم بأجمعهم عارفون بأسماء الله فعلاً ومستحقون أن يكونوا خلفاء لله في أرضه فعلاً، وإنما يعني أنهم مفطورون على ذلك أي لديهم القابلية على أن يكونوا خلفاء لله، لكن على مستوى الواقع الفعلي على الأرض فإنَّ الغالبية الساحقة منهم ضيعوا حظهم بعد أن لوَّثوا فطرتهم بسبب إغراضهم عن الله وانشغالهم بالمادة والشهوات، وثلة قليلة جداً بقوا محافظين على فطرتهم وهؤلاء هم رسل الله كما ذكرنا، وبالتأكيد سيكون الرسل – بعد محافظتهم على فطرتهم – أعلم أهل زمانهم.

١- الكافي، الكليني: ١ / ١٣٤: التوحيد، الصدوق: ١٠٣. وهي صورة محدثة أي صورة مخلوق نسبها الله لنفسه، لشدة كمالها وقربها منه سبحانه.

٢- عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن: أصل الدين، الاستخلاف سنة إلهية.

وبخصوص تعليم الله لأدم عليه السلام الأسماء كلها، توهم البعض – كما تقدم في بحث نشوء اللغة الإنسانية – أنّ المقصود بـ "الأسماء" هو مفردات اللغة!

وهو – بلا شك – توهم ساذج.

يقول السيد أحمد الحسن: (مسألة تعليم الله لأدم كل الأسماء كما في النص القرآني ليس المقصود ما توهمه بعضهم من أنّ الله علّمه مفردات اللغة وأسماء الأشياء التي كانت حوله ثم قام آدم بتعليمها لمجتمعه، وإنما المقصود شيء آخر، وإلا فما قيمة تحديد آدم أسماء الأشياء من حوله حتى تكون الفيصل في أفضليته؟! هل يعقل أنّ الله خالق السماوات والأرض يحتج على الملائكة بأنّ آدم أعلم منكم؛ لأنه يعرف اسم فلان أو فلان أو اسم هذا الشيء أو ذاك في العالم الجسماني أو الأرض؟!)

"علّم آدم الأسماء كلها": علّمه أسماء الله كلها فصل بوسعها أن يستوعب الرحمة والنقمة ويتحلّى بها ويتجلّى فيه، ويستوعب كل اتجاهات الكمال، وهكذا. وليس آدم وحده خلق كذلك، وإنما جميع ولد آدم مفطورون على معرفة جميع أسماء الله، فنحن جميعاً يمكننا أن نستوعب الرحمة والنقمة وكل الأسماء.

في حين الملائكة كل واحد منهم يعرف الاسم الذي فطر منه (أو الأسماء): "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فاطر: ١. ويستوعب بمقدار الاسم المخلوق منه وبإمكانه أن يتحلّى بهذا الاسم ويتجلّى فيه هذا الاسم، فمثلاً: من خلق من الرحمة يستوعب ويعرف الرحمة ومعرفته بالأسماء الأخرى إن وجدت فستكون محدودة وربما معنوية بحسب حاله.

فمن خلق من النقمة أو اسم المنتقم مثلاً لا يعرف الرحمة، ومن خلق من المحي يعرف الحياة ويعرف كيف يهب الحياة ولا يعرف الموت ولا يعرف كيف يسلب الحياة، ومن خلق من المميت يعرف الموت ويعرف كيف يسلب الحياة لكنه لا يعرف كيف يهب الحياة وليس له القدرة على ذلك.

وعندما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله مالكاً خزّن النمل المخلوق من اسم المنتقم أو النعمة وجده غاضباً لا يظهر عليه الاستبشار:

في تفسير علي بن ابراهيم القمي قال: حكى أبي عن محمد بن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام: "..... قال صلى الله عليه وآله وسلم: فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى السماء الدنيا، وعليها ملك يقال له: إسماعيل، وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل: "إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" الصافات: ١٠ وتحتة سبعون ألف ملك، تحت كلّ ملك سبعون ألف ملك، فقال: يا جبرئيل، من هذا الذي معك؟ فقال: محمد رسول الله. قال: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتح الباب، فسلمت عليه وسلم عليّ، واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالأخ [الناصح والنجي] الصالح. وتلقّيتني الملائكة حتى دخلت سماء الدنيا، فما لقيني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً حتّى لقيني ملك من الملائكة، لم أر خلقاً أعظم منه، كره المنظر، ظاهر الغضب، فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء، إلا أنه لم يضحك، ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت ممّن ضحك من الملائكة، فقلت: من هذا - يا جبرئيل - فإنّي قد فرغت منه؟ فقال: يجوز أن تفرغ منه، وكلنا نفرغ منه، إن هذا مالك خزّن النار، لم يضحك قطّ، ولم يزل منذ ولّاه الله جهنّم يزداد كلّ يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله، وأهل معصيته، فينتقم الله به منهم، ولو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكاً إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك. فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام وبشّرني بالجنة، فقلت لجبرئيل، وجبرئيل بالمكان الذي وصفه الله: {مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٌ} التكوين: ٢١: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك، أر محمداً النار. فكشف عنها غطاءها، وفتح باباً منها، فخرج منها لهب ساطع في السماء، وفلرت فلرتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت، فقلت: يا جبرئيل، قل له فليردّ عليها غطاءها. فأمرها فقال لها: ارجعي. فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه" (١).

يبقى أن "علّم آدم الأسماء كلها": بالتأكيد له تأثير معرفي، فأدّم لما عرف أسماء الله فحتماً صلرت لديه قدرة معرفية عالية، وبالتالي قدرة على وضع ألفاظ للمفاهيم وللمعاني بشكل أكبر، وهذا يعني أن تعليم آدم الأسماء أثر في اللغة حتماً، لكن ليس بالنظرة

البسيطة الساذجة التي يطرحها القائلون بتوقيف اللغة، وأيضاً: ليس بالصورة التي ينظر بها بعضهم لما روي عن الإمام الصادق عليه السلام لما سُئل عن الأسماء التي علّمها الله لآدم فقال: "الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علّمه"^(١)، ويتصور أنّ الله علّم آدم أسماء الأمور المذكورة ووضع لكل منها اسم ومفردة لغوية تناسبها، وهكذا!

ليس الأمر كذلك، وإنما المقصود أنّ الله لما علّم آدم أسماء كلها وعرف آدم أسماء الله انكشفت له الحقائق وبدأ يعرف الأشياء وحقائقها) انتهى^(٢).

العلم الديني الذي تحلّى به آدم هو العلم الذي بثّه في الناس الذين بُعث فيهم وهداهم به إلى الله، وبه أوضح لهم منظومة الدين الإلهي عموماً المؤلفة من العقيدة والشريعة والأخلاق. والعلم بهذا المعنى دليل آخر يضاف إلى النص "شهادة الله"، وبه يثبت صدق نبوة آدم عليه السلام وأحقية دعوته وبعثه من الله^(٣).

ثم إنّ هذا العلم الذي اتصف به آدم عليه السلام ورثه لوصيه من بعده^(٤).

١- تفسير العياشي: ١ / ٣٢.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٣- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إنّ عيسى ابن مريم عليه السلام أعطي حرفين كان يعمل بهما، وأعطى موسى أربعة أحرف، وأعطى إبراهيم ثمانية أحرف، وأعطى نوح خمسة عشر حرفاً، وأعطى آدم خمسة وعشرين حرفاً، وإنّ الله تعالى جمع ذلك كله لمحمد صلى الله عليه وآله وإن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً، أعطى محمداً صلى الله عليه وآله اثنين وسبعين حرفاً وحجب عنه حرف واحد) الكافي، الكليني: ١ / ٢٣٠.

٤- (عن النعمان الرازي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما انقضت نبوة آدم وانقطع أكله أوحى الله إليه: يا آدم إنه قد انقضت نبوتك وانقطع أكلك فانظر إلى ما عندك من العلم والايمن وميراث النبوة وأثار العلم والاسم الأعظم فاجعله في العقب من ذريتك عند هبة الله فإني لن أدع الأرض بغير عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد ما بين قبض النبي إلى ظهور النبي الآخر).

عن زارة والفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عليه السلام عالم هذه الأمة، وإنه لم يهلك منا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه، أو ما شاء الله) الكافي، الكليني: ١ / ٢٢٢.

واضح أنّ روايات آل محمد عليهم السلام تؤكد ما بيّنه السيد أحمد الحسن من أنّ ما تعلّمه آدم من الله هو العلم بأسماء الله (المعرفة الإلهية)، وهو العلم ورثه آدم عليه السلام لولده ووصيه "هبة الله"، فما يتوارثه رسل الله هو العلم والمعرفة الإلهية وليس مفردات لغوية، فاللغة ووضعت مفردات لمعانٍ معينة شأن بشري عام يحصل كما تحصل سائر شؤونهم الحياتية الأخرى التي لا ربط لها برسالة الله. نعم، رسالة الله تثري اللغة وتنمّيها كما تقدم بيانه.

٣- الدعوة إلى الله:

بالتأكيد، آدم عليه السلام كسائر رسل الله، دعا الناس إلى معرفة الله وعبادته وطاعته وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، وكذلك دعاهم إلى طاعة من أمر الله بطاعته، كان يقول لقومه: "إن أطعتموني أدخلكم الله الجنة وإن عصيتموني أدخلكم الله النار" كما مرّ في حديث الإمام الكاظم عليه السلام^(١)، وهذا يعني أنّ العقيدة التي دعا لها آدم عليه السلام الناس لها هي: "لا مطاع غير الله وغير من أمر الله بطاعته"، وهذا هو المنهج الإلهي الذي يختصر مبدأ حاكمية الله "دين الأنبياء والرسل"، وعلى هذا النهج سار آدم عليه السلام منذ لحظة بعثته من الله حتى آخر لحظة في حياته التي أوصى فيها إلى ولده "هبة الله" وأرجع المؤمنين إليه بعده بأمر من الله سبحانه.

وبهذا يتضح أنّ القانون الإلهي في معرفة الرسل انطبق على آدم عليه السلام بجميع فقراته الثلاث: "النص، العلم، الدعوة إلى حاكمية الله".

(عن عمر بن أبان قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، وما مات عالم فذهب علمه) نفس المصدر.

عن الإمام الباقر عليه السلام: (... فلما دنا أجل آدم عليه السلام، أوحى الله إليه: أن يا آدم إني متوفيك ورافع روحك إلى يوم كذا وكذا، فأوص إلى خير ولدك، وهو هبتي الذي وهبته لك، فأوص إليه. وسلّم إليه ما علّمناك من الأسماء، والاسم الأعظم، فاجعل ذلك في تابوت، فإني أحب أن لا تخلو أرضي من عالم يعلم علمي، ويقضي بحكمي، أجعله حجة لي على خلقي (... تفسير العياشي: ١ / ٣٠٦).

ملاحظة: في طريق الاستدلال على صدق نبوة آدم عليه السلام لم نلاحظ أثراً لوجود معجزة وآية مادية كدليل يثبت صدق بعثه من الله، وإنما وجدنا نبوته تثبت بالقانون الإلهي المؤلف من النص والعلم والدعوة إلى الله، وهذا يعني أنّ المعجزة المادية ليست جزءاً من القانون، وهي إن شاء الله وحصلت في مسيرة رسول من الرسل تكون مؤيدة للنص وليست أمراً أساسياً في ثبوت صدقه.

دين آدم (٤):

دين آدم عليه السلام هو دين الله. وهو نفسه الدين الذي بعث به الأنبياء والأوصياء من ولد آدم عليهم السلام من بعده، ولهذا أمر الله سيد رسله محمد صلى الله عليه وآله أن يقتدي بهدى من سبقه: ومنهم آدم عليه السلام:

قال تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" الأنعام: ٩٠.

قال الإمام الصادق عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ وَكُلِّ مُؤْمِنٍ لِيُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَعَلِيٍّ وَبِكُلِّ نَبِيٍّ وَبِالْوِلَايَةِ، ثُمَّ قَالَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ" يعني: آدم ونوحاً وكل نبي بعده) (١).

وأيضاً: وصف أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه (وصي الرسول محمد صلى الله عليه وآله) دينه بأنه "دين آدم" (٢).

لدى آدم عليه السلام الدين الإلهي كله من الألف إلى الياء، ابتداءً بأصل الدين وأساسه أعني: الدعوة إلى حاكمية الله والاستخلاف الإلهي الذي يتمثل بتنصيب الله

١- بصائر الدرجات، الصفار: ٥٣٤؛ بحار الأنوار، المجلسي: ٢٦ / ٢٨٤ - ٢٨٥.

٢- (عن ابن المغيرة قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: اتقوا الله ولا يخدعنكم إنسان، ولا يكذبكم إنسان، فإنما ديني دين واحد، دين آدم الذي ارتضاه الله، وإنما أنا عبد مخلوق، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله وما أشاء إلا ما شاء الله) المحاسن، البرقي: ١ / ١٤٨.

لحجة ورسول إلهي يؤخذ منه دين الله كله: (عقيدة، شريعة، أخلاق)، يتمثل هذا بشخص آدم نفسه، قال تعالى: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..." البقرة: ٣٠.

في دين آدم عليه السلام: نجد وجوب معرفة الله وتوحيده وطاعته ووجوب معرفة وطاعة رسله، مروراً بتفاصيل الاعتقاد والشريعة من عبادات ومعاملات (بحسب الحاجة وما يناسب ذلك الوقت)، وصولاً إلى الحث على مكارم الأخلاق والنهي عن مساوئها.

عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (أوحى الله عز وجل إلى آدم عليه السلام إنني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات، قال: يا رب وما هن؟ قال: واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس، قال: يا رب بينهن لي حتى أعلمهن، قال: أما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك) (١).

بتنظيم علاقة الإنسان مع الله سبحانه ومع نفسه ومع الناس عموماً انطلقت رسالة الله على يد أول أنبيائه (آدم عليه السلام)، فباشر بدعوة الناس إلى ربه ونشر بينهم تعاليم الدين الإلهي القويم.

بعض النصوص أوضحت أنّ كثيراً من تعاليم وعبادات آدم عليه السلام (كأدعيته مثلاً) استمرت بالتوارث بين الرسل (٢).

١- الكافي، الكليني: ١٤٦/٢. وورد بنفس المضمون تقريباً في مصادر سنية، منها: (عن سلمان قال: لما خلق الله آدم عليه السلام قال واحدة لي وواحدة لك وواحدة بيني وبينك فأما التي هي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك فما عملت من شيء جزيتك به وإن أغفر فأنا الغفور الرحيم وأما التي بيني وبينك فمناك المسألة والدعاء وعليّ الإجابة والعطاء) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٧/ ٤٤٠.

٢- منها: عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (ثلاث تناسخها الأنبياء من آدم عليه السلام حتى وصلن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أصبح يقول: "اللهم إني أسألك إيماناً تباشر به قلبي ويقيناً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي ورضيتي بما قسمت لي". وبعض الرواة زاد فيه: "حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً وصلى الله على محمد وآله") الكافي، الكليني: ٥٢٤/٢.

ليلة القدر مثلاً، التي سمّيت بها إحدى سور القرآن الكريم، كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام^(١).

حديث النفس وعلاجه، والهم بالسيئة قبل فعلها أو التوبة بعد فعلها، أو حساب الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها كما صرح به القرآن الكريم^(٢)، كلها أمور موجودة في زمن آدم عليه السلام أيضاً^(٣).

وكمثال واضح لوحدة الدين الإلهي (الأدبي ابتداءً، والإبراهيمي وسطاً، والمحمدي ختاماً) لناخذ فريضة الحج مثلاً:

وورد نفس مضمون الدعاء تقريباً في مصادر سنية، منها: (عن عون بن أبي خالد قال: وجدت في بعض الكتب أنّ آدم عليه السلام رجع إلى جانب الركن اليماني ركعتين ثم قال: اللهم أني أسألك إيماناً يباشر قلبي و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتب لي ورضاً بما قسمت لي، فأوحى الله إليه يا آدم إنه حق علي ألا يلزم - وقال إسماعيل إنه لا يلزم - أحد من ذريتك هذا الدعاء إلا أعطيته ما يحب ونجيته مما يكره ونزعت أمل الدنيا والفقر من بين عينيه وملأ جوفه حكمة) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٤٣٢ / ٧؛ وانظر أيضاً: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي: ١ / ٤٤.

١- عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (لقد خلق الله جل ذكره ليلة القدر أول ما خلق الدنيا ولقد خلق فيها أول نبي يكون، وأول وصي يكون. ولقد قضى أن يكون في كل سنة ليلة يهبط فيها بتفسير الأمور إلى مثله من السنة المقبلة. وأيم الله لقد نزل الروح والملائكة بالأمر في ليلة القدر على آدم، وأيم الله ما مات آدم إلا وله وصي، وكل من بعد آدم من الأنبياء قد أتاه الأمر فيها، ووضع لوصيه من بعده،) الكافي، الكليني: ١ / ٢٥٠.

٢- قال تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ فَمَا لَهُ مِنْ حِصْنٍ وَاللَّهُ يُصِرُّ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... " آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦، وقال: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" الأنعام: ١٦٠.

٣- عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام) قال: (إنَّ آدم عليه السلام قال: يا رب سلّطت عليّ الشيطان وأجريتني مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم جعلت لك أن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة ومن هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشرة، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر له غفرت له، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لهم التوبة - بسطت لهم التوبة - حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب حسبي) الكافي، الكليني: ٢ / ٤٤٠.

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ آدم شكاً إلى الله عز وجل ما يلقي من حديث النفس والحزن، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال له: يا آدم، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالها فذهب عنه الوسوسة والحزن) الأمالي، الصدوق: ٦٣٧.

فريضة الحج عند المسلمين التي شرّعها الرسول محمد صلى الله عليه وآله بأمر الله اقتداءً برسول الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام للذين أقاما قواعد البيت وحجاً إليه، كان بانيه الأول آدم عليه السلام بأمر الله (١).

وآدم عليه السلام أول من قبّل الحجر الأسود (٢).

وآدم عليه السلام أول من وقف بـ "الملّزم" ودعا الله فيه (٣).

١- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إنّ آدم عليه السلام هو الذي بنى هذا البيت، ووضع أساسه، وأول من كساه الشعر، وأول من حج إليه، ثم كساه تبع بعد آدم عليه السلام الأنطاع، ثم كساه إبراهيم عليه السلام الخصف، وأول من كساه الثياب سليمان بن داود عليه السلام كساه القباطي) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٣ / ٢٠٨.

وورد بنفس المضمون تقريباً في مصادر سنية، منها: (قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام حتى بعث الله الطوفان قال وكان غضباً ورجساً قال فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ربح آدم عليه السلام قال ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند قال فدرس موضع البيت في الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فرفعا قواعد وأعلامه وبنّته قريش بعد ذلك وهو بجذاء البيت المعمور لو سقط ما سقط إلا عليه) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي: ١ / ٣٧.

(وقال ابن إسحاق: وبلغني أنّ آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم وحجّه إسحاق وسارة من الشام، قال: وكان إبراهيم عليه السلام يحجّه كل سنة على البراق، قال: وحجت بعد ذلك الأنبياء والأمم) نفس المصدر: ١ / ٦٨.

٢- عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام، وقد سُئل عن تقبيل الحجر؟ فقال: (إنّ الحجر كان درة بيضاء في الجنة، وكان آدم يراها، فلما أنزلها الله عز وجل إلى الأرض نزل إليها آدم عليه السلام فيأدر فقيلها، فأجرى الله تبارك وتعالى بذلك السنّة) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٣ / ٣٢٢. وورد بنفس المضمون تقريباً في مصادر سنية، منها: (عن ابن عباس قال: أنزل الركن الأسود من الجنة وهو يتلألأ تالولاً من شدة بياضه فأخذه آدم عليه السلام فضمه إليه أنساً به) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي: ١ / ٣٢٨.

٣- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (لما طاف آدم بالبيت وانتهى إلى الملّزم، قال له جبرئيل عليه السلام: يا آدم أقر لربك بذنوبك في هذا المكان، قال: فوقف آدم عليه السلام فقال: يا رب إن لكل عامل أجر وقد عملت فما أجري؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا آدم قد غفرت ذنبك، قال: يا رب ولولدي [أ] ولذريتي فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم من جاء من ذريتك إلى هذا المكان وأقر بذنوبه وتاب كما تابت ثم استغفر غفرت له) الكافي، الكليني: ٤ / ١٩٤.

وآدم عليه السلام أول من جمع الصلاتين (المغرب والعشاء) في مزدلفة "جمع"^(١).

وآدم عليه السلام أول من رمى الجمار^(٢).

وهذا حديث يبين فيه الإمام الصادق عليه السلام حج آدم عليه السلام:

(وأما قوله: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم" فإنه حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنَّ آدم عليه السلام بقي على الصفا أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة وعلى خروجه من الجنة من جوار الله عز وجل فتزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم ما لك تبكي فقال: يا جبرئيل ما لي لا أبكي وقد أخرجني الله من الجنة من جواره وأهبطني إلى الدنيا فقال: يا آدم تب إليه قال: وكيف أتوب فأنزل الله عليه قبة من نور فيه موضع البيت فسطع نورها في جبال مكة فهو الحرم فأمر الله جبرئيل أن يضع عليه الاعلام قال: قم يا آدم فخرج به يوم التروية وأمره أن يغتسل ويحرم وخرج من الجنة أول يوم من ذي القعدة فلما كان يوم الثامن من ذي الحجة أخرجه جبرئيل عليه السلام إلى منى فبات بها فلما أصبح أخرجه إلى عرفات وقد كان علمه حين أخرجه من مكة الاحرام وعلمه التلبية فلما زالت الشمس يوم عرفة قطع التلبية وأمره أن يغتسل فلما صلى العصر أوقفه بعرفات وعلمه الكلمات التي تلقاها من ربه وهي "سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت

١- عن الإمام الصادق عليه السلام - في حديث - قال: (سميت جمع لأن آدم جمع فيها بين الصلاتين: المغرب والعشاء، وسمي الأبطح؛ لأنَّ آدم أمر أن ينبطح في بطحا جمع فانبطح حتى انفجر الصبح، ثم أمر أن يصعد جبل جمع، وأمر إذا طلعت عليه الشمس أن يعترف بذنبه ففعل ذلك آدم، وإنما جعل اعترافاً ليكون سنة في ولده، فقرَّب قريباً فأرسل الله ناراً من السماء فقبضت قربان آدم عليه السلام) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١١ / ٢٣٨ - ٢٣٩.

٢- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إنَّ أول من رمى الجمار آدم عليه السلام. وقال: أتى جبرئيل إبراهيم عليه السلام فقال: إرم يا إبراهيم، فرمى جمرة العقبة، وذلك أنَّ الشيطان تمثل له عندها) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٤ / ٢٦٤.

وورد بنفس المضمون تقريباً في مصادر سنية، منها: (عن عثمان بن ساج قال: حدثت أن آدم عليه السلام خرج حتى قدم مكة فبني البيت فلما فرغ من بنائه قال أي رب أن لكل أجيراً أجراً وأن لي أجراً؟ قال: نعم فاسألني، قال: أي رب تردني من حيث أخرجتني، قال: نعم ذلك لك، قال: أي رب ومن خرج إلى هذا البيت من ذريتي يقر على نفسه بمثل الذي قررت به من ذنوبي أن تغفر له، قال: نعم ذلك لك) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرق: ١ / ٤٣.

بذني فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذني فاغفر لي انك خير الغافرين سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذني فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم" فبقي إلى أن غابت الشمس رافعاً يديه إلى السماء يتضرع ويبكي إلى الله فلما غابت الشمس رده إلى المشعر فبات بها فلما أصبح قام على المشعر الحرام فدعا الله تعالى بكلمات وتاب الله ثم أفضى إلى منى وأمره جبرئيل أن يحلق الشعر الذي عليه فحلقه ثم رده إلى مكة فأتى به عند الجمرة الأولى فعرض له إبليس عندها فقال يا آدم أين تريد ؟ فأمره جبرئيل أن يرميه بسبع حصيات فرمى وان يكبر مع كل حصاة تكبيرة ففعل ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثانية فأمره أن يرميه بسبع حصيات فرمى وكبر مع كل حصاة تكبيرة ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثالثة فأمره أن يرميه بسبع حصيات عند كل حصاة تكبيرة فذهب فذهب إبليس لعنه الله وقال له جبرئيل إنك لن تراه بعد هذا اليوم أبداً، فانطلق به إلى البيت الحرام وأمره أن يطوف به سبع مرات ففعل فقال له: إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِلَ تَوْبَتَكَ وَحَلَّتْ لَكَ زَوْجَتُكَ قَالَ: فلما قضى آدم حجه لقيته الملائكة بالأبطح فقالوا: يا آدم بَرَّحَكَ أَمَا إِنَّا قَدْ حَجَجْنَا قَبْلَكَ هَذَا الْبَيْتَ بِأَلْفِي عَامٍ (١).

شعائر الحج التي أقامها نبي الله آدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة، قام بها المسلمون في زمن إبراهيم عليه السلام، كما يقوم بها المسلمون اليوم. وعموماً، تفاصيل كثيرة في الأديان الإبراهيمية نجد أصولها في دين آدم وأبنائه الأوصياء الأوائل وصولاً إلى نوح عليه السلام وهكذا إلى إبراهيم عليه السلام الذي تنتسب له الأديان الإبراهيمية الثلاثة الكبرى، وهذا يؤكد أنَّ الدين عند الله واحد.

وعلى رأس تعاليم آدم عليه السلام هو التعريف بمقام الرسول محمد صلى الله عليه وآله، وكذا التعريف بأوصيائه الذين بهم يختم الله رسالاته في هذا العالم.

١- تفسير القمي، علي بن إبراهيم: ١ / ٤٤ - ٤٥. "بَرَّحَكَ": أي حج مبرور ومقبول، كما يقال للحاج عادة بعد عودته من الحج.

آدم والرسول محمد (ص):

الدين الإلهي الذي بعث الله به رسله (أي رسول من رسله) يعتمد في جانب كبير من تعاليمه وإرشاداته على الموعظة والاعتبار بما جرى مع الرسل الماضين على بعثة الرسول الإلهي الفعلي، والقرآن الكريم (على سبيل المثال) مليء بقصص الرسل الماضين وما جرى معهم؛ لأجل هذا الغرض، أي: أخذ الموعظة والعبرة، قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" يوسف: ١١١.

استعراض سير الماضين من رسل الله يفتح بصيرة المؤمن العاقل الفطن ويدفعه نحو الاقتداء بالرسول، وأيضاً: الاتعاظ بحال أممهم وأقوامهم وعدم تكرار الأخطاء التي مورست بحق رسل الله، فالأمر – والحال هذه – فيه تسهيل لمهمة الناس المبتلين حالياً (بحسب الفرض) بدعوة رسول إلهي بينهم.

وبالنسبة لآدم عليه السلام، فلم يكن قد سبقه رسول إلهي على الأرض ليقوم بعرض سيرهم وما جرى معهم على قومه، ولذلك فالمتوقع من آدم عليه السلام – إن أراد من قومه الاتعاظ بحال الرسل وأممهم – هو أن يذكر لهم سير الرسل الآتين والمستقبليين الذين عرفهم وعرف قصصهم وما يجري عليهم عند بعثهم في أزمنتهم بوحى من الله. ولهذا من يطالع نصوص الدين الإلهي السومري لاحقاً يجدها مليئة بالإخبارات المستقبلية التي بثها آدم ومن تلاه من رسل الله التي تخص بعض الرسل الآتين الذين يشكّلون علامات مهمة في طريق الله ومسيرة الدين الإلهي عموماً، ولما اكتشفت الكتابة في سومر في وقت متأخر بعد طوفان نوح عليه السلام دوّنت تلك القصص النبوية التي تحكي مستقبلاً آتياً، وسيتم بحث هذه المسألة بتفصيل أكثر لاحقاً.

وبالتأكيد على رأس من ذكرهم آدم والأوصياء الأوائل التالين له، هم: محمد وآل محمد صلوات الله عليهم؛ باعتبار أنهم سادة رسل الله، وهم مبدأ وختام الرسالات الإلهية وهدفها، ولهذا كانوا آخر رسل الله مبعثاً، والهدف – كما نعرف – يمثل خلاصة الفعل ويتحقق في نهاية المطاف عادة، وكل ما سبق يمثل تمهيداً له، ولهذا وجدنا جميع رسل الله

الذين سبقوهم استحضروهم في رسالاتهم وعرفوا أقوامهم بهم وبفضلهم، وهو أمر ابتداء بآدم عليه السلام، وهذه حقيقة أكدتها روايات متواترة (١).

معرفة آدم عليه السلام بالرسول محمد وآله صلوات الله عليهم وتعلقه بهم بدأت منذ لحظة صدور الخطيئة منه في جنة السماء الأولى التي امتحن فيها وأُخرج منها بسبب خطئه ثم نزوله إلى الأرض و اتصال نفسه بجسده لما حان وقته، كما تقدم بيان ذلك. إذ لا شك أنّ عوالم الخلق "عرش الله" لا تنحصر بعالمنا الجسماني الأرضي، وإنما هي عوالم وليست عالماً واحداً، قال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" الفاتحة: ٢، "إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

١- هذا مثال لها:

- (عن معمر بن راشد، عن الصادق عليه السلام - في حديث - قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه، ولكي أقول: إنّ آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي، فغفرها له،) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ٧ / ١٠٠.

- (عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما أكل آدم عليه السلام من الشجرة رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمد إلا رحمتي، فأوحى الله إليه ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: يا آدم إنه لأخر النبيين من ذريتك، فلولاً محمد ما خلقتك) قصص الأنبياء، الراوندي: ٥٤ - ٥٥.

- (عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عليه السلام قال: ان آدم صلوات الله عليه لما أكرمه الله تعالى بإسجاده ملائكته له وبإدخاله الجنة ناداه الله: ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فنظر فوجد عليه مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وزوجته فاطمة سيده نساء العالمين، والحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، فقال آدم عليه السلام: يا رب من هؤلاء؟ قال عز وجل: هؤلاء ذريتك لولاهم ما خلقتك) قصص الأنبياء، الراوندي: ٤٨.

- (عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما تكاملت النبوة لنبي في الأظلة حتى عرضت عليه ولايتي وولاية أهل بيتي ومثلوا له فأقروا بطاعتهم وولايتهم) بصائر الدرجات، الصفار: ٩٣.

- (عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: "أعطى الله محمداً صلى الله عليه وآله مثل ما أعطى آدم عليه السلام فمن دونه من الأوصياء كلهم يا جابر هل يعرفون ذلك) بصائر الدرجات، الصفار: ١٣٧.

- الإمام الكاظم صلوات الله عليه: (ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ووصية علي عليه السلام) الكافي، الكليني: ١ / ٤٣٧.

- الإمام الصادق عليه السلام: (ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبياً قط إلا بها). (ما من نبي جاء قط إلا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على من سوانا) نفس المصدر.

الْعَالَمِينَ" المائدة: ٢٨، "تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" الأعراف: ٥٤. خلق الله عوالم متعددة، فلدينا عوالم أنفس وهي أسبق وأرقى من عالمنا الأرضي كما عرفنا سابقاً، ولدينا عوالم أرواح وهي أرقى وأسبق من عوالم الأنفس، وهكذا صولاً إلى عالم العقل في السماء السابعة. وبالتالي، فكون محمد وآل محمد صلوات الله عليهم آخر رسل الله خلقاً وبعثاً على هذه الأرض لا يعني أنهم كذلك في العوالم العليا، بل العكس هو الصحيح، بمعنى أَنَّ خلقهم أسبق؛ لأنهم أعلى مقاماً من آدم عليه السلام وبقية الرسل كما أكدت النصوص الدينية ذلك، ولهذا كان الرسول محمد صلى الله عليه وآله يقول:

- "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" ^(١).
- "كنت (جُعِلْتُ، كُتِبْتُ) نبياً وآدم بين الروح والجسد" ^(٢).
- عن أبي هريرة قال: "قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد" ^(٣).

النصوص التي توضح معرفة آدم عليه السلام بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم وردت عن أوصياء الرسول محمد صلى الله عليه وآله، ومنها:

- ١- تأويل آية: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" البقرة: ٣٧. حيث ورد عنهم صلوات الله عليهم أَنَّ الكلمات هم محمد وآله ^(٤).

١- عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي: ٤ / ١٢١.

٢- مسند أحمد: ٤ / ٦٦، ٥ / ٥٩؛ كنز العمال، المتقي الهندي: ١١ / ٤٠٩. روى الحاكم النيسابوري بسنده: (عن ميسرة الفخر قال: قلت لرسول الله متى كنت نبياً؟ قال: وآدم بين الروح والجسد. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) المستدرک على الصحيحين: ٢ / ٦٠٩..

٣- سنن الترمذي: ٥ / ٢٤٥.

٤- هذه بعض النصوص التي تؤكد ذلك:

- (عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، قال: سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا ثبت علي فتاب الله عليه) معاني الأخبار، الصدوق: ١٢٥.

ملاحظتان؛ الأولى: بحسب النصوص الدينية المتقدمة، فإن آية: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" البقرة: ٣٧، ورد فيها معنيان؛ الأول: أن آدم عليه السلام سأل الله بالخمس الطاهرين (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) صلوات الله عليهم أن يتوب عليه. والثاني: أنه سأل الله فقال: "سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ... إلخ"

- عن ابن عباس، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما نزلت الخطيئة بآدم، وأخرج من الجنة، أتاه جبرئيل فقال: يا آدم ادع ربك، فقال: يا حبيبي جبرئيل، بما أدعو؟ قال: قل رب أسألك بحق الخمسة الذين تخرجهم من صلي آخر الزمان، إلا تبت علي ورحمتي، فقال له آدم عليه السلام: يا جبرئيل، سقم لي، قال: قل: اللهم بحق محمد نبيك، وبحق علي وصي نبيك، وبحق فاطمة بنت نبيك، وبحق الحسن والحسين سيدي نبيك، إلا تبت علي فارحمني، فدعا بهن آدم، فتاب الله عليه، وذلك قول الله: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه" وما من عبد مكروب، يخلص النية، ويدعو بهن، إلا استجاب الله له) تفسير فرات الكوفي: ٥٧ - ٥٨: مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ٢٣٨ / ٥ - ٢٣٩.

- (عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه من روحه عطس فألهمه الله: الحمد لله رب العالمين، فقال له ربه: يرحمك ربك، فلما أسجد له الملائكة تداخله العجب فقال: يا رب خلقت خلقاً أحب إليك مني؟ فلم يجب، ثم قال الثانية فلم يجب، ثم قال الثالثة فلم يجب، ثم قال الله عز وجل له: نعم ولولا هم ما خلقتك، فقال: يا رب فأرنيهم، فأوحى الله عز وجل إلى ملائكة الحجب: أن ارفعوا الحجب. فلما رفعت إذا آدم بخمسة أشباح قدام العرش، فقال: يا رب من هؤلاء؟ قال: يا آدم هذا محمد نبي، وهذا علي أمير المؤمنين ابن عم نبي ووصيه، وهذه فاطمة ابنة نبي وهذان الحسن والحسين ابنا علي وولدا نبي. ثم قال: يا آدم هم ولدك وفرح بذلك، فلما اقترب الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين لما غفرت لي فغفر الله له بهذا، فهذا الذي قال الله عز وجل "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه" فلما هبط إلى الأرض صاغ خاتماً فنقش عليه "محمد رسول الله وعلي أمير المؤمنين" ويكنى آدم بأبي محمد) بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ١٧٥.

- عن أبي سعيد الخدري عن الرسول صلى الله عليه وآله في حديث طويل قال فيه: (..... وإن أبي آدم عليه السلام لما رأى اسمي واسم علي وابنتي فاطمة والحسن والحسين، وأسماء أولادهم مكتوباً على ساق العرش بالنور قال: إلهي وسيدي هل خلقت خلقاً هو أكرم عليك مني؟ فقال: يا آدم لولا هذه الأسماء لما خلقت سماء مبنية، ولا أرضاً مدحية ولا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلأ ولا خلقتك يا آدم، فلما عصى آدم ربه سألته بحقنا أن يقبل توبته، ويغفر خطيئته فأجابته وكنا الكلمات التي تلقاها آدم من ربه عز وجل فتاب عليه وغفر له فقال له: يا آدم أبشرفاً هذه الأسماء من ذريتك وولدك فحمد آدم ربه عز وجل و افتخر على الملائكة بنا وأن هذا من فضلنا وفضل الله علينا) روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ٨٤.

- (عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال آدم صلوات الله عليه: يا رب بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي، فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم وما علمك بمحمد؟ فقال: حين خلقتني رفعت رأسي، فرأيت في العرش مكتوباً: محمد رسول الله علي أمير المؤمنين) قصص الأنبياء، الراوندي: ٥٥.

كما تقدم في رواية الإمام الصادق عليه السلام^(١)، ولا مانع من أن يكون السؤال تكرر من آدم عليه السلام أكثر من مرة، ولا أقل سأل الله أن يتوب عليه بالنعوين المذكورين في النصوص، وبالتالي فلا منافاة بين النصوص أصلاً.

الثانية: معرفة آدم عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وآله لم تقتصر نصوصه على مصادر المسلمين الشيعة وإنما ورد في بعض المصادر السنية أيضاً^(٢).

٢- تأويل آية: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَبَّيْ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً" طه: ١١٥.

أنبياء أولي العزم خمسة، هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، ولم يكن من بينهم آدم عليهم السلام^(٣)، والسبب له علاقة بمحمد وآل محمد

١- تقدمت الرواية في تفسير القمي: ١ / ٤٤ - ٤٥. ونفس مضمونها تقريباً ورد في مصادر سنية، منها: (عن أنس في قوله عز وجل "فالتقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم" قال: سبحانه اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمي إنك أنت أرحم الراحمين لا إله إلا أنت سبحانه وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم وذكر أنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ولكن شك فيه) شعب الإيمان، البيهقي: ٥ / ٤٣٤.

٢- كمثال: (عن كعب الأحبار أن الله أنزل على آدم عليه السلام عصياً بعدد الأنبياء المرسلين ثم أقبل على ابنه شيث فقال أي بني أنت خليفتي من بعدي فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى وكل ما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإنني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش وأنا بين الروح والطين كما أني طفت السماوات فلم أرفي السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه وإن ربي أسكنني الجنة فلم أرفي الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوباً ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين وعلى ورق قصب أجام الجنة وعلى ورق شجرة طوبى وعلى ورق سدرة المنتهى وعلى أطراف الحجب وبين أعين الملائكة فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر: ٢٣ / ٢٨٠ - ٢٨١.

٣- عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن أول وصي كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم وما من نبي مضى إلا وله وصي وكان جميع الأنبياء مائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، منهم خمسة أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وإن علي بن أبي طالب كان هبة الله لمحمد، وورث علم الأوصياء، وعلم من كان قبله، أما إن محمداً ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين.

على قائمة العرش مكتوب: "حمزة أسد الله وأسود رسوله وسيد الشهداء، وفي ذؤابة العرش علي أمير المؤمنين" فهذه حجتنا على من أنكروا حقنا، وجحد ميراثنا، وما منعنا من الكلام وأماننا اليقين، فأبي حجة تكون أبلغ من هذا) الكافي، الكليني: ١ / ٢٢٤.

صلوات الله عليهم أيضاً، وبالمهدي من آل محمد بالخصوص، وهذا ما أكدته النصوص أيضاً^(١).

الارتباط بين رسل الله وبين سادة الرسل (محمد وآل محمد صلوات الله عليهم) وثيق، ولم ينفرد آدم عليه السلام بهذا الارتباط كما سيتضح عند عرض بعثات الرسل الإلهيين الآتين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم.

وبالنسبة لآدم صلوات الله عليه، فلم يكن يكتفي بالتوسل إلى الله بمحمد وآله، ولا أنه اقتصر على تعريف قومه بهم وبفضلهم، ولا أنه اكتفى بأن يكتفي نفسه بأفضل ولده على الأرض وهو (محمد صلى الله عليه وآله) كما ورد في النص الديني، وإنما كان لا يفارقه "محمد" حتى وهو يقرب القرابين عن ولده الأوصياء (المهمين منهم) من بعده^(٢).

١- وهي كثيرة، منها:

- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: ("ولقد عهدنا إلى آدم من قبل" كلمات في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام من ذريتهم "فنسي" هكذا والله نزلت على محمد صلى الله عليه وآله) الكافي، الكليني: ٤١٦/١.

- عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً" قال: (عهدنا إليه في محمد والأئمة من بعده، فترك ولم يكن له عزم أنهم هكذا وإنما سمي أولوا العزم أولي العزم لأنه عهد إليهم في محمد والأوصياء من بعده والمهدي وسيرته وأجمع عزمهم على أن ذلك كذلك والاقرار به) الكافي، الكليني: ٤١٦/١.

- وعنه أيضاً: (إن الله تبارك وتعالى حيث خلق الخلق ثم أخذ الميثاق على النبيين، فقال: أأست بربكم وأن هذا محمد رسولي وأن هذا علي أمير المؤمنين؟ قالوا: بلى فثبتت لهم النبوة وأخذ الميثاق على أولي العزم أنني ربكم ومحمد رسولي وعلي أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولادة أمري وخزان علي عليهم السلام وأن المهدي أنتصر به لديني وأظهره دولتي وأنتقم به من أعدائي وأعبد به طوعاً وكرهاً قالوا: أقررنا يا رب وشهدنا، ولم يجحد آدم ولم يقر فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة في المهدي ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به وهو قوله عز وجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً" (... الكافي، الكليني: ٨/٢).

٢- قيل للإمام الصادق عليه السلام: (لم كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب الذراع أكثر منه لحبه لأعضاء الشاة؟ فقال: إن آدم قرب قرباناً عن الأنبياء من ذريته، فسقى لكل نبي من ذريته عضواً، وسقى لرسول الله صلى الله عليه وآله الذراع، فمن ثمة كان يحبها ويشتهيها ويفضلها) الكافي، الكليني: ٣١٥/٦.

وأيضاً: روي عن الإمام الرضا صلوات الله عليه أنه قال: (كان نقش خاتم آدم عليه السلام: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. هبط به معه) ^(١).

آدم والحسين:

هذه بعض النصوص التي تؤكد معرفة آدم عليه السلام بالحسين صلوات الله عليه وما يجري عليه من مصيبة مستقبلية بالنسبة لزمانه الذي كان فيه:

(روي مرسلًا أنَّ آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض لم يرحواء فصاريطوف الأرض في طلبها فمر بكربلاء فاغتم وضاق صدره من غير سبب، وعثر في الموضع الذي قتل فيه الحسين عليه السلام، حتى سال الدم من رجليه، فرفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي هل حدث مني ذنب آخر فعاقبتني به؟ فإني طفت جميع الأرض، وما أصابني سوء مثل ما أصابني في هذه الأرض. فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما حدث منك ذنب، ولكن يقتل في هذه الأرض ولدك الحسين عليه السلام ظلماً، فسال دمك موافقة لدمه، فقال آدم: يا رب أكون الحسين عليه السلام نبياً؟ قال: لا. ولكنه سبط النبي محمد صلى الله عليه وآله، فقال: ومن القاتل له؟ قال: قاتله يزيد لعين أهل السماوات والأرض، فقال آدم: فأني شئ أصنع يا جبرئيل؟ فقال: العنه يا آدم، فلعنه أربع مرات ومشي خطوات إلى جبل عرفات فوجد حواء هناك) ^(٢).

واضح أنَّ الرواية تشير إلى فترة الإعداد التي حصلت لأدم عليه السلام قبل ولادته على هذه الأرض لأداء الامتحان الثاني، ومرحلة الإعداد – كما تقدم – كانت بعد إخراج آدم من جنة السماء الأولى وهبوط نفسه إلى الأرض مع حواء لأجل الإعداد والتهيئة لارتباط نفسيهما بجسديهما وولادة كل منهما من أبوين كما تقدم تفصيله في بحث "خلق آدم والنفس الإنسانية"، وقد أعلمه الله بما سيجري على الحسين سبط حبيبه محمد صلى الله عليه وآله.

١- الأمالي، الصدوق: ٥٤٢.

٢- بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤ / ٢٤٢ – ٢٤٣: العوالم (الإمام الحسين)، عبد الله البحراني: ١٠١.

وأيضاً: (روى صاحب الدر الثمين في تفسير قوله تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات" أنه رأى ساق العرش وأسماء النبي والأئمة عليهم السلام، فلقنه جبرئيل عليه السلام قال: يا حميد بحق محمد، يا عالي بحق علي، يا فاطر بحق فاطمة، يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الاحسان. فلما ذكر الحسين عليه السلام سالت دموعه وانخسع قلبه، وقال: يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟ قال جبرئيل: ولذلك هذا يصاب بمصيبة تصغر عنده المصائب، فقال: يا أخي وما هي؟ قال: يقتل عطشاً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول وا عطشاه وا قلة ناصرته، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدهان، فلم يجبه أحداً إلا بالسيوف وشرب الحتوف، فيذبح ذبح الشاة من قفاه، وينهب رحله أعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان، ومعهم النسوان، كذلك سبق في علم الواحد المنان، فبكى آدم وجبرئيل عليه السلام بكاء الثكلى)^(١).

معصية آدم (ع) وتوبته:

قال تعالى: "فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوْجَكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى" طه: ١١٧ - ١٢٢.

ربما يتوهم كثير من المفسرين والمحدثين أنّ الله نهى آدم عليه السلام عن الاقتراب من شجرة معينة في هذه الأرض، لكنه اقترب منها وصدرت منه المخالفة في هذا العالم الأرضي!

لكن الصحيح أنّ المخالفة أمر حصل في السماء الأولى قبل إنزال آدم إلى الأرض، وقد عرضنا سابقاً مسألة خلق آدم عليه السلام وأنّ البداية كانت في السماء الأولى "عالم الأنفس" وتحديدًا في جنة السماء الأولى التي لا جوع فيها ولا ظمأ ولها قوانين خاصة

١- بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤ / ٢٤٥: العوالم (الإمام الحسين)، عبد الله البحراني: ١٠٤.

تنسجم مع عالمها "عالم السماء الأولى" كما تقدم بيانه بالتفصيل، ثم لما أراد الله إنزال آدم عليه السلام إلى الأرض وضعه في الجنة (جنة السماء الأولى) ونهاه عن الاقتراب من الشجرة والأكل منها، لكنه أخطأ و اقترب منها وأكل، فأخرجه الله من الجنة التي كان فيها وأنزله إلى الأرض كنفس ثم لما حان وقته وزمانه اتصلت نفسه الإنسانية بجسده وولد من أبوين كما ذكرنا^(١).

مخالفة آدم عليه السلام كانت بسبب وسوسة إبليس لعنه الله^(٢)، ولما كانت الحادثة سماوية (في جنة السماء الأولى)، فينبغي معرفة معنى "الشجرة" ورمزيتها ضمن مفاهيم وقوانين السماء الأولى، وقد أوضحت النصوص الدينية هذا الأمر:

(عن الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها: فمنهم من يروي أنها الحنطة، ومنهم من يروي أنها العنب، ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد، فقال: كل ذلك حق. قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال: يا أبا الصلت إن شجر الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب، وليست كشجر الدنيا، وإن آدم عليه السلام لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاد ملائكته له وبإدخاله الجنة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه، فناده: ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وزوجه فاطمة سيدة نساء العالمين، والحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة" فقال آدم عليه السلام: يا رب من هؤلاء؟ فقال عز وجل: من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولا هم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء

١- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (لما أخرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا آدم أليس الله خلقك بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وزوجك حواء أمته، وأسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله؟ فقال آدم عليه السلام: يا جبرئيل إن إبليس حلف لي بالله إنه لي ناصح، فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً) تفسير القمي، علي بن إبراهيم: ١ / ٢٢٥.

٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: (رأى إبليس أربع رئات: أولهن يوم لعن، وحين اهبط إلى الأرض، وحين بعث محمد صلى الله عليه وآله على حين فترة من الرسل، وحين أنزلت أم الكتاب، ونخر نخريتين: حين أكل آدم من الشجرة، وحين اهبط من الجنة) الخصال، الصدوق: ٢٦٣.

والأرض، فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جواري. فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم فتسلط الشيطان عليه حتى أكل من الشجرة التي نهي عنها. وتسلبت على حواء لنظرها إلى فاطمة عليها السلام بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل آدم فأخرجهما الله عزوجل عن جنته، وأهبطهما عن جواره إلى الأرض) (١).

واضح أنّ الشجرة تعني علم ومقام محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، ولما كانت خطيئة آدم عليه السلام لها علاقة بالتجاوز على مختصاتهم، كانوا هم السبب في أن يقبل الله توبته، وقد عرضنا سابقاً الروايات التي أكدت أنّ محمداً وآل محمد هم "الكلمات" التي تعلّمها آدم من ربه فتأب عليه.

ثم بعد صدور الخطيئة من آدم عليه السلام، اقتضت مشيئة الله أن يكون صدور الذنب والتوبة منه سنة في ولده: قال الإمام الباقر عليه السلام: (لولا أنّ آدم أذنب ما أذنب مؤمن أبداً، ولولا أنّ الله عزوجل تاب على آدم ما تاب على مذنب أبداً) (٢).

وقد تقدم في بحث "دين آدم" بعض النصوص التي بيّنت حكمة تشريع الحج ورأينا أنّ لها علاقة بغفران ذنوب العباد، وهذا نص آخر يؤكد ذلك:

قال الإمام الصادق عليه السلام: (إنّ آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض أهبط على الصفا ولذلك سمي الصفا لأن المصطفى هبط عليه فقطع للجبل اسم من اسم آدم يقول الله عزوجل: "إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" وأهبطت حواء على المروة وإنما سميت المروة مروة لأن المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة وهما جبلان عن يمين الكعبة وشمالها فقال آدم حين فرق بينه وبين حواء ما فرق بيني وبين زوجتي إلا وقد حرمت علي فاعتزلها وكان يأتيها بالنهار فيتحدث إليها فإذا كان الليلة خشي أن تغلبه نفسه عليها رجع فبات على الصفا ولذلك سميت النساء لأنه لم يكن لآدم انس غيرها فمكث آدم بذلك ما شاء الله أن يمكث لا يكلمه الله ولا يرسل إليه رسولا والرب سبحانه يباهي بصبره الملائكة فلما بلغ الوقت الذي يريد الله عزوجل أن

١- عيون أخبار الرضا، الصدوق: ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥.

٢- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٨٤.

يتوب على آدم فيه أرسل إليه جبرئيل عليه السلام فقال: السلام عليك يا آدم الصابر لبليته التائب عن خطيئته إن الله عزوجل بعثني إليك لأعلمك المناسك التي يريد الله أن يتوب عليك بها فأخذ جبرئيل عليه السلام بيد آدم عليه السلام: حتى أتى به مكان البيت فنزل غمام من السماء فأظل مكان البيت فقال جبرئيل عليه السلام: يا آدم خط برجلك حيث أظل الغمام فإنه قبلة لك ولآخر عقبك من ولدك فخط آدم برجله حيث أظل الغمام ثم انطلق به إلى منى فأراه مسجد منى فخط برجله ومد خطة المسجد الحرام بعد ما خط مكان البيت ثم انطلق به من منى إلى عرفات فأقامه على المعرف فقال: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبك سبع مرات وسل الله المغفرة والتوبة سبع مرات ففعل ذلك آدم عليه السلام ولذلك سمي المعرف لأن آدم اعترف فيه بذنبه وجعل سنة لولده يعترفون بذنوبهم كما اعترف آدم ويسألون التوبة كما سألتها آدم، ثم أمره جبرئيل فأفاض من عرفات فمر على الجبال السبعة فأمره أن يكبر عند كل جبل أربع تكبيرات ففعل ذلك آدم حتى انتهى إلى جمع فلما انتهى إلى جمع ثلث الليل فجمع فيها المغرب والعشاء الآخرة تلك الليلة ثلث الليل في ذلك الموضع ثم أمره أن ينبطح في بطحاء جمع فانبطح في بطحاء جمع حتى انفجر الصبح فأمره أن يصعد على الجبل جبل جمع وأمره إذا طلعت الشمس أن يعترف بذنبه سبع مرات ويسأل الله التوبة والمغفرة سبع مرات ففعل ذلك آدم كما أمره جبرئيل عليه السلام وإنما جعله اعترافين ليكون سنة في ولده فمن لم يدرك منهم عرفات وأدرك جمعا فقدوا في حجه [إلى منى] ثم أفاض من جمع إلى منى فبلغ منى ضحى فأمره فصلى ركعتين في مسجد منى ثم أمره أن يقرب لله قربانا ليقبل منه ويعرف أن الله عزوجل قد تاب عليه ويكون سنة في ولده القربان، فقرب آدم قربانا فقبل الله منه فأرسل نارا من السماء فقبلت قربان آدم، فقال له جبرئيل: يا آدم إن الله قد أحسن إليك إذ علمك المناسك التي يتوب بها عليك وقبل قربانك، فأحلق رأسك تواضعا لله عزوجل إذ قبل قربانك فحلق آدم رأسه تواضعا لله عزوجل ثم أخذ جبرئيل بيد آدم عليه السلام فانطلق به إلى البيت فعرض له إبليس عند الجمرة فقال له إبليس لعنه الله: يا آدم أين تريد؟ فقال له جبرئيل عليه السلام: يا آدم ارمه بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم فذهب إبليس، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فقال له: يا آدم أين تريد؟ فقال له جبرئيل عليه السلام: ارمه بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم فذهب إبليس، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فقال له: يا آدم أين تريد؟ فقال له جبرئيل عليه السلام: ارمه بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة تكبيرة، ففعل ذلك آدم، فذهب إبليس، فقال له جبرئيل

عليه السلام: إنك لن تراه بعد مقامك هذا أبدا ثم انطلق به إلى البيت فأمره أن يطوف بالبيت سبع مرات ففعل ذلك آدم فقال له جبرئيل عليه السلام: إن الله قد غفر لك ذنبك وقبل توبتك وأحل لك زوجتك (١).

الروايات التي ذكرت توبة آدم ومنها هذه الرواية تشير إلى توبته بعد نزول نفسه إلى الأرض وقبل اتصالها بالجسد المادي على الأرض لأداء الامتحان الثاني، أي بالتحديد في مرحلة "الإعداد" التي تحدثنا عنها في مبحث "خلق آدم والنفس الإنسانية"، ومرحلة الإعداد هذه ذكرت روايات عديدة بعنوان "هبوط أو نزول آدم وحواء"، منها الرواية أعلاه، وهناك أمثلة أخرى (٢).

١- الكافي، الكليني: ٤ / ١٩١ - ١٩٤.

٢- منها: عن الإمام الباقر عليه السلام، عن أبياته عليهم السلام: (إن الله عز وجل أوحى إلى جبرئيل عليه السلام: أنا الله الرحمن الرحيم، إني قد رحمت آدم وحواء لما اشتكيا إلي ما شكيا فاهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة فإني قد رحمتكما لبعائكما ووحشتكما ووحدتكما، فاضرب الخيمة على النزعة بين جبال مكة، قال: والنزعة مكان البيت وقواعده التي رفعها الملائكة قبل آدم، فهبط جبرئيل على آدم عليه السلام بالخيمة على مقدار أركان البيت وقواعده فنصبها، قال: وأنزل جبرئيل عليه السلام آدم من الصفا وأنزل حواء من المروة وجمع بينهما في الخيمة، قال: وكان عمود الخيمة قضيباً من ياقوت أحمر فأضاء نوره وضوؤه جبال مكة وما حولها، قال: فامتد ضوء العمود فهو مواضع الحرم اليوم من كل ناحية من حيث بلغ ضوؤه، قال: فجعله الله عز وجل حراماً لحرمة الخيمة والعمود لأنهما من الجنة، قال: ولذلك جعل الله عز وجل الحسنات في الحرم مضاعفات والسيئات مضاعفة، قال: ومدت أطناها حولها فمتمت أوتادها ما حول المسجد الحرام، قال: وكانت أوتادها صخرًا من عقيان الجنة، وأطناها من ظفائر الأرجوان، قال: وأوحى الله عز وجل إلى جبرئيل عليه السلام: اهبط على الخيمة بسبعين ألف ملك يحرسونها من مردة الشيطان، ويؤنسون آدم، ويطوفون حول الخيمة تعظيماً للبيت والخيمة، قال: فهبط بالملائكة فكانوا يحضرون الخيمة يحرسونها من مردة الشيطان ويطوفون حول أركان البيت والخيمة كل يوم وليلة كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور قال: وأركان البيت الحرام في الأرض حيال البيت المعمور الذي في السماء، قال: ثم إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى جبرئيل عليه السلام بعد ذلك: أن اهبط إلى آدم وحواء فنجهما عن موضع قواعد بيتي، وارفع قواعد بيتي للملائكة واخلقي من ولد آدم، فهبط جبرئيل عليه السلام على آدم وحواء فأخرجهما من الخيمة ونحاهما عن نزعة البيت ونحى الخيمة عن موضع النزعة، قال: ووضع آدم على الصفا وحواء على المروة، فقال آدم على نبيينا وآله وعليه السلام: يا جبرئيل أسخط من الله تعالى جل ذكره حولتنا وفرقت بيننا، أم برضى تقديراً علينا؟ فقال لهما: لم يكن بسخط من الله تعالى ذكره عليكما، ولكن الله عز وجل لا يسأل عما يفعل، يا آدم إن السبعين ألف ملك الذين أنزلهم الله عز وجل إلى الأرض ليؤنسونك ويطوفوا حول أركان البيت والخيمة سألوا الله عز وجل أن يبني لهم مكان الخيمة بيتاً على مواضع النزعة المباركة حيال البيت المعمور فيطوفون حوله كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور، فأوحى الله تبارك وتعالى إلي: أن أنحك وأرفع

أبونا آدم صلوات الله عليه، أورثته الخطيئة التي حصلت منه البكاء والدموع حتى عدّ أحد البكائين الخمسة في خط الرسائل الإلهي منذ فجره حتى غروبه^(١).

هل تؤثر معصية آدم على عصمته؟

يتصف جميع خلفاء الله (أنبياء، رسل، أئمة) عند بعثتهم وإرسالهم بالعصمة، وتعني باختصار: الاعتصام بالله عن جميع محارم الله^(٢).

العصمة ليست مرتبة واحدة وإنما مراتب، ولذا تتفاوت مقامات الرسل، قال تعالى: "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ" البقرة: ٢٥٣.

الخيمة، فقال آدم عليه السلام: رضينا بتقدير الله عز وجل ونافذ أمره فينا، فرفع قواعد البيت بحجر من الصفا وحجر من المروة وحجر من طور سيناء وحجر من جبل السلام وهو ظهر الكوفة، فأوحى الله عز وجل إلى جبرئيل عليه السلام: أن ابنه وأتمه، فاقتلع جبرئيل عليه السلام الأحجار الأربعة بأمر الله عز وجل من مواضعها بجناحه، فوضعها حيث أمره الله تعالى في أركان البيت على قواعد التي قدرها الجبار جل جلاله، ونصب أعلامها، ثم أوحى الله إلى جبرئيل: ابنه وأتمه من حجارة من أبي قبيس واجعل له باين: باباً شرقاً، وباباً غرباً، قال: فأتمه جبرئيل عليه السلام، فلما فرغ طافت الملائكة حوله، فلما نظر آدم وحواء إلى الملائكة يطوفون حول البيت انطلقا فطافا سبعة أشواط ثم خرجا يطلبان ما يأكلان) الكافي، الكليني: ٤ / ١٩٥ - ١٩٧.

ومنها: (عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك وشكا إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له فيهبط عليه فأذن له فهبط عليه فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلما رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة - قال أبو عبد الله عليه السلام يروون أنه أسمع عامة الخلق - فقال له الملك: يا آدم ما أراك إلا قد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق، أتدري ما قال الله لنا فيك فرددنا عليه؟ قال: لا قال: قال: "إني جاعل في الأرض خليفة" قلنا: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" فهو خلقك أن تكون في الأرض يستقيم أن تكون في السماء؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله عزى بها آدم ثلاثاً) تفسير العياشي: ١ / ٣٢.

١- قال الإمام الصادق عليه السلام: (البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين عليه السلام، فأما آدم فبكي على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية، ...) الأمالي، الصدوق: ٢٠٤.

٢- روى الصدوق بسنده عن: (حسين الأشقر، قال: قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم: "إن الامام لا يكون إلا معصوماً" فقال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك فقال: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال الله تبارك وتعالى: "ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم") معاني الأخبار: ١٣٢.

وأيضاً: العصمة لها حد أدنى يشترك فيه جميع المعصومين، والعصمة بحدودها الدنيا تعني: أنّ المعصوم لا يخرج الناس من حق وهدى إلى باطل وضلال أبداً.

وللعصمة جهة أخرى لا دخل للناس بها وهم غير معنيين بها إطلاقاً، بل لها علاقة بمعصوم آخر، ومن هذه الجهة يبدو المعصوم مخطئاً عند مقارنته بمعصوم آخر أعلى منه مقاماً، تماماً كما حصل في لقاء نبي الله موسى عليه السلام بالعبد الصالح؛ اللقاء الذي قصّه القرآن الكريم في سورة الكهف^(١)، فبالرغم من أنّ موسى الكليم أخفق في مسaire العبد الصالح واعترض عليه؛ لأنه لم يعرف وجه الحكمة من قيامه بالأفعال التي قام بها: (خرق السفينة، قتل الغلام، إقامة الجدار)، لكن موسى الرسول عليه السلام (طيلة فترة رسالته) لم يخرج الناس من حق ولم يدخلهم في باطل؛ لأن اللقاء كان بين معصومين (معلم ومتعلم) ولا دخل للناس فيه.

يقول السيد أحمد الحسن:

(ومن هذا الموقف وهذه الرحلة وما حصل فيها نستطيع أن:

- نفهم معنى العصمة بوضوح.
- ونفهم أيضاً أنها مراتب.
- ونفهم أيضاً أنها بالنسبة لحجج الله منصوبي العصمة لها حد أدنى لا يمكن تجاوزه وهو الحد الذي يكونون فيه محققين لشرط النص على عصمتهم وهو أنهم لا يخرجون الناس من هدى ولا يدخلونهم في باطل.

١- قال تعالى: "قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * "الكهف: ٦٦ - ٧٨.

فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَّابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" المائدة: ٢٧ - ٣١.

"ابني آدم": هما هابيل وقابيل^(١).

لا شك أنّ حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل هي أول جريمة تحصل في مسيرة الدين الإلهي، كان ضحيتها أول الأوصياء، إذ كان هابيل وصي أبيه آدم عليه السلام، ولما علم قابيل بذلك اشتعلت في أعماقه نار الحسد (المرض الخبيث)، ولم تهدأ فورته إلا بقتل أخيه وإزهاق نفسه^(٢).

وأيضاً: أوضح أوصياء الرسول محمد صلى الله عليه وآله قصة هابيل وقابيل، وحددوا السبب في إقدام قابيل على قتل هابيل، كما أشاروا إلى انحراف قابيل وتأسيسه لعبادة النار، وأشاروا كذلك إلى أنّ الله سبحانه عوض آدم عن مقتل وصيه هابيل بولده الوصي "شيث"^(٣).

١- روي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه: أنّ الله خلق آدم في أول أيام الشهر، وولد هابيل في اليوم الرابع من الشهر، وأما قابيل فولد في اليوم الخامس منه، انظر: الدرر الواقية، ابن طاووس: ٧٩، ٨٩، ٩١.

٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: (أصول الكفر ثلاثة: الحرص، والاستكبار، والحسد، فأما الحرص فإنّ آدم عليه السلام حين نُهي عن الشجرة حملته الحرص على أن أكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى، وأما الحسد فأبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه) الكافي، الكليني: ٢ / ٢٨٩.

٣- (عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى عهد إلى آدم عليه السلام أن لا يقرب هذه الشجرة فلما بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها وهو قول الله عز وجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً"، فلما أكل آدم عليه السلام من الشجرة أُميط إلى الأرض فولد له هابيل وأخته توأم وولد له قابيل وأخته توأم، ثم إنّ آدم عليه السلام أمر هابيل وقابيل أن يقربا قرباناً وكان هابيل صاحب غنم وكان قابيل صاحب زرع فحرب هابيل كبشاً من أفاضل غنمه وقرب قابيل من زرعه ما لم ينق فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وهو قول الله عز وجل: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر - إلى آخر الآية -"، وكان القربان تأكله النار فعمد قابيل إلى النار فبني لها بيتاً وهو أول من بنى بيوت النار فقال: لأعبدن هذه النار حتى تتقبل مني قرباني. ثم إنّ إبليس لعنه الله أتاه - وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق - فقال له: يا قابيل قد تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانك وإنك إن تركته يكون له عقب يفتخرون على عقبك ويقولون نحن أبناء الذي تُقبل قربانه فاقتله كيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبك

وهذه جملة من الملاحظات على الحادثة:

١ - الوصية سبباً لحسد قابيل وقتله أخيه:

قابيل الابن الأكبر لآدم عليه السلام، وهابيل أصغر منه سنّاً لكنه طاهر تقي ورع وموضع اختصاص أبيه وتعليمه وكان وصيه بأمر الله، فلما علم قابيل بالأمر لم تطق نفسه الأمانة بالسوء ذلك ودفعه الحسد إلى الاعتراض وأنه الأولى بمقام الوصاية، فأمر الله نبيه آدم عليه السلام أن يختبرهما بتقريب القران، وكان هابيل راعياً (صاحب غنم) وقابيل فلاحاً (صاحب زرع)، فقدّم هابيل كبشاً من أجود ما عنده من غنم، بينما قدّم قابيل ضغثاً من أسوأ زرعه، فتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، فكان ذلك سبباً في حسده وقتله لأخيه الطاهر "هابيل" بتسويل من نفسه الخبيثة وإبليس لعنه الله^(١).

إجرام قابيل لم يتوقف على قتل هابيل وحسب، ولكن أيضاً تعدّى إلى أخيه الآخر "هبة الله = شيث" بعد وفاة آدم عليه السلام، إذ علم أنّ "هبة الله" هو وصي آدم فهذّده بالقتل إن هو أقدم على بيان العلم الذي اختصه به آدم عليه السلام، فاضطر هبة الله والمؤمنين به إلى الاستتار كما سيتضح.

فقتله، فلما رجع قابيل إلى آدم عليه السلام قال له: يا قابيل أين هابيل؟ فقال: اطلبه حيث قرّنا القران فانطلق آدم عليه السلام فوجد هابيل قتيلاً فقال آدم عليه السلام: لعنت من أرض كما قبلت دم هابيل وبكى آدم عليه السلام على هابيل أربعين ليلة.....) الكافي، الكليني: ١١٣/٨ - ١١٤.

وعن الإمام الصادق صلوات الله عليه: (أوحى الله إلى آدم عليه السلام أنّ قابيل عدو الله قتل أخاه، وإنّي أعقبك منه غلاماً يكون خليفتك ويرث علمك ويكون عالم الأرض وربانها بعدك، وهو الذي يدعى في الكتب شيئاً وسمّاه أبا محمد هبة الله، وهو اسمه بالعربية، ...) قصص الأنبياء، الراوندي: ٦٥ - ٦٦.

١- (عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك إنهم يزعمون أنّ قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تغايروا على أختهما؟ فقال له: يا سليمان تقول هذا؟ أما تستحي أن تروي هذا على نبي الله آدم؟ فقلت: جعلت فداك ففيم قتل قابيل هابيل؟ فقال: في الوصية، ثم قال لي: يا سليمان إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر منه، فبلغ ذلك قابيل فغضب فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية فأمرهما أن يقربا قرباناً بوحى من الله إليه ففعلا، فقبل الله قربان هابيل فحسده قابيل فقتله) تفسير العياشي: ١/٣١٢.

٢- قابيل أول من عبد النار وبنى بيوتها:

شاء الله أن تكون النار علامة قبول قربان الذي قدّمه كل من هابيل وقابيل، فالقربان المقبول هو الذي تقوم النار بأكله، والنار أكلت قربان هابيل فقط؛ الأمر الذي دعا قابيل إلى الاهتمام بأمر النار بوحى من إبليس لعنه الله حتى بلغ به الحال أن عبدها وبنى لها بيتاً، فكان أول من بنى بيوت النيران كما في الحديث المتقدم: "فعمد قابيل إلى النار فبنى لها بيتاً، وهو أول من بنى بيوت النار فقال: لأعبدن هذه النار حتى تتقبل مني قرباني".

وأيضاً: قال الإمام الصادق عليه السلام: (إنّ قابيل لما رأى النار قد قبلت قربان هابيل قال له إبليس: إنّ هابيل كان يعبد تلك النار، فقال قابيل: لا أعبد النار التي عبدها هابيل ولكن أعبد ناراً أخرى وأقرب قرباناً لها فتقبل قرباني، فبنى بيوت النار فقرب، فلم يكن له علم بربه عز وجل، ولم يرث منه ولده إلا عبادة النيران) (١).

وعموماً، قابيل كان السبب في توريث عبادة النار لذريته، وهو بلا شك أمر منافٍ لتوحيد الله الذي بعث به الرسل، لكن مع هذا استمر موضوع "عبادة النار" لدى السائرين بسيرة قابيل لاحقاً، وهي عادة خبيثة سبقت عبادة الأصنام بزمان طويل، كما سيتضح.

٣- هل تعلّم قابيل الدفن من غراب؟

قال تعالى: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" المائدة: ٣٠ - ٣١.

فهم كثير من المفسرين الآية بأنّ قابيل لم يكن يعرف دفن أخيه هابيل حتى جاء الغراب وعلمه ذلك! وبعضهم برّر ذلك بأنّ هابيل كان أول ميت من الناس (لأنّ كل

الموجودين بنظرهم أربعة أشخاص لا غير، وهم: آدم وحواء وقابيل وهابيل)، وبالتالي فلم يكن قابيل يعرف كيفية الدفن حتى علّمه الغراب^(١)!

بل نقل البعض أنّ موضوع الدفن صار سنة بسبب ما صنعه قابيل^(٢)!

هذا، مع أنّ الهومو سابينس كانوا يدفنون موتاهم قبل ١٠٠ ألف عام بحسب بعض الدراسات العلمية المثبتة^(٣).

١- وهذه بعض أقوالهم:

- الطوسي: (قيل: إنه كان أول ميت من الناس فلذلك لم يدركيف يواريه وكيف يدفنه حتى بعث الله غرايين أحدهما حي والآخر ميت) التبيان في تفسير القرآن: ٣ / ٤٩٩.

- الطبرسي: (المعنى: "فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه" قالوا: كان هابيل أول ميت من الناس، فلذلك لم يدر قابيل كيف يواريه، وكيف يدفنه، حتى بعث الله غرايين أحدهما حي، والآخر ميت. وقيل: كانا حيين، فقتل أحدهما صاحبه، ثم بحث الأرض ودفنه فيها، ففعل قابيل به مثل ذلك، عن ابن عباس، وابن مسعود، وجماعة) مجمع البيان: ٣١٨ - ٣١٩.

- ابن كثير: (قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضي الله عنهم: لما مات الغلام (هابيل) تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرايين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حتى عليه فلما رآه قال "يا ويلي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة أخي" (تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٤٧ - ٤٨).

- المازندراني: (الظاهر أنّ قابيل بعد قتله (أي هابيل) دفنه في الأرض بتعليم غراب بعثه الله يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سواة أخيه فقال يا ويلي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) شرح أصول الكافي: ١٢ / ٥٨.

- الطباطبائي: (وكذا المستفاد من السياق أنّ الغراب دفن شيئاً في الأرض بعد البحث فإنّ ظاهر الكلام أنّ الغراب أراد إراءة كيفية المواراة لا كيفية البحث، ومجرد البحث ما كان يعلمه كيفية المواراة وهو في سذاجة الفهم) تفسير الميزان: ٣٠٦.

٢- مثلاً: ما ذكره علي بن إبراهيم في تفسيره: (قال قابيل: "يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة أخي فأصبح من النادمين" فحفر له حفيرة ودفنه فيها فصارت سنة يدفنون الموتى) تفسير القمي: ١ / ١٦٦، وهو بالتأكيد غير صحيح، والأكثر منه خطأ نسبته للإمام المعصوم.

٣- راجع على سبيل المثال: (اسم البحث: أقدم عملية دفن بشرية معروفة في أفريقيا، تأليف: ماريا مارتينون توريس، فرانشيسكو ديريكو، إيلينا سانتوس، أنا ألفارو جالو، نويل أمانو، ويليام آرثر، ... وآخرون. مجلة نيتشر Nature العدد: ٥٩٣، الصفحات: ٩٥ - ١٠٠، سنة ٢٠٢١ م). وأيضاً: كتاب وجهات نظر أفريقية: حول تطور أشباه البشر، تحرير: سالي سي. رينولدز، جامعة ويتواترسراند، جوهانسبرغ، أندرو غالغر، جامعة جوهانسبرغ، الناشر: مطبعة جامعة كامبريدج، تاريخ النشر: أبريل ٢٠١٢ - الفصل ٢٧ تحت عنوان: "أقدم المدافن وأهميتها"

وأيضاً: ثبت لدينا – كما تقدم ^(١) – أنّ الناس الذين استقرّوا في الوادي الخصيب وولد آدم عليه السلام من أبوين منهم لاحقاً، كانوا موحدين ومكلفين ويحجّون بيت الله بحسب وضعهم ومستوى إدراكهم، وبالتأكيد كانوا يعرفون دفن موتاهم، فالدفن أسهل بكثير من الكثير من التكاليف كالحج مثلاً، وإذا كان قوم آدم يعرفون دفن الموتى فما بالك بقابيل وهو ابن نبي!

ثم إنّ الغراب كان ولا زال مخلوقاً معروفاً للإنسان ولم يُعرف عنه (علمياً، وأيضاً: بالواقع القطعي المشاهد) أنه يدفن موتاه، فكيف تحوّل بنظر المفسرين دقّاناً يتعلّم منه قابيل طريقة الدفن!

الحقيقة، إنّ المفسرين حصل لديهم سوء فهم للآية الكريمة ومن ثمّ أوقعوا أنفسهم في حرج مخالفة الحقائق العلمية والواقع المعلوم والمشاهد، فالآية لم تصرح – ولا حتى ظاهراً يدل – بأنّ قابيل لم يكن يعرف طريقة دفن الموتى وأنه تعلّم من الغراب طريقة الدفن، وإنما أقصى ما تدل عليه هو أنّ نبش الغراب ذكراً قابيل بدفن أخيه؛ إذ كان لؤمه وخبثه بلغ به حدّاً أراد معه أن يترك جثمان أخيه مسجى بلا دفن إرضاءً لنفسه الأمانة بالسوء، فبعث الله الغراب ينبش بالأرض كعادته للبحث عن طعامه فتذكر قابيل مسألة دفن أخيه، وفعل ذلك.

يقول السيد أحمد الحسن: (الدفن ليس شيئاً معقداً أو صعباً على الإنسان، ولذلك بحسب الأبحاث العلمية كانت هناك هجرات للهومو سابينس باتجاه سيناء وهي أسبق من الهجرة الأخيرة التي حصلت بحدود ٧٠ ألف سنة مضت عن طريق باب المنذب، بعض تلك الهجرات تعود إلى ما قبل ١٠٠ ألف سنة ولاحظ الباحثون أنّ الإنسان الحديث كان يدفن موتاه، بل الدفن عموماً هو جزء من إقامة العزاء ومسألة إقامة العزاء لا يختص بها الإنسان وإنما الفيلة مثلاً تقيم العزاء فعند موت فيل تجتمع الفيلة ويحزنون ويبكون عليه، والبشر بالتأكيد لديهم القدرة على الحفر وليست المسألة صعبة بالنسبة لهم؛

وخلاصة البحث: عُثر على أقدم المدافن في العصر الحجري القديم الأوسط في جبل الكرمل والجليل قبل ١٠٠ – ١٣٠ ألف سنة، وتضمنت مجموعتين سكانيتين هما الإنسان الحديث والنياندرتال.

١- راجع بحث: مجتمع آدم.

خصوصاً وأنّ النصوص الدينية بيّنت أنّ الأقوام التي سبقت آدم كانت مكلفة بحسب وضعها وإدراكها، وهذا يعني أنهم كانوا يعرفون الدفن.

أما النص القرآني: "فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ" المائدة: ٣١، فهو لا يقول إنّ قابيل لم يكن يعرف الدفن وإنّ الغراب علّمه طريقة الدفن، وإنما النص – لغوياً – بيّن أنّ الغراب بحث في الأرض (بحث فقط ولم يدفن شيئاً)، فكأنّ فعل الغراب ذكّر قابيل بمسألة الدفن.

والخلاصة: الآية القرآنية لا تدل على أكثر من أنّ نبش الغراب في الأرض ذكّر قابيل بقضية دفن جسد أخيه) انتهى^(١).

ومسألة أن يكون قابيل يعرف طريقة الدفن أمر احتمله بعض المفسرين (وإن كانوا قلة)^(٢)، وهو أمر يكشف عن أنّ فهم المفسرين المتقدم للآية لم يكن قطعياً.

والخلاصة: إنّ ما قام به الغراب نبّه وذكّر قابيل على دفن أخيه بعد أن كان متعجباً أو غافلاً عن فعل ذلك بسبب شدة لؤمه وحسده وخبث سريرته، أما نفس الدفن فإنّ قابيل يعرفه كما يعرفه قوم آدم بل الأقوام التي كانت قبله. كما أنّ الغراب لم يقوم بعملية دفن حقيقية كما توهموا، وهو توهم يستدعي – بطبيعة الحال – تدخل الإعجاز بعد عدم كون الفعل أمراً عادياً ومألوف حصوله من الغراب، والإعجاز – كما نعلم – ليس بالعبث والعشوائية التي يفترضها البعض وإنما يحصل في حالات استثنائية قصوى يتوقف عليها بقاء الدين الإلهي وفق مشيئة الله، ومثل هذه الحالة ليست موجودة في مسألتنا بالتأكيد.

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٢- على سبيل المثال، قال الفخر الرازي: (وفي الآية احتمالان: الأول: أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، فلما تعلم ذلك من الغراب علم أن الغراب أكثر علماً منه وعلم أنه إنما أقدم على قتل أخيه بسبب جهله وقلة معرفته، فندم وتلف وتحسر على فعله. الثاني: أنه كان عالماً بكيفية دفنه، فإنه يبعد في الإنسان أن لا يهتدي إلى هذا القدر من العمل، إلا أنه لما قتله تركه بالعراء استخفافاً به، ولما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر ررق قلبه ...) التفسير الكبير: ٢٠٩/١١.

٤ - طرد قابيل:

بعد إقدامه على قتل أخيه، قام آدم عليه السلام بطرد قابيل ومن كان معه على نهجه الفاسد من قري المؤمنين في الوادي الخصيب أو حوض الخليج إلى أعلى الوادي (جنوب غرب إيران الحالية):

يقول السيد أحمد الحسن: (آدم كان من ذرية أولئك المهاجرين، وقد استوطن هو وولده وادي الخليج، ثم حصل الخلاف المذكور دينياً على أنه حادثة قتل هابيل وطرد قابيل إلى الجبال أي أعلى الوادي الخصيب (الخليج الحالي) أو جنوب غرب إيران الحالية، ومن ثم انتشار المجموعة المطرودة في آسيا وأوروبا وبقية العالم، ولحقهم بعض ذرية الذين كانوا في الوادي في وقت آخر واختلفوا بهم، انتهى^(١)).

وكان آدم عليه السلام حذراً لأهل بيته وعلى رأسهم وصيه "هبة الله" من قابيل وولده، وطلب منهم أن يقاطعهم ولا يخالطهم ولا يزوجهم ولا يتزوجوا منهم.

جاء في وصية آدم لأهل بيته المؤمنين كما ذكر الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال لهم:

(.....) يا هبة الله وأنتم يا ولدي [إياكم] الملعون قابيل وولده فقد رأيت ما فعل بأخيك هابيل فاحذروه وولده، ولا تناكحهم ولا تخالطهم، وكن أنت يا هبة الله وإخوتك وأخواتك في أعلى الجبل واعزله وولده ودع الملعون قابيل وولده في أسفل الجبل^(٢)).

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ١٢٨.

٢- تفسير العياشي: ١ / ٣٠٧.

الدين الإلهي والتحضر الإنساني (الثقافة والأخلاق):

الدين الإلهي منظومة تتألف من: العقيدة، الشريعة، والأخلاق.

رجوع العقيدة والشريعة إلى الدين الإلهي ربما أمر واضح، لكن النقاش والجدال حصل ويحصل عادة في مسألة رجوع الأخلاق والثقافة الإنسانية عموماً إلى الدين الإلهي، فبعض الملحدّين يحاول أن يصور الأخلاق شأنًا بشرياً أرضياً ذا طابع جيني وحسب، وبالتالي يمكن للإنسان أن يتوصل لها بمعزل عن الدين ورسّل الله عموماً.

ابتداءً، ينبغي معرفة أننا لا نتكلم عن مطلق العيش في ظل حياة اجتماعية يتمتع أفرادها بمستوى من التفكير ولديهم لغة تفاهم مشتركة بحدود معينة أو حتى مستوى من التنظيم، وإنما نتكلم عن الثقافة الإنسانية المتخصصة، أي: التي ينفرد بها الإنسان ولا يشاركه فيها أي صنف أحيائي آخر يعيش معه على الأرض.

يقول السيد أحمد الحسن في وصفها: (..... الثقافة التي تمثل تنظيمًا أخلاقياً راقياً للحياة ويمكن أن نميزه بوضوح في إعطاء الآخرين حقوقهم ووضع قانون لذلك، وفي الإيثار الحقيقي غير المبني على الأنانية الجينية أو توقع المنفعة، هذا إضافة إلى وضع أسس المعرفة والحياة المترقية كقوانين العقوبات والقراءة والكتابة وأنظمة الحساب وما شابه والتي دخلت إلى الحياة الإنسانية في فترة معينة، ونحن نريد بيان أنها أتت بتعليم خارجي وبتغيير جذري طرأ على الحياة الإنسانية) انتهى^(١).

الجينات – كما يقرّر علماء الأحياء التطورية – أنانية بطبعها^(٢)، وبالتالي لا يتوقع منها أن تكون سبباً في نشوء أو بلوغ ثقافة أخلاقية حقيقية تتمثل بتقديم الغريب على النفس

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٢٧٤.

٢- يقول عالم الأحياء د. ريتشارد دوكنز: (في حال كنت مثلي ترغب في بناء مجتمع يتعاقد أفرادُه بسخاء بعيداً عن الأنانية لما فيه الخير العام، تنبه إلى أنك لا تستطيع توقع الحصول على الكثير من الدعم من جانب الطبيعة البيولوجية فلنحاول تعليم الكرم والايثار لأننا ولدنا أنانيين. فلنحاول فهم ما تخطط له جيناتنا الأنانية، لأننا قد نحظى عندئذ أقله بفرصة لإفساد مخططاتها، وهو أمر لم يسع إليه أي من الكائنات الأخرى) الجينة الأنانية: ١٣.

أو القريب في حالات تتطلب ذلك؛ سواء كان لغايات تعود إلى تحقيق الحق والعدل أو لغايات إنسانية أخرى.

وبكلمة ثانية: الثقافة الأخلاقية لدى البشر يمكننا أن نتصورها بنحوين:

- الأول: ثقافة أخلاقية جينية.
- الثاني: ثقافة أخلاقية حقيقية.

النحو الأول كما نرى ليس فيه رصيد حقيقي من الأخلاق الإنسانية (كمحصل ثقافي إنساني متخصص)؛ لأن الأصل فيه لما كان جينياً فواضح أنّ الجانب الجيني لدى الإنسان هو نفسه الموجود لدى سائر الحيوانات، والطابع الذي تتصف به جينات الأحياء الأرضية عموماً هو الأنانية وحب البقاء، وبالتالي فما يترأى للبعض من ثقافة أخلاقية مصدرها الجينات ما هو إلا صورة مشوّهة من الأخلاق أو لنقل هي أخلاق جينية بهيمية أنانية لا ينفرد بها الإنسان عن بقية الحيوانات، فالحيوان إن صدر منه فعل تجاه الغير كالإطعام أو الاهتمام مثلاً فهو لم يصدر منه لشعوره بقيمة الفعل في حد نفسه وإنما لدافع أناني؛ إذ يتوقع أن يواجه في المستقبل مأزقاً يهدد بقاءه فينتظر من الآخر الرد والجزاء، أو ربما كان فعله بدافع السمعة والشهرة أو تبادل المنفعة ونحو ذلك من أمور تضمن له فرص بقاء أكبر، وبالتالي تمرير جيناته لأجيال قادمة، فالدافع جيني إذن!

قد يبدو الإطعام والاهتمام الصادر من الحيوان - بحسب ظاهره - أخلاق توصّل لها بدافع جيني، وبالتالي لا حاجة لفرض وجود إله ودين ورسول في المسألة، لكن الحقيقة هي أنها أفعال لا رصيد أخلاقي حقيقي فيها طالما أنّ الدافع فيها أناني بحت، وواضح أنّ هذا النحو من الأخلاق (إن صحّ تسميته أخلاقاً أصلاً) لم يكن المانز الذي انفرد به الإنسان عن غيره من الأحياء (فكثير من الحيوانات تهتم بصغارها وتطعمهم، وكذا تبحث عن رد المنفعة والشهرة بهدف البقاء)، والنتيجة: أنّ هذا النحو من الأخلاق لم يكن يوماً ما السبب في رفعة الإنسان ورقّته، ولهذا وصفناه بالأخلاق غير الحقيقية.

ما تفرّد به الإنسان عن سواه من الأحياء عموماً هو النحو الثاني من الثقافة الأخلاقية، أي أنه انفرد بتحليله بثقافة إنسانية مبنية على رصيد أخلاقي حقيقي يعمل

بالضد تماماً من جانبه الجيني الحيواني الأناني. وهذا النحو من الثقافة الأخلاقية لا يمكن إرجاعه إلى الجانب الجيني لدى الإنسان مهما حاول علماء الأحياء التطورية ذلك، فالجينات لا تسمح بصدور فعل غير أناني إطلاقاً، فمثلاً: الجينات تقول لك: أطعم نفسك حتى تبقى، ثم إن فاض لك شيء فأطعم أخاك وقدمه على ابن عمك وقدم ابن عمك على الغريب وقدم ابن بلدك أو قوميتك على ابن بلد آخر أو قومية أخرى، وهكذا. لا تنتظر من جيناتك أن تقول لك: قدم إ طعام الغريب على نفسك حتى وإن تعرضت حياتك للخطر! أو تقول لك: أقم الحق والعدل وأنصف صاحب الحق ولو على نفسك أو ابنك أو أقربائك!

لكننا مع هذا، وجدنا ضمن مسيرة الإنسان على هذه الأرض أفعالاً مثلت قمة الإيثار الحقيقي وإنصاف الآخرين، وضم قاموسنا الإنساني أشخاصاً سعوا إلى إقامة الحق والعدل على أنفسهم أولاً ثم القريب قبل الغريب، وسعوا إلى تربية أجيال على هذا الخلق الإنساني النبيل. ومع أن الكل يقدر هذه الأفعال ويشهد بعظمتها، لكننا في نفس الوقت نتساءل: إذا لم يكن الأصل في مثل هذه الأخلاق والثقافة الإنسانية جينياً وأرضياً فما هو أصلها إذن، وما هو تعليل وقوعها وصدورها من الإنسان؟!

واضح جداً أننا إذا استثنينا الأرض عن المعادلة، فلا يبقى لنا غير السماء، ومن يمثّل السماء في عالمنا هم رسل الله الذين ابتداء مشروعهم ببعثة آدم عليه السلام في ٢٠ - ٣٠ ألف سنة الأخيرة من عمر البشرية، ثم أعقبه ولده الأوصياء الأوائل الذين استمروا ببث الدين الإلهي الذي تضمن الثقافة الإنسانية الحقيقية وقاموا بتركيزها بين الناس أكثر فأكثر، إلى أن بلغت عصر "سومر" بعد آلاف السنين، وبتراكم ثقافة الدين الإلهي ثم اكتشاف الكتابة التي دونت شيئاً من تلك البدايات ظهرت معالم أول حضارة إنسانية على هذه الأرض وصلت إلينا وهي تحكي قصة جهد الرسل الإلهيين المغيب تحت الثرى!

يقول السيد أحمد الحسن: (والحق، إنّ المنصف لابد له أن يقول إننا كنوع إنساني فعلاً أفسدنا أنانية الجينات فالأخلاق العليا أو الإيثار الحقيقي الذي نشره أنبياء الله ورسله وجاءت به الأديان الإلهية قد حطّم هذه الأنانية، فهذه الأنانية الجينية تقول: ابني أفضل من ابن أخي، وأخي أفضل من ابن عمي، وابن عمي أفضل من الغريب، وابن مدينتي أفضل من ابن المدينة الأخرى، وابن بلدي أفضل من ابن البلد الآخر، وابن قوميتي أفضل من ابن القومية الأخرى، وبلدي أفضل من البلد المجاور، أما الأنبياء والأديان فقد جاءت

بالإحسان وإيثار الغريب على النفس والأولاد، وانتشرت هذه الأخلاق الإيثارية بين الناس، ولن أتعرض لغير قصة تاريخية مشهورة في الإسلام وقد نزل بها قرآن وهي قصة أصحاب رسالة الإسلام أنفسهم وهم عائلة محمد صلى الله عليه وآله نبي الإسلام، هي قصة بقاء علي وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وأبنائهم الصغار جيعاً بعد أن قاموا بإعطاء طعامهم للفقراء "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا" الإنسان: ٨ - ٩.

سورة الإنسان وهي تروي قصة الإنسان الحقيقي الذي انتصر على حيوانيته وجاء لينقذ الآخرين من حيوانيتهم الجينية الأنانية، لم يطلبوا بهذا الإيثار سمعة؛ لأنه كان بالسروهم أصلاً كتموه ولم يذيعوه، ولم يطلبوا به منفعة متبادلة فهم أعطوا ولم يأخذوا شيئاً، ولم يكن عطاؤهم يسيراً؛ لأنه كان بالنسبة لعلي وفاطمة عليهما السلام مخاطرة بحياة أطفالهم.

بفضل هؤلاء وأشباههم من أنبياء الله ورسله لدينا اليوم أفراد ومجموعات وحتى دول يؤثرون الآخرين الغرباء عنهم وإن كان بالقليل الذي لا يؤثر في حالهم وربما هناك غايات من وراء العطاء في بعض الأحيان، ولكنها عموماً خطوة بالاتجاه الصحيح وصلنا لها بفضل أولئك العظماء، فهم الأمثلة الإيثارية العليا التي تعلّمت منها البشرية.

نحن اليوم نمتلك انتصارات حقيقية على الأنانية الجينية ولكنها جميعاً تستند إلى جهود أولئك العظماء أنبياء الله ورسله الذين ضربوا المثل الأعلى في الإيثار الحقيقي لينقذوا الإنسانية من حيوانيتها.

أعتقد أنّ فعل علي وفاطمة عليهما السلام يستحق من عالم علم الأحياء التطوري أو علم الأحياء الاجتماعي الملحد أن يراجع حساباته على الأقل وهو يراهم قد شخّصوا داء الأنانية الجينية ووضعوا له العلاج قبل أن يشخّصه علماء علم الأحياء التطوري بأكثر من ألف عام) انتهى (١).

بعث آدم عليه السلام بالنسبة إلى الإنسان لا يشكل قفزة لملء جانبه الروحي فحسب، ولكنه قفزة ورفي لجانبه المادي والحياتي العام أيضاً:

(عن الأصبع بن نباتة، عن علي عليه السلام قال: هبط جبرئيل على آدم عليه السلام فقال: يا آدم إني أمرت أن أختبرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم: إني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج)^(١).

وحادثة إثثار علي وفاطمة صلوات الله عليهما روتها مصادر المسلمين عموماً بطرق كثيرة، منها: (عن ابن عباس، قال: في قوله تعالى "يوقون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً" ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً" قال: مرض الحسن والحسين فعادهما جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك نذراً، فقال علي: إن برء مما بهما صمت لله عز وجل ثلاثة أيام شكراً، وقالت فاطمة كذلك، وقالت جارية يقال لها فضة نوبية: إن برأ سيدي صمت لله عز وجل شكراً، فألبس الغلامان العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق علي إلى شمعون الخيرى فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير فجاء بها فوضعها، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزه وصلى علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من أولاد المسلمين أطعموني أطعمكم الله عز وجل على موائد الجنة، فسمعه علي فأمرهم فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثاني قامت فاطمة إلى صاع وخبزه وصلى علي مع النبي صلى الله عليه وسلم ووضع الطعام بين يديه إذ أتاهم يتيم فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد يتيم بالباب من أولاد المهاجرين استشهد والدي أطعموني فأعطوه الطعام فمكثوا يومين لم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزه فصلى علي مع النبي صلى الله عليه وسلم ووضع الطعام بين يديه إذ أتاهم أسير فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهل بيت النبوة تأسرونا وتشدوننا ولا تطعمونا أطعموني فإني أسير فأعطوه ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا إلا الماء، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بهم من الجوع، فأنزل الله تعالى: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر"، إلى قوله: "لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً" أسد الغابة، ابن الأثير: ٥ / ٥٣٠ - ٥٣١.

١- الكافي، الكليني: ١ / ١٠ - ١١. وبنفس المضمون وردت في مصادر سننية، منها: (وفي الحديث أن جبريل عليه السلام أتى آدم عليه السلام فقال له: إني أتيتك بثلاث فاختر واحدة، قال: وما هي يا جبريل؟ قال: العقل والحياء والدين. قال: قد اخترت العقل فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال: أرجع فقد اختار العقل عليكما، فقالا: أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان) المعارف، ابن قتيبة الدينوري: ٣٩٥.

العقل الذي اختاره آدم عليه السلام له جنود وأدوات، وهي لا تقتصر على الدين والحياء (الأخلاق) وما يتصل بهما من قبيل: الإيمان والدعاء والطاعة والتسليم والصلاة والصوم والحج والمعروف ونحو ذلك من أمور تتصل بالدين، أو من قبيل: الرحمة والرفق والحلم والصدق والصبر والوفاء والسخاء والمواساة والأمانة ونحو ذلك من أمور تتصل بالأخلاق، وإنما جنود العقل أوسع من ذلك فهي تشمل أيضاً: الخير والعدل والحق والإنصاف والعلم والفهم والمعرفة والحكمة والغنى والنشاط ... إلخ، وقد جمعها الإمام الصادق في رواية واحدة أوصلها إلى ٧٥ جنداً^(١).

واضح أنَّ مشروع آدم عليه السلام (وهو بداية مشروع الله مع الإنسان) لا يهدف إلى عمارة آخره الإنسان فقط وإنما عمارة دنياه ورفي حياته على الأرض أيضاً؛ إذ وجود الحق والعدل والإنصاف وإشاعة العلم والفهم والمعرفة والحكمة وبث روح النشاط والغنى في نفوس الناس (إضافة إلى باقي الأمور التي يدعولها دين الله على مستوى العقيدة والشريعة والأخلاق)، إنَّ وجود هذه الأمور مع وجود قائد عالم وحكيم بين الناس يشرف على تطبيقها بينهم بعد أن كان قد بدأ بنفسه، أمر كفيل بقلب حياة البشر (الهومو سابينس) رأساً على عقب وبداية عهد جديد للإنسانية لم يكن معروفاً عندهم إطلاقاً، وهذا ما حدث بالفعل لسكان الوادي الخصيب "حوض الخليج" بعد بعثة آدم عليه السلام.

بعثة آدم عليه السلام وقيامه بتعليم قومه الزراعة وتربية الحيوانات ساهم بتكوين أولى القرى الزراعية في الوادي الخصيب، ويمكننا اعتبار ظهور الزراعة ونشوء القرى الزراعية الخطوة الأولى باتجاه بداية تنظيم حياة الإنسان باتجاه نشوء الدولة، فالدولة لها مقومات أساسية هي: (أرض، سلطة، شعب، قانون ينظم العلاقة بين الطرفين)، وكل هذه الأمور موجودة بعد بعثة آدم عليه السلام.

يقول السيد أحمد الحسن: (بظهور الزراعة ونشوء القرى الأولى بدأت عملية تنظيم حياة الناس. ويمكننا أن نتصور بداية التنظيم من خلال نفس الزراعة، فليس جميع الناس الموجودين يزرعون صنفاً واحداً ولا أنَّ كل المشتغلين بالزراعة قادرون على تربية الحيوانات ولا العكس، وبالتالي فحتى تأتي الزراعة وتربية الحيوانات بنتائج مرجوة

١- انظر: الكافي، الكليني: ١ / ٢٠ - ٢٣.

يفترض تخصص كل جماعة بزراعة صنف معين من المأكول أو تربية صنف معين من الحيوانات، وهكذا بدأ آدم عليه السلام ينظم أمور الناس من جانب اقتصادي بما في ذلك نشوء عمليات المقايضة كسبيل أولي للتبادل التجاري وعمليات البيع والشراء.

أيضاً: المسألة لا تقف عند تنظيم الجانب الاقتصادي، وإنما سعى آدم عليه السلام بما بينه لقومه من تعاليم الدين الإلهي إلى تنظيم وضع الناس الاجتماعي والقانوني، فتعاليم آدم (دين الله) بما تحويه من قيم عقائدية وتشريعية وأخلاقية كفيلة ببيان الحق من الباطل، والصحيح من غير الصحيح، والثواب والعقاب، والفعل وجزاء الفعل، وتميز العدل عن الظلم، ... إلخ.

وإنفاذ القانون ينعكس بالتأكيد على حياة الناس وأمنهم وازدهارهم.

وبهذا، فيمكننا اعتبار بعثة آدم عليه السلام وما بثه في الناس من تعاليم الدين الإلهي، وأيضاً: ما اتخذته من خطوات وإجراءات عملية تمس حياتهم العامة شكّلت الخطوة الأولى باتجاه بداية التحضر وتأسيس الدولة والحكم في حياة الإنسان، وحتى لو لم يكن الجميع اعترفوا بنبوته لكنه بالنتيجة استطاع أن يؤثر على عدد كبير من الناس وأصبحت كلمته مسموعة بالنسبة لهم، وبذلك تمكن آدم عليه السلام من تنظيم حياة الناس (انتهى)^(١).

بحسب العقيدة الصحيحة، فإنّ واحدة من وظائف الرسول الإلهي هي "الحكم" عندما يمكنه الناس من ذلك، وهذا الأمر فعله آدم عليه السلام بحدود معينة في المنطقة التي بعث فيها، فبث فيهم تعاليم الدين والنظم والقوانين التي ترتقي بهم وبيّحتهم نحو الأفضل، ولهذا – مثلاً – كان يعاقب المسيء منهم كما فعل مع ولده قابيل لما ارتكب جريمة قتل أخيه هابيل، إذ قام آدم عليه السلام بطرده ومن كان مصطفاً معه وراضياً بفعله من حدود المنطقة التي كان يبسط حكمه عليها، وأصدر لبعض المؤمنين به قراراً يقضي بالمنع عن التعامل معهم أو الزواج منهم ... إلخ كما ورد في بعض النصوص الدينية الآتية.

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

وفاة آدم ووصيته وصحفه:

وصية آدم:

عن الإمام الباقر صلوات الله عليه: (..... ثم إنَّ آدم سأل ربه ولداً فولد له غلام فسماه هبة الله لأنَّ الله عز وجل وهبه له وأخته توأم. فلما انقضت نبوة آدم عليه السلام واستكمل أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا آدم قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في العقب من ذريتك عند هبة الله فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وأثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني ويعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيما بينك وبين نوح.

وبشّر آدم بنوح عليه السلام فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح وإنه يدعو إلى الله عز ذكره ويكذبه قومه، فهلكهم الله بالطوفان وكان بين آدم وبين نوح عليهما السلام عشرة آباء أنبياء وأوصياء كلهم، وأوصى آدم عليه السلام إلى هبة الله أن من أدركه منكم فليؤمن له وليتبعه وليصدق به فإنه ينجو من الغرق.) (١).

النص يؤكد:

أولاً: إنَّ آدم عليه السلام سأل الله بعد مقتل ولده ووصيه هابيل أن يرزقه ولداً مباركاً، فولد له (شيث = هبة الله)، وشاء الله لهذا الولد أن يكون وصي أبيه. والرواية واضحة في التأكيد على أنَّ الأرض بعد آدم إلى يوم القيامة لا تخلو من حجة وعالم وهادٍ إلهي تقام به الحجة على الخلق، وكلام الإمام الباقر - بلا شك - يلتقي تماماً مع النص القرآني القطعي، أعني قوله تعالى: "إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" الرعد: ٧.

ثانياً: مسألة الإيصاء سبيل حتمي وضروري في رسالة الله منذ آدم وحتى قيام الساعة؛ باعتبار الوصية السبيل الكاشف عن انتقال ميراث النبوة والرسالة من الرسول الفعلي

إلى من يليه من الأوصياء، والله سبحانه وعد باستمرار الهداة والحجج الإلهيين الذين يُعرف بهم دين الله الحق (لا المزيف المبني على الظنون والاحتمالات): "فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وأثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة". وبالتالي، فمن يفترض أن رسولاً معيناً (كمحمد صلى الله عليه وآله مثلاً) مات ولم يوصي فإنه يؤكد قطعاً بأن الزمن اللاحق له هو زمن ليس فيه رجل إلهي انتقل إليه العلم والإيمان والاسم الأكبر وأثار النبوة، أي ليس فيه هادٍ إلهي يعرف به دين الله الحقيقي، وهو يتعارض قطعاً مع القرآن ومع السنة القطعية التي نطق بها آل محمد الأوصياء!

ثالثاً: وصية آدم عليه السلام ذكر فيها الوصي المباشر له وهو ولده هبة الله، وذكرت أيضاً وصياً غير مباشر من ولده (أي من أحفاده التاليين) وهو نوح عليه السلام، وهذا يكشف عن أن الوصية حجة وبيّنة إلهية سواء نصّت على الوصي المباشر أو نصّت على الوصي غير المباشر، وهو منطلق يلتقي مع القرآن أيضاً الذي اعتبر وصية وبشارة عيسى عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وآله بيّنة إلهية، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" الصف: ٦.

نص آخر لوصية آدم:

عن حبيب السجستاني عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (لما قرّب ابنا آدم القربان فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر قال: تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، ادخله من ذلك حسد شديد، وبغى على هابيل فلم يزل يرصده ويتبع خلوته حتى ظفر به متنحياً عن آدم، فوثب عليه فقتله، فكان من قصتهما ما قد أنبأ الله في كتابه مما كان بينهما من المحاورّة قبل أن يقتله، قال: فلما علم آدم بقتل هابيل جزع عليه جزعاً شديداً ودخله حزن شديد، قال: فشكى إلى الله ذلك فأوحى الله إليه أي واهب لك ذكراً يكون خلفاً لك من هابيل، قال: فولدت حواء غلاماً زكياً مباركاً، فلما كان يوم السابع سمّاه آدم شيث، فأوحى الله إلى آدم إنما هذا الغلام هبة مني لك فسمّه هبة الله قال: فسمّاه هبة الله.

قال: فلما دنا أجل آدم أوحى الله إليه أن يا آدم إني متوفيك ورافع روحك إلي يوم كذا وكذا فأوص إلى خير ولدك وهو هبتي الذي وهبته لك، فأوص إليه وسلّم إليه ما علّمتك

من الأسماء والاسم الأعظم، فاجعل ذلك في تابوت فإني أحب أن لا يخلو أرضي من عالم يعلم علمي ويقضي بحكمي أجعله حجتي على خلقي قال: فجمع آدم إليه جميع ولده من الرجال والنساء فقال لهم: يا ولدي إن الله أوحى إلي أنه رافع إليه روحي وأمرني أن أوصي إلى خير ولدي وأنه هبة الله، فإن الله اختاره لي ولكم من بعدي اسمعوا له وأطيعوا أمره، فإنه وصي وخليفتي عليكم، فقالوا جميعاً: نسمع له ونطيع أمره ولا نخالفه، قال: فأمر بالتابوت فعُمل ثم جعل فيه علمه والأسماء والوصية ثم دفعها إلى هبة الله، وتقدم إليه في ذلك وقال له: انظريا هبة الله إذا أنا مت فاغسلني وكفني وصل علي وأدخلني في حفرتي، فإذا مضى بعد وفاتي أربعون يوماً فاخرج عظامي كلها من حفرتي فاجمعها جميعاً ثم اجعلها في التابوت واحتفظ به ولا تأمن عليه أحداً غيرك، فإذا حضرت وفاتك وأحسست بذلك من نفسك فالتمس خير ولدك وألزمهم لك صحبة وأفضلهم عندك قبل ذلك فأوص إليه بمثل ما أوصيت به إليك ولا تدعن الأرض بغير عالم منا أهل البيت.

يا بني إن الله تبارك وتعالى أهبطني إلى الأرض وجعلني خليفته فيها، حجة له على خلقه، فقد أوصيت إليك بأمر الله وجعلتك حجة لله على خلقه في أرضه بعدي، فلا تخرج من الدنيا حتى تدع الله حجة ووصياً وتسلم إليه التابوت وما فيه كما سلمته إليك، وأعلمه أنه سيكون من ذريتي رجل اسمه نوح يكون في نبوته الطوفان والغرق، فمن ركب في فلكه نجا ومن تخلف عن فلكه غرق، وأوص وصيك أن يحفظ بالتابوت وبما فيه، فإذا حضرت وفاته أن يوصي إلى خير ولده وألزمهم له وأفضلهم عنده، وسلم إليه التابوت وما فيه، وليضع كل وصي وصيته في التابوت وليوص بذلك بعضهم إلى بعض، فمن أدرك نبوة نوح فليركب معه وليحمل التابوت وجميع ما فيه في فلكه ولا يتخلف عنه أحد.

ويا هبة الله وأنتم يا ولدي [إياكم] الملعون قابيل وولده فقد رأيتم ما فعل بأخيكم هابيل فاحذروه وولده، ولا تناكحوهم ولا تخالطوهم، وكن أنت يا هبة الله وإخوتك وأخواتك في أعلى الجبل واعزله وولده ودع الملعون قابيل وولده في أسفل الجبل.....^(١).

المضمون الذي يضيفه هذا النص أن آدم عليه السلام طلب من وصيه "هبة الله" أن يحفظ جسده أورفاته ويستأمن عليه الأوصياء من بعده وهكذا وصولاً إلى الزمن الذي

يُبعث فيه نوح عليه السلام ليتمكن نوح من حمل التابوت ورفات آدم عليه السلام معه في السفينة ونقله من الوادي الخصيب إلى الموضع الذي ترسو عليه سفينته بعد الطوفان ليدفنه هناك. وسيأتي مزيد من التوضيح لهذه المسألة وتحديد المكان الذي دفن فيه آدم عليه السلام لاحقاً.

وصية آدم بنوح:

النص الديني المتقدم ذكر أنّ بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة أوصياء ورسّل إلهيين، وذكرت نصوص أخرى سبعة رسل توسطوا بين آدم ونوح عليهما السلام^(١).

واضح أنّ هذه النصوص لم تذكر جميع الأنبياء والرسل الإلهيين، وإلا فنص (توسط السبعة المنقول في الهامش) اكتفى فيه الإمام الصادق صلوات الله عليه بذكر ٣٤ رسولاً

١- مثل: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا سيد النبيين، ووصي سيد الوصيين، وأوصياؤه سادة الأوصياء، إن آدم عليه السلام سأل الله عز وجل أن يجعل له وصياً صالحاً، فأوحى الله عز وجل إليه: أني أكرمت الأنبياء بالنبوة، ثم اخترت خلقي، وجعلت خيارهم الأوصياء. ثم أوحى الله عز وجل إليه: يا آدم، أوص إلى شيث، فأوصى آدم إلى شيث، وهو هبة الله بن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شبان، وهو ابن نزلة الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنة، فزوجها ابنه شيثاً، وأوصى شبان إلى مجلث، وأوصى مجلث إلى محوق، وأوصى محوق إلى غثميشا، وأوصى غثميشا إلى أخنوخ، وهو إدريس النبي عليه السلام، وأوصى إدريس إلى ناحور، ودفعها ناحور إلى نوح النبي عليه السلام، وأوصى نوح إلى سام، وأوصى سام إلى عثامر، وأوصى عثامر إلى برعيثاشا، وأوصى برعيثاشا إلى يافث، وأوصى يافث إلى برة، وأوصى برة إلى جفسيه، وأوصى جفسيه إلى عمران، ودفعها عمران إلى إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وأوصى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل، وأوصى إسماعيل إلى إسحاق، وأوصى إسحاق إلى يعقوب، وأوصى يعقوب إلى يوسف، وأوصى يوسف إلى بثرء، وأوصى بثرء إلى شعيب عليه السلام، ودفعها شعيب إلى موسى بن عمران عليه السلام، وأوصى موسى بن عمران عليه السلام إلى يوشع بن نون، وأوصى يوشع بن نون إلى داود عليه السلام، وأوصى داود عليه السلام إلى سليمان عليه السلام، وأوصى سليمان عليه السلام إلى آصف بن برخيا، وأوصى آصف بن برخيا إلى زكريا عليه السلام، ودفعها زكريا عليه السلام إلى عيسى بن مريم عليه السلام، وأوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا، وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا، وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر، وأوصى منذر إلى سليمة، وأوصى سليمة إلى بردة. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ودفعها إليّ بردة، وأنا أدفعها إليك يا علي، وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحد، حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك، ولتكفرن بك الأمة، ولتختلفن عليك اختلافاً شديداً، الثابت عليك كالمقيم معي، والشاذ عنك في النار، والنار مثوى الكافرين) الأمالي، الصدوق: ٤٨٦ - ٤٨٨: الأمالي، الطوسي: ٤٤٢ - ٤٤٣.

توسّطوا بين آدم والرسول محمد صلى الله عليه وآله، في حين أنّ عدد الرسل الكلي الثابت هو ١٢٤,٠٠٠ ألف رسول (نبي، رسول، إمام). وأيضاً: الفاصل الزمني بين آدم عليه السلام والرسول محمد صلى الله عليه وآله ألوف كثيرة من السنين ولا يغطيها العدد المذكور ولا حتى مضاعفته ألف مرة! وهذا يعني أنّ الإمامين الصادقين صلوات الله عليهما كانا بصدد ذكر أمثلة من الرسل، كالاقتصار على المهمين منهم مثلاً، ولهذا ففي مسألة الرسل الذين توسّطوا بين آدم ونوح عليهما السلام عدّد منهم الإمام الصادق سبعة وفي نص الإمام الباقر ذكر عشرة. والحق، إنّ الإمامين لم يكونا بصدد الإحصاء؛ لأنّ إحصاء الرسل بالتسلسل المطلوب يحتاج وقتاً طويلاً جداً بعد معرفة أنّ عددهم ١٢٤ ألف رسول كما عرفنا، ثم ما هي الفائدة الفعلية التي تترتب على ذكرهم جميعاً؟ نعم، الفائدة التي يرجو الإمام المعصوم تأكيدها هي أنّ الايصاء سنّة إلهية جارية ومستمرة منذ آدم وحتى آخر رسول إلهي على الأرض، وواضح أنّ هذه الفائدة تتحصل بذكر أمثلة ونماذج من الرسل الإلهيين بكل تأكيد.

وعن مسألة كون نوح عاشر أولاد آدم كما رأيناه في بعض النصوص المتقدمة، يقول السيد أحمد الحسن:

(نوح عليه السلام بالتأكيد من أحفاد آدم عليه السلام أي من ذريته، لكن الروايات التي تحدده بوصفه العاشر بعده لا تقصد العاشر بالدقة، الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام لم يكونا بصدد تعداد جميع الأنبياء والأوصياء الواقعيين بين آدم ونوح عليهما السلام، وإنما هما بصدد تأكيد الوصية في الدين الإلهي وأنّ سلسلة الأوصياء مستمرة ولا تخلو الأرض منهم، وهذا يتحقق بذكر بعض الحجج إجمالاً كذكر المهمين منهم مثلاً، وإلا فعددهم كبير وكم سيحتاج الإمام من وقت لو أراد ذكرهم جميعاً، وما هي الفائدة التي تترتب على ذلك؟! نعم، يكفي أن يقال مثلاً: إنّ آدم وصّى بنوح، ومع هذا فالوصية بهذه الكيفية لا تعني أن يكون نوح عليه السلام وصياً مباشراً لآدم عليه السلام، وإنما تعني أنه واقع في طريق أوصيائه التاليين له، تماماً مثل وصية عيسى عليه السلام بالرسول محمد صلى الله عليه وآله فهي لا تعني عدم وجود أوصياء بعد عيسى عليه السلام) انتهى^(١).

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

ما ذكره السيد أحمد الحسن يلتقي مع النصوص الدينية التي ذكرت العدد الكلي للرسول، وأيضاً مع الحقائق العلمية التي أرجعت حدوث طوفان نوح إلى الفترة الزمنية بين ١٥ - ٨ ألف سنة ق.م، في حين تاريخ ظهور آدم عليه السلام كان بين ٢٠ - ٣٠ ألف سنة كما تقدم، وبالتالي فحتى لو أخذنا بأقرب حدين متقاربين أعني بين ١٥ ألف و ٢٠ ألف يبقى الفاصل هو ٥ آلاف سنة، وهو رقم يتطلب وجود مئات الرسائل كما هو واضح.

قال الإمام الباقر عليه السلام: (وكان من بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين ولذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يسموا كما سُمِّي من استعلن من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهو قول الله عز وجل: "ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك" يعني لم أسمى المستخفين كما سميت المستعلنين من الأنبياء عليهم السلام)^(١).

وبهذا يظهر عدم صحة ما ذكره بعض المؤرخين والمحدثين من أنَّ الفاصل الزمني بين نوح و آدم عليهما السلام عشرة قرون أو بضعة عقود^(٢)!

الوصية قبل اكتشاف الكتابة:

بحسب النصوص الدينية، لا شك أنَّ آدم عليه السلام أوصى إلى شيث، وأوصى شيث إلى ابنه قينان، وهكذا وصولاً إلى نوح عليه السلام ثم استمر الحال نفسه بعد نوح

١- الكافي، الكليني: ٨ / ١١٥.

٢- انظر: تاريخ الطبري: ١ / ١٢٢، وقال ابن كثير: (قصة نوح عليه السلام: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلايل بن قين بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام. كان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره. وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه: ... أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم مكم. قال: فكيف كان بينه وبين نوح قال: عشرة قرون. قلت وهذا على شرط مسلم ولم يخرج. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) البداية والنهاية: ١ / ١١٣. وقال ابن كثير معلقاً على حديث ابن عباس: (فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام) قصص الأنبياء: ١ / ٧٤ - ٧٥.

وسيستمر إلى آخر رسول إلهي على الأرض، لكن كيف كان شكل الإيصاء بالنسبة إلى الرسل الأوائل قبل اكتشاف الكتابة؟

نحن نتحدث عن تاريخ يعود إلى ما قبل ٢٠ ألف سنة في حين أن الثابت علمياً هو اكتشاف الكتابة في وقت متأخر في بلاد سومر في الألف الثالث (٣٠٠٠) قبل الميلاد^(١)، وهذا يعني أن تاريخ بدء الوصية في دين الله أسبق من تاريخ ظهور الكتابة بوقت طويل جداً تعاقب فيه الكثير من الرسل، وقد بينّا أن إرادة الله قضت بضرورة الإيصاء الذي يكشف ويؤكد وجود الحجة والهادي الإلهي في كل زمن وعدم خلو الأرض من رسول إطلاقاً، فكيف كانت طريقة الإيصاء إذن؟

الطريقة هي أن الإيصاء كان يتم بشكل شفوي مع الإشهاد، وقد يُشفع بأمر مادي يثبت دلالة النقل الشفوي على صاحبه المقصود (الوصي) بشكل أكبر وأكد:

يقول السيد أحمد الحسن: (الكتابة اكتشفت في سومر، وهي متأخرة عن عصر آدم عليه السلام بالتأكيد، بل بعد نوح عليه السلام بآلاف السنين. والوصية قبل وجود الكتابة أكيد لم تكن تُكتب، أقصد الكتابة المادية يعني ورقة أو لوح وتسطر عليه كلمات، لكن ممكن أن تُبلغ شفوياً ويتم الإشهاد عليها عند الحاجة، ويمكن أن يُشفع التبليغ الشفوي أيضاً بإرث دال على أن فلاناً هو الوصي؛ مثلاً: خاتم أو قطعة خاصة أو قلادة يورثها النبي لوصيه. وتوجد روايات بهذا المعنى بخصوص الأئمة عليهم السلام، فقد كانوا يورثون الوصي خاتمهم مثلاً^(٢)).

١- انظر: السومريون؛ تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، كريم: ٤٣٢، ترجمة: د. فيصل الوائلي.

٢- روى الشيخ الصدوق بسنده: (عن محمد بن مسلم، قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن خاتم الحسين بن علي عليهما السلام إلى من صار؟ وذكرت له أنني سمعت أنه أخذ من إصبعة فيما أخذ. قال عليه السلام: ليس كما قالوا، إن الحسين عليه السلام أوصى إلى ابنه علي بن الحسين عليهما السلام وجعل خاتمه في إصبعة، وفوض إليه أمره، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر المؤمنين عليه السلام، وفعله أمير المؤمنين بالحسن عليهما السلام، وفعله الحسن بالحسين عليهما السلام، ثم صار ذلك الخاتم إلى أبي عليه السلام بعد أبيه، ومنه صار إلي، فهو عندي وإني لألبسه كل جمعة وأصلي فيه).

ومثلاً: بيت خديجة وهو بيت الوحي، كان الأئمة يتوارثونه ولا يسمحون بخروجه عن ملك المعصوم، وآخر من ملكه الإمام المهدي صلوات الله عليه، وقد التقى فيه ببعض المؤمنين ومنه خرجت الصلاة المعروفة إلى أبي الحسن الضراب^(١).

قال محمد بن مسلم: فدخلت إليه يوم الجمعة وهو يصلي، فلما فرغ من الصلاة مد إلي يده، فرأيت في إصبعه خاتماً نقشه: لا إله إلا الله عدة للقاء الله، فقال: هذا خاتم جدي أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام) الأماي: ٢٠٧ - ٢٠٨.

١- روى الشيخ الطوسي بسنده، قال: (حدثني يعقوب بن يوسف الضراب الغساني - في منصرفه من إصفهان - قال: حججت في سنة إحدى وثمانين ومائتين وكنت مع قوم مخالفين من أهل بلدنا، فلما قدمنا مكة تقدم بعضهم فاكترى لنا داراً في زقاق بين سوق الليل، وهي دار خديجة عليها السلام تسمى دار الرضا عليه السلام، وفيها عجوز سمراء فسألناها - لما وقفت على أنها دار الرضا عليه السلام - ما تكونين من أصحاب هذه الدار؟ ولم سميت دار الرضا؟ فقالت: أنا من موالهم وهذه دار الرضا علي بن موسى عليهما السلام، أسكنها الحسن بن علي عليهما السلام، فإني كنت من خدمه، فلما سمعت ذلك منها أنست بها وأسررت الأمر عن رفقائي المخالفين، فكنت إذا انصرفت من الطواف بالليل أنام معهم في رواق في الدار، ونغلق الباب ونلقي خلف الباب حجراً كبيراً كنا ندير خلف الباب. فرأيت غير ليلة ضوء السراج في الرواق الذي كنا فيه شبيهاً بضوء المشعل، ورأيت الباب قد انفتح ولا أرى أحداً فتحت من أهل الدار، ورأيت رجلاً ربعة أسمر إلى الصفرة ما هو قليل اللحم، في وجهه سجادة عليه قميصان وإزار رقيق قد تقنع به وفي رجله نعل طاق فصعد إلى الغرفة في الدار حيث كانت العجوز تسكن، وكانت تقول لنا: إن في الغرفة ابنة لا تدع أحداً يصعد إليها، فكنت أرى الضوء الذي رأيته بضئ في الرواق على الدرجة عند صعود الرجل إلى الغرفة التي يصعد بها، ثم أراه في الغرفة من غير أن أرى السراج بعينه، وكان الذين معي يرون مثل ما أرى فتوهموا أن يكون هذا الرجل يختلف إلى ابنة العجوز، وأن يكون قد تمتع بها فقالوا: هؤلاء العلوية يرون المتعة، وهذا حرام لا يحل فيما زعموا، وكنا نراه يدخل ويخرج ونجئ إلى الباب وإذا الحجر على حاله الذي تركناه، وكنا نغلق هذا الباب خوفاً على متاعنا، وكنا لا نرى أحداً يفتحه ولا يغلقه، والرجل يدخل ويخرج والحجر خلف الباب إلى وقت ننحيه إذا خرجنا.

فلما رأيت هذه الأسباب ضرب على قلبي ووقعت في قلبي فتنة فتلطف العجوز وأحببت أن أقف على خبر الرجل، فقلت لها: يا فلانة إني أحب أن أسألك وأفاوضك من غير حضور من معي فلا أقدر عليه، فانا أحب إذا رأيته في الدار وحدي أن تتزلي إلي لأسألك عن أمر، فقالت لي مسرعة: وأنا أريد أن أسألك شيئاً فلم يهبط لي ذلك من أجل من معك، فقلت ما أردت أن تقولي؟ فقالت: يقول لك - ولم تذكر أحداً - لا تخاشن أصحابك وشركاءك ولا تلاحهم، فإنهم أعداؤك ودارهم، فقلت لها: من يقول؟ فقالت: أنا أقول، فلم أجسر لما دخل قلبي من البيبة أن أراجعها، فقلت أي أصحابي تعنين؟ فظننت أنها تعني رفقائي الذين كانوا حجاجاً معي قالت: شركاؤك الذين في بلدك وفي الدار معك، وكان جرى بيني وبين الذين معي في الدار عنت في الدين، فسعوا بي حتى هربت واستترت بذلك السبب فوقفت على أنها عنت أولئك، فقلت لها ما تكونين أنت من الرضا؟ فقالت: كنت خادمة للحسن بن علي عليهما السلام، فلما استيقنت ذلك قلت: لأسألها عن الغائب عليه السلام، فقلت: بالله عليك رأيته بعينك، فقالت: يا أخي لم أره بعيني فإني خرجت وأختي حبلى وبشرني الحسن بن علي عليهما السلام بأنني سوف أراه في آخر عمري،

وقال لي: تكوينين له كما كنت لي، وأنا اليوم منذ كذا بمصرو إنما قدمت الآن بكتابة ونفقة وجه بها إلي على يدي رجل من أهل خراسان لا يفصح بالعربية، وهي ثلاثون دينارا وأمرني أن أحج سني هذه فخرجت رغبة مني في أن أراه فوق في قلبي أن الرجل الذي كنت أراه يدخل ويخرج هو هو. فأخذت عشرة دراهم صحاحا، فيها ستة رضوية من ضرب الرضا عليه السلام قد كنت خبأتها لألقها في مقام إبراهيم عليه السلام، وكنت نذرت ونويت ذلك، فدفعتها إليها وقلت في نفسي أدفعها إلى قوم من ولد فاطمة عليها السلام أفضل مما ألقها في المقام وأعظم ثوابا، فقلت لها: ادفعي هذه الدراهم إلى من يستحقها من ولد فاطمة عليها السلام، وكان في نيتي أن نيتي أن الذي رأيته هو الرجل. وإنما تدفعها إليه، فأخذت الدراهم وصعدت وبقيت ساعة ثم نزلت، فقالت: يقول لك: ليس لنا فيها حق إجعلها في الموضع الذي نويت، ولكن هذه الرضوية خذ منا بدلها وألقها في الموضع الذي نويت، ففعلت وقلت في نفسي: الذي أمرت به عن الرجل.

ثم كان معي نسخة توقيع خرج إلى القاسم بن العلاء بأذربيجان فقلت لها: تعرضين هذه النسخة على إنسان قد رأى توقيعات الغائب، فقالت ناولني فإنني أعرفها، فأربتها النسخة وظننت أن المرأة تحسن أن تقرأ فقالت: لا يمكنني أن أقرأ في هذا المكان فصعدت الغرفة ثم أنزلته فقالت: صحيح وفي التوقيع أبشركم ببشرى ما بشرت به (إياه) وغيره. ثم قالت: يقول لك إذا صليت على نبيك صلى الله عليه وآله وسلم. كيف تصلي (عليه)؟ فقلت أقول: اللهم صل على محمد وآل محمد وبارك على محمد وآل محمد كأفضل ما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

فقال: لا إذا صليت عليهم فصل عليهم كلهم وسمهم، فقلت: نعم، فلما كانت من الغد نزلت ومعها دفتر صغير، فقالت: يقول لك: إذا صليت على النبي فصل عليه وعلى أوصيائه على هذه النسخة، فأخذتها وكنت أعمل بها، ورأيت عدة ليال قد نزل من الغرفة وضوء السراج قائم. وكنت أفتح الباب وأخرج على أثر الضوء وأنا أراه - أعني الضوء - ولا أرى أحد حتى يدخل المسجد، وأرى جماعة من الرجال من بلدان شتى يأتون باب هذه الدار، فبعضهم يدفعون إلى العجوز رقاعا معهم، ورأيت العجوز قد دفعت إليهم كذلك الرقاع فيكلمونها وتكلمهم ولا أفهم عنهم، ورأيت منهم في منصرفنا جماعة في طريقي إلى أن قدمت بغداد.

نسخة الدفتر الذي خرج: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وحجة رب العالمين، المنتجب في الميثاق، المصطفى في الظلال، المطهر من كل آفة، البرئ من كل عيب، المؤمل للنجاة، المرتجى للشفاعة، المفوض إليه دين الله..... الغيبة: ٢٧٣ - ٢٨٠.

وأيضاً: روى الشيخ الصدوق بسنده، قال: (حدثنا أبو محمد الحسن بن وجناء النصيبي قال: كنت ساجدا تحت الميزاب في رابع أربع وخمسين حجة بعد العتمة، وأنا أتضرع في الدعاء إذ حركني محرك فقال: قم يا حسن بن وجناء، قال: فقممت فإذا جارية صفراء نحيفة البدن أقول: إنها من أبناء أربعين فما فوقها، فمشت بين يدي وأنا لا أسألها عن شيء حتى أتت بي إلى دار خديجة عليها السلام وفيها بيت باب في وسط الحائط وله درج ساج يرتقى، فصعدت الجارية وجاءني النداء: اصعد يا حسن، فصعدت فوقفت بالباب، فقال لي صاحب الزمان عليه السلام: يا حسن أترأك خفيت علي والله ما من وقت في حرك إلا وأنا معك فيه، ثم جعل يعد علي أوقاتي، فوقعت [مغشياً] على وجهي، فحسست بيد قد وقعت علي فقممت، فقال لي: يا حسن الزم دار جعفر بن محمد عليهما السلام، ولا يهملك طعامك ولا شرابك ولا ما يستر عورتك، ثم دفع إلي دفتر فيه دعاء الفرج وصلاة عليه فقال: بهذا فادع، وهكذا صل عليّ ولا تعطه إلا محفي أوليائي فإن الله جل جلاله موفقك فقلت: يا مولاي لا أراك بعدها؟ فقال: يا

وعموماً، الكتابة ليست السبيل الوحيد للوصية، فبعض الملوك – مثلاً – يعرفون ولي عهدهم بسك تاج له يسمى تاج ولي العهد، أو يورثونه تاج الملك نفسه، أو يورثونه لباساً خاصاً أو خاتماً، وهذه كلها في الحقيقة أخذت من الوصية الأصلية بين الأنبياء وأوصيائهم؛ لأن وجودهم سبق الدول والحكم، بل الملك أصلاً في أغلبه يدعى أنه إلهي وتنصيب إلهي، انظر حكام أو ملوك سومر وهكزا وصولاً إلى ملوك أوربا التي كانت الكنيسة تنصبهم، فالكل يدعي أن الله نصبه بما في ذلك بعض الساسة ورجال الدين اليوم، وبالرغم من كذب مدعاهم لكنهم يدعون!

والنتيجة: الكل يتبعون نهج الأنبياء والأوصياء بتفاصيل كثيرة ومنها الوصية لمن يأتي بعدهم، وكذلك طرقها) انتهى^(١).

صحف شيث وإدريس وزبر الأولين:

قال تعالى: "وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ" الشعراء: ١٩٦. زُبر: جمع زبور، أي ذكر أو كتاب. وأيضاً يكن الأمر المذكور في زبر الأولين^(٢) فقد ذكر المفسرون (بحسب ما استظهروه من الآية) بوجود كتابة وكتب عند الرسل الأوائل، مع أن الكتابة – كما عرفنا – اكتشفت في وقت متأخر عن زمانهم.

حسن إذا شاء الله، قال فانصرفت من حجتي ولزمت دار جعفر بن محمد عليهما السلام فأنا أخرج منها فلا أعود إليها إلا لثلاث خصال: لتجديد وضوء أول نوم أو لوقت الافطار، وأدخل بيتي وقت الافطار فأصيب رباعياً مملوءاً ماء ورغيفاً على رأسه وعليه ما تشتهي نفسي بالنهار، فأكل ذلك فهو كفاية لي، وكسوة الشتاء في وقت الشتاء، وكسوة الصيف في وقت الصيف، وإني لأدخل الماء بالنهار فأرش البيت وأدع الكوز فارغاً فأوتي بالطعام ولا حاجة لي إليه فاصدق به ليلاً كيلا يعلم بي من معي) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٤٣ – ٤٤٤.

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٢- قيل: إنه القرآن، انظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ٨ / ٦٢؛ مجمع البيان، الطبرسي: ٣٥٣ / ٧؛ تفسير الميزان، الطباطبائي: ١٥ / ٣٢٠؛ جامع البيان عن أي القرآن، الطبري: ١٩ / ١٣٧؛ وبحسب روايات آل محمد صلوات الله عليهم هو: ولاية أمير المؤمنين صلوات الله عليه، انظر: البرهان في تفسير القرآن، البحراني: ١٨٣ / ٤.

وأيضاً: ورد في بعض النصوص ذكر "صحف شيث" و"صحف إدريس"، فمثلاً: ورد أن اسم الرسول محمد صلى الله عليه وآله مذكور فيهما: "وفي صحف شيث: طاليثا، وفي صحف إدريس: بهيائيل، وفي صحف إبراهيم: مود مود"^(١).

ولو استثنينا عصر إبراهيم لتأخره عن اكتشاف الكتابة، فإنَّ عصر شيث وحفيده إدريس عليهما السلام لم تكن الكتابة مكتشفة فيه قطعاً، ومن ثمَّ نتساءل: ما معنى أن يُوصف ما عند شيث وإدريس بالصحف أو الكتب وهو وصف ربما يوحي بأنَّ الأمر فيه تناقض تاريخي عليّ إذ لم تكن الكتابة مكتشفة في ذلك الوقت حتماً!

المفسرون فهموا من "زبر الأولين" أنها كانت كتباً، وكذلك مسألة صحف شيث وإدريس عليهما السلام، والكتب التي يقصدونها هي أوراق أو ألواح فيها كتابة بخط معين، ولذا ذكر بعضهم أن إدريس كان يكتب بل أول من خط بالقلم^(٢)!

لكن يمكن لأي باحث عليّ تاريخي أن يشكل بأنَّ الكتابة لم تكن مكتشفة بعدُ في ذلك الوقت!

والصحيح أنَّ المقصود بالكتب أو الصحف في النصوص المتقدمة هو المضمون والحقائق وليس الكتاب أو الصحيفة بمعناها المتعارف اليوم كما فهم المفسرون، بل لفظ "كتاب" أحياناً يطلق ويراد به الوحي الإلهي أو بعض الحقائق العلوية، وأيضاً: يمكن أن يكون إطلاق كتب أو صحف عليها بلحاظ حالتها المتأخرة؛ باعتبار أنَّ مضامينها دونت لاحقاً بعد اكتشاف الكتابة.

يقول السيد أحمد الحسن: (كلمة "كتاب" في القرآن قد لا تعني الكتابة التي نعرفها فما بالك بغيرها، مثلاً: السماء الأولى وجود أعلى من هذا العالم وأعلى من المادة والطاقة، عالم لا يوجد فيه حروف ولا ألفاظ حتى تكتب أصلاً).

١- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ١ / ١٣٢. وذكر بعضهم أنَّ صحف شيث خمسون صحيفة وصحف إدريس ثلاثون صحيفة، انظر: تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٤ / ٣٢٥.

٢- انظر مثلاً: بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٢٧٠؛ فتح الباري، ابن حجر: ٦ / ٢٦٧.

قال تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" ص: ٢٩.

القرآن لم ينزل كتاباً بالمعنى المعروف لدينا اليوم، أي ورق أو ألواح وما شابه وبالتالي لم ينزل بطريقة مكتوبة، بل ولم يكن قد نزل بالفاظ، وإنما نزل وحياً من الله في نفس الرسول صلى الله عليه وآله، أما الألفاظ واللغة التي نعرفها عموماً فهي من لوازم هذا العالم، فإلى السماء الأولى لم يكن القرآن لفظياً عند نزوله، وإذا لم تكن الألفاظ واللغة موجودة فأکید الكتابة غير موجودة، وأما تسميته "كتاباً"؛ فبناءً على وجوده في السماوات والعوالم العلوية، وأيضاً: بناءً على أنه سيكتب لاحقاً، وفعلاً كتب القرآن بعد ذلك.

والأمر نفسه بالنسبة إلى بقية الرسل، أي: إنَّ ما نزل على آدم وشيث وادريس وإبراهيم عليهم السلام هو وحي إلهي ولم يكن كتباً بالفاظ مكتوبة، وتسميتها بالكتب كما قلنا؛ إما بناءً على وجودها وحقيقتها في العوالم العلوية، أو بناءً على أنها كُتبت بعد ذلك، فما كتبه السومريون في ألواحهم وما نقلوه من حكم ودين إنما هو كلام الأنبياء؛ كلام آدم وشيث وادريس ... إلخ، ولهذا نجد الأديان الرئيسية تشترك بأصول ومفاهيم واحدة، وهو أمر يؤكد أنَّ تعاليم الرسل الأوائل كُتبت، وأيضاً: يؤكد رجوع الأديان جميعاً إلى أصل واحد وهو دين الله الذي بعث به آدم عليه السلام ثم من تلاه من الرسل، وبالطبع فقد طال كتابة تعاليم الرسل التحريف بمرور الوقت لكنها بالنتيجة كتبت.

وأما في السماوات: فالله سبحانه أسى القرآن بـ "الكتاب، قال تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" آل عمران: ٧.

"هو الذي أنزل عليك الكتاب": القرآن لم ينزل كتاباً ولا حتى آياته المحكمات، فمثلاً: لم تنزل صحيفة مكتوب فيها الآيات، وإنما نزل وحي، بل حتى من يرى أنَّ الذي نزل ألفاظ فهو إذن يعتبره وحياً لفظياً (وطبعاً، لا يوجد شيء اسمه وحي لفظي) والنتيجة هو ليس كتاباً بمعناه المعروف لدينا، وهذا يؤكد على أنَّ اللفظ وكذا النقل الشفوي يمكن أن يسمى كتاباً ويسمى صحفاً.

أما من يصر على وجود كتب في زمن الرسل الأوائل بمعناها المتعارف وقبل اكتشاف الكتابة، فكلامه لا قيمة علمية ولا دينية له) انتهى^(١).

والخلاصة: إنَّ ما نزل على الرسل الأوائل هو وحي الله تم بثه بين الناس بشكل شفوي وتناقلته الأجيال شفويًا أيضاً ثم دَوَّن بعد اكتشاف الكتابة في سومر سنة ٣٠٠٠ ق.م، وأما تسميته بالصحف فهو لأمرين كما تقدم؛ الأول: بحسب حقيقته في العوالم العلوية، والثاني: بحسب حالته المتأخرة وأنه سيتم تدوينه.

وهذا يعني أنَّ ما يكثر تناقله لدى المؤرخين أو المحدثين من أنَّ إدريس عليه السلام (الذي بعث قبل نوح عليه السلام) كان أول من كتب هو أمر غير صحيح، والصحيح أنَّ الكتابة كانت بعد نوح بفترة طويلة تمتد لآلاف السنين.

وفاة آدم (ع):

بعد أن أدَّى آدم عليه السلام رسالة الله التي كُفِّ بتبليغها للناس، وبعد أن أوصى لولده هبة الله "شيث" وبشَّر بحفيده "نوح" التالي له بعد آلاف السنين، توفي نبي الله آدم صلوات الله عليه فجهره ولده هبة الله وصلى عليه بتعليم من جبرئيل عليه السلام:

يتم الإمام الباقر عليه السلام النص المتقدم (رواية الكافي) فيقول:

(.....) ثم إنَّ آدم عليه السلام مرض المرضة التي مات فيها فأرسل هبة الله وقال له: إن لقيت جبرئيل أو من لقيت من الملائكة فاقرأه مني السلام وقل له: يا جبرئيل إنَّ أبي يستهيك من ثمار الجنة، فقال له جبرئيل: يا هبة الله إنَّ أباك قد قبض وإنا نزلنا للصلاة عليه فارجع فرجع فوجد آدم عليه السلام قد قبض فأراه جبرئيل كيف يغسله فغسله حتى إذا بلغ الصلاة عليه، قال هبة الله: يا جبرئيل تقدم فصلِّ على آدم فقال له جبرئيل: إنَّ الله عز وجل أمرنا أن نسجد لأبيك آدم وهو في الجنة فليس لنا أن نؤم شيئاً من ولده، فتقدم هبة الله فصلّى على أبيه وجبرئيل خلفه وجنود الملائكة وكبر عليه ثلاثين تكبيرة فأمر

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

جبرئيل عليه السلام فرفع خمساً وعشرين تكبيرة - والسنة اليوم فينا خمس تكبيرات، وقد كان يكبر على أهل بدر تسعاً وسبعاً^(١).

ومسألة رفض جبرئيل التقدم على وصي آدم عليه السلام في الصلاة تؤكد أنّ خلافة الله (النبوة، الرسالة، الإمامة) أمر مناط بالإنسان؛ المخلوق الأكمل فطرة: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" الروم: ٣٠، ومن يحافظ عليها (كآدم وولده الأوصياء والأولياء) يكون أرقى وأعلى مقاماً من ملائكة الله المقربين، لأن الإنسان - كما تقدم - مفطور على معرفة أسماء الله كلها، وليست الملائكة كذلك.

الباب مفتوح أمام الإنسان من جهة الارتقاء للتكامل، وبمقتضى حكمة الله وعدله في دنيا الامتحان أن ترك الباب مفتوحاً أيضاً أمامه من جهة التسافل، فعلى نقيض ما اختاره هبة الله (ابن آدم الوصي) من طهارة وقدس استحق به مقام الخلافة والوصاية اختار قابيل (ابن آدم الشقي) طريق الجحود والتكبر، ولهذا فبمجرد أن توفي آدم عليه السلام جاء الشقي قابيل مسرعاً ليهدد أخاه الوصي "هبة الله" وأنه سيلقى نفس مصير هابيل إن هو أقدم على الإعلان والاستمرار ببيان العلم الإلهي الذي اختصه به أبوه آدم عليه السلام؛ الأمر الذي اضطر معه هبة الله إلى تبليغ رسالة الله بطريق الاستتار؛ تفادياً لردة فعل الباطل القوية التي قد تهدد مصير الرسالة الإلهية وهي لا زالت في طور النشوء كما نعلم^(٢).

يتم الإمام الباقر صلوات الله عليه كلامه المتقدم (رواية الكافي) فيقول:

(..... ثم إن هبة الله لما دفن أباه أناه قابيل فقال: يا هبة الله إني قد رأيت أبي آدم قد خصك من العلم بما لم أخص به أنا وهو العلم الذي دعا به أخوك هابيل فتقبل قربانه وإنما قتلته لكيلا يكون له عقب فيفتخرون على عقي فيقولون: نحن أبناء الذي تقبل

١- الكافي، الكليني: ٨ / ١١٤. وروى الحاكم النيسابوري بسنده: (عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترأوا وألحدوا له وقالوا هذه سنة آدم في ولده هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه) المستدرک على الصحيحين: ٢ / ٥٤٥.

٢- (قال هشام بن الحكم قال أبو عبد الله عليه السلام: لما أمر الله آدم أن يوصي إلى هبة الله أمره أن يستردك فجرت السنة في ذلك بالكتمان فأوصى إليه واستردك) تفسير العياشي: ١ / ٣١١.

قربانه وأنتم أبناء الذي ترك قربانه فإنك إن أظهرت من العلم الذي اختصك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل فلبث هبة الله والعقب منه مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث النبوة وأثار علم النبوة حتى بعث الله نوحاً عليه السلام وظهرت وصية هبة الله حين نظروا في وصية آدم عليه السلام فوجدوا نوحاً عليه السلام نبياً قد بشر به آدم عليه السلام فأمنوا به واتبعوه وصدّقوه وقد كان آدم عليه السلام وصى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يوم عيدهم فيتعاهدون نوحاً وزمانه الذي يخرج فيه وكذلك جاء في وصية كل نبي حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله، وإنما عرفوا نوحاً بالعلم الذي عندهم وهو قول الله عز وجل: "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه - إلى آخر الآية -".

وكان من بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين ولذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يُسموا كما سمي من استعلن من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهو قول الله عز وجل: "ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك" يعني لم أسم المستخفين كما سميت المستعلنين من الأنبياء عليهم السلام.^(١).

وورد في نص آخر: عن حبيب السجستاني عن الإمام الباقر عليه السلام، قال:

(..... فلما كان اليوم الذي أخبر الله أنه متوفيه فيه تهيأ آدم للموت وأذعن به قال: وهبط عليه ملك الموت فقال آدم: دعني يا ملك الموت حتى أتشهد وأثني على ربي بما صنع عندي من قبل أن تقبض روحي فقال آدم: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أني عبد الله وخليفته في أرضه ابتدأني بإحسانه وخلقني بيده ولم يخلق خلقاً بيده سواي ونفخ في من روحه، ثم أجمل صورتني ولم يخلق على خلقي أحدا قبلي، ثم أسجد لي ملائكته وعلمني الأسماء كلها ولم يعلمها ملائكته ثم أسكنني جنته ولم يكن يجعلها دار قرار ولا منزل استيطان، وإنما خلقتني الأرض للذي أراد من التقدير والتدبير وقد رذل كل من قبل أن يخلقني، فمضيت في قدره وقضائه ونافذ أمره، ثم نهاني أن أكل من الشجرة

فعصيته وأكلت منها، فأقالي عثرتي وصفح لي عن جرمي، فله الحمد على جميع نعمه عندي حمداً يكمل به رضاه عني.

قال: فقبض ملك الموت روحه صلوات الله عليه، فقال أبو جعفر: ان جبرئيل نزل بكفن آدم وبنحوطه والمسحاة معه قال: ونزل مع جبرئيل سبعون ألف ملك ليحضروا جنازة آدم عليه السلام قال: فغسله هبة الله وجبرئيل كفنه وحنطه، ثم قال: يا هبة الله تقدم فصل على أبيك وكبر عليه خمساً وعشرين تكبيرة، فوضع سرير آدم ثم قدم هبة الله وقام جبرئيل عن يمينه والملائكة خلفهما، فصلى عليه وكبر عليه خمسا وعشرين تكبيرة وانصرف جبرئيل والملائكة، فحفروا له بالمسحاة ثم أدخلوه في حفرته، ثم قال جبرئيل يا هبة الله هكذا فافعلوا بموتاكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

فقال أبو جعفر عليه السلام: فقام هبة الله في ولد أبيه بطاعة الله وبما أوصاه أبوه، فاعتزل ولد الملعون قابيل فلما حضرت وفات هبة الله أوصى إلى ابنه قينان وسلم إليه التابوت وما فيه وعظام آدم ووصية آدم وقال له: إن أنت أدركت نبوة نوح فاتبعه واحمل التابوت معك في فلكه ولا تخلفن عنه فان في نبوته يكون الطوفان والغرق، فمن ركب في فلكه نجا ومن تخلف عنه غرق.

قال: فقام قينان بوصية هبة الله في اخوته وولد أبيه بطاعة الله قال: فلما حضرت قينان الوفاة أوصى إلى ابنه مهلائيل وسلم إليه التابوت وما فيه والوصية، فقام مهلائيل بوصية قينان وسار بسيرته فلما حضرت مهلائيل الوفاة أوصى إلى ابنه يرد، فسلم إليه التابوت وجميع ما فيه والوصية، فتقدم إليه في نبوة نوح، فلما حضرت وفاة يرد أوصى إلى ابنه أخنوخ وهو إدريس فسلم إليه التابوت وجميع ما فيه والوصية، فقام أخنوخ بوصية يرد، فلما قرب أجله أوحى الله إليه أني رافعك إلى السماء وقابض روحك في السماء فأوص إلى ابنك خرقا سيل فقام خرقا سيل بوصية أخنوخ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه نوح، وسلم إليه التابوت وجميع ما فيه والوصية.

قال: فلم يزل التابوت عند نوح حتى حمله معه في فلكه فلما حضرت النوح الوفاة أوصى إلى ابنه سام، وسلم التابوت وجميع ما فيه والوصية.

قال حبيب السجستاني ثم انقطع حديث أبي جعفر عليه السلام عندها^(١).

موضع دفن آدم والتابوت:

موضع دفن آدم:

مسألة حمل نوح عليه السلام لرفات جده آدم عليه السلام معه في السفينة عندما حدث الطوفان أمر تؤكدته نصوص دينية كثيرة، وإضافة لما تقدم هذان نصان آخران:

الرواندي: (قال وهب: فلما حضرت آدم عليه السلام الوفاة أوصى إلى شيث، وحفر لآدم في غار في أبي قبيس يقال له: غار الكنز فلم يزل آدم في ذلك الغار حتى كان في زمن الغرق استخرجه نوح صلوات الله عليه في تابوت وجعله معه في السفينة)^(٢).

ابن كثير: (قال: وذكر ابن إسحاق: أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنييه أن الطوفان سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة، وأن يدفنوه [معهم] في مكان عيّنه لهم. فلما كان الطوفان حملوه معهم، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنييه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى)^(٣).

أما أين دفنه نوح عليه السلام بعد أن رست سفينته على اليابسة؟

الجواب: الأمر لما كان غيبياً فلا سبيل لتعيينه على وجه الدقة إلا بنص من رسل الله، وهذه بعض النصوص الدينية التي عيّن فيها آل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم موضع دفن آدم عليه السلام، ويظهر منها أنه نفسه الموضع الذي دفن فيه نوح عليه السلام لاحقاً، كما أنه الموضع نفسه الذي دفن فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله

١- تفسير العياشي: ١/ ٣٠٦ - ٣٠٩.

٢- قصص الأنبياء، الراوندي: ٧٥.

٣- قصص الأنبياء، ابن كثير: ٢/ ٢١٤ - ٢١٥.

عليه ^(١)، ولهذا ورد "زيارة نبي الله آدم" ضمن آداب زيارة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ^(٢).

١- (عن المفصل بن عمر الجعفي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إني اشتاق إلى الغري فقال: فما شوقك إليه؟ فقلت: له إني أحب أن أزور أمير المؤمنين عليه السلام فقال: هل تعرف فضل زيارته؟ فقلت: لا يا بن رسول الله إلا أن تعرفني ذلك قال: إذا زرت أمير المؤمنين عليه السلام فاعلم أنك زائر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت: إن آدم عليه السلام هبط بسرانديب في مطلع الشمس وزعموا أن عظامه في بيت الله الحرام فكيف صارت عظامه بالكوفة؟ فقال: إن الله عز وجل أوحى إلى نوح عليه السلام وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً، فطاف بالبيت كما أوحى الله تعالى إليه، ثم نزل في الماء إلى ركبتيه فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم عليه السلام فحملة في جوف السفينة حتى طاف ما شاء الله أن يطوف، ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجددها ففما قال الله تعالى للأرض: "ابلي ماءك" فبلعت ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة، فأخذ نوح عليه السلام التابوت فدفعه في الغري، وهو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً صلى الله عليه وآله حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً، فوالله ما سكن فيه بعد أبويه الطيبين آدم ونوح أكرم من أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب فإنك زائر الأباء الأولين ومحمداً خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين، وإن زائرته تفتح له أبواب السماء عند دعوته فلا تكن عن الخير نواماً) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦ / ٢٣.

(عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أين دفن أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: دفن في قبر أبيه نوح، قلت: وأين قبر نوح؟ الناس يقولون: إنه في المسجد قال: لا، ذلك في ظهر الكوفة) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦ / ٣٤.

(عن عبد الرحيم القصير، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قبر أمير المؤمنين، فقال: أمير المؤمنين مدفون في قبر نوح، قلت: ومن نوح؟ قال: نوح النبي عليه السلام، قلت: كيف صار هذا؟ فقال: إن أمير المؤمنين صديق هيا الله مضجعه في مضجع صديق) فرحة الغري، ابن طاووس: ٧٨.

٢- (زيارة أبي البشر آدم صلى الله عليه:

تقف على ضريح أمير المؤمنين عليه السلام وتقول: السلام عليك يا صفى الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا خليفة الله في أرضه، السلام عليك يا أبا البشر، سلام الله عليك وعلى روحك وبدنك، وعلى الطاهرين من ولدك وذريتك، صلاة لا يحصيها إلا هو ورحمة الله وبركاته.

باب الوداع: فإذا قضيت نسكك وأردت الانصراف فقف على القبر كوقوفك عليه في ابتداء زيارتك، وتستقبله بوجهك وتجعل القبلة بين كتفيك، تقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين وعلى ضجيعيك آدم ونوح ورحمة الله وبركاته، أستودعكم الله وأسترعيكم وأقرأ عليكم السلام، آمنا بالله وبالرسل، وبما جاءت به ودلت عليه، اللهم اكتبنا مع الشاهدين) المزار، المشهدي: ١٩٢ - ١٩٣.

وبمناسبة ذكر وفاة آدم ودفنه وزيارته، هذه صلاة كان الإمام علي بن الحسين صلوات الله عليه يصلي بها على أبيه آدم عليه السلام:

(الصلاة على آدم عليه السلام:

اللهم وأدم بديع فطرتك، وأول معترف من الطين ببرؤيتك وبكر حجتك على عبادك وبريتك، والدليل على الاستجارة بعفوك من عقابك، والناهج سبل توبتك، والموسل بين الخلق وبين معرفتك، والذي لقنته ما رضيت به عنه، بمنك عليه ورحمتك له، والمنيب الذي لم يصر على معصيتك، وسابق المتذللين بحلق رأسه في حرمك، والمتوسل بعد المعصية بالطاعة إلى عفوك، وأبو الأنبياء الذين أوذوا في جنبك، وأكثر سكان الأرض سعياً في طاعتك. فصلٍ عليه أنت يا رحمن وملانكتك وسكان سماواتك وأرضك، كما عظم حرمايتك، ودلنا على سبيل مرضاتك، يا أرحم الراحمين^(١).

التابوت:

أما "التابوت" الذي ورد ذكره ضمن موارث آدم عليه السلام لوصيه هبة الله ثم من هبة الله إلى وصيه وهكذا من وصي إلى وصي وصولاً إلى نوح عليه السلام واستمر توريث التابوت بعده، فهو إشارة إلى العلم الإلهي الذي اختص الله به رسله وخلفائه في أرضه، فهو أمر يتوارث كما أكدته النصوص الدينية^(٢).

التابوت الذي يتوارثه الأنبياء والرسل هو "العلم"، وهو سلاحهم الذي يواجهون به ظلمات الجهل في دنيا الامتحان، وهو نفسه الذي آل أمره إلى أنبياء بني إسرائيل:

١- الصحيفة السجادية (أبطلج): ٣٩.

٢- (عن الفضيل بن يسار قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إن العلم الذي هبط مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وإنه لم يمت عالم إلا خلف من بعده من يعلم مثل علمه أو ما شاء الله) المحاسن، البرقي: ١ / ٢٣٥.

قال تعالى: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ" البقرة: ٢٤٨.

(عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: "يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة" قال: رضراض الألواح فيها العلم والحكمة)^(١).

ونفس هذا التابوت "موايذ علم الأنبياء" آل أمره بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله إلى آل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم:

(باب: "أن مثل سلاح رسول الله مثل التابوت في بني إسرائيل")

١- ... عن سعيد السمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل أي أهل بيت وجد التابوت على بابهم أوتوا النبوة فمن صار إليه السلاح منا أوتي الإمامة.

٢- ... عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني إسرائيل، حيثما دار التابوت دار الملك، فأينما دار السلاح فينا دار العلم.

٣- ... عن صفوان، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني إسرائيل حيثما دار التابوت أوتوا النبوة، وحيثما دار السلاح فينا فثم الأمر، قلت: فيكون السلاح مزايلاً للعلم؟ قال: لا.

٤- ... عن ابن أبي نصر، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إنما مثل السلاح فينا كمثّل التابوت في بني إسرائيل أينما دار التابوت دار الملك، وأينما دار السلاح فينا دار العلم^(١).

واضح أنّ السلاح = العلم، ولهذا تدور معه الإمامة حيثما دار^(٢)، ولهذا وصف آل محمد عليهم السلام بأنهم تابوت علم الله^(٣).

أنبياء بعد آدم:

الفاصل الزمني بين آدم ونوح عليهما السلام طويل ويقدر بالآلاف السنين كما عرفنا، وخلال هذه الفترة بعث الله الكثير من الأنبياء عليهم السلام، ونحن سنتطرق لذكر أحدهم بنحو مختصر، وهو نبي الله إدريس عليه السلام.

١- الكافي، الكليني: ١ / ٢٣٨.

٢- (عن ابن أبي نصر قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إذا مات الإمام بم يُعرف الذي بعده؟ فقال: للإمام علامات منها أن يكون أكبر ولد أبيه ويكون فيه الفضل والوصية، ويقدم الركب فيقول: إلى من أوصى فلان؟ فيقال: إلى فلان، والسلاح فينا بمنزلة التابوت في بني إسرائيل، تكون الإمامة مع السلاح حيثما كان) الكافي، الكليني: ١ / ٢٨٤.

٣- عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله بات آل محمد عليهم السلام بأطول ليلة حتى ظنوا أن لا سماء تظلمهم ولا أرض تقلهم لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وتر الأقربين والأبعدين في الله، فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة ونجاة من كل هلكة ودركاً لما فات "كل نفس ذائقة الموت" وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" إن الله اختاركم وفضلكم وطهركم وجعلكم أهل بيت نبيه واستودعكم علمه وأورثكم كتابه وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه وضرب لكم مثلاً من نوره وعصمكم من الزلل وأمّنكم من الفتن، فتعزوا بعزاء الله، فإن الله لم ينزع منكم رحمته ولن يزيل عنكم نعمته، فأنتم أهل الله عز وجل الذين بهم تمت النعمة واجتمعت الفرقة وانتلفت الكلمة وأنتم أولياؤه، فمن تولاكم فاز ومن ظلم حَقكم زهق) الكافي، الكليني: ١ / ٤٤٥ - ٤٤٦.

إدريس (٤):

قال تعالى: "وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا" مريم: ٥٦

— ٥٧.

نبي الله إدريس (بحسب القرآن)، أو أخنوخ (بحسب التوراة)، أو هانوك (بحسب نصوص الهندوس)^(١)، أحد الأنبياء الذين توسّطوا بين آدم ونوح عليهما السلام في الفترة الزمنية التي فصلت بينهما، فهو أحد أحفاد آدم وأحد أجداد نوح عليهم السلام.

المسعودي: (أخنوخ هو إدريس النبي عليه السلام والصابئة تزعم أنه هرمس، ومعنى هرمس عطارد، وهو الذي أخبر الله في كتابه أنه رفعه مكاناً علياً، وكان عالماً بالنجوم، وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة، وقيل: أكثر من ذلك، وهو أول من طرز الطرز وخاط بالإبرة، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة، وكان نزل قبل ذلك على آدم إحدى وعشرون صحيفة، ونزل على شيث تسعة وعشرون صحيفة فيما تهليل وتسبيح)^(٢).

ابن الأثير: (وقام أنوش بن شيث بعد موت أبيه بسياسة الملك وتدير من تحت يديه من رعيته مقام أبيه لا يوقف منه على تغيير ولا تبديل فكان جميع عمر أنوش سبعمائة وخمس سنين وكان مولده بعد أن مضى من عمر أبيه شيث ستمائة سنة وخمس سنين وهذا قول أهل التوراة).

وقال ابن عباس: ولد لشيث أنوس وولد معه نفرأ كثيراً وإليه أوصى شيث ثم ولد لأنوش بن شيث ابنه قينان من أخته نعمة بنت شيث بعد مضي تسعين سنة من عمر أنوش وولد معه نفرأ كثيراً وإليه الوصية وولد قينان مهلائيل ونفرأ كثيراً معه وإليه الوصية وولد مهلائيل يرد وهو اليارد، ونفرأ معه وإليه الوصية فولد يرد خنوخ وهو إدريس النبي ونفرأ معه وإليه الوصية وولد خنوخ متوشلخ ونفرأ معه وإليه الوصية.

١- سياأتي بيان بعض ما يخص الديانة الهندوسية في البحوث القادمة.

٢- مروج الذهب ومعادن الجواهر: ١ / ٥٠.

وأما التوراة ففيها أنَّ مهلائيل ولد بعد أن مضى من عمر آدم عليه السلام ثلاثمائة وخمسة وتسعون سنة ومن عمر قينان سبعون وولد يرد لمهلائيل بعد ما مضى من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة فكان على منهاج أبيه غير أن الأحداث بدأت في زمانه (١).

النص الذي ذكره "ابن الأثير" يؤكد الحقيقة الدينية التي أشارت لها روايات آل محمد عليهم السلام التي تقدمت، حيث أكدت عدم خلو الأرض من حجة (رسول إلهي)، كما أكدت أنَّ الوصية يتم تناقلها بين الأوصياء من ذرية آدم عليه السلام حتى أخروصي ورسول إلهي على هذه الأرض، لكن ينبغي الانتباه إلى أمرين:

الأول: إنَّ النصوص الدينية (وكذا التاريخية المستندة لها) لا تذكر جميع الرسل وإنما تكتفي بذكر المهمين منهم عادة، وبالتالي فجعل إدريس عليه السلام سادس ولد آدم عليه السلام لا يعني أنه السادس على وجه الدقة، وقد تقدم بيان ما يرتبط بهذه النقطة عند عرض وصية آدم بنوح عليهما السلام.

الثاني: إنَّ أرقام الأعمار المذكورة في النصوص لآدم وأبنائه الأوصياء كبيرة جداً ولا تتناسب مع الطبيعة البيولوجية للإنسان على هذه الأرض بحسب الثابت علمياً والواقع المشاهد أيضاً، وهو أمر لا يقتصر على الروايات وحسب ولكن يشمل أيضاً آيات الكتب المقدسة كالقرآن الكريم وكذا التوراة اللذين أعطيا عمراً لدعوة نوح بلغ ألف سنة إلا خمسين، بل الأمر نفسه يمكن ملاحظته في الألواح السومرية في "ثبت الملوك" الذي ذكر أرقاماً كبيرة لأعمار ملوك مرحلة ما قبل الطوفان، فالمسألة كما يبدو سيالة في نصوص الدين الإلهي عموماً، وقد تمكن السيد أحمد الحسن من حلّها بشكل يحافظ فيه على النص الديني والحقيقة العلمية معاً، وسيأتي بحث المسألة لاحقاً.

نبوة إدريس:

بالتأكيد، دليل نبوة إدريس عليه السلام قائم على انطباق فقرات القانون الإلهي (القانون الخاص بتشخيص الرسل ومعرفتهم) عليه، أعني: النص، العلم، الدعوة إلى الله.

أما النص فقد عرضنا فيما سبق وصية آدم ونصه على الأوصياء من ولده وكان اسم إدريس من ضمنهم، وأما العلم فقد عرفنا من النصوص المتقدمة أيضاً أن الله أنزل عليه صحفاً تلامضونها على قومه بالتأكيد، وهي تحوي العلم الإلهي الذي اختصه الله به دون أهل زمانه ^(١). ولذلك روي عن سبب تسميته: (إنما سمي إدريس لكثرة ما كان يدرس من حكم الله عز وجل وسنن الإسلام وهو بين أظهر قومه) ^(٢).

وكانت صحف إدريس عليه السلام تضم تعاليم ومواعظ إلهية ^(٣).

ومن يقرأ سنن إدريس عليه السلام – بحسب النصوص – يجد فيها الصلاة والصيام والحث على تقوى الله وغير ذلك مما هو ثابت في الدين الإلهي عموماً ^(٤).

١- (عن أبي ذر في حديث طويل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب، قال: مئة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان) الجواهر السنية، الحر العاملي: ٢٥.

٢- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٢٧.

٣- مما ورد في صحفه: (فكانك بالموت قد نزل، فاشتد أنينك، وعرق جبينك، وتقلصت شفتاك، وانكسر لسانك، وبس ريقك، وعلا سواد عينيك بياض، وأزبد فوك، واهتز جميع بدنك، وعالجت غصة الموت وسكرته ومرارته وزعقته، ونوديت فلم تسمع، ثم خرجت نفسك وصرت جيفة بين أهللك، إن فيك لعبرة لغيرك، فاعتبر في معاني الموت، إن الذي نزل نازل بك لا محالة، وكل عمرو إن طال فعن قليل يفتي، لأن كل ما هو آت قريب لوقت معلوم، فاعتبر بالموت يامن يموت، واعلم أيها الإنسان أن أشد الموت ما قبله، والموت أهون مما بعده من شدة أهوال يوم القيامة) سعد السعود، ابن طاووس: ٣٨؛ بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٢٨٢.

٤- ورد من بين سنن إدريس عليه السلام:

- (اعلموا واستيقنوا أن تقوى الله هي الحكمة الكبرى، والنعمة العظمى، والسبب الداعي إلى الخير، والفتاح لأبواب الخير والفهم والعقل، لأن الله لما أحب عباده وهب لهم العقل واختص أنبياءه وأولياءه بروح القدس، فكشفوا لهم عن سرائر الديانة وحقائق الحكمة لينتهوا عن الضلال ويتبعوا الرشاد، ليتقرر في نفوسهم أن الله أعظم من أن تحيط به الأفكار، أو تدركه الأبصار، أو تحصله الأوهام، أو تحده الأحوال وأنه المحيط بكل شئ والمدير له كما شاء،

بدء نبوته:

أما بدء نبوة إدريس عليه السلام، فقد قال الإمام الباقر عليه السلام:

(كان بدء نبوة إدريس عليه السلام أنه كان في زمانه ملك جبار وإنه ركب ذات يوم في بعض نزهه فمر بأرض خضرة لعبد مؤمن من الرافضة فأعجبته، فسأل وزراره: لمن هذه الأرض؟ قالوا: لعبد من عبد الملك فلان الرافضي، فدعا به فقال له: أمتعني بأرضك هذه، فقال له: عيالي أحوج إليها منك، قال: فسمني بها أثنى لك، قال: لا أمتعك ولا أسومك دع عنك ذكرها، فغضب الملك عند ذلك وأسف وانصرف إلى أهله وهو مغمو م مفكر في أمره، وكانت له امرأة من الأزارقة وكان بها معجباً يشاورها في الأمر إذا نزل به، فلما استقر في مجلسه بعث إليها ليشاورها في أمر صاحب الأرض فخرجت إليه فرأت في وجهه الغضب، فقالت له: أيها الملك ما الذي دهاك حتى بدا الغضب في وجهك قبل فعلك فأخبرها بخبر الأرض وما كان من قوله لصاحبها ومن قول صاحبها له فقالت: أيها الملك إنما يغتم ويأسف من لا يقدر على التغيير والانتقام وإن كنت تكره أن تقتله بغير حجة فأنا أكفيك أمره واصبر أرضه بيدك بحجة لك فيها العذر عند أهل مملكتك، قال: وما هي؟ قالت: أبعث إليه أقواماً من أصحابي أزارقة حتى يأتوك به فيشهدوا عليه عندك إنه قد

لا يتعقب أفعاله، ولا تدرك غاياته، ولا يقع عليه تحديد ولا تحصيل ولا مشار ولا اعتبار ولا فطن ولا تفسير ولا تنتهي استطاعة المخلوقين إلى معرفة ذاته ولا علم كنهه).

- (ادعوا الله في أكثر أوقاتكم متعاضدين متألّبين في دعائكم فإنه إن يعلم منكم التظافر والتوازي يحب دعاءكم ويقض حاجاتكم، ويبلغكم آمالكم، ويفض عطاياه عليكم من خزائنه التي لا تقي).

- (إذا دخلتم في الصيام فطهروا نفوسكم من كل دنس ونجس، وصوموا لله بقلوب خالصة صافية منزّهة عن الأفكار السيئة والهواجس المنكرة، فإن الله سيحبس القلوب اللطخة والنيات المدخولة ومع صيام أفواهكم من المأكّل فلتصم جوارحكم من المأثم، فإن الله لا يرضى منكم أن تصوموا من المطاعم فقط، لكن من المناكير كلها والفواحش بأسرها، وإذا دخلتم في الصلاة قاصروا لها خواطركم وأفكاركم، وادعوا الله دعاء طاهراً متفرغاً، وسلوه مصالحكم ومنافعكم بخشوع وخشوع وطاعة واستكانة، وإذا بركتم وسجدتم فأبعدوا عن نفوسكم أفكار الدنيا وهواجس السوء وأفعال الشر واعتقاد المكروا المأكّل السحت والعدوان والأحقاد وأطرحوا بينكم ذلك كله).

- (أدوا فرائض صلوات كل يوم وهي ثلاث: الغداة وعددها ثمان سور، وكل سورتين ثلاث سجّدت بثلاث تسبيحات، وعند انتصاف النهار خمس سور، وعند غروب الشمس خمس سور بسجودهن، هذه المكتوبة عليكم ومن زاد عليها متنفلاً فله على الله المزيد في الثواب) بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٢٨٣ - ٢٨٤.

برئ من دينك فيجوز لك قتله وأخذ أرضه، قال: فافعلي ذلك قال: فكان لها أصحاب من الأزارقة على دينها يرون قتل الرافضة من المؤمنين، فبعثت إلى قوم منهم فأتوهم فأمرتهم أن يشهدوا على فلان الرافضي عند الملك أنه قد برئ من دين الملك فشهدوا عليه أنه قد برئ من دين الملك فقتله واستخلص أرضه، فغضب الله للمؤمن عند ذلك فأوحى الله إلى إدريس عليه السلام أن ائت عبيدي هذا الجبار فقل له: أما رضيت أن تقتل عبيدي المؤمن ظلماً حتى استخلصت أرضه خالصة لك فأحوجت عياله من بعده وأجعتهم؟ أما وعزتي لانتقمن له منك في الآجل، ولأسلبنك ملكك في العاجل، ولأخرين مدينتك، ولأذلن عرك، ولأطعمن الكلاب لحم امرأتك، فقد غرك يا مبتلى حلمي عنك.

فأتاه إدريس عليه السلام برسالة ربه وهو في مجلسه وحوله أصحابه. فقال: أيها الجبار إني رسول الله إليكم وهو يقول لك: أما رضيت أن تقتل عبيدي المؤمن ظلماً حتى استخلصت أرضه خالصة لك، وأحوجت عياله من بعده وأجعتهم؟ أما وعزتي لانتقمن له منك في الآجل، ولأسلبنك ملكك في العاجل، ولأخرين مدينتك، ولأذلن عرك، ولأطعمن الكلاب لحم امرأتك، فقال الجبار: اخرج عني يا إدريس فلن تسبقني بنفسك. ثم أرسل إلى امرأته فأخبرها بما جاء به إدريس فقالت: لا يهولنك رسالة إله إدريس، أنا أرسل إليه من يقتله فتبطل رسالة إلهه وكل ما جاءك به، قال: فافعلي، وكان لإدريس أصحاب من الرافضة مؤمنون يجتمعون إليه في مجلس له فيأنسون به ويأنس بهم، فأخبرهم إدريس بما كان من وحي الله عز وجل إليه ورسالته إلى الجبار وما كان من تبليغ رسالة الله إلى الجبار، فأشفقوا على إدريس وأصحابه وخافوا عليه القتل. وبعثت امرأة الجبار إلى إدريس أربعين رجلاً من الأزارقة ليقتلوه فأتوه في مجلسه الذي كان يجتمع إليه فيه أصحابه فلم يجدوه، فانصرفوا وقد رأهم أصحاب إدريس فحسوا أنهم أتوا إدريس ليقتلوه فتفرقوا في طلبه فلقوه فقالوا له: خذ حذرَكَ يا إدريس فإن الجبار قاتلك، قد بعث اليوم أربعين رجلاً من الأزارقة ليقتلوك فأخرج من هذه القرية، فتنحى إدريس عن القرية من يوم ذلك ومعه نفر من أصحابه، فلما كان في السحر ناجى إدريس ربه فقال: يا رب بعثتني إلى جبار فبلغت رسالتك، وقد توعدني هذا الجبار بالقتل، بل هو قاتلي إن ظفر بي، فأوحى الله إليه أن تنح عنه وأخرج من قريته وخلي وإياه، فوعزتي لأنفذن فيه أمري، ولأصعدن قولك فيه وما أرسلتك به إليه، فقال إدريس: يا رب إن لي حاجة، قال الله: سلها تعطها، قال: أسألك أن لا تمطر السماء على أهل هذه القرية وما حولها وما حوت عليه

حتى أسألك ذلك، قال الله عز وجل: يا إدريس إذا تخرب القرية ويشد جهد أهلها ويجوعون، فقال إدريس: وإن خربت وجهدوا وجاعوا، قال الله: فإني قد أعطيتك ما سألت ولن أمطر السماء عليهم حتى تسألني ذلك وأنا أحق من وفي بعهد.

فأخبر إدريس أصحابه بما سأل الله عز وجل من حبس المطر عنهم وبما أوحى الله إليه ووعده أن لا يمطر السماء عليهم حتى أسأله ذلك، فخرجوا أيها المؤمنون من هذه القرية إلى غيرها من القرى، فخرجوا منها وعدتهم يومئذ عشرون رجلاً فتفرقوا في القرى، وشاع خبر إدريس في القرى بما سأل الله تعالى، وتنحى إدريس إلى كهف في الجبل شاق فلجأ إليه ووكل الله عز وجل به ملكاً يأتيه بطعامه عند كل مساء وكان يصوم النهار فيأتيه الملك بطعامه عند كل مساء، وسلب الله عز وجل عند ذلك ملك الجبار وقتله وأخرب مدينته وأطعم الكلاب لحم امرأته غضباً للمؤمن، وظهر في المدينة جبار آخر عاص فمكثوا بذلك بعد خروج إدريس من القرية عشرين سنة لم تمطر السماء قطرة من مائها عليهم، فجهد القوم واشتدت حالهم وصاروا يمتارون الأطعمة من القرى من بعد، فلما جهدوا مشى بعضهم إلى بعض فقالوا: إن الذي نزل بنا مما ترون بسؤال إدريس ربه أن لا يمطر السماء علينا حتى يسأله هو، وقد خفي إدريس عنا ولا علم لنا بموضعه والله أرحم بنا منه، فأجمع أمرهم على أن يتوبوا إلى الله ويدعوه ويفزعوا إليه ويسألوه أن يمطر السماء عليهم وعلى ما حوت قريتهم، فقاموا على الرماد ولبسوا المسوح، وحثوا على رؤوسهم التراب ورجعوا إلى الله عز وجل بالتوبة والاستغفار والبكاء والتضرع إليه، وأوحى الله عز وجل إليه: يا إدريس أهل قريتك قد عجزوا إلي بالتوبة والاستغفار والبكاء والتضرع، وأنا الله الرحمن الرحيم أقبل التوبة وأعفو من السيئة وقد رحمتهم، ولم يمنعني إجابتهم إلى ما سألتوني من المطر إلا مناظرتك فيما سألتني أن لا أمطر السماء عليهم حتى تسألني، فأسألني يا إدريس حتى أغيثهم وأمطر السماء عليهم. قال إدريس: اللهم إني لا أسألك ذلك، قال الله عز وجل: ألم تسألني يا إدريس فسلي، قال إدريس: اللهم إني لا أسألك، فأوحى الله عز وجل إلى الملك الذي أمره أن يأتي إدريس بطعامه كل مساء أن احبس عن إدريس طعامه ولا تأته به، فلما أمسى إدريس في ليلة ذلك اليوم فلم يؤت بطعامه حزن وجاع فصبر، فلما كان في اليوم الثاني فلم يؤت بطعامه اشتد حزنه وجوعه، فلما كانت الليلة من اليوم الثالث فلم يؤت بطعامه اشتد جهده وجوعه وحزنه وقل صبره فنأدى ربه: يا رب حبست عني رزقي من قبل أن تقبض روحي؟! فأوحى الله عز وجل إليه: يا إدريس جزعت أن حبست عنك طعامك ثلاثة

أيام وليالها، ولم تجزع ولم تنكر جوع أهل قريتك وجهدهم منذ عشرين سنة؟! ثم سألتك عن جهدهم ورحمتي إياهم أن تسألني أن أمطر السماء عليهم فلم تسألني وبخلت عليهم بمسألتك إياي فأذقتك الجوع فقلَّ عند ذلك صبرك وظهر جزعك، فاهبط من موضعك فاطلب المعاش لنفسك فقد وكلتك في طلبه إلى حيلك.

فهبط إدريس من موضعه إلى غيره يطلب أكلة من جوع، فلما دخل القرية نظر إلى دخان في بعض منازلها فأقبل نحوه فهجم على عجوز كبيرة وهي ترقق قرصتين لها على مقلاة فقال لها: أيتها المرأة أطعميني فإني مجهود من الجوع، فقالت له: يا عبد الله ما تركت لنا دعوة إدريس فضلاً نطعمه أحداً - وحلفت أنها ما تملك شيئاً غيره - فاطلب المعاش من غير أهل هذه القرية، قال لها: أطعميني ما امسك به روحي وتحملني به رجلي إلى أن أطلب، قالت: إنهما قرصتان: واحدة لي والأخرى لابني فإن أطعمتك قوتي مت، وإن أطعمتك قوت ابني مات، وما هنا فضل أطعمكاه، فقال لها: إن ابنك صغير يجزيه نصف قرصة فيحى بها ويجزي النصف الآخر فأحى به وفي ذلك بلغة لي وله، فأكلت المرأة قرصها وكسرت القرص الآخر بين إدريس وبين ابنها، فلما رأى ابنها إدريس يأكل من قرصه اضطرب حتى مات، قالت أمه: يا عبد الله قتلت علي ابني جزعاً على قوته؟! قال إدريس: فأنا أحبيه بإذن الله تعالى فلا تجزعي، ثم أخذ إدريس بعضدي الصبي ثم قال: أيتها الروح الخارجة من بدن هذا الغلام بإذن الله أرجعي إلى بدنه بإذن الله وأنا إدريس النبي، فرجعت روح الغلام إليه بإذن الله، فلما سمعت المرأة كلام إدريس وقوله: أنا إدريس ونظرت إلى ابنها قد عاش بعد الموت قالت: أشهد أنك إدريس النبي، وخرجت تنادي بأعلى صوتها في القرية: أبشروا بالفرج فقد دخل إدريس قريتكم، ومضى إدريس حتى جلس على موضع مدينة الجبار الأول وهي على تل فاجتمع إليه أناس من أهل قريته فقالوا له: يا إدريس أما رحمتنا في هذه العشرين سنة التي جهدنا فيها ومسنا الجوع والجهد فيها؟ فادع الله لنا أن يمطر السماء علينا، قال: لا حتى يأتيني جباركم هذا وجميع أهل قريتكم مشاة حفاة فيسألوني ذلك، فبلغ الجبار قوله فبعث إليه أربعين رجلاً يأتوه بإدريس، فأتوه فقالوا له: إن الجبار بعث إليك لتذهب إليه فدعا عليهم فماتوا، فبلغ الجبار ذلك فبعث إليه خمسمائة رجل ليأتوه به فقالوا له: يا إدريس إن الجبار بعثنا إليك لنذهب بك إليه، فقال لهم إدريس: انظروا إلى مصارع أصحابكم، فقالوا له: يا إدريس قتلنا بالجوع منذ عشرين سنة ثم تريد أن تدعو علينا بالموت! أما لك رحمة؟ فقال: ما أنا بذاهب إليه، ولا أنا بسائل الله أن يمطر السماء

عليكم حتى يأتيني جباركم ماشياً حافياً وأهل قريبتكم، فانطلقوا إلى الجبار فأخبروه بقول إدريس وسألوه أن يمضي معهم وجميع أهل قريبتهم إلى إدريس حفاة مشاة، فأتوه حتى وقفوا بين يديه خاضعين له طالبين إليه أن يسأل الله لهم أن يمطر السماء عليهم، فقال لهم إدريس: أما الآن فنعم، فسأل الله تعالى إدريس عند ذلك أن يمطر السماء عليهم وعلى قريبتهم ونواحيها فأظلمت سحابة من السماء وأرعدت وأبرقت وهطلت عليهم من ساعتهم حتى ظنوا أنها الغرق فما رجعوا إلى منازلهم حتى أهتمهم أنفسهم من الماء^(١).

قوله: "فاسألني يا إدريس... قال إدريس: اللهم إني لا أسألك ذلك،..."، بالتأكيد ليس المقصود أن إدريس يعترض على الله وحاشاه وهو النبي المعصوم، وإنما المقصود التخيير أي: أن الله خيره بين السؤال إن أراد ذلك أو عدمه، وهو اختار أن لا يسأل الله.

مسجد السهلة بيت إدريس:

السهلة إحدى نواحي الكوفة القريبة منها، وفيها مسجد السهلة المعروف. وبحسب بعض النصوص الدينية هو بيت إدريس النبي وفيه كان يصلي ويخيط، فقد روي أن إدريس عليه السلام: (أول من خاط الثياب ولبسها، وكان من كان قبله يلبسون الجلود، وكان كلما خاط سبّح الله وهللّه وكبّره ووحدّه ومجّده، وكان يصعد إلى السماء من عمله في كل يوم مثل أعمال أهل زمانه كلهم)^(٢).

(عن ابن مهران، عن الصادق عليه السلام قال: إذا دخلت الكوفة فأت مسجد السهلة فصلّ فيه واسأل الله حاجتك لدينك ودنياك، فإن مسجد السهلة بيت إدريس النبي عليه السلام الذي كان يخيط فيه ويصلي فيه، ومن دعا الله فيه بما أحب قضى له حوائجه ورفع يوم القيامة مكاناً علياً إلى درجة إدريس عليه السلام، وأجير من مكروه الدنيا ومكائده أعدائه)^(٣).

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ١٢٧ - ١٣٣.

٢- قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٣؛ وانظر أيضاً: فتح الباري، ابن حجر: ٦/ ٢٦٧.

٣- قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٥؛ مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ٣/ ٤١٣.

وعنه عليه السلام أيضاً، قال: (بالكوفة مسجد يقال له: مسجد السهلة لو أن عمي زيداً أتاه فصلى فيه واستجار الله لأجاره عشرين سنة، فيه مناخ الراكب وبيت إدريس النبي عليه السلام وما أتاه مكروب قط فصلى فيه بين العشائين ودعا الله إلا فرج الله كربته) ^(١).

بحسب ما انتهينا إليه من نتائج في البحوث السابقة، فإنَّ آدم عليه السلام بُعث لأهل القرى التي تسكن حوض الخليج "الوادي الخصيب" وكذلك الأنبياء بعده إلى وقت حدوث الطوفان، وبالتأكيد منهم إدريس؛ لأنه أسبق زماناً من نوح عليه السلام، وهذا يعني أنَّ دخول الرسالة الإلهية أرض العراق كان في زمن نوح بعد الطوفان، والسؤال: كيف ينسجم هذا التصور مع هذه الروايات التي أوضحت أنَّ إدريس سكن السهلة؟

يقول السيد أحمد الحسن: (المسافة بين حوض الخليج والكوفة ليست كبيرة والطريق بمحاذاة نهر، وبالتالي فالسفر أسهل لتوفر الماء والغذاء، فممكناً أن يذهب إدريس وغيره للكوفة أو السهلة للعبادة لفترة من الزمن كما يفعلون عندما يتجهون لمكة لزيارة بيت الله الحرام مع أنَّ زيارة مكة ستكون أصعب بحكم كون الطريق إليها يمر بصحراء وأرض قاحلة).

النص الديني أكد وجود حج لبيت الله قبل آدم بألفي عام ^(٢)، وإدريس أولى من غيره بالحج، وكذا الأنبياء ومنهم إبراهيم فيما بعد) انتهى ^(٣).

غيبة إدريس:

يقول الشيخ الصدوق: (في غيبة إدريس النبي عليه السلام:

١- الكافي، الكليني: ٣ / ٤٩٥.

٢- روى الصدوق بسنده: (عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، فقال: يا زرارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفي مسأله في أربعين عاماً) من لا يحضره الفقيه: ٢ / ٥١٩.

٣- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

فأول الغيبات غيبة إدريس النبي عليه السلام المشهورة حتى آل الأمر بشيعته إلى أن تعذر عليهم القوت وقتل الجبار من قتل منهم وأفقر وأخاف باقيتهم، ثم ظهر عليه السلام فوعد شيعته بالفرج وبقيام القائم من ولده، وهو نوح عليه السلام ثم رفع الله عز وجل إدريس عليه السلام إليه، فلم تزل الشيعة تتوقعون قيام نوح عليه السلام قرناً بعد قرن، وخلفاً عن سلف، صابرين من الطواغيت على العذاب المهيّن حتى ظهرت نبوة نوح عليه السلام^(١).

رفع إدريس وموته:

(عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر صلوات الله عليه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ملكاً من الملائكة كانت له منزلة، فأهبطه الله تعالى من السماء إلى الأرض، فأتى إدريس النبي عليه السلام فقال له: اشفع لي عند ربك، قال: فصلى ثلاث ليال لا يفتّر وصام أيامها لا يفطر. ثم طلب إلى الله تعالى في السحر للملك، فأذن له في الصعود إلى السماء، فقال له الملك: أحب أن أكافيك، فاطلب إليّ حاجة، فقال: تريني ملك الموت لعلي أنس به، فإنه ليس يهنئي مع ذكره شيء، فبسط جناحيه. ثم قال له: اركب فصعد به، فطلب ملك الموت في سماء الدنيا، فقليل له: إنه قد صعد فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة، فقال الملك للملك الموت: ما لي أراك قاطباً؟ قال: أتعجب إنني كنت تحت ظل العرش حتى أومر أن اقبض روح إدريس بين السماء الرابعة والخامسة، فسمع إدريس ذلك، فانتقض من جناح الملك، وقبض ملك الموت روحه مكانه، وفي قوله تعالى: "واذكر في الكتاب إدريس انه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً"^(٢).

تعقيب: الموت ليس من لوازم عالمنا الأرضي، ويمكن أن يجتمع الموت مع الرفع، فالمرفوع لا يعني أنه لا يموت كما رأينا في الرواية.

١- كمال الدين وتمام النعمة: ١٢٧.

٢- قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٠ - ٨١.

يقول السيد أحمد الحسن: (ممكّن أن يموت المرفوع، والرفع بحد ذاته لا يقطع علاقة الارتباط بالعالم الجسماني لكن الموت يقطعها) انتهى^(١).

وأيضاً: أكيد أنّ هناك حكمة تقف وراء رفع إدريس عليه السلام، فصحيح أنه مات بعد رفعه كما دلت النصوص، لكن هذا لا يعني أنه مات بعد رفعه مباشرة، بل ربما مات بعد فترة طويلة من رفعه، بل هذا هو المتوقع؛ إذ أنّ رفعه يعني أنّ الله يريد أن ينجز به أمراً معيناً كأن يكون مثلاً: ظهورني من ولده يهدي الناس في فترة قادمة ونحو ذلك من أهداف وغايات إلهية، والمرفوع – كما نعرف – ليس بمنقطع عن هذا العالم ويمكنه التواصل والظهور المادي فيه متى ما أراد الله و اقتضت مشيئته ذلك، وبالتالي يمكن للمرفوع أن ينزله الله للأرض ويمارس حياته الطبيعية ويتزوج وينجب ... إلخ، بخلاف الميت الذي تنقطع صلته بهذا العالم تماماً.

رسل الله الأوائل والكوفة "بلاد ما بين النهرين":

حركة الرسل وخط سير الرسالة الإلهية (ابتداءً ومنتهى) أمور واضحة جداً لدى المرسل (الله) بالتأكيد؛ بحكم علمه المطلق سبحانه وتعالى.

وضمن الخطة الإلهية لسير الرسالات، كان مقدراً للكوفة وبلاد ما بين النهرين موضع ريادة خاصة، فمنها كانت البداية بآدم وإدريس ونوح عليهم السلام، ومنها ستعود النهاية بالمهدي وأبنائه (أوصياء الرسول صلى الله عليه وآله)، وما بين البداية والنهاية آلاف السنين التي سجّلت بالدم والحروف جهود رسل الله صلوات الله عليهم.

ولهذا اهتم رسل الله الأوائل بالكوفة، وقصدها و أقاموا فيها فترة من الزمن للعبادة والانقطاع إلى الله: كل رسول في وقته.

البداية كانت ما قبل امتحان آدم عليه السلام على الأرض، إذ تقدم أنّ خلق آدم كان في الأصل سماوياً (في السماء الأول)، فلما خلق الله آدم (بالتسوية ونفخ الروح) أمر الملائكة

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

بالسجود له، والامتحان وإن كان في السماء الأولى لكن هذا لا يعني أنّ جميع ملائكة الله تركوا العوالم التي ينتشرون فيها للتدبير بأمر الله وحضروا للسماء الأولى لأداء الامتحان، وإنما ملائكة كل عالم أدّوا امتحان السجود لأدم في عالمهم، والنصوص الدينية أشارت إلى أنّ الأرض والعالم الجسماني عموماً فيه ملائكة يدبرون أمره بإذن الله، فللمطر ملك وللريح ملك ... وهكذا، وبالنسبة لملائكة الأرض فقد امتحنوا بالسجود لأدم وكان سجودهم بظهر الكوفة (الغري)!

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: (أول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة لما أمر الله الملائكة أن تسجدوا لأدم سجدوا على ظهر الكوفة) ^(١).

يقول السيد أحمد الحسن في بيان معنى الحديث:

(المقصود ملائكة الأرض، ليس المقصود كل ملائكة الله سبحانه. فطالما يوجد بالأرض ملائكة مخصّصون بالأرض الجسمانية وكذا في كل سماء كما دلّت النصوص، فلما خلق الله آدم عليه السلام في السماء الأولى وأمر الملائكة بالسجود له فهذا لا يعني أنهم تركوا عوالمهم وحضروا للسماء الأولى ليتم امتحانهم، وإنما بقى ملائكة العوالم والسموات في عوالمهم وأدّوا الامتحان وسجدوا لأدم عليهم السلام، فالسجود لأدم ليس معناه أنّ آدم كان واقفاً مثل الكعبة واصطفّت الملائكة أمامه صفوفاً وسجدت له كما يحصل عند الاصطفاف للصلاة والسجود للكعبة في هذا العالم الجسماني الذي نحن فيه، المسألة ليست كذلك، وإنما سجد الملائكة لأدم عليه السلام وهم في عوالمهم بعد صدور الأمر من الله بالسجود له، وبالنسبة لملائكة الأرض فقد سجدوا في ظهر الكوفة.

وبالتأكيد، هذا الفعل يكشف عن أهمية بلاد ما بين النهرين، ولهذا من يتتبع تاريخ الرسالات الإلهية يجدها تتركز في هذا الموضع "منطقة ما بين النهرين" أي المنطقة التي يمر بها نهرا دجلة والفرات، أي العراق بحسب التسمية الحالية) انتهى ^(٢).

١- تفسير العياشي: ١ / ٣٤.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

وبعد بعثة آدم عليه السلام على الأرض في حوض الخليج كما تقدم، زار آدم الكوفة في حياته وخط مسجدها الأول، وبالتالي فلم يكن وصول رفات آدم الطاهر إلى أرض النجف والكوفة هي المرة الأولى التي دخل فيها آدم هذه المدينة^(١).

آدم عليه السلام وإن كان يسكن حوض الخليج "الوادي الخصيب" لكن المسافة بينه وبين الكوفة ليست بعيدة، إضافة إلى أن الطريق الرابط بينهما يسير بمحاذاة نهرو وبالتالي فالسفر من الوادي الخصيب إلى الكوفة سهل بعد توفر الماء والغذاء؛ ولهذا قصد الرسل الأوائل الكوفة للإقامة فيها فترة من الزمن للعبادة والانقطاع إلى الله.

ومنهم: إدريس عليه السلام، حيث عرفنا أن مسجد السهلة كان بيته الذي يصلي فيه، وأيضاً زاره وصلى فيه إبراهيم وغيره من الأنبياء^(٢)، بل لم يبعث الله نبياً إلا وصلى فيه^(٣).

١- هذا نص يوضح زيارة آدم عليه السلام للكوفة: (عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس فلما انتهينا إلى الكناسة قال: ههنا صلب عبي زيد رحمه الله ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين وهو آخر السراجين فنزل وقال: أنزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي خطه آدم عليه السلام وأنا أكره أن أدخله ركباً قال: قلت: فمن غيّر عن خطته؟ قال: أما أول ذلك الطوفان في زمن نوح عليه السلام ثم غيره أصحاب كسرى ونعمان ثم غيّر بعد زياد بن أبي سفيان، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح عليه السلام فقال لي: نعم يا مفضل) الكافي، الكليني: ٢٧٩ / ٨ - ٢٨١.

٢- (عن عبد الله بن أبيان قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فسألنا أفيكم أحد عنده علم عبي زيد بن علي؟ فقال رجل من القوم: أنا عندي علم من علم عمك كنا عنده ذات ليلة في دار معاوية بن إسحاق الأنصاري إذ قال: انطلقوا بنا نصلي في مسجد السهلة فقال أبو عبد الله عليه السلام: وفعل؟ فقال: لا جاءه أمر فشغله عن الذهاب، فقال: أما والله لو أعاد الله به حولاً لأعاده أما علمت أنه موضع بيت إدريس النبي عليه السلام والذي كان يخطط فيه، ومنه سار إبراهيم عليه السلام إلى اليمن بالعمالقة، ومنه سار داود إلى جالوت، وإن فيه لصخرة خضراء فيها مثال كل نبي ومن تحت تلك الصخرة أخذت طينة كل نبي وإنه لمناخ الراكب، قيل: ومن الراكب؟ قال: الخضر عليه السلام) الكافي، الكليني: ٤٩٤ / ٣.

٣- (عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال قلت له: أي البقاع أفضل بعد حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: الكوفة يا أبا بكر هي الزكية الطاهرة فيها قبور النبيين المرسلين وغير المرسلين، والأوصياء الصادقين، وفيها مسجد سهيل الذي لم يبعث الله نبياً إلا وقد صلى فيه، وفيها يظهر عدل الله وفيها يكون قائمة والقوام من بعده، وهي منازل النبيين والأوصياء والصالحين) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٣١ / ٦؛ كامل الزيارات، ابن قولويه: ٧٦.

وكذا الحال بالنسبة إلى مسجد الكوفة الذي خطّه آدم عليه السلام وسكن نوح عليه السلام على مقربة منه، ولهذا فمن يريد زيارة المسجدين من الضروري أن يستحضر أنه يدخل إلى بقعة وطأها الأنبياء والمرسلون.

ملاحظة: لما نتحدث عن حضور أنبياء ومرسلين في مسجدي السهلة والكوفة، فهذا لا يعني أنّ المسجدين كانا بناءين قائمين ومشخصين في ذلك الوقت، وإنما المقصود هو البقعة (مساحة محددة من الأرض) حضر فيها آدم وإدريس ونوح وغيرهم من رسل الله عليهم السلام، أما نفس البناء فقد حدث في فترة زمنية متأخرة كما هو معلوم^(١).

أما بخصوص المواضع المعلّمة بأنها مقامات الأنبياء والرسل كمقام نبي الله إبراهيم أو إدريس أو نوح أو غيرهم، فهي لم تحدد من قبل إمام معصوم وبالتالي فإذا كان القصد منها الإشارة والتذكير بما فعله الأنبياء فهو أمر صحيح ولا إشكال فيه، أما من ينسب التحديد للمعصومين عليهم السلام فعليه إبراز الدليل الدال على ذلك!

يقول السيد أحمد الحسن: (بالنسبة إلى مقامات الأنبياء في المسجدين: إذا كان المقصود بها أنّ الأنبياء جاءوا إلى مسجد الكوفة والسهلة وصلّوا فيهما فهذا أمر حصل بالفعل وصحيح، لكن تشخيص المقامات بموضع معين كما هو حاصل في أيامنا هذه بمعنى أنّ هذا الموضع صلّى فيه إبراهيم عليه السلام وهذا صلّى فيه إدريس عليه السلام وهذا صلّى فيه نوح أو آدم عليهما السلام ... إلخ فهذا أمر غير صحيح ولم يتم تحديده من قبل المعصوم؛ خصوصاً وأنّ المسجد توسع وتغير بمرور الزمن).

وبالتالي، فلا إشكال أن يتطوع المؤمن بالصلاة عن نبي معين كإبراهيم عليه السلام في الموضع المشخص في مسجد السهلة مثلاً، ولكن هذا لا يعني أنّ إبراهيم عليه السلام صلّى في هذا الموضع بالتحديد ما لم يرد نص من المعصوم بأن إبراهيم صلّى فيه، وهكذا الحال في بقية المقامات الموجودة في كلا المسجدين) انتهى^(٢).

١- هذا ما عرفته من السيد أحمد الحسن في حوار معه بهذا الخصوص.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

الكوفة (أو بلاد ما بين النهرين عموماً) التي قصدها آدم وإدريس ونوح في أول زمان الرسالة ثم إبراهيم وسائر أنبياء الله عليهم السلام، ثم أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب وولده الإمام الحسين بن علي صلوات الله عليهما، ستكون في خاتمة المطاف مهدياً رسالة مهدي آل محمد وقائهم صلوات الله عليه، ومنها يشع نور الله إلى العالم كله^(١).

وفي الكوفة يقضي القائم على إبليس لعنه الله (عدو ابن آدم القديم)^(٢).

الحقيقة، إنَّ من يبحث في بدايات الدين الإلهي ورسالة الله فسيجد بوضوح أنَّ بلاد ما بين النهرين هي أرض الرسالات بلا نقاش، وأنَّ منطقة الشرق الأوسط هي منطقة حركة الرسل عموماً، والسبب ابتداءً منذ قدوم أسلاف آدم إلى حوض الخليج واستيطانهم فيه ثم الزحف نحو بلاد ما بين النهرين الذي حصل بشكل فعلي في زمن نوح عليه السلام بعد حدوث الطوفان وغمر مياه البحر لمنطقة الوادي "حوض الخليج"، ولكن سبق ذلك تمهيد طويل قام به الرسل الأوائل الذين سبقوا نوحاً عليه السلام ابتداءً بآدم ثم إدريس عليهما السلام ومن تلاهم من الأنبياء حيث كانوا يزورون الكوفة وبلاد ما بين النهرين وقد أكدت النصوص الدينية ذلك كما عرفنا.

١- (عن صالح بن أبي الأسود قال: قال أبو عبد الله عليه السلام وذكر مسجد السهلة فقال: أما إنه منزل صاحبنا إذا قام بأهله) الكافي، الكليني: ٣ / ٤٩٥.

(عن عمرو بن ثابت، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام - في حديث طويل - قال: يدخل المهدي الكوفة، وبها ثلاث رايات قد اضطربت بينها، فتصفو له فيدخل حتى يأتي المنبر ويخطب، ولا يدري الناس ما يقول من البكاء، ... فإذا كانت الجمعة الثانية قال الناس: يا بن رسول الله الصلاة خلفك تضاهي الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسجد لا يسعنا، فيقول: أنا مرتاد لكم، فيخرج إلى الغري فيخط مسجداً له ألف باب يسع الناس، عليه أضيض ويبعث فيحفر من خلف قبر الحسين عليه السلام لهم نهراً يجري إلى الغرين حتى ينبذ في النجف ويعمل على فوهته قناطر وأرحاء في السبيل، وكأني بالعجوز وعلى رأسها مكمل فيه بر حتى تطحنه بكر بلاء) الغيبة، الطوسي: ٤٦٨ - ٤٦٩.

٢- (عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبليس: "رب فأنظرنني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم" قال له وهب: جعلت فداك أي يوم هو؟ قال: يا وهب أنت حسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إنَّ الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا فإذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه فذلك اليوم هو الوقت المعلوم) تفسير العياشي: ٢ / ٢٤٢.

وبالتالي، فمن يسأل لماذا الشرق الأوسط، ولماذا العراق بالذات، كمنطقة أو بلد اختص ببعث رسل الله وحركة الدين الإلهي، كما يطرحه الملحدون ومن يطعنون بالدين الإلهي ودعوات الرسل بزعم أنها حركات عنصرية تمييزية وما شابه؟

جوابهم باختصار - وستتضح حقيقة المسألة أكثر لاحقاً - هو أنّ مسيرة الدين الإلهي وحركة الرسل رافقت مسيرة حركة الإنسان نفسه، فالدين نشأ في الوادي الخصيب؛ لأن الإنسان الحديث (كما لاحظنا في الدراسات العلمية التي تقدمت) هاجر إلى الوادي ونشأ في الوادي، والدين انتقل إلى بلاد ما بين النهرين؛ لأن الإنسان ترك الوادي بعدما غمرته المياه المالحة بعد الطوفان وانتقل إلى هناك، الدين أريد له دائماً أن يواكب الإنسان ويسايره للأخذ بيده نحو الرقي والتكامل، هذه هي حقيقة المسألة والأمر ليس له علاقة بجانب عنصري أو عرقي وما شابه من قريب أو بعيد!

ولذا، ليس فقط بدايات الدين والرسالة الإلهية كانت من بلاد ما بين النهرين، بل يسعنا القول: إنّ بدايات كل الأشياء التي غيّرت وجه الإنسان والأرض والحياة عليها انطلقت من بلاد ما بين النهرين دائماً:

يقول السيد أحمد الحسن: (البدايات التي غيّرت حياة البشر انطلقت من هذا المكان "ما بين النهرين" أيضاً).

- العجلة السومرية: لولاها لما صُنِعَ المحرك ولما حصلت الثورة الصناعية.
- قوانين ونظام بابل: لولاه لما فكر البشر في فلسفة العدالة، فلقد كانوا يبيعون سفراء للتعلم من بابل.
- وأخيراً بيت الحكمة والخوارزمي وأقرانه: لولاه لما كانت لدينا هذه الثورة الرقمية التي وصلت للذكاء الاصطناعي) انتهى^(١).

وسيأتي مزيد من التوضيح لهذه القضية في قادم البحوث إن شاء الله.

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

(٤)

بعثت نوح عليه السلام

قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمُلَأَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَآكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" هود: ٢٥ - ٣٥.

رسالة نوح (٤):

نوح عليه السلام أول أنبياء أولي العزم، وأول نبي اختص بمقام الرسالة.

(عن سماعة ابن مهران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل: "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل" فقال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم، قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: لأن نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفوراً به فكل نبي جاء بعد إبراهيم عليه السلام أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصحف حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه، وبعزيمة ترك الصحف وكل نبي جاء بعد موسى عليه السلام أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه حتى

جاء المسيح عليه السلام بالإنجيل، وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهجه فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهجه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وآله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهجه فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أولو العزم من الرسل عليهم السلام^(١).

وأيضاً: تقدم أن مسألة العزم لها علاقة بمقام الرسول محمد وآل محمد صلوات الله عليهم والمهدي منهم بالخصوص^(٢).

دليل صدق رسالته:

قانون معرفة الرسل والحجج الإلهيين الذي عرفنا نبوة آدم عليه السلام هو نفسه الدليل المعترف بصدق نبوة نوح عليه السلام وأحقية رسالته، أعني بالقانون الفقرات الثلاث: النص، العلم، الدعوة إلى حاكمية الله.

أما النص: فقد رأينا في وصية آدم عليه السلام تصريحاً واضحاً بشرفيه آدم بنوح عليه السلام، فهذا النص الإلهي هو الأصل الذي أثبت به نوح صدق بعثه من الله^(٣).

وأيضاً: ذكر الإمام الباقر عليه السلام وصية آدم عليه السلام لولده ووصيه "هبة الله"، قال فيها: (يا بني إن الله تبارك وتعالى أهبطني إلى الأرض وجعلني خليفته فيها، حجة له على خلقه، فقد أوصيت إليك بأمر الله وجعلتك حجة لله على خلقه في أرضه بعدي، فلا تخرج من الدنيا حتى تدع الله حجة ووصياً وتسلم إليه التابوت وما فيه كما سلمته

١- الكافي، الكليني: ١٧/ ٢ - ١٨.

٢- (عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً" قال: عهدنا إليه في محمد والأئمة من بعده، فترك ولم يكن له عزم أنهم هكذا وإنما سعي أولوا العزم أولي العزم لأنه عهد إليهم في محمد والأوصياء من بعده والمهدي وسيرته وأجمع عزمهم على أن ذلك كذلك والاقرار به) الكافي، الكليني: ٤١٦/ ١.

٣- ورد في رواية الإمام الباقر عليه السلام المتقدمة: (وبشّر آدم بنوح عليه السلام فقال: إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح وإنه يدعو إلى الله عز ذكره ويكذبه قومه، فيهلكهم الله بالطوفان ... وأوصى آدم عليه السلام إلى هبة الله أن من أدركه منكم فليؤمن له وليتبعه وليصدق به فإنه ينجو من الغرق.) الكافي، الكليني: ١١٤/ ٨.

إليك، وأعلمه أنه سيكون من ذريتي رجل اسمه نوح يكون في نبوته الطوفان والغرق، فمن ركب في فلكه نجا ومن تخلف عن فلكه غرق، وأوص وصيك أن يحفظ بالتابوت وبما فيه، فإذا حضرت وفاته أن يوصي إلى خيرولده وألزمهم له و أفضلهم عنده، وسلّم إليه التابوت وما فيه، وليضع كل وصي وصيته في التابوت وليوص بذلك بعضهم إلى بعض، فمن أدرك نبوة نوح فليركب معه وليحمل التابوت وجميع ما فيه في فلكه ولا يتخلّف عنه أحد^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (وكان آدم عليه السلام بشّر بنوح صلوات الله عليه وقال: إنه سيأتي نبي من بعدي اسمه نوح، فمن بلغه منكم فليسلم له، فإنّ قومه يهلكون بالغرق إلا من آمن به وصدق ما قيل لهم وما أمروا به)^(٢).

وأما العلم: فكما أنّ الله سبحانه علّم آدم عليه السلام فكذلك ولده نوح عليه السلام، ولهذا صرح نوح لقومه أنه يعلم من الله ما لا يعلمون: "أُيْلِغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" الأعراف: ٦٢. وأيضاً: لاحظنا نص الإمام الصادق صلوات الله عليه الذي رواه سماعة بن مهران حيث صرح فيه بأنّ نوحاً عليه السلام كان صاحب كتاب وشريعة، بل كل من جاء بعده أخذ بكتابه وشريعته ومنهاجه إلى وقت بعث إبراهيم عليه السلام^(٣)، وهذا يكشف عن سعة علمه نوح صلوات الله عليه.

وأما الدعوة إلى الله: فهي أمروا بوضوح في رسالة نوح عليه السلام، إذ دعا الناس إلى الله وطاعته ودينه كما حكته النصوص الدينية: "قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا" نوح: ٢-٣، "أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ" هود: ٢٦، "أُيْلِغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي" الأعراف: ٦٢.

وباجتماع الفقرات الثلاث للقانون الإلهي في نوح صلوات الله عليه يثبت صدق رسالته وأحقية دعوته الإلهية.

١- تفسير العياشي: ١/ ٣٠٦-٣٠٧.

٢- قصص الأنبياء، الراوندي: ٦٥-٦٦.

٣- انظر: الكافي، الكليني: ٢/ ١٧-١٨.

ملاحظة: نبوة نوح صلوات الله عليه (كنبوة آدم) ثبتت بالقانون الإلهي المؤلف من الفقرات الثلاث، ولم نلاحظ وجود معجزة وآية مادية تثبت صدقه في دعواه، وهذا يكشف عن أنّ المعجزة المادية أمر جائز لا واجب (أي: قد تحصل وقد لا تحصل، فالأمر فيها متوقف على مشيئة الله وحكمته)، وعدم حصولها لا يؤثر في إثبات صدق نبوة نبي أو رسالة رسول. أما إن اعتبر البعض نجاته من الطوفان إعجاز مادي فعليه أن ينتبه أنّ الطوفان حصل متأخراً وكان عقوبة للمكذّبين بعد سنين طويلة من انطلاق رسالته، ونحن نتحدث عن دليل نبوته وبعثه منذ أول لحظة أعلن فيها أنه مرسل من الله. هذا إضافة إلى أنّ النجاة من الطوفان حصل بأسباب مألوفة (وجود سفينة) وإن كانت الرعاية والتسديد الإلهي فيها واضحاً ولم تحصل بأسباب خارقة للعادة كما هو الأصل في المعجزة.

شيء من سيرته:

روي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه أنّ نوحاً عليه السلام ولد في اليوم العاشر من الشهر^(١). وأما اسمه: فبحسب النصوص الدينية يتصف بالعبودية لله أي: (عبد الملك، عبد الأعلى، عبد الغفار، عبد الجبار)، وسُمّي نوحاً: لأنه كثير البكاء وكان ينوح على نفسه أو قومه:

قال الإمام الصادق صلوات الله عليه:

- "كان اسم نوح عبد الغفار، وإنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه"^(٢).
- "كان اسم نوح عبد الملك، وإنما سمي نوحاً لأنه بكى خمسمائة سنة"^(٣).

١- قال عليه السلام عن عاشر أيام الشهر: "هذا يوم صالح ولد فيه نوح عليه السلام، ... الدروع الواقية، ابن طاووس: ١٠٥.

٢- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٢٨. وروى ابن عساكر: (عن يزيد الرقاشي قال: إنما سمي نوح عليه السلام نوحاً لطول ما نوح على نفسه) تاريخ مدينة دمشق: ٦٢ / ٢٤١. وبخصوص تسميته بعبد الغفار، انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي: ١ / ١٩ - ٢٠.

٣- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٢٨.

- "كان اسم نوح عبد الأعلى، وإنما سمي نوحاً لأنه بكى خمسمائة عام"^(١).
- "آمن بنوح عليه السلام من قومه ثمانية نفر، وكان اسمه عبد الجبار، وإنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه"^(٢).

وعن الإمام الرضا صلوات الله عليه: "وإنما سمي نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً"^(٣).

وبخصوص نوحه عليه السلام على نفسه: (روي أن نوحاً عليه السلام مرَّ على كلب كربه المنظر، فقال نوح: ما أقبح هذا الكلب فجثى الكلب وقال بلسان طلق ذلق: إن كنت لا ترضى بخلق الله فحوّلني يا نبي الله، فتحيّر نوح عليه السلام، وأقبل يلوم نفسه بذلك، وناح على نفسه أربعين سنة، حتى ناداه الله: إلى متى تنوح يا نوح؟ فقد تبت عليك)^(٤).

بحسب النصوص أيضاً: فإنَّ العمر الذي منحتَه النصوص لنوح عليه السلام كان فترة طويلة جداً تزيد على الألفي عام منها ما يقرب من الألف عام كعمر لدعوته فقط، وكذا منحت فترة طويلة لصنع السفينة ونحو ذلك مما يتصل به وبدعوته^(٥).

١- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٢٨.

٢- بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٣٢٦.

٣- علل الشرائع، الصدوق: ٢ / ٥٩٥.

٤- مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ١١ / ٢٤٤.

٥- فمثلاً: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (عاش نوح عليه السلام ألفي سنة وثلاثمائة سنة منها ثمانمائة وخمسين سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم وخمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة ونضب الماء فمصرّ الأمصار وأسكن ولده والبلدان. ثم إنَّ ملك الموت جاءه وهو في الشمس فقال: السلام عليك فرد عليه نوح عليه السلام قال: ما جاء بك يا ملك الموت؟ قال: جئت لك لأقبض روحك، قال: دعني أدخل من الشمس إلى الظل فقال له: نعم، فتحول ثم قال: يا ملك الموت كل ما مربي من الدنيا مثل تحويلي من الشمس إلى الظل فامض لما أمرت به فقبض روحه عليه السلام) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٤.

وروى الشيخ الصدوق عن الصادق صلوات الله عليه مثل ذلك بإضافة قوله عليه السلام: "ومائتا سنة في عمل السفينة" انظر: الأمالي، الصدوق: ٦٠٢ - ٦٠٣.

وعن عبد العظيم الحسني قال: (سمعت علي بن محمد العسكري عليه السلام يقول: عاش نوح عليه السلام ألفين وخمسمائة سنة) علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٣١.

ومسألة طول السنين التي وردت في النصوص الدينية (القرآن، الروايات) لعمر نوح وبعض ما يتصل به وبدعوته سيأتي بيان التوجيه المناسب لها، ولا يصح أبداً التعامل مع الأرقام المذكورة فيها بحسب نظام وقوانين عالمنا الجسماني الذي نحن فيه.

وعموماً، كان نوح صلوات الله عليه عبداً شكوراً^(١).

وبخصوص عمله، المعروف عن نوح عليه السلام أنه كان نجاراً^(٢).

عُرف عن نوح عليه السلام حكمته^(٣). وأيضاً: عُرف عنه حرصه على هداية الناس، وهذه "سورة نوح" وهي تقص دعوته لقومه وحرصه على هدايتهم:

سورة نوح: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي

١- من النصوص التي أكدت ذلك:

- الإمام علي بن الحسين عليه السلام، قال: (أخذ الناس ثلاثة من ثلاثة: أخذوا الصبر عن أيوب عليه السلام، والشكر عن نوح عليه السلام، والحسد من بني يعقوب) عيون أخبار الرضا، الصدوق: ٢ / ٤٩.

- الإمام الصادق عليه السلام: (كان نوح عليه السلام يقول إذا أصبح وأمسى: "اللهم إني أشهدك أنه ما أصبح وأمسى بي من نعمة وعافية في دين أو دنيا فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها علي حتى ترضى وبعد الرضا" يقولها إذا أصبح عشراً وإذا أمسى عشراً فسمي بذلك عبداً شكوراً، ...) من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ١ / ٣٣٥. وانظر أيضاً: الكافي، الكليني: ٢ / ٩٩.

- روي عن سعد بن مسعود الثقفي قال: (كان نوح عليه السلام إذا لبس ثوباً أو أكل طعاماً حمد الله فسمي عبداً شكوراً) التاريخ الكبير، البخاري: ٤ / ٥٠.

٢- انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٢٨٧. وروى السيوطي: (عن ابن عباس قال: كان آدم عليه السلام حراً ثانياً وكان إدريس خياطاً وكان نوح نجاراً وكان هود تاجراً وكان إبراهيم راعياً ...) الدر المنثور: ١ / ٥٧.

٣- قال الإمام الصادق عليه السلام: (وقال نوح عليه السلام: وجدت الدنيا كبيت له بابان: دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر، هذا حال صفي الله، كيف حال من اطمأن فيها وركن إليها، وأضاع عمره في عمارتها ومزق دينه في طلبها، والفكرة مرآة الحسنات وكفارة السيئات وضياء القلوب وفسحة الخلق وإصابة في صلاح المعاد، وإطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها) بحار الأنوار، المجلسي: ٦٨ / ٣٢٦.

(عن ابن عباس في حديث أنه قال: قال نوح عليه السلام لإبليس: أخبرني متى تكون أقدر على ابن آدم؟ قال: عند الغضب) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ١٢ / ١٠ - ١١.

دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِيَتَسَلَكَوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي وَالْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا" نوح: ١ - ٢٨.

ملاحظة: دعاء نوح صلوات الله عليه على قومه لا إشكال فيه وإن كان فيهم أطفال، وفعله لا يحتاج إلى تعليل، أما إشكال البعض بأنهم ربما فيهم أطفال والأطفال لا ذنب لهم فكيف يؤخذون بجريرة أهاليهم، فجوابه: أن الأطفال يعاد لهم الامتحان^(١).

دين نوح (ع):

دين نوح عليه السلام هو دين الله وهو نفسه دين أبيه آدم عليه السلام الذي عرفنا شيئاً منه فيما سبق، ففيه أصل الدين وأساسه أعني: الدعوة إلى حاكمية الله

١- هذا ما عرفته من السيد أحمد الحسن في حوار خاص كان معه بهذا الخصوص.

وهذه رواية تؤكد إعادة الامتحان للطفل: (عن زارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إذا كان يوم القيامة احتج الله عز وجل على سبعة: على الطفل، والذي مات بين النبيين، والشيخ الكبير الذي أدرك النبي وهو لا يعقل، والأبله، والمجنون الذي لا يعقل، والأصم، والأبكم، فكل واحد منهم يحتج على الله عز وجل، قال: فبيعت الله عز وجل إلههم رسولاً فيؤجج لهم ناراً ويقول: إن ربكم يأمركم أن تثبوا فيها فمن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً ومن عصى سيق إلى النار) التوحيد، الصدوق: ٣٩٢ - ٣٩٣.

والاستخلاف الإلهي الذي يتمثل بتنصيب الله لحجة ورسول إلهي يؤخذ منه دين الله كله: عقيدة، شريعة، أخلاق^(١).

في دين نوح عليه السلام: نجد الإيمان بالله وتوحيده وعبادته وطاعته وطاعة رسله، وفيه: الصلاة والصوم والحج والأمر بالمعروف ... إلخ، وفيه: الدعوة إلى مكارم الأخلاق، تماماً كما دعا لذلك جميع رسل الله^(٢).

فمثلاً: على مستوى الشريعة، الصوم كان موجوداً في شريعة نوح عليه السلام^(٣)، ولهذا روي أنّ نوحاً عليه السلام أمر من ركب معه السفينة أن يصوموا ذلك اليوم، وهو اليوم الأول من شهر رجب^(٤).

١- (عن المعلى بن خنيس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: هل كان الناس إلا وفيهم من قد أمروا بطاعته منذ كان نوح عليه السلام؟ قال: لم يزل كذلك ولكن أكثرهم لا يؤمنون) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ٢٣١.

٢- عن الإمام الباقر عليه السلام: (كانت شريعة نوح عليه السلام أن يعبد الله بالتوحيد والاخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ الله ميثاقه على نوح عليه السلام وعلى النبيين عليهم السلام أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً، وأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرض موارث، فهذه شريعته فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم سرّاً وعلانية فلما أبوا وعتوا قال: "رب إني مغلوب فانتصر"، فأوحى الله عز وجل إليه: "أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن" فلا تبتس بما كانوا يعملون"، فلذلك قال نوح عليه السلام: "ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً"، فأوحى الله عز وجل إليه: "أن اصنع الفلك") الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

٣- قال رسول الله محمد صلى الله عليه وآله: (صيام نوح عليه السلام الدهر كله إلا يوم الفطرو يوم الأضحى، وصيام داود نصف الدهر، وصيام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر، وأفطر الدهر) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ٧ / ٥١٧؛ سنن ابن ماجه، القزويني: ١ / ٥٤٧.

٤- روى ابن طاووس بسنده عن: (كثير بياح النوى، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: سمع نوح عليه السلام صوت السفينة على الجودي فخاف عليه، فأخرج رأسه من جانب السفينة، فرقع يده وأشار بأصبعه وهو يقول: رهمان اتقن، وتأويلهما: يا رب أحسن، وأنّ نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة ركبا في أول يوم من رجب، فأمر من معه من الجن والإنس أن يصوموا ذلك اليوم، وقال: من صامه منكم تباعدت عنه النار مسيرة سنة، ومن صام سبعة أيام منه غلقت عنه أبواب النيران السبعة، وإن صام ثمانية أيام فتحت له أبواب الجنة الثمانية، ومن صام عشرة أيام أعطي مسألته، ومن صام خمسة عشر يوماً قيل له، استأنف العمل فقد غفر لك، ومن زاد زاده الله) إقبال الأعمال: ٣ / ١٩٢.

بل الأمر أبعد من ذلك، فحتى بعض الأحكام الفرعية كحرمة العصير العني قبل ذهاب ثلثيه مثلاً كان موجوداً في شريعة نوح عليه السلام أيضاً^(١).

وأيضاً: بعض نصائح نوح عليه السلام تكشف عن بعض تعاليم دين الله الذي دعا الناس إليه، وهي نفسها أصول الدين الإلهي لدى رسل الله جميعاً^(٢).

وعلى رأس تعاليم دين نوح صلوات الله عليه هو الاعتقاد والتعريف بمقام الرسول محمد وآله الأوصياء صلوات الله عليهم أجمعين.

١- روى الكليني بسنده: (عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما هبط نوح عليه السلام من السفينة غرس غرساً وكان فيما غرس عليه السلام الحيلة (العنب) ثم رجع إلى أهله فجاء إبليس لعنه الله فقلعها ثم إن نوحاً عليه السلام عاد إلى غرسه فوجده على حاله ووجد الحيلة قد قلعت ووجد إبليس لعنه الله عندها فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره أن إبليس لعنه الله قلعها، فقال نوح لإبليس: ما دعاك إلى قلعها فوالله ما غرست غرساً أحب إلي منها، ووالله لا أدعها حتى أغرسها فقال إبليس: وأنا والله لا أدعها حتى أقلعها فقال له: اجعل لي منها نصيباً قال: فجعل له منها الثلث فأبى أن يرضى فجعل له النصف فأبى أن يرضى، فأبى نوح عليه السلام أن يزيد فقال جبرئيل عليه السلام لنوح: يا رسول الله أحسن فإن منك الاحسان فعلم نوح عليه السلام أنه قد جعل له عليها سلطاناً فجعل نوح عليه السلام له الثلثين فقال أبو جعفر عليه السلام: فإذا أخذت عصيراً فاطبخه حتى يذهب الثلثان وكل واشرب فذاك نصيب الشيطان) الكافي: ٦ / ٣٩٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (إن نوحاً عليه السلام حين أمر بالغرس كان إبليس إلى جانبه، فلما أراد أن يغرس العنب قال: هذه الشجرة لي، فقال له نوح عليه السلام: كذبت، فقال إبليس: فما لي منها، فقال نوح: لك الثلثان، فمن هنا طاب الطلاء على الثلث) علل الشرائع، الصدوق: ٢ / ٤٧٧.

٢- (عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أخبركم بشيء أمر به نوح عليه السلام ابنه؟ إن نوحاً قال لابنه: يا بني أمرك بأمرين، وأنهاك عن أمرين: أمرك أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فإن السماء والأرض لو جعلتا في كفة وزنتهما، ولو جعلتا في حلقة قصبتها، وأمرك أن تقول: سبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ٥ / ٣٢٤.

(وعن جابر قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: "ألا أخبركم بشيء أمر به نوح عليه السلام ابنه" إلى أن قال، قال: "يا بني وأنهاك عن أمرين: لا تشرك بالله فإنه من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، وأنهاك عن الكبر فإن أحداً لا يدخل الجنة وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر"، قال معاذ بن جبل: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أمن الكبر أن يكون لأحدنا دابة يركبها، والثياب يلبسها، أو الطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال: "لا، ولكن من الكبر أن يسفه الحق ويغمص (يحقر) المؤمن" مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ١٢ / ٣٤ - ٣٥؛ وبنفس المضمون تقريباً روي في مصادر سنية، انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي: ٤ / ٢١٩.

نوح والرسول محمد (ص):

في نصوصنا الدينية الواردة عن آل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم ما يؤكد معرفة نبي الله نوح عليه السلام بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وكذا معرفته بآله الطاهرين، وهي نصوص كثيرة^(١).

١- هذه نماذج منها:

- (عن معمر بن راشد، عن الصادق عليه السلام - في حديث - قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه، ولكني أقول: إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفرها له، وإن نوحاً لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فأنجاه الله منه، وإن إبراهيم لما ألقى في النار قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وإن موسى لما ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أمنتني، فقال له الله عز وجل: لا تخف، إنك أنت الأعلى) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ٧ / ١٠٠.

- (علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه، عن الرضا صلوات الله عليه قال: لما أشرف نوح صلوات الله عليه على الغرق دعا الله بحقنا، فدفع الله عنه الغرق، ولما رمى إبراهيم في النار دعا الله بحقنا، فجعل النار عليه برداً وسلاماً، وأن موسى عليه السلام لما ضرب طريقاً في البحر دعا الله بحقنا فجعله يبساً، وأن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا، نجي من القتل فرفعه إليه) قصص الأنبياء، الراوندي: ١٠٩ - ١١٠.

- (عن زيد الشحام، قال: "سألت أبا عبد الله عليه السلام هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعرف الأئمة عليهم السلام؟ قال: قد كان نوح عليه السلام يعرفهم، الشاهد على ذلك قول الله عز وجل: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى"، قال: شرع لكم من الدين - يا معشر الشيعة - ما وصى به نوحاً) الغيبة، النعماني: ١١٣.

- (ومنها: منقول هذا الخبر من المجلد الثاني عشر من تاريخ محمد النجار شيخ المحدثين بالمدرسة المستنصرية، بإسناد مرفوع إلى أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لما أراد الله أن يهلك قوم نوح عليه السلام أوحى إليه أن شق ألواح الساج فلما شقها لم يدر ما يصنع بها، فهبط جبرئيل فأراه هيئة السفينة، ومعه تابوت بها مائة ألف مسمار وتسعة وعشرون ألف مسمار، فسمر بالمسامير كلها السفينة إلى أن بقيت خمسة مسامير، فضرب بيده إلى مسمار فأشرق بيده وأضاء كما يضيئ الكوكب الدري في أفق السماء، فتحير نوح عليه السلام فأنطق الله ذلك المسمار بلسان طلق فقال: أنا على اسم خير الأنبياء "محمد بن عبد الله". فهبط جبرئيل عليه السلام فقال له: ما هذا المسمار الذي ما رأيت مثله؟ فقال: هذا باسم سيد الأنبياء "محمد بن عبد الله" صلى الله عليه وآله أسمره على أولها على جانب السفينة الأيمن. ثم ضرب بيده إلى مسمار ثان، فأشرق وأنار، فقال نوح عليه السلام: وما هذا المسمار؟ فقال: هذا مسمار أخيه وابن عمه سيد الأوصياء علي بن أبي طالب عليه السلام فأسمره على جانب السفينة الأيسر في أولها. ثم ضرب بيده إلى مسمار ثالث، فزهرو وأشرق وأنار، فقال [جبرئيل]:

إضافة إلى الروايات العامة التي أكدت معرفة جميع الرسل (ومنهم نوح عليه السلام) بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم، وقد عرضنا بعضها في مبحث "آدم والرسول محمد" (١).

نوح والحسين:

تقدمت النصوص السابقة التي أكدت معرفة نوح عليه السلام بالحسين صلوات الله عليه من خلال معرفته بالرسول محمد وآله صلوات الله عليهم، وهذا يعني أنّ نوحاً عليه السلام كان يعرف (بتعليم الله له) ما يجري على الحسين من مصيبة مستقبلية كما كان الرسل الأوائل الذين سبقوه يعرفون ذلك أيضاً وأولهم آدم عليه السلام كما عرفنا فيما سبق، بل يفترض أنّ معرفة الرسل بالحسين ترسخت أكثر لدى نبي الله نوح والمؤمنين به؛ بسبب مرور آلاف السنين على بدء رسالة الله على الأرض، والمعرفة والعلم الإلهي يتوارث بين الرسل والأوصياء كما ذكرنا سابقاً، بمعنى أنّ ما عرفه آدم عليه السلام من الله أعلم به وصيه والمؤمنين به، ونفس الشيء حصل بالنسبة إلى وصي آدم والمؤمنين به، وهكذا استمر حال الأوصياء وصياً بعد وصي وحال المؤمنين بهم أيضاً جيلاً بعد جيل، وهذا يعني شيوع ذكر محمد وآل محمد وشيوع ذكر الحسين لدى أسلاف السومريين (السومريين الأوائل)، وهذا بالضبط ما حصل كما سنعرفه لاحقاً عند استعراض بعض نصوص السومريين وأدبهم الميثوث في الألواح والرقم الطينية.

هذا مسمار فاطمة عليها السلام فأسمره إلى جانب مسمار أبيها، ثم ضرب بيده إلى مسمار رابع، فزهرو أنار. فقال: هذا مسمار الحسن عليه السلام فأسمره إلى جانب مسمار أبيه. ثم ضرب بيده إلى مسمار خامس، فزهرو أنار وأظهر النداءة، فقال جبرئيل عليه السلام: هذا مسمار الحسين عليه السلام فأسمره إلى الجانب الأيسر من مسمار أبيه. فقال نوح عليه السلام: يا جبرئيل ما هذه النداءة؟ فقال: هذا الدم. فذكر قصة الحسين عليه السلام وما تعمل الأمة به، لعن الله قاتله [وظالمه وخاذله] نوادر المعجزات، الطبري (الشيعة): ٦٥.

١- منها: (عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما تكاملت النبوة لني في الأظلة حتى عرضت عليه ولايتي وولاية أهل بيتي ومثلوا له فأقروا بطاعتهم وولايتهم) بصائر الدرجات، الصفار: ٩٣. ومنها: الإمام الصادق عليه السلام: "ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبياً قط إلا بها"، "ما من نبي جاء قط إلا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على من سوانا" الكافي، الكليني: ١ / ٤٣٧.

وأيضاً: (روي أنّ نوحاً لما ركب في السفينة طافت به جميع الدنيا فلما مرت بكرىلاً أخذته الأرض، وخاف نوح الغرق فدعا ربه وقال: إلهي طفت جميع الدنيا وما أصابني فزع مثل ما أصابني في هذه الأرض فنزل جبرئيل وقال: يا نوح في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمد خاتم الأنبياء، وابن خاتم الأوصياء فقال: ومن القاتل له يا جبرئيل؟ قال: قاتله لعين أهل سبع سماوات وسبع أرضين، فلعنه نوح أربع مرات فسارت السفينة حتى بلغت الجودي واستقرت عليه) (١).

قوم نوح:

رسل الله رحماء، بل رحمتهم عظيمة؛ لأنها مظهر تجلي رحمة الله المرسل لهم. لهذا، باشر نوح صلوات الله عليه دعوة قومه سرّاً وعلانية:

عن الإمام الصادق صلوات الله عليه: (إنّ نوحاً دعا قومه علانية، فلما سمع عقب هبة الله من نوح تصديق ما في أيديهم من العلم صدقوه، فأما ولد قابيل فإنهم كذبوه وقالوا: "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" وقالوا: "أنؤمن لك اتبعك الأرذلون" يعنون عقب هبة الله صلوات الله عليه) (٢).

أرذلون: أي فقراء، ويبدو أنها سنّة إلهية أن يتصف أنصار رسل الله بالفقر المادي، بخلاف السادة والملا (علية القوم وأصحاب المال) الذين عادة ما يكونون في صف الكافرين بالرسول وبدعواتهم الإلهية!

وعن الإمام الباقر صلوات الله عليه: (مكث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله سرّاً وعلانية، فلما عتوا وأبوا قال: "رب إني مغلوب فانتصر" فأوحى الله تعالى إليه أن اصنع الفلك، وأمره بغرس النوى، فمر عليه قومه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد غراساً حتى إذا طال وصار طوالاً قطعه ونجره، فقالوا قد قعد نجاراً، ثم ألفه

١- بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤ / ٢٤٣.

٢- قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٥.

فجعلله سفينة، فمروا عليه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد ملاحاً في أرض فلاة حتى فرغ منها^(١).

لاقى نوح صلوات الله عليه من قومه أذى كبيراً^(٢)، وفي وقته كانت عبادة الأصنام منتشرة بشدة بين الناس المحكومين من قبل حكام طغاة لا يؤمنون بالله ورسله، ينحدرون من نسل عدو الله "قابيل"، وقد رأينا أسماء أهم أصنامهم في النص القرآني المتقدم، وهي: "ود، سواع، يغوث، يعوق، نسر"!

عبادة الأصنام:

عرفنا سابقاً أنّ أول من عبد النار وبني لها بيوت تُعبد فيها هو عدو الله "قابيل"، وأبناءؤه هم من ورثوا ذلك منه، وأيضاً تسبّبوا بعبادة الأوثان من دون الله. كما أنّ عبادة قوم نوح للأصنام أمر ثابت في النصوص الدينية^(٣).

١- قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٥.

٢- أكدت الروايات ذلك، منها:

- (كان الرجل منهم يأتي بابنه هو صغير فيقفه على رأس نوح عليه السلام فيقول: يا بني إن بقيت بعدي فلا تطيعن هذا المجنون) بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٢٨٧.

- (عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: فمكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد، ولكنه قدم على قوم مكذّبين للأنبياء عليهم السلام الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام وذلك قول الله عز وجل: "كذبت قوم نوح المرسلين" يعني من كان بينه وبين آدم عليه السلام إلى أن انتهى إلى قوله عز وجل: "وإن ربك لهو العزيز الرحيم") الكافي، الكليني: ٨ / ١١٥.

- (فبُعِثَ وليس في الزمان من يأمر بالمعروف، وكانوا يعبدون الأوثان، فدعاهم وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ١ / ٢٣٩.

٣- وهذا مثال لها:

- (عن بريد بن معاوية قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في مسجد النبي صلى الله عليه وآله: إنّ إبليس اللعين هو أول من صور صورة على مثال آدم عليه السلام ليفتن به الناس، ويضلهم من عبادة الله تعالى، وكان ود في ولد قابيل وكان خليفة قابيل على ولده وعلى من بحضرته في سفح الجبل يعظّمونه ويسودّونه، فلما أن مات ود جزع عليه إخوته وخلف عليهم ابناً يقال له: "سواع" فلم يغن غناء أبيه منهم فأتاهم إبليس في صورة شيخ فقال: قد بلغني ما أصبتم به من موت ود عظيمكم، فهل لكم في أن أصوّر لكم على مثال ود صورة تستريحون إليها وتأنسون

بها؟ قالوا: افعَل. فعمد الخبيث إلى الأُنك (الرصاص) فأذابه حتى صار مثل الماء، ثم صوّر لهم صورة مثال ود في بيته فتدافعوا على الصورة يلتمونها ويضعون خدودهم عليها ويسجدون لها، وأحب سواع أن يكون التعظيم والسجود له، فوثب على صورة ود فحجّكها حتى لم يدع منها شيئاً، وهمّوا بقتل سواع، فوعظهم وقال: أنا أقوم لكم بما كان يقوم به ود، وأنا ابنه، فإن قتلتموني لم يكن لكم رئيس، فمالوا إلى سواع بالطاعة والتعظيم فلم يلبث سواع أن مات، وخلف ابنه يقال له: "يغوث" فجزعوا على سواع فأتاهم إبليس وقال: أنا الذي صورت لكم صورة ود، فهل لكم أن أجعل لكم مثال سواع على وجه لا يستطيع أحد أن يغيره؟ قالوا: فافعل، فعمد إلى عود فنجره ونصبه لهم في منزل سواع، وإنا سمي ذلك العود خلافاً، لأن إبليس عمل صورة سواع على خلاف صورة ود، قال: فسجدوا له وعظموه، وقالوا ليغوث: ما نأمنك على هذا الصنم أن تكيده كما كاد أبوك مثال ود، فوضعوا على البيت حراساً وحجاباً، ثم كانوا يأتون الصنم في يوم واحد، ويعظمونه أشد ما كانوا يعظمون سواعاً، فلما رأى ذلك يغوث قتل الحرسه والحجاب ليلاً، وجعل الصنم رميماً، فلما بلغهم ذلك أقبلوا ليقتلوه فتوارى منهم إلى أن طلبوه ورأسوه وعظموه ثم مات وخلف ابنه يقال له: يعوق فأتاهم إبليس فقال: قد بلغني موت يغوث، وأنا جاعل لكم مثاله في شئ لا يقدر أحد أن يغيره قالوا: فافعل، فعمد الخبيث إلى حجر أبيض فنقره بالحديد حتى صور لهم مثال يغوث فعظموه أشد مما مضى، وبنوا عليه بيتاً من حجر، وتبايعوا أن لا يفتحوا باب ذلك البيت إلا في رأس كل سنة، وسميت البيعة يومئذ لأهم تبايعوا وتعاقدوا عليه، فاشتد ذلك على يعوق فعمد إلى ربطة وخلق فألقاها في الحائر، ثم رامها بالنار ليلاً فأصبح القوم وقد احترق البيت والصنم والحرس وأرفض الصنم ملقى فجزعوا وهموا بقتل يعوق فقال لهم: إن قتلتم رئيسكم فسدت أموركم، فكفوا فلم يلبث أن مات يعوق وخلف ابنه يقال له: نسر، فأتاهم إبليس فقال: بلغني موت عظيمكم فأنا جاعل لكم مثال يعوق في شئ لا يبلى فقالوا: افعَل فعمد إلى الذهب وأوقد عليه النار حتى صار كالماء، وعمل مثالا من الطين على صورة يعوق ثم أفرغ الذهب فيه، ثم نصبه لهم في ديرهم واشتد ذلك على نسر، ولم يقدر على دخول تلك الدير فاحتاج عنهم في فرقة قليلة من إخوته يعبدون نسراً، والآخرين يعبدون الصنم حتى مات نسر، وظهرت نبوة إدريس فبلغه حال القوم وأهم يعبدون جسماً على مثال يعوق، وأن نسرًا كان يعبد من دون الله، فسار إليهم بمن معه حتى نزل مدينة نسروهم فيها فهزمهم، وقتل من قتل، وهرب من هرب فتفرقوا في البلاد، وأمر بالصنم فحمل وألقى في البحر، فاتخذت كل فرقة منهم صنماً، وسموها بأسمائها فلم يزالوا بعد ذلك قرناً بعد قرن لا يعرفون إلا تلك الأسماء ثم ظهرت نبوة نوح عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك ما كانوا يعبدون من الأصنام، فقال بعضهم: لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) قصص الأنبياء، الراوندي: ٧٠ - ٧٣.

- (عن حريز ابن عبد الله السجستاني عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، في قوله الله عز وجل: "وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودأ ولا سوعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً" قال: كانوا يعبدون الله عز وجل فماتوا، فضج قومهم وشق ذلك عليهم فجاءهم إبليس لعنه الله فقال لهم: اتخذ لكم أصناماً على صورهم فتتظرون إليهم وتأنسون بهم وتعبدون الله فأعد لهم أصناماً على مثالهم فكانوا يعبدون الله عز وجل وينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاءهم الشتاء والأمطار أدخلوا الأصنام البيوت فلم يزالوا يعبدون الله عز وجل حتى هلك ذلك القرن ونشأ أولادهم فقالوا: إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء فعبدوهم من دون الله عز وجل فذلك قول الله تبارك وتعالى: "ولا تذرنا ودأ ولا سوعاً" (الآية) علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٣ - ٤.

الغريلة سنة إلهية:

الأذى الذي لاقاه الرسول نوح صلوات الله عليه لم يقتصر على عبّاد الأصنام الذين كفروا برسالته، وإنما بعض من يدعون الإيمان به آذوه أيضاً، ولذلك دائماً تتعرض الدعوات الإلهية إلى "الغريلة والتمحيص" لتتنقّى وتصفّى من الأقذار والكدر، وهذا الأمر حصل في دعوة نوح عليه السلام بوضوح^(١).

١- (عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام لما أظهر الله تبارك وتعالى نبوة نوح عليه السلام وأيقن الشيعة بالفرج اشتدت البلوى وعظمت الفرية إلى أن آل الأمر إلى شدة شديدة نالت الشيعة والوثوب على نوح بالضرب المبرح حتى مكث عليه السلام في بعض الأوقات مغشى عليه ثلاثة أيام، يجري الدم من أذنه ثم أفاق، وذلك بعد ثلاثمائة سنة من مبعثه، وهو في خلال ذلك يدعوهم ليلاً ونهاراً فيهربون، ويدعوهم سراً فلا يجيبون، ويدعوهم علانية فيولّون. فهم بعد ثلاثمائة سنة بالدعاء عليهم، وجلس بعد صلاة الفجر للدعاء، فهبط إليه وفد من السماء السابعة وهم ثلاثة أملاك فسلموا عليه، ثم قالوا له: يا نبي الله لنا حاجة، قال: وما هي؟ قالوا: تؤخر الدعاء على قومك فإنها أول سطوة لله عز وجل في الأرض قال: قد أخرت الدعاء عليهم ثلاثمائة سنة أخرى، وعاد إليهم فصنع ما كان يصنع، ويفعلون ما كانوا يفعلون حتى إذا انقضت ثلاثمائة سنة أخرى ويئس من إيمانهم، جلس في وقت ضحى النهار للدعاء فهبط عليه وفد من السماء السادسة (وهم ثلاثة أملاك) فسلموا عليه، وقالوا: نحن وفد من السماء السادسة خرجنا بكرة وجئناك ضحوة، ثم سألوه مثل ما سأله وفد السماء السابعة، فأجابهم إلى مثل ما أجاب أولئك إليه، وعاد عليه السلام إلى قومه يدعوهم فلا يزيدهم دعاؤه إلا فراراً، حتى انقضت ثلاثمائة سنة تنمة تسعمائة سنة فصارت إليه الشيعة وشكوا ما ينالهم من العامة والطواغيت وسألوه الدعاء بالفرج، فأجابهم إلى ذلك وصلى ودعا فهبط جبرئيل عليه السلام فقال له: إنّ الله تبارك وتعالى أجاب دعوتك فقل للشيعة: ياكلوا التمر ويغرسوا النوى ويراعوه حتى يثمر، فإذا أثمر فرجت عنهم، فحمد الله وأثنى عليه وعرفهم ذلك فاستبشروا به، فأكلوا التمر وغرسوا النوى وراعوه حتى أثمر، ثم صاروا إلى نوح عليه السلام بالتمر وسألوه أن ينجز لهم الوعد، فسأل الله عز وجل في ذلك فأوحى الله إليه قل لهم: كلوا هذا التمر وأغرسوا النوى فإذا أثمر فرجت عنكم، فلما ظنوا أنّ الخلف قد وقع عليهم، ارتد منهم الثلث وثبت الثلثان، فأكلوا التمر وغرسوا النوى حتى إذا أثمر أتوا به نوحاً عليه السلام فأخبروه وسألوه أن ينجز لهم الوعد، فسأل الله عز وجل في ذلك، فأوحى الله إليه قل لهم: كلوا هذا التمر، وأغرسوا النوى، فارتد الثلث الآخر وبقي الثلث فأكلوا التمر وغرسوا النوى، فعلاً أثمر أتوا به نوحاً عليه السلام ثم قالوا له: لم يبق منا إلا القليل ونحن نتخوف على أنفسنا بتأخير الفرج أن نهلك، فصلى نوح عليه السلام ثم قال: يا رب لم يبق من أصحابي إلا هذه العصابة وإني أخاف عليهم الهلاك إن تأخر عنهم الفرج، فأوحى الله عز وجل إليه قد أجبت دعاءك فاصنع الفلك وكان بين إجابة الدعاء وبين الطوفان خمسون سنة) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ١٣٣-١٣٤.

وعنه أيضاً: (سأل نوح عليه السلام ربه أن ينزل على قومه العذاب، فأوحى الله إليه أن يغرس نواة من النخل، فإذا بلغت فأنثرت وأكل منها، أهلك قومه وأنزل عليهم العذاب. فغرس نوح النواة وأخبر أصحابه بذلك، فلما بلغت النخلة وأنثرت واجتنى نوح منها وأكل وأطعم أصحابه، قالوا له: يا نبي الله، الوعد الذي وعدتنا، فدعا نوح ربه،

والملفت أنه أمر يعاد ويتكرر مع أقوام الرسل التالين، ومنهم أمة قائم آل محمد ومهديهم صلوات الله عليه الذي بعث في الزمن الأخير^(١).

وسأل الوعد الذي وعده. فأوحى إليه أن يعيد الغرس ثانية حتى إذا بلغ النخل وأثمر وأكل منه، أنزل عليهم العذاب، فأخبر نوح عليه السلام أصحابه بذلك، فصاروا ثلاث فرق: فرقة ارتدت، وفرقة نافقت، وفرقة ثبتت مع نوح، ففعل نوح ذلك حتى إذا بلغت النخلة وأثمرت وأكل منها نوح وأطعم أصحابه، قالوا: يا نبي الله، الوعد الذي وعدتنا، فدعا نوح ربه. فأوحى إليه أن يغرس الغرسة الثالثة، فإذا بلغ وأثمر، أهلك قومه، فأخبر أصحابه، فافترقت الفرقتان ثلاث فرق: فرقة ارتدت، وفرقة نافقت، وفرقة ثبتت معه، حتى فعل نوح ذلك عشر مرات، وفعل الله ذلك بأصحابه الذين يبقون معه فيفترقون كل فرقة ثلاث فرق على ذلك، فلما كان في العاشرة جاء إليه رجال من أصحابه الخاصة المؤمنين فقالوا: يا نبي الله، فعلت بنا ما وعدت أولم تفعل فأنت صادق نبي مرسل لا نشك فيك، ولو فعلت ذلك بنا، قال: فعند ذلك من قولهم أهلكهم الله لقول نوح، وأدخل الخاص معه في السفينة، فنجاهم الله تعالى، ونجى نوحاً معهم بعد ما صفوا وهذبوا وذهب الكدر منهم (الغيبة، النعماني: ٢٩٦ - ٢٩٧).

١- عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: (وأما إبطاء نوح عليه السلام: فإنه لما استنزلت العقوبة على قومه من السماء بعث الله عز وجل الروح الأمين عليه السلام بسبع نويات، فقال: يا نبي الله إن الله تبارك وتعالى يقول لك: إن هؤلاء خلانقي وعبادي ولست أبيدهم بصاعقة من صواعقي إلا بعد تأكيد الدعوة وإلزام الحجة فعادوا اجتهدوا في الدعوة لقومك فإني مثيبك عليه وأغرس هذه النوى فإن لك في نباتها وبلوغها وإدراكها إذا أثمرت الفرج والخلص، فبشر بذلك من تبعك من المؤمنين. فلما نبئت الأشجار وتأزرت وتسوقت وتغصنت وأثمرت وزها التمر عليها بعد زمان طويل استنجز من الله سبحانه وتعالى العدة، فأمره الله تبارك وتعالى أن يغرس من نوى تلك الأشجار ويعادوا الصبر والاجتهاد، ويؤكد الحجة على قومه، فأخبر بذلك الطوائف التي آمنت به فارتد منهم ثلاثمائة رجل وقالوا: لو كان ما يدعيه نوح حقاً لما وقع في وعد ربه خلف. ثم إن الله تبارك وتعالى لم يزل يأمره عند كل مرة بأن يغرسها مرة بعد أخرى إلى أن غرسها سبع مرات فما زالت تلك الطوائف من المؤمنين، ترد منه طائفة بعد طائفة إلى أن عاد إلى نيف وسبعين رجلاً فأوحى الله تبارك وتعالى عند ذلك إليه، وقال: يا نوح الآن أسفر الصبح عن الليل لعينك حين صرح الحق عن محضه وصفي (الأمر والإيمان) من الكدر بارتداد كل من كانت طينته خبيثة، فلو أني أهلك الكفار وأبقيت من قد ارتد من الطوائف التي كانت آمنت بك لما كنت صدقت وعدي السابق للمؤمنين الذين أخلصوا التوحيد من قومك، واعتصموا بحبل نبوتك بأن أستخلفهم في الأرض وأمكن لهم دينهم وأبدل خوفهم بالأمن لكي تخلص العبادة لي بذهاب الشك من قلوبهم، وكيف يكون الاستخلاف والتمكين وبديل الخوف بالأمن مني لهم مع ما كنت أعلم من ضعف يقين الذين ارتدوا وخبث طينتهم وسوء سرائرهم التي كانت نتائج النفاق، وسنوح الضلالة فلو أنهم تسنموا مني الملك الذي أوتي المؤمنين وقت الاستخلاف إذا أهلك أعداءهم لنشقوا روائح صفاته ولاستحكمت سرائر نفاقهم تأبدت حبال ضلالة قلوبهم، ولكاشفوا إخوانهم بالعداوة، وحاربوهم على طلب الرئاسة، والتفرد بالأمر والنهي، وكيف يكون التمكين في الدين وانتشار الأمر في المؤمنين مع إثارة الفتن وإيقاع الحروب كلا "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا". قال الصادق عليه السلام: وكذلك القائم فإنه تمتد أيام غيبته ليصرح الحق عن محضه ويصفوا الإيمان من الكدر بارتداد كل من كانت طينته خبيثة

طوفان نوح:

قصة الطوفان من منظورين:

سأعرض الآن طرحين لقصة الطوفان؛ أحدهما: الطرح التقليدي الذي يتبنّاه أغلب رجال الدين في الأديان الإبراهيمية الثلاثة، وثانيهما: الطرح الذي قدّمه السيد أحمد الحسن في كتابه "وهم الإلحاد"^(١)، لنرى أي الطرحين يتمكن من أن يكون مجمّعاً تلتقي عنده النصوص الدينية والحقائق العلمية دون الحاجة إلى التفريط بأيٍّ منهما.

الطرح التقليدي لطوفان نوح:

الفهم التقليدي أعني به الفهم السائد لدى أتباع الأديان، إذ يتصوّرون أنّ الطوفان عمّ كل الأرض، وأنّ نوحاً عليه السلام حمل معه زوجاً من كل حيوانات الأرض، وسبب هذا التصوري يعود إلى وجود نصوص دينية محرّفة.

قصة الطوفان لدى أتباع الأديان الإبراهيمية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) تبدأ من نصوص التوراة التي افترضت:

- أنّ سفينة نوح حملت زوجاً من كل حيوان يعيش على الأرض.
- وأنّ الأرض كلها غطتها المياه بارتفاع أعلى جبل فيها^(٢).

من الشيعة الذين يخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم عليه السلام) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ٣٥٥ - ٣٥٦؛ الغيبة، الطوسي: ١٧٠ - ١٧٢.

١- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٩٧ - ٤٤٢، بحث في طوفان نوح.

٢- العهد القديم: "١٤ هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذي جناح. ١٥ ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حيوة. ١٦ والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله. وأغلق الرب عليه. ١٩" وعازمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. ٢٠ خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعازمت المياه. فتغطت الجبال. ٢١ فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض. من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. ٢٢ كل ما في انفه نسمة روح حيوة من كل ما

- وأن نوحاً بقي مع كل هذه الحيوانات أكثر من سنة على ظهر السفينة^(١)!

يقول السيد أحمد الحسن: (والأمور المتقدمة واضحة البطلان، فلا يوجد لديهم أي تفسير علمي لكميات المياه التي تغطي كل الجبال على الأرض حيث إن الأرض لا تتوفر على هذه الكمية من المياه. ولا يوجد تفسير منطقي لبقاء هذا الكم الهائل من الحيوانات حية على متن السفينة لمدة تزيد عن السنة، فكيف حملتها السفينة مع كميات غذاء تكفيها لمدة تزيد عن سنة كما في القصة التوراتية؟ من أين جاء نوح بلحم يكفي الوحوش التي حملها بحسب القصة التوراتية لمدة تزيد عن السنة؟.....)

أيضاً: أين آثار هذه الكميات الكبيرة من المياه والحال أن آثار الأحداث الأرضية موجودة ويمكن قراءتها للمليارات السنين فكيف يحدث لم يمر عليه سوى بضعة آلاف من السنين، كيف اندرست آثاره؟!

ربما سيقولون: أخفيت بالمعجزة! ولكن هكذا سيكون الأمر عبارة عن قصة خيالية وكلما دخلت في نفق مظلم وتبين أنها تناقض الثوابت العلمية ولا وجود تاريخي لها علل ذلك بالمعجزة في حين أن إتيان الله بالمعجزة لابد أن يكون لحكمة ولسبب حكيم وليس للعبث أو لتضليل الناس وإخفاء الحقائق والأحداث كطوفان نوح عليه السلام. فيجب الانتباه إلى أن قصة الطوفان قصة تاريخية وبالتالي فكل ما يحيط بها يمكن التأكد منه علمياً، فوجود أي شيء غير صحيح في قصتها يمكن كشفه الآن بسهولة من خلال العلم،

في اليابسة مات. ٢٣ فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط" سفر التكوين: أصحاح ٧.

١- العهد القديم: سفر التكوين، الأصحاح السابع: "٦ ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض. ٧ فدخل نوح وبنوه وامراته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان ١١ في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء". وفي الأصحاح الثامن: "١٣ وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. ١٤ وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض ١٥ وكلم الله نوحاً قائلاً. ١٦ أخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك".

ولهذا فلن تبقى إلا القصة الصحيحة التي لا تتناقض مع الحقائق العلمية التي تقدمها الجيولوجيا التاريخية ونتائج الفحوصات العلمية الدقيقة.

في الحقيقة إنّ القصة الواردة في التوراة لا يمكن ترقيعها بحال، فهي واضحة البطلان حتى وإن قالوا: إنّ الطوفان محلي ووقع على بقعة محددة من الأرض، تبقى أمور في القصة التوراتية لا يمكن أن تتوافق مع العلم والحقائق بحال كقضية بقاء الدواب والوحوش حية مع نوح عليه السلام على سفينة بالمقاسات المذكورة ولمدة تزيد عن سنة، فمن أين جاء لها نوح عليه السلام بكميات ماء وغذاء تكفيهم لهذه المدة الطويلة، ولوجاء لها بهذه الكميات الكبيرة فكيف حملتها سفينة بهذه المقاسات.

وهذه الحقيقة دليل قاطع على أحد أمرين:

- إما أنّ التوراة محرفة، وهذا يلزم منه أنّ الدين اليهودي الحالي منحرف عن دين الله سبحانه والدين المسيحي كذلك؛ لأنه يقربصحة ما في كتاب العهد القديم أو التوراة.
- وإما أنّ الدين اليهودي وكذا المسيحي باطلان ومن تأليف الإنسان، وأنّ التوراة تأليف إنساني محض.

بالنسبة لنا نختار أنّ التوراة محرفة، وأنّ الدين المسيحي الذي أقرصحة ما ورد فيها دين منحرف وباطل) انتهى^(١).

بعض نصوص المسلمين (رواياتهم و أقوال علمائهم)^(٢) وافقت الطرح التوراتي، وبالتالي فالإشكال عليها كالأشكال على النص التوراتي، ولا يمكن بحال قبولها والركون إليها بعد مخالفتها لحقائق قطعية ثابتة بحقائق الدين والعلم معاً كما سيتضح.

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٣٣ - ٤٣٥.

٢- انظر على سبيل المثال: تاريخ الطبري: ١٢ / ٤٨: المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفدا)، أبو الفدا: ١ / ١٠؛ تفسير الميزان، السيد الطباطبائي: حيث قال: (٧- هل الطوفان كانت عامة لجميع الأرض؟ تبين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته عليه السلام يقضى بعموم العذاب، وهو نعم القرينة على أن المراد

وعموماً، الطرح التقليدي لقضية طوفان نوح عليه السلام وُلد إشكالات كثيرة من الناحية العلمية^(١).

قصة الطوفان ببيان السيد أحمد الحسن:

الطوفان وفق الرواية العلمية (بحسب الأدلة الأثرية والجيولوجية المسجلة) لم يكن شاملاً لكل الأرض وإنما حدث في منطقة محددة.

وقد بحث السيد أحمد الحسن قضية طوفان نوح بالتفصيل، وهذه أهم الأمور التي أشار لها في بحثه:

١- عرض أهم الإشكالات العلمية والمنطقية على الطرح التقليدي لقضية الطوفان، وقد أشرت إلى بعضها.

بساير الآيات الدالة بظاهاها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: "رب لا تذرع على الأرض من الكافرين دياراً" نوح: ٢٦، وقوله حكاية عنه: "لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم" هود: ٤٣، وقوله: "وجعلنا ذريته هم الباقين" الصافات: ٧٧. ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق - كما قيل - لم يكن أي حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين. وهو ظاهر) تفسير الميزان: ١٠ / ٢٦٤.

١- وجهت عدة إشكالات على الطرح التقليدي، منها:

الأول: من أين أتت كمية الماء التي غطت كل الأرض بمستوى عالٍ يوازي أعلى جبالها الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بعدة كيلومترات، وهل فعلاً يستوعب كوكب الأرض ثقلاً يولده ارتفاع المياه إلى هكذا مستوى؟

الثاني: كيف وصلت حيوانات الجزر والقارات المعزولة إلى نوح ليحملها معه في السفينة، وكيف نزلت منها ورجعت دون أن تترك أثراً يذكر، وأيضاً: توجد ملايين الأنواع من الأحياء على الأرض فكم سيأخذ تجميعها من وقت وكم سيكون حجم السفينة خصوصاً إذا ما عرفنا أن بعض الحيوانات كبيراً كالفيل والحيتان مثلاً، وخصوصاً إذا ما عرفنا أنها جميعاً بحاجة إلى غذاء؟

الثالث: لماذا لا يوجد أي أثر لطوفان عمّ الأرض كلها، في حين وجد أثره في منطقة محددة (منطقة نوح)؟

٢- أوضح أنّ قصة الطوفان موجودة لدى شعوب بلاد ما بين النهرين (السومريين والبابليين) بحسب النصوص الواردة في الألواح والرقم الطينية المكتشفة، وهذا يعني أنّ القصة موجودة ومدوّنة قبل الأديان الابراهيمية الثلاثة بآلاف السنين^(١).

يقول السيد أحمد الحسن: (قصة الطوفان موجودة ومدوّنة قبل أي من الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد وقد تناقلها شعب ما بين النهرين على اعتبار أنها حدثت مع أسلافهم.

وينقل كريمر في ألواح سومر قصة الخلق والطوفان السومرية ولكنها ناقصة بسبب كسر الألواح وتلفها، وسأقل هنا بعض المقاطع منها:

"وبعد ان خلق أن وانليل وانكي وننخرساج،
القوم ذوي الرؤوس السود
خرجت المزروعات بوفرة من الارض،
وجاءت الى الوجود حيوانات السهل من ذوات الاربع وهي محكمة الصنع والخلق

ويعقب العبارات المتقدمة نقص في النص مقداره نحو ٣٧ سطراً وبعد ذلك تخبرنا الاسطورة أنّ الملكية نزلت من السماء وأسست خمس مدن:

بعد أن أنزلت الملكية من السماء،
وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء،
أكمل رسوم العبادات والنواميس الالهية المقدسة....
وأسس المدن الخمس في مواضع مطهرة....
وسماها بأسمائها وخصصها كمر اكز للطقوس والعبادات

١- يقول د. صموئيل كريمر: (أول نوح: صرنا متأكدين الآن من أن قصة الطوفان التي وردت في التوراة، لم تكن في الأصل من وضع مدوني أسفار التوراة، وذلك منذ ان اكتشف "جورج سميث" الذي كان يشتغل في المتحف البريطاني، اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش، وحل رموزه. ولكن قصة الطوفان البابلية بدورها سومرية الاصل. فقد أرنوبيل في عام ١٩١٤ قطعة هي الثلث الأسفل من لوح سومري ذي ستة حقول وجده من بين مجموعة ألواح نفر المحفوظة في متحف الجامعة. وكانت محتوياتها تتعلق على الاغلب بقصة المحفوظة في متحف الجامعة. وكانت محتوياتها تتعلق على الاغلب بقصة الطوفان وظلت هذه القطعة حتى الآن وحيدة فريدة لم يعثر على ما يطابقها أو يضاهيها) من ألواح سومر: ٢٥١.

ثم عمد زيوسودرا الملك الذي هو باشيشوال.....،
 وصنع.... ضخما،
 وبكل خضوع وطاعة وتبجيل صار يتردد دوماً الى ال....،
 حاملا معه أخبار جميع اصناف الأحلام، وأخذ ينطق باسم السماء والأرض.....،
 كان زيوسودرا قائما بجانبه وهو يصغي،
 قف عند الحائط الى جانبي الأيسر...،
 وعند الحائط سأبلغك بكلمة فخذ بكلمتي،
 واستمع لارشادي ووصاياي:
 في مجمعنا.... ان طوفانا سيدمر مراكز العبادة،
 وتهلك ذرية البشر....،
 ان هذا هو القرار الذي أصدره الالهة في مجمعهم.
 وبالكلمة التي امر بها أن وانليل،
 سيؤتي على ملوكيتها ونظام حكمها.

ويلزم أن يكون النص في أصله الكامل قد استمر ببيان الارشادات المفصلة التي بلغها
 الإله إلى زيوسودرا وبأن يبني فلُكاً عظيماً لينقذ نفسه من الهلاك، ولكن ذلك ناقص من
 النص لوجود كسر آخر يتضمن زهاء ٤٠ سطراً. ولما أن يصبح النص واضحاً من بعد ذلك
 نقرا أن الطوفان العنيف المدمر قد حلَّ في البلاد وظل ثائراً محتدماً طوال سبعة أيام
 وسبع ليال ثم يشرق الإله الشمس مرة ثانية ناشراً ضوءه النير في كل مكان فيسجد
 زيوسودرا له ويقدم الأضاحي والقرابين، على ما جاء في الأسطر الباقية من النص:

وكانت جميع الزوابع تهجم بعنف وضراوة وهي مجتمعة،
 وفي الوقت نفسه جرف الطوفان مراكز العبادة،
 وبعد ان استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال،
 واكتسح الطوفان البلاد،
 وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الاعاصير في المياه الجارفة،
 ظهر أوتو الذي نشر ضوءه على السماء والارض،
 وفتح زيوسودرا شبكا في الفلك العظيم،
 وأنفذ البطل أوتو أشعته في الفلك العظيم
 زيوسودرا الملك،
 سجد أمام أوتو
 وقتل الملك ثورا وذبح كبشا

ويعقب هذا الموطن أيضاً نقص في النص قوامه نحو ٣٩ سطراً. ثم تصف لنا الأسطر الأخيرة من النص كيف ألّٰهوا زيوسودرا فإنه بعد أن سجد للإله أن وانليل وهبت له الحياة الخالدة مثل إله، وزود بالنفس الخالد ونقل إلى دلمون حيث مطلع الشمس:

فاه أن وانليل ب نفس السماء ونفس الارض فانتشري...
وظهر النبات والزرع وارتفع،
الملك زيوسودرا،
سجد امام أن وانليل،
واصطفى أن وانليل زيوسودرا
ووهباه الحياة مثل إله.
ولقد ادخلافيه النفس الخالد مثل إله،
زيوسودرا،
الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر،
وفي أرض العبور في أرض دلمون الموضع الذي تشرق منه الشمس أسكناه هناك" (١).

توضيح: البداية كانت لما اكتمل خلق الإنسان العاقل أو الهومو سابينس وهو كان أسود البشرة وجاء من أفريقيا إلى الوادي الخصب وهو يمثل بداية قصة آدم والاستخلاف، والذي يمثل الأصل الذي يرجع له السومريون، ولهذا فمن الطبيعي أن يعبر السومريون عن أسلافهم بعبارة ذوي الرؤوس السود:

"وبعد ان خلق أن وانليل وانكي وننخرساج، القوم ذوي الرؤوس السود".

وهذه العبارة التي تتكرر دائماً في النصوص السومرية كانت غير واضحة لمنقبي الآثار، وكانت تمثل لغزاً غير مفسّر؛ فلماذا يطلق السومريون على أسلافهم هذا الاسم "ذوي الرؤوس السوداء"؟ والآن قد تبين بوضوح، فالسبب هو أنّ الأسلاف جاءوا من أفريقيا ولون بشرة رؤوسهم أسود.

الخطوة الثانية في قصة الخلق السومرية هي الاستخلاف الإلهي لخليفة إنساني في الأرض:

"بعد أن أنزلت الملكية من السماء،
وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء،
أكمل رسوم العبادات والنواميس الإلهية المقدسة".

وهي - كما هو واضح في النص السومري - تمثل قصة استخلاف آدم عليه السلام أو خليفة الله - الإنساني - الأول في الأرض التي وردت في الأديان الإلهية، فالملكية نزلت من السماء أي تم تنصيب خليفة لله في الأرض فالملك بالأصل لله، ونزول الملك للأرض يعني انتداب إنسان كخليفة لله في الأرض، وبعد أن تم الاستخلاف نزلت له الشريعة والنواميس الإلهية المقدسة أي أن الله أوحى لآدم عليه السلام وعرفه الدين والشريعة والنواميس الإلهية المقدسة.

النص المتقدم كما هو واضح فيه نقص كبير وخصوصاً عندما يتعرض لقصة الطوفان، ولكن يمكن أن نلخص منه فيما يخص الطوفان أن:

- صانع السفينة شخص سومري واسمه زيوسودرا.
- إنَّ الله أوحى لزيوسودرا وبعض الوحي الإلهي كان يصل له عن طريق الرؤى.
- إنَّ زيوسودرا (أو نوح) علم بالطوفان قبل أن يحدث عن طريق الوحي الإلهي.

وهناك تركيز على ذكر أنَّ الطوفان جرف أماكن العبادة:

"ان طوفاناً سيدمر مراكز العبادة وفي الوقت نفسه جرف الطوفان مراكز العبادة".

وهذه إشارة إلى انحراف رجال الدين وتحريفهم للدين في زمن زيوسودرا (نوح).

وهناك تركيز على أنَّ الطوفان كان عقاباً إلهياً للناس لتمردهم على أوامر الله، وأنَّ الطوفان سيهدم نظام حكمهم الذي كان مضاداً لزيوسودرا (نوح) المنصَّب من الله:

"سيؤتى على ملوكيتها ونظام حكمها".

إنّ مهمة زيوسودرا كانت صنع سفينة تحافظ على ذرية خاصة من البشر ونبات خاص وحيوانات خاصة، وربما هناك إشارة واضحة في النص السومري لهذا وهي كلمة "حافظ على الزرع"، فأکید المقصود نبات خاص وإلا فالفيضان مهما كان عظيماً على الأرض فالنتيجة أنّ النباتات لا تحتاج سفينة تنقلها لتحافظ عليها فعلى الأقل أنّ بذورها تبقى وتنبت بعد الفيضان دون حاجة لمساعدة، ولهذا فواضح أنّ المقصود هو نباتات الزراعة التي يتغذى عليها الإنسان، وربما المقصود بالخصوص هو أنّ زيوسودرا نقل كمية كافية من بذورها لتتم إعادة العملية الزراعية الإنتاجية دون الحاجة للبداية من الصفر عندما لا تكون بذور الحنطة والمحاصيل الزراعية متوفرة لدى الإنسان (ابن آدم)، ولهذا فالنص ربما واضح بأنّ المنقولين بالسفينة هم مجموعة من الناس المؤمنين بقول نوح، وأيضاً بذور زرع انتاجي اقتصادي مهم للإنسان، وأيضاً: يمكننا أن نستنتج تبعاً لهذا أنّ الحيوانات المنقولة هي الحيوانات المدجنة النافعة للإنسان، وأخيراً نجح زيوسودرا أو نوح وتمت مكافئته؛ لأنه قبل كلام الله ووحى الله وارتقى في ملكوت السماوات بعد أن تمت عملية النقل والإنقاذ بالسفينة، وسكن زيوسودرا في أرض دلمون أو أرض العبور كما في النص السومري.

"الملك زيوسودرا،

سجد امام أن وانليل،

واصطفى أن وانليل زيوسودرا

ووهباه الحياة مثل إله.

ولقد ادخلافيه النفس الخالد مثل إله،

زيوسودرا،

الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر،

وفي أرض العبور في أرض دلمون الموضع الذي تشرق منه الشمس أسكناه هناك".

دلمون:

وصف دلمون لدى السومريين هو:

"في دلمون لا ينطق الغراب الأسود،

ولا يصيح طيرال اتدو ولا يصرخ،

ولا يفترس الاسد،

والذئب لا يفترس الحمل،
ولم يعرفوا الكلب المتوحش الذي يفترس الجدي،
ولم يعرفوا... الذي يفترس الغلة،
ولم توجد الأرملة،
والطير في الأعالي...،
والحمامة لا تحنى رأسها،
وما من أرمد يشتكي ويقول عيني مريضة،
ولا مصدوع يقول في رأسي مرض الصداع،
وعجوز دلمون لا تقول أنا عجوز،
ولا يقول الشيخ أنا شيخ طاعن في السن،
والعذراء لا تستحم. ولا يصيب الماء الرائق في المدينة،
ومن عبر نهر الموت لا يتفوه ويقول....،
والكهنة النائحون لا يحومون حوله،
والمنشد لا يعول بالثناء،
وفي طرف المدينة لا ينوح او يندب" (١).

توضيح: الوصف أعلاه لا يمكن حمله على الحقيقة إذا كان يقصد به أرضاً أو بلدًا معيناً سكنه زيوسودرا أو نوح بعد الطوفان فواضح أنه وصف رمزي، وأيضاً؛ هو وصف يذكر القارئ المطلع على روايات المهدي بدولة المهدي وأوصافها حيث الذئب لا يأكل الحمل (٢) أو في الحقيقة يمكن القول إنّ المقصود الدولة المثالية التي يرفع فيها الظلم وتطبق فيها عدالة السماء، ولهذا فيمكن أن نفهم أنّ دلمون أو مكان سكن زيوسودرا بعد

١- من ألواح سومر، كيرمر: ٢٤٥.

٢- روايات كثيرة أشارت لهذا المعنى، منها: ما روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنه قال: (ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهب الشحنة من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدمها إلا على النبات وعلى رأسها زينتها لا يهيجها سبع ولا تخافه) الخصال، الصدوق: ٦٢٦. ونفس هذا الأمر في التوراة في صفة المخلص: "بَلْ يَقْضِي بِالْعَدْلِ لِلْمَسْكِينِ، وَيَحْكُمُ بِالْإِنْصَافِ لِلْيَاسِيِّ الْأَرْضِ، وَيَضْرِبُ الْأَرْضَ بِقَضَبِ قَمِهِ، وَيُمِيتُ الْمُتَنَافِقَ بِتَفْخَةِ شَفْتَيْهِ. هُوَ يَكُونُ الْبِرُّ مِنْطَقَةً مَثَلِيَّةً، وَالْأَمَانَةُ مِنْطَقَةً حَقَوْنِيَّةً. ٦ فَيَسْكُنُ الذَّيْبُ مَعَ الْخُرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمْرُ مَعَ الْجَدْيِ، وَالْعِجْلُ وَالشَّيْلُ وَالْمَسَمَنُ مَعًا، وَصَبِي صَغِيرٌ يَسُوقُهَا. ٧ وَالْبَقَرَةُ وَالذَّبَّةُ تَرْعِيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلَادُهُمَا مَعًا، وَالْأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تَبْنًا. ٨ وَيَلْعَبُ الرِّضِيُّ عَلَى سَرَبِ الصَّلَاةِ، وَيَمْدُ الْقَطِيمُ يَدَهُ عَلَى جُحْرِ الْأَفْعَوَانِ. ٩ لَا يَسُوءُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ جَبَلٍ قُدْسِي، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَمْتَلِئُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ كَمَا تَغْطِي الْمِيَاهُ الْبَحْرَ" الكتاب المقدس، سفر إشعيا ١١: ٤ - ٩.

الطوفان دولة المهدي العادلة المرتقبة منذ زمن زيوسودرا (نوح) بل ومرتبقة قبله، وعاصمتها ومبدها من العراق أي يمكن أن نقول: إنّ دلمون في هذا النص السومري هي العراق) انتهى^(١).

النتيجة التي انتهى إليها السيد أحمد الحسن بحسب النص السومري لقصة الطوفان هي: أنّ الطوفان حصل كعقوبة إلهية لقوم نوح وأنه سيجرف ويدمر دور العبادة ونظام الحكم نتيجة تمردهم على أوامر الله وكفرهم برسالة نوح، وأنّ الله أعلم نوحاً بأمر الطوفان من خلال الوحي وأمره بصنع السفينة التي أركب فيها المؤمنين به وحمل معه النباتات (البذور) التي يحتاج لها الناس لغذائهم، وكذا الحيوانات المدجنة النافعة لهم، وأنّ سفينته رست به وبمن معه في بلاد ما بين النهرين "العراق".

٣- أشار السيد أحمد الحسن - أيضاً - إلى نص بابلي يحكي قصة الطوفان وهو "ملحمة جلجامش"^(٢)، ولا يختلف مضمونه عن النص السومري المتقدم فقط اسم نوح فيه هو "أوتونبشتيم" وهو نفسه "زيوسودرا" بلغة سومر. وأيضاً: أضاف إشارات مهمة عن المنطقة التي كان نوح عليه السلام يقطنها وحصل فيها الطوفان.

يقول السيد أحمد الحسن: (قصة الطوفان في نص ملحمة جلجامش لا تختلف عن النص السومري المتقدم، فهنا أيضاً الطوفان بسبب غضب إلهي، وسفينة تبني لينجو فيها أوتونبشتيم (نوح) والمؤمنون، ولكن في هذا النص أمور مهمة هي:

هناك إشارات واضحة للمنطقة التي كان يقطنها نوح، فهي منطقة قريبة من الماء أو منطقة قصب بالتحديد فبيت أوتونبشتيم من قصب كما هو واضح، بل سيأتي نص واضح أنّ سفينة نوح أيضاً بنيت من القصب.

"فنقل هذا كلامهم الى كوخ القصب، يا جدار، يا جدار!

اسمع يا كوخ القصب و افهم يا حائط

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٠١ - ٤٠٨.

٢- انظر: ملحمة جلجامش، د. طه باقر.

قوض البيت وابن لك فلکاً (سفينة)".

أيضاً: ذكر في نص ملحمة جلجامش أنّ سبب الفيضان هو انهيار سد أو سدود:

"ثم اعقبه الاله "ننورتا" وفتق السدود".

أيضاً: ذكر في نص ملحمة جلجامش أنّ اتجاه الفيضان أو موج الفيضان ورياح وزوايا الفيضان كانت متجهة من الجنوب إلى الشمال، والمياه غمرت الجبال أي إنّ المنطقة كانت محاطة بالمرتفعات بحيث إنّ المياه غمرت تلك الجبال:

"وظلت زوايا الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً وازدادت شدة في مهيا حتى غمرت الجبال".

والآن، لو أردنا أن نجتمع الصفات المتقدمة للفيضان في منطقة تقع في العراق أو محيط العراق فلن نجد غير الوادي الخصب قبل أن تغمره المياه ويصبح الخليج الحالي.

- فبانهيار سد مضيق هرمز الحالي يصبح اتجاه زوايا الفيضان من البحر إلى الوادي أي بالنسبة لمن في الوادي تكون آتية من الجنوب.
- وباعتبار أنّ المنطقة منخفضة وفيها مناطق مرتفعة كالجبال وهي تمثل محيطها والجزر التي يبرز بعضها في الخليج حالياً ومنها مثلاً البحرين.
- ولكون المنطقة قبل الفيضان عبارة عن وادٍ مليء بالبحيرات العذبة حيث كانت تصب فيه المياه العذبة التي تأتيه من الشمال، فمن الطبيعي أن يتوفر فيه القصب ويكون بيت نوح من قصب وسفينته من قصب كما سيأتي في النص التالي بوضوح) انتهى^(١).

وأيضاً: نقل السيد أحمد الحسن نصاً بابلياً آخر ورد فيه ذكر قصة الطوفان أيضاً وصاحبه "اترا حسس = اتونبشتم"، وبعد عرضه قال:

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٤٢٢ - ٤٢٣.

(واضح في النص المتقدم أنّ اترحاسس (زيوسودرا - اوتونبشتم - نوح) بنى سفينته من قصب ولعله قصب متين كقصب البامبو وليس قصباً عادياً ضعيفاً، وبيئة الوادي الخصب (الخليج الحالي) قبل أن تغمرها المياه كانت بيئة ملائمة لنمو أنواع القصب والأشجار؛ لأنها مساحات كبيرة تجري فيها الأنهار والبحيرات.

"ابن سفينة كبيرة وليكن بناؤها كلياً من القصب واجعلها واجعلها سفينة ماكور او كروا سمها منقذة الحياة".

اوتونبشتم أو زيوسودرا أو اترحاسيس أو نوح قصته غير متطابقة في كل المرويات التاريخية الواردة من العراق أو الموقع الذي سكنه ورثة نوح وقومه أو بالخصوص الناجين معه في السفينة، ولكن النصوص تجمع على أنّ هناك طوفاناً حصل وسبب الطوفان ديني وهو غضب إلهي.

أيضاً: المنطقة التي كان فيها الطوفان هي بلاد ما بين النهرين ومحيطها وغطتها المياه بصورة كلية وبكميات كبيرة جداً بحيث لم ينجُ منها أحد غير من ركبوا السفينة مع نوح، وكانت السفينة تجري في بحر.

أيضاً: من النصوص نجد أنّ السفينة صنعت من القصب وصنعت في فترة قصيرة ربما أيام، وكانت كبيرة الحجم على الأقل بالنسبة للحقبة التي صنعت فيها، وكانت المنطقة تحوي مرتفعات ومحاطة بالمرتفعات، والفيضان بسبب انهيار سد، والماء جاء من الجنوب باتجاه الشمال.

وكل ما تقدم إذا أردنا جمعه مع الحقائق العلمية والتاريخية ستحصر منطقة الفيضان بالخليج الحالي قبل أن تغمره المياه إبان انتهاء العصر الجليدي الأخير وذوبان الثلوج وارتفاع مستوى سطح البحر) انتهى^(١).

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٢٨ - ٤٢٩.

واضح أنّ السيد أحمد الحسن انتهى (بحسب الرواية السومرية والبابلية التي قصّت طوفان نوح) إلى أنّ الطوفان:

- حدث خاص حصل في المنطقة التي بُعث فيها نوح ولم يكن شاملاً لكل الأرض.
- كانت مهمة نبي الله نوح (الرجل السومري: زيوسودرا = اتونبشتم = اتراحسس) الحفاظ على مجموعة خاصة من الناس (المؤمنين به)، ونبات خاص (المحاصيل الزراعية التي يحتاجها الإنسان في غذائه أو بذورها بالتحديد) وحيوانات خاصة (حيوانات مدجنة نافعة للإنسان).
- إنّ الله أوحى إلى نوح عليه السلام وأعلمه بالطوفان قبل حدوثه وأنه عقاب إلهي لقومه (نتيجة تكذيبهم له وإصرارهم على أذاه بالتأكيد)، وأمره بصنع السفينة، وأيضاً: الطوفان دمر وهدم مراكز العبادة (عبادة الأصنام) ونظام الحكم القائم آنذاك؛ الأمرين اللذين يقعان تحت إشراف وسلطة رجال الدين والحكام المتمردين على خط الرسل والكافرين برسالة نوح عليه السلام.
- الطوفان حصل في منطقة حوض الخليج "الوادي الخصيب"، الموضع الذي بعث فيه نوح ومن قبله آدم وإدريس ورسّل الله الأوائل عليهم السلام.
- إنّ الأرض التي انتقل إليها نوح عليه السلام والمؤمنون به وعليها رست سفينته بعد الطوفان هي العراق وبلاد ما بين النهرين.

٤- النص القرآني القطعي على الطوفان يلتقي تماماً مع النتائج التي انتهى لها السيد أحمد الحسن كما سنرى الآن.

قال تعالى: "وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ

الماء قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ" هود: ٣٦ - ٤٣.

يقول السيد أحمد الحسن: (القصة القرآنية تشترك مع القصص التاريخية في أنّ الطوفان عقوبة إلهية، وأنّ نوحاً عرف بالطوفان عن طريق الوحي، وفي القصص التاريخية السومرية حدد نوح الوحي على أنه رؤى أو أحلام رآها نوح عليه السلام.

وفي القصة القرآنية تحديد مسألة مهمة ذكرت سابقاً وهي أنّ الطوفان حصل في منطقة فيها جبال: "قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ"، وهذا يطرح سؤالاً مهماً وهو: كيف أنّ الطوفان حصل في منطقة جنوب العراق كما هو مؤكد من خلال الذكر التاريخي لها عند السومريين والبابليين، ومنطقة جنوب العراق سهل رسوبي، فمن أين أتت الجبال لهذه المنطقة المنبسطة؟! إذن، لابد أن نبحث عن منطقة ملاصقة لوادي الرافدين أو في الحقيقة تمثل امتداده وفيها جبال والمكان الملائم الوحيد الذي يجمع كل الأوصاف هو الوادي الخصب الذي ذكرناه سابقاً قبل أن تغمره المياه ويصبح الخليج الحالي وهذه المنطقة يصح أن تعد جنوباً للعراق.

أيضاً: مسألة أخرى في القصة القرآنية وهي أنها تصف موج الفيضان بأنه كالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ"، وهذا الوصف لا يناسب فيضاناً يحدث بسبب الأمطار؛ لأنه في أي حال فيضان كهذا وفي منطقة سهل مفتوحة لن يحدث موجاً كالجبال. نعم، يناسب التصريح القرآني فيضاناً يحدث نتيجة ظاهرة تسونامي عظيمة أو انهيار سد طبيعي يفصل منخفضاً عن بحر فيه كميات مياه هائلة يمكن أن تملأ المنخفض بسرعة كبيرة مما يتسبب بإنشاء قفزة هيدروليكية كبيرة وبالتالي موج كالجبال، وهذا يناسب تماماً انهيار سد مضيق هرمز الحالي وامتلاء الوادي بالمياه ليتكوّن الخليج الحالي) انتهى^(١).

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٤٢٨ - ٤٢٩.

كون الطوفان حصل بسبب انهيار سد مضيق هرمز لا يمنع من أن يصاحب ذلك هطول كميات كبيرة من الأمطار في نفس الوقت؛ الأمر الذي أدى بالتأكيد إلى ارتفاع منسوب مياه الأنهار وبالنتيجة المساهمة بفيضان الوادي:

قال الإمام الصادق عليه السلام: (... ثم إنَّ الله تبارك وتعالى أرسل عليهم المطر فيفيض فيضاً وفاض الفرات فيضاً والعيون كلهن فيضاً فغرقهم الله عز ذكره وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة) (١).

٥- زمان الطوفان: أشار السيد أحمد الحسن إلى تاريخ حدوث الطوفان، يقول:

(بحسب التاريخ التوراتي لطوفان نوح فإنه حدث قبل الميلاد بأربعة آلاف عام تقريباً - وهذا يعتمد على بعض من تعرضوا لتفسير القرآن- وفي هذا الوقت كان الوادي الخصب ممثلاً بالمياه المالحة وقد تكون الخليج الحالي، وهذا يعني أنَّ مكان الطوفان هو بلاد ما بين النهرين، وبما أنَّ المنطقة منبسطة فكميات المياه التي يمكن أن تعمل طوفاناً بحجم طوفان نوح لا بد أن تأتي من خزان كبير للماء، ولهذا صوّرت التوراة على أنه طوفان شمل كل الكرة الأرضية وبارتفاع هائل وقد تبين أنَّ هذا الفرض المذكور في التوراة الحالية يتعارض مع الحقائق العلمية والتاريخية والجيولوجية.

يبقى الاحتمال الآخر وهو أنَّ نوحاً وقومه الذين يمكن أن نقول إنهم أسلاف السومريين أو السومريون الأوائل كانوا يعيشون في الوادي الخصب، وأنَّ الطوفان حصل في الوادي الخصب (الخليج الحالي) وإذا كان الأمر كذلك فما يحدد زمن الطوفان هو تاريخ امتلاء الوادي بالمياه وحصول قفزة هيدروليكية للمياه المالحة ربما اكتسحت مناطق شاسعة من جنوب العراق الحالي وامتلاء الوادي بالماء تماماً يقدر بين (١٥٠٠٠ - ٨٠٠٠) عاماً قبل الميلاد تقريباً.

فيكون ما حصل عبارة عن فيضان للوادي سببته كميات المياه الكبيرة التي وفرها ذوبان الجليد في نهاية العصر الجليدي والتي شكّلت عيون ماء تصب في البحار، ويضاف

لها عيون الماء التي كانت تصب في البحر والتي أدت إلى ارتفاع منسوب مياه البحر حتى انكسر السد الطبيعي ودخلت مياه البحر للوادي، ويمكن أن تكون قدرافقتها مياه أمطار وارتفاع منسوب مياه الأنهار التي كانت تدخل للوادي من الجهة الأخرى، وبهذا التقى الماء في الوادي وحصل الفيضان والقفزة الهيدروليكية للمياه حتى غطت مناطق من جنوب العراق ثم انحسرت المياه باتجاه الوادي أو - الخليج الحالي - مرة أخرى ورسست السفينة لتبدأ رحلة الإنسانية الأولى التي وصلتنا بصورة مسجلة ومكتوبة في جنوب العراق "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ" سورة القمر: ١١ - ١٢) انتهى^(١).

٥- مكان رسو السفينة: حدد السيد أحمد الحسن مكان الرسو في العراق أو "دلمون" بحسب النص السومري الذي ذكر أوصافاً تنطبق على العراق "عاصمة دول العدل على يد المهدي صلوات الله عليه".

يقول السيد أحمد الحسن: (مكان رسو سفينة نوح تحدده معرفتنا بأن نوحاً وقومه والأجيال التي أتت بعدهم قد سكنوا بعد الطوفان بلاد ما بين النهرين، وهذا أمر لا يمكن أن ينكره إلا مكابر فقصة الطوفان أصلها سومري أي أن ناقلها هم شعب ما بين النهرين على أنها إرث آبائهم وأسلافهم، فمحاولة نقل استقرار نوح وقومه بعد الطوفان إلى منطقة أخرى خارج وادي الرافدين أعتقد أنها محاولة بائسة تعترضها عقبات كثيرة لا يمكن تخطيها. ووصف دلمون السومري قد بينت أنه مطابق لوصف دولة المهدي التي ستقام في العراق ويكون العراق عاصمتها.

أما فرضية أن مكان رسو سفينة نوح في بعض جبال تركيا أو أرمينيا، فقد تبين أنه يتعارض مع ثوابت علمية كثيرة، ومصدر هذا الاعتقاد هو تفسير بعض اليهود للنص التوراتي الذي ذكر اسم جبال أرارات أو أرارات.

وقد عرفنا في مواضع أخرى أن النص التوراتي لقصة طوفان نوح كقضية أن الماء غطى كل جبال الأرض يتعارض مع الثوابت العلمية، ولهذا فلا يمكن تصور أن ترسو

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٤٠ - ٤٤١.

سفينة نوح على جبل ارتفاعه عدة كيلومترات عن مستوى سطح البحر ثم يكون الذي يدفعها لهذا الرسو هو فيضان مائي وارتفاع لمنسوب الماء، فقد بينا أن الأرض لا تتوفر على هذه الكميات الهائلة من الماء وحتى لو قيل إنه فيضان بسبب امتلاء البحر الأسود بالمياه - مع أنه فرض لا يصمد أمام النقد كما تبين - فلا يمكن أن تحدث قفزة هيدروليكية للمياه ارتفاعها عدة كيلومترات وتستمر في التحرك أفقياً بنفس هذا الارتفاع آلاف الكيلومترات حتى جبال ارارات المفترضة بين تركيا وأرمينيا، وفي الحقيقة هذه الفرضية أقرب للخيال ولا يمكن أن تحدث علمياً. إذن، لا يمكن أن يعتمد هذا التفسير للنص التوراتي رغم تعارضه مع العلم إضافة لمعارضته النص السومري في عدة مواضع.

أما اسم الجودي المذكور في القرآن فهو اسم لمكان استواء السفينة، ولا يوجد شيء حول هذا الاسم يرجح أنه مكان آخر غير العراق، ومن فرض من مفسري القرآن أنه أحد جبال تركيا فهو في الحقيقة تبع تفسير أخبار اليهود للنص التوراتي من دون أن يدرسه أو يتفحصه (انتهى^(١)).

طوفان نوح في روايات آل محمد (ع):

موضع نجارة السفينة وفوران التنور:

قال تعالى: "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * ... حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ" هود: ٣٨، ٤٠.

فوران التنور: علامة وآية إلهية يعرف بها نوح صلوات الله عليه بداية حدوث الطوفان. وبحسب ما انتهينا إليه، فإن نجارة نوح عليه السلام للسفينة كان في منطقة

حوض الخليج "الوادي الخصيب"، وفيها أيضاً فار التنور في بيته أو بيت بعض المؤمنين برسالته^(١).

لكن قد يظهر من بعض الروايات أنّ عملية نجر السفينة وفوران التنور كان في الكوفة^(٢).

١- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (جاءت امرأة نوح عليه السلام وهو يعمل السفينة فقالت له: إنّ التنور قد خرج منه ماء فقام إليه مسرعاً حتى جعل الطبق عليه وختمه بخاتمه فقام الماء فلما فرغ من السفينة جاء إلى الخاتم ففضه وكشف الطبق ففار الماء) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨١ - ٢٨٢.

٢- هذه بعض الروايات التي تفيد ذلك:

- (عن أبي رزين الأسدي، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن نوحاً صلى الله عليه لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه أن يفور التنور ففار فقالت امرأته: إن التنور قد فار فقام إليه فختمه فقام الماء وأدخل من أراد أن يدخل وأخرج من أراد أن يخرج، ثم جاء إلى خاتمه فتزعه، يقول الله عز وجل: "فتفتحن أبواب السماء بماء منهمر" وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر* وحملناه على ذات ألواح ودسر" قال: وكان نجرها في وسط مسجدكم، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٢.

- المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام: (قال: قلت: فأخبرني عن قول الله عز وجل: "حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور" فأين كان موضعه؟ وكيف كان؟ فقال: التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد، فقلت له: فإن ذلك موضع زاوية باب الفيل اليوم، ثم قلت له: وكان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم إن الله عز وجل أحب أن يري قوم نوح آية) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٧٩ - ٢٨١.

- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو في مسجد الكوفة فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فرد عليه فقال: جعلت فداك إني أردت المسجد الأقصى فأردت أن أسلم عليك وأودعك فقال له: فأني شئ أردت بذاك؟ فقال: الفضل جعلت فداك، قال: فبيع راحلتك وكل زادك وصل في هذا المسجد، فإن الصلاة المكتوبة فيه حجة مبرورة والناقلة فيه عمرة مبرورة والبركة منه على اثني عشر ميلاً، يمينه يمن ويساره مكر، وفي وسطه عين من دهن وعين من لبن وعين من ماء شراب للمؤمنين وعين من ماء طهر للمؤمنين، منه سارت سفينة نوح عليه السلام، وكان فيه تسرويعوث ويعوق صلى فيه سبعون نبياً وسبعون وصياً أنا أحدهم، وقال: بيده على صدره ما دعا فيه مكروب بمسألة في حاجة من الحوائج إلا أجابه الله وفرج عنه كربته) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٣ / ٢٥١.

- (عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: "مسجد كوفان، فيه فار التنور، ونجرت السفينة، وهو سرّة بابل، ومجمع الأنبياء عليهم السلام".

... وعن سلمان الفارسي، عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديث له في فضل مسجد الكوفة: "فيه نجر نوح عليه السلام سفينته، وفيه فار التنور، وبه كان بيت نوح عليه السلام ومسجده" مستدرک الوسائل، المبرز النوري: ٣ / ٤٠٢.

علماً، أنّ بعض المصادر السنية أشارت أو احتملت نفس المعنى ^(١).

من ثمّ: كيف يمكن لنا أن نفهم هذه الروايات؟

يقول السيد أحمد الحسن: (دعوة نوح عليه السلام كانت بالوادي "حوض الخليج"، ثم حدث الفيضان وجرف السفينة إلى أن وصلت إلى الجودي "النجف"، ثم انحسر الماء وبمرور الوقت بدأوا يتحدرون جنوباً مع عودة المياه وصلاح الأرض للزراعة والحياة وبالتالي فوجودهم في الكوفة بعد الطوفان أمر طبيعي.

لكن بالنسبة إلى نوح عليه السلام وغيره من المؤمنين، فحتى قبل الفيضان لما كانوا يعيشون بالوادي الخصيب كانوا يزورون مسجد الكوفة ويتعبدون فيه ورحلتهم إلى هذا المكان تشبه إلى حد كبير رحلتهم إلى الحج في زمانهم، فكانوا يقيمون في الكوفة ومسجدها فترة من الزمن، تماماً كما كان يفعل إدريس عليه السلام والرسل الأوائل عموماً، وأثناء إقامة نوح عليه السلام في مسجد الكوفة كان الله سبحانه وتعالى يوحى له، وفيه أوحى له بأمر الطوفان وفوران التنور وصنع السفينة ... إلخ، وبالتالي فالروايات التي تشير إلى بناء السفينة في المسجد أو إبحارها منه وما شابه يمكن فهمها بهذا المعنى، أي: أنّ بدء نجاتها وصناعتها - ولاحقاً إبحارها ومسراها - كان بوحى من الله لنوح عليه السلام، ولما كان وحي الله له حصل في مسجد الكوفة تكون الروايات ناظرة إلى هذه البداية التي كانت بالوحي وليست ناظرة إلى النجاة الفعلية والإبحار الفعلي الذي حصل في الوادي وليس الكوفة. نعم، الكوفة والنجف كانت هي المرسى الذي رست فيه السفينة وهو أمر أكدته الروايات.

- (عن عيسى بن عبد الله، قال: حدّثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي رضي الله عنه، قال: من مسجد الكوفة فار التنور، وكان بيت نوح عليه السلام ومسجده، ...) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: ٤ / ٢٢٠.

١- روى ابن عساكر بسنده إلى مجاهد أنه قال: (وكان التنور فيما بلغنا في زاوية من مسجد الكوفة) تاريخ مدينة دمشق: ٦٢ / ٢٥٠. وذكر ابن الأثير: (قال ابن عباس: كان ذلك تنوراً من أرض الهند وقال مجاهد والشعبي: كان التنور بأرض الكوفة وأخبرته زوجته بفوران الماء في التنور) الكامل في التاريخ: ١ / ٧٠.

إذن، كل الروايات تؤول بهذا المعنى، وإلا فالفيضان حدث بالوادي لكن قوة المياه جرفت السفينة ووصلت إلى النجف ثم بدأ الماء ينحسر باتجاه الوادي أو الخليج الحالي) انتهى^(١).

مرسى السفينة:

قال تعالى: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" هود: ٤٤ - ٤٩.

عرفنا فيما سبق أنّ النص السومري حدّد مرسى سفينة نوح عليه السلام بأرض دلمون = بلاد ما بين النهرين، وهو أمر أكدته روايات آل محمد صلوات الله عليهم التي حددت "الجودي" في العراق أيضاً:

• (عن علي بن الحكم رفعه إلى أبي بصير قال: دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام في السنة التي قبض فيها أبو عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك مالك ذبحت كبشاً ونحر فلان بدنة؟ فقال: يا أبا محمد إنّ نوحاً عليه السلام كان في السفينة وكان فيها ما شاء الله وكانت السفينة مأمورة فطافت بالبيت وهو طواف النساء وخلي سبيلها نوح عليه السلام، فأوحى الله عز وجل إلى الجبال أني وارض سفينة نوح عبدي على جبل منكن، فتطاولت وشمخت وتواضع الجودي وهو جبل عندكم فضربت السفينة

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

بجوؤها الجبل، قال: فقال نوح عليه السلام عند ذلك: يا ماري اتقن، وهو بالسريانية [يا] رب أصلح، قال: فظننت أن أبا الحسن عليه السلام عرض بنفسه (١).

"وهو جبل عندكم": أي في العراق؛ باعتبار أن أبا بصير من أهل الكوفة.

• المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام: (..... فقلت له: كم لبث نوح في السفينة حتى نضب الماء وخرجوا منها؟ فقال: لبثوا فيها سبعة أيام ولياليها وطافت بالبيت أسبوعاً ثم استوت على الجودي وهو فرات الكوفة) (٢).

ملاحظة: قوله عليه السلام عن مدة الطوفان والإبحار: "سبعة أيام ولياليها": هو نفس الفترة التي حددها النص السومري المتقدم: "وبعد أن استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليالٍ"، وليس "سنة" كما ذكر النص التوراتي المحرّف.

• (عن المفضل بن عمر الجعفي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إني اشتاق إلى الغري فقال: فما شوقك إليه؟ فقلت: له إني أحب أن أزور أمير المؤمنين عليه السلام فقال: هل تعرف فضل زيارته؟ فقلت: لا يا بن رسول الله إلا أن تعرفني ذلك قال: إذا زرت أمير المؤمنين عليه السلام فاعلم أنك زائر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت: إنَّ آدم عليه السلام هبط بسرانديب في مطلع الشمس وزعموا أنَّ عظامه في بيت الله الحرام فكيف صارت عظامه بالكوفة؟ فقال: إنَّ الله عز وجل أوحى إلى نوح عليه السلام وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً، فطاف بالبيت كما أوحى الله تعالى إليه، ثم نزل في الماء إلى ركبتيه فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم عليه السلام فحملة في جوف السفينة حتى طاف ما شاء الله أن يطوف، ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجد ففما قال الله تعالى للأرض: "ابلعي ماءك" فبلعت ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة، فأخذ نوح عليه السلام التابوت فدفنه في الغري، وهو قطعة من الجبل الذي كلّم الله عليه موسى تكليماً، وقدّس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً

١- الكافي، الكليني: ٢ / ١٢٤.

٢- الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨١.

صلى الله عليه وآله حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً، فوالله ما سكن فيه بعد أبويه الطيبين آدم ونوح أكرم من أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب فإنك زائر الآباء الأولين ومحمداً خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين، وإن زائرته تفتح له أبواب السماء عند دعوته فلا تكن عن الخير نَوَّاماً^(١).

يقول السيد أحمد الحسن: (مضمون الرواية يو افق ما ذكرناه في "وهم الإلحاد" من أن طوفان نوح حدث في منطقة الخليج، وطالما تسبب انهيار السد (سد مضيق هرمز) بحصول قفزة هيدروليكية باتجاه المناطق الأعلى منها، فمن المتوقع جداً أن تصل المياه إلى حدود الكوفة والنجف تقريباً، وهندسياً هذا هو المكان الفعلي لوصول المياه، وتاريخياً أيضاً أقصد تاريخ الأرض، فالعلماء الباحثين في الطبقات الأرضية وجدوا أن هذه المناطق – على الأقل مناطق البصرة والناصرية – أتمها كميات كبيرة من الطمي دفعة واحدة في فترة زمنية معينة، تماماً كما لو أنك تحمل كمية من المياه المحملة بالطين وتلقيها بمكان واحد حتى تتكدس وبمرور الوقت تنخفض وتشكل طبقة خاصة، فالمعروف أن المياه لا تحمل معها صخوراً أو حصى كبيرة وإنما تحمل معها نوع من التراب الذائب "طمي"، ومثل هذه الطبقة موجودة فعلاً بمناطق جنوب العراق، وكما قلت: علمياً، متوقع أن القفزة الهيدروليكية دفعت المياه المحملة بالطمي إلى أعلى مناطق جنوب العراق بحيث تركزت على حدود الناصرية والسماعة، وأما نفس المياه فأكد أنها تعدت إلى مسافة أبعد من ذلك بحدود ١٠٠ - ٢٠٠ كم أي وصلت إلى النجف كما أشارت الرواية، ثم عاد الماء منحسراً باتجاه الجنوب) انتهى^(٢).

وأيضاً: روي أن اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي هو الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وهو اليوم الذي نصب الله فيه علياً أمير المؤمنين وصياً للرسول محمد صلى الله عليه وآله^(٣).

١- تهذيب الأحكام، الطوسي: ٢٣/٦.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

٣- هذا تمام الحديث للفائدة: روى الشيخ الصدوق بسنده: (عن جيلة المكية، قالت: سمعت ميثماً التمار قدس الله روحه يقول: والله لتقتلن هذه الأمة ابن نبيها في المحرم لعشر مضين منه، وليتخذن أعداء الله ذلك اليوم يوم

المحمولون في السفينة:

من حملتهم السفينة، هم: إضافة إلى نوح صلوات الله عليه، من آمن به من أهل بيته وقومه، وكان عددهم قليلاً كما ذكر القرآن الكريم، قال تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ" هود: ٤٠.

بعض الروايات ذكرت أن عددهم ثمانون شخصاً، ولهذا لما رست السفينة ونزلوا على الأرض بنوا لهم بيوتاً وشكلوا قرية سميت "قرية الثمانين" (١).

بركة، وإن ذلك لكانن، قد سبق في علم الله تعالى ذكره، أعلم ذلك بعهد عهده إلي مولاي أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ولقد أخبرني أنه يبكي عليه كل شئ حتى الوحوش في الفلوات، والحيات في البحار، والطير في جو السماء، وتبكي عليه الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض، ومؤمنو الإنس والجن، وجميع ملائكة السماوات، ورضوان ومالك وحمة العرش، وتمطر السماء دماً ورماداً. ثم قال: وجبت لعنة الله على قتلة الحسين عليه السلام، كما وجبت على المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، وكما وجبت على اليهود والنصارى والمجوس.

قالت جبلة: فقلت له: يا ميثم، وكيف يتخذ الناس ذلك اليوم الذي يقتل فيه الحسين بن علي عليهما السلام يوم بركة! فبكي ميثم رضي الله عنه، ثم قال: سيزعمون بحديث يضعونه أنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم عليه السلام وإنما تاب الله على آدم عليه السلام في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي قبل الله فيه توبة داود عليه السلام وإنما قبل الله توبته في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس عليه السلام من بطن الحوت وإنما أخرجه الله تعالى من بطن الحوت في ذي القعدة، ويزعمون أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام على الجودي وإنما استوت على الجودي يوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي فلق الله فيه البحر لبي إسرائيل، وإنما كان ذلك في ربيع الأول.

ثم قال ميثم: يا جبلة، اعلمي أن الحسين بن علي عليهما السلام سيد الشهداء يوم القيامة، ولأصحابه على سائر الشهداء درجة. يا جبلة، إذا نظرت إلى الشمس حمراء كأنها دم عبيط، فاعلمي أن سيدك الحسين قد قتل. قالت جبلة: فخرجت ذات يوم، فرأيت الشمس على الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة، فصحت حينئذ وبكيت، وقلت: قد والله قتل سيدنا الحسين بن علي عليهما السلام (الأمال: ١٨٩ - ١٩٠).

١- (عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قال الرضا عليه السلام: لما هبط نوح عليه السلام إلى الأرض كان هو وولده ومن تبعه ثمانين نفساً فبنى حيث نزل قرية فسموها قرية الثمانين، لأنهم كانوا ثمانين) علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٣٠.

وروى الطبري بسنده: (عن ابن عباس قال: هبط نوح عليه السلام إلى قرية فبنى كل رجل منهم بيتاً فسميت سوق ثمانين فغرق بنو قبايل كلهم وما بين نوح إلى آدم من الأباء كانوا على الإسلام) تاريخ الطبري: ١ / ١٣٠.

وقد مرت بنا الروايات التي أوضحت مكان رسو السفينة وأنها الكوفة والنجف، وهذه رواية تفيد نفس المعنى: (وقال محمد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت الكوفة منزل نوح عليه السلام) ^(١).

الكوفة منزل نوح صلوات الله عليه؛ إما بلحاظ أنه أقام فيها بشكل دائم بعد الطوفان، أو بلحاظ أنه كان يأتها قبل الطوفان ويقيم فيها مؤقتاً وفترة من الزمن للتعبّد في مسجدها كما عرفناه في كلام السيد أحمد الحسن المتقدم.

وإضافة إلى البشر، أصدع نوح عليه السلام في السفينة بذور الزرع الذي يحتاجون إليه بعد وصولهم، والحيوانات الداجنة كما عرفنا ^(٢).

أما ورود: "الأرض تغرق، غرقت الأرض" في بعض النصوص كما لاحظنا، فليس المقصود به غرق كل الأرض كما توهم أتباع الأديان، وإنما المقصود أرض محددة وهي أرض البعثة التي كان يقطنها قوم نوح أي الوادي الخصيب كما توضح لنا.

ملاحظات:

الأولى: ممّن حملهم نوح عليه السلام معه في السفينة هو رفات نبي الله آدم عليه السلام، إذ تقدم في إحدى الروايات التي ذكرت وصية آدم عليه السلام لوصيه هبة الله أنه طلب منه أن يحفظ رفاته في تابوت ويستأمن عليه الأوصياء من بعده وهكذا وصولاً

١- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري: ٥٠١.

٢- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (صنعها في ثلاثين سنة، ثم أمر أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين الأزواج الثمانية التي خرج بها آدم عليه السلام من الجنة، ليكون معيشة لعقب نوح عليه السلام في الأرض، كما عاش عقب آدم عليه السلام، فإن الأرض تغرق بما فيها إلا ما كان معه في السفينة) قصص الأنبياء، الراوندي: ٨٥ - ٨٦. وعنه أيضاً: (حمل نوح عليه السلام في السفينة الأزواج الثمانية التي قال الله عز وجل: "ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين" فكان من الضأن اثنين زوج داجنة يربها الناس والزواج الآخر الضأن التي تكون في الجبال الوحشية أحل لهم صيدها، ومن المعز اثنين زوج داجنة يربها الناس والزواج الآخر الظبي التي تكون في المفاوز، ومن الإبل اثنين البخاتي والعرا، ومن البقر اثنين زوج داجنة للناس والزواج الآخر البقر الوحشية، وكل طير طيب وحشي [أ] وإنسي ثم غرقت الأرض) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٤.

إلى الزمن الذي يُبعث فيه نوح عليه السلام ليتمكن نوح من حمل التابوت معه في السفينة ونقله من الوادي الخصيب إلى الموضع الذي ترسو عليه (أي النجف).

وأيضاً: عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (... إذا زرت أمير المؤمنين عليه السلام فاعلم أنك زائر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت: إنَّ آدم عليه السلام هبط بسر انديب في مطلع الشمس وزعموا أنَّ عظامه في بيت الله الحرام فكيف صارت عظامه بالكوفة؟ فقال: إنَّ الله عز وجل أوحى إلى نوح عليه السلام وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً، فطاف بالبيت كما أوحى الله تعالى إليه، ثم نزل في الماء إلى ركبتيه فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم عليه السلام فحملة في جوف السفينة حتى طاف ما شاء الله أن يطوف، ثم ورد إلى باب الكوفة في وسط مسجدها ففيها قال الله تعالى للأرض: "ابلعي ماءك" فبلعت ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة، فأخذ نوح عليه السلام التابوت فدفعه في الغري، (...)^(١).

الثانية: كان نوح عليه السلام يذكر الله في السفينة ويهلله ويدعوه فنجاه الله من الغرق^(٢).

وروي عن الإمام الصادق صلوات الله عليه، أنه قال: (إنَّ نوحاً لما ركب السفينة وخاف الغرق قال: اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فأنجاه الله منه)^(٣).

١- تهذيب الأحكام، الطوسي: ٢٣/٦.

٢- عن الحسين بن خالد الصيرفي، عن الإمام الرضا صلوات الله عليه في حديث، قال: (إنَّ نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة أوحى الله عز وجل إليه: يا نوح، إن خفت الغرق فهلّلي ألفاً، ثم سلي النجاة أنجك من الغرق ومن آمن معك. قال: فلما استوى نوح عليه السلام ومن معه في السفينة ورفع القلس (حبل السفينة) عصفت الريح عليهم، فلم يأمن نوح الغرق، فأعجلته الريح فلم يدرك أن يهلّ ألف مرة، فقال بالسريانية: هلوليا ألفاً ألفاً يا ماريا اتقن. قال: فاستوى القلس واستمرت السفينة، فقال نوح عليه السلام: إن كلاً ما نجاني الله به من الغرق لحقيق أن لا يفارقني، قال: فنقش في خاتمه: لا إله إلا الله ألف مرة، يا رب أصلحي) الأمالي، الصدوق: ٤٥٢.

٣- وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٠٠/٧.

وعن الإمام الباقر عليه السلام، قال: (سمع نوح عليه السلام صوت السفينة على الجودي فخاف عليه، فأخرج رأسه من جانب السفينة، فرفع يده وأشار بأصبعه وهو يقول: رهمان أتقن، وتأويلهما: يا رب أحسن، وأنّ نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة ركبها في أول يوم من رجب، فأمر من معه من الجن والإنس أن يصوموا ذلك اليوم) ^(١).

الثالثة: مما حصل مع نوح عليه السلام وهو في السفينة أن أتاه إبليس لعنه الله لأمر يتوسط له فيه إلى الله سبحانه فطلب منه أن يذهب لقبر آدم ويسجد له فرفض ^(٢).

امرأة نوح وامرأة لوط:

هذا البحث ألحق بالطوفان؛ باعتبار أنّ امرأة نوح لم تكن مؤمنة بنوح عليه السلام ولم تتركب معه في السفينة وكانت من المغرقين، وذكرت معها زوجة لوط عليه السلام بحكم اقتران المرأتين في النص القرآني، قال تعالى: "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" التحريم: ١٠.

(عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: فما تقول في مناكحة الناس فإنني قد بلغت ما تراه وما تزوجت قط، فما تأمّرني أفعل ذلك بأمرك؟ فقال لي: قد كان رسول الله صلى الله عليه وآله تزوج وقد كان من أمر امرأة نوح وامرأة لوط ما قد كان، إنهما قد كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في ذلك بمنزلي إنما هي تحت يده وهي مقرّة بحكمه، مقرّة بدينه قال: فقال لي: ما ترى من الخيانة في قول الله عز وجل "فخانتاهما" ما يعني بذلك إلا الفاحشة) ^(٣).

١- إقبال الأعمال، ابن طاووس: ٣/ ١٩٢.

٢- (عن أنس قال: إنّ نوحاً لما ركب السفينة أتاه إبليس فقال له نوح: من أنت؟ قال: أنا إبليس، قال: فما جاء بك؟ قال: جئت تسأل لي ريك هل لي من توبة؟ فأوحى الله إليه: أن توبته أن يأتي قبر آدم فيسجد له، قال: أما أنا لم أسجد له حياً أسجد له ميتاً؟ قال: فاستكبر وكان من الكافرين) الدر المنثور، السيوطي: ١ / ٥١؛ بحار الأنوار، المجلسي: ٢٨١ / ٦٠.

٣- الكافي، الكليني: ٢ / ٤٠٢ - ٤٠٣.

ما يهمننا في الرواية هو الإشارة التي أشار فيها الإمام إلى خيانة زوجتي نبيين عظيمين هما نوح ولوط صلوات الله عليهما. ولا شك أن الكفر برسالة الرسل وإيذاءهم هو الفاحشة الأكبر، ولهذا شمل العذاب زوجة لوط، قال تعالى: "قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ" هود: ٨١. كما شمل زوجة نوح؛ إذ لم تركب معه في السفينة لأنها لم تكن من المؤمنين به من الأساس وكانت من المغرقين.

روي عن ابن عباس: (كانت امرأة نوح كافرة تقول للناس: إنه مجنون وإذا آمن بنوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ...) (١).

وعموماً، ما يهمننا الآن هو أن نعرف أن مسألة الارتباط بالرسول الإلهيين (أنبياء، رسل، أئمة) عن طريق العلاقات النسبية (القرابة الصلبية كالبنوة والأخوة ونحو ذلك) أو السببية (القرابة بالمصاهرة والزوجية) لا تكفي أي منهما للحكم بصلاح شخص ما وثبوت هدايته وحسن خاتمته، وإنما الأمر مرهون بإيمان وعمل وتقوى الشخص نفسه لا غير، وثابت بالقطع أن القانون الإلهي العام الساري على الجميع هو قوله تعالى:

- "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" الحجرات: ١٣.

- "الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" غافر: ١٧.

وأيضاً: بخصوص نوح صلوات الله عليه، فقد طلب من ابنه (بحسب الوصف القرآني) أن يركب معه في السفينة لكنه رفض وكان من المغرقين مع أمه:

يقول السيد أحمد الحسن عنه وعن الآيات التي ذكرته:

(هو لم يكن ابنه من صلبه بل ربيبه وهو ابن زوجته، ولم يكن يعيش مع نوح عليه السلام في بيته، ولم يكن مؤمناً بنوح عليه السلام وكذا هو حال أمه، ونوح عليه السلام لم

يسأل عن زوجته ولم يقل إنها من أهلي؛ لأنها كانت تجاهر نوحاً عليه السلام بالكفر بدعوته، أما ابنه أوريبييه (ابن زوجته) فكان يستحي من نوح عليه السلام ولم يكن يجاهر بالكفر بدعوة نوح عليه السلام، ولكن عندما جاء الفيضان وجاء موعد الافتراق اختار مرافقة أمه وأعرض عن نبي الله نوح عليه السلام فهلك، وسؤال نوح عليه السلام عنه لأنه كان يظهر التعاطف مع نوح عليه السلام فيبين الله لنوح أنه لم يكن مؤمناً صادقاً بل كان منافقاً يبطن الكفر بدعوة نوح عليه السلام وإن ما كان يمنعه من الجهر بكفره بنوح عليه السلام حياؤه من نوح عليه السلام؛ لأنه رباه.

فقوله تعالى عنه أنه كان في معزل أي في معزل عن دين نوح عليه السلام أي لم يكن على دين نوح عليه السلام، وأيضاً هو كان في معزل عن مكان نوح عليه السلام؛ لأنه لم يكن يسكن معه، وهو لم يكن من أهل نوح عليه السلام؛ لأن أهل نوح عليه السلام هم المؤمنون بدعوته.

قال تعالى: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (هود: ٤٢-٤٧) انتهى^(١).

ثم يجب معرفة أن الاعتقاد (أي عقيدة كانت) يجب أن يكون مبنياً على أدلة قطعية ومحكمة على مستوى الثبوت والدلالة، ولا يصح إطلاقاً اعتماده على الاستحسان والظن المرفوض على مستوى مسائل الفقه فضلاً عن مسائل الاعتقاد!

١- الجواب المنير عبر الأثير، أجوبة السيد أحمد الحسن: ٦ / جواب سؤال ٥٢٦.

القول بعصمة زوجات الرسل (أو عموم من يرتبط بهم نسباً أو سبباً) ليس جزءاً من منظومة الاعتقاد السني أو الشيعي، كما أنّ تخصيص ذنب معين بعينه بالنفي عن ساحة "زوجات الأنبياء" بحجة التنفير (بمعنى أنّ صدوره منهم يستلزم تنفير الناس عن رسالة الله ورسول الله) ^(١) مجرد استحسان لا دليل قطعي عليه!

فأولاً: التنفير في حد نفسه أمر متفاوت وعلى مستويات ودرجات مختلفة، فمثلاً: منظر معين ينفر أكثر من غيره أو رائحة معينة تنفر أكثر من غيرها وهكذا، وهذا يعني أنّ الأمور المنفّرة لا تؤدي إلى حصول التنفير بنفس الدرجة والشدة.

وثانياً: من يقول إنّ كل مستويات التنفير لا يصح حصولها في رسالات الرسل؟ فمثلاً: استعمال القوة من قبل بعض الرسل بأمر من الله في بعض الحالات والظروف ربما يؤدي إلى تنفير عدد كبير من الناس عن الرسالة وعن الرسول، فهل لأنه نفر هؤلاء يتم التنازل عن استعمالها مثلاً؟! بل باعتبار أنّ الدنيا دار امتحان وابتلاء فمن المتوقع جداً أن تحصل في دعوات الرسل بعض المنفّرات التي تسهم بتمييز معادن الناس وكشف حقائقهم.

وثالثاً: التنفير كما هو واضح مجرد أمر نسبي غير منضبط؛ إذ قد يكون شيء معين منفراً لشخص وغير منفّر لشخص آخر، وهذه حقيقة مشاهدة وحاصلة بكثرة، وبالتالي كيف يصلح أمر نسبي وغير منضبط لأن يكون مستنداً لعقيدة أو اتخاذ موقف عقائدي وديني معين؟!

١- قال السيد المرتضى: (...) ولأن الأنبياء عليهم السلام يجب أن ينزهوا عن هذه الحال لأنها تعبير وتشيين ونقص في القدر، وقد جنهم الله تعالى ما دون ذلك تعظيماً لهم وتقيراً ونفياً لكل ما ينفر عن القبول منهم) تنزيه الأنبياء: ٣٦. وقال الشيخ الطوسي: (قال ابن عباس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس انه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتهم لهما، وما زنت امرأة نبي قط، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به، ...) التبيان في تفسير القرآن: ١٠ / ٥٢.

وقال السيد الطباطبائي: (إن تسرب الفحشاء إلى أهل النبي ينفر القلوب عنه، فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا والفحشاء، وإلا لغت الدعوة، وثبتت بهذه الحجة العقلية عفتهم واقعاً لا ظاهراً فحسب ...) تفسير الميزان: ١٥ / ١٠٢.

ورابعاً: تخصيص ذنب معين (الفاحشة الأخلاقية) بالنفي يعني جعل زوجات الأنبياء معصومات عن ارتكابه، ولا شك أنّ العصمة سواء كانت عامة أو خاصة بأمر معين بحاجة إلى نص قطعي، ولا يصح منحها تبرعاً أو اعتماداً عن استحسانات وظنون!

وخامساً: ورد في بعض كلمات العلماء قولهم: "إنّ العقل يوجب أن يظهر الله ساحة زوجات الأنبياء من الفاحشة"، والسؤال: العقل يوجب على من؟ على الله! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وحقيقة أرى في مثل هذا الكلام جرأة، ومن يكون العقل ليوجب شيئاً على الله؟! وأيضاً: الإيجاب يعني أنّ نساء الأنبياء أصبحت لهن خصوصية تميزهن وتفضلهن على بقية النساء، وهو أمر يطعن بعدالة الله بالتأكيد؛ باعتبار أنّ الدنيا عالم امتحان والعدل يقتضي أن يدخل الجميع لقاعة الامتحان بنفس الإمكانيات والمؤهلات.

وأيضاً: الإيجاب يعني أنّ زوجات الأنبياء أصبحن مجبرات على عدم فعل الفاحشة ومعصومات عنها بعصمة جبرية! هذا، مع أنّ عصمة الأنبياء أنفسهم اختيارية وكانت بسبب سعيهم وصبرهم وإخلاصهم، وإلا لانتفى فضلهم من الأساس!!

يقول السيد أحمد الحسن في تقييم الاعتقاد بتزوية نساء الأنبياء عن الفاحشة بنحو الوجوب بحجة تنفير القلوب وما شابه:

(من يعتقد أو من يؤسس لعقيدة في دين الله يجب أن يقيم عليها دليلاً قطعياً ومحكماً.

وأيضاً: من يريد أن يصور النسب أو السبب عاصماً فليعلم مسبقاً أنه يطعن بعدالة الله؛ لأنه تفضيل بلا جهد واستحقاق، وبالنسبة لي أقول: إنّ الأنبياء والأوصياء لم يفضلهم الله ابتداءً على بقية الناس وإنما هم امتحنوا ونجحوا بعملهم وجهدهم وإخلاصهم ونتيجة لذلك تم اصطفاؤهم وبعثهم، فعصمتهم – والحال هذه – كانت نتيجة جهد وإخلاص، فكيف يمكن قبول عصمة نساءهم تجاه أمر معين (الفاحشة بحسب بحثنا)؟ وعلى أي أساس تم تفضيلهن على بقية النساء من هذه الجهة؟!)

أما التنزيه فلا إشكال فيه، أي لا إشكال أن يقوم أحد بتنزيه زوجة نبي من ذنب أو فاحشة على ضوء ما موجود عنده من أدلة وبراهين، لكن أن يقال: لأنها زوجة نبي فهي معصومة من الفاحشة أو لا يمكن وقوعها منها، فهذا كلام غير صحيح ولا دليل عليه.

أما الاحتجاج بالتنفير كما فعله البعض، فهو مجرد استحسان؛ إذ من قال إنه تنفير ومن يحدد أن هذا الأمر منفر أو غير منفر؟! ثم التنفير أمر متفاوت وله مستويات عديدة، وبالتالي إذا كان أمر ما منفر بدرجة معينة فمن قال إن هذا المستوى من التنفير يطعن بالرسالة الإلهية؟! لم لا يقال مثلاً: إن التنفير بحدود معينة له دخل بالابتلاء والامتحان الذي يخضع له الإنسان في هذا العالم؟!

أيضاً: وهو الأهم في المسألة: من يقرأ القرآن الكريم يجد قوله تعالى:

- "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" النور: ٤.
- "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ" النور: ١١ - ١٣.

الآيات واضحة تذكر حكم النساء المحصنات "المتزوجات" بشكل عام بما فيهن نساء النبي، ولا تذكر شيئاً اسمه عصمة زوجات الأنبياء من الفاحشة، وبغض النظر عن من تكون زوجة الرسول المقصودة بالآية (وهل هي عائشة أو مارية القبطية كما هو الخلاف السني الشيعي المعروف) لكن المهم بالنسبة لنا الآن هو أن الله سبحانه لم يقل الأمر ممتنع عنها لأنه يطعن برسالة رسولي وينفر الناس عنه وينتفي الغرض من بعثه ... إلخ مما افترضه البعض، وإنما أقصى ما في الآية أنها نزهت زوجة الرسول عن الفاحشة التي رميت بها واعتبرت الناقل لها كاذباً ولا بد من معاقبته؛ لأنه لم يأت بأربعة شهداء: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"، أي أن الآية ساوت بين نساء النبي وبين بقية النساء من هذه

الجهة، باعتبار أن حكم كل من يرمي امرأة محصنة (أي امرأة متزوجة كانت) بالفاحشة هو الإتيان بأربعة شهداء على قوله وإلا فهو كاذب ويعاقب!

وهذا يعني أن الأمر ممكن في حد نفسه، لكن لا بد من المجيء بأربعة شهداء عليه، وما لم يحصل ذلك فالناقل له يعاقب، وهو نفسه حكم سائر النساء: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ..." أي الحكم واحد في الجميع بدون وجود أي عصمة خاصة لنساء الأنبياء تجاه الفعل أو إيجاب عقلي يمنع صدوره منهن كما توهم البعض!

والنتيجة: لا دليل على الاعتقاد بعصمة نساء الأنبياء عن فعل الفاحشة، بل الدليل قائم على الإمكان كما لاحظناه في الآيات من سورة النور. نعم، بالإمكان تنزيه زوجة نبي (أيّاً كانت) عن الفاحشة تماماً كما برأ القرآن ساحة المرأة المقصودة في الآية ١١ من سورة النور وشهد بأن ما نسب لها مجرد إفك وكذب، لكن القرآن في نفس الوقت لم يقل: إنها مبرأة ولا يصدر منها، وإنما قال: إنها بريئة!

مع الانتباه إلى أننا لا نريد أن نتهم أحداً بفعل الفاحشة، وإنما مشكلتنا مع من يؤسس عقائد خاصة وينسبها لدين الله مع أنها لا أصل لها ولا دليل عليها سوى استحسانات وأوهام لا أقل ولا أكثر انتبى^(١).

إذا عرفنا هذا، لنأتي الآن ونقيّم حال زوجة لوط مثلاً على ضوء المصير والخاتمة السيئة التي حكاها القرآن الكريم:

الفاحشة المنتشرة في وقت لوط عليه السلام هي المثلية، اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وحال قومه حيال هذه الفاحشة منقسم على ثلاث فئات: الأولى: موقف لوط والمؤمنين به وهو الرفض، والثانية: موقف الفاعلين للفاحشة (رجالاً ونساء)، والثالثة: موقف الساكتين والراضين بالفعل دون أن يمارسوه.

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

واضح أنَّ من ارتضاهم الله هم الفئة الأولى (موقف لوط والمؤمنين به) فقط، وأما الفئتان الأخريان فشُملت بالعذاب؛ لأن الكل عند الله يعد من أهل الفاحشة، باعتبار أنَّ الراضين بالفعل مشاركون فيه ومصير الفئتين واحد دون أدنى شك.

نوح وقومه بعد الطوفان حتى الوفاة:

الإقامة في الكوفة بجنب الفرات:

(عن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس فلما انتهينا إلى الكناسة قال: ههنا صلب عمي زيد رحمه الله ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين وهو آخر السراجين فنزل وقال: أنزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي خطه آدم عليه السلام وأنا أكره أن أدخله راكباً قال: قلت: فمن غيَّره عن خطته؟ قال: أما أول ذلك الطوفان في زمن نوح عليه السلام ثم غيَّره أصحاب كسرى ونعمان ثم غيَّره بعد زياد بن أبي سفيان، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح عليه السلام فقال لي: نعم يا مفضل وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات مما يلي غربي الكوفة قال: وكان نوح عليه السلام رجلاً نجاراً فجعله الله عزوجل نبياً وانتجبه ونوح عليه السلام أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء، قال: ولبت نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزوجل فيمزؤون به ويسخرون منه، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً" فأوحى الله عزوجل إلى نوح أن اصنع سفينة وأوسعها وعجل عملها فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها.

قال المفضل: ثم انقطع حديث أبي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس، فقام أبو عبد الله عليه السلام فصلى الظهر والعصر، ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره وأشار بيده إلى موضع دار الدارين وهو موضع دار ابن حكيم وذاك فرات اليوم، فقال لي: يا مفضل [و] ههنا نصبت أصنام قوم نوح عليه السلام "يغوٲ ويغوٲ ونسرا" ثم مضى حتى ركب دابته.

فقلت له: كم لبث نوح في السفينة حتى نضب الماء وخرجوا منها؟ فقال: لبثوا فيها سبعة أيام ولياليها وطافت بالبيت أسبوعاً ثم استوت على الجودي وهو فرات الكوفة.

فقلت له: إنَّ مسجد الكوفة قديم؟ فقال: نعم وهو مصلى الأنبياء عليهم السلام ولقد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله حين أسري به إلى السماء فقال له جبرئيل عليه السلام: يا محمد هذا مسجد أبيك آدم عليه السلام ومصلى الأنبياء عليهم السلام فأنزل فصل فيه، فنزل فصلى فيه، ثم إنَّ جبرئيل عليه السلام عرج به إلى السماء^(١).

- قوله: "وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات": إما باعتبار أنه كان يقيم بالوادي الخصيب الذي كان يصب فيه الفرات، قال السيد أحمد الحسن: (أما مسألة أنَّ نوحاً عليه السلام كان يعيش قبل الطوفان على شاطئ الفرات أوقرية من قرى الفرات لا يتعارض مع كون تلك القرية كانت في الوادي الخصيب أو الخليج الحالي حيث كان الفرات يمتد ليصب في بحيرات الوادي قبل الطوفان) انتهى^(٢).

أو باعتبار أنَّ نوحاً والمؤمنين عاشوا بجانب الفرات بعد نزولهم من السفينة في النجف والكوفة التي تقع على نهر الفرات كما هو معلوم.

- قوله: "ولبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً": سيتضح لاحقاً مسألة طول أرقام السنين التي ذكرت هنا وفي نصوص كثيرة غيرها.

- قوله: "فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة": تقدم أنَّ المقصود هو أنَّ الله أوحى لنوح بعمل السفينة وهو في مسجد الكوفة لما زاره للتعبد فيه، أما نفس عمل السفينة ونجاتها بشكل فعلي فكان في الوادي الخصيب. وأيضاً: منه أبحرت ثم استقرت ورسى في الكوفة كما أكدّه قول الإمام في نفس الرواية: "ثم استوت على الجودي وهو فرات

١- الكافي، الكليني: ٨ / ٢٧٩ - ٢٨١.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٤٣٧.

الكوفة"؛ إذ من غير المنطقي أن يكون إبحار السفينة ورسوها في نفس المكان في ظل طوفان عظيم وأمواج تسير كالجبال "تسونامي" وتجرف كل ما تصادفه!

ومسألة كون مسجد الكوفة قديم وموجود في زمن نوح عليه السلام أشارت له روايات عديدة^(١).

وأيضاً: إقامة نوح عليه السلام ومن معه في بلاد ما بين النهرين بعد الطوفان أمرورد ذكره في نصوص بعض المؤرخين أيضاً^(٢).

أبناء نوح:

عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (عاش نوح عليه السلام ألفي سنة وثلاثمائة سنة منها ثمانمائة وخمسين سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه

١- منها: (عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عرج بي إلى السماء، وإني هبطت إلى الأرض فأهبطت إلى مسجد أبي نوح عليه السلام وأبي إبراهيم وهو مسجد الكوفة، فصليت فيه ركعتين، قال: ثم قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الصلاة المفروضة فيه تعدل حجة مبرورة، والنافلة تعدل عمرة مبرورة) كامل الزيارات، ابن قولويه: ٧٩.

ومنها: (عن أبي شعيب الخراساني قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أيما أفضل زيارة قبر أمير المؤمنين عليه السلام أو زيارة الحسين عليه السلام؟ قال: إن الحسين قتل مكروباً فحقيق على الله عز وجل ألا يأتيه مكروب إلا فرج الله كربته، وفضل زيارة قبر أمير المؤمنين عليه السلام على زيارة الحسين كفضل أمير المؤمنين على الحسين عليهما السلام، ثم قال لي: أين تسكن؟ قلت: الكوفة، فقال: ان مسجد الكوفة بيت نوح لو دخله رجل مائة مرة لكتب الله له مائة مغفرة أما إن فيه دعوة نوح عليه السلام حيث قال: رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً، قلت: من عني بوالدي؟ قال: آدم وحواء) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٤ / ٣٨١.

٢- (قال أبو معشر: الكلدانيون هم الذين كانوا يتزلون بابل في الزمن الأول، ويقال: إن أول من سكنها نوح عليه السلام، وهو أول من عمرها، وكان قد نزلها بعقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدفاء، فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا من بعد نوح، وملكوها عليهم ملوكاً، وابتنوا بها المدائن، واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات، إلى أن بلغوا من دجلة إلى أسفل كسكر، ومن الفرات إلى ما وراء الكوفة، وموضعهم هو الذي يقال له السواد، وكانت ملوكهم تنزل بابل، وكان الكلدانيون جنودهم، فلم تنزل مملكتهم قائمة إلى أن قتل دارا آخر ملوكهم، ثم قتل منهم خلق كثير فذلوا وانقطع ملكهم) معجم البلدان، الحموي: ١ / ٣٠٩؛ البلدان، أحمد بن محمد الهمداني: ٣٧٧.

يدعوهم وخمسائة عام بعد ما نزل من السفينة ونضب الماء فمصرّ الأمصار وأسكن ولده البلدان،^(١).

تنبيه: مسألة طول السنين سيأتي في خاتمة رسالة نوح عليه السلام بيان المعنى الصحيح لها.

وعموماً، النصوص الدينية والتاريخية أكدت وجود ثلاثة أبناء لنوح كانوا قد ركبوا السفينة وانتقلوا مع أبيهم إلى الكوفة وبلاد ما بين النهرين، هم: سام، وحام، ويافت. وكما تدخل إبليس لعنه الله لزرع العداوة بين أبناء آدم عليه السلام، فوسوس لقابيل ودفعه لقتل هابيل ثم إيذاء أخيه الأخرهبة الله، بسبب خبثه وحسده لأخوته الذين أخلصوا لله فاخترهم واصطفاهم لرسالته بعد أبيهم آدم، فكذلك كان الحال بالنسبة إلى أبناء نوح عليه السلام؛ إذ اختار الله ساماً من بينهم ليكون وصياً ووارثاً لعلم أبيه نوح، ولم يكن لحام ويافت علم ينتفعان به فقاموا بإيذاء أخيه الوصي وذريته الصالحين وورثوا هذا الظلم والعداوة والانحراف لأبنائهم أيضاً كما ورث قابيل مثل ذلك لأبنائه^(٢).

وبالنسبة إلى سام، فهو أكبر ولد نوح عليه السلام ووصيه ومن ذريته جاء الأنبياء، وسيأتي عند بيان وصية نوح عند وفاته أنه أوصى إلى "سام"^(٣).

وأما حام، فهو الذي وقف موقفاً سلبياً من أخيه "سام" تماماً كما فعل قابيل مع أخوته الأوصياء، وعلى نهجه سارت ذريته^(٤).

١- الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٤.

٢- (ولما كثروا ولد نوح عليه السلام قسم الأرض بينهم، فدبَّ إبليس ليرمي بينهم العداوة والبغضاء فقال لبني حام ويافت إنَّ أباكم أعطى وولده خير الأرض ومنعكم منها وأعلامهم عليكم، ولم يزل بذلك فهم حتى قتل بعضهم بعضاً) أخبار الزمان، المسعودي: ٨٦.

٣- (ذكر سام بن نوح: وأما سام بن نوح عليه السلام فإنَّ الله تعالى جعل له الرئاسة والكتب المنزلة والأنبياء، ووصية نوح في ولده سام خاصة دون أخوته، فولد سام أرفخشذ) أخبار الزمان، المسعودي: ١٠٢.

٤- (ذكر كنعان بن حام: هو أكبر ولد حام وهو أول من غيّر دين نوح عليه السلام، وألقى العداوة بينه وبين بني جده من الجبابرة والكنعانيين الذين كانوا بالشام، ويقال فراعنة مصر منهم، وجالوت منهم الذي قتله داود عليه السلام

ثم إنَّ من يطالع النصوص التاريخية يجد فيها الكثير من الغث، منها: أنَّ البشر انقرضوا بعد طوفان نوح، وبقي نوح وولده فقط، ثم إنَّ لون البشرة السوداء أو السمراء كان من نصيب ولد "حام" بسبب دعوة أبيه نوح عليه، وكأنَّ اللون الأسود أو الأسمر لعنة ومقت يصيب صاحبه!

واضح أنَّ هذا الكلام غير دقيق ولا صحيح، فلا البشر انقرضوا في وقت حصول الطوفان؛ باعتبار أنه لم يعم كل الأرض كما عرفنا، ولا أنَّ دعوة نوح صلوات الله عليه على الضالين من ولده لها علاقة باللون، ولا شك أنَّ دين الله الحق ورسالة رسله بعيدة كل البعد عن مثل هذا الفكر العنصري المقيت.

وصية نوح (ع):

عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام: (قال: ثم إنَّ نوحاً عليه السلام لما انقضت نبوته واستكملت أيامه أوحى الله عز وجل إليه أن يا نوح قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في العقب من ذريتك، فإني لن أقطعهما كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء عليهم السلام التي بينك وبين آدم عليه السلام ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني وتعرف به طاعتي ويكون نجاة لمن يولد فيما بين قبض النبي إلى خروج النبي الآخر وبشر نوح ساماً يهود عليه السلام وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء عليهم السلام.

وقال نوح: إنَّ الله باعث نبياً يقال له هود وإنه يدعوقومه إلى الله عز وجل فيكذبونه والله عز وجل مهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإنَّ الله عز وجل ينجيهِ من عذاب الريح، وأمر نوح عليه السلام ابنه ساماً أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يومئذ عيداً لهم، فيتعاهدون فيه ما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر

فهؤلاء العمالقة، لأنَّ العمالقة هم من ولد حام، ومن هؤلاء: الكنعانيون الذين قاتلهم موسى عليه السلام ويوشع بن النون من بعده) أخبار الزمان، المسعودي: ٨٧.

وموارث العلم وآثار النبوة فوجدوا هوداً نبياً عليه السلام وقد بشر به أبوهم نوح عليه السلام^(١).

وعن عبد الحميد بن أبي الديلم عن الإمام الصادق عليه السلام: (قال: عاش نوح عليه السلام بعد الطوفان خمسمائة سنة، ثم أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: يا نوح إنه قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك فانظر إلى الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة التي معك فادفعها إلى ابنك سام فإني لا أترك الأرض إلا وفيها عالم تعرف به طاعتي ويعرف به هداي ويكون نجاة فيما بين مقبض النبي ومبعث النبي الآخر ولم أكن أترك الناس بغير حجة لي وداع إلي وهاد إلى سبيلي وعارف بأمرى، فإني قد قضيت أن أجعل لكل قوم هادياً أهدي به السعداء ويكون حجة لي على الأشقياء. قال: فدفع نوح عليه السلام الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى سام وأما حام ويافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به، قال: وبشّرهم نوح عليه السلام بهود عليه السلام وأمرهم باتباعه وأمرهم أن يفتحوا الوصية في كل عام وينظروا فيها ويكون عيداً لهم)^(٢).

ونفس الرواية نقلها الشيخ الصدوق مع إضافة بعد قوله: "فيكون عيداً لهم":

(قال: فظهرت الجبرية في ولد حام ويافث فاستخفى ولد سام بما عندهم من العلم، وجرت على سام بعد نوح الدولة لحام ويافث وهو قول الله عز وجل: "وتركنا عليه في الآخرين" يقول: تركت على نوح دولة الجبارين ويعزالله محمداً صلى الله عليه وآله بذلك، قال: وولد لحام السند والهند والحبش، وولد لسام العرب والعجم، وجرت عليهم الدولة وكانوا يتوارثون الوصية عالم بعد عالم حتى بعث الله عز وجل هوداً عليه السلام)^(٣).

ومسألة وصية نوح لولده سام وردت في مصادر سنّية أيضاً^(٤).

١- الكافي، الكليني، ٨ / ١١٣ - ١٢٠.

٢- الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٥.

٣- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ص ١٣٤-١٣٥.

٤- (قال الإمام أحمد: ... عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ثم قال: "إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إني قاص عليك الوصية أمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين أمرك بلا

وفاة نوح (ع) وموضع قبره:

عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (عاش نوح عليه السلام ألفي سنة وثلاثمائة سنة منها ثمانمائة وخمسين سنة قبل أن يبعث وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم وخمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة ونضب الماء فمصرّ الأمصار وأسكن ولده البلدان، ثم إنّ ملك الموت جاءه وهو في الشمس فقال: السلام عليك فرد عليه نوح عليه السلام قال: ما جاء بك يا ملك الموت؟ قال: جئتك لأقبض روحك، قال: دعني أدخل من الشمس إلى الظل فقال له: نعم، فتحول ثم قال: يا ملك الموت كل ما مربى من الدنيا مثل تحويلي من الشمس إلى الظل فامض لما أمرت به فقبض روحه عليه السلام) (١).

(وروي في سياق قصة نوح ما لفظه: فقبض روحه، وتولى سام ابنه غسله ودفنه والصلاة عليه، وقبره في ظاهر الكوفة بالغري مع آدم عليهما السلام) (٢).

وأما موضع قبر نوح عليه السلام: فالصحيح أنه إلى جنب أبيه آدم عليه السلام، كما دلّت على ذلك النصوص الواردة عن آل محمد الأوصياء (٣).

إله إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله. ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مهمة فضمتين لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر "..... وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه) البداية والنهاية، ابن كثير: ١ / ١٣٦؛ قصص الأنبياء، ابن كثير: ١ / ١١٧ - ١١٨.

١- الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٤.

٢- مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ١٠ / ٢١٩.

٣- هذا مثال لها:

- (عن المفضل بن عمر الجعفي قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إني اشتاق إلى الغري فقال: فما شوقك إليه؟ فقلت: له إني أحب أن أزور أمير المؤمنين عليه السلام فقال: هل تعرف فضل زيارته؟ فقلت: لا يا بن رسول الله إلا أن تعرفني ذلك قال: إذا زرت أمير المؤمنين عليه السلام فاعلم أنك زائر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقلت: إن آدم عليه السلام هبط بسرانديب في مطلع الشمس وزعموا أنّ عظامه في بيت الله الحرام فكيف صارت عظامه بالكوفة؟ فقال: إنّ الله عز وجل أوحى إلى نوح عليه السلام وهو في السفينة أن يطوف بالبيت أسبوعاً، فطاف بالبيت كما أوحى الله تعالى إليه، ثم نزل في الماء إلى ركبتيه فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم عليه السلام فحملة في جوف السفينة حتى طاف ما شاء الله أن يطوف، ثم ورد إلى باب الكوفة

وأيضاً: ورد أنّ قبر إبراهيم عليه السلام في الكوفة كجده نوح عليه السلام:

(عن أبي أسامة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: الكوفة روضة من رياض الجنة فيها قبر نوح وإبراهيم، وقبور ثلاثمائة نبي وسبعين نبياً وستمائة وصي وقبر سيد الأوصياء أمير المؤمنين عليه السلام)^(١).

أقول: بخصوص الرواية الأخيرة لا إشكال فيها من جهة أنّ موضع دفن إبراهيم عليه السلام في الكوفة، لأن غير أتباع آل محمد صلوات الله عليهم ليس عندهم شيء قطعي في

في وسط مسجدنا فقها قال الله تعالى للأرض: "ابلعي ماءك" فبلعت ماءها من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه، وتفرق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة، فأخذ نوح عليه السلام التابوت فدفنه في الغري، وهو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً صلى الله عليه وآله حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً، فوالله ما سكن فيه بعد أبويه الطيبين آدم ونوح أكرم من أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإذا زرت جانب النجف فزر عظام آدم وبدن نوح وجسم علي بن أبي طالب فإنك زائر الأباء الأولين ومحمداً خاتم النبيين وعلياً سيد الوصيين، وإن زائرته تفتح له أبواب السماء عند دعوته فلا تكن عن الخير نَوَّاماً تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦ / ٢٣.

- (عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أين دفن أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: دفن في قبر أبيه نوح، قلت: وأين قبر نوح؟ الناس يقولون: إنه في المسجد قال: لا، ذلك في ظهر الكوفة) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦ / ٣٤.

- (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قبر علي هو في الغري ما بين صدر نوح ومفرق رأسه مما يلي القبلة) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٤ / ٣٨٨.

- (عن عبد الرحيم القصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قبر أمير المؤمنين عليه السلام فإن الناس قد اختلفوا فيه، فقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام دفن مع أبيه نوح عليه السلام) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ١٤ / ٣٨٧.

- (محمد بن إدريس يرفعه إلى أبي بصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قبر أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنه دفن مع أبيه نوح عليه السلام في قبره. قلت: جعلت فداك من تولى دفنه؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله مع الكرام الكاتبين.

- عن عبد الرحيم القصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قبر أمير المؤمنين عليه السلام فقال: مدفون في قبر نوح. قلت: ومن نوح؟ قال: نوح النبي. قلت: وكيف صار هكذا؟ فقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام صديق هيا الله له مضجعه في مضجع صديق، يا عبد الرحيم إنّ النبي صلى الله عليه وآله أخبرنا بموته وبموضع قبره (الغارات، إبراهيم الثقفي: ٢ / ٨٤٩).

تحديد قبره وموضع دفنه، وما ذكر من أنّه مدفون في "الخليل / فلسطين" مجرد احتمال لا أكثر. وصحيح أنه لم يثبت في الروايات أنّ إبراهيم عليه السلام عاد إلى العراق في حياته لكن يمكن أن تكون عودته من خلال نقل رفاتة كما حصل مع آدم ويوسف عليهما السلام، فقد ثبت أنّ نوحاً عليه السلام نقل معه رفات آدم ودفنه في النجف كما عرفنا، وأنّ موسى عليه السلام نقل رفات يوسف ودفنه في بيت المقدس، ويمكن أن يكون حال قبر إبراهيم كذلك أيضاً، وسيأتي مزيد من الإيضاح بهذا الخصوص عند بحث رسالة إبراهيم صلوات الله عليه.

ملاحظة: بالنسبة للمسلمين السنة، لم يتعين قبر نوح عليه السلام عندهم على وجه الدقة، وبعضهم احتمل أن يكون قبره في المسجد الحرام بمكة (١).

معنى رفع جسد المعصوم إلى السماء:

يعتقد البعض أنّ جسد المعصوم (نبي، رسول، إمام) لا يبقى في قبره وإنما يرتفع ويعرج به إلى السماء، أما المدة التي يحصل بعدها الرفع والعروج فمرددة بين أن تكون أربعين يوماً، أو ثلاثة أيام، أو أقل من ذلك أي أن الرفع يكون بعد الدفن مباشرة.

ومستند القائلين بهذه العقيدة هو ظاهر بعض الروايات التي حددت الفترة:

- أربعون يوماً (٢).

- ثلاثة أيام (٣).

١- قال ابن كثير: (وأما قبره عليه السلام: فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلًا، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام) قصص الأنبياء: ١ / ١١٩.

٢- (عن عطية الأبراري قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تمكث جنة نبي ولا وصي نبي في الأرض أكثر من أربعين يوماً) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦ / ١٠٦.

٣- (عن زياد بن أبي الحلال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتى ترفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء وإنما تؤتى مواضع آثارهم ويبلغونهم من بعيد السلام ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب) الكافي، الكليني: ٤ / ٥٦٧؛ من لا يحضره الفقيه، الصدوق: ٢ / ٥٧٧.

- أقل من ثلاثة أيام^(١).

وعموماً، لأجل هذا المعتقد شكك البعض في مسألة نقل رفات آدم عليه السلام إلى النجف أو نقل رفات يوسف عليه السلام إلى بيت المقدس، بحجة أنّ قبريهما لا توجد فيهما أجساد أصلاً بعد مرور سنين طويلة تفصل نوح عن آدم أو تفصل موسى عن يوسف صلوات الله عليهم، وقد عرفنا أنّ أقصى فترة يبقى فيها جسد المعصوم في القبر هي أربعين يوماً بحسب هذا الاعتقاد؟!

من جانب آخر: توجد لدينا روايات تثبت العكس، أي تثبت أنّ جسد المعصوم موجود في قبره ولم يرفع أو يعرج به إلى السماء^(٢).

١- (عن سعد الإسكاف، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لما أصيب أمير المؤمنين عليه السلام قال للحسين والحسين صلى الله عليهما: غسلاني وكفنتاني وحنطاني واحملاني على سريري واحملا مؤخره تكفيا مقدمه، فإنكما تنتهيان إلى قبر محفور ولحد ملحود ولبن موضوع فألحداني وأشرجا اللبن علي، وارفعوا لبنة مما يلي رأسي فانظرا ما تسمعان؟ فأخذوا اللبنة من عند الرأس بعد ما أشرجا عليه اللبن، فإذا ليس في القبر شيء وإذا هاتف يهتف: أمير المؤمنين كان عبداً صالحاً فألحقه الله بنبيه وكذلك يفعل بالأوصياء بعد الأنبياء حتى لو أن نبياً مات في المشرق ومات وصيه في المغرب لألحق الله الوصي بالنبي) تهذيب الأحكام، الطوسي: ١٠٦ / ٦ - ١٠٧.

٢- من قبيل:

- (عبد الرحمن بن كثير، قال، قال أبو عبد الله عليه السلام يوماً لأصحابه: لعن الله المغيرة ابن سعيد، ولعن يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعوذة والمخاريق. إن المغيرة كذب على أبي عليه السلام، فسلبه الله الإيمان، وأنّ قوماً كذبوا عليّ، ما لهم أذاقهم الله حر الحديد، ... ويلهم ما لهم لعنهم الله فلقد آذوا الله وآذوا رسوله صلى الله عليه وآله في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي صلوات الله عليهم) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، الطوسي: ٤٩١ / ٢.

- (عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً لا يصلي على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها، قال: فقلت: وبعد الموت؟ فقال: إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء، فني الله حي يرزق) بحار الأنوار، المجلسي: ٨٦ / ٢٦٤.

- (عن أوس بن أبي أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على فقالوا: يا رسول الله كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرميت؟ يعني وقد بليت، قال: إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم) مسند أحمد: ٨ / ٤.

و أيضاً: الروايات التي ذكرت بقاء الإمام الحسين صلوات الله عليه ثلاثة أيام طريحاً على رمضاء كربلاء إلى أن جاءه ولده الإمام زين العابدين عليه السلام في اليوم الثالث عشر من محرم الحرام فدفننه حيث قبره الشريف الآن، وواضح أن جسد الإمام الطاهر لم يرفع مباشرة ولا بعد مضي ثلاثة أيام من شهادته!

و أيضاً: روايات نقل النبي نوح رفات جده آدم عليه السلام^(١)، وكذا نقل النبي موسى رفات يوسف عليه السلام^(٢).

١- تقدمت الرواية عن الإمام الصادق صلوات الله عليه في خاتمة بحث "المحمولون في السفينة"، فراجع، انظر: تهذيب الأحكام، الطوسي: ٢٣/٦.

٢- وهي عدة روايات، ساكتفي بذكر مثالين منها: **الأول:** (عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا سئل شيئاً فإذا أراد أن يفعله قال: نعم. وإذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان لا يقول لشيء لا، فأتاه أعرابي فسأله فسكت ثم سأله فسكت، ثم سأله فسكت. فقال صلى الله عليه وآله كهيئة المسترسل ما شئت يا أعرابي فغبطناه وقلنا: الآن يسأل الجنة. فقال الأعرابي: أسألك راحلة ورحلها وزاد؟ قال عليه السلام لك ذلك. ثم قال عليه السلام: كم بين مسألة الأعرابي وعجوز بني إسرائيل. ثم قال: إن موسى عليه السلام لما أمر أن يقطع البحر فانتهى إليه وضربت وجوه الدواب فرجعت، فقال موسى: يا رب ما لي؟ قال: يا موسى إنك عند قبر يوسف فاحمل عظامه، وقد استوى القبر بالأرض. فسأل موسى قومه: هل يدري أحد منكم أين هو؟ قالوا: عجوز بني إسرائيل لعلها تعلم. فقال لها: هل تعلمين؟ قالت: نعم، قال: فدلينا عليه، قالت: لا والله حتى تعطيني ما أسألك. قال: ذلك لك، قالت: فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون في الجنة، قال: سلي الجنة قالت: لا والله إلا أن أكون معك، فجعل موسى يرادها فأوحى الله إليه أن أعطاها ذلك، فإنه لا ينقصك فأعطاها، ودلته على القبر فأخرج العظام وجاوز البحر) الدعوات، الراوندي: ٤٠.

الثاني: روى الحاكم النيسابوري بسنده عن: (يونس بن أبي إسحاق أنه تلا قول الله عز وجل وأوحينا إلى موسى أن أسرعبادي انكم متبعون الآيات فقال أبو بردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال نزل رسول الله صلى الله عليه وآله بأعرابي فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله تعهدنا اثنتا فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله ما حاجتك فقال ناقة برجلها وبحرلبها أهلي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله عجز هذا أن يكون كعجوز بني إسرائيل فقال له أصحابه ما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله فقال إن موسى حين أراد أن يسير ببني إسرائيل ضل عنه الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا قال فقال له علماء بني إسرائيل ان يوسف عليه السلام حين حضره الموت اخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى تنقل عظامه معنا فقال موسى أيكم يدري أين قبر يوسف فقال علماء بني إسرائيل ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبني إسرائيل فأرسل إليها موسى فقال دلينا على قبر يوسف قالت لا والله حتى تعطيني حكمي فقال لها ما حكمك قالت حكمي ان أكون معك في الجنة فكانه كره ذلك قال فقيل له أعطاها حكمها فأعطاها حكمها فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما انضبوا قالت لهم احفروا فحفروا فاستخرجوا عظام يوسف فلما ان اقلوه من الأرض إذا

والنتيجة: بمقتضى وجود طائفتين من الروايات؛ طائفة يظهر منها رفع جسد المعصوم وطائفة تصرح ببقاء جسده في قبره، إذن: من غير الصحيح ترجيح الطائفة الأولى على الثانية بدون وجه يوجب الترجيح، وبالنسبة لمن لا يتمكن من الجمع بينهما كان الأولى به التوقف وعدم تأسيس عقيدة صرّحت روايات عديدة بخلافها؟!

وأيضاً: تقدم في بحث "خلق آدم والنفس الإنسانية" بيان معنى الرفع، وذكرنا هناك أنّ قوانين العوالم العلوية كعالم الأنفس "السماء الأولى" تختلف عن قوانين العالم الجسماني الذي نحن فيه الآن، فعالمنا مؤلف من المادة والطاقة والتكثف فيه بمستوى متوسط يسمح لأن يكون عالماً مثالياً للامتحان والتوجه نحو اتجاهين متعاكسين تماماً؛ إما نحو الرقي والتحرر أكثر أو نحو التسافل والتكثف أكثر، فالمستوى الذي نحن فيه الآن يقع بين المستوى الأقل للتكثف أي الطاقة فما فوق والمستوى الأعلى للتكثف أي الثقب الأسود فما دون، ومع أنّ الطاقة هي أقل درجة تكثف ممكنة في عالمنا لكنها أيضاً تبقى من مختصات هذا العالم ولا يسمح لها بالنفاذ إلى عالم السماء الأولى، فهي تحتاج إلى ترقٍ أكبر بحيث تصل إلى مستوى أسميناه "ما فوق الطاقة"؛ وإذا كان الحال كذلك فكيف يمكن لجسم مادي من أن يُرفع ويعرج به (كما هو) إلى السماء!!؟

من جهته، ناقش السيد أحمد الحسن عقيدة رفع جسد المعصوم والعروج به للسماء بعد دفنه مباشرة أو بعد مضي ثلاثة أيام أو أربعين يوماً، حيث سألته عن معنى قول الإمام الصادق في الرواية المتقدمة: "ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتى ترفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء"، فقال:

(الجسد المادي من الأرض ولها يعود، قال تعالى: "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى" طه: ٥٥. فالآية واضحة وصريحة وعامة لم تستثنِ أحداً، "منها خلقناكم": أي من الأرض، "وفيها نعيدكم": أي بعد الموت يرجع الإنسان للتراب، "ومننا نخرجكم تارة أخرى": في البعث، فمبدأ البعث يكون من هذه الأرض وهذه الحياة ثم من كتب الله لهم (باستحقاقهم) أن يكون لهم وجود في السماء الثانية فما فوق إلى عليين

يذهبون لمنازلهم في السماوات العلا؛ كلٌّ بحسب مقامه، ومن كتب لهم (باستحقاقهم) أن يكونوا في جهنم وما دون إلى سجين يذهبون لها، وهذه الدنيا بداية جهنم، وهذه الثقوب السوداء تعطينا فكرة عن حال جهنم! وقد تكلمت عن الحياة الجسمانية كثيراً سابقاً.

أما رواية: "ترفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء"، فليس من الصحيح فهمها بالطريقة التي فهمت بها، وإلا فمثلاً: مسألة "ترفع روحه"، يمكن أن نتساءل: بعد الموت، هل تحتاج الروح إلى رفع؟ الروح هي من عالم آخر ولها ارتباط بالجسد لكن ارتباطها بالجسد لا يعني أنها موجودة في هذا العالم الجسماني ومن يتصور ذلك فهو واهم، الروح تتواصل مع الجسد وهي في عالمها؛ باعتبار أن هذا العالم مادي ولا شيء فيه غير المادة والطاقة، فالإنس مادة محض والجن طاقة محض، أما الروح فلا هي مادة ولا هي طاقة وإنما هي من عالم آخر. نعم، وكما قلت: هي لما تتصل بالجسد في عالمه الجسماني تتصل به وهي في عالمها، وبالموت ينقطع ذلك الاتصال، وبالتالي: لِمَ تحتاج الروح إلى رفع إذا كانت هي من عالم آخر وفي عالمها من الأساس؟!

إذن، لا يمكن فهم الرواية بحسب ظاهرها وبالطريقة التي فهمها القائلون برفع أجساد الأنبياء والأوصياء إلى السماء بعد ثلاثة أيام أو أربعين يوماً من دفنهم!

والأمر الآخر: كما توجد روايات الرفع بعد الثلاثة أيام أو الأربعين يوماً، يوجد في الطرف الآخر روايات أكدت بقاء جسد المعصوم في قبره، مثل الروايات التي ذكرت عظام آدم وعظام يوسف عليهما السلام، وأيضاً: الروايات التي ذكرت تأخر دفن جسد المعصوم كالإمام الحسين صلوات الله عليه ... إلخ، وبالتالي لا يصح تقديم طرف على آخر بدون سبب مقبول!

والحقيقة، إن فهم روايات رفع جسد المعصوم متوقف على أمرين ذكرتهما سابقاً في كتاب "المتشابهات":

الأول: ما ذكرته في جواب سؤال ٦٣ المتعلق بقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" الأعراف: ١٧٢، و خلاصته ^(١): لدينا نفس ولدينا نطفة نفسية، أما النفس فهي مرتبة دنيا من مراتب الروح، وأما النطفة النفسية فهي التي تنزل من عالم الأنفس "عالم الذر، السماء الأولى" إلى هذا العالم الجسماني وتكون النفس تابعة لها، فهذه النطفة لا هي من عالم الأنفس ولا هي من عالم الأجسام وإنما هي حلقة الربط بين العالمين (النفس والجسم)، وهذا يعني أَنَّ الروح أو النفس لا ترتبط بالجسد مباشرة وإنما ترتبط بالنطفة النفسية التي ترتبط بالجسد، وهذه النطفة هي التي تخرج من الإنسان بالموت عن طريق أنفه أو فمه متبعة النفس أو الروح بعد انفصالها عن الجسد، وتوجد روايات في ذلك ^(٢).

وأيضاً: هذه النطفة النفسية مرتبطة بالنطفة الجسمانية ومرافقة لها، وهي الأساس الذي تتكوّن على ضوئه النطفة الجسمانية ومن ثمّ خريطة الإنسان الجينية ومن ثمّ عظامه ولحمه ... إلخ، أما ولوج الروح أو النفس الذي يكون في بداية الشهر الرابع من عمر الجنين فهو عبارة عن اتصال النفس بالنطفة النفسية التي في الجسم. ولما يموت الإنسان تخرج النطفة النفسية منه متبعة خروج وانفصال نفسه أو روحه عن جسده، وبالتالي فإنّ خروج نطفته النفسية يعني خروج روحه وعظامه ولحمه؛ باعتبار أنّ النطفة النفسية - كما قلت - هي الأصل الذي استندت إليه نطفته الجسمانية وخريطته

١- هذا نص كلام السيد أحمد الحسن في "المتشابهات": (وحقيقة عالم الذر: أنه عالم الأنفس وهو في هذه السماء الدنيا، وتنزل منه إلى الأرض نطف بني آدم، فإذا نمت النطفة بعد أن أخذت طريقها إلى وعائها وتهيأت الصورة الجسمانية لولوج النفس إليها، ولجت النفس في تلك الصورة الجسمانية وتعلقت بالنطفة التي نزلت منها، فإذا مات الإنسان خرجت منه تلك النطفة مرة أخرى من فمه أو من أي مكان آخر مع خروج نفسه من جسمه، وبقيت هذه النطفة متعلقة بالنفس الإنسانية، فالنفس متعلقة بالنطفة والنطفة متعلقة بالنفس وهما من عالم واحد وهو عالم الذر أو عالم الأنفس، فإذا نزلت النطفة إلى الأرض تبعثها النفس، وإذا فارقت النفس الجسم تبعثها النطفة) انتهى.

٢- منها: ما رواه الصدوق: (سئل الصادق عليه السلام: لأي علة يغسل الميت؟ قال: تخرج منه النطفة التي خلق منها تخرج من عينيه أو من فيه) من لا يحضره الفقيه: ١ / ١٣٨.

وروى الكليني: (عن علي بن الحسين عليه السلام قال: إن المخلوق لا يموت حتى تخرج منه النطفة التي خلق منها من فيه أو من عينه) الكافي: ٣ / ١٦٣.

الجينية التي شكّلت عظامه ولحمه، ولهذا يكون ارتفاعها وخروجها من الإنسان يعني خروج وارتفاع روحه وعظمه ولحمه.

الأمر الثاني: ما ذكرته في جواب سؤال ٩٣ المتعلق ببيان سرّ الأربعين: "فللميت أربعين، وللمولود أربعين، وللإخلاص أربعين"، وخلاصته ^(١): إنّ الإنسان العادي يحتاج عادة إلى أربعين يوماً حتى تتعود وتتأقلم روحه أو نفسه عند اتصالها بالجسد في هذا العالم، ويحتاج أيضاً إلى أربعين يوماً حتى تتأقلم روحه ونفسه إن هي خرجت من هذا العالم بعد الموت (انفصالها عن الجسد)، فالموت لا يعني نزع الروح وانتهى الأمر ولهذا أكدت تعاليم الدين على فترة الأربعين يوماً، فيقوم أهل الميت بزيارته واهداء بعض الأمور له ... إلخ.

طبعاً، الميت إذا كان إنساناً عادياً فهو بحاجة إلى فترة الأربعين يوماً، وقد يكون بحاجة إلى مرور ثلاثة أيام فقط إذا كان مقامه عالياً، وقد لا يكون محتاجاً لفترة أصلاً إذا كان مقامه عالياً جداً، ولهذا وردت روايات بعضها لم يحدد فترة وبعضها حددها بثلاثة

١- هذا نص كلام السيد أحمد الحسن في "المتشابهات": (أسماءه سبحانه وتعالى أربعة، ثلاثة ظاهرة وواحد غائب، أما الظاهرة فهي: الله الرحمن، الرحيم. وأما الغائب فهو الكنه والحقيقة، ويرمز له بـ "هو"، أو الاسم الأعظم الأعظم الأعظم. ويتجلى هذه الأسماء في جميع العوالم تتجلى الموجودات وتظهر بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، والعوالم عشرة، وهي: السماوات السبع، والكرسي، والعرش الأعظم، وسرادق العرش الأعظم. وهي ثلاثة في الحج، وسبعة إذا رجعتم:

"وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا زُرُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" البقرة: ١٩٦. والثلاثة في الحج - أي في بيت الله - هي: الكرسي، والعرش الأعظم، وسرادق العرش الأعظم. أما السبعة إذا رجعتم، فهي: السماوات السبع. ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام: أي لمن ليس من آل محمد عليهم السلام.

والصيام هنا عن (الأنا) في (عشرة مقامات): ثلاثة في الحج: الكرسي والعرش وسرادق العرش، وسبعة إذا رجعتم: السماوات السبع، وفي كل مقام أربع حالات هي تجليات وظهور الأسماء الأربعة، فيصبح الصيام عن الأنا في أربعين حالة: "من أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه".

والنفس تحتاج هذه الحالات الأربعين لتنتقل من عالم إلى آخر انتقالاً كلياً، فلا تستقر نفس المولود إلا بعد الأربعين، ولا تستقر نفس الميت إلا بعد الأربعين. والكلام في الأربعين يطول ولكن فيما تقدم كفاية) انتهى.

أيام وبعضها بأربعين يوماً، وبالنتيجة سبب التردد يعود إلى مقام الإنسان عند الله وما يريد الله سبحانه.

إذا عرفنا هذين الأمرين، نعرف معنى كلام الإمام الصادق صلوات الله عليه في الرواية التي ذكر فيها ارتفاع الروح والعظام واللحم، فالمقصود كما ذكرت هو ارتفاع نطفته النفسية وارتفاع نفسه وروحه أو انفصالها عن الجسد وهذا العالم الجسماني، ولا يعني ارتفاع الجسد المادي الذي يوضع في القبر، وأما تردد الفترة بين الثلاثة والأربعين فسببه حاجة النفس أو الروح للتأقلم مع العالم الجديد، وطول الفترة (٤٠ يوماً) أو قصرها (٣ أيام) يعود إلى مقام الإنسان وقربه من الله سبحانه.

والآن، إذا كان الميت معصوماً (نبي، وصي) فهل يحتاج إلى هذه الفترة؟ الجواب: بحسب مقامه، فقد لا يحتاجها أصلاً إذا كان مقامه عالياً، وقد يحتاج مرور ثلاثة أيام إذا كان مقامه أقل من الأول، وقد يحتاج إلى فترة أكثر من ذلك إذا كان أقل من الثاني، وبالنتيجة الفترة المتعارفة هي بين ٣ - ٤٠ يوماً كما حددتها الروايات) انتهى^(١).

طول العمر والأرقام في النصوص الدينية:

من قرأ البحوث التي تقدمت في رسالة نوح صلوات الله عليه يجد أن النصوص الدينية منحت لنوح عليه السلام وغيره من رسل الله (سواء من سبقوه أو تأخروا عنه) أرقاماً كبيرة، وواضح أنها أرقام لا تناسب طبيعة حياة الإنسان والعمر المفترض لخلاياه، وهذه مسائل معروفة ومشخصة بدقة، فالعلم كما يحدد عمر خلايا الإنسان اليوم يمكنه أن يشخص عمرها في العصور السابقة الموعلة في القدم من خلال فحص المتحجرات والهيكل التي يعثرون عليها.

علماً، أن النصوص لا تقتصر على الروايات وإنما تشمل القرآن أيضاً، إذ يقول في إحدى آياته: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" العنكبوت: ١٤، ومن ثمَّ أسرع الملحدون للإشكال على القرآن والدين الإلهي عموماً.

السيد أحمد الحسن طرح إشكال الملحدين هذا وأجاب عليه، فقال:

(.....) لكن مسألة عمر نوح أو غيرها من المسائل التي تخالف الواقع العلمي لا تصلح للإشكال على ما أثبتناه وهو وجود إله؛ لأننا نستطيع أن نقول باختصار شديد: لا إشكال أن يجري الله المعجزات وإن كان بعضها يخالف الواقع العلمي، لأنها حالات فردية هدفها وضع الإنسانية الأدمية في بدايتها على طريق الإيمان بإله خالق للكون، هذا طبعاً مع أن بعضها ليست معجزات وإنما قضايا صعبة الفهم على من لا يعرف لغة المتكلم بها، فلغة القرآن لا يفهمها من لا يعرف العوالم العلوية التي نزل منها القرآن.

ولتوضيح المسألة علمياً أقول باختصار: إنَّ ما يراه المراقب الخارجي للمنظومة الفيزيائية يختلف عما يراه المراقب الداخلي. وبالتالي عند حصول تمدد أو تقلص مثلاً في المنظومة الفيزيائية ستكون قياسات المراقب الموجود داخل المنظومة مختلفة تماماً عن قياسات المراقب الخارجي، والسبب أن المراقب الداخلي هو جزء من المنظومة، وبالتالي فهو مشمول بتمدد وتقلص المنظومة، وكذا معدات قياسه مشمولة بتمدد وتقلص المنظومة. وهذا يجعله عاجزاً عن معرفة أو قياس أي تغيير شامل لكل المنظومة.

وهذا لا يمنع - إن كان لديه حياة نفسية كما هو حالنا - أن يحس إحساساً نفسياً أن هناك تغييراً في المنظومة، أو هناك تسارع أو تباطؤ، كإحساس كثير من الناس اليوم بتسارع الزمن مع أنهم عندما يقيسونه لا يجدونه قد تغير شيئاً.

وكمثال لتوضيح هذا الكلام؛ لنفترض أن إنساناً يعيش في غرفة ولديه أداة قياس طول (مسطرة مثلاً)، وطلبنا منه قياس طول طاولة في الغرفة، ومقارنة طوله مع طول وارتفاع الطاولة. ثم بعد ذلك لو فرضنا أن الغرفة وما فيها حصل لها تمدد منتظم شمل الجميع بنفس النسبة. فالآن لو طلبنا منه قياس طول الطاولة فسيجد أن الطول لم يتغير. وإذا طلبنا منه أن يقارن طوله مع طول وارتفاع الطاولة فلن يلحظ أي تغيير، والسبب أنه تمدد وكذا مسطرة القياس بنفس نسبة تمدد الطاولة.

إذا توضّح هذا؛ فيمكن فهم أن أي مراقب يمكنه القيام بالمراقبة من خارج المنظومة الكونية التي نعيش فيها ستكون قياساته مختلفة عن قياساتنا نحن الذين نعيش داخل المنظومة. فلو أن سلوك الكون المادي ككل تغير بصورة ما بحيث إن الزمن كبعد كوني رابع تمدد أو تقلص - أو بلغة بسيطة تباطأ أو تعجل - في المنظومة ككل، فلن نستطيع نحن قياسه ولا معرفة هذا التغير، لكن مراقباً يمكنه أن يراقب من خارج المنظومة الكونية التي نعيش فيها سيمكنه قياس هذا التغير، وعندما يتكلم سيعطينا أرقاماً تختلف عما قسناه نحن. وهذا باختصار يفسر لنا أن مراقباً من خارج المنظومة (الله سبحانه وتعالى أو الملائكة مثلاً) عندما تسأله أو يتكلم عن عمر نوح وقومه فسيعطيك رقماً يختلف عما تقيسه أنت الذي تعيش في داخل المنظومة، وعندما تطلب منه مقارنة عمر الإنسان اليوم وعمره قبل خمسة عشر ألف عام فسيعطيك أرقاماً مختلفة، مع أنك لا تجد أي اختلاف ملموس يمكن قياسه في الحدود المادية التي تعيش فيها) انتهى^(١).

ونحن يمكننا أن نعمم فكرة الجواب على ما ورد في النصوص الدينية كلها سواء كانت قرآناً أو سنة (روايات). وبالمناسبة سيتضح أنّ "ثبت الملوك" السومري هو الآخر يعطي أرقاماً كبيرة جداً كمدد وفترات للملوك الذي حكموا قبل الطوفان؛ وأيضاً: يمكننا أن نفهم أنّ السبب يعود إلى أنّ الأرقام مستقاة من نصوص دينية بثها أنبياء سومر بين أقوامهم كما سيتضح، وبالتالي فالحل في الجميع واحد وهو ما أوضحه السيد أحمد الحسن من أنّ الأرقام إنما كانت بحسب قياسات المراقب الخارجي (الملا الأعلى مثلاً) وليست أرقاماً بحسب عالمنا الجسماني الذي نعيش فيه، وهذا يعني أنّ عمر نوح وكذا غيره من الرسل بحسب عالمنا الجسماني هو نفسه الأعمار المتعارفة عندنا دون أي فرق.

أما ما هي الحكمة التي دعت الأئمة صلوات الله عليهم أن ينطقوا في نصوصهم بالطريقة التي نطقوا بها (أعني ذكر أرقام كبيرة)؟

لعل وجه الحكمة هو أنّ الأئمة اقتدوا بالقرآن ونطقوا بطريقة توافقه وتجاريه؛ لئلا يكونوا (وحاشاهم) سبباً في الإشكال عليه فيما لو كان كلامهم بطريقة تناسب عالمنا الجسماني، وإلا ماذا بوسع الناس (وهي في ذلك العصر الذي لم تتكشف فيه كثير من

١- عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن: ٣١ - ٣٢.

الحقائق التي تكشف اليوم) أن يقولوا لو سمعوا الصادق عليه السلام مثلاً يقول: "إن نوحاً عاش ستين أو سبعين عاماً" أو سمعوه يقول: "إنّ دعوته استمرت عشرين أو ثلاثين عاماً" ونحو ذلك؟ ماذا سيخطر ببالهم غير اتهام الصادق بمخالفة القرآن، وحاشاه؟!

الحقيقة، إنّ كثيراً من العلوم والمعارف والحقائق التي بثها وطرحها السيد أحمد الحسن في أيامنا هي أمور صعبة يتعسر فهمها بالنسبة لأهل العصر والزمن الذي عاش فيه الأئمة صلوات الله عليهم، وبخصوص طول عمر نوح وما يتعلق برسالته عموماً يمكننا القول: إنّ الأئمة كانوا مضطرين على مجازاة النص القرآني للسبب الذي بيّنت.

أما لماذا نطق القرآن بهذه الطريقة؟ فجوابه: أنه كتاب سماوي بالأصل وله لغته الخاصة به، اللغة التي يعرفها أهل القرآن الحقيقيون ومن خوطبوا به بالأساس وهم محمد وآل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم، وأما سائر الناس فهم مكلفون بالرجوع إليهم وأخذ تفسير القرآن وعلومه ومعرفة حقائقه – بل أخذ عموم الدين من الألف إلى الياء – منهم، لا أن يفسر كل منهم كتاب الله كما يفهمه هو وكما يحلوه؟!

أنبياء بعد نوح (ع):

هود (ع):

قال تعالى: "وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَخْرَجْتُ إِلَىٰ آلِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مَن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ

وَاتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ جِبَارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ" هود: ٥٠ - ٦٠.

- "قال يا قوم اعبدوا الله..." : دعاهم هود إلى حاكمية الله.
- "فقد أبلغتكم ما أرسلت به..." : بث هود في قومه رسالة الله والعلم الذي أرسل به إليهم.

وأما النص على نبوته، فقد تقدم أنّ نوحاً عليه السلام نص عليه في وصيته وبشّر بقدومه وأوصى ذريته (من يدركه منهم) بالإيمان به ^(١).

وباجتماع النص والعلم والدعوة إلى حاكمية الله يكون قانون معرفة الرسل قد انطبق بفقراته الثلاث على نبي الله هود عليه السلام وثبت صدق نبوته.

هود؛ قائم آل نوح:

و أيضاً: ورد في توصيف نوح عليه السلام لولده هود عليه السلام أنه القائم من ولده وأنه سيأتي بعد غيبة أو زمن فترة يستتر فيه قادة الخط الرسالي الإلهي (رسل الله) أو تضعف حركتهم (قياساً بحركة وقوة الرسالة في زمن نوح)؛ بسبب شدة ظهور الباطل وقوة

١- عن أبي حمزة عن الإمام الباقر عليه السلام: (قال: وبشر نوح ساماً يهود عليه السلام وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء عليهم السلام. وقال نوح: إنّ الله باعث نبياً يقال له هود وإنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه والله عز وجل مهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإنّ الله عز وجل ينجي من عذاب الريح، وأمر نوح عليه السلام ابنه ساماً أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يومئذ عيداً لهم، فيتعاهدون فيه ما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وموارث العلم وأثار النبوة فوجدوا هوداً نبياً عليه السلام وقد بشر به أبوه نوح عليه السلام). الكافي، الكليني، ٨ / ١١٣ - ١٢٠.

وعن عبد الحميد بن أبي الديلم عن الإمام الصادق عليه السلام: (..... قال: فدفع نوح عليه السلام الاسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة إلى سام وأما حام ويافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به، قال: وبشّرهم نوح عليه السلام يهود عليه السلام وأمرهم باتباعه وأمرهم أن يفتحوا الوصية في كل عام وينظروا فيها ويكون عيداً لهم) الكافي، الكليني: ٨ / ٢٨٥.

تسلط الطواغيت، لذلك ستترقب عيون المؤمنين بخط الرسل وتهفو قلوبهم ظهورني الله القائم من ولد نوح أعني هوداً عليه السلام^(١).

وذكر الشيخ الصدوق: (معنى هود: أنه هدي إلى ما ضل عنه قومه، وبعث لمهديهم من ضلالتهم)^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (لما بعث الله تعالى هوداً أسلم له العقب من ولد سام، وأما الآخرون فقالوا: من أشد منا قوة فأهلكوا بالريح العقيم، وأوصاهم هود وبشرهم بصالح عليه السلام)^(٣).

أذى قومه له:

روي أنه: (لما تم لهود عليه السلام أربعون سنة أوحى الله تعالى إليه: أن ائت قومك فادعهم إلى عبادتي وتوحيدي فإن أجابوك زدتهم قوة وأموالاً، فبينما هم مجتمعون إذ أتاهم هود فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فقالوا: يا هود لقد كنت عندنا ثقة أميناً، قال: إني رسول الله إليكم دعوا عبادة الأصنام، فلما سمعوا ذلك منه بطشوا به وخنقوه وتركوه كالميت: فبقي يومه وليلته مغشياً عليه، فلما أفاق قال: يا رب إني قد عملت وقد ترى ما فعل بي قومي، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال: يا هود إن الله تعالى يأمرك أن لا تفتري عن دعائهم وقد وعدك أن يلقي في قلوبهم الرعب فلا يقدر أن يضربك بعدها، فأتاهم هود فقال لهم: قد تجبرتم في الأرض وأكثرتم الفساد، فقالوا: يا هود اترك

١- عن الإمام الصادق صلوات الله عليه: (لما حضرت نوحاً عليه السلام الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلموا أنه ستكون من بعدي غيبة تظهر فيها الطواغيت، وأن الله عز وجل يفرج عنكم بالقائم من ولدي، اسمه هود، له سمت وسكنة ووفاة، يشبهني في خلقي وخلق، وسهلك الله أعداءكم عند ظهوره بالريح، فلم يزالوا يترقبون هوداً عليه السلام وينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد وقست قلوب أكثرهم، فأظهر الله تعالى ذكره نبيه هوداً عليه السلام عند اليأس منهم وتناهي البلاء بهم وأهلك الأعداء بالريح العقيم التي وصفها الله تعالى ذكره، فقال: "ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم" ثم وقعت الغيبة (به) بعد ذلك إلى أن ظهر صالح عليه السلام) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ١٣٥ - ١٣٦.

٢- معاني الأخبار، الصدوق: ٤٨.

٣- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ١٣٦.

هذا القول فإننا إن بطشنا بك الثانية نسيت الأولى فقال: دعوا هذا وارجعوا إلى الله وتوبوا إليه، فلما رأى القوم ما لبسهم من الرعب علموا انهم لا يقدرّون على ضربه الثانية، فاجتمعوا بقوتهم، فصاح بهم هود عليه السلام صيحة فسقطوا لوجوههم، ثم قال هود: يا قوم قد تماديتم في الكفر كما تمادى قوم نوح، وخليق أن أدعو عليكم كما دعا نوح على قومه، فقالوا: يا هود إن آلهة قوم نوح كانوا ضعفاء وإن آلهتنا أقوياء، ... فلما أراد الله تعالى إهلاكهم حقف الأحقاف حتى صارت أعظم من الجبال، فقال لهم هود: يا قوم ألا ترون هذه الرمال كيف تحققت؟ إني أخاف أن يكون مأمورة، فاغتم هود عليه السلام لما رأى من تكذيبهم (...)^(١).

الأحقاف: أي التلال أو الكثبان الرملية.

وفعلأ، شاء الله أن يهلكهم بالريح كما أخبر نوح عليه السلام^(٢).

مكان بعثه:

نقل البعض قولاً يفيد بأنّ هوداً عليه السلام يرجع إلى "عاد" التي يعود نسبها إلى سام بن نوح وأنه بعث في أرض اليمن (حضر موت تحديداً)^(٣)، وبعض آخر روى عن وهب بن منبه ما يفيد ذلك أيضاً حتى إنه سئل عن هود: "أكان أبا اليمن الذي ولد لهم؟ فقال: لا، ولكنه أخو اليمن ... فلما كانت العصبية بين العرب وفخرت مضر بأبيها إسماعيل ادعت

١- بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٣٦١ - ٣٦٢.

٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: (إذا هاجت الرياح فجاءت بالسافي الأبيض والأسود والأصفر، فإنه رميم قوم عاد) قصص الأنبياء، الراوندي: ٩٥ - ٩٦.

(عن عمرو بن ميمون قال: كان هود عليه السلام جلدأ في قومه وأنه كان قاعداً في قومه فجاء سحاب مكفهر فقالوا: "هذا عارض ممطرنا" فقال هود عليه السلام: "بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم" فجعلت تلقى الفسطاط وتجي بالرجل الغائب) المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ٤٦٣ / ٧.

٣- انظر: البداية والنهاية، ابن كثير: ١ / ١٣٧، نقلاً عن ابن جرير الطبري.

اليمن هوداً أباً ليكون لهم أباً ووالداً من الأنبياء، وليس بأبيهم ولكنه أخوهم" أي: صاحبهم الذي بعث فيهم^(١).

أقول: كون هود من ذرية سام بن نوح أمر ثابت، مع الانتباه إلى أنّ الفاصل الزمني بين نوح وهود عليهما السلام طويل ربما يصل إلى عدة مئات أو بضع ألوف من السنين، وهذا ما يوحي به قول الإمام الصادق المتقدم حيث وصف حال المنتظرين بعد نوح، فقال: "فلم يزالوا يترقبون هوداً وينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد وقست قلوب أكثرهم، فأظهر الله تعالى ذكره نبيه هوداً عليه السلام عند اليأس منهم وتناهى البلاء بهم".

لاحظ قوله: "طال عليهم الأمد وقست قلوبهم"، "فأظهر الله نبيه هوداً عند اليأس"!

وعموماً، نحن عرفنا في البحوث السابقة أنّ نوحاً عليه السلام انتقل بالمؤمنين من قومه إلى الكوفة وبلاد ما بين النهرين بعد الطوفان، وهناك رست سفينته، لتستمر بلاد ما بين النهرين باحتضان رسالة الله بعد نوح ابتداء بولده الوصي سام عليه السلام مروراً بالأوصياء من ولده وهكذا وصولاً إلى ولده القائم هود عليه السلام الذي بعث "وأسلم له العقب من ولد سام" كما أخبر الصادق عليه السلام، وهذا يعني أنّ هوداً عليه السلام بُعث في بلاد ما بين النهرين.

نعم، هذا لا يعني حصر دعوته ورسالته ببلاد ما بين النهرين (أو العراق الحالي) فقط، لا سيما ونحن نتحدث عن دعوة نبي مهم ومنتظر وصف بأنه قائم آل نوح، فمن الطبيعي جداً أنّ رسالة هود واسعة وتمتد لتشمل الأقوام القريبة من أرض بعثته كأرض اليمن والشام مثلاً، وبخصوص علاقة هود عليه السلام بأرض اليمن: فقد عرفنا أنّ الحج إلى بيت الله الحرام كان من ضمن شريعة آدم فمن تلاه من رسل الله عليهم السلام، وهذا يعني أنّ هوداً ومن آمنوا به كانوا يحجون ويذهبون إلى مكة للحج^(٢).

١- انظر: قصص الأنبياء، الراوندي: ٩٣.

٢- (عن ابن عباس قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي عسفان حين حج قال: يا أبا بكر أي واد هذا؟ قال: وادي عسفان قال: لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر خطمها الليف أزرهم العباء وأردتهم النمارة يحجون البيت العتيق) مسند أحمد: ١ / ٢٣٢.

ذهاب هود عليه السلام والمؤمنين به إلى مكة ومرورهم بها وما جاورها يعني ذهابهم لأرض اليمن لأن مكة يمانية كما هو معروف^(١)، وأكد أن هود عليه السلام هداية الناس وإنقاذهم وربما صادف أنه بلغ رسالته وأنذر بعض الأقوام هناك، ولكن هذا لا يعني أن رسالته كانت بأرض اليمن وأنه بُعث ومات في أرض اليمن كما يوحي به كلام بعض المؤرخين استناداً إلى أخبار بعض اليهود أو من أسلموا منهم كوهب بن منبه مثلاً! ومن المعلوم أن الحجية إنما هي لقول المعصوم (الرسول الإلهي) وبالتالي لا قيمة لقول وهب ولا غيره ما لم يُعضد بقول المعصوم، ثم من أين علم وهب (أو المؤرخ الذي استند إلى قوله) بحال الرسالة الإلهية في عصر هود عليه السلام؟! نحن نتحدث عن رسل الله في زمن قديم لم تكن الكتابة قد اكتشفت بعد، وبالتالي فما لم يُعضد القول بنص رسول معصوم لا ينطق عن هوى يبقى القول مجرد ظن واحتمال لا أقل ولا أكثر!

أما قولنا نحن بتخصيص العراق كأرض احتضنت رسالة هود عليه السلام وبعثه؛ فلأننا عرفنا من آل محمد الأوصياء عليهم السلام أن سلف هود (أعني جده نوحاً عليه السلام) انتقل برسالة الله من الوادي الخصيب إلى العراق وأوصى قومه والمنتظرين بترقب وانتظار ظهور ولده هود، ثم مات نوح ودفن في النجف، واستمر وصيه سام ومن تلاه بحمل رسالة الله على نفس الأرض؛ وصياً بعد وصي وصولاً إلى زمن إبراهيم عليه السلام الذي ولد في جنوب العراق، وهذا يعني أن أرض العراق إلى وقت رسول الله إبراهيم كانت تحتضن رسالة الله ورسل الله؛ ومنهم هود الذي سبق إبراهيم بالآلاف السنين.

وأيضاً: تخصيص أرض العراق؛ باعتبار أن قبر هود معلم شاخص على أرض النجف يُزار منذ أن كشف عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه إلى يوم الناس هذا، وقبره - كما هو معروف - مجاور لقبر جده نوح صلوات الله عليه كما سنعرف.

١- مكة من تهامة وتهامة من اليمن حتى وقت قريب، ولم يكن التقسيم الإداري للدول سابقاً بالنحو الذي نراه اليوم، ولهذا كان الرسول محمد صلى الله عليه وآله يقول: "أنا النبي التهامي" أو يقول عن الكعبة "يمانية".

ملاحظة: روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّ إرم ذات العماد هي دمشق ^(١)، ومع افتراض صحة الخبر فإنه لا ينافي أن يكون أرض الرسالة في زمن هود عليه السلام هي بلاد ما بين النهرين وأنّ أرض الشام مشمولة برسالته أي أنّ هوداً وأنصاره كانوا يبلغون رسالة الله فيها.

وصية هود:

أما وصية هود عليه السلام فقد ركزت على صالح عليه السلام من بعده:

(عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام قال: لما بعث الله عز وجل هودا عليه السلام أسلم له العقب من ولد سام، وأما الآخرون فقالوا: من أشد منا قوة فأهلكوا بالريح العقيم، وأوصاهم هود وبشّرهم بصالح عليه السلام) ^(٢).

صالح (ع):

بعث الله صالحاً عليه السلام بعد زمن من وفاة هود عليه السلام، واحتج على قومه بنفس ما احتج به رسل الله السابقين، وكعادة من سبقوهم كذبوا صالحاً:

قال تعالى: "وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ

١- قال صلوات الله عليه في خطبة طويلة عن فتن ملاحم وفتن آخر الزمان ذكر فيها السفيناني، ومما قال فيها: (....) ثم يخرج عن الكوفة مائة ألف بين مشرك ومنافق حتى يضربوا دمشق لا يصددهم عنها صاد وهي ارم ذات العماد وتقبل رايات شرقي الأرض ليست بقطن ولا كتان ولا حرير مختمة في رؤوس القنا بخاتم السيد الأكبر يسوقها رجل من آل محمد صلى الله عليه وآله يوم تطير بالمشرق يوجد ريحها بالمغرب كالمسك الأذفر يسير الرعب أمامها شهراً (... مختصر بصائر الدرجات، حسن بن سليمان الحلي: ٢٠٠.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ١٣٦.

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ" هود: ٦١ - ٦٨.

(عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: "كذبت ثمود بالنذر* فقالوا أبشرنا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر* أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر" قال: هذا بما كذبوا به صالحاً وما أهلك الله عز وجل قوماً قط حتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم فبعث الله إليهم صالحاً فدعاهم إلى الله فلم يجيبوا وعتوا عليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشاء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها فقالوا له: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشاء، فأخرجها الله كما طلبوا منه. ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: أن الله قد جعل لهذه الناقة [من الماء] شرب يوم ولكم شرب يوم وكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت الماء ذلك اليوم فيحلبونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله. ثم إنهم عتوا على الله ومشي بعضهم إلى بعض وقالوا: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب، فجاءهم رجل أحمر، أشقر، أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له: قدار، شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جعلاً فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت الماء وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم تعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرت إلى الأرض على جنبها وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغى ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح فلم يبق أحد منهم إلا شركه في ضربته و اقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها فلما رأى ذلك صالحاً أقبل إليهم فقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم أعصيتم ربكم، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام أن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثتها إليهم حجة عليهم ولم يكن عليهم فيها ضرر وكان لهم منها أعظم المنفعة فقل لهم: إني مرسل عليكم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث، فأتاهم صالح عليه السلام فقال يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن أنتم تبتنم

ورجعتم واستغفرتكم غفرت لكم وتبت عليكم، فلما قال لهم ذلك كانوا أعنا ما كانوا وأخبت وقالوا: "يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين" قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة واليوم الثاني وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة فما أن كان أول يوم أصبحوا ووجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً، فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل عليه السلام فصرخ بهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا أجمعون في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى أجمعين ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين وكانت هذه قصتهم^(١).

الملفت في الأمر أن عاقر الناقة كان رجلاً واحداً، لكن الله سبحانه أشركهم معه بسبب رضاهم بفعله، ولهذا عمّم العذاب جميعاً^(٢).

١- الكافي، الكليني: ٨ / ١٨٧ - ١٨٩.

٢- (عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام، على منبر الكوفة يقول: "أيها الناس، أنا أنف الإيمان، أنا أنف الهدى وعينه، أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة من يسلكه، إنّ الناس اجتمعوا على مائدة قليل شبيها، كثير جوعها، والله المستعان، وإنما يجمع الناس الرضى والغضب، أيها الناس إنما عقر ناقة صالح واحد فأصابهم الله بعذابه بالرضا لفعله، وأية ذلك قوله عز وجل: "فنادوا أصحابهم فتعاطى فقعر* فكيف كان عذابي ونذر"، وقال: "ففقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها* ولا يخاف عقبيها"، ألا ومن سنل عن قاتلي فزعم أنه مؤمن فقد قتلني. أيها الناس، من سلك الطريق ورد الماء، ومن حاد عنه وقع في التيه، ثم نزل) الغيبة، النعماني: ٣٥.

ثم إنَّ جزء السبب في انحراف قوم صالح عن دعوته ورسالته يعود إلى وجود علماء الضلالة الذين لا يأمر الناس بمعروف ولا ينهونهم عن منكر، إذ ورد بحق المنحرفين أنهم: "قردة لهم أذناب"^(١).

لكن: هذا لا يعني بالضرورة أنَّ المنحرفين تحولوا إلى قردة فعليين، وإنما يمكن أن نفهم منه أنَّ أخلاقهم مُسخت إلى حد صار سلوكهم يشبه سلوك القردة، وهو أمر ملاحظ في سلوك المعترضين على دعوات الرسل الإلهيين إلى يومنا هذا، فالبعض ما إن تتحدث معه بالحق الذي يريده الله إلا وتراه يتقافز فوق رأسك كالقرد!

ما لاقاه صالح عليه السلام من قومه اضطره إلى الغيبة عنهم، ثم أمره الله بالرجوع لهم بعد سنين طويلة، وقد أكد النص الديني أنَّ حال علي والقائم صلوات الله عليهما في هذه الأمة كحال صالح في أمته^(٢).

١- (عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام أن قوماً من أهل إيلة من قوم ثمود كانت الحيتان تستيق إليهم كل يوم، وكانوا نهوا عن صيدها، فأكلها الجهال، ولا ينهونهم عن ذلك العلماء، ثم انحازت طائفة منهم ذات اليمين، فقالت: إنَّ الله تعالى ينهك عنهما واعتزلت طائفة منهم ذات اليسار، فسكتت ولم تعظم، وقالت الأولى: "لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به" أي: تركوا ما وعظوا به، خرجت الطائفة الواعظة من المدينة مخافة أن يصيبهم العذاب وكانوا أقل الطائفتين، فلما أصبح أولياء الله أتوا باب المدينة، فإذا هم بالقوم قردة لهم أذناب. ثم قال أبو جعفر قال علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام: لهذه الأمة بعد نبينا سنة أولئك لا ينجرون ولا يغيرون عن معصية الله، وقد قال الله تعالى: "أنجينا الذين يهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون" (قصص الأنبياء، الرواندي: ١٠٢ - ١٠٣).

٢- (عن زيد الشحام، عن أبي عبد الله صلوات الله عليه قال: إنَّ صالحاً عليه السلام غاب عن قومه زماناً، وكان يوم غاب كهلاً حسن الجسم، وافر اللحية، ربعة من الرجال، فلما رجع إلى قومه لم يعرفوه، وكانوا على ثلاث طبقات: طبقة جاحدة ولا ترجع أبداً، وأخرى شاكّة، وأخرى على يقين، فبدأ حين رجع بالطبقة الشاكّة، فقال لهم: أنا صالح فكذبوه وشتموه وزجروه، وقالوا: إن صالحاً كان على غير صورتك وشكلك، ثم أتى إلى الجاحدة فلم يسمعوا منه ونفروا منه أشد النفور. ثم انطلق إلى الطبقة الثالثة وهم أهل اليقين، فقال لهم: أنا صالح، فقالوا: أخبرنا خبراً لا نشك فيه أنك صالح إنا نعلم أن الله تعالى الخالق يحول في أي صورة شاء، وقد أخبرنا وتدارسنا بعلمات صالح عليه السلام إذا جاء، فقال: أنا الذي أتيتكم بالناقة، فقالوا: صدقت وهي التي تتدارس فما علامتها؟ قال: لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فقالوا: آمنا بالله وبما جئتنا به، "قال" عند ذلك "الذين استكبروا" وهم الشكالك والجهاد "وإنا بالذي آمنتم به كافرين". قال زيد الشحام: قلت: يا بن رسول الله هل كان ذلك اليوم عالم؟ قال: الله أعلم من أن يترك الأرض بلا عالم، فلما ظهر صالح عليه السلام اجتمعوا عليه، وإنما

تنبيه: الكلام في موضع بعثة نبي الله صالح هو نفس ما ذكرناه في بعثة نبي الله هود عليه السلام، أي أنّ أرض البعثة هي بلاد ما بين النهرين، ولا يمنع من شمول رسالته ودعوته الأراضي المجاورة لها. وبالتالي، فما روي في بعض مصادر المسلمين^(١) من أنّ قوم ثمود كانوا يستوطنون القرى في بعض مناطق الحجاز لا ينافي ما ذكرناه بنفس البيان الذي تقدم، علماً أنّ النص لا ينتهي إلى رسول إلهي معصوم، وبالتالي فلا حجية له أصلاً. وأما ما يعرف بـ "مدائن صالح" أو "منطقة الحجر الأثرية" الواقعة في شمال غرب السعودية (بين المدينة المنورة وتبوك) فعمرها الأثري لا يتعدّ تاريخ ٢١٠٠ ق.م في أحسن الأحوال^(٢)، وهو تاريخ متزامن تقريباً مع بعثة نبي الله إبراهيم عليه السلام في حين أنّ بعثة صالح عليه السلام كانت قبل ذلك بفترة طويلة ربما تصل إلى بضع ألوف من السنين^(٣)، بل حتى مع افتراض أنّ أقواماً تعود إلى زمن النبي صالح قد سكنت هذه المدائن قبل الأنباط (الذين سكنوها في القرن الثاني ق.م وإلهم تعود آثار المدائن بالفعل)، فهذا لا يمنع من أن تكون بلاد ما بين النهرين هي أرض بعثة صالح كما بيّنا في بعثة هود.

مثل علي والقائم صلوات الله عليهما في هذه الأمة مثل صالح عليه السلام) قصص الأنبياء، الرواندي: ١٠٤ - ١٠٥.

١- انظر مثلاً: المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ٢ / ٥٦٥. عن نوف الشامي ان صالح النبي صلى الله عليه وسلم من العرب لما أهلك الله عادوا وانقضى امرها عمرت ثمود بعدها فاستخلفوا في الأرض فانتشروا ثم عتوا على الله فلما ظهر فسادهم وعبدوا غير الله بعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً وكانت منازلهم الحجر إلى قرع وهو وادي القرى ثمانية عشر ميلاً فيما بين الحجر إلى الحجاز فبعثه إليه إليهم غلاماً شاباً فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبروا لا يتبعه منهم الا قليل مستضعفون فهلك عاد وثمود ومن كان منهم من تلك الأمم وكانوا من ولد لاوذ بن سام بن نوح (...).

٢- راجع موقع اليونسكو: <https://whc.unesco.org/en/list/1293>

٣- باعتبار أنّ صالحاً عليه السلام بعث في الفترة التي تفصل بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، وهي فترة تقدّر بألاف السنين؛ حيث إنّ تاريخ تواجد نوح عليه السلام يمكننا معرفته من خلال معرفة التاريخ العلمي المثبت للطوفان وهو (١٥ - ٨ ألف ق.م). وأما تاريخ بعثة إبراهيم فهي بحدود ٢٠٠٠ ق.م أو ربما أقل من ذلك بحسب بعض الباحثين، وبالتالي فالفاصل بينهما يتراوح بين ستة آلاف سنة كحد أدنى إلى ١٣ ألف سنة كحد أعلى.

قبرا هود وصالح (٤):

(عن مختار التمار عن أبي مطر قال: لما ضرب ابن ملجم الفاسق لعنه الله أمير المؤمنين عليه السلام قال له الحسن عليه السلام: أقتله؟ قال: لا، ولكن احبسه فإذا مت فاقتلوه، وإذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح عليهما السلام) (١).

"الظهر": أي ظهر الكوفة، وهي ربوة النجف والغري؛ أول طور سيناء كما أكد أوصياء الرسول محمد صلى الله عليه وآله (٢).

قال السيد أحمد الحسن: (فقد نقلت الملائكة الطور بعد حادثة رفعه ولم يعاد إلى مكانه: "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" الأعراف: ١٧١، ظنوا أنه واقع بهم: فهو لم يعد إلى مكانه ولم يقع بهم، بل نُقل) انتهى (٣).

هذا الموضع المقدس ضم إضافة إلى ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، قبر: آدم ونوح وهود وصالح، ولهذا ورد في زيارة أمير المؤمنين: "السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح، السلام عليك وعلى جاريك هود وصالح".

١- تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦/ ٣٣ - ٣٤.

٢- (عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث حدث به أنه كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام، أن أخرجوني إلى الظهر فإذا تصوبت أقدامكم واستقبلتكم ريح فادفنوني وهو أول طور سيناء، ففعلوا ذلك) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦/ ٣٤.

وعن الإمام الصادق صلوات الله عليه: (... الغري، وهو قطعة من الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وقدس عليه عيسى تقديساً، واتخذ عليه إبراهيم خليلاً، واتخذ محمداً صلى الله عليه وآله حبيباً، وجعله للنبيين مسكناً، فوالله ما سكن فيه بعد أبويه الطيبين آدم ونوح أكرم من أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ...) تهذيب الأحكام، الطوسي: ٦/ ٢٣.

٣- المتشابهات: جواب سؤال ١٥٥. وروى الطبرسي بعض أسئلة طاووس اليماني للإمام الباقر عليه السلام، ومنها: (قال: فأخبرني عن طائر طار مرة ولم يطرق قبلها ولا بعدها، ذكره الله عز وجل في القرآن ما هو؟ فقال: طور سيناء أطاره الله عز وجل على بني إسرائيل حين أظلمهم بجناح منه، فيه ألوان العذاب، حتى قبلوا التوراة، وذلك قوله عز وجل: "وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ" الآية) الاحتجاج: ٢/ ٦٤ - ٦٥.

وقد شاء الله لولييه هود وصالح عليهما السلام أن يكونا علمين شاخصين في خط رسالات الله بعد أبيهما نوح وأدم عليهما السلام، وذهب قومهما "عاد وثمود" مضرب مثل للأقوام والأمم التي تمردت على إرادة الله ورسل الله فاستحقت الجزاء الذي حلَّ بها:

قال تعالى: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانيَةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ" الحاقة: ٤ - ٧.

وأما عاقر ناقة صالح، فأيضاً أصبح مضرباً للمثل بخصوص المبغضين لرسول الله والمعتدين على حرمة الله والمستحقين العقاب الأليم:

"وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِنُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ" هود: ٦٤ - ٦٨.

عاقر الناقة لعنه الله كان ابن بغي، كذا هي صفة قاتل أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وقاتل ولده الحسين صلوات الله عليه (١).

١- (عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن عاقر ناقة صالح كان أزرق ابن بغي، وإن قاتل علي صلوات الله عليه ابن بغي، وكانت مراد تقول: ما نعرف له فينا أباً ولا نسباً، وإن قاتل الحسين بن علي صلوات الله عليه ابن بغي وإنه لم يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلا أولاد البغايا) قصص الأنبياء، الراوندي: ٢٢٢.

(عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: يا علي إن الله عرض مودتنا أهل البيت علي السماوات والأرض فأول من أجاب منها السماء السابعة فزنتها بالعرش والكرسي، ثم السماء الرابعة فزنتها بالبيت المعمور، ثم سماء الدنيا فزنتها بالنجوم، ثم أرض الحجاز فشرفها بالبيت الحرام، ثم أرض الشام فشرفها ببيت المقدس، ثم أرض طيبة فشرفها بقبري، ثم أرض كوفان فشرفها بقبرك يا علي، فقال: أقبر بكوفان العراق؟ فقال له: نعم، تقبر بظاهرها تلاً بين الغريين والذكوات البيض، يقتلك أشقى هذه الأمة عبد الرحمن بن ملجم أدنى أهل النيران لعنه الله فوالذي بعثني بالحق نبياً ما عاقر ناقة صالح بأعظم عقاباً منه، يا علي ينصرك من العراق مائة ألف سيف) الغارات، إبراهيم الثقفي: ٢ / ٨٤٤.

(٥)

الدين السومري وما يتصل به

يقول السيد أحمد الحسن: (الأديان سواء كانت محدثة أم قديمة فهي مبنية على عقائد الدين الإلهي التي نقلها المهاجرون معهم سواء للصين أو الهند أو غيرها) انتهى^(١).

تمهيد: لماذا البحث في سومر؟

الشرق الأوسط مهد الدين والرسول:

ما تقدم من بحوث يثبت بوضوح حقيقة أنّ منطقة الشرق الأوسط هي مهد الدين الإلهي وبعثات الرسل صلوات الله عليهم.

ما انتهينا إليه في البحوث المتقدمة يؤكد لنا حقيقة أنّ منطقة الوادي الخصيب "حوض الخليج" هي مهد الدين الإلهي الذي بُعث به أول أنبياء الله ورسله إلى الناس؛ آدم عليه السلام، ثم تعاقب على هداية الناس في نفس المكان رسل وهداة إلهيون كثر على مدى آلاف السنين وصولاً إلى نوح عليه السلام، وفي عهده حدث الطوفان الذي حددت الدراسات والبحوث الأثرية حصوله بتاريخ ١٥ - ٨ آلاف عام ق.م، فغادر نوح عليه السلام والمجموعة التي ركبت معه السفينة أرض الوادي واستقروا في وسط وجنوب العراق وتدرجياً زحفوا نحو الجنوب أكثر بعد انحسار مياه الطوفان وزوال الطمي الذي خلفه الطوفان وأقام السومريون (أحفاد آدم ونوح) حضارتهم في جنوب العراق ووصلتنا بعض آثار حضارتهم ودينهم الذي تعلّموه من رسل الله (وإن كان قد طاله التحريف بمرور الوقت الطويل)؛ خصوصاً بعد أن كانوا يتداولونه من خلال القصص والنقل الشفوي،

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

ثم بعد عصر التدوين واكتشاف الكتابة في سنة ٣٠٠٠ ق.م تقريباً دَوَّنوا بعض تلك التعاليم.

وهذه الحقيقة ترشدنا إلى أمرين مهمين:

الأول: ليس صحيحاً أن يقال إنَّ الدين الابراهيمي (وحسب) شرق أوسطي بفروعه الثلاثة الرئيسية أعني: الإسلام والمسيحية واليهودية، بل الصحيح أن يقال: إنَّ الدين الإلهي من حيث الأساس والأصول هو شرق أوسطي منذ لحظة انطلاق مشروع الله الرسالي على هذه الأرض بآدم صلوات الله عليه، وليست المسألة ذات طابع عنصري أو قومي وعرقي وما شابه فهذه أمور تافهة ولا قيمة لها عند الله ورسله، بل لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون هجرة المجموعة الصغيرة من الإنسان العاقل "هومو سايننس" من أفريقيا إلى الوادي الخصيب هي الهجرة المحورية ^(١) والوحيدة التي نجحت وأثمرت بعد أن كان الفشل مصير كل ما عداها من هجرات سابقة، وإلى تلك الثلة القليلة المهاجرة يرجع نسل الأغلبية الساحقة من البشر اليوم، ومن تلك المجموعة ولد آدم عليه السلام وبدأ مشروع الله الرسالي في هداية الناس وتعليمهم وتنظيم شؤونهم ... إلخ ثم تعاقب على هداية الناس وتعليمهم في الوادي الخصيب ولده الأوصياء وصياً بعد وصي إلى عصر نوح عليه السلام، ثم انتقلت في عصره حياة الرسل لتطأ أرض بلاد ما بين النهرين واستمرت حركة الرسل فيها وصولاً إلى عصر إبراهيم عليه السلام، وهكذا استمرت حركة الرسل ضمن نطاق نفس المنطقة (أعني: الشرق الأوسط) على الدوام.

فالدين الإلهي – والحال هذه – ابتدأ في الشرق الأوسط، ورسَل الله بعثوا في الشرق الأوسط، وبقوا في الشرق الأوسط، ثم من الشرق الأوسط انتشر دين الله وتعاليم الرسل الأوائل إلى العالم بشكل تدريجي. وبالتالي، فلا قيمة حقيقية تبقى لما يطرحه بعض الملحدين من تساؤل: لماذا الدين شرق أوسطي؟ فالجواب ببساطة: لأنَّ الإنسان العاقل استوطن الشرق الأوسط ولاحقاً انتشر على عموم الأرض، وحركة الدين الإلهي والرسل كانت كذلك تدور مع حركة الإنسان القادر على حمل رسالة الله.

١- كما يسميها بعض العلماء والباحثين في دراساتهم التي تقدمت.

الثاني: كما انتشر البشر من الشرق الأوسط إلى العالم كله من خلال الهجرات اللاحقة التي حدثت من حوض الخليج باتجاه العالم ثم من جنوب العراق إلى أنحاء متعددة من الأرض، كذلك الحال بالنسبة إلى الدين فإنّ الأصل فيه هو دين آدم عليه السلام ومن تلاه من رسل الله الأوائل، فإنّ من عاشوا مع الرسل وتعلّموا منهم لما هاجروا تاركين حوض الخليج أو جنوب العراق إلى مناطق متعددة من العالم حملوا معهم تعاليم آدم ونوح عليهما السلام وقاموا بنشرها شرقاً وغرباً، ولولا الرسل لما وجد شيء اسمه دين يدعو إلى الله أو التعلق والتأله لبعض الخلق (طاعة الرسل وتقديسهم) في طول طاعة الله، أو أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم والحج أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق والمعاني الروحية أو وجود النبوءات المستقبلية وعلى رأسها نبوءة المنقذ والمخلص ونحو ذلك مما نراه بوضوح لدى الأديان التي تلت بعثة آدم عليه السلام وخصوصاً في الشرق كالأديان التي ظهرت في الهند مثلاً.

دين الله بين ثنايا سومر:

البحث في أديان وفلسفات الشرق الكبرى كالهندوسية والبوذية مثلاً، ولأجل الحكم عليها بأنها أديان أو أساليب "حياة" وضعية وأرضية أو أنّ لها جذوراً سماوية يقتضي بطبيعة الحال مقارنتها بالدين الإلهي السابق لها أو المتزامن معها كحد أدنى.

وبخصوص حالتنا: فقد عرفنا أنّ بداية المشروع الإلهي الرسالي على الأرض انطلق ببعثة آدم عليه السلام بتاريخ يعود إلى ما قبل ٢٠ ألف سنة كما تقدم، وبالتالي فإذا ما أردنا طرح الديانة الهندوسية (مثلاً) للنقاش ووجدنا أنّ تاريخ نشوئها متأخر عن بدء المشروع الرسالي الإلهي بآلاف السنين، ثم فتشنا في خباياها ولاحظنا كثيراً من أصولها المهمة تتطابق مع ما بثه آدم وأبنائه الرسل من بعده من حقائق وتعاليم، وأيضاً: أخذنا بنظر الاعتبار الواقع الجغرافي المتجاور أو القريب نسبياً بين الهند والوادي الخصيب (أو جنوب العراق لاحقاً) الذي شهد حدوث هجرات متتالية (كما أكدته الدراسات السابقة)؛ خصوصاً الهجرات التي حصلت بعد الطوفان، أقول: إذا ما أخذنا كل ذلك بالحسبان فإنّ النتيجة الحتمية التي ننتهي لها هي القول: إنّ الديانة الهندوسية ترجع في أصولها إلى دين

آدم عليه السلام ولكن بنسخة محرّفة بالتأكيد، وهذا أمر وارد جداً بحكم مضي وقت طويل عليها!

ومهما يكن، إننا إذا ما أردنا العثور على دين آدم ونوح عليهما السلام وما بينهما ومن تلاهما من رسل أوائل فمن المؤكد أننا نجده لدى السومريين الذين عاشوا في جنوب العراق ووصلنا شيء من حضارتهم؛ لسبب بسيط هو أنّ الرسل الأوائل هم من ضمن أسلاف هؤلاء السومريين، وما يؤكد ذلك: وجود قصص الرسل الأوائل وأحداثهم المهمة كقصة الطوفان وبطلها الإلهي "نوح، زيوسودرا" ضمن نصوصهم. علماً، أننا لا نجتزئ ذلك جزافاً أو نحمل الأمور ما لا تحتل، بل إنّ التطابق بين قصص سومريين ونصوص الدين الإلهي المعروفة في كتب الأديان الإبراهيمية اللاحقة (فيما يتعلق بالرسل الأوائل كنوح عليه السلام، بل حتى من سبقوه كإدريس وآدم عليهما السلام) أمر التفت له علماء آثار كثيرون، ومنهم المختصون بدراسة السومريات بالتحديد كالباحث الدكتور صموئيل نوح كريم، كما سيتضح.

ونحن، إذا كنا طرحنا شيئاً من دين آدم ونوح والرسل الأوائل عليهم السلام فيما سبق، فإننا طرحناه اعتماداً على نصوصنا الدينية التي استندنا فيها على القرآن الكريم وما بلغنا عن الرسول محمد وآله الأوصياء صلوات الله عليه وعليهم، لكن الآن نريد معرفة دين آدم ونوح والرسل الأوائل من خلال نصوص سومر نفسها وما بلغنا عنهم في ألواحهم ورقمهم الطينية التي عثر عليها العلماء والباحثون.

البحث في دين سومر - والحال هذه - أمر مهم جداً ويسهم بوضع النقاط على الحروف في كثير من المفاصل وكشف الحقائق ذات الصلة بالدين الإلهي أو بالمعرفة الإنسانية عموماً.

الدين السومري:

من أجل الإمام بدين سومر، ينبغي عرض بعض التفاصيل الأخرى التي رافقت الدين، والباحثون اليوم لما يتعرضون لذكر سومر يتعرضون لها بعنوانها الحضاري العام. وبالتأكيد، نحن نأخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار.

حضارة سومر:

وصف د. كريمر حضارة سومر بأنها: (مدنية من أقدم مدنات الإنسان وأكثرها إبداعاً وخلقاً وذلك في الناحيتين الروحية والثقافية. لقد عرضت فيها جميع النواحي الأساسية لجهود الإنسان: الحكومة والسياسة، التربية والأدب، الفلسفة والأخلاق، القانون والعدالة، بل أيضاً الزراعة والطب)^(١).

المعايير الأخلاقية كالعدالة والإيثار من أهم مظاهر الحضارة في سومر؛ إذ ميّزت الإنسان المتحضّر عن السلوك الحيواني الذي كان سائداً قبل الحضارة. وأما على مستوى السلوك الاجتماعي فقد كان منظماً أيضاً: (مثل إقامة الدولة والحكومة وتنظيم الزراعة ووضع تقويم زراعي وتنظيم الطب ووضع دستور الأدوية، والمهن الإدارية مثل تعيين رئيس بلدية، ضابط، سفير، مدير مكتبة... الخ)^(٢).

في سومر شيّدت أولى المدن التي عرفتها الإنسانية، بنيت فيها الدور والمعابد "الزقورات" وأنشئت أنظمة معقدة للري تتألف من القنوات والحواجز والسدود وخزانات المياه^(٣).

د. كريمري - أيضاً - أنّ السومريين اخترعوا: (كل العناصر الأولى التي قامت عليها حضارة الإنسان المكتوبة، وإلى جانب الكتابة السومرية، وهي أول كتابة في تاريخ البشرية،

١- من ألواح سومر، كريمر: ١٥.

٢- انظر: وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٣٨.

٣- انظر: السومريون، كريمر: ١٣٧، ترجمة: د. فيصل الوائلي.

قدم السومريون أيضاً اختراعات واكتشافات أكثر أهمية مثل العجلة والمحراث الزراعي، وأوجدوا النظام العشري، وكذلك قسّموا محيط الدائرة إلى "٣٦٠" درجة والسنة إلى "٣٦٥" يوماً، ووضعوا أسس الرياضيات ومبادئ الهندسة، ورصدوا الأفلاك والمجرات والنجوم، وبنوا المعابد وأسسوا نظم الحكم والإدارة، ووضعوا صياغة للشرائع الدينية والدنيوية في القانون وتنظيم أمور الحياة^(١).

بحسب الباحثين الأناريين، ففي الألف الثالث ق.م^(٢)، أي قبل ما يزيد على خمسة آلاف عام، اهتدى السومريون إلى "الكتابة" على ألواح الطين، ولو كان هذا الإنجاز وحده لأمكن اعتباره بحق إنجازاً حضارياً عظيماً يحسب للسومريين^(٣).

تمكّن السومريون من اختراع أمور عديدة ساهمت بتغيير مجرى التاريخ الإنساني والمحراث الزراعي والعجلة والسفن الشراعية وغير ذلك^(٤).

في نهاية الألف الثالث ق.م تمكّن طبيب سومري من تدوين أئمن وصفاته العلاجية ليستعملها طلابه وزملاؤه. وكانت: (هذه الوثيقة الطينية، التي هي أقدم كتاب موجز في الطب معروف لدى الإنسان، بقيت مطمورة في خرائب مدينة "نفر" طوال أكثر من أربعة آلاف عام)^(٥).

١- أنانا ملكة السماء والأرض، صموئيل كريم- ولكشتاين: ٩، ترجمة: شاكر الحاج مخلف، مقدمة المترجم.

٢- انظر: السومريون، كريم: ٤٣٢.

٣- يقول د. طه باقر: (و أبرز ما وصل إليه الإنسان من اختراعات نقلته إلى طور الحضارة الراقية هي التعدين ووسائل مواصلات سريعة واتساع الزراعة.... واختراعات مهمة لا حضارة بدونها مثل الكتابة) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٨٠.

٤- انظر: السومريون، كريم: ٤١٦.

٥- من ألواح سومر، كريم: ١٢٩.

اهتمت بلاد سومر بالتعليم والمدارس التي يحضرها الطلاب من شروق الشمس إلى غروبها يومياً، وكان نظام التعليم فيها مقسماً إلى ما هو شبيه بالعلمي القائم على أساس البحث، والأدبي الخاص بالإبداع والإنتاج الأدبي^(١).

عرفت سومر- كذلك - سنّ القوانين ووجود المحاكم القضائية التي تتألف عادة من هيئات قضائية (ثلاثة أو أربعة قضاة) للبت في القضية الواحدة، وكان لسير المحاكمة إجراءات معينة بدءاً من إقامة الدعوى مروراً بالإجراءات الخاصة التي تليها كإقامة البينة والشهود وغير ذلك من تفاصيل^(٢).

وبخصوص النّاتج الصناعي والمهن التي كانت منتشرة بين السومريين، فقد كان لديهم - كما يقول السيد أحمد الحسن -: (مدرس، طبيب، كاتب، معمار، فران، قصاب، طبّاخ، صناعة القصب، صناعة الفخار، صناعة الأحجار وقطعها، نجار، صناعة أدوات الوزن، صناعة القوارب، خياط، وصناعة واستعمال الأدوات الهندسية المعقدة كالمنسطرة المنزلقة للفلك، صناعة المعادن مثل البرونز، صناعة الجلود، صناعة المنشار والإزميل والمطرقة والقوس والمسمار والدبوس والخواتم والمعول والفأس والسكين ورؤوس السهام والسيوف والدروع والغراء والحقائب وعربات الحرب والأحذية، وصناعة العجلة، صناعة الري وشق القنوات المائية، صناعة القير وتبليط الشوارع ويوجد إلى الآن شارع الموكب في مدينة بابل الأثرية وهو مبلط بالقير السومري قبل آلاف السنين ويرجع تاريخه إلى ما قبل الميلاد) انتهى^(٣).

من جهته، يرى د. كريم أنّ الغالبية العظمى من السومريين كانوا: (من المزارعين وأصحاب الماشية والملاحين وصيادي السمك والتجار والكتاب والأطباء والمهندسين والبنّائين والنجارين والحدادين والصاغة والفخاريين.... وكان أنشط الحرفيين والصناع يبيعون مصنوعاتهم اليدوية في سوق المدينة الحروياً خذون الثمن إما نوعاً أو بال "نقود"

١- انظر: المصدر نفسه: ٤٨.

٢- انظر: السومريون، كريم: ١١٥ فما بعد.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٤٣.

التي كانت عادة حلقة أو خاتماً من الفضة بوزن قياسي. وكان التجار يتعاطون تجارة مزدهرة من مدينة إلى أخرى ومع دول مجاورة عن طريق البر والبحر^(١).

لدى السومريين - أيضاً - منظومة دينية متكاملة على المستوى العقائدي والتشريعي كما سيتضح، وبخصوص الجانب الروحي والأخلاقي فقد كشفت: (الوثائق على أنَّ السومريين كانوا يقدِّرون ويعتزون بالخير والصدق والقانون والنظام والعدل والحرية والحكمة والمعرفة والإخلاص، وباختصار، كانوا يقدرون جميع الفضائل والسجایا التي يرغب فيها الإنسان أكثر من كل شيء آخر)^(٢).

والسؤال المهم: ما هو سر كل هذا النتاج الثقافي والحضاري الهائل - كما رأينا - الذي حصل في بلاد سومر قبل آلاف السنين؟

السر في ثقافة سومر:

لتفسير القفزة الثقافية في بلاد سومر، توجد محاولتان طرحهما بعض العلماء:

الأولى: محاولة إرجاعها إلى عوامل طبيعية وخبرات تراكمية بشرية بدأت بصورة بدائية متخلفة ثم تطورت شيئاً فشيئاً، وهو الطرح الذي تبناه كثير من الملحدین، لكنه مجرد افتراض لا يمكن قبوله؛ لسببين أساسيين:

١- كثير من الباحثين المختصين يرون أنَّ ما شهدته بلاد سومر بعد قفزة حادة، منهم د. طه باقر حيث أوضح: (أنَّ انقلاباً خطيراً حدث في ذلك العصر - العصر الحجري الحديث - في حياة الإنسان باهتدائه إلى الزراعة وتدجين الحيوانات والحقيقة إن هذا الحادث الخطير وما قد نتج عنه من تطور في الحياة الاجتماعية قد مهد السبيل لنشوء الحضارة الناضجة في الأطوار التي عكبت العصر الحجري الحديث)^(٣).

١- السومريون، كريم: ١٠١.

٢- المصدر نفسه: ٣٨٠.

٣- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر: ٤٨.

ملاحظة: تقدم أنّ د. طه باقر - وكذا غيره من علماء الآثار - يرى أنّ الاهتمام للزراعة والتدجين حصل في الألف الثامن ق.م، أي قبل ١٠ آلاف سنة، لكننا أثبتنا أنّ الزراعة على مستوى (الاستزراع لا أقل) لها تاريخ أسبق من ذلك ويعود إلى ما قبل ٢٠ ألف سنة، وهي الفترة التي تزامنت مع بعثة آدم عليه السلام كما عرفنا. علماً، أنّ النص الديني وكذا الدراسات العلمية الحديثة يؤيدان ذلك كما تقدم بحثه^(١).

ومهما يكن، فإنّ ما أسماه د. طه باقر بـ "الانقلاب الخطير" يؤكد أنّ ثقافة السومريين لم تخضع لسنة التدرج في الظهور؛ الأمر الذي يحتاج إلى عشرات (إن لم يكن مئات آلاف السنين) لكي يظهر بالصورة التي ظهر بها في سومر. علماً، أنّ بعض نتاج السومريين ما لا يمكن إخضاعه لسنة التطور البشري نهائياً، كـ بعض المعارف الإلهية والقيم والمثل الأخلاقية العليا التي تأبأها جينة الإنسان الأنانية وطبيعته الغريزية كالإيثار والعدل والتضحية دون مقابل، الأمر الذي يؤكد دخول شيء جديد في حياة الإنسان السومري.

٢- على مستوى الجيولوجيا وعلم الآثار، ليس هناك ما يؤشّر إلى وجود تدرّج تطوري مر به الإنسان قبل حضارة سومر بحيث شكّل للسومريين تراكماً معرفياً وإراثاً شيدوا فوقه حضارتهم، خصوصاً وأنّ نتاجاً مثل نتاج سومر سيحتاج - لو قُدّر له أن يكون خاضعاً لسنة التطور البشري - إلى عشرات آلاف السنين كحد أدنى لحصوله، ما يعني ضرورة توفر المعطيات والمعلومات الأثرية والجيولوجية بشكل واضح وكبير، لكن شيئاً من هذا غير موجود على الأرض.

وعلى خلاف ما افترضه الملحدون، فإنّ السومريين أنفسهم - وفق الوارد في نصوصهم - يوضحون أنهم ورثوا ما عندهم من حضارة وثقافة من أسلافهم ولم يكونوا بدائيين (كما يفترض أصحاب السير التطوري لحضارة سومر)، بل يصفون حضارة أسلافهم بالأكثريّة:

١- راجع مبحث: "ظهور الزراعة".

يقول السيد أحمد الحسن: (وإذا كانت مسألة تطور الحضارة والثقافة السومرية عن ثقافة متخلفة مجرد فرضيات بلا دليل فالأولى بمن يدعي البحث العلمي أن يقبل معطيات جاءت من السومريين أنفسهم من أنّ حضارتهم وثقافتهم ورثوها عن حضارة وثقافة راقية قبلهم، فلم يكن أسلاف السومريين متخلفين ثقافياً وحضارياً عن السومريين أنفسهم. نعم، ربما لم تصل ثقافتهم بخط أيديهم كالسومريين لقلتهم خصوصاً في مهد الإنسانية الآدمية ولأسباب أخرى كثيرة منها: الطوفان والظروف الطبيعية وعدم توفر الإمكانيات المادية التي توفرت للسومريين لنقل حضارتهم وثقافتهم بخط أيديهم، هذا مع أن السومريين في كثير من الأحيان ما هم إلا ناقلين لثقافة وحضارة من سبقهم فنجدهم يقرأون قصة الطوفان ونوح عليه السلام في ملحمة جلجامش، ونجدهم يمدحون ثقافة أسلافهم كما في ملحمة ايرنمكار وأرض أرتا) انتهى^(١).

نقل د. كريم روصف السومريين لعصر أسلافهم ونعتهم له بـ "الذهبي"^(٢).

وليس كريم روصف وحده من نقل عن السومريين اعتقادهم بأنهم ورثة عصر ذهبي وحضارة راقية، بل هناك غيره من الباحثين نقل ذلك أيضاً، وأضاف أنهم يعتقدون بأن أصل حضارتهم سماوي إلهي^(٣).

١- أحمد الحسن، وهم الإلهاد: ٣٤٤.

٢- يقول د. كريم: (في الأدب السومري نرى أول تصور للإنسان عن العصر الذهبي مدوّناً في لوح من الطين. ...

وفي غابر الأزمان كانت بلاد "شوبّر" و"همّازي"،

وبلاد سومر الكثيرة الألسنة، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة،

وبلاد "أوري"، البلاد التي احتوت كل ما هو لائق،

وبلاد "مارتو"، كانت أمنة مطمئنة،

وجميع الكون والناس في وحدة وألفة،

حيث كان الجميع يمجّدون "أنليل"، بلسان واحد..." من ألواح سومر: ٣٧٩ - ٣٨٠.

٣- يقول شارل فيروللو: (وهكذا - وحسب رأي البابليين - لم يتوصل البشر إلى ما يفرق بينهم وبين الحيوان من حراثة الحقول وتشديد المدن بالبحث والتنقيب ولا بالتجارب والجهود المختلفة ولا بالتفاعل. لقد جاءهم العلم دفعة واحدة من قبل الآلهة) أساطير بابل وكنعان: ٢٢ - ٢٣، تعريب: ماجد خيريك.

إذن، لا يمكن اعتبار الحضارة السومرية متطورة عن حضارة وثقافة بدائية سبقتها، وما يقال بشأن ذلك مجرد فرضيات غير ثابتة علمياً.

المحاولة الثانية: ذهب بعض الباحثين إلى أن السومريين هم نتاج عملية تلاقح تم بين كائنات فضائية نزلت إلى الأرض وبين "الهومو اركتس"، فكانت النتيجة ولادة الإنسان العاقل "الهومو سابينس" الذي استطاع بناء أول حضارة إنسانية في بلاد سومر!

لكن هذه الأطروحة التي أشار لها الباحث زكريا سيتشن^(١) في كتابه "الكوكب الثاني عشر" المنشور في عام ١٩٧٦ م، استندت إلى معطيات وأدلة غير ناهضة علمياً، كما أنها غير قادرة على إجابة النقد العلمي الموجه لها، إضافة إلى مخالفتها لحقائق علمية واضحة كمعارضتها مع علم الأحياء التطوري^(٢).

وبهذا يبقى السؤال قائماً: كيف حصلت القفزة الثقافية والحضارية عند السومريين بشكل حاد ومفاجئ؟ كيف تمكّن السومريون وهم أفراد ينتمون علمياً إلى صنف الإنسان العاقل (الهومو سابينس) من أن يصبحوا بهذا المستوى الفكري الراقى دينياً وأخلاقياً وعلمياً وسياسياً وصناعياً وزراعياً... إلخ؟!

يقول السيد أحمد الحسن: (إذن، فالسومريون (الأكاديون) قوم ظهرت ثقافتهم فجأة دون مقدمات، وهي ثقافة راقية جداً ومميزة، وهذه القفزة الحضارية والثقافية الواضحة للسومريين تمثل مؤشراً واضحاً على دخول شيء جديد في المعادلة جعل هذا الموجود - الإنسان - ينتقل من التعامل الأناني الحيواني الظالم إلى الرغبة في التعامل الأخلاقي العادل الإيثاري الإنساني، هذا بغض النظر عن بنائه الحضارة المادية) انتهى^(٣).

١- زكريا سيتشن (١٩٢٠ - ٢٠١٠ م)، كاتب أمريكي الجنسية من أصل روسي.

٢- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٠٧ - ٣٠٨.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٣٤.

حقائق العلم والدين يحددان السبب:

السبب المنطقي - الذي تؤيده الحقائق العلمية والدينية معاً - لتفسير الطفرة الثقافية الحاصلة في جنوب العراق قبل آلاف السنين، هو دخول "الدين" والعلم الذي بثّه أنبياء الله بين أقوامهم على الخط، ابتداءً بآدم عليه السلام ثم من تلاه من ولده الأوصياء الذين بعثهم الله لتلك الأقوام وصولاً إلى نوح عليه السلام الذي ورد ذكره كثيراً في الألواح والرقم الطينية باعتبار أنه أبو البشرية الثاني بعد الطوفان؛ الذي أعقبه استيطان السومريين الأوائل في منطقة جنوب العراق كما تقدم بحثه بالتفصيل.

يقول السيد أحمد الحسن: (التفسير الوحيد المعقول لهذا الأمر والذي تؤيده المكتشفات الأثرية هو دخول الدين في المعادلة، فالتفسير الديني لهذه النقلة الحضارية هو فقط الصحيح والحقيقي والمؤيد بالأثار التي أكدت أنّ هذه القيم جاء بها الدين أو آدم والأنبياء، فنفس آدم عليه السلام لما اتصلت بهذا الجسم المادي ذي البيولوجيا الأنثوية دخلت هذه النفس في المعادلة ونقلت هذه النفس الطيبة من الإله القيم الأخلاقية العليا كالإيثار، وصدّق بقية الناس أنّ هذه حقائق نتيجة أدلة لمسوها في أنفسهم وبدأوا بمحاربة الأنا بالإيثار وتحققت هذه النتيجة الطيبة المباركة التي صعب جمالها حتى الملحدون وأخذوا يترنمون بأنهم من الدعاة إليها ولا يسعهم أن يقولوا غير هذا رغم أنّ رائدها ومن أتى بها هو أعدى أعداء الملحدون وهو الدين الإلهي.

ولو جمعنا التاريخ الذي وصلنا عن السومريين في الألواح الطينية والأثار مع النص الديني فسنخرج بنتيجة أنّ السومريين أو سكنة بلاد ما بين النهرين ما هم إلا ورثة حضارة وثقافة آدم عليه السلام ونوح عليه السلام "أوتو- نبشتم" وإن كان في فترة موعلة في القدم عن التاريخ الذي وصلنا في الأثار والألواح الطينية) انتهى^(١).

وهذه بعض النصوص السومرية التي تربط مظاهر الحضرة كتأسيس المدن والبناء والزراعة والري والرعي والحكم بالسماء والإله:

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٣٤.

١- (بدون انليل، الجبل الكبير
لن تقام المدن ولن ترفع البيوت،
ولن تبني الحظائر ولن تشيد الزرائب ...) ^(١).

٢- (من أجل حفر الأقتية،
وتنظيف مجاري الري،
وإرواء الأرياف الفسيحة،
بالشادوف،
واستعمال الماء الغزير لإرواء
الحقول والمروج
وضع الآلهة تحت تصرف البشر
الفأس والمعزق والقفة والمحراث
التي تحيي الأرض!
ومنذ ذلك الحين بدأ البشر
بجعل الشعير ينبت) ^(٢).

٣- (إنه كُلا، الذي يرتب بحذافة
الأجرات المستخرجة من قلبها
إلى كُلا عهد (انكي) بهذه الصناعة
ثم عمد بعد ذلك إلى شد حبل (البناء)
وخطط أساسات مستقيمة
وتلبية لإرادة مجمع (الآلهة)، رسم مخطط مسكن
وطلب أن تنفذ عليه عملية التطهير (الأولية)
ثم بعد ذلك قام الأمير العظيم بحفر الأساسات
وبنى عليها جدران الآجر...
إنه موشداما البناء - العظيم، (بنّا) انليل،

١- ديوان الأساطير - الكتاب الأول، أدونيس: ٧٥، تعريب وتعليق: قاسم الشواف.

٢- ديوان الأساطير - الكتاب الثالث، أدونيس: ٤٦.

إليه عهد انكي (بهذا الفن)، ... (١).

٤- (انكي الإله الذي يقرر المصائر،

تدخل للتنفيذ

فجمع مياه جميع المناطق

ووزع مواضع الأماكن القابلة للسكن!

جلب بيديه المياه المحيية

التي سوف تنتج البذور الفائقة الخصوبة

جلب معه دجلة والفرات

وجعل المياه ترفدهما من كل صوب

نظف أقل الأتنية أهمية

وحتى إنه حفر مجاري الري!

نشر أنكي المبجل الحظائر والزرائب

معيناً لها الرعاة والبقارين

أسس في البلاد، المدن والقرى

وجعل فيها الرؤوس - السوداء تتكاثر

ولرعايتهم، منحهم ملكاً

نصبه على رأسهم، كأمر لهم

وجعله يشع في كل مكان. مثل

نور لا ينطفئ ... (٢).

٥- (بعد أن أنزلت الملكية من السماء،

وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء،

أكمل رسوم العبادات والنواميس الإلهية المقدسة ...،

وأسس المدن الخمس في مواضع مطهرة ...،

١- نفس المصدر: ١٨٠.

٢- ديوان الأساطير - الكتاب الثاني، أدونيس: ٤٦.

وسماها بأسمائها وخصصها كمر اكز للطقوس والعبادات^(١).

النص الأخير يؤكد أنّ النواميس الإلهية (الجانب الثقافي والروحي لحضارة سومر) وتأسيس المدن (الجانب العمراني لحضارة سومر) لم يحصل إلا بعد نزول الملكية من السماء إلى الأرض، وقبل ذلك لم يكن شيء اسمه مدن وثقافة وتحضر. والملاحظ أنّ هذه الملكية السماوية "خليفة الله في أرضه" هي نفسها التي ورد ذكرها في نصوص السومريين بأنها مُنحت لرجال معينين بأسمائهم كجلجامش ودموزي وزيوسدرا^(٢).

وفي ذات الوقت الذي يتحدث فيه السومريون - بحسب نصوصهم - عن الأصل السماوي والإلهي لحضارتهم وعن رقي حضارة أسلافهم، تؤكد نصوصهم من جهة أخرى على أنّ الزمن السابق على أسلافهم (أي: الموغل في القدم) لم يكونوا يعرفون شيئاً ممّا كانوا هم وأسلافهم يعرفونه، الأمر الذي يؤكد أنّ ثقافتهم وحضارتهم حصلوا عليها بسبب تدخل السماء بشكل واضح جداً، وهذا نص يوضح ذلك:

(كذلك، فإنّ مخلوقات تلك الأزمنة الموغلة في القدم

لم يكونوا يعرفون أكل الخبز

ولا يعرفون تغطية أجسادهم بالكساء

كانوا يمشون ويعودون بكامل عريتهم

يتغذون بالأعشاب، كما يفعل الخرفان

ولا يرتادون سوى مياه المناقع)^(٣).

١- من ألواح سومر، كريم: ٢٥٤.

٢- يقول د. كريم: (وكان السومريون يعزون كل الفضل في الصفات الروحية السامية والفضائل الخلقية التي طوروها تدريجياً وبمشقة كبيرة، خلال قرون عديدة، من تجاربهم الاجتماعية والحضارية إلى الآلهة، فهي التي خططت لذلك بهذا الأسلوب وما كان على الإنسان إلا أن يخضع للأوامر الإلهية) السومريون: ١٦٤.

٣- ديوان الأساطير - الكتاب الثاني، أدونيس: ٥٠.

شفرة "ذوي الرؤوس السود":

هل يمكن أن يكشف وصف "ذوي الرؤوس السود" أصل السومريين، ويفتح بالتالي أفق الحل لما يعرف عند الباحثين المختصين بـ "المشكلة السومرية" التي شغلت بالهم منذ اكتشافهم لغة السومريين وتمكنهم من حل رموز خطها المسماري؟!

يقول د. طه باقر: (ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا والتساؤل لا يزال يثار عن هذه اللغة وعن القوم الذين تكلموا بها. فمن كان أولئك السومريون؟ هل كانوا أحد الأقوام الذين تحدرت من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التاريخ؟ أو أنهم جاؤوا بهجرة من خارج القطر في فترة ما في أواخر تلك العصور؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاؤوا، أي أين كان مهدهم ومتى جاؤوا إلى العراق؟ إنَّ هذا النوع من التساؤل يعرف لدى الباحثين في حضارة وادي الرافدين بالقضية السومرية، وهي قضية كثر البحث والنقاش حولها وما زالت أبعد ما تكون عن الحل، لا سيما في الوضع الذي تعرض فيه أي مهد السومريين وأصلهم، فهي على هذا الوجه قضية نعتقد فيها أنها لا يمكن أن تحل في المدى القريب)^(١).

ليس د. طه باقر وحده يعترف بعجزه عن الحل، بل الرأي الرسمي لدى الباحثين المختصين في علم السومريات يعترف بذلك أيضاً، وأنَّ كل ما هو مطروح في الساحة العلمية من أنَّ السومريين يعود أصلهم إلى الهند أو القوقاز أو إيران وغير ذلك من أقوال هو مجرد فرضيات وتخمينات عارية عن الدليل تماماً.

من جانب آخر، فإنَّ من يقرأ النصوص السومرية يجد وصف "ذوي الرؤوس السود" يتكرر فيها بكثرة، والمسألة - بعد هذا - بحاجة إلى تحليل حتماً. لكن هذه القضية شكلت هي الأخرى لغزاً بالنسبة للآثاريين لم يتمكنوا من حلّه أيضاً!

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر: ٧٤.

السيد أحمد الحسن من جهته، تمكّن من حل القضيتين معاً بشكل تلتقي عنده النصوص الدينية والسومرية والمعطيات العلمية، يقول في بيانه لقصة الخلق عند السومريين:

(البداية كانت لما اكتمل خلق الإنسان العاقل أو الهومو سابينس وهو كان أسود البشرة وجاء من أفريقيا إلى الوادي الخصب وهو يمثل بداية قصة آدم والاستخلاف، والذي يمثل الأصل الذي يرجع له السومريون، ولهذا فمن الطبيعي أن يعبر السومريون عن أسلافهم بعبارة ذوي الرؤوس السود:

"وبعد أن خلق أن وانليل وانكي وننخرساج، القوم ذوي الرؤوس السود".

وهذه العبارة التي تتكرر دائماً في النصوص السومرية كانت غير واضحة لمنقبي الآثار، وكانت تمثل لغزاً غير مفسّر؛ فلماذا يطلق السومريون على أسلافهم هذا الاسم "ذوي الرؤوس السوداء"؟ والآن قد تبينّت بوضوح، فالسبب هو أنّ الأسلاف جاءوا من أفريقيا ولون بشرة رؤوسهم أسود.

الخطوة الثانية في قصة الخلق السومرية هي الاستخلاف الإلهي لخليفة إنساني في الأرض:

"بعد أن أنزلت الملكية من السماء،

وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء،

أكمل رسوم العبادات والنواميس الالهية المقدسة".

وهي - كما هو واضح في النص السومري - تمثل قصة استخلاف آدم عليه السلام أو خليفة الله - الإنساني - الأول في الأرض التي وردت في الأديان الإلهية، فالملكية نزلت من السماء أي تم تنصيب خليفة لله في الأرض (... انتهى^(١).

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٤٠٥.

أما مسألة اصطفاء آدم وكونه الخليفة الإلهي الأول في الأرض فهذا أمر تقرّه الأديان جميعاً، وأما موطن الإنسان العاقل "الهوموسابينس" كان أفريقيا قبل أن يتركها ويهاجر إلى الوادي الخصب في عشرات آلاف السنين الأخيرة من تاريخ الأرض فهو أمر تقرّه معطيات العلم الحديث، وقد تقدم عرض بعض الدراسات العلمية التي أكدت ذلك. تبقى مسألة استيطان السومريين الأوائل جنوب العراق، وهذا أمر حدث بعد الفيضان الكبير الذي أدّى إلى امتلاء الوادي الخصب بمياه البحر مكوّناً (الخليج الحالي)، عندما تمكّن نبي الله نوح (نوسودرا) من النجاة بمن كان معه والنزوح إلى جنوب العراق والاستقرار هناك كما تقدم ذكره.

يقول السيد أحمد الحسن: (وعموماً، يمكننا اعتبار سكان هذا الوادي (الخليج الحالي) أصحاب أول حضارة إنسانية على وجه الأرض، وهم من بدأوا بتكوين القرى السومرية أو الأكادية في جنوب العراق التي سبقت الحضارة السومرية الأكادية التي وصلتنا، ولهذا يمكن أن نقول عنهم: إنهم السومريون الأوائل، أو هم أولئك الأجداد الذين نقرأ للسومريين كتاباتهم في الرقم الطينية وهم يفتخرون بهم وبحضارتهم وقيمهم الأخلاقية العليا) انتهى^(١).

موقف العلماء من نتائج سومر:

بالرغم من شدة الانبهار الذي أبداه علماء الآثار والسومريات تحديداً بالنتائج الحضارية الذي قدّمته سومر؛ الحضارة الضاربة في القدم والتقدم على حد سواء، إلا أنهم لم يتوانوا في وصف جوانب مهمة من عطاءهم الثقافي والروحي بالأساطير والطرف التي نسجتهم مخيلتهم البكر الواسعة ولا شيء واقعي يقف وراء ذلك!

سهام الظلم الموجهة للسومريين من قبل الآثاريين وخصوصاً الملحدين منهم لم تكن هي الوحيدة، بل اصطف لها آراء رجال الدين، فهي الأخرى ساهمت بظلم السومريين ووصفت جانباً مهماً – إن لم يكن الأهم – من حضارتهم ونصوصهم بالأساطير والخرافات. مع أنه كان عليهم، لا أقل، أن يعرفوا أنّ الديانات الإبراهيمية الثلاث

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ١١٧.

"اليهودية والمسيحية والإسلام" ترجع كلها بالأصل إلى إبراهيم عليه السلام وهو من سومر كما لا يخفى.

موقف علماء الآثار:

لم يخف كبير علم السومريات إعجابه بنتاج سومر^(١)، وإعجابه يكاد لا يخالفه فيه جميع الباحثين في السومريات وحضارة وادي الرافدين القديمة، خصوصاً وأنهم يقرّون له الريادة في هذا الميدان المعرفي، لهذا نجد أنّ مصطلح "أساطير" تصدر عناوين أغلب البحوث والمؤلفات في الحضارة السومرية. والأسطورة - كما قيل في تعريفها^(٢) - حكاية مقدسة أبطالها الآلهة مصاغة بنص أدبي، ويتلخّص فرقها عن الخرافة والحكاية الشعبية بأن الأخيرتين غير مقدستين ولا تلعب الآلهة دوراً فيها^(٣).

وكأنّ قدر الإنسان السومري يسير مضطراً بين أمرين لا ثالث لهما، والأمران أحلاهما مرّ كما يقال: إما البقاء في متاهة الجهل أو أن بأسره خياله فيسمح له بنسج الأساطير عن كل شيء؟! وإذا كان ما جادت به سومر (في الجانب الروحي والثقافي) من نسج الذهن والخيال ولا واقع حقيقي وراءه، فلم لم يبق "إنسان الأساطير" هذا أسيراً لجيناته الأنانية وينسج ما يلائمها فقط، ومن ثمّ لا يُتوقع منه ربما أكثر مما جاد به إنسان الكهوف

١- يقول د. كريم: (أنتج السومريون أدباً يتسم بالضخامة وسرعة التطور ويتميز بالكثير من الخصائص الشعرية، ويتألف من الملاحم والأساطير والتراتيل والمراثي والأمثال والحكم، وتعتبر هذه التأليف نتاجاً أدبياً له مكانة مرموقة بين ما ابتدعه الإنسان المتمدن من نتاج ذهني، وليس من العسير مقارنتها بالطرف الأدبية الإغريقية والعبرانية القديمة، وهي كذلك الطرف تعكس الحياة الروحية والثقافية لحضارة أخرى عرف عنها الشيء القليل، ومن الصعوبة جداً القول بأن إبراز أهمية هذه التأليف بالنسبة للتطور الروحي والثقافي في الشرق الأدنى يعتبر مغالاة في التقدير) الأساطير السومرية، كريم: ١٩ - ٢٠.

٢- انظر: مغامرة العقل الأولى، فراس السواح: ١٩ - ٢١.

٣- (إنّ الأساطير لها أهميتها الكبيرة في دراسة تاريخ الفكر الإنساني، فحين كان المجتمع البشري يقطع المراحل الأولى من طريق تطوره الصاعد، لم يكن الإنسان يملك من أدوات البحث ووسائل التفكير ما يعينه على النفاذ إلى أعماق الوجود واستخلاص الحقائق الموضوعية منه، فكانت الأسطورة وسيلته إلى ذلك، ولهذا نستطيع القول بأنّ الأساطير هي أول محاولة في تاريخ الفكر الإنساني لوضع مفاهيم فلسفية تهدف إلى إنقاذ الإنسان من متاهات الجهل بأسرار الطبيعة وظواهرها) الأساطير السومرية: ١٣، مقدمة المترجم: يوسف داود عبد القادر.

والمغارات! لِمَ تمرد الإنسان السومري على جيناته وسمح لخياله أن ينسج مفاهيم تتصل بالأخلاق والإيثار والخلود والعدل وإنصاف المظلوم وما شابه؟!

أقل ما يقال عن مثل هذا الطرح الذي أتخمت به بحوث الأثاريين وتراه أمامك أينما صرفت وجهك أنه غير منصف تماماً كما أنه غير منطقي ولا علمي بالمرة.

موقف رجال الدين:

على مستوى رجال الدين، فالأمر أسوأ بكثير؛ ذلك أنّ موقف الأثاري السليبي والمتطرف من نتاج سومر لا يشكّل في النهاية أكثر من مجانية الحياد والإنصاف والموضوعية العلمية التي يفترض أن يتحلّى بها في آرائه، لكن آراء ومواقف رجال الدين لما كان سلبياً من جهة، ومن جهة أخرى: لم يعد خافياً مدى التشابه الكبير بين مضامين النصوص السومرية ونصوص الأديان السماوية الثلاثة اللاحقة، فإنّ وصفهم للنتاج الثقافي والروحي السومري بالأسطوري والخرافي انعكس سلباً على الدين الإلهي عموماً، ما شكّل طعنة في خاصرة الدين استغلها الملحدون لضرب الدين الإلهي واعتباره مجرد أساطير وخرافات أنتجتّها ذهنية بدائية أرضية!

فعلى مستوى المسيحيين، تصدّى بعض علماء الكنيسة للرد على أوجه الشبه بين نصوص الكتاب المقدس والنصوص السومرية التي شخّصها الكثير منها علماء السومريات، وأكثر "حلمي القمص يعقوب" من ذكر مصطلح "أساطير، خرافات خزعبلات" في وصف النصوص السومرية^(١).

١- انظر: "كتاب النقد الكتابي: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها" ص ٢٧٢ - ٣٠٦. متاح على:

<https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/index&b.html>

ونفس الشيء تراه وأنت تقرأ بعض الأجوبة المحسوبة على علماء مسلمين^(١).
وكمثال: هذا جواب مركز ديني على سؤال بخصوص ذكر الأنبياء في البحوث الأثرية:

١- انظر مثلاً هذا السؤال الموجه لمركز الأبحاث العقائدية التابع لمرجعية السيد السيستاني حول "ملحمة جلجامش" أحد أهم النصوص السومرية، أنقله كما هو منشور في موقعهم الرسمي:

[علي عبد الحسين / العراق]

السؤال: ملحمة كلكامش

قبل مدة من الزمن دارين وبين بعض الملحدّين حول اصل الدين واجابوني بان اصل الدين هو من تراث الحضارة السومرية لاحتواء اسطورة كلكامش على مواضيع الخلق وغيرها المشابهة لقصة الخلق في الدين الإسلامي، وهذا يعني ان الدين الاسلامي استقى افكاره من الحضارة السومرية وغيرها من الحضارات للسبب أعلاه، وبذلك ثبت لديهم ان ديننا الاسلامي مجرد اسطورة.

الجواب:

الأخ علي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اسطورة كلكامش (كما يدل عليها اسمها) مجرد ملحمة قصصية ورد فيها تصورات بدائي عن نشأة الكون وهي تستند على تعدد الالهة ولا علاقة لها بالتوحيد الذي جاء به الاديان ولا تتضمن شريعة الهية لتنظيم شؤون الناس بل ارهاصات لنظام قائم على سلطة الحاكم الذي يستمد شرعيته من الالهة المتعددة.

اما الاسلام بل سائر الاديان السماوية فهي اديان توحيدية لها شرائع محكمة ووصايا الانبياء باعتبارهم مبعوثين من قبل الله تعالى لهداية البشر و انفاذهم من الشرك وعبادة الاوثان وطاعة الكبراء من الحكام والطغاة وغيرهم فهي تعاكس الاسطورة اذن على طول الخط.

ودمت في رعاية الله.

متاح على: <http://www.aqaed.com/faq/٨٣٠٣>

و أيضاً: هذا جوابهم على سؤال بخصوص مواكب العزاء على (تموز) في بلاد ما بين النهرين قديماً ومشابهتها لمواكب العزاء الذي يقيمها العراقيون على الحسين بن علي (عليه السلام):

[..... والسؤال الذي يتبادر الى الذهن: هل هي صدفة ان يكون هناك تشابه، مع الفارق بين الغاية والهدف، بين انطلاق مواكب العزاء الحسيني يوم عاشوراء من أطراف المدن وبخاصة كربلاء لتذهب الى المساجد والحسينيات والمرقد المقدسة لاستذكار يوم عاشوراء، وبين ما كان يجري في سومرواكد من مواكب واحتفالات باستذكار عودة تموز من العالم السفلي!!!]

الجواب: ولذلك لا نستبعد أن يكون أسطورة تموز محاكاة قصصية لفكرة المخلص (البطل). كما لا نستبعد أن تكون الأسطورة مبتنية على ما ورد بشأن المخلص في الكتب والصحف الدينية القديمة.

[علي جون / العراق]

السؤال: لماذا لا توجد في الابحاث الأثرية اثباتات على وجود الأنبياء؟ لماذا لا توجد في الابحاث الأثرية الغربية والشرقية التي تمت في بلادنا اي اثباتات على وجود الانبياء او ذكر لهم، وان كان لهم ذكر فهل تقدمون لنا (فضلا لا امرا) نماذج مفصلة.

الجواب:

الأخ علي جون المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا ندري ماذا تعني بالاثباتات الأثرية، فهل أنك على سبيل المثال تريد من علماء الآثار والمتحجرات أن يجدوا في مخلفات الحضارات المنقرضة قبوراً للأنبياء أو أدوات كانت تستعمل من قبلهم في حياتهم اليومية؟ ألا يكفيك ما وصل إلينا عبر آلاف السنين من صحف وكتب الانبياء؟ ألا يكفي ما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم؟ ثم أليست قبور بعض الأنبياء والأولياء والصالحين ومحاريهم موجودة إلى الآن والناس يقصدونهم للزيارة والتبرك؟ هل تطالب علماء الآثار أن يعثروا مثلاً على متحجرات وهياكل عظمية للأنبياء عليهم السلام حتى يصدق أنهم كانوا موجودين مثلما (تدّعي) الأديان والكتب السماوية؟

لقد عثر العلماء على بقايا من الحضارات التي كان يعاصرها الانبياء كحضارة بابل وحضارة مصر وغيرهما، وهذا هو كل ما يستطيع علماء الآثار من الحصول عليه، فليس

ولكن في النهاية أي علاقة بين مراسم عاشوراء وبين تفسيرات علماء الآثار واحتمالاتهم ومقارناتهم لأعياد تموز وعشتار، فان مراسم عاشوراء مرتبطة بواقعة قطعية ثابتة في التأريخ الإسلامي والاعباد البابلية لا تعدو أصولها عن تفسيرات اسطورية لحد الآن، وبعد كل هذا لابد من إثبات استمرار هذه الأعياد من زمن بابل إلى الزمن الإسلامي مروراً بدولة الأكاسرة ودون هذا خرط القتاد].

متاح على: <http://www.aqaed.com/faq/٥٥٠٧>

وحقيقة، لا أعرف عن أي قتاد وخرط تتحدث عنه الإجابة؟!

من تخصصهم البحث عن الاشخاص بما هم اشخاص وإنما هم يبحثون عن مخلفات الأمم والحضارات.

ودمتهم في رعاية الله^(١).

أعتقد أنّ السؤال كان أكبر من الإجابة بكثير، فالسائل كما يبدو غير مطلع على نتائج الأبحاث العلمية الأثرية التي أجريت في العراق والتي ذكرت بعض أنبياء سومر كنبى الله نوح عليه السلام صاحب الطوفان، فطلب من مركز علمي يمثل جهة دينية مختصة، يفترض أن تكون على صلة بخط الأنبياء، أن ترشده إلى نماذج مفصلة - حسب قوله - توضح وجود الأنبياء وأثرهم بين الناس في بلد كالعراق الذي يوصف بأنه بلد الأنبياء ومهد الرسالات السماوية، ولا يريد السائل إرشاده إلى قبورهم أو هياكلهم العظمية كما ورد في الجواب التهمكي الذي كشف عن جهل المجيب بصورة كبيرة!

أقول: لعل السائل يجد ضالته هنا، وسيرى بوضوح أنّ الحضارة الإنسانية الأولى على هذه الأرض، التي أدهش تقدمها الإنسان الحالي وهو في قمة تقدّمه العلمي والتكنولوجي، ما كانت لتكون لولا رسل الله. علماً أنّ رجال الدين بموقفهم هذا قد فتحوا الباب على مصراعيه أمام الملحدين للطعن بالدين الإلهي واعتبار أصله أسطورياً خرافياً نسجه خيال الإنسان السومري البدائي بعد التطابق الكبير في كثير من الأصول بين ما لدى السومريين وبين الموجود في الأديان الإبراهيمية!

وبالنسبة للملحدين، أقول: التشابه الموجود بين نصوص سومر وبين نصوص تضمنتها رسالة موسى أو عيسى أو محمد صلوات الله عليهم لا يعني أنّ دين السومريين أسطوري ذو منشأ أرضي ومن تأليف الإنسان، بل يعني أنّ الدين الإلهي واحد ومنشأه واحد، وينحصر الكلام مع الملحدين - بعد هذا - في إثبات وجود الله لا غير، على أننا نعتبر مثل ذلك التشابه أمراً حتمياً كما أشرنا سابقاً، نفتخر به ويزيدنا يقيناً برسالة السماء التي صاحبت الإنسانية المتحضرة منذ لحظتها الأولى على هذه الأرض؛ التحضر الذي ما قدر له التواجد على مسرح حياة البشر لولا رسالة السماء، وقد أكد ذلك السومريون

١ - متاح على: <http://www.aqaed.com/faq/٨٨٠٢>

أنفسهم في نصوصهم كما لاحظنا، بل ويحدونا - ذلك التشابه - لأن ننحني إجلالاً أمام العطاء الكبير الذي جاد به رسل الله الأوائل في رحلتهم التربوية والتعليمية مع إنسان سومر وأسلافهم "السومريين الأوائل".

وليس هذا فحسب، بل إنَّ الباحث المنصف في مفردات النهضة الحضارية التي شهدها سومر وخصوصاً في جانبها الثقافي الروحي والأخلاقي، ليس بوسعه إلا أن يعتبرها دليلاً على إثبات وجود الله، وهذا بالضبط ما انتهى إليه السيد أحمد الحسن بعد بحثه في نتاج سومر الحضاري والثقافي:

يقول: (الآن، يحق لنا أن نقول: إنه لا يوجد عاقل يقول إنَّ كل هذا النتاج المتقدم الذي ظهر في صفحة التاريخ بوضوح قبل آلاف السنين جاء من لا شيء، أو تطور عن ثقافة متخلفة بدائية مع أنه لا يوجد أي أثر لسلسلة التطور الثقافي المزعوم، ... الآن، يحق لنا أن نتساءل: ألا يدل هذا النتاج على أنَّ هذا الكائن الذي أنتجه أو جاء به يتصف بأنه منظم وبالتالي فإنَّ مؤثره يتصف بأنه مُنظَّم وعالم، وبهذا يثبت وجود الله، أظن أنَّ أي عاقل لا يجيد العناد واللجاج سيقول: نعم) انتهى^(١).

كم هو الفرق كبير، بل وكبير جداً، بين من يفتح الباب أمام منظري الإلحاد للطعن في الدين وإنكار وجود الله من خلال حكمه على أهم ما في نتاج سومر بالأسطورة والخرافة، وبين من يجعل من نتاج سومر دليلاً على إثبات وجود الله؟!

أنبياء سومر:

تأكيداً لدخول الدين والعلم الإلهي على خط الحضارة الإنسانية الأولى، فإنَّ الحقائق والمعطيات الدينية والعلمية أكدت بوضوح وجود أنبياء الله بين السومريين وأسلافهم، ولم يكن حضورهم مجرد تواجد عادي بين الناس وإنما كان حضوراً فعالاً

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٤٥.

بحيث كان لهم موقع الريادة والقيادة والتعليم والتقديس بين أقوامهم. هذا ما تكشفه النصوص السومرية الأثرية، وأما النصوص الدينية فالأمر فيها واضح دون أدنى شك.

إدريس ونوح بين ملوك سومر:

بعض الباحثين^(١) أجرى مقارنة لإثبات وحدة الشخصية بين أنبياء الله الأوائل (آدم عليه السلام ومن تلاه) المذكورين في النصوص الدينية، وبين ملوك سومر وأسلافهم قبل الطوفان المذكورين في النصوص السومرية. وكحد أدنى يمكننا التركيز على سابع وعاشر الملوك المذكورين، فإن في قصيتهما وأعمالهما شبيهاً تاماً بنبي الله إدريس ونوح عليهما السلام.

يقول شارل فيروللو عن سابع الملوك المعلمين قبل الطوفان: (وهذا الملك الذي أودعته الآلهة العلم كان - كما مر - السابع من دولة ما قبل الطوفان. فهو يطابق حسب الترتيب الوراثي إلى "أخنوخ" "إدريس" الذي يشغل المرتبة السابعة من سلسلة آدم - سلسلة الأنبياء ما قبل الطوفان - ومن الملحوظ أنه لا يوجد أي اشتراك بين الاسمين مع أن أعمالهما واحدة تماماً. والحق يقال، إن النص التوراتي المتعلق بسابع الأنبياء "أخنوخ" موجز جداً قال: "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه". وقد أصبح أخنوخ بطل حلقة من الأساطير جعلته مخترع الكتابة ومؤلف أول كتاب وموجد علم الكواكب والسيارات: علم الفلك وكل الفلكيات. فهو يبدو وكأنه "فيدورانكي". ونستطيع أن نتقبل بارتياح بأن أسطورة اليهود هذه ليست إلا نقلاً أو توسعاً للأسطورة الكلدانية التي هي أقدم. وبين بقية الملوك والأنبياء - أسلاف "إيفيدورانكي" و"أخنوخ" الستة وخلفائهم الثلاثة - صفات مشتركة، ولا يهمننا إلا الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان)^(٢).

١- كالبروفسور شارل فيروللو (باحث فرنسي في علم اللغات القديم: ١٨٧٩ - ١٩٦٨ م) في كتابه "أساطير بابل وكنعان"، والدكتور خزعل الماجدي في كتابه "أنبياء سومريون".

٢- أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو: ٢٥ - ٢٦.

الشخصية العاشرة التي عايشة الطوفان من ولد آدم عليه السلام هي نوح عليه السلام^(١)، كما أكد د. كريم ذلك أيضاً^(٢).

(الملك "زيوسدرا"،
سجد أمام "آن" و"انليل"،
واصطفى "آن" و"انليل" زيوسدرا،
ووهبها الحياة مثل إله.
لقد أدخل فيه النفس الخالد مثل إله،
"زيوسدرا"،
الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر، ...) (٣).

"الملك الذي حافظ على الزرع وصان ذرية البشر": باعتبار أن نوحاً عليه السلام أنقذ بعض الناس من الهلاك وحمل معه في سفينته البذور المهمة التي يحتاجها الإنسان في معيشتة، فصار سبباً في استمرار حياة الإنسان، لهذا عُدَّ أبو البشرية الثاني بعد آدم عليه السلام.

وأيضاً: عمد البعض^(٤) إلى إجراء مقارنة لاسم آخر الملوك السومريين قبل الطوفان بحسب ملحمتي "أتراحاسس" و"جلجامش"، والنتيجة التي انتهت لها أن آخر الملوك هو اتراحاسس (واجد، كثير الحكمة)، وبحسب ملحمة جلجامش هو أوتونبشتم (واجد الحياة، الخلود)، والمرادف له بالسومري زيوسدرا (ذو الحياة الطويلة، الخالدة).

١- عرضنا في البحوث السابقة أن وصف نوح عليه السلام بالعاشر من ولد آدم عليه السلام ورد في نصوص دينية نطق بها آل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم، وبيننا هناك أن المقصود هو عاشر الرسل المهمين وليس العاشر على وجه الدقة.

٢- يقول: (ثم يأتي خبر "زيوسدرا" وهو نظير نوح التوراة، وقد وصف في الأسطورة بكونه ملكاً صالحاً تقياً يخشى الآلهة. وكان يتلهف شوقاً إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية ...) من ألواح سومر، كريم: ٢٥٤ - ٢٥٥.

٣- نفس المصدر: ٢٥٨.

٤- انظر: أنبياء سومريون، خزعل الماجدي: ٨٥ - ٨٦.

صفة "الحياة الطويلة" التي منحت لـ (زيوسدرا السومري = اوتونبشتم البابلي) هي نفسها الممنوحة لنبي الله نوح عليه السلام في نصوص الكتب المقدسة لاحقاً، لذا كانت "وحدة الشخصية" كنتيجة انتهى لها البروفسوران كريموفيروللو وغيرهما من الباحثين تعد مؤكدة ولا غبار عليها؛ خصوصاً لمن لديه اطلاع بنصوص الأديان والنصوص السومرية.

وبالنسبة لأنبياء الله الذين كانوا في سومر بعد الطوفان، فيمكن الإشارة أيضاً إلى إبراهيم عليه السلام، إذ كان موطنه مدينة "أور" السومرية^(١).

إذا اتضح هذا، فليس غريباً أن يكون هناك تشابه - بل وتطابق أحياناً - بين بعض ما ورد في النصوص السومرية وبين ما هو موجود لدى الأديان الإلهية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، فهي جميعها إبراهيمية، كما في قصة آدم وحواء وقابيل وهابيل وطوفان نوح والخطيئة وجنة عدن وقصة نبي الله أيوب وقصة المنقذ والمخلص وغير ذلك، بل اعتبر البعض - محقاً - أنَّ ما كان عند السومريين يمكن اعتباره الأصل الذي ترجع له جميع الديانات السماوية اللاحقة. بل ولا يمكن أن يكون غير هذا، فما تحدث به آدم وإدريس ونوح وإبراهيم عليهم السلام وبتّوه بين أقوامهم (السومريين وأسلافهم) هو نفس ما سيتحدث به لاحقاً موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم بكل تأكيد؛ لأنهم جميعاً أنبياء الله وينهلون من مصدر واحد. وأنَّ الكثير من القصص والملامح السومرية ما هي إلا عبارة عن إخبارات غيبية تتحقق مستقبلاً.

١- انظر: أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو: ١٩.

يقول د. كريم: (إنَّ أغلب الباحثين يتفقون على أنه بينما تحتوي قصة إبراهيم كما وردت في التوراة على الكثير مما هو أسطوري وخيالي، فإنها تحتوي أيضاً على بذرة مهمة من الحقيقة بما في ذلك ولادة إبراهيم في مدينة "أور" الكلدانية، التي ربما كانت حوالي ١٧٠٠ ق.م. وأخبار حياته مع عائلته هناك. وكانت "أور" إحدى أهم المدن السومرية القديمة. بل كانت في الواقع عاصمة بلاد سومر في ثلاثة عهود مختلفة في تاريخ بلاد سومر. ... ومن الجائز جداً أن يكون لإبراهيم وأبائه صلة ما مع الإنتاج الأدبي السومري الذي كان يستنسخ أو يبتدع في مدرسة مدينتهم. وليس من المستحيل أبداً أن يكون هو وأفراد عائلته قد جلبوا معهم بعضاً من التقاليد والمعرفة السومرية إلى فلسطين) السومريون: ٤١٩.

يقول السيد أحمد الحسن: (... من المؤكد آثارياً وتاريخياً ودينياً أنّ نوحاً وإبراهيم عليهما السلام منهن، فهم أصل الدين، ومنهن بدأ الدين في أول الزمان، ومنهن يبدأ في آخر الزمان) انتهى^(١).

نعم، قد يكون التحريف طال بعض النصوص والمعتقدات السومرية، بل هذا هو الأكيد خصوصاً في مثل حالة السومريين نتيجة تباعد الزمان بينهم وبين سلفهم الذين كانوا يتداولون القصص والتعاليم - التي بثها الرسل - شفاهة ولم تكن الكتابة قد اكتشفت بعد، ولما اكتشفت دونت تلك التعاليم بعد مضي سنين طويلة عليها، ولكن هذا لا يعني أنّ التحريف طال كل شيء وأنّ تراثهم خالٍ من الحقيقة.

ثبت الملوك السومريين:

ثبت الملوك السومريين، الذي يستند إليه الباحثون في تشخيص أسماء ملوك سومر قبل الطوفان وفترة حكمهم، يحدد سني حكم الملوك بفترات طويلة جداً، فمثلاً بحسب القائمة التي ترجمها "ثوركيلد ياكوبسون"^(٢) يأتي (ألوليم - a lu lim = آدم عليه السلام في النصوص الدينية) في أول قائمة الملوك الذين حكموا بعد نزول الملوكية من السماء وكانت مدة حكمه ٢٨,٨٠٠ سنة. ثم حكم بعده (أللكار - a lan gar) وكانت مدة حكمه ٣٦,٠٠٠ سنة، وبحسب ترجمة "هربرت بلونديل"^(٣) فإنّ (زيوسودرا - Zi u sud ra = نوح عليه السلام في النصوص الدينية) حكم ٣٦,٠٠٠ سنة وهكذا^(٤)، الأمر الذي شكّل بنظر الباحثين مشكلة تستدعي علاجاً^(٥).

١- مراسي مختارة في موائن سومروأكاد، أحمد الحسن: ٩.

٢- ثوركيلد ياكوبسون (١٩٠٤ - ١٩٩٣ م)، مؤرخ دانيماركي مشهور في الأدب الآشوري والسومري.

٣- هربرت جوزيف بلونديل (١٨٥٢ - ١٩٣٥ م)، عالم آثار بريطاني.

٤- انظر: أنبياء سومريون، خزعل الماجدي: ٧٥، ٨٠.

٥- يقول بلونديل: (حقاً، إنّ هذه الوثيقة الفريدة خليط في الواقع بين الحقيقة والخيال، وغالباً ما يكون من الصعب الجزم متى تبدأ الحقيقة وينتهي الخيال، ... أضف إلى ذلك ما كان يُعطى من مدد حكم ذات ديمومة أسطورية وغير مقبولة بالنسبة لعدد كبير من السلالات الأولى ...) السومريون، كريم: ٤٨.

من هنا، اقترح الباحثون عدة حلول؛ منها أنَّ السومريين: (بالغوا في تقدير سني حكم بعض الملوك بسبب ألوهيتهم أو لأنهم ذو علاقة بالأساطير الدينية، أو لأنهم كانوا يسمّون اليوم سنة، وبعدها سمّوا الأسبوع سنة، ومن ثم الشهر سنة)^(١).

الملفت في الموضوع أنَّ سني الحكم التي يمنحها ثبت الملوك السومري لبعض الملوك يكاد يلتقي مع بعض النصوص الدينية اللاحقة التي منحت لبعض الأنبياء كآدم ونوح عليهما السلام أعماراً طويلة لا تنسجم مع عمر الإنسان الجيني على هذه الأرض، كقوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" العنكبوت: ١٤، ومن ثم أسرع الملحدون للإشكال على القرآن والدين الإلهي عموماً!

السيد أحمد الحسن طرح إشكال الملحدين هذا وأجاب عليه، وقد سبق أن عرضناه في خاتمة رسالة نوح عليه السلام، وفكرة الجواب (التي انطلقت بالأساس من اعتبار أنَّ التحديد كان بلحاظ قياسات المراقب الخارجي "المأ الأعلى كالملائكة مثلاً"، وهي بالتأكيد تختلف عن قياسات عالمنا الأرضي) يمكننا تطبيقها على ما ورد في ثبت الملوك السومري أيضاً، فلغة النص الديني (الذي يكون المراقب فيه خارج المنظومة) تختلف نظرتها عن مقاسات عالمنا الجسماني كما عرفنا. وبخصوص صلة "الثبت" بالدين الإلهي فيكفي أنه يشير إلى أول ملك إنساني نصّبه السماء على هذه الأرض، والذي يلتقي مع آدم عليه السلام كأول خليفة لله في أرضه، ويشير كذلك إلى حفيده زيوسودرا - نوح عليه السلام كقدر متيقن وفق رأي أغلب الباحثين والمختصين.

وبذلك يتضح أنَّ تسرع بعض الباحثين لربط كل ما لا يستطيع فهمه أو إدراكه من نصوص سومر (كالتحديد الزمني الكبير في الثبت في حالتنا) بالأساطير والخرافة مجرد جهل وسوء فهم منه لا أكثر!

١- انظر: مختصر تاريخ العراق - العصر السومري، علي شحيلات وعبد العزيز الحمداني: ٢٠٠٢.

دين سومر:

السومريون شعب متدين بامتياز وهذا واضح لمن طالع نصوصهم، بل وعندهم الدين الإلهي كله كما سنعرف الآن. نعم، يمكن القول إنه دين إلهي طاله التحريف بتقادم الزمن، لكن ليس صحيحاً اعتبار الديانة السومرية ديانة أرضية بدائية متخلفة بسبب كثرة الآلهة فيها؛ لأنها كما يقول السيد أحمد الحسن:

(... الديانة السومرية لا تختلف عن الديانات التي أتت بعدها إن لم نقل إن الديانات الإنسانية بعدها مبنية على أساس الديانة السومرية، أما الآلهة الكثر كما يسميهم السومريون أحياناً فتجدهم في القصص والملاحم والرقم الطينية السومرية يتصفون بأنهم بشر أو ملوك حكماء، فهم يتزوجون ويلدون ويقتلون ويظلمون ويبكي عليهم الناس، أو أنهم عبارة عن رموز...) انتهى^(١).

سنتعرف الآن على بعض المفاهيم الدينية والروحية والأخلاقية الراقية التي توافر عليها دين سومر، ولولم يكن الأمر كذلك لما كان هو الملهم لبقية شعوب الشرق آنذاك، بل وترك أثره العميق فيهم بشكل كبير^(٢).

الإنسان السومري لا يكاد يفارقه معتقده الديني حتى في أبسط أموره، فلم يزل الفلاح السومري على سبيل المثال - لأجل زيادة محصوله - يقدم الدعاء والصلاة لربه بمجرد رمي بذوره في الأرض^(٣).

وهذه بعض الإشارات التي تؤكد أهمية الدين لدى السومريين:

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٤٤.

٢- يقول د. كريم: (طوّر السومريون المفاهيم الدينية والروحية كما دمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى بضمهم العبرانيين والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن الحديث عن طريق الأديان السماوية) الأساطير السومرية: ١٩.

٣- (في اليوم الذي تشق فيه البذور الأرض يلزم الفلاح أن يقدم الصلاة إلى الآلهة) من ألواح سومر، كريم: ١٣٩.

١- كثرة الألواح والرقم الطينية المكتشفة الخاصة بالعقيدة والدين عموماً قياساً بغيرها؛ خصوصاً إذا ما اعتبرنا - كما هو الصحيح - أنَّ الملاحم والقصص السومرية فيها الكثير من الإخبارات الدينية الغيبية.

٢- لا شك عند العلماء والباحثين أنَّ أغلب مشاهد النحت السومري كانت دينية؛ الأمر الذي يشير - هو الآخر - إلى مكانة الدين في نفوس السومريين^(١).

٣- شرعية الحاكم في النظام السياسي السومري تستمد من السماء لا غير، فعلى سبيل المثال: يقول د. كريم عن الحكم في مدينة "كيش" السومرية: (هي المدينة التي تسلمت "الملوكية"، كما جاء في الأساطير السومرية، من السماء بعد الطوفان فوراً)^(٢).

٤- في اللوح الذي يؤرخ لأول قانون سومري مدوّن تم كشفه حتى الآن، لم يفارق "المعتقد" ذلك القانون حيث جاء فيه: (بعد أن خلق العالم، وبعد أن تقرر مصير بلاد "سومر" ومصير مدينة "أور"، عين الإلهان "آن" و"إنليل" الإله القمر "ننا" ملكاً على مدينة "أور". ثم اختار هذا الإله بدوره "أور- نمو" ليحكم بلاد سومر ومدينة "أور" بصفته نائباً عنه يمثل في الأرض)^(٣).

١- يقول لويد: (والحقيقة التي يجب أن نتذكرها مبدئياً هي أنَّ كل أشكال فن النحت السومري، سواء كانت على شكل تماثيل مستديرة أو لوحات ونقوش نافرة، كانت ذات صفة دينية) آثار بلاد الرافدين، سيتون لويد: ١٥٤.

٢- من ألواح سومر، كريم: ٨٣.

٣- نفس المصدر: ١١٩.

الألوهية وخلق الكون في الدين السومري:

خلق الكون والإنسان:

يلخّص د. فاضل عبد الواحد^(١) خلق الكون والإنسان عند السومريين بما يلي:

في البدء كانت مياه البحر فقط، ومنها تولّد جبل كوني يمثل السماء (آن) والأرض (كي). ثم نتيجة اتحادهما ولد إله الهواء "إنليل"، وهو الذي قام بفصلهما، وبعد أن تم الفصل وخلق الكواكب والنجوم ظهرت معالم الحياة على الأرض. وأما بخصوص الإنسان، فإنّ الآلهة خلقتة من "طين" من أجل أن يكّد ويكّدح لخدمتهم.

وهذا أحد النصوص السومرية في خلق الإنسان من طين:

(اجعل للآلهة خدماً. يصنعون

فتأمل انكي ملياً في الأمر، ثم دعا الصنّاع الإلهيين المهرة وقال لأمه نمو:

إن الكائنات التي ارتأيت خلقها، ستظهر للوجود

ولسوف نعلق عليها صورة الآلهة

امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق

وسيقوم الصنّاع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين)^(٢).

يقول ديلا بورت: (فسر السومروأكاديون أصل الإنسان بمختلف الوسائل في الأشعار الدينية والشعبية ولكنهم اتفقوا جميعاً على نقطة هامة هي أنّ المعبود صنعه من كتلة من الطين وأنه خلق من أجل خدمة الآلهة. وكان هذا الخلق يتم في صورة المعبود)^(٣).

والمتحصل في قصة الخلق السومرية بحسب النصوص: (إن الآلهة كانت تستطيع تنفيذ مشيئتها فتخلق الأشياء التي تريدها بوسيلتين: الأولى بصنع الشيء أي عمله حسب

١- انظر: من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي: ١٩٤ - ١٩٧.

٢- انظر: مغامرة العقل الأولى، فراس السواح: ٤٥ - ٤٦.

٣- بلاد ما بين النهرين، ديلا بورت: ١٥٩ - ١٦٠، ترجمة: محرم كمال.

رغبة الإله وعلى النحو الذي رأينا قبل قليل في عملية خلق الإنسان. والثانية بواسطة الأمر الإلهي أي بقوة الكلمة الإلهية التي من خلالها يأمر الإله الشيء أن "يكون" وعندئذ يكون الشيء حسب أمره^(١).

وكأنه يذكرنا بقوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" يس: ٨٢.

وكما نرى، فإنَّ معتقد السومريين في خلق الكون والإنسان - بحسب الأصل - يعتبر "الماء" أصل الوجود والخلق، وأنَّ السماء والأرض كانتا رتقاً ثم فصلتا، وأنَّ عملية الخلق تمت عبر وسائط، وأنَّ الإنسان خلق من طين على "صورة الله". وكم لهذا المعتقد من نظير في نصوص الديانات الإلهية المعروفة^(٢).

يقول السيد أحمد الحسن: (الخالق المباشر أو المصمم المباشر ليس اللاهوت المطلق بل هم روحانيين من مخلوقات الله، فالله خلق بأيدٍ كما بيّن بالقرآن: "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ"، وأيدي الله أي خلقه العاملون بإرادته، ...) انتهى^(٣).

ويبقى الفرق بين خلقه سبحانه وخلق غيره: أنَّ خلقه إيجاد من العدم (لا شيء)، وأما خلق غيره فهو إيجاد من شيء بإذنه سبحانه.

١- من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي: ١٩٧.

٢- منها على سبيل المثال: في سفر التكوين - اصحاح ١: (١) فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. ٢ وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمَيِّاءِ ٢٦ وَقَالَ اللَّهُ: «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشِبْهِنَا،» ٢٧ فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ).

(عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته، فقال هي: صورة، محدثة، مخلوقة واصطفاها الله اختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه ...) الكافي، الكليني: ١/ ١٣٤.

وفي القرآن الكريم: "أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" الأنبياء: ٣٠، "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ" الذاريات: ٤٧ - ٤٨، "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون: ١٤.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٢٣٠.

تعدد آلهة أم إله واحد؟

من أجل فهم عقيدة السومريين في اللاهوت أو إنصافهم لأقل، أجد من الضروري - كمقدمة - التعرض إلى بحث عقائدي ما انفك أن يكون موضع خلاف بين الديانات السماوية المعروفة بل حتى داخل الديانة الواحدة.

المسيحية الكنسية - على سبيل المثال - تعتقد بألوهية السيد المسيح المطلقة وتؤمن بالأقانيم الثلاثة: (الآب، الابن، روح القدس) مع الإيمان بأن الله واحد. والسلفيون (الوهابيون) يعتقدون بأن الله واحد أيضاً، لكن له وجه وعينان ويدان في كل منهما خمسة أصابع وله قدمان... الخ، كل ذلك على نحو الحقيقة!

المشكلة الكبيرة التي ابتلت بها الأديان الإلهية في بحث الألوهية - وغيره من بحوث الاعتقاد والدين عموماً - هي تشابه النصوص الدينية من جهة، ومن جهة أخرى: عدم أهلية المتصدين لتوضيحها وتفسيرها؛ لأنهم بالأصل ليسوا منصّبين لبيانها من قبل صاحب الدين = الله سبحانه.

والسؤال الأساس هنا: هل لفظ "إله" أو "الله" مختص بالله سبحانه أي هو لفظ جامد، أم يمكن أن يطلق على غيره مع قرينة أوقيد إضافي؟

أغلب علماء الدين يرون أنّ اللفظ جامد، وبالتالي لما يُطلق يراد به الإله المطلق سبحانه لا غير، ولذلك فهم الوهابيون أنّ لله يداً ووجهاً وعيناً ويذهب ويأتي وله صورة من أمثال النصوص التالية: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... وَلَنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي ... هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ... خلق الله آدم على صورته" (١). وفهم المسيحيون ألوهية عيسى من مثل: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ" (٢)، بعد اعتبار أنّ عيسى هو الكلمة.

١- مصادر النصوص كما يلي: سورة المائدة، آية ٦٤؛ سورة القصص، آية ٨٨؛ سورة طه، آية ٣٩؛ سورة البقرة، آية ٢١٠. حديث للرسول محمد صلى الله عليه وآله.

٢- إنجيل يوحنا: ١/١.

ولكن الصحيح أنّ لفظ "الله" مشتق، ويصح إطلاقه على غير الله سبحانه بقريضة صارفة أو قيد إضافي طالما توفر مصدر الاشتقاق، وهو ما أجاب به الإمام الصادق عليه السلام هشام بن الحكم لما سألته: (الله، مما هو مشتق؟ قال: يا هشام، الله مشتق من اله، واله يقتضي مألوهاً...) (١).

وعن السؤال أعلاه أجاب السيد أحمد الحسن: (نعم، يمكن أن يُطلق ولكن ما يمنع إطلاقه هو الاستعمال تماماً كما يمنع إطلاق الرحمن على غيره سبحانه وتعالى الاستعمال، ولكن هذا المنع يمكن أن يرتفع بوضع قيد أو وصف إضافي يميزه عند الإطلاق على غير الذات الإلهية كالقول: (الله في الخلق)، أي بمعنى صورة الله كما ورد في الحديث وبمعنى روح الله كما ورد في القرآن، أو كالقول: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"، أو كالقول: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ" انتهى (٢).

يترتب على هذا الفهم للألوهية: أنّ لفظ "إله" أو "الله" يصح إطلاقه (مع القيد طبعاً) على كل جهة تتصف بكمال ما يأله له الإنسان ليسد نقصه من خلاله، وما يميز ألوهيته سبحانه أنها ألوهية مطلقة وغناها ذاتي، في حين أنّ ألوهية غيره مقيدة ومفتقرة إليه في كل شيء.

يقول السيد أحمد الحسن: (إذن، فالألوهية بالمعنى العام – أي كونها تعني الكامل الذي يأله له غيره ليكمّله، ويسد نقصه – تشمل خاصة من خلقه سبحانه وتعالى حصل لهم الكمال في أعلى الدرجات الممكنة للخلق، وأمر الخلق مفوض إليهم بدرجة معينة) انتهى (٣).

١- الكافي، الكليني: ١/ ٨٧/ ٢.

٢- كتاب التوحيد، السيد أحمد الحسن: ١٣٨.

٣- كتاب التوحيد، السيد أحمد الحسن: ٤٠.

ثم بعد أن نقل بعض نصوص المسلمين التي تؤكد هذه الحقيقة، منها: ما ورد في الدعاء: "يا رب الأرباب وإله الآلهة"، و"توكلت على الإله الأكبر" ونحو ذلك، قال السيد أحمد الحسن:

(وقطعاً ليس المقصود الآلهة الباطلة التي لا حظ لها من الكمال أو من آله نفسه من الخلق بالباطل، بل المقصود هنا من اتصفوا بصفة اللاهوت أي إنهم على درجة عالية من الكمال فيآله لهم بقية الخلق ليسدوا نقصهم فهم صورة الله سبحانه، فاله الآلهة، والإله الأكبر تعني: أن هناك من اتصفوا بصفة اللاهوت من حيث إنهم على درجة من الكمال تؤهلهم أن يأله لهم بقية الخلق لطلب الكمال، ولكنه سبحانه لا يقرن بهم لأنه غني وهم فقراء محتاجون إليه سبحانه وتعالى) انتهى^(١).

ولو كان المسيحيون والسلفيون ملّمون بهذه الحقيقة لما انحرف المسيحيون إلى اعتبار مخلوق لله (وهو المسيح) لاهوتاً مطلقاً أو انحرف السلفيون للتجسيم، ولعرفوا أنّ "اليد والوجه والعين والإتيان والصورة والبدء أو البداية" التي قرنت بلفظ "الله" في النصوص المتقدمة هي قرائن واضحة تصرف اللفظ إلى الألوهية المقيدة أو قل "الله في الخلق" أي مخلوق لله متصف بأعلى درجات الكمال.

إذا اتضحت هذه المقدمة، أعود إلى مفهوم الألوهية عند السومريين، فإنهم – بحسب النصوص – يطلقون صفة "الإله" على كثيرين، وبالتالي فهناك تعدد على مستوى الآلهة. وهذه أسماء بعض آلهة سومر المهمة:

- أن An: إله السماء الرئيس وكبير الآلهة.

- كي Ki: إلهة الأرض.

- انكي An-ki: إله الماء.

- انليل Enlil: إله الهواء.

- أوتو Uto: إله الشمس.

- نانا Nana: إله القمر.

- اينانا Enana: إلهة الحب والقتال.
- الأنوناكي: اسم يطلق على جميع الآلهة.

يقول بورت: (كانت كل قوى الطبيعة وكل قوى الخير وعلى العموم كل الأجسام السماوية تؤله عند السومروأكاديين، وكان عدد المعبودات التي يلتمسونها كبيراً جداً، وكان لكل مدينة معبودها) ^(١).

وبالالتفات إلى ما أوضحناه في المقدمة، فإن مجرد التعدد في إطلاق لفظ "الإله" على جهات عديدة لا يعني أنّ الديانة السومرية ذات أصول وثنية وأرضية ولا تمت إلى السماء بصلة – كما استنتج الكثير من الباحثين ذلك في دراسته لعقيدتهم – بل لعله يدل على أنّ فكرة "الألوهية في الخلق" كانت حاضرة عندهم، إضافة إلى اعتقادهم بالإله المطلق، ولذلك كانوا يعتبرون مثل هذه الآلهة شبيهة بالإنسان شكلاً رغم أنها لا تُرى بالعين بنظرهم، وأنّ وظيفتها التدبير وفق الخطط والقوانين الصادرة من "الإله الواحد" والكبير الذي يشرف عليها وينظم أعمالها ^(٢).

وهذا خطاب وجهته مجموعة من الآلهة للإله مردوخ (عند البابليين) في حبرها مع تيامة:

١- بلاد ما بين النهرين، ديلا بورت: ١٤٣.

٢- يقول د. كريم: (تخبرنا الوثائق السومرية، أن اللاهوتيين السومريين اعتقدوا بوجود مجموعة من الآلهة شبيهة بالإنسان شكلاً، إلا إنها تمتلك صفتي الخلود والتفوق، ولا تُرى بالعين، وإن تلك الآلهة تقود الكون وتدبره بما فيه وفقاً لخطط معينة وقوانين معلومة، وإن كل إله من تلك الآلهة مسؤول عن إدارة جزء من هذا الكون، وتختلف أهمية كل إله وفقاً لخطورة الجزء الذي هو مسؤول عنه. وأعظم هذه الآلهة أربعة، وهي آلهة السماء والأرض والهواء والبحر، وتلك هي الآلهة المسؤولة عن عملية الخلق وفقاً لما تقتضيه حاجة المملكة التي يدبرها. وإن هذه المجموعة من الآلهة تعمل تحت إمرة إله واحد كبير يشرف عليها وينظم أعمالها) هنا ابتداء التاريخ، كريم: ٦٤ – ٦٥، ترجمة: ناجية المراني.

ويقول أيضاً: (كانوا يؤمنون أن الكون موكل أمره إلى مجمع مؤلف من طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهنية الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت، وهم، وإن كان الفانون لا يرونهم، إلا أنهم يديرون دفة العالم ويتحكمون به وفقاً لخطط رسمت بعناية ونواميس قدرت حسب الأصول) طقوس الزواج المقدس عند السومريين صموئيل كريم، ترجمة: نهاد خياطة.

(يا مردوخ أنت بالحق من يثأرلنا
وها نحن نبائعك على ملوكية الكون بأجمعه
وعندما تأخذ مكانك في المجلس فستكون كلمتك هي العليا
وسوف لا تقهر أسلحتك، بل إنها ستحطم أعداءك
يا سيدنا! أنقذ حياة من وضع ثقته فيك
وأزهق روح كل إله اقترف معصية
يا سيدنا إن أمرك حقاً هو الأول بين الآلهة
فانطق سواء بالفناء أو الوجود فإنه سيكون ...) (١).

آلهة تعترف بضعفها، وبإمكان صدور المعصية منها، وتبايع إلهاً وتعتبر كلمته هي العليا! آلهة تتخذ إلهاً سيداً لها وتعتبر أمره هو الأول... وهكذا! إذن، ألوهيتها ليست مطلقة وغنية بذاتها وإنما هي ألوهية مقيدة ومفتقرة بشكل واضح جداً.

نعم، ما توضح أعلاه لا ينفي أن يحصل تحريف في نفس المعتقد الحق "الألوهية في الخلق" بمعنى أن يتم تأليه من لا يجوز تأليه أو اعتبار غير الله سبحانه إلهاً مطلقاً، ومثل هذا الأمر حصل ويحصل دائماً وليس عند السومريين فقط.

وتعقيباً على وصف السومريين لبعض الشخصيات في نصوصهم بـ "الإله" كدموزي وجلجامش وغيرهم، يقول السيد أحمد الحسن:

(ومع أن السومريين يعبرون عنهم بالآلهة ولكن عندما تقرأ سيرة هذه الشخصيات في الرقم الطينية السومرية تعلم أنهم بشر فهم يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون وينجبون، وواضح أنها مجرد عملية تحريف للدين الإلهي وأن هؤلاء الآلهة ما هم إلا مجموعة الغيب التي تتمثل بالأنبياء والصالحين والملائكة وأيضاً الذات والدينا، فهي مسألة الغلو والتحريف للدين المستمرة منذ خلق الله آدم وربما بعض الأحيان المقصود بالإله ليس الإله المطلق بل المراد هو كل ما يؤله له وقد بينت في كتاب التوحيد معنى الألوهية والربوبية وأنها ألفاظ يمكن أن تطلق على المخلوق بالأصل) انتهى (٢).

١- انظر: من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي: ١٩٧- ١٩٨.

٢- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٤١.

هل الآلهة من عالمنا أم من عالم آخر؟

مرُّ بنا قبل قليل قول د. كريم في كتابه "هنا ابتداء التاريخ" بخصوص اعتقاد السومريين بآلهة شبيهة بالإنسان لكنها خالدة ومتفوقة عليه، ولا تُرى بالعين، مسؤولة عن عملية الخلق، وتقود الكون وتدبِّره، وكل واحد منها مسؤول عن إدارة جزء من الكون. فهو إذن يكتفي بتشبيه الآلهة بالإنسان وينفي إمكانية رؤيتها بالعين، كما أنَّ اتصافها بالخلود كاشف عن كون الآلهة ليست من وفي عالمنا الذي نعيش فيه وعاش فيه السومريون، وإنما هي من وفي عالم آخر؛ لأنه - أي عالمنا الذي نحن فيه - فإن ولا خلود فيه وأيامه معدودة^(١).

وفي كتابه "من ألواح سومر" يرى كريم أنَّ الآلهة التي يعتقد بها السومريون: (كالبشر يريدون ويدبِّرون ويعملون ويأكلون ويشربون ويتزوجون ويؤسسون الأسر ويعولون الأسر الكثيرة العدد، وكانوا يحسون بالأحاسيس والعواطف البشرية وفهم أيضاً صفات الضعف البشري)^(٢).

د. كريم رغم ذكره الصفات التي يتمتع بها الآلهة من أكل وشرب وزواج وعواطف لا زال متردداً في إثبات بشرية قسم منها لا أقل وإمكانية تواجدها في عالمنا. لكنه ليس بوسعه إنكار أنَّ (زيوسودرا - اوتونبشتم - نوح) بحسب النصوص تمكَّن أخيراً (بعد الطوفان) من الدخول إلى مجمع الآلهة مع أنه إنسان، وأنَّ جلجامش السومري (الرجل الذي سيولد أسرة بحسب أحد معاني اسمه) إنسان أيضاً لكن ثلثيه إله وثلثه المتبقي بشراً، فاتخذ قراراً حازماً بالسفر إلى جده نوح عليه السلام في رحلة شاقة ومضنية؛ طلباً للخلود ومعرفة سر الحياة مع الآلهة والخلود معها للأبد بعد التخلص من ثلثه البشري^(٣).

١- من خطاب جلجامش لأنكيدو في نص ملحمة جلجامش:

(... أما أبناء البشر فأيامهم معدودات،

وكل ما عملوا هواء عبث).

٢- من ألواح سومر: ١٦٩.

٣- (.....) فنأدى "الرجل العنقر" زوجته وقال لها:

وباستحضار ما انتهينا إليه في هذا البحث وما تقدم، صار بوسعنا تلخيص عقيدة السومريين بالآلهة بالآتي:

- ١- الاعتقاد بإله مطلق تخضع له بقية الآلهة وتعمل تحت إمرته وتوجيهه.
- ٢- الاعتقاد بآلهة (وسائط في الخلق والتدبير وإدارة شؤون الكون والخلق عموماً) خالدة لا يمكن رؤيتها بالعين، وهي ليست من عالمنا.
- ٣- الاعتقاد بآلهة (في الخلق) يمكن أن تكون من عالمنا، بل ويمكن أن تكون بشراً مثلنا بالتحديد، ارتقت في مدارج الكمال واستحقت مقام الألوهية في الخلق.

إنَّ اعتقاد السومريين بإمكانية بلوغ الإنسان مقام الألوهية في الخلق وإمكانية لحوقه بمجمع الآلهة (المقيدة، المفتقرة) في العالم الآخر (السمائي) والتواصل معها يفتح أمامنا نافذة لتوقع أن يكون الإنسان - وفق الاعتقاد السومري - سماوي بحسب أصله وموطنه الأساس، وهذه بالذات حقيقة دينية أصيلة:

إنَّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة،

فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:

أجل إنَّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر،

ثم نادى "الرجل العقرب" جليجامش

وخاطب نسل الآلهة بهذه الكلمات:

مالذي حملك على هذا السفر البعيد؟

وعلام قطعت الطريق وجئت إليّ عابراً البحار الصعبة العبور،

فأبن لي القصد من المجيء إلي

فأجابه جليجامش قائلاً:

أتيت قاصداً أبي (أوتو- نبشتم) (نوح)

الذي دخل في مجمع الآلهة

جئت لأسأله عن لغز الحياة والموت (... ملحمة جليجامش، طه باقر: ٧٥ - ٧٦.

يقول السيد أحمد الحسن: (نحن سماويون، أصلنا سماوي، وخلقنا في السماء الأولى وكان امتحاننا الأول فيها وهو امتحان الذر الذي ذكر في القرآن، فنحن أنفس وليس أجساداً أرضية فقط) انتهى^(١).

تنبيهات:

الأول: لست هنا بصدد تشخيص أنّ الإله (أن) أو (مردوخ) أو سواهما من الآلهة الواردة ذكرهم في النصوص السومرية أو البابلية لاحقاً هو الإله المطلق في عقيدة الإنسان الرافديني (السومري أو البابلي)، بقدر ما أردت الإشارة إلى أنّ فكرة الإله المطلق (الواحد) والإله في الخلق (وهو متعدد بطبيعة الحال) واضحة جداً في الفكر اللاهوتي السومري، وهي - أي الفكرة من حيث الأساس - من صميم الدين الإلهي.

قال تعالى: "فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا" النازعات: ٥، "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون: ١٤، "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" الذاريات: ٤٧.

الثاني: سبق وأن قدمت، إنّ إيمان السومريين بعقيدة الألوهية المطلقة والألوهية في الخلق لا يعني بحال أنّ جميع من / ما أضفوا عليه صفة الألوهية - بحسب نصوصهم المكتشفة للآن أو التي سيتم كشفها مستقبلاً في هذا المجال - يستحق الوصف حقيقة، فسنة التحريف التي ما سلمت منها رسالة سماوية جرت عليهم بكل تأكيد كما جرت في الرسائل السماوية اللاحقة. فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي - أو سواهم من أتباع الديانات - الذي يؤله هواه أو الدنيا أو حاكماً أو شخصاً معيناً أو صنماً أو حتى ولياً من أولياء الله ألوهية باطلة موجود دائماً، فيكون حال اعتقاد بعض السومريين من حيث التحريف والبطلان حال هؤلاء دون أي فرق.

الثالث: إنّ مشكلة تعدد الآلهة عند السومريين أهون بكثير من اعتقاد المسيحيين بالثالوث؛ فكل من الأب والابن وروح القدس - بنظرهم - يتصف بالغنى المطلق وله كينونة وشخصية متميزة، في الوقت الذي يعترفون بأنّ الله إله مطلق واحد غير مركب! في حين

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ١٣٨.

أن النصوص السومرية تضيفي على الآلهة المتعددة صفات الفقر والحدوث بشكل واضح (كالأكل والشرب والزواج والصعود والهبوط ونحو ذلك)، وبالتالي فهي تنفي عنها صفة الألوهية المطلقة التي تحصرها بإله واحد، أو لا أقل لم تصرح أو تتبنّى - رسمياً - فكرة تعدد الآلهة المطلقة كتصريح الكنيسة بعقيدة الثالوث رسمياً.

يقول السيد أحمد الحسن: (كل ما يُأَلَّه له عند السومريين فهو إله، فالدنيا إله، والأنا إله، والجماعة إله، والصالحين المقدسين آلهة، لهذا فيمكننا أن نُبدِّل كلمة "إله" بالأنبياء أو الصالحين أو الدنيا أو الأنا ونتدبر النص ونرى الحكمة التي يزخر بها النص:

"وفتح جلعامش فاه وقال لانكيدو:

يا صديقي، من الذي يستطيع أن يرقى أسباب السماء؟

والآلهة (الصالحين) وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع شمش،

أما أبناء البشر فأيامهم معدودات،

وكل ما عملوا هواء عبث".

وفي القرآن: "وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا" انتهى^(١).

السومريون وحاكمية الله:

باختصار، حاكمية الله تعني: أن يكون مخطط التشريع إلهي ومن يقوم بتنفيذه رجل منصّب من قبل الله سبحانه، يتفرّع عن ذلك أن لا شرعية لمن يتولّى حكم الناس وإدارة شؤونهم ما لم يكن مختاراً ومنصّباً من الله. وقد لاحظنا عند استعراض بعثات الرسل الأوائل أنّ الاعتقاد بحاكمية الله أساس يرتكز عليه الدين الإلهي دون أدنى شك، وبه افتتحت رسالة الله مشروعها مع الإنسان، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" البقرة، ٣٠، ثم تلا آدم عليه السلام في الخلافة الإلهية رجال اختارهم الله ونصّبهم ولم يخلُ زمن من واحد منهم ولن يخلو حتى الزمن الأخير.

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٨٢.

السومريون آمنوا بهذه العقيدة بشكل واضح، وهو ما أكدته الكثير من نصوصهم، وهذه بعضها:

١- في مقطوعة سومرية عنوانها: "انكي ونظام العالم" يقدر "انكي" مصير بلاد سومر على الوجه الآتي:

(يا سومريا أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم،
أنت مغمور بالنور الثابت الراسخ،
الذي ينشر من مطلع الشمس إلى مغرب الشمس النواميس الإلهية بين جميع الناس،
إن نواميسك المقدسة نواميس سامية لا يمكن إدراكها،
قلبك عميق لا يسبر غوره،
المعرفة الصحيحة تأتي بها كالسما لا يمكن أن تُمس،
والملك الذي تلده متوج بالتاج الأبدي،
والسيد الذي تنجبه يضع التاج على رأسه إلى الأبد.
سيدك سيد مبجل وملكك يجلس مع الإله أن على المنصة السماوية.
إن ملكك هو الجبل العظيم)^(١).

٢- ورد في شريعة الملك السومري "أور- نمو" مؤسس سلالة أور الثالثة ما يلي:

(بعد أن خلق العالم، وبعد أن تقرر مصير بلاد "سومر" ومصير مدينة "أور"، عيّن الإلهان "آن" و"إنليل" الإله القمر "ننا" ملكاً على مدينة "أور". ثم اختار هذا الإله بدوره "أور- نمو" ليحكم بلاد سومر ومدينة "أور" بصفته نائباً عنه يمثل في الأرض)^(٢).

٣- في "أثبات الملوك السومرية" وهو سجل يرجع إلى زمن سلالة أور الثالثة، عنوانه جامعوه ب (الملوكية = Nam-Lugal بالسومرية) يذكر السلالات الحاكمة في سومر من

١- من ألواح سومر، كريم: ١٧٩.

٢- نفس المصدر: ١١٩.

أزمان ما قبل الطوفان، ورد فيه: [هبطت الملوكية من السماء فكانت "أريدو" مركز الملوكية] ^(١).

٤- في ترتيلة خاصة بـ "انليل":

(..... يا انليل! إن الراعي الذي شملته بعين رضاك،
ودعوته ورفعته شأنه ومقامه في البلاد ...
هو الذي يقهر البلاد الأجنبية ويطرحها أرضاً متى أزمع القتال،
"انليل" الراعي الجليل الدائم الحركة.
هو الراعي القائد لكل حي (الملك).
لقد أوجد إمارته. ووضع التاج المقدس على رأسه) ^(٢).

٥- إحدى الشخصيات المهمة التي ركزت النصوص السومرية الضوء عليها هو زيوسودرا (نوح)، ووصفته بالملك بتنصيب من السماء:

(الملك زيوسدرا،
سجد أمام أن" و"انليل"،
واصطفى "أن" و"انليل" زيوسدرا،
ووهباه الحياة مثل إله،
لقد أدخل فيه النفس الخالد مثل إله،) ^(٣).

٦- أيضاً؛ ورد في ملحمة جلجامش، خطاب أنكيبدو لجلجامش:

(إنك الرجل الأوحده،
أنت الذي حملتك أمك،
ولدتك أمك ننسون

١- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر: ٣١٨/١.

٢- من ألواح سومر، كريم: ١٧٧.

٣- نفس المصدر: ٢٥٨.

ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس،
وقدر إليك الملوكية على البشر^(١).

وتوجد نصوص أخرى كثيرة، وجميعها يؤكد أن السومريين يعتقدون بالتنصيب الإلهي والسماوي للملوك والحكام.

أضف إلى ذلك: تصريح الباحثين وعلماء الآثار يؤكد الحقيقة المشار لها أيضاً، وكمثال لذلك ما قاله د. كريم بهذا الخصوص^(٢).

واضح أن فكرة خلافة الله وتمثيله في الأرض شائعة بين السومريين كمعتقد لإثبات شريعة الحاكم. نعم، ما يحصل عادة – سواء في أزمنة السومريين أو من تلاهم بل وإلى يومنا هذا – هو أن ينتحل شخص غير منصّب من الله هذا المقام ويقصي الخليفة والملك المنصّب من قبل الله ظلاماً. بل إن الاعتقاد بالتنصيب الإلهي لا يقتصر على السومريين فحسب وإنما ورثه البابليون عنهم، ففي شريعة الملك البابلي حمورابي ورد أن "الملك" يمتلك السلطة من الرب "المالك الأكبر"^(٣).

ملاحظة: سبق وأن نوّهت أن اعتقاد السومريين بالتنصيب الإلهي للملك والحاكم لا يعني أن جميع من أسبغوا عليه صفة "الألوهية" في نصوصهم مستحق لها فعلاً، فهناك

١- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٥٠.

٢- يقول د. كريم: (وكان الملوك والحكام يتباهون ويفخرون بأن الإله "إنليل" هو الذي منحهم "ملوكية البلاد" وجعل البلاد مزدهرة من أجلهم وهو الذي أعطاهم جميع البلدان وقدر لهم أن يفتحوها بقوتهم، وكان الإله "إنليل" هو الذي يعلن اسم الملك ويعطيه "صولجانه" وينظر إليه بعين الرضا) من ألواح سومر: ١٧٢.

وعن الحكم في مدينة "كيش" السومرية، يقول: (هي المدينة التي تسلمت "الملوكية"، كما جاء في الأساطير السومرية، من السماء بعد الطوفان فوراً) نفس المصدر: ٨٣.

ويقول أيضاً: (... غير أننا يجب أن نؤكد هنا أن الحاكم السومري لم يكن حاكماً مستبدّاً، ولا طاغية متقلّباً شرساً؛ فملك مثل "شولجي" كان على معرفة تامة بأنه لم يكن غير خليفة للآلهة وممثل عنها، مسؤول أمامها عن ازدهار البلاد ورفاهية العباد) طقوس الجنس المقدس عند السومريين، كريم، ترجمة: نهاد خياطة.

٣- (...) ووفقاً لشريعة حمورابي كان الملك يأتي في رأس الدولة، فهو الذي امتلك السلطة من الرب وهو المالك الأكبر للأراضي) حضارة ما بين النهرين العريقة، ك. ماتيفيف وأ. سازونوف: ٨٥.

من ادّعى "الألوهية" أو "الملك" كذباً، وهناك من نازع الملك المنصّب من قبل الله سبحانه، وهناك من حرّف عمداً كما يحصل عادة في سائر الديانات. ويبقى أنّ السبب الذي دفعنا لبحث مسألة "الحاكمية" هو بيان أنّ السومريين يؤمنون بحاكمية الله والتنصيب الإلهي بشكل عام كما هو المعتقد الحق في جميع الأديان الإلهية.

يقول السيد أحمد الحسن: (..... وصحيح أنّ بعض ملوك سومر هم مجرد ملوك مدّعين للتنصيب الإلهي، ولكن ما يهمنا هو أنّ السومريين عموماً كانوا يؤمنون بالتنصيب الإلهي، ويؤكد هذا الأمر ما وصلنا مكرراً في الألواح الطينية من أنّ الملوك هم من سلالة الآلهة وأنّ الآلهة تعيّنهم، وهناك قصة نقلها القرآن تمثل منازعة حدثت في سومر أو بلاد ما بين النهرين بين أحد الملوك المدعين الملك مع إبراهيم الخليل عليه السلام الملك المنصب من الله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" البقرة: ٢٥٨.

وعموماً، يمكن مراجعة النصوص السومرية والأكدية والبابلية لنجد أنّ هذا الأمر واضح في كثير من النصوص، وأنهم كانوا يعتقدون أنّ الملك تنصيب إلهي، أي كما في عقيدة الدين الإلهي الصحيحة التي في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا يُبيّن بوضوح أنّ السومريين قد ورثوا الدين الإلهي القديم وكانوا ملتزمين بتعاليمه وأهمها النواميس المقدسة ومنفذهها، ولكن لما تقادم عليهم الزمن حصل الشيء الذي يحصل دائماً وهو التحريف للدين الإلهي، واغتصاب الملك الإلهي، واضطهاد الملك المنصّب من الله انتهى^(١).

وكمثال للتحريف في معتقد "الحاكمية" الإلهي، يقول د. كريم: (في هذه الفترة المتدهورة من أحوال "لجش" السياسية والاجتماعية اختار الإله "ننجرسو" إله المدينة الحامي، على ما يخبرنا به مؤرخنا السومري، الحاكم الجديد الذي كان يخشى الآلهة "أوروكاجينا" من بين جموع مواطني "لجش" وأمره بإعادة تطبيق "القوانين الإلهية" التي تركها أسلافه وأهملوها. والتزم "أوروكاجينا" بكلمات "ننجرسو" ونفذ أوامره الإلهية تنفيذاً

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٩٦ - ٣٩٧.

كاملاً، فمنع الممارسات السيئة كالاستحواذ على الحمير والأغنام والشيء وأماكن صيد السمك العائدة للمواطنين، ومنع فرض دفع الأموال إلى القصر بطرق مختلفة، (...) (١).

هذا الكلام، إضافة إلى أنه يؤكد اعتقاد السومريين بحاكمية الله، يشير أيضاً إلى وجود فترات يحصل فيها انحراف عقائدي في المجتمع يؤدي إلى وصول حاكم غير منصّب من قبل الله إلى سدة الحكم فينتشر في وقته الظلم والجور والفساد، على أمل مجيء ملك إلهي عادل يقوم الانحراف ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.

هل يؤمن السومريون بالديمقراطية؟

أورد د. كريم مثلاً اعتبره أول ممارسة ديمقراطية في الحكم لدى الإنسان، حصل ذلك في سومر في الألف الثالث ق.م (٢). لكن الصحيح أنّ نظام الحكم السومري - بحسب الوارد في نصوصهم - لم يكن ديموقراطياً، وقد أشرت في الفقرة السابقة إلى مجموعة من النصوص التي تؤكد اعتقاد السومريين بحاكمية الله والتنصيب الإلهي عموماً. نعم، يمكن القول بأنّ نظام الحكم السومري إلهي لكن ظهرت منه نسختان عند السومريين:

الأولى: النسخة الأصلية لنظام الحكم القائم على التنصيب الإلهي للملك أو الحاكم سواء كان التنصيب مباشراً من الله سبحانه أو من قبل خليفته "الله في الخلق"، وهو النظام الذي مارسه خلفاء الله في أرضه (أو نائب يمثل الله في أرضه على حد تعبير النص السومري المتقدم) كنوح عليه السلام "زوسودرا الملك"، وهو النظام الذي لم يكن الحكم بحدّ ذاته هدفاً له بقدر ما كان يهدف إلى تحقيق ما يريده الله سبحانه وضمان العدل في البلاد وإنصاف المظلومين.

١- السومريون، كريم: ١١٠.

٢- يقول: (في أي جزء من العالم انعقد أول "برلمان" معروف لدى الإنسان؟ إنّ ما يثير الغرابة والدهشة أن يكون ذلك البرلمان العتيق قد عقد جلساته في ذلك الجزء من آسيا ... في تلك البلاد المعروفة قديماً باسم "سومر" الواقعة شمال خليج فارس بين نهري دجلة والفرات، وعلى هذا فليس من المستغرب إذا كان السومريون قد أحرزوا في حقل السياسة أيضاً تقدماً مهماً، وأنهم بوجه خاص ساروا في الخطوات الأولى نحو الحكومة الديمقراطية بالهيمنة على سلطات الملوك والاعتراف بحقوق المجالس السياسية) من ألواح سومر: ٨٢ - ٨٣.

الثانية: النسخة المحرّفة من نظام الحكم السومري التي وجدت طريقها إلى السومريين بمرور الزمن إثر الابتعاد عن التعاليم الدينية الصحيحة التي بثها أنبياء الله في سومر، وإضفاء صفة "الألوهية" على أشخاص أو جهات باطلة أُعطيت صلاحيات - هي بالأصل من اختصاص الله وخليفته الحقيقي - ومنها صلاحية تعيين الملك والحاكم.

يقول السيد أحمد الحسن: (إنّ نظام الحكم السومري هو نظام ورثوه عن نوح عليه السلام وعن الأنبياء كما ورثوا الدين الإلهي، فقد كان لديهم نظام حكم إلهي محرّف كما كانوا أصحاب دين إلهي محرّف، فنظام الحكم السومري لم يكن نظاماً دكتاتورياً ولا نظاماً ديمقراطياً بالمعنى الديمقراطي الغربي المعروف اليوم.

في نظام الحكم السومري كان هناك ملك تُعيّنه الآلهة. كما أنّ في نظام الحكم الإلهي ملك أو حاكم يعيّنه الله، ومهمة هذا الحاكم هي تحقيق إرادة الله وتطبيق قانون الله وإنصاف المظلومين، فهناك هدف من تعيين الحاكم الإلهي هو ليس الحكم بحدّ ذاته، ... انتهى^(١).

إنشاء نسخة ثانية محرّفة لنظام الحكم الإلهي والتي تؤدي - بكل تأكيد - إلى إبعاد الخليفة الإلهي الحقيقي وتعطيل دوره، لم يكن أمراً حصل عند السومريون كشعب متدين فقط، بل هو أمر موجود دائماً، وها هي نسخة المسلمين المحرّفة في الحكم ماثلة أمام الجميع، والتي أدت إلى إجلاس علي عليه السلام خمسة وعشرين عاماً في داره ومهدّت لقتل ولده الحسين عليه السلام وأهل بيته وسبي نسائهم في واقعة كربلاء الأليمة، وبالمقابل سمحت لبني أمية ومن على شاكلتهم باعتلاء سدة الحكم وقيادة المسلمين!

وعلى أي حال، فالنصوص السومرية أشارت إلى النسختين معاً، حتى كأنها بدت تحوي مفارقة غريبة، فالنصوص من جهة اعتبرت زيوسودرا (نوح عليه السلام) ملكاً عيّنته الآلهة، كما عيّنت "أوروكاجينا" الذي أخذ على نفسه ميثاقاً وعهداً بأنه لن يسمح بأن يقع اليتامى والأرامل فريسة لظلم الأقوياء^(٢)، وعيّنت كذلك "أور-نمو" صاحب

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٩٥.

٢- انظر: من ألواح سومر، كريم: ١١٢.

الشرعية التي تهدف إلى ضمان العدل في البلاد والعمل على إصلاح أحوال الناس، ومن جهة أخرى اعتبرت - أي النصوص السومرية - الحكام الفاسدين والظالمين معيّنون من قبل الآلهة أيضاً رغم أنّ السومريين عانوا من ظلمهم وفسادهم وحروبهم الجائرة!

المفارقة التي لم يتمكن علماء الآثار من إدراكها أمثال د. كريم وزملائه؛ لعدم اعتقادهم بحاكمية الله أو لأن بعضهم كان ملحداً أصلاً، صار بالإمكان حلها الآن بما أوضحه السيد أحمد الحسن، حيث يقول:

(العلاقة بين السومريين وحاكمية الله أمر لم يكن لكثيرين من علماء الآثار غيره أن يدركوه، لأنهم إما لا يعتقدون بحاكمية الله، أو ملحدون يعتقدون أنّ الدين ابتدعه السومريون، والتوراة والقرآن مجرد عملية استنساخ للقصص السومرية الخيالية - بنظرهم - كقصّة الطوفان، ولهذا فهم عندما وجدوا أنّ الملك السومري يعرض أمر الحرب على مجلسين للشورى حكموا وجزموا أنّ ما يمارسه السومريون ديمقراطية تشبه الديمقراطية الغربية اليوم، في حين أنّ ما كان يمارسه السومريون ليس الديمقراطية الغربية أبداً، ولا علاقة لممارستهم بالديمقراطية الغربية، حيث إنّ هناك نصوص سومرية كثيرة تؤكد أنّ الحاكم يأخذ شرعيته من التنصيب الإلهي) انتهى^(١).

على أنّ الإيمان بحاكمية الله والتنصيب الإلهي لا يعني عدم وجود مجالس سياسية تؤدي أدواراً معينة تحت إشراف خليفة الله، كما أنها لا تعني أن يباشر خليفة الله الحكم بنفسه بالضرورة.

يقول السيد أحمد الحسن: (... فنظام الحكم الإلهي يمكن أن يتحقق حتى بإشراف الحاكم المعيّن من الله على التطبيق ومراقبة التطبيق والتدخل للتصحيح عند وجود توجّه للخطأ، وليس من الضروري أن يقوم بالحكم بنفسه ليتحقق الهدف من تعيينه) انتهى^(٢).

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٩٤ - ٣٩٥.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٩٥.

و أيضاً: ما بيّناه يمكن أن يفسر ظاهرة انفصال الحكم عن المعابد بعد أن كان المعبد مكاناً للحكم ومركزاً إدارياً له في فترة مبكرة من حياة السومريين^(١).

فالمسألة تندرج أيضاً تحت إطار الإيمان بحاكمية الله التي تناسب أن تكون دار العبادة مكاناً للحكم والقضاء وإدارة شؤون الناس كما كان يفعل الإمام علي عليه السلام في مسجد الكوفة أيام حكمه، ولكن غيره من الحكام المتسلّطين غير المنصّبين من الله فأكد أنهم يختارون القصور الفارهة مكاناً يباشرون منه حكمهم للبلاد والعباد!

قضايا من صميم الدين السومري:

سأختار بعض المضامين الدينية التي وردت في الألواح الطينية السومرية، وهي أكثر من كافية للحكم على أنّ ما كان يتعبّد به السومريون هو دين إلهي وصلّهم من أنبياء الله، وإن كان قد طاله التحريف في مفاصل عديدة منه كسائر الديانات الإلهية. فلم تقف الديانة السومرية عند قصة الخلق والتكوين والحاكمة الإلهية، وإنما تعدّت ذلك وبيّنت قضايا أخرى تعتبر من صميم الدين الإلهي ومكوّناته.

رضا الله ومحبته:

الإنسان السومري كان يهيمه تحصيل رضا الله بشكل كبير، بل يعتبره مصدر كل خير، وفي نفس الوقت يعتبر فقدان ذلك الرضا سبباً لجميع المتاعب التي تعترضه في حياته^(٢).

١- يقول سيتون لويد: (في فترة مبكرة من العصور التاريخية كان مفهوم المعبد مكاناً للحكم ومركزاً إدارياً للكهنة الحاكمة. بعد ذلك حدث انفصال هام بين المعبد والدولة لأن الملك أصبح له سكن خاص به يؤمّن كما يفترض متطلبات النشاط السياسي والاحتفالي) آثار بلاد الرافدين: ١٧٠، ترجمة: محمد طلب.

٢- يقول ديلا بورت: (كان مصدر كل خير للرجل رضى إلهه عنه وكان فقدان هذا الرضى أصل كل المتاعب... وتحوي مزامير التوبة الاعتراف بالخطيئة المعروفة أو غير المعروفة وتنتهي أحياناً بأناشيد المديح:

"مولاي! إن أنامي كثيرة وذنوبي فظيعة

إلهي! إن أنامي كثيرة وذنوبي فظيعة

ألا فليخفف الغضب في قلب مولاي

الذنوب سبب البلاء ولا بد من شفاعته:

يعتقد السومريون أنّ ذنوب الإنسان وخطاياها سبب بلائه ومصائبه، ولا يوجد إنسان بلا خطيئة^(١). ثم إنّ المعذّب لا سبيل له لخلاصه من محنته وعذابه إلا: (أن يمجد إلهه دوماً ويواصل البكاء في حضرته حتى يبدأ بالإصغاء إلى دعواته بشيء من العطف. وكان الاله المعني بذلك هو إله المعذب الشخصي، أي الإله الذي كان ممثلاً للفرد وشفيعاً له في مجمع الآلهة وفقاً للعقيدة السومرية السائدة)^(٢).

عقيدة السومريين هذه إذا أردنا عطف الشواهد الدينية من القرآن الكريم أو الكتاب المقدس لرأيناها متوفرة بكثرة، منها: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ". "وَلَأَجَلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الْأَرَاذِيِّ لِلْسَيْفِ وَالسَّبْيِ وَالتَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ"، "الْجَمِيعُ أَخْطَاوَا وَأَعْوَزَهُمْ مَّجْدُ اللَّهِ"^(٣).

الخوف من المعبود والصلاة من أولى الواجبات الدينية:

الخوف من الله وطلب رضاه والتوجّه إليه بالدعاء والصلاة والسجود والتوسل طلباً للمغفرة من أولى الواجبات الدينية عند السومريين^(٤). ولوقرأنا عقيدة السومريين هذه

لهذا الاله الذي أعرفه أولاً أعرفه

لهذا الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها" بلاد ما بين النهرين: ١٦٨ - ١٦٩.

ويقول د. فاضل عبد الواحد علي: (يتضح من النصوص المسمارية ذات المضامين الدينية والفلسفية أن الفرد في بلاد سومر كان يهيمه جداً نيل رضا الآلهة ومحبتها، لأنه كان الوسيلة الوحيدة والمضمونة لتمتعه بحياة سعيدة وعمر طويل. وعلى العكس من ذلك تماماً فإذا ما أدار الإله ظهره عن عبده وابتعد عنه كان ذلك نذيراً بحلول غضبه ونزول البؤس والشقاء على عبده) من سومر إلى التوراة: ٢٦٢.

١- يقول د. كريم: (كان الحكماء السومريون يعتقدون ويعلمون تلك العقيدة، وهي أن مصائب الإنسان وكل ما يحلّ به من بلاء إنما هو نتيجة ذنوبه وخطاياها وإنه لا يوجد إنسان بلا خطيئة) من ألواح سومر: ٢٠٤.

٢- السومريون، كريم: ١٦٨.

٣- مصادر النصوص تبعاً: سورة الشورى، آية ٣٠: سفر عزرا: ٧/٩: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: ٢٣/٣.

٤- (...) بما إنك يا إلهي فائق الحلم، نحو ألوهيتك استدرت،

ولأنك تعرف كيف تغفر، فتشئت عنك.

وأجربنا مقارنة بينها وبين ما تدعو إليه النصوص الدينية في الأديان السماوية فهل سنجد فرقاً؟!

"قُلْ مَا يَعْزُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ". "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ"، "اسْأَلُوا تُعْطُوا. اطْلُبُوا تَجِدُوا. اقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ"، "لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَما تُصَلُّونَ فَاْمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ"، "اطْلُبُوا الرَّبَّ مَا دَامَ يُوجَدُ. ادْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ"، "الْتَفَتْ إِلَى صَلَاةِ الْمُضْطَرِّ وَلَمْ يَرْزُدْ دُعَاءَهُمْ"^(١).

ولأنك تنظر بعين العطف، تأملت وجهك،

ولأنك رحيم، أنا هنا واقف أمامك!

أنظر إلي برفق، استمع صلاتي!

ولهدأ قلبك من أجلي إذا ما كان غاضباً،

حل خطايي وأخطائي، (بدد) تقصيري!

ولهدأ دونما تأخير غضب ألوهيتك ضدي ... ديوان الأساطير- الكتاب الرابع، أدونيس: ١٨٤.

ويقول ديلا بورت: (كان أول واجب في الدين هو الخوف من المعبود. ... وكان الواجب الثاني في الدين هو الدعاء أو الصلاة والتضحية:

"قدم الخضوع كل يوم لإلهك

التضحيات والصلوات والبخور الواجب

ليكن قلبك نقياً أمام ربك

إن هذا هو ما يرضي المعبود

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح فإنه سيمنحك كل الكنوز

وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك

وبعقلك راع اللوحة:

الخوف يولد الرفق أو العاطفة

والتضحية تطيل العمر

والصلاة تخلص من الإثم" (بلاد ما بين النهرين: ١٦٢ - ١٦٣.

١- مصادر النصوص تبعاً: سورة الفرقان، آية ٧٧: سورة العنكبوت، آية ٤٥: متى: ٧/٧؛ مرقس: ١١/٢٤؛ اشعيا:

٥٥/٦؛ المزمير: ١٧/١٠٢.

الرؤى الصادقة:

الكتب السماوية اهتمت بالرؤى اهتماماً كبيراً، هذا ما نجده في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ويمكن الاطلاع على سورة يوسف أو رؤيا نبي الله دانيال ويوحنا اللاهوتي كمثال على ذلك.

رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وكذلك آل محمد الأوصياء عليهم السلام اهتموا بالرؤيا وتحديثوا عن إمكانية أن يرى المؤمن رؤى - تحوي رموز الحكمة أو إخبارات معينة أو أحداثاً مستقبلية - بخلفاء الله وأوليائه الطاهرين إذا ما أخلص الإنسان وأتقى وتقّس. ونفس هذا الاهتمام بالرؤى الصادقة وتعبيرها نراه أيضاً لدى السومريين وخلفهم البابليين بحسب ما وصل عنهم في الألواح الطينية^(١).

الاستخارة والتوسم:

لا زال المؤمنون بالكتب السماوية كالمسلمين والمسيحيين يؤمنون بأن استخارة الله أو التسفّر القدسي - كما يصطلح عليه المسيحيون - من الدين، وعادة ما يستخير المسلمون

١- يقول د. شارل فيروللو: (الأحلام هي الوسيلة الأكثر مباشرة - إن لم تكن الوحيدة - مع الألهة والتي تسمح لهم أن يوصلوا رغباتهم التي هي كأوامر لبني البشر. ... كانت الأحلام تعرف الناس بمراد الألهة، ولكن في العصر التاريخي كانت وسائل التنبؤات في "ميزوبوتاميا" كثيرة ومتنوعة. ولهذا رتبوها وفسروا إرهاباتها وفقاً لقواعد خاصة وألفوا فيها رسائل قائمة بنفسها. وقد ترك لنا البابليون فصولاً كاملة عنها. وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام فحلم منفرد أو عاجل لا يسترعي الانتباه، ولكن إذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضهما - ولا سيما إن حدثا بتتابع فوري أو وقعها في ليلة واحدة - فإن ذلك يعتبر كإنذار يحسب حسابه، ... أساطير بابل وكنعان: ٤٣.

ويقول ديلا بورت: (كان الألهة يحيون أن يتصلوا بالأتقياء من الناس وأن يعلنوا إليهم ما سوف يحل بهم من أحداث عن طريق الأحلام. وحين يحزب الأمر كان الأمير أو العراف يلتمس هذه المنحة بالتوجه إلى المكان المقدس والنوم فيه) بلاد ما بين النهرين: ١٥٦.

ويقول د. فاضل عبد الواحد علي: (..... أما كيف يتم اتصال العبد بإلهه الشخصي، أو بتعبير أصح كيف يصطفي الإله عبده من بين الناس، فالراجح أن ذلك يكون عن طريق الإيحاء أو الأحلام والرؤى) من سومر إلى التوراة: ٢٦٢.

بالقرآن الكريم، في حين يتسفر المسيحيون بأسفار الكتاب المقدس. والأمر نفسه نراه موجوداً عند السومريين^(١).

وبالنسبة للتوسم والفراسة، فقد بين الإمام الصادق عليه السلام معنى قوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ"، فقال: "هم الأئمة ينظرون بنور الله، فاتقوا فراستهم فيكم"^(٢).

وعادة ما تنتشر هذه الظاهرة بين أتباع خلفاء الله بحكم مسيرتهم للأنبيا والأولياء والتعلم منهم، ولأن السومريين ترسخت عندهم الثقافة الإلهية – كما عرفنا – نجد أن التوسم والفراسة كان حاضراً عندهم، إذ كانت هناك بعض الظواهر التي يعدّون بعضها بشرى كما يعدّون أخرى نذير سوء للبيت أو المدينة التي يسكنون فيها^(٣).

السومريون كانوا يعرفون جيداً أنّ الله يتكلّم مع عبده بكل شيء، وهي المعرفة التي ما فارقت رسل الله دائماً، فهي هو إبراهيم عليه السلام يمر في أرض كربلاء وكان راكباً فرساً،

١- يقول ديلا بورت: (ولم يكن اللجوء للعرافة يتم فقط بالنسبة للشؤون الخاصة، بل كان كذلك وقبل كل شيء يتصل بالشؤون العامة فلم يكن أمير يقبل على أمر هام دون استشارة المعبود سواء أكان ذلك بأن يبدي المعبود رأيه عن طريق ظاهرة عادية أو غير متوقعة، أم - كما هو الأمر في أغلب الأحيان - بأن يلتمس السائل تدخله بالبحث عن الرغبة الإلهية في الظواهر التي يلاحظها المنجم) بلاد ما بين النهرين: ١٥٤.

٢- دعائم الإسلام، القاضي المغربي: ١ / ٢٥، تحقيق: آصف فيضي. والآية في سورة الحجر: ٧٥.

٣- يقول ديلا بورت: (هناك ظواهر لا يبحث عنها الإنسان، بل تفرض نفسها للملاحظة وهذه الظواهر يمكن أن تكون أيضاً بشيراً بالخط الحسن أو نذيراً بسوئه مثال ذلك الشذوذ في ولادة الأطفال أو الحيوانات ذلك الشذوذ الذي يعتبر فالاً للبيت الذي يحدث به وأحياناً للمدينة أو الولاية) بلاد ما بين النهرين: ١٥٥.

ويقول شارل فيرولو: (عرفنا الآن أنّ البشر خلقوا ليعبدوا الآلهة وأن هؤلاء يعاقبونهم لأتفه الذنوب فعليهم أن يطيعوا رغبات السماء بكل دقة وأن يلبوا نزواتهم. كيف يعلمون إذن كي يحافظوا على هذا الوفاق ويتجنبوا غضب الآلهة؟ وإذا ما رأوا أحلاماً – أن الآلهة يوحون ما يخطر لهم بواسطة الأحلام – فكيف يفسرونها بصورة ترضيهم، هذا إذا كان هناك أحلام فكيف إذا لم تكن؟ الجواب: يعمدون إلى الإرهاصات والدلالات الطبيعية فهي ترشدكم إلى الحقيقة ولذا يجب الانتباه الكلي ليس إلى تغيرات القمر فحسب، بل إلى شكل الغيوم، فكل حركة وكل تنقل من الزاحفة تحت العشب حتى الكواكب السابحة في ميدان النجوم تعطي إشارة لإرادة الآلهة سواء أكانت حسنة أم سيئة وهنا يظهر الفن أو العلم عبقريته فيميز إذا كانت الإرادة خيرة أم لا. ... أساطير بابل وكنعان: ٢٥.

فعثرت به وسقط وشج رأسه وسال دمه، فأخذ في الاستغفار وقال: "إلهي، أي شيء حدث مني؟" ^(١)، ومن هؤلاء الأطهار تعلم السومريون هذه الثقافة والمعرفة الإلهية.

تقديم الأضاحي:

تقديم القرابين والأضاحي كالشياه المبرأة من العيوب شعيرة إلهية وردت ضمن تعاليم الأديان الإبراهيمية، فالمسلمون - مثلاً - يفعلون ذلك ضمن مناسك الحج أو في مناسبات معينة. وهذا الأمر لم يغفله السومريين، فتقديم الأضاحي عندهم وسيلة لإدراك الغيب والتقرب للمعبود ^(٢).

الاعتقاد بالموت والعالم الأسفل:

يعتقد السومريون بأن الموت مصير حتي يلاقيه كل إنسان مهما بلغت قوته وجبروته، والخلود غير متيسر فيه أبداً، على أنه لا يعني فناً مطلقاً وإنما هو انفصال الروح عن الجسد ^(٣).

السومريون أيضاً يعتقدون بعالم الأموات (العالم الأسفل) الذي يطلقون عليه كور Kur وأرض اللارجعة، فروح الميت تنزل إليه بعد مفارقتها الجسد وتبقى محتجزة فيه إلى

١- انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤ / ٢٤٣.

٢- يقول ديلا بورت: (كان من الضروري لمباشرة إدراك الغيب عن طريق الكبد أن يختار حيوان مبرأ من العيوب وأن يضحي به وفقاً للشروط المقررة في الطقوس والتي تختلف باختلاف ساعات النهار. في الفجر مثلاً كان المعبود على استعداد لأن يتقبل شاة وكان العراف يضع أمام الإله مائدة خلف الموقد ... وبعد أن ينفخ الكاهن الموقد يمسك بصاحب القرابين من يده ويتلو هذه الصلاة:

"فلان عبدك" هلاً بقدّم تضحيته في ساعة الصباح!

ألا فليقدّم نفسه أمام عظمة ألوهيتك!

ألا فليكن مرضياً لعظمة ألوهيتك بفضل هذه الشاة ذات اللحم الجيد والأعضاء الصحيحة) بلاد ما بين النهرين: ١٥٥.

٣- يقول د. فاضل عبد الواحد علي: (ولم يكن الموت في عقيدة السومريين والبابليين يشكّل فناً مطلقاً للإنسان، وإنما كان عبارة عن انفصال الروح عن الجسد) من سومر إلى التوراة: ٢٦٦.

الأبد ^(١)، وأبرز النصوص المسمارية في هذا الصدد هو ما يعرف بأسطورة "نزول أنانا (عشتار) إلى العالم الأسفل" ^(٢).

وهذا مقطع من حوار دارين جليامش وأنكديو حول العالم الأسفل:

..... (فقال جليامش) أخبرني يا صديقي،
أخبرني بما يجري في العالم الأسفل الذي رأيت؟
(فقال أنكديو) سوف لا أخبرك، سوف لا أخبرك
وإذا كان لابد من إخبارك بما يجري في العالم الأسفل
فعليك أن تجلس وتبكي ...
إن جسي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
أصبح الآن يلثمهم الدود كما لو كان ثوباً بالياً
أجل، إن جسي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
أصبح الآن.. يملؤه التراب،
(وعندئذ) صاح (جليامش) يا وليتاه! وراح يتمرغ في التراب ^(٣).

الاعتقاد بالحياة بعد الموت والجنة والجحيم:

(لقد تأكد هؤلاء من أنهم يعيشون بعد الموت، ولكن في ظلام دامس وليس لهم أي ثواب، إلا إذا سلكوا السلوك الحسن في دار الدنيا، أي بالتقوى كما حدث "لأوم نايشتي" أو بتطبيق القوانين بين الناس كما فعل حمورابي) ^(٤).

وأيضاً أكد د. كريمر وجود إشارات في نصوص السومريين على أن للصالح والمستحق مصيراً أكثر سعادة من مصير المؤذي والشرير، بحسب قوله ^(٥).

١- من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي: ٢٦٨.

٢- انظر: ملحق - ١، لمعرفة من تكون أنانا "عشتار" ومعنى نزولها إلى العالم الأسفل.

٣- من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي: ٢٧١.

٤- أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو: ٣٦.

٥- انظر: السومريون، كريمر: ٣٧٨.

شريعة عادلة:

الدين الإلهي عقيدة وشريعة، وكما كان للسومريين منظومة عقائدية كان لديهم شريعة تهدف إلى ضمان العدل وإصلاح أحوال الناس كما ورد في شريعة "أورنمو" التي تضمنت أموراً تخص الجانب الاجتماعي والأخلاقي^(١)، كما تضمنت أيضاً مواداً خاصة تتعلق بوجوب دفع دية محددة تعويضاً عن قطع عضو معين من الإنسان كالقدم والأنف.

ولست الآن بصدد إثبات أو نفي أنّ أورنمو حاكم منصّب من الله وأنّ شريعته إلهية بكاملها بقدر ما أريد التنبيه إلى أنّ السومريين كانت لديهم شريعة (إلى جنب المنظومة العقائدية) تهدف إلى تحقيق العدل ورعاية اليتيم والأرملة وتنهى عن الغش والرشا... إلخ، وهذه الأمور من صميم الشرائع السماوية التي نادى بها أنبياء الله.

على أنّ "أورنمو" ليس المشرّع الأول في بلاد سومر، بل سبقه بالتأكيد مشرّعون آخرون، وهوربما استفاد من مواد شرائعهم وأحكامهم^(٢).

وهذا أمر أكيد، فنحن قد عرضنا رسالة آدم وإدريس ونوح وهود وصالح صلوات الله عليهم فيما سبق، وكلهم بعثوا في السومريين الأوائل (أسلاف السومريين أصحاب الدين والحضارة الذين نتحدث عنهم الآن)، ورأينا بعض تعاليم الرسل سواء على مستوى العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق والقوانين ونظم الحياة... إلخ.

١- يصف كريمر شريعة الملك السومري "أورنمو" فيقول: (... وقام بالإصلاحات الاجتماعية والأخلاقية ففضى على الغشاشين وعلى المرتشين، أو كما عبرت شريعته على "ناهي أبقار المواطنين وأغنامهم وحميرهم"، ثم أوجد نظاماً مضبوطاً للأوزان والمكاييل، ومنع "أن يقع اليتيم فريسة للثري والأرملة ضحية للقوي". وعلى الرغم من أنّ العبارة الخاصة بالغرض من وضع الشريعة مهشمة في النص إلا أنه مما لا شك فيه أن يكون الدافع على إصدار مواد الأحكام التي تعقبت تلك المقدمة إنما هو ضمان العدل في البلاد والعمل على إصلاح أحوال رعاياه.) من ألواح سومر: ١١٩.

٢- يقول كريمر: (كم سيظل "أور-نمو" محتفظاً بمكانته على أنه أول مشرّع في العالم! المرجح أنه لن يظل طويلاً، فهناك أمارات وأدلة على أنه عاش في بلاد "سومر" مشرّعون قبل أن يولد "أور-نمو" بأزمان طويلة) من ألواح سومر: ١٢١.

أيضاً: عند السومريين قوانين وأحكام تخص الزواج بما في ذلك الخطوبة وحقوق الأولاد والطلاق والإرث، وكان للمرأة السومرية حقوق كأهليتها للشهادة والتملك والقيام بأعمال البيع والشراء ونحو ذلك^(١).

سبل الكمال والرقى الأخلاقي:

الإنسان الذي خُلق على صورة الله أو المعبود وفق المعتقد السومري – كما عرفنا سابقاً – يكشف عن أن الإنسان مشروع إلهي على هذه الأرض، وأن هناك هدفاً سامياً يكمن وراء خلقه، وإلا لماذا هو دون غيره من المخلوقات خُلق على صورة الله؟!

وبقدر تعلق الأمر بسبل الكمال والرقى الأخلاقي التي احتوتها نصوص سومر، يمكننا استخلاص معاني الإيثار والصبر ومحاربة الأنا والشجاعة والسعي إلى الخلود والحياة الأبدية في العالم الآخر والصدقة والإخلاص وغير ذلك من "ملحمة جلجامش" السومرية التي تعد بجدارة خارطة طريق الخلاص والإنقاذ من براثن العالم الأسفل.

علماء السومريات أكدوا اعتزاز السومريين بكثير من المبادئ الأخلاقية والروحية الراقية كالعدل والحرية والنظام والخير والصدق والأمانة والاستقامة والمعرفة والإخلاص ونحو ذلك^(٢).

١- يقول د. كريم: (... وكان يعترف بالخطوبة قانونياً طالما يقدم العريس هدية زواج إلى والد الفتاة. وتتم الخطوبة غالباً بعقد يدون على لوح طيني، ... وكانت للمرأة في بلاد سومر حقوق قانونية معينة مهمة: فكان لها أن تمتلك وتتعاطى العمل التجاري وكانت مؤهلة للشهادة، بيد أنه كان باستطاعة زوجها أن يطلقها لأسباب تافهة نسبياً، وإذا كانت عاقراً كان باستطاعته أن يتزوج من امرأة ثانية. وكان الأطفال تحت سلطة والدهم المطلقة، ... ويرث الأبناء عند وفاة الوالدين كل ثروتهما. وكان تبني الأطفال أمراً شائعاً، ويعامل الأبناء المتبنون أيضاً بأقصى حد من العناية والرعاية) السومريون: ١٠٦.

٢- يقول د. كريم: (وكان السومريون، وفقاً لكتاباتهم الخاصة، يعتزون بالخير والصدق، بالقانون والنظام، بالعدل والحرية، بالاستقامة والأمانة، بالرأفة والعطف، وكانوا بطبيعة الحال يمتنون نقائضها الشر والكذب، عدم التقيد بالقانون والفوضى، الظلم والاستبداد، اقتراف الذنب والضلال، البطش وفقدان الشعور بالعطف) السومريون: ١٦٤.

وهذه ترتيلة تذكر رعاية اليتيم والأرملة والضعفاء من الناس، ومدحت فيها "نانشه" لأنها التي:

(تعرف اليتيم، والتي تعرف الأرملة.
وتعرف ظلم الإنسان للإنسان، إنها أم اليتيم.
"نانشه" التي تعنى بالأرملة،
والتي تنشد (٤) العدالة (٤) لأفقر الناس (٤).
الملكة تأخذ اللاجئ إلى حجرها،
وتجد ملجأ للضعيف) (١).

أيضاً: على مستوى النصوص السومرية المتصلة بالأخلاق توجد ثلاث مجاميع: (من النصائح الخلقية والتوجيهات وهي "تقويم الفلاح" و"ارشادات شوروباك لابنه زيوسودرا"، وثالثة يبدو أنها تتألف من نصائح روحية وخلقية ...) (٢).

أختم بهذه التوصية الأخلاقية السومرية: "إذا ما مشيت، انتظر! ثبّت قدميك على الأرض"، التي تذكرنا بوصية لقمان الحكيم لابنه في قوله تعالى: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ" (٣).

خلاصة ما تقدم:

لا أعتقد أنّ منصفاً بوسعه أن يحكم بغير "أنّ ما كان يتعبّد به السومريون هو دين إلهي بامتياز"، وصلهم من أنبياء الله منذ يوم الإنسانية الأول على هذه الأرض بآدم عليه السلام ثم من تلاه من رسل الله وصولاً لنوح عليه السلام ثم من تلاه من ولده الأوصياء

ويقول أيضاً: (على المستوى الخلقي والروحي، تكشف الوثائق على أن السومريين كانوا يقدرّون ويعتزون بالخير والصدق والقانون والنظام والعدل والحرية والحكمة والمعرفة والإخلاص، وباختصار كانوا يقدرّون جميع الفضائل والسجایا التي يرغب فيها الإنسان أكثر من كل شيء آخر) نفس المصدر: ٣٨٠.

١- السومريون، د. كريم: ١٦٥ - ١٦٦.

٢- انظر: السومريون، د. كريم: ٣٢٠.

٣- سورة لقمان، آية ١٩. وانظر الحكمة السومرية في: السومريون، د. كريم: ٣٢٣.

وصولاً إلى إبراهيم صلوات الله عليه. وإذا كان البعض لا يزال يصّر على أنّ "الدين السومري" مجرد أساطير وخرافات فليعلمنا ماذا يعني دين الله عنده، وليعلمنا أيضاً: أين ذهب جهود رسل الله آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل الأوائل الذين بعثوا في نفس المكان وبين نفس الأقوام؟!

يضاف إلى كل ما تقدم: وجود الشبه الكبيرين ما هو موجود لدى الأديان الإبراهيمية الثلاثة وبين الدين السومري بحسب ما حكته ألواحهم ورقمهم الطينية:

يقول السيد أحمد الحسن: (الحقيقة إنّ أيّ مطّلع على التوراة والانجيل والقرآن وعلى ما حوته الرقم الطينية السومرية سيحكم قطعاً بأحد حكمين لا محالة ولا مناص له عن أحدهما:

الحكم الأول: إنّ الدين أصله من تأليف الإنسان السومري، وما التوراة والانجيل والقرآن إلا عملية اجترار للدين السومري (خلق الإنسان الأول آدم، قصة هابيل وقابيل، قصة الطوفان، الخطيئة، الحياة بعد الموت، الجنة، النار... الخ).

الحكم الثاني: إنّ الدين السومري هو نفسه دين آدم ودين نوح عليهما السلام، ولكنه نقل ثم دوّن بصورة محرفة وتعبّد به السومريون أو الأكاديون (البابليون والآشوريون) بصورته المحرفة، وهذا ما أريد بيانه من خلال بيان أنّ القصص السومرية ما هي إلا اخبارات غيبية جاء بها آدم إلى الأرض، وهي قصص الصالحين من أبنائه عليهم السلام وما سيمر بهم، وخصوصاً من يمثّلون علامات مهمة في طريق الدين، مثل دموزي "الابن الصالح"، أو جلجامش.

الشبه كبير جداً بين ما هو مدوّن في التوراة وبين الألواح السومرية انتبه له د. صموئيل كريمر ووصل به الأمر إلى أن يضع فصلاً في كتبه يبين فيها الشبه بين الألواح الطينية السومرية والتوراة، وكمثال:

"الفصل السابع عشر (الفردوس) أول أوجه مشابهة مع التوراة"^(١).

"الزواج المقدس ونشيد الأنشاد لسليمان" (١).

والسومريون كانوا يعرفون ويعملون بأمور دقيقة في الدين الإلهي، مثل الاعتقاد بالرؤى، وأنها كلام الله والتوسّم والاعتقاد بأن الله ممكن أن يكلم الإنسان في كل شيء يمر به. انتهى (٢).

ولهذا يمكننا اعتبار أنّ الدين السومري هو الأصل الذي ترجع له جميع الأديان، بل الحقيقة إنّ الدين عند الله واحد بعث الله به جميع أنبيائه ورسله. نعم، قد يحصل فيه توسع أو تعمق في بعض الأوقات بحسب طبيعة القابل المؤهل للاستيعاب، لكن تبقى أصول الاعتقاد والشرائع والأخلاق والإطار العام للمنهج الإلهي واحد، ولهذا بدت نقاط الالتقاء بين الدين السومري والأديان الابراهيمية واضحة جداً عند أغلب الباحثين، واعتبروا أنّ ما موجود في الأديان الابراهيمية ما هو إلا اجترار لما موجود في الدين السومري!

يقول السيد أحمد الحسن: (السومريون أو الأكاديون قوم لديهم أقدم حضارة وثقافة ذات قيمة حقيقية مسجلة حتى الآن ولديهم أقدم ديانة منظمة ومعروفة حتى الآن، وإذا نظرنا للدين على أنه تاريخ ثقافي فقط فستكون الديانات الإلهية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام مجرد ناقلة للديانة السومرية الأكادية ومجترة لها لا أكثر، فقصة الخلق والطوفان ونوح والقصص والأمثال والقيم الأخلاقية العليا والسلوك المتسامي لبعض الأفراد والعبادات والدعاء والتضرع إلى الإله هذه كلها أمور موجودة في الديانة السومرية. إضافة إلى أنّ الديانات الإبراهيمية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ترجع كلها بالأصل إلى إبراهيم عليه السلام الذي جاء من سومر) انتهى (٣).

١- طقوس الجنس المقدس عند السومريين، صموئيل كريم، ترجمة: نهاد خياطة.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٥٢ - ٣٥٣.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٣٣.

الإخبارات الماضية والمستقبلية:

أمر آخر مهم جداً يخص الدين السومري كشفت عنه الألواح والرقم الطينية هو النبوءات والإخبارات التي تخص الماضي الرسالي والمستقبل الرسالي على حد سواء، وهذا أمر موجود في جميع الأديان الإلهية، فعلى مستوى الأديان الإبراهيمية الثلاث يجد القارئ لنصوصها إخبارات تتحدث عن الرسل الماضين وبعض الأحداث التي صادفتهم وما جرى معهم ومع أقوامهم، وهذه عادة ما تطرح لأجل الاتعاض والاعتبار. كذلك يجد إخبارات ونبوءات تتحدث عن المستقبل الذي يجري على بعض الرسل الإلهيين الآتين، كالإخبارات التي تحدث عن مجيء المخلص والمنقذ العالمي (مهدي آل محمد بحسب نصوص المسلمين)، وهذه عادة ما تطرح لأجل الاستعداد وزرع الأمل في النفوس ونحو ذلك، ونفس هذا الشيء موجود في الدين السومري أيضاً.

السومريون الذين وصلتنا حضارتهم وألواحهم التي ضمت معتقداتهم ودينهم الإلهي بشكل مكتوب هم قوم عاشوا في جنوب العراق واكتشفوا الكتابة بحدود ٣٠٠٠ ق.م أي إننا نتحدث عن قوم تفصلنا عنهم فترة تقدر بـ ٥٠٠٠ عام تقريباً، في حين أنّ الواقع الرسالي يتحدث عن بعثة آدم عليه السلام قبل ٢٠ ألف عام كما تقدم، وهذا يعني أنّ لدى السومريين تراثاً رسالياً كبيراً يمتد إلى زمن سابق طويل، ولهذا أخذت قصة الطوفان مثلاً مساحة كبيرة في نصوصهم كما لاحظناه في بحثنا المتقدم عن "طوفان نوح".

وأيضاً: لدى السومريين قصص وأحداث مستقبلية تتعلق برسل وخلفاء إلهيين مهمين يبعثهم الله في الزمن الآتي، ولأهميتهم الكبرى في خط الرسائل شاع ذكرهم بين السومريين ومن قبلهم شاع ذكرهم بين أسلافهم (السومريين الأوائل) بتعليم وإخبار من الرسل الأوائل عليهم السلام، وقد اعترف كبار علماء الآثار والمختصون منهم بدراسة السومريات بالتحديد إلى وضوح انطباقها على رسل إلهيين بعثوا في الزمن اللاحق، بل بعد فترات زمنية طويلة تصل إلى آلاف السنين، ومن تلك الإخبارات مثلاً قصة النبي أيوب عليه السلام:

يقول السيد أحمد الحسن: (هناك أدلة ترشد إلى أنّ قصص السومريين ما هي إلا قصص واخبارات غيبية لقصص حقيقية آتية بعد السومريين في مسيرة الدين الإلهي. وأي قارئ للألواح الطينية السومرية سيرى أنها تخبر عن أنبياء ورسل جاءوا في زمن متأخر عنها، مثل الذي ورد في قصة النبي أيوب عليه السلام قبل أن يأتي أيوب عليه السلام وتدون قصة أيوب عليه السلام في التوراة وفي القرآن) انتهى^(١).

يقول كريم: (أنّ جميع الألواح وكسر الألواح المدونة فيها تلك المقالة السومرية تمتد في عهدها إلى أكثر من ألف عام قبل أن يدون سفر أيوب)^(٢).

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٥٤ - ٣٥٦.

٢- من ألواح سومر، كريم: ٢٠٨. وهذا مقطع منها:

(أنا الحكيم العاقل. لماذا أقيّد مع الأحداث الجهلة؟

أنا المدرك العاقل لماذا أحسب مع الجهال؟

الطعام وفروفي كل مكان ولكن طعامي الجوع.

في اليوم الذي قسمت فيه الانصبه كانت حصتي المخصصة لي العذاب والألم.

يا إلهي أريد أن أقف بين يديك،

أريد أن اكلمك..... وكلمتي أنين وحسرات، أريد أن أعرض عليك أمري وأندب مرارة سبيلي.

أريد أن أندب اضطراب.....

على أُمي التي ولدتني لا تنقطع عن بث شكاتي إليك.

لتكف أختي عن ترديد الاغنية السعيدة فلا تترنم بها.

لتبك وتنح بمصائبي بين يديك.

لتصرخ زوجتي بالثناء لعذابي،

وليندب المغني الماهر نصيبي التعس.....

إن الدموع والنواح والجزع والغم ملازمة لي.

يحدق بي العذاب والألم، كذلك الذي لم يقدر له سوى الدموع.

المرض الخبيث يعم جسمي...

يا إلهي، يا من أنت أبي الذي ولدتني، ساعدني على النهوض...

إلى متى ستتخلى عني وأبقى بلا هداية؟

مثال آخر: كلنا نعرف قصة النبي موسى عليه السلام التي وردت في نصوص الأديان الإبراهيمية وكيف أنه ولد في ظل حكم فرعوني ظالم كان يقتل الأولاد الذكور الجدد من بني إسرائيل؛ لأنه أخبر أن مولوداً منهم سيولد ويكون نهاية ملكه على يديه، فاضطرت أم موسى (بإلهام من الله) أن تضع وليدها موسى في صندوق صغير على جرف النهر، ليأخذه جريان الماء ويلقيه على ساحل بيت فرعون!

قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكْ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" القصص: ٧ - ١٤.

النصوص التي حكى حقة السومريين الأكاديين في بلاد ما بين النهرين تخبرنا عن قصة شبيهة بقصة موسى عليه السلام دلالة ومضموناً، لكن بطلها هو الحاكم سرجون الأكدي الذي ملك خمسين عاماً تقريباً بين عامي: ٢٢٧٩ - ٢٢٣٤ ق.م، وأسس امبراطورية

لقد قالوا كلمة صدق وحق: لم يولد لأُم طفل بلا خطيئة.

إن الطفل البريء لم يكن في الوجود منذ القدم.....

إن ذلك الرجل - قد استمع إليه الى بكائه ودموعه،

إن ذلك الشاب - قد استطاعت شكواه وندبه أن تسترضي قلب إلهه،

لقد طرد شيطان المرض الذي أحرق به ونشر عليه جناحيه،

والمرض الذي ضربه مثل قد أزاله وبدده،

وبدل مصير السوء الذي قدر عليه بموجب حكمه،

وبدل عذاب الرجل فرحاً وحيوراً).

أكديّة قبل مجيء موسى عليه السلام بمئات السنين، والسؤال: من أين عرف سرجون بقصة موسى وقبل أن يُبعث موسى^(١)؟!

الجواب: لا شك أنّ سرجون الأكدي وقومه هم جزء من المجتمع السومري، ولذلك هو يفتخر بملكه وعنايته لمن وصفهم بـ "ذوي الرؤوس السود" وهم أنفسهم سلف السومريين كما عرفنا سابقاً، والمجتمع السومري انتشرت فيه ثقافة الدين السومري بشكل عام وشاعت فيه الإخبارات المهمة التي بثها رسل الله في السومريين الأوائل ثم شاعت بين أحفادهم أعني: السومريين والاكاديين الذين اكتشفوا الكتابة ووصلتنا نصوصهم، وكما تناقلوا قصة أيوب عليه السلام (كما أوضح د. كريم) فمن المرجح أيضاً أنهم كانوا يتناقلون التبشير ببعث موسى عليه السلام ومجيئه بعد إبراهيم عليه السلام ليخلص المظلومين من العذاب الذي كانوا فيه، ويبدو أنّ سرجون أراد أن يتقمّص صفة موسى المبشّر به ليوهم الناس أنه مصداق البشارة ويجمع الناس حوله تمهيداً لملكه وحكمه، تماماً كما فعل العباسيون وغيرهم الذين حاولوا أن يتقمّصوا زوراً بشارة الرسول محمد صلى الله عليه وآله بالمهدي من ولده، فما فعله الامبراطور سرجون شبيه

١- دُونَ تاريخ سرجون الأكدي في لوح يعود إلى المكتبة الآشورية في القرن السابع ق.م، جاء فيه:

(١) - أنا سرجون، الملك القوي، ملك أكد

أمي كاهنة من الدرجة العليا، أما أبي فلا أعرفه ...

مدينتي، التي ولدت فيها هي "ازوبيراني" الواقعة على ضفاف نهر الفرات.

٥- حملت بي أمي، الكاهنة من الدرجة العليا وولدتني في السر

ثم وضعتني في سلة من القصب، وبالقارثيت بابي (أي: غطاءها)

والنهر حملي وجلبني حتى أقي، الساق

أقي، الساق، عندما رمى دلو، رفعتني إلى الأعلى

١٠- أقي، الساق، رباني كما لو أنني ابنه المتبني

أقي، الساق وضعتني للعمل في بستانه

في أثناء عملي في البستان، الإلهة عشتار قد أحببتني

حكمت مدة خمس وخمسين سنة، كملك

والناس ذوو الرؤوس السود قد اعتنيت بهم وقمت بحكمهم) سرجون الأكدي، د. فوزي رشيد: ٩٨.

وراجع أيضاً:

https://www.worldhistory.org/Sargon_of_Akkad/

بما فعله الجبار العباسي "أبو جعفر المنصور" الذي أسى ابنه بالمهدي ليوهم الناس أنه المهدي المبشّر به بهدف الاستحواذ على الملك والدنيا وكسب تأييد الناس لا أكثر؟!

وعموماً، قصة سرجون ترشدنا إلى أنّ المجتمع السومري كانت قد انتشرت فيه الاخبارات المستقبلية التي تتعلق برسل إلهيين مهمين، وموسى واحد منهم، كما يمكن أن يكون دموزي واحداً منهم أيضاً، وكذلك البطل جلجامش "المخلص" و"المنقذ" الذي تغنّت باسمه بلاد ما بين النهرين منذ القدم ولا زالت!

ملاحظة: لمعرفة من يكون دموزي المقتول ظلماً والرجل الذي ناح عليه السومريون آلاف السنين، وكذا من يكون جلجامش الذي تغنّوا باسمه آلاف السنين وورد ذكرهما بغزارة في نصوص سومر، يمكن مراجعة ملحق - ١ وملحق - ٢ في خاتمة هذا الجزء.

والنتيجة: إنّ الدين السومري هو دين آدم ونوح والرسل الأوائل عليهم السلام، أو هو دين "الحكماء" بحسب توصيف النص السومري لهم^(١).

١- (لقد قال الحكماء، كلمة صادقة ومعبرة:

لم يولد لأم ولد بلا خطيئة ومنذ القدم لم يكُ فتى بلا خطيئة) الأساطير السومرية، د. الحسيني: ٢٦.

تأثر أديان الشرق وفلسفتهم بالدين السومري:

على مستوى الأديان سأقتصر على بيان أبرزها، وهي: الهندوسية، والزرادشتية (المجوسية سابقاً)، والمناوية. وعلى مستوى الفلسفة سأذكر أهم أربعة فلاسفة، هم: سون تزو، بوذا، كونفوشيوس، لاوتزو.

الهندوسية:

الهندوسية أقدم ديانات الهند، ظهرت بحدود ٢٣٠٠ – ١٥٠٠ ق.م.

واضح أنّ زمان ظهورها متأخر جداً عن تاريخ بعثة آدم عليه السلام والرسائل الأولى، بل حتى مع افتراض أنّ جذور الهندوسية (كما يطرح البعض) إلى تاريخ أسبق من ذلك بقليل (وهو مجرد افتراض غير محسوم)، يبقى الفاصل الزمني بين التاريخ المذكور وبين تاريخ بعثة آدم والرسائل الأولى كبير جداً.

وأيضاً: علمياً، وقد تقدمت بعض الدراسات التي أكدت ذلك، ثبت حصول هجرات متتالية من (الوادي الخصيب قبل الطوفان، ثم من جنوب العراق بعد الطوفان وغمر حوض الخليج بالمياه) إلى بقية أنحاء العالم شرقاً وغرباً. وبالتالي، فمن الطبيعي أن ينتشر دين آدم وتعاليم الرسائل الأولى بصحبة المهاجرين الذين تحركوا من حوض الخليج (أو من جنوب العراق لاحقاً) شرقاً باتجاه إيران وأفغانستان وصولاً إلى أرض الهند^(١)، ولهذا نجد في تعاليم الديانة الهندوسية أموراً كثيرة لها أصل وأساس في الدين الإلهي الذي بُعث

١- يطرح المؤرخ البريطاني آرثر لولين باشام (١٩١٤ - ١٩٨٦ م) مجموعة من الأدلة على أنّ منشأ الديانة الهندوسية ليس أهل السند، وإنما هم مجموعة مهاجرة "اندو- آرايين" الذين انحدروا للهند من إيران وأفغانستان وكانت لديهم أفضلية حضارية على أصحاب الأرض، انظر: نشأة وتطور الهندوسية الكلاسيكية: ٧ - ٨. وعلمياً، كل من هاجر شرق وغرب حوض الخليج يعود في أصله إلى من استوطنوا في حوض الخليج كما رأيناه في الدراسات العلمية التي تقدمت، وأيضاً: المسألة مثبتة في الدراسات الجينية الحديثة: انظر: الدراسة التي قام بها د. توماس كيفسيلد وآخرون، تحت عنوان: "لا يزال التراث الجيني للمستوطنين الأوائل قائماً في كل من القبائل الهندية والطبقات السكانية"، يناير ٢٠٠٣ م، متاح على:

به آدم عليه السلام. لكن، بالتأكيد نحن لا نتوقع أن يبقى دين آدم كما هو عند بداية انتشاره في الهند، وإنما سيحصل فيه تغيير وتحريف، وهو أمر يحصل حتى في الأديان الإلهية وعلى رأسها رسل معروفون، ثم بمرور الوقت بدت الهندوسية كأنها دين برأسه، لكن مع هذا بقي فيها ما يكفي لبيان رجوع أصول الديانة الهندوسية إلى دين آدم عليه السلام وارتباطها به.

فمثلاً: على مستوى العبادات، نجد في دين آدم والأديان الإبراهيمية لاحقاً عبادات مثل الصلاة والصوم والحج والذكر والطهارة وتقديم القرابين والندور، وهي أمور موجودة لدى الهندوس أيضاً وإن كانت بصور وطرق تختلف عن التي بيّنها رسل الله في الدين الإبراهيمي، وهو أمر متوقع بحكم التحريف ومرور الزمن الطويل كما قلت.

فمثلاً: نجد عند الهندوس (١):

- الحج: قصد أحد البلاد أو الأنهار الطاهرة أو الأماكن التي تُعرف بفضيلة معينة كبلدة "بارانسي" التي يعتقد الهندوس أنّ من دخلها مذنباً ينال فيها العفو والغفران.
- الصوم: الإمساك عن الطعام فترة معينة، وهو مرتبط لديهم بمواقب فلكية.
- الذكر: يشمل قراءة الأوراد والدعوات والتسبيح، وكذا الوعظ والتذكير بلين وحكمة والأمر بالمعروف ونحو ذلك.
- الصلاة: تسبيح وسجود بطريقة معينة.
- تقديم القرابين: من قبيل تقديم نوع من الأطعمة والأشربة للآلهة مع ترتيل الأناشيد والقيام بحركات معينة.

وعلى مستوى الاعتقاد، يؤمن الهندوس بإله واحد أعلى يسمى "براهمن"، إله مطلق يتسامى عن الرؤية والوصف والإدراك، كما يؤمنون بآلهة متعددة (براهما = الخالق، وفيشنو = الرازق، وشيفا = المدمر)، وتوجد آلهة أخرى أيضاً لكنها محدودة ومنبثقة من الإله المطلق أو بمثابة تجليات له، وهي مسألة شبيهة بتعدد الآلهة وكثرتها في الدين

١- انظر: الأديان الوضعية، الديانة الهندوسية، جامعة المدينة العالمية، ٢٠١٠ م.

السومري، وقد تقدم بحثها وعرفنا أنّ لها أساساً وجذراً في الدين الإلهي لكن طاله التحريف بالتأكيد.

كذلك يؤمن الهندوس بخلود الروح "الأتمان"، وبالبعث والجنة وأموراً أخرى لها صلة بالدين الإلهي.

وأيضاً: لدى الهندوس كتاب يسمى "البهافيشيا بورانا" أي أحداث المستقبل أو المستقبل الذي حدث؛ لأن نصوصه صيغت بلغة الماضي، وهو كتاب يحكي نبوءات مستقبلية وأيضاً يحكي بعض سير الملوك القدماء، والملفت أنّ من يقرأ الفصول ٤ - ٧ من الكتاب يجدها تركز على قصة "أداما" وزوجته "هافيافاثي"، والقصة تكاد تكون نسخة مطابقة لقصة أبينا آدم وأمنا حواء صلوات الله عليهما التي ذكرتها الأديان الإبراهيمية إلى درجة أنّ بعض الهندوس لا يمانعون من أن يكون المقصود بهما آدم وحواء لكنهم - في نفس الوقت - يؤكدون على اعتبار النصوص الهندوسية والدين الهندوسي عموماً أصلاً للأديان الإبراهيمية!

بل حتى على مستوى أسماء بعض الأوصياء من ذرية آدم عليه السلام اعترف بعض علماء الهندوس بتطابقها مع الأسماء التي ذكرها الإنجيل^(١).

وأيضاً: من الأمور التي يؤمنون بها هي عقيدة المخلص والمنقذ في آخر الزمان التي تعتقد بها جميع الأديان الإبراهيمية، وأكد أنّ اعتقاد الهندوس بهذه العقيدة ما هو إلا اجترار لما هو مذكور في نصوص الدين السومري التي أكدت على وصف "جلجامش"

١- يقول سهوترا مهاراجا (عالم هندوسي): (بهافيشيا بورانا يسطر بعض أسماء ذرية أداما، فنجد هناك تشابهاً كبيراً بين الأسماء في هذه القائمة وأسماء ذرية آدم المذكورة في الإنجيل: سويت - شيث، أنه - أنوش، كيناش - قينان، مهلال - مهلاييل، فيرادا - يرد، هانوك - أخنوخ، موتاشيلا - متوشلخ، لومكال - لامك، نيوها - نوح، صاحب الطوفان والذي أصبح الأب الثاني للبشرية كما أخبره الإنجيل في سفر التكوين ٦ - ٩. نوح كان له ٣ أبناء سيم "سام"، شام "حام"، بهاف "يافث") عن بهافيشيا بورانا، سهوترا مهاراجا: ٤ - ٥، نقلاً عن الهندوسية في الميزان، جواد تقي الزعابي.

بالمخلص والمنقذ للإنسان^(١)، وبخصوص نصوص المسلمين فإنّ هذا الدور العظيم مناط بـ "المهدي" من آل محمد من ولد علي وفاطمة صلوات الله عليهم.

وفيما يخص الهندوس، باختصار: فإنّ القيم الأخلاقية عندهم لها عصور يقسمونها إلى أربعة عصور ويصورونها على شكل ثور له قوائم "أرجل"، فالثور ذو القوائم الأربعة يرمز لعصر الأخلاق الذهبي الذي يسود فيه العدل والخير ويسمونه عصر "ساتيا يوجا"، بخلاف العصر الفضي "تريتا يوجا" الذي يكون فيه الخير والفضيلة أقل من الأول ويرمز له بثور له ثلاث قوائم. أما العصر الثالث: فهو العصر البرونزي "دوابرا يوجا" الذي يتساوى فيه الخير والشر ويرمز له بثور له قائمتان. والعصر الرابع هو عصر الظلم والجور والظلام "كالي يوجا"، ويرمز له بثور له رجل واحدة.

عصر "كالي يوجا": يقابله في الأديان الإبراهيمية "آخر الزمان" الذي وصفته النصوص الدينية بأنه فترة امتلاء الأرض ظلماً وجوراً، وهي الفترة التي تسبق قيام دولة العدل الإلهي على يد المهدي صلوات الله عليه. وكما أنّ النصوص الدينية حددت بعض علامات آخر الزمان وسمات أهله الذين تضمحل عندهم قيم الخير والعدل والأخلاق والدين الحق وتنتشر بينهم صور الفساد المالي والأخلاقي والديني المزيف، فالحال يكاد يكون نفسه في النصوص الهندوسية التي ذكرت استبدال العلم والمعرفة والدين الحق والفضيلة بقيم فاسدة تعتمد المال وأكل الحرام والقوة والسمعة والنفاق والدين المزيف الذي يبثه كهنة ورجال محسوبين على الدين. وكذلك مسألة انتشار الحروب والجوع والمرض والخوف والتقلبات المناخية كالمطروشة الحر... إلخ كعلامات تميز عصر "كالي يوجا" لدى الهندوس، هي أمور واضحة ومذكورة بكثرة في نصوص الأديان الإبراهيمية كعلامة فارقة لتمييز "آخر الزمان"^(٢)!

وبخلاف هذا العصر، عصر "ساتيا يوجا": العصر الذهبي الذي يسود فيه العدل والخير ويُقضى فيه على الشياطين والظلم والكراهية فلا يبقى فقير ولا خوف ولا مرض

١- لمعرفة هذه الحقيقة بالتفصيل راجع ملحق ٢-.

٢- انظر: الهندوسية في الميزان، جواد تقي الزعابي: ٩٣-١٠٣، ١١٤.

ويكون الدين واحداً وتحصل البشرية على البركة العليا^(١)، وهي صفات نطقت بها نصوص الأديان الإبراهيمية إجمالاً كصفات تحصل عند بعثة المنقذ والمخلص الإلهي (المهدي).

المخلص "كالكي" عند الهندوس يظهر من خلال تجسد "فيشنو" أو "كريشنا" (آلهة عند الهندوس) في أحد الآلهة البشرية، ويقوم هذا الإله البشري بتنفيذ إرادة الإله المطلق "براهمن": "عندما تقل الدارما ويكثر الأدراما أرسل نفسي لحماية الخير وتدمير الشر ولإقامة الدارما آتي في الآدمي عصراً بعد عصر"^(٢)!

(في نهاية المطاف، في نهاية هذا العصر "كالي يوجا" سينزل الرب كريشنا في صورة كالكي ويزيل الأناس الشياطين تماماً من على وجه الأرض)^(٣).

وأيضاً: هناك صفات تمنحها نصوص الهندوس للمخلص، مثل^(٤):

- شخصية الله العليا على الأرض.
- منقذ الدين الأبدي، مخلص مناصريه من التعلق المادي.
- يظهر في بيت الروح العظيمة "أعظم براهماني".
- يصعد حصانه حاملاً سيفه بيده مسافراً حول الأرض.
- يقتل اللصوص الذين تجرأوا على ارتداء ملابس الملوك أو المدعين المحتالين.
- بعد تطهير الأرض من هؤلاء سيشرع سكان المدن بنسمات الهواء الباردة المحملة برائحة العطر المقدس، وستصبح عقولهم نقية.

الصفات المذكورة هي نسخة أخرى لما ورد في صفة المخلص في الأديان الإبراهيمية، فعندنا كمسلمين: المهدي هو خليفة الله في أرضه، وهو المنقذ الذي يعيد الدين غضاً

١- انظر: الأسطورة والأساطير الهندية، دونالد ماكينزي: ١٠٧ - ١٠٨؛ نقلاً عن الهندوسية في الميزان، جواد الزعابي.

٢- انظر: النص الديني الهندوسي في: بهاجافاد جيتا ٤ / آيات: ٧ - ٨؛ نقلاً عن المصدر السابق.

٣- سريرام بهاجافاتا بورانا، بهاكفيدانتا سوامي: كانتو ١٢، فصل ٢، نص ١٦؛ نقلاً عن المصدر السابق.

٤- انظر: سريرام بهاجافاتا بورانا، بهاكفيدانتا سوامي: كانتو ١٢، فصل ٢، نص ١٢ - ٢٥؛ نقلاً عن المصدر السابق.

جديداً، والمخلص الذي يبث في الناس علمه فيرتقي أصحابه وتكمل عقولهم، وهو من ذرية الرسول محمد ومن علي وفاطمة صلوات الله عليهم؛ سادة الخلق وأعظمهم قدراً، يحارب الظلم والباطل، وألد أعدائه هم المرتدون زي الملك الإلهي أي "الكهنة، الأنبياء الكذبة، العلماء غير العاملين"، وستملأ الأرض عدلاً وترتقي البشرية نحو الأفضل بعد القضاء على أسباب الظلم والانحراف.

نصوص الهندوس - ولا شك - تؤكد أنّ ديانتهم متصلة بالنبوءات والإخبارات والقصص التي بثها آدم ونوح والرسل الأوائل عليهم السلام، ولهذا وجدنا ذكر آدم ونوح والمهدي، وأكد أننا سنجد الرسل المهمين الآخرين لو تتبعنا نصوصهم بالتفصيل، فديانتهم وإن طالها تحريف كبير، لكن بقي فيها ما يكشف ارتباطها بدين آدم بوضوح.

الحقيقة، إنّ كل الأديان مصدرها واحد، بل الدين عند الله واحد وبه بُعث جميع الأنبياء والرسل، فالله بعث آدم عليه السلام بدينه لكن بمرور الوقت حصل الابتعاد عن جادة الرسل فبعث الله رسولاً مجدداً يعيد الحق والدين إلى نصابه، فكان نوح عليه السلام الذي بعث ليجدد دين الله (دين آدم) ويرفع عنه التحريف والزيف، وهكذا الحال بعد نوح عليه السلام إذ بعث الله إبراهيم عليه السلام ليجدد دين آدم ونوح عليهما السلام، ونفس الشيء حصل بعد إبراهيم عليه السلام إذ بعث الله رسوله موسى عليه السلام ثم عيسى عليه السلام وهكذا وصولاً إلى بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

إذن، دين الله واحد وهو دين آدم عليه السلام وهو نفسه دين محمد وآل محمد صلوات عليهم كمبدأ ومنتهى، لكن بعض الأديان المتفرعة من الدين السومري (دين آدم ونوح عليهما السلام) لما اختص بمكان معين من الأرض كالهند (بالنسبة للديانة الهندوسية)، فلما حصل التحريف فيه بمرور الوقت لم يتدارك أتباعه حالهم بالإيمان بالرسل اللاحقين ليسمحوا للتصحيح الرسالي أن يخفف من حالة التحريف والتزوير التي حصلت، وبسبب عدم إيمانهم بالرسل التاليين لآدم ونوح عليهما السلام كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم زادت الهوة بين الدين الإلهي وبين الهندوسية وبلغ التحريف فيها حدّاً بدت وكأنها ديناً وضعياً أرضياً، لكن الحقيقة إنّ أصول الهندوسية تعود إلى الدين السومري (دين آدم ونوح عليهما السلام) الذي سبق الأديان الإبراهيمية الثلاثة المعروفة، مع ملاحظة أنّ التحريف (مهما بلغ مداه) لم يمحُ الحقيقة كاملة وإنما

بقي من الحق ما يكفي لبيان ارتباط الهندوسية بالدين الإلهي، ولهذا وجدنا ضمن تعاليم الهندوس ما يلتقي مع دين الله كما لاحظنا.

ملاحظة: نفس الكلام الذي ذكرناه بخصوص الديانة الهندوسية يجري مع الزرادشتية والبوذية وغيرها من الديانات والفلسفات الشرقية، فأصولها ترجع إلى الدين الإلهي الذي بعث الله به آدم عليه السلام ثم أعقبه عليه نوح عليه السلام وهكذا، ومن يبحث فيها يجد الربط بينها وبين الدين الإلهي في أصول كثيرة كما رأيناها في الديانة الهندوسية.

يقول السيد أحمد الحسن: (الهندوسية والديانات الشرقية والبوذية ومثيلاتها مرتبطة بالدين الإلهي أو متأثرة به، وستجد كثيراً من أطروحاتهم كالتى عن المخلص أو المنتقذ في آخر الزمان أو بعض العبادات والقضايا الأخلاقية قريبة من أطروحات الإسلام والمسيحية واليهودية، والسبب أنّ الجميع يرجعون لنفس المنطقة ونفس الإرث الحضاري والديني فالكل يرجعون لآدم ومنطقة آدم ودين آدم الإلهي وما فيه من إرشادات وتبشير. نعم، هناك تحريف ولكن أيضاً هناك بقايا من الحق، وهذا الأمر بينته في كتاب "وهم الإلحاد" وبيّنت أنّ الجميع يرجع للمجموعة التي هاجرت من أفريقيا ثم استقرت في منطقة الخليج الحالي قبل أن تغمره المياه، وآدم ودين آدم كان هناك، ومن هناك هاجر الناس لشرق آسيا وغيرها حاملين معهم تعاليم آدم ودين آدم، ولكن الأمور لا تبقى كما هي بل تتغير وتحرف مع الزمن) انتهى^(١).

١- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن، وانظر أيضاً: بريد الصفحة، السيد أحمد الحسن: ٢ / ٢٧٣.

الزرادشتية:

ديانة شرقية ظهرت في بلاد فارس والهند في القرون العشر الأخيرة قبل الميلاد، وبحلول القرن الخامس ق. م تقريباً أصبحت ديانة أغلب الفرس وبعض الهنود. وسميت بهذا الاسم نسبة إلى زرادشت الذي يقدر تاريخ وجوده بين القرنين: ١٠ - ٦ قبل الميلاد.

الزرادشتية هي امتداد للمجوسية التي ظهرت كديانة قبل الزرادشتية، وزرادشت في الحقيقة جاء متأخراً عن المجوسية ووجد ديانة قائمة بالأصل.

عن الإمام الصادق عليه السلام في إجابة أسئلة أحد السائلين:

(قال: فأخبرني عن المجوس أفبعث الله إليهم نبياً؟ فإني أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة، وأمثالاً شافية، يقرون بالثواب والعقاب، ولهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السلام: ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله، فأنكروه. وجحدوا كتابه.

قال: ومن هو فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟

قال عليه السلام: إنَّ خالداً كان عربياً بدوياً، ما كان نبياً، وإنما ذلك شيء يقوله الناس.

قال: أفزردشت؟

قال: إن زردشت أتاهم بزمزمة، وادعى النبوة، فأمن منهم قوم وجحد قوم، فأخرجوه فأكلته السباع في برية من الأرض.

قال: فأخبرني عن المجوس كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم، أم العرب؟

قال: العرب في الجاهلية، كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس وذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء، وجحدت كتبهم، وأنكرت براهينهم، ولم تأخذ بشئ من سننهم،

وآثارهم، وأن كيخسرو ملك المجوس في الدهر الأول قتل ثلاثمائة نبي، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، والعرب كانت تغتسل والاغتسال من خالص شرايع الحنيفية، وكانت المجوس لا تختن، وهو من سنن الأنبياء، وأول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله، وكانت المجوس لا تغسل موتاهم ولا تكفنها، وكانت العرب تفعل ذلك، وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحارى والنواويس، والعرب توارىها في قبورها وتلحدها، وكذلك السنة على الرسل^(١).

قوله: "إنَّ زرادشت أتاهم إلخ": يؤكد أنَّ المجوسية دين قائم قبل زرادشت، وبالتالي فالزرادشتية هي امتداد للمجوسية.

وبخصوص المجوس، يقول السيد أحمد الحسن:

(بالنسبة للمجوس هم أهل كتاب، ولكنهم مثل غيرهم طال عليهم الأمد وانحرفوا عن جادة الحق والصراط المستقيم. وأما أصل ديانتهم فترجع للديانات الإلهية السومرية القديمة. وأما زرادشت فهو شخص جاء متأخراً عن المجوسية الأصلية، يعني جاء لديانة قائمة أصلاً) انتهى^(٢).

ما يهمننا الآن هو معرفة رجوع الزرادشتية إلى الدين السومري القديم (دين آدم ونوح والرسل الأوائل عليهم السلام)، وهو أمر يمكننا إحرازه بعد الالتفات إلى أمرين:

الأول: القرب الجغرافي، أعني قرب بلاد فارس وما جاورها لمنطقة بعثة الرسل الأوائل سواء منطقة حوض الخليج قبل غمره بمياه البحر أو بلاد ما بين النهرين التي نزح لها نوح والمؤمنون به بعد الطوفان ثم تعاقب فيها بعثة الرسل من بعده، فالمنطقتان متجاورتان ومن المنطقي جداً تأثر بلاد فارس بتعاليم الرسل وكما ثبت علمياً وجود هجرات حصلت

١- الاحتجاج، الطبرسي: ٢ / ٩١ - ٩٢.

٢- من حوار خاص مع السيد أحمد الحسن.

من حوض الخليج وجنوب العراق باتجاه الشرق يثبت أيضاً أنّ المهاجرين حملوا معهم الدين الإلهي السومري إلى تلك المناطق.

ولهذا أشار الامام الصادق عليه السلام في النص المتقدم أنّ المجوس من أهل الكتاب، والزرادشتية امتداد للمجوسية لا أكثر، وهذا يعني أنّ سكان بلاد فارس ومن جاورهم كالهند بلغهم الدين الإلهي، والدين الإلهي يعني عقيدة وشريعة وأخلاق، وكل هذا نجده في الديانة الزرادشتية بوضوح.

الثاني: كثير من أصول الديانة الزرادشتية له أصل واضح في الدين السومري الإلهي القديم، وهذا الأمر يمكننا التوصل له من خلال مراجعة أهم كتاب للزرادشتيين وهو الـ "أفستا" أو "أبستاق" ويعني: الأساس أو المتن الأصلي.

أفستا: هو الكتاب المقدس الذي يجمع نصوص منسوبة إلى زرادشت، وهو المرجع الأساسي للزرادشتيين الذي يبين أصول اعتقادهم وأحكام شريعتهم وتاريخ ديانتهم. والكتاب له أسفار أو نسل، وله أيضاً شرح مباشر وهو "الزند"، والزند له تفسير هو "البازند"، كتب باللغة الفهلوية (الفارسية القديمة) في وقت متأخر في القرن الثاني والثالث الهجري (السابع أو الثامن الميلادي)، والبازند له شرح هو "الايارده"^(١).

وعموماً، يحوي "أفستا" على أسفار كثيرة، لكن الكتاب فقدت جميع نسخه بعد غزو الإسكندر المقدوني لبلاد فارس سنة ٣٣١ ق.م، وفقدت معه تفاسيره أيضاً. وصاروا يتداولون المحفوظ منه شفاهة قبل إعادة كتابته في فترة لاحقة. وفي منتصف القرن الأول الميلادي شرع فيلوجيسيس الأول "ملك فارس" في تدوين الأفستا اعتماداً على ما بقي في حافظة الناس، ثم أكمل المهمة الملك أردشير "مؤسس الدولة الساسانية" وبلغ عدد المدون منه ثلث الافستا الأصلي.

١- يقول المسعودي: (ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه، وسموا التفسير زنداً، ثم عمل للتفسير تفسيراً، وسماه بازند، ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيراً لتفسير التفسير وشرحاً لسانر ما ذكرنا، وسموا هذا التفسير يارده، ...) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ١ / ٢٥٤.

وللأفستا عدة أسفار أو نساك معروفة، أحدها - وهم أهمها - مختص بالترانيم المنسوبة إلى زرادشت، وهو المعروف بـ "ياسنا" أي: التبجيل أو التقديس أو العبادة ويتألف من ٧٢ فصلاً؛ كل فصل منه يسمى "هايتي". وثانيها: "فيسبرد" المختص بالطقوس والقرايين الدينية. وثالثها: "فينديداد" المختص بأحكام الطهارة الروحية والجسدية، ويتألف من ٢٢ فصلاً كل فصل يسمى "فاركارد". ورابعها: "ياشت" المختص ببيان أناشيد العبادة، ويحتوي على ٢١ نشيداً.

من خلال مطالعة نصوص "أفستا" يتضح أنّ زرادشت يؤمن بالإله الواحد المطلق "أهورا مزدا" الذي يتصف بأنه هادي ومعطي ومنعم ومتفضل وحكيم وعادل ... إلخ، وهو أصل اعتقادي يلتقي مع الدين الإلهي السومري والإبراهيمي بشكل واضح.

وهذه أمثلة من النصوص التي وردت في الكتاب المذكور:

(١٥) علمني يا مزدا أفضل التعاليم والأفعال، علمني صلاة تسبيح العقل الخير والحق من خلال سيادتك يا أهورا. أنت تجدد الحياة وفق إرادتك^(١).

(٣- هذا ما أسألك عنه يا أهورا فأصدقني القول: من كان أباً للحق منذ بداية النشوء؟ من حدد مسار الشمس والنجوم؟ من سواك رفع القمر إلى الأوج ومن هبط به إلى المحاق؟ من غيرك يفعل هذا؟ هذا ما أريده أن يكون يقيني، وأود معرفة المزيد يا مزدا. ١٩- هذا ما أسألك عنه يا أهورا فأصدقني القول: ما هو العقاب الحالي للذي لا يعطي أجراً لمن يستحقه، للذي لا يفي بوعدده، اللذان يعرفان بما سيلقياه في الآخرة؟)^(٢).

(٩- من الذي يعتبر نفسه مؤمناً، ذلك الذي علمنا أنك المساعد الأفضل، وأن أحكام الحق المقدس فوق كل الأفعال؟ وأن القانون سيعلو من شأن خالق النور. أنهم يريدون أن يسمعو من خلال الفكر الخير. ١٠- أياً من كان رجلاً أو امرأة، يا أهورا مزدا، الذي حقق لي كل ما اعتبرته

١- هايتي ٣٤ (مشينة أهورا مزدا)، أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، د. خليل عبد الرحمن: ٧٣.

٢- هايتي ٤٤ (وصايا على صيغة أسئلة)، المصدر السابق: ٧٧، ٧٩.

الأفضل من أجل العالم، امنحه الجنة ثواباً على عمله الصادق، وكذلك الناس، الذين سأقنعهم بعبادتك (١).

(٤- أعبدك يا أهورامازدا وأمجدك مع الحق والفكر الأسى والسيادة التي تمنيتها للإنسان التقي، لعلها تصير قاضي الطريق المطيع نحو مقام النور. ٨- بيدين مرفوعتين نحوك يا مازدا، ودائماً بترانيم التمجيد والحمد سوف أتقرب منك. أنت مثل الحق تكون إلى جانب عبادة الإنسان المؤمن. أنت مع كل قدرة الفكر الطيب. ٩- مع تلك الصلوات سأقف بين يديك وأمجدك يا مازدا كحق بأعمال الفكر الخير. إذا كنت سيد قدري في الثواب ألا ينبغي أن أثبت الحياة في ترانيم الإنسان الحكيم؟ ١٠- الأعمال التي سأقوم بها والتي قمت بها وهذه الأعمال الثمينة على مرأى منك بوساطة الفكر الخير، كشعاع الشمس وكأنها فجر الأيام المتألى، كلها من أجل تمجيدك يا أهورامازدا الحق والعدل. ١١- سأعلن نفسي مسيحاً وممجداً لك يا مازدا ما دمت أملك القوة والطاقة. عسى أن يكمل خالق الكون الإصلاح والتجديد من خلال الحق والعقل الخير وفقاً لإرادته (٢).

(١- إنني أوجه ابتهالاتي إلى أهورامازدا. وأتضرع إلى رب البيت، ٥- مثلك يا أهورامازدا مثلما فكرت، وتكلمت، وفعلت، وقمت بالأعمال الجيدة [من أجلنا]، نقدم إليك ثناءنا، نعبدك بقرابيننا نخشع في حضرتك بهذه العطايا، ونوجه صلواتنا إليك اعترافاً بأثامنا (٣).

(١- سبحانك يا أهورامازدا لك الترانيم وإياك نعبد أيها المستقيم الأفضل، أجل، نقدم لك الترانيم بفخر، ونصرح لك ذلك (٤).

واضح أنّ النصوص تؤكد الإيمان بالله وعبادته ووحية "الفكر الخير"، وأنه الخالق للكون وما فيه من شمس وقمر ونجوم ... إلخ، وكذلك الإيمان بوجود الآخرة والبعث والجنة والشفاعة والتوسل وغير ذلك.

١- هايي ٤٦ (صلاة زرادشت بعد منقاه)، المصدر السابق: ٨٣.

٢- هايي ٥٠ (في حضرة أهورامازدا)، المصدر السابق: ٩١.

٣- هايي ١٣ (ابتهالات واعتراف بالفضل)، المصدر السابق: ١٤٥.

٤- هايي ٤١ (الصلاة على أهورا الملك) المصدر السابق: ١٧٤.

فمثلاً: بخصوص الشفاعة والتوسل بالأولياء، كما لدينا نحن المسلمون التوسل إلى الله بالأولياء وعلى رأسهم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، وهو الدين الحق الذي تعود أصوله إلى الدين السومري (دين آدم ونوح عليهما السلام)، بحيث بلغ ببعض السومريين إلى حد تأليه الأولياء والصالحين، يوجد مثل ذلك في الديانة الزرادشتية إذ ورد في نصوصهم: "الأسرة الصالحة" أو "المقدسین الخالدين" أو "الخالدين الكرماء الذين يحكمون بالعدل"، وهذه نماذج من النصوص:

- ٦- نتقرب منك بنسب الأسرة الصالحة، والاستقامة، وذلك القانون الطيب للازدهار والتقوى^(١).

- ٥- مثلما خلقتنا، ومثلما خلقت المقدسين الخالدين دافع عنا^(٢).

- ٩- إلى الخالدين الكرماء الذين يحكمون بالعدل ويتصرفون بالكل على نحو صحيح، إلى الأحياء دائماً والمساعدین دائماً. ممن يلتزمون الفكر الطيب للسيد الأعلى^(٣).

و أيضاً: النصوص تؤكد وجود الصلاة عندهم، بل في خمسة أوقات في اليوم أيضاً:

- (الصلاة هي الاستقامة الفضلى، إنها الخير لهذا [الإنسان]، إذا اتجه نحو الاستقامة الفضلى حيث الصدق)^(٤).

- ورد في "أفستا الصغرى": (٤- كاه: [الوقت، وهو أقسام اليوم أيضاً] خمس صلوات مطابقة لأقسام اليوم الخمسة: الفجر، الظهر، العصر، المغرب، العشاء)^(٥).

من يطالع نصوص كتابهم أيضاً يجد - إضافة إلى جانب الاعتقاد - الشرائع المختصة بالصلاة والأدعية والنذور وتقديم القرابين، وكذلك الطهارة والنجاسة

١- هايي ١٣ (ابتهالات واعتراف بالفضل)، المصدر السابق: ١٤٦.

٢- هايي ٥٨، (مانترا القطيع)، المصدر السابق: ١٨٦.

٣- هايي ٢٤ (اهداءات)، المصدر السابق: ١٦٢.

٤- هايي ٨ (تقديم قربان اللحم بشكل خاص)، المصدر السابق: ١٢٧.

٥- هورد أفستا (أفستا الصغرى)، المصدر السابق: ٧٠٩.

(الروحانية والجسدية) وأحكام التوبة والأموات والزواج والتعامل مع الناس، إضافة إلى جانب الأخلاق وما يتصل بها.

وكل هذه الأمور موجودة في الدين الإلهي السومري القديم الذي بعث الله به رسله كما عرفنا. نعم، انحرفت المجوسية والزرادشتية عن جادة الدين الإلهي التي خط تعاليمها رسل الله بمرور الوقت؛ خصوصاً بعد انفراد رجال الدين باتباعها جيلاً بعد جيلاً، وهذا الأمر حصل مع ديانات أخرى أيضاً كما رأينا في الهندوسية مثلاً.

وما يزيد تأكيد ارتباط الزرادشتية (والمجوسية بشكل عام) بالدين الإلهي السومري هو وجود الاعتقاد بالمخلص والمنقذ الذي يبعثه الله في آخر الزمان في نصوصهم، تماماً كما رأينا في الديانة الهندوسية، وهذا نص يؤكد ذلك:

(٢٣- كل هذا سيحصل في نهاية الأزمان يا زرادشت سبيتاما سبهلك الكثير من الأعداء بعدد سقوط الأوراق من الشجيرات في ليلة شتوية قارسة. وعندئذ ستنبعث البلدان الآرية، التي خلقتها أنا أورمازد.... سيأتي نيريوسانك مع سروش الصالح... وسينادي: تقدم أكثر أيها الماجد بيشوتان! أيها الـ "جيتروميان" ابن فيشتاسيا، البطل الكياني ومعيد بناء العقيدة! تقدم أكثر نحو البلدان الآرية التي خلقها أورمازد وأعد سلطة الإيمان الكاملة ٤٠- سينتهي زمن النهب وسيحل زمن الهدوء، سيعيدون تنصيب نار "فارنياك" ونار "كوشناسب" ونار "بورزين - ميه" في الأماكن الملائمة لها، ستؤمن لها الأحطاب والمواد العطرية، سيصيب روح الشر مع جميع جِرّص الظلام الضعف واليأس. ٤١- سيقول بيشوتان المجيد: "فلهلك الأبالسة، فلهلك إنسان الأبالسة المظلمين! فلتزدهر ديانة مازدا ياسنا، فلتزدهر هي أبداً! فلتزدهر عائلة الشرف وكل من يقوم بأعمال الخير! فليستلم النصير عرش الديانة وسيادتها. ٤٢- ومن ثم سيأتي بيشوتان المجيد مع مئة وخمسين من أنصاره، لابسين السواد، وسيعيدون حكم الديانة ويرفعون مجده عالياً) (١).

١- كيف سيعاد بناء الإيمان - فصل ٣، أفسنا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية: ٧٤٣ - ٧٤٦.

المخلص في آخر الزمان هو "بيشوتان" المجيد، وأنصاره المقربين منه يبلغ عددهم بضع مئات ولباسهم السواد، وهذا يذكرنا بالنصوص التي ذكرت مهدي آل محمد الذي يبلغ عدد المقربين منه ٣١٣ رجلاً ولباسهم السواد أيضاً^(١).

وبخصوص تعظيم الزرادشتيين (والمجوس عموماً) للنار، كما هو الثابت في نصوصهم والمعروف عنهم:

يقول الشهرستاني: (والمجوس إنما يعظمون النار لمعانٍ فيها منها أنها جوهر شريف علوي، ومنها أنها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام، ومنها ظنهم أن التعظيم لها بنجهم في المعاد من عذاب النار، وبالجملية هي قبلة لهم ووسيلة وإشارة والله أعلم)^(٢).

أقول: من جهتنا، يمكننا أن نتصور سبباً آخر لهذا التعظيم، وهو سبب له أصل وجذر في الدين الإلهي لكن مجتمع المجوس حوّروه وحرفوه عن قصده وإشارته التي ذكرت في تعاليم الرسل والنصوص الإلهية التي نطقوا بها، من قبيل قوله تعالى: "إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" النمل: ٧ - ٨.

١- من الروايات التي أشارت لذلك: (عن أبي خالد الكابلي، عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قال: المفقودون عن فرشهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر فيصبحون بمكة، وهو قول الله عز وجل: "أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً" وهم أصحاب القائم عليه السلام) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ٦٥٤.

ومنها: (عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فانتوها فإن فيها خليفة الله المهدي) مسند أحمد: ٥ / ٢٧٧؛ بحار الأنوار، المجلسي: ٥١ / ٨٢.

٢- الملل والنحل، الشهرستاني: ٢٥٥ / ١.

المانوية:

وليس بعيداً عن محيط نشأة الديانة الهندوسية والزرادشتية، جاءت الديانة المانوية التي تنسب إلى صاحبها "ماني بن فاتك" المولود في مطلع القرن الثالث الميلادي وتحديداً في عام ٢١٦ م، أي بعد الزرادشتية بسبعة أو ثمانية قرون تقريباً، ويذكر أن "ماني" يقول عن نفسه: إنه "المبعوث من أرض بابل" (١)!

هذا من حيث المكان، وأما من حيث الزمان: فقد ظهرت ديانته بعد رفع السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بقرنين تقريباً. وكان ماني يعتقد بنبوة عيسى عليه السلام، وتأثر بمحيطه أيضاً، وحيث إن وادي الرافدين في ذلك الوقت كان تحت سلطة الفريثيين الفرس (٢) الذين يعتقدون بعقيدة الثنوية "النور والظلمة" كأصلين يرجع إليهما الخير والشر في عالم الوجود (٣)، ذهب ماني إلى نفس هذا الاعتقاد أو قريب منه، فكان معتقده خليطاً من النصرانية والمجوسية!

عن الإمام الصادق في إجابة أسئلة أحد السائلين:

(قال: فما قصة ماني؟ قال: متفحص أخذ بعض المجوسية فشأها ببعض النصرانية، فأخطأ الملتين ولم يصب مذهباً واحداً منهما، وزعم أن العالم دُبر من إلهين، نور وظلمة، وأنَّ النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذبته النصراني، وقبلته المجوس) (٤).

قال الشهرستاني: (المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن اردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام أحدث

١- انظر: ماني والمانوية، جيو وايد نغرين: ٤١، تعريب: د. سهيل زكار.

٢- انظر: المصدر السابق: ١١، تعريب: د. سهيل زكار.

٣- الثنوية: أي القائلون برجع الخير والشر إلى النور والظلمة "يزدان وأهرمن"، وهم طائفتان: الأولى: تقول بأنَّ النور والظلمة أصلين، لكن القديم هو النور وأما الظلمة فهي محدثة، وهو قول المجوس. والثانية: تقول بأنَّ النور والظلمة أصلين أزليين قديمين متساويين، وهو قول المانوية. انظر: الملل والنحل، الشهرستاني: ١ / ٢٣٣، ٢٤٤.

٤- الاحتجاج، الطبرسي: ٩١ / ٢.

ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.

حكي محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم أن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكر وجود شئ إلا من أصل قديم وزعم أنهما لم يزالا قوين حساسين دراكين سميعين بصيرين^(١).

التحق ماني في شبابه بالطائفة المعمدانية (طائفة مسيحية) وتعلم منها وعُرف عنه الزهد والتقشف والامتناع عن تناول اللحوم والخمر ومباشرة النساء، ثم هجرها بعد ذلك وانتهج قناعاته الخاصة بعد تفحصه وبحثه، ولهذا كانت أفكاره مزيجاً من المسيحية التي اكتسبها والمجوسية التي ينتهي لها بحسب أصوله الفرثية وتأثيرها من معتقدات^(٢).

علماً، أن أول نشاطه الدعوي كان في سنة ٢٤٠ م، ولم يكن في وادي الرافدين كما كان متوقعاً، وإنما في الهند التي مكث فيها سنة ثم ذهب منها إلى بلاد فارس كما هو يقول: "بدأت التبشير في السني الأخيرة بحكم الملك أردشير، فقد أبحرت إلى بلد الهنود، وبشرت بينهم بأمل الحياة، واخترت هناك نخبة جيدة". "في السنة التي توفي فيها الملك أردشير، وأصبح ابنه شابور ملكاً وخليفة له أبحرت من بلاد الهنود إلى بلاد الفرس، وسافرت من بلاد فارس إلى بلاد بابل إلى ميسان وخوزستان"^(٣).

وهكذا شيئاً فشيئاً اقترب ماني من الملك شابور وأصبح مرعياً من قبله ومقرباً في بلاطه، وكادت المانوية أن تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الساسانية لولا قوة التقاليد المحافظة التي تعطي للزرادشتية والمجوسية بشكل عام الكلمة العليا. لكن الملك بهرام الأول انقلب على ماني بالنهاية وقام باعتقاله وتعذيبه إلى أن مات في سنة ٢٧٧ م.

١- الملل والنحل: ١ / ٢٤٤.

٢- انظر: ماني والمانوية، جيروايد نغرين: ٣٩، ٤٣، تعريب: د. سهيل زكار.

٣- انظر: المصدر السابق: ٤٥ - ٤٦.

ما يهمننا في هذا الإجمال للديانة المانوية هو معرفتنا بأنها مزيج من الديانتين المسيحية والمجوسية كما ذكر الإمام الصادق صلوات الله عليه، وقد عرفنا أنّ المجوسية متأثرة بالدين الإلهي السومري (دين آدم ونوح عليهما السلام)، وأما المسيحية فواضح أنها دين إلهي إبراهيمي، وإبراهيم عليه السلام رجل سومري كما هو معلوم، وهذا يعني أنّ المانوية متأثرة بالدين السومري في نهاية المطاف، ولهذا يجد القارئ لنصوصها وتعاليمها أصول كثيرة تربطها بالدين الإلهي، سأكتفي بذكر مثال يتعلق بالاعتقاد بالمخلص والإنسان الأول صاحب الخطيئة:

(وقد ألحّت إحدى القصائد الموجودة بين المزامير القبطية إلحاحاً خاصاً على مهمة المخلص باعتبار كونه محارباً شجاعاً، ورأته بشكل رئيسي في ضوء المنتصر الذي انتصر على قوى الظلام بسبب جلده وجرأته، ومع ذلك استلزم وجوده وجود سمة أخرى له وهي سمة المعاناة؛ لأنه مخلص الإنسان الأول لم يحقق انتصاره إلا بعد هزيمة ظاهرية فقط.

لقد ارتدى الإنسان الأول درعه وشرع بالقتال مع قوى المادة والظلام والشر، وتكون درعه من خمسة من عناصره النورانية، لم يشكّل مجموعها درعه فحسب، بل شكّل أيضاً جوهره وذاته الحقيقية وروحه، ولذلك يمكن وصفها بشكل رمزي على أنها "أبناؤه الخمسة"، وهزم الشيطان "أمير الظلام" وحشوده الإنسان الأول وسلبوه درعه، أو وفق ما ذكرته رواية رمزية أخرى: التهمت الشياطين أبناؤه الخمسة.

ومع ذلك كانت هذه الهزيمة مقدمة للانتصار فقد اعتبرت طوعية إذا جاز التعبير؛ إذ نزل الإنسان الأول بمحض إرادته الحرة إلى عالم الظلام والمادة، وسمح بتبديد عناصره النورانية،^(١).

أما البشارة بالمخلص والمنقذ فأمره واضح في الدين الإلهي وكانت له حصة كبيرة في نصوص الدين السومري كما عرفنا (وللمزيد: راجع ملحق - ٢)، وأما تبديد آدم (الإنسان الأول) بأنوار أبناؤه الخمسة التي شكّلت روحه وحقيقته، بل وسجدت الملائكة له لأنه حامل لهم في صلبه، فيمكن مراجعة بحث "خلق آدم والنفس الإنسانية" ومعرفة امتحانه

١- انظر: ماني والمانوية، جيروايد نغرين: ٧٠ - ٧١، تعريب: د. سهيل زكار.

في جنة السماء الأولى وصدور الخطيئة منه والتي أعقبتها نزوله إلى الأرض وصولاً إلى ولادته وظهوره في العالم الجسماني، وكذلك مراجعة بحث "آدم الرسول محمد" وبحث "معصية آدم وتوبته" لنعرف حقيقة خطيئته وطريق توبته ومعنى الأنوار الخمسة من أبنائه^(١):

(عن الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها: فمنهم من يروي أنها الحنطة، ومنهم من يروي أنها العنب، ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد، فقال: كل ذلك حق. قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال: يا أبا الصلت إن شجر الجنة تحمل أنواعاً فكانت شجرة الحنطة وفيها عنب، وليست كشجر الدنيا، وإن آدم عليه السلام لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاد ملائكته له وبإدخاله الجنة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه، فناده: ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وزوجه فاطمة سيدة نساء العالمين، والحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة" فقال آدم عليه السلام: يا رب من هؤلاء؟ فقال عز وجل: من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء والأرض، فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جوارِي. فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم فتسلط الشيطان عليه حتى أكل من الشجرة التي نهي عنها. وتسلط على حواء لنظرها إلى فاطمة عليها السلام بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل آدم فأخرجهما الله عز وجل عن جنته، وأهبطهما عن جواره إلى الأرض)^(٢).

١- عن ابن عباس، قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لما نزلت الخطيئة بآدم، وأُخرج من الجنة، أتاه جبرئيل فقال: يا آدم ادع ربك، فقال: يا حبيبي جبرئيل، بما أدعو؟ قال: قل رب أسألك بحق الخمسة الذين تخرجهم من صلي آخر الزمان، إلا ثبت عليّ ورحمتي، فقال له آدم عليه السلام: يا جبرئيل، سمّهم لي، قال: قل: اللهم بحق محمد نبيك، وبحق علي وصي نبيك، وبحق فاطمة بنت نبيك، وبحق الحسن والحسين سيدي نبيك، إلا ثبت علي فارحمي، فدعا بهن آدم، فتاب الله عليه، وذلك قول الله: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه" وما من عبد مكروب، يخلص النية، ويدعو بهن، إلا استحباب الله له) تفسير فرات الكوفي: ٥٧ - ٥٨: مستدرک الوسائل، الميرزا النوري: ٥/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

٢- عيون أخبار الرضا، الصدوق: ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

واضح أنّ الشجرة تعني علم ومقام محمد وآل محمد صلوات الله عليهم، ولما كانت خطيئة آدم لها علاقة بالتجاوز على مختصاتهم، كانوا هم السبب في أن يقبل الله توبته.

ثم بعد صدور الخطيئة من آدم عليه السلام، اقتضت مشيئة الله أن يكون صدور الذنب والتوبة منه سنة في ولده: قال الإمام الباقر عليه السلام: "لولا أنّ آدم أذنب ما أذنب مؤمن أبداً، ولولا أنّ الله عز وجل تاب على آدم ما تاب على مذنب أبداً"^(١).

حكماء الشرق:

تأثر الشرق بالدين الإلهي السومري لا يقتصر على جانب الأديان كما رأيناه في الهندوسية والمجوسية والمناوية وإنما امتد إلى الحكمة والفلسفات والأساليب التي تعتمد على الصفاء الروحي والجانب الأخلاقي عموماً.

وفي هذا الصدد، عادة ما يشار إلى الشخصيات التي عرف عنها الحكمة في الشرق وانتشر وذاع صيتها منذ ظهورها، وأهم تلك الشخصيات: سن تزو "Sun Tzu"، بوذا، كونفوشيوس، لاوتسي "Laozi". وسأعرض لكل منهم باختصار:

سون تزو:

جنرال وخبير عسكري صيني معروف، ولد عام ٥٤٤ ق.م، يعد من أكبر المفكرين والفلاسفة الحكماء الذين أثروا بشكل كبير وملحوظ على الثقافتين الصينية والعالمية.

له كتاب اسمه "فن الحرب Art of War"^(٢) الذي يعد بمثابة أطروحة استراتيجية وفلسفية قديمة تركز على كيفية إدارة الصراع وتحقيق النصر بأقل قدر خسائر ممكنة.

١- علل الشرائع، الصدوق: ١ / ٨٤.

٢- نظراً لأهمية الكتاب، تمت ترجمته إلى مختلف لغات العالم الأساسية، وبالنسبة إلى نسخته العربية فهي تعتمد على النسخة الإنجليزية ولم يترجم من اللغة الصينية مباشرة، انظر على سبيل المثال: فن الحرب، سون اتزو، إعداد أحمد ناصيف، تدقيق: طه عبد الرؤوف، دار الكتاب العربي - حلب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م.

الكتاب بمضمونه يتجاوز القتال العسكري ليشمل إرشادات قابلة للتطبيق في القيادة والأعمال والتعامل مع التحديات في الحياة اليومية عموماً.

ويمكن تلخيص محتوى الكتاب الأساسي في المبادئ التالية:

١- الهدف الأسمى: النصر بلا قتال. بحسب سن تزو: "الفن الأسمى للحرب هو إخضاع العدو دون قتال"، حيث يؤكد على أن الانتصار الاستراتيجي الحقيقي يتحقق من خلال التخطيط الذكي، والخداع، والحرب النفسية، وإضعاف عزيمة العدو قبل بدء المعركة برجاء تحقيق الهدف بأكثر الطرق كفاءة وأقلها تكلفة.

٢- "اعرف عدوك واعرف نفسك": وهو المبدأ الأكثر شهرة في الكتاب، ف"إذا عرفت عدوك وعرفت نفسك، فلن تخشى نتيجة مئة معركة!" النجاح وفق رؤية صن تزو يعتمد على الفهم العميق لنقاط القوة والضعف لدى الذات ولدى الخصم بنفس الوقت، بالإضافة إلى فهم الظروف المحيطة بالأرض والطقس والقيادة.

٣- الخداع والمناورة: الحرب بنظر سن تزو تقوم على "الخداع". وبالتالي فهو يشجع على استخدام التكتيكات التي تضلل العدو بشأن نواياك وقدراتك. وأيضاً: على المرونة والتكيف المستمر مع التغيرات في ساحة المعركة، فهما أمران حاسمان، ويجب تجنب الأنماط الجامدة في التفكير والتخطيط.

٤- القيادة الفعالة والانضباط: يخصص سن تزو فصلاً كاملاً لأهمية القيادة والشروط الواجب توفرها في القائد، مثل: أن يكون حكيماً، جديراً بالثقة، رحيماً (بجنوده)، شجاعاً وصارماً. فالانضباط والتنظيم الجيد للقوات واللوجستيات ضروريان لتحقيق النصر وتجنب الفوضى.

٥- الاستخبارات والجواسيس: يؤكد الكتاب على أهمية المعلومات الاستخباراتية، واستخدام الجواسيس بفاعلية: لأنها أمور تمنح القائد معرفة حيوية بخطط العدو وتحركاته، مما يتيح له تصميم استراتيجيات مضادة فعالة.

وباختصار: مضمون كتاب "فن الحرب" هو دليل شامل للتفكير الاستراتيجي الذي يعطي الأولوية للتخطيط الدقيق والمعرفة العميقة والقدرة على التكيف والخداع لتحقيق الغلبة في أي صراع، سواء كان عسكرياً أو تنافسياً في مجالات الحياة الأخرى، وكل ذلك بأسلوب مختصر وحكم واضحة، كثير منها (أو بعضها على أقل تقدير) موجود في كلمات الرسل الإلهيين.

وهذه بعض أقواله في كتابه:

- "القتال والانتصار في جميع المعارك ليس هو قمة المهارة، التفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون أي قتال".
- "عمل القائد هو أن يبقى هادئاً فيضمن السرية، وأن يكون مستقيماً وعادلاً فيضمن استقرار النظام العام".
- "الحاكم المستنير يضع خطته مقدماً والقائد الناجح يرفع مصادره وجنوده عن طريق الثواب والعقاب والمكافآت".
- "إذا عرفت العدو وعرفت نفسك، فلن تخشى نتيجة مائة معركة. إذا عرفت نفسك ولم تعرف عدوك، فستعاني من هزيمة في كل انتصار. أما إذا لم تعرف نفسك ولم تعرف عدوك، فستُهزم في كل معركة".
- "لا تكرر التكتيك الذي فزت به سابقاً، ابتكر غيره أو عدله بطريقة غير متوقعة".
- "لا تفتح على نفسك عدة جبهات في وقت واحد، تحالف مع أحد الأعداء حتى تنتهي من الآخر".
- "يمكنك أن تعرف كيف تنتصر، لكنك قد لا تتمكن دائماً من تحقيق النصر".
- "في خضم الفوضى، تكمن الفرصة".
- "الفرص تتضاعف كلما تم اغتنامها".
- "حرب لا تستطيع كسبها حاول تجنبها والجأ للمفاوضات قدر الإمكان".
- "الحرب لا تكسب بالقوة، بل بالخداع وعدم الاستعجال".
- "هاجم عدوك حين تعرض عليه السلم. وتحاشاه حين يتوقع منك الهجوم".
- "حين يكون العدو في متناول اليد ومع ذلك يبقى هادئاً فهو يعد لك مكيدة".

- "الحرب المثالية هي الحرب السريعة؛ فالحرب الطويلة استنزاف للمنتصر كما هي للخاسر".
- "كن مستعداً لتصيد أخطاء العدو؛ فقد لا يأتي النصر بدونها".
- "احتفظ بقواتك وقدراتك سرّاً، فكلما كنت غامضاً خافك العدو وضخّم قدراتك".
- "ستعرض نفسك لهزيمة محتملة إن لم تحدد أنت مكان ووقت المعركة".
- "لا تحارب في الظروف الجوية المتطرفة التي يألفها العدو ولا تألفها قواتك".
- "الأرض جزء من الجيش وهي التي ترفع أو تخفض من قوته، وحين تختار الأرض ابحث عن المكان الأعلى والأكثر صلابة، وحين لا تجد؛ ابحث عن الأرض المنبسطة واحم ظهرك بخنادق".
- "كلما طالت خطوط تموينك ازداد ضعفك واحتمال التفاف العدو حولك".
- "حين تحاصر العدو اترك له فجوة للهرب، فالضغط بقسوة يجعله يستأسد في القتال".
- "الاحتفاظ بجاسوس في الداخل يعادل جيشاً بأكمله، و أفضل الجواسيس من يحمل جنسية العدو، ولكنه يؤمن بأهدافك، وأخيراً؛ ضمان النصر النهائي قد يتطلب التضحية بأفضل الجواسيس".

بوذا:

سيدها غوتاما المعروف بـ "بوذا" أي المتيقظ أو العارف.

ولد بالقرب من سفح جبال الهملايا في المنطقة الحدودية بين الهند ونيبال، عاش بين عامي ٥٦٦ – ٤٨٦ ق.م. ترك منزله في ال ٢٩ من عمره طلباً للمعرفة الدينية أو الروحية بالمعنى الأدق، وبلغ مرحلة ما يعرف بالتنوير أو المعرفة الروحية "النيرفانا" في ال ٣٥ من عمره، وإليه تنسب البوذية.

إدراج البوذية ضمن قائمة الأديان مسألة غير محسومة بين الباحثين والدارسين؛ باعتبار أنّ روادها يقدمونها على أساس أنها فلسفة أو أسلوب حياة وليست ديناً بمعناه المعروف القائم على أساس الإيمان بالإله الخالق الموجه لفكر الإنسان وسلوكه في الأبعاد

العقائدية والتشريعية والأخلاقية. فمثلاً: البعد التشريعي - وكذا العقائدي - أقل وضوحاً في البوذية من بقية الأديان الهندية أو الشرق آسيوية عموماً. عدا ذلك، فإنّ الاهتمام بالجانب الأخلاقي الروحي يعد ركناً أساسياً لبلوغ الصفاء والمعرفة الروحية المطلوبة التي تمر بسلسلة من المجاهدات والسير التأملية (الذي يعد بمثابة الصلاة في الدين الإلهي) قبل بلوغ الحكمة والشفقة الشبيهة بالتصوف أو اليوغا الهندية كهدف يراود بلوغه.

تجربة بوذا في التنوير هي أساس المنهج البوذي، كما أنّ أخلاقياته وسلوكه العملي الذي يتجسد باحترام حياة كل المخلوقات (مبدأ عدم الإيذاء = اهميسا) يحظى بأهمية كبيرة لدى البوذيين، ولأنه يريد الخير للجميع - كما يقول - نشر بوذا تعاليمه التي تعرف باسم "دارما".

تعلّم بوذا أسلوب التأمل على يد رجل يدعى آلا كالا، وأتقن القدرة على الدخول إلى مرحلة الاستغراق واللاوعي "مجال العدمية"، لكن بوذا لم يرغب بهذا وكان يطمح في بلوغ مرحلة أكثر تقدماً تتمثل ببلوغ "اختفاء الوعي في حال الوعي" على طريقة الوعي الصوفي تقريباً التي تتطلب أن يعيش حالة من الزهد والتقشف وكبح جماع الشهوات والعواطف بدرجة كبيرة تبلغ أحياناً إلى حد تعذيب الذات. وأخيراً بلغ بوذا مراده ونال "التنوير، المعرفة الروحية = النيرفانا"، بحسب سيرته عند مريداه!

تعتقد البوذية بما يعرف بالميلاد المتكرر أو التناسخ، فلكل شخص ولادات متكررة بعدد كبير ربما لا نهائي، باعتبار أنّ نظرتهم للزمن تختلف فهم ينظرون إليه بوصفه يسير بطريقة دائرية، وزمن كهذا يعني تكرر ولادات الشخص الواحد كعجلة دائمة الحركة لا تقف إلا في حالة واحدة وهي بلوغ حالة "النيرفانا" وحينها يقف الميلاد المتكرر^(١).

١- الميلاد المتكرر = مبدأ تناسخ الأرواح. علماً، أنّ تناسخ الأرواح التي يعتقد بها البوذيون وغيرهم من الأديان الهندية أمر باطل، وقد أوضح آل محمد الأوصياء صلوات الله عليهم بطلانه بروايات كثيرة، منها: عن الإمام الرضا صلوات الله عليه: (من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم مكذب بالجنة والنار) عيون أخبار الرضا، الصدوق: ٢ / ٢١٨.

الكون بالمنظور البوذي يتألف من قسمين: قسم المادة "بهاجانا" المؤلفة من خمسة عناصر، هي: الأرض والماء والنار والهواء والفضاء، وقسم الكائنات "ساتفا" التي تتأثر بهذه العناصر والأنظمة التي تحكمها، وعند البوذيين: الحالة الأخلاقية أمر أساسي في تحديد مصير تلك الأنظمة، فالإنسان بالنظرة البوذية هو المحور.

بناء على ذلك، تؤمن البوذية بوجود عدة عوالم للميلاد الجديد الذي ينتظر كل إنسان، والعوالم التي يمكن أن يظهر من خلالها للوجود مرة أخرى هي ستة عوالم: أدونها هو عالم "الجحيم" أو مكان الشقاء الذي ينال فيه الإنسان جزاء أفعاله الشريرة، لكنها تعتقد أنه مكان مؤقت للتطهير ثم تعاد ولادته من جديد. وفوقه عالم "الحيوانات": وبالتأكيد لا يكون الميلاد الجديد مرغوباً فيه إذا كان الإنسان يولد على هيئة حيوان. وفوقه عالم "الأشباح": أي الأرواح التعيسة التي تحوم حول البشر وهي أرواح بشر سابقين سيئين احتجزوا في الأرض. وفوقه عالم "الجبابرة": وهم سلالة من الكائنات الشيطانية التي تسعى دوماً للحروب والشر. وفوقه عالم "البشر": ولا شك أن الميلاد الجديد على هيئة بشر أمر مرغوب لكنه صعب المنال؛ لأنه له علاقة بالتقدم الروحي. ثم فوقه عالم الآلهة "ديفا" في السماء، وهو عالم له مراتب كثيرة، فهناك آلهة دنيا وهناك آلهة عليا، وبعض هذه الآلهة لها علاقة بالبشر وبإمكانها أن تزور الأرض، وبعضها ينتظر ميلاد جديد على الأرض.

ثم إنّ العوالم الستة لها مستويات تبلغ ٣١ مستوى، العوالم الخمسة الأولى (من عالم الجحيم إلى عالم البشر) هي عوالم الرغبات الحسية وتمثل المستويات الخمسة الأولى، بينما العالم السادس (عالم الآلهة): يتضمن ستة مستويات في مرتبة "الآلهة الدنيا"، وأما في مرتبة "الآلهة العليا" فيوجد ١٦ مستوى تشكل ما يعرف بـ "عالم الشكل النقي"، بينما يتبقى أربعة مستويات عليا تمثل قمة التأمل، هي: "الفضاء اللامتناهي"، ثم "الوعي اللامتناهي"، ثم "العدم"، ثم أرقاها وهو مستوى "الإدراك واللا إدراك"، وهو المستوى الذي بلغه بوذا بحسب القصة البوذية.

في كل هذه المستويات الـ ٣١ التدرجية تكون الكارما (فعل الإنسان: نية + عمل) بمثابة المصعد الذي يحمل الإنسان من عالم إلى عالم أرقى أو من مستوى إلى مستوى أرقى داخل نفس العالم. وخطر الـ "كارما" في كل هذا أنها الرصيد ورأس المال الذي تصاغ على

ضوءه الولادة الجديدة التي تنتظر الإنسان دائماً، فمثلاً: إنسان مخلوق في عالم البشر الآن "العالم الخامس" يمكن أن تعاد ولادته بهيئة حيوان "العالم الثاني" إذا كانت أعماله سيئة، وهكذا يصنع حظه وطبيعته ولادته الثانية بيده في ولادته الثالثة والرابعة ... إلخ من ولادات لا نهائية.

هذا ملخص الرواية البوذية التي تحكي فلسفتها ونظرتها للإنسان وما ينتظره^(١)!

وهذه بعض الأقوال التي تنسب إلى بوذا:

- "نحن ما نفكر فيه. كل ما نحن عليه ينبع من أفكارنا. بأفكارنا نصنع العالم".
- "عدوك اللدود لا يمكن أن يؤذيكَ بقدر ما تؤذيكَ أفكاركَ غير المحروسة".
- "العقل هو كل شيء. ما تفكر فيه، تصبح عليه".
- "يأتي السلام من الداخل، فلا تبحث عنه في الخارج".
- "لن تعاقب بسبب غضبك، بل غضبك هو العقاب".
- "الصحة هي أعظم هدية، والاكتفاء هو أعظم ثروة، والوفاء هو أفضل علاقة".
- "المعاناة ليست هي التي تمسك بك، بل أنت الذي تمسك بالمعاناة".
- "البقاء غاضباً يشبه شرب السم ثم توقع موت شخص آخر".
- "ثلاثة أشياء لا يمكن إخفاؤها طويلاً: الشمس، القمر، والحقيقة".
- "كل صباح نولد من جديد. ما نفعله اليوم هو ما يهم أكثر".
- "لا يهم مدى بطء حركتك ما دمت لا تتوقف أبداً".
- "أفضل من ألف كلمة جوفاء، كلمة واحدة تجلب السلام".
- "كن مصباحك الخاص. كن ملجأك الخاص. لا تعتمد على الآخرين".
- "لا تصدق أي شيء، بغض النظر عن مكان قراءته، أو من قاله، حتى لو قلته أنا، ما لم يتفق مع عقلك ومنطقك السليم".
- "اعمل على خلاصك الخاص. لا تعتمد على الآخرين".

١- انظر: البوذية، داميان كيون، ترجمة: صفية مختار.

كونفوشيوس:

فيلسوف ومعلم وسياسي صيني، عاش بين عامي ٥٥١ - ٤٧٩ ق.م، وإليه تنسب الكونفوشيوسية.

بوصفه معلماً بدأ كونفوشيوس بطرح فلسفته الإصلاحية كحركة تعليمية أخلاقية تهدف إلى إعادة النظام الاجتماعي الصالح في المجتمع الذي بات غارقاً في الفوضى، وكانت خطته الإصلاحية تقوم على عدة خطوات:

١- التذكير بنموذج صيني قديم: اعتقد كونفوشيوس أن إرجاع المجتمع إلى القيم الأخلاقية النبيلة التي كانت تمارسها سلالات صينية قديمة مثل: سلالتي "تشو" و"شانغ" أمريهم في حل مشكلات مجتمعه الصيني المعاصر.

٢- إصلاح الفرد: فلسفة كونفوشيوس انطلقت من إصلاح ذات الفرد أخلاقياً كبداية وفق مبدأ اعتمده يقول: "عندما يستقيم الفرد تستقيم العائلة، وعندما تستقيم العائلة يستقيم المجتمع، وعندما يستقيم المجتمع يستقيم العالم".

٣- التعليم للجميع: لعل أكثر خطوات كونفوشيوس أهمية هي قيامه بفتح باب التعلم للجميع من خلال إنشاء أول مدرسة خاصة في الصين تقبل جميع المتقدمين للدراسة بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية بعد أن كان محصوراً بطبقة النبلاء، ومن بين المتعلمين سعى إلى تربية قادة يمكنهم القيادة بطريقة صالحة وصحيحة.

٤- الإنسانية مبدأ أساسي: في فلسفة كونفوشيوس كان للجانب الإنساني الدور الأبرز، وقد عبر عن ذلك بمرتكزين أساسين، الأول: اللياقة والطقوس "لي" أي القواعد الأخلاقية والاجتماعية التي تنظم التعامل وطرق التفاعل بين الناس. والثاني: الرحمة والإنسانية "رن" أي التعامل بطريقة حسنة وعطوفة مع الآخرين.

٥- التجوال: لم يكتفِ كونفوشيوس بطرح آرائه ودروسه نظرياً، بل جسدها عملياً من خلال رحلاته وتجوّاله برفقة بعض تلاميذه بين الناس، وكان يطمح للوصول إلى منصب حكومي رفيع ليتمكن من إصلاح الدولة والنظام الحاكم من الداخل.

قام بعض تلامذته بجمع أقواله وحواراته وتعاليمه بعد وفاته، واعتبرت لاحقاً نصوص أساسية للكونفوشيوسية، أبرزها: كتاب "المحاورات" الذي يتضمن جوهر فلسفته الأخلاقية والسياسية. وأيضاً: كتاب "الكلاسيكيات الكونفوشيوسية الخمس"، وتوجد كتب غيرها.

وهذه بعض الأقوال التي تنسب إليه:

- "الرجل النبيل يطلب كل شيء من نفسه، والرجل الوضيع يطلب كل شيء من الآخرين".
- "عندما يكون الغضب شديداً، فكّر في العواقب".
- "ما تسمعه تنساه، ما تراه تتذكره، ما تفعله تفهمه".
- "التعلم دون تفكير مجهود ضائع، والتفكير دون تعلم خطر".
- "اختر وظيفة تحبها، ولن تضطر للعمل يوماً واحداً في حياتك".
- "الصمت هو الصديق الحقيقي الذي لا يخون أبداً".
- "الجهل هو ليل العقل، ولكنه ليل بلا قمر ولا نجوم".
- "إن لم تستطع المشي، فزحف. المهم أن لا تتوقف أبداً".
- "الرجل الفاضل يخجل من أن تكون أقواله أفضل من أفعاله".
- "إذا كنت تكره شخصاً ما، فقد هُزمت أمامه بالفعل".
- "أن ترى الصواب ولا تفعله، هو الجبن بعينه".

لاو تزو:

"لاو تزو" أو "لاو تسي Lao tse": فيلسوف صيني يعتبر المؤسس للفلسفة الطاوية. يعتقد بولادته في القرن السادس ق. م وتحديدًا سنة ٥٠٧ ق. م، أي في وقت متزامن أو قريب من ظهور "سن تزو" و"بوذا" و"كونفوشيوس".

ألّف كتاب "داودي جينغ" الكتاب المقدس للطاوية لاحقاً.

كحال زملائه وأقرانه، اعتمدت فلسفة "لاوتزو" على الجانب الأخلاقي، فالبساطة والتواضع ونحوها تعتبر الأساس الذي يؤدي إلى الانسجام بين الإنسان والقوة التي تحكم الكون.

وعموماً، المبادئ الأساسية لفلسفته هي، باختصار:

- الـ "داو" أو "طاو": هي القوة أو المسار أو المبدأ الخالق للكون.
- مبدأ "وو وي Wu wei": يعني التصرف بعفوية وتلقائية لتأخذ الأمور مسارها الطبيعي لها، بدل الإفراط والمبالغة في التخطيط والجهد.
- التوازن "Yin and Yang": يوفر هذا المبدأ التكامل بين الأضداد في الكون مثل: ذكر وأنثى، نور وظلمة، قوة وضعف ... إلخ، والطاوية تؤكد أنّ هذه الأضداد ليست في صراع بقدر ما يكمل بعضها البعض، وهو أمر ضروري لخلق حالة الانسجام في الكون.
- الفضيلة والأخلاق أو الكنوز الثلاثة: التي تتمثل بالرحمة والعطف، والاعتدال (عدم الإسراف التبذير)، والتواضع.

بشكل عام، فلسفة لاوتزو تسعى لجعل الإنسان منسجماً مع الطريق والقوة التي أوجدها، وتشجعه على أن يواكب الحياة ويسايرها بكل بساطة وعفوية بدل من السعي لمقاومتها، وهي بهذا تؤكد على صحة الإنسان وإطالة عمره عبر ممارسات مثل التأمل والطب الصيني القديم.

ملاحظة: تطورت فلسفة لاوتزو لاحقاً ابتداءً من القرن الثاني الميلادي فصاعداً ليضاف لها معتقدات من قبيل وضع تسلسل هرمي للآلهة والكهنة، وأيضاً: أضيف لها ممارسات وطقوس معينة تقوم على "التأمل" للتواصل مع الـ "داو"، وممارسة تمارين بدنية بهدف تحسين الطاقة والحيوية، وكذلك بعض الممارسات الروحية "كيمياء باطنية" لترقية الروح، وكذلك البدنية "كيمياء خارجية" تعتمد على تناول بعض الأعشاب سعياً لإطالة العمر والحصول على إكسير الحياة!

أيضاً: أضيف بعض الطقوس الدينية التي تتمثل بإنشاد الترانيم وتقديم القرابين في أوقات محددة لتوثيق العلاقة مع الطبيعة والآلهة.

جذور الحكمة الشرقية:

لاحظنا أنَّ (سون تزو، وبوذا، وكونفوشيوس، ولاو تزو) كلهم تواجدوا في القرن السادس ق.م، ولا يقتصر القاسم المشترك بينهم على التزامن الوقي ولكنهم تشاركوا أيضاً في البيئة والمكان، بمعنى أنهم أهل زمان واحد ومكان واحد وثقافة واحدة تقريباً.

وأيضاً: جميعهم يشتركون في أنهم طرحوا فلسفتهم بعد مضي آلاف السنين على انطلاق المشروع الإلهي الرسالي المتمثل ببعثة آدم عليه السلام ومن تلاه من الرسل الأوائل، بل متأخرون حتى عن بعثة إبراهيم وموسى وأوصيائهما عليهم السلام، بل ومتأخرون أيضاً عن نشأة الديانتين الهندوسية والمجوسية (والزرادشتية تبعاً لها) اللتين ثبت تأثرهما وارتباطهما بالدين السومري الإلهي القديم، وهذا يعني: أنَّ فلسفتهم وحكمتهم بالتأكيد تأثرت بالمحيط الذي نشأت فيه، والمحيط كما عرفنا في البحوث السابقة كان مليئاً بتعاليم الرسل حتى وإن كان بعضها محرّفاً، فما طرحه آدم ونوح والرسل الأوائل عموماً (وعدهم بالألوف) من تعاليم ومعارف وأخلاق وحكمة ... إلخ أثّرت في مجتمعات الشرق ككل وتركت بصمتها عليهم بشكل واضح وكبير، وبالتأكيد منها استقى فلاسفة الشرق حكمتهم وفلسفتهم، ولهذا نجد أنَّ في بعض كلامهم شيئاً واضحاً بتعاليم الرسل بدون أدنى شك.

ملحق - ١

مأساة دموزي ومذبحة الحسين (٤)

طرح علماء السومريات ما أسموه بـ "عقيدة الخصب" واعتبروها - إلى جنب عقيدة التكوين - من صلب الديانة السومرية؛ نظراً للحيز الكبير الذي شغلته هاتان العقيدتان في المصادر المسمارية.

يصوّد. فاضل عبد الواحد هذه العقيدة فيقول: (عندما جسّد الإنسان القوى المهيمنة في آلهة تصورها قياساً على البشر في جنسين مذكور ومؤنث، فقد كان منطقياً أن يعزّو كل مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة بما في ذلك تكاثر الإنسان والحيوان والنبات إلى قوى الخصب الإلهية المتمثلة بالإلهة الأم "التي عرفت فيما بعد تحت اسم أنانا أو عشتار" وبإله الخصب "دموزي أو تموز". وكان منطقياً بالمثل أن يعزو أيضاً كل مظاهر الجفاف والنقص في الخيرات كاصفرار العشب وندرة الأمطار وقلة اللبن في الماشية إلى اختفاء "أو موت" إله الخصب في العالم الأسفل)^(١).

فعقيدة الخصب بنظرهم لها طرفان لتكتمل وتؤدي هدفها، هما: أنانا ودموزي.

من تكون أنانا ومن هو دموزي؟

باختصار، وبحسب علماء الآثار: "أنانا - عشتار" هي الإلهة الأم التي عُبدت في بلاد سومر في وقت مبكر جداً، حيث وجد اسمها منقوشاً على ألواح الطين في عصر الوركاء (٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م).

١- عشتار ومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ١٦ - ١٧.

د. كريم لا يعتبرها أنثى حقيقية، وإنما هي تجسيد انقاد إليه السومريون لضمان بقاء الإنسان وتكاثره، فهي المسؤولة عن إثارة الحب والعاطفة والرغبة الجنسية ويصفها بأنها إلهة جميلة ومغرية^(١)، ومثله مذهب د. شارل فيروللو^(٢).

إذن، هي ليست أنثى حقيقية والتأنيث بالنسبة لها مجازي، ومن صفاتها: أنها لم تخلص يوماً ما لأيٍّ من عشاقها رغم كثرتهم، متلوّنة متقلّبة في موافقها تماماً كالدينا^(٣).

اشتهرت "أنا" كذلك بكونها إلهة الحب والجمال والجنس، ومن صفاتها أيضاً أنها إلهة الحرب. (حب وحرب) ما شكّل بنظر العلماء تناقضاً لم يتمكنوا من تفسيره بنحو أكيد، وقد برزت بعض المحاولات لحل التناقض لكنها لا ترتقي لحسم النقاش^(٤).

لكن تناقض (الحب والحرب) يمكن تفسيره من خلال نفس النصوص الأثرية، إذ ورد في بعضها أنّ "أنا - عشتار" عدّدت ما مُنح لها من نواميس فكان من بينها "الحب والحرب" بشكل واضح، وهذه بعض نواميسها التي وردت على لسانها: (الملكية (إله يُعبد)، الكهانة اللاصقة بالجسم، السحر، الدعارة والعهر والبغاء، فنون الجنس، الخنجر والسيف واستلاب المدن، الثوب الأسود والملون (حزن وفرح)، الافتراء وتزيين الخطاب، الغناء، الشيخوخة، الغدر، العويل، الخداع، التمرد، الخوف والفرح، عود حطب النار (الفتنة) والخصام، الإنجاب وتكوين العائلة، وغير ذلك^(٥).

١- انظر: عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٢٧،

٢- يقول فيروللو: (يوجد الكثير من الأمثلة في تغيير الجنس - التذكير والتأنيث - بين آلهة الأساطير ولا سيما للإلهين الشمس والقمر. وبما أننا نتكلم عن عشتار فهي مؤنثة عندما تمثل نجمة المساء وهي مذكرة في مظهر آخر أي عندما تمثل نجمة الصبح) أساطير بابل وكنعان: ٣٢.

٣- يقول د. فاضل عبد الواحد: (فلا غرابة إذا ما تعددت وتنوّعت صورها في التأليف المسمارية فيجدها الباحث مرة وهي امرأة مستضعفة تقع فريسة سهلة جداً بيد الرجل، وتشخص في مناسبة ثانية بدور فتاة حيرى بين حبيبين يتنافسان على حبها، وفي قصة ثالثة بدور فتاة أحبت من تفانى في حبها ولكنها تتنكر له في آخر لحظة فتكون سبباً في مأساته) عشتارومأساة تموز: ٦١،

٤- انظر: عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٣٦.

٥- انظر: أنا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشاين: ٧٤-٧٨، ترجمة: د. شاكر الحاج مخلف.

جلّ نواميس "أنا - عشتار" - كما نرى - مخيفة ومردية للإنسان حقيقة، لذا وقف منها "جلجامش" موقف الرافض المتنمّر لما عرضت عليه الزواج (بمعناه المجازي كالتعلق بها مثلاً):

(ففتح جلجامش فاه وأجاب عشتار الجليّة وقال:)

أي خير سأنا له لو تزوجتك؟

أنت!

ما أنت إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد،

أنت كالباب الناقص لا يصد عاصفة ولا ريحاً،

أنت قصر يتحطم في داخله الأبطال،

أنت فيل يمزق رحله،

أنت قيريلوث من يحمله وقربة تبلل حاملها،

أنت حجر مرمر ينهار جداره،

أنت حجر يشب يستقدم العدو ويغريه،

وأنت نعل يقرص قدم منتعله،

أي من عشاقك من بقيت على حبه أبداً؟

وأي من رعائك من رضيت عنه دائماً؟ (.....) (١).

وأما دموزي (دمو: الابن، زي: الصالح - البار - المخلص) (٢)، فبحسب الباحثين فإنّ السومريين اعتبروه إلهاً يجسّد ظاهرة الخصب، ووصفته بعض نصوصهم بأنه زوج أنانا "عشتار". ومن حيث الأصل، يرى د. كريم - وغيره - أنه شخصية تاريخية حقيقية وملكاً دنيوياً، إذ بموجب "ثبت الملوك" يوجد اثنان من الملوك حملوا هذا الاسم، الأول: دموزي الراعي، حكم في فترة ما قبل الطوفان في مدينة "بادتيرا" مدة ٣٦,٠٠٠ سنة (هكذا ورد في القائمة)، والثاني: دموزي صياد السمك، أحد ملوك سلالة الوركاء الأولى، حكم بحدود (٢٧٠٠ ق.م) ١٠٠ سنة. وهذا الأخير - بنظر كريم - هو من كتب له أن يكون دموزي الإله

١ - طه باقر، ملحمة جلجامش: ٦١.

٢ - انظر: عشتار ومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٢٦، ٢٩.

المقدس على مرّ العصور! علماً أنّ د. كريم نفسه يعترف بأنّ سبب اختيار "دموزي" من بين من وردت أسماؤهم في "ثبت ملوك سومر" لا زال مجهولاً^(١).

علماء آخرون - منهم د. فاضل عبد الواحد - يرفضون بشكل قاطع ما انتهى إليه كريم في تحديد شخصية "دموزي"؛ ذلك أنّ دموزي الوركاء لم يعرف له عمل يستحق به التأليه والاهتمام بهذا الشكل إطلاقاً، إضافة إلى أنّ د. كريم نفسه نشر في عام ١٩٥٢ م ما يعرف بملحمة "انميركارو حاكم أرتا" - وهو سابق على دموزي الوركاء بجيلين على أقل تقدير - ورد فيها اسم "دموزي" صراحة إلى جنب أنانا التي أحبته^(٢).

وليس زمنه سابقاً بجيلين فقط، ولكن "دموزي" الصالح أشارت النصوص إلى أنّ ذكره كان متداولاً ومعروفاً حتى عند أسلاف السومريين "أصحاب الرؤوس السود"^(٣).

ومهما يكن، فبين "دموزي" الصالح المقدس وبين دموزي الوركاء مجرد تشابه في الاسم فقط^(٤). والنتيجة: إنّ شخصية "دموزي" لا زالت مجهولة عند الباحثين ولم يحسم القول فيها بينهم بضرس قاطع.

أما مسألة زواج "أنانا" من "دموزي" كما يعتقد كثير من الباحثين وأضفوا عليه صفة القدسية، فسببه ما ورد في النصوص السومرية وزاد الأمر ترسيخاً وجود طقوس هذا

١- يقول كريم: (أما لماذا بالضبط اختير "دموزي" من قبل رجال الدين السومريين المتأخرين كبطل لهذه الشعيرة والأسطورة بشكل خاص، فإنه أمر ما زال مجهولاً، ولا بد أنه كان يعود على الأقل في جزئه الأكبر إلى الأثر العميق الذي تركه "دموزي" خلال حياته كرجل وكحاكم على السواء، ولكن لا توجد حتى الآن معلومات تاريخية من أي نوع كان لتأييد وجهة النظر هذه) السومريون: ٦٠.

٢- انظر: عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٢٧، ١٠٥.

٣- (...) في قضاء بلاد سومر وأكاد امتحيه الصولجان والنفاذ،

حيث كان أصحاب الرؤوس السود هوراعيم،

كالفلاح يجعل الحقول تنتج الغلال،

مثل الراعي يجعل حظائر الغنم متعددة الطبقات، أنانا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشاين: ١٠٣ - ١٠٤.

٤- يقول فراس السواح: (ليس تطابق الاسم بين دموزي الإله ودموزي الملك إلا من قبيل تسّي الملك باسم الإله، وهذا أمر شائع في الشرق القديم) قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٢.

الزواج لدى السومريين، إذ كانت تُعقد في شهر نيسان من كل عام (في المعابد تحديداً) ضمناً لاستمرار أسباب الخصب والنماء، ويمثّل فيه الملك الحاكم (بصفته الممثل الشرعي للآلهة) دور "دموزي"، وأما دور "أنا" الزوجة فجرت العادة على اختيارها من بين كاهنات المعبد!

د. كريمر من جهته يرى أنّ فكرة "الزواج المقدس" بدعة ابتدعتها كهنة الوركاء، ربما تزلفاً للملكهم دموزي الوركاء "صياد السمك"^(١).

وعموماً، كانت مراسيم الزواج "المبتدعة" تتسم بالفرح والطرب والبذخ والحبور، يكتسب فيها الحاكم الذي ينتحل شخصية "دموزي" صفة الألوهية وينعت بالنعوت الخاصة به^(٢).

وهذا أمر في غاية الخطورة! تخيّل أنّ دموزي (الملك الإلهي والابن الصالح) يمكن أن يمثّل شخصيته في طقوس الزواج المبتدع حاكماً ربما هو في حقيقته ليس صالحاً، بل وربما محارباً للملك المنصب من قبل الله، والأدهى من ذلك أنه يوصف بصفاته ويسمى باسمه في الأناشيد والقصائد، ثم تدوّن وتنقل لنا تلك القصائد ذات المشاهد الفاضحة في الألواح والرقم الطينية!

١- يقول كريمر: (ولعله لم يمضي زمن على هذا التاريخ "أي سنة ٣٠٠٠ ق.م" حتى راح بعض الكهنة ورجال اللاهوت المفكرون وذوو المخيلة في مدينة إيريك "الوركاء" يعتنقون فكرة تدخل الاطمئنان والبهجة على القلب، هي أنّ ملكهم قد أصبح عاشقاً وزوجاً للآلهة أنا، وبذلك يشاركها قوتها وقدرتها على الإخصاب التي لا تقدر بثمن، كما يشاركها خلودها، هذا مذهبنا في كيفية ظهور طقس الزواج المقدس الذي يضم دموزي، الذي يعتقد أنه كان أحد حكام إيريك المرموقين، وإلهتنا أنا الشهبوانية الشهية التي تحظى باحترام عميق) طقوس الجنس المقدس عند السومريين، صموئيل كريمر، ترجمة: نهاد خياطة.

وإذا استثنينا قوله الأخير في تحديد شخصية "دموزي" الذي تمت مناقشته، فالنتيجة - بعد رفع بدعة الكهنة - هي أنّ السومريين سيقون محتفظين بدموزي "الابن الصالح" صاحب المأساة الكبرى كمتعقد يحيون ذكره والنواح عليه كل عام دون أن تشوبه بدعة "الزواج المقدس".

٢- يقول د. فاضل عبد الواحد: (فهناك حقيقة معروفة لدى الباحثين وهي أنّ الملك، مهما كان اسمه الحقيقي، يصبح من خلال الطقوس الإله دموزي فينعت ويوصف بأسماء وأوصاف هذا الإله في الأناشيد والقصائد المؤلفة بالمناسبة) عشتارومأساة تموز: ٢٧، ١٠٥.

وهذه أسماء بعض الحكام السومريين الذين انتحلوا دور "دموزي" في مراسم الزواج وأنشئت بحقهم القصائد^(١):

- ١- الملك شولجي: ملك مدينة أور: ٢٠٩٣ - ٢٠٤٦ ق.م.
- ٢- شوسين: ملك مدينة أور: ٢٠٣٦ - ٢٠٢٨ ق.م.
- ٣- إيدين داجان: ملك مدينة إيسين: ١٩٧٤ - ١٩٥٤ ق.م.
- ٤- إيشي داجان: ملك مدينة إيسين: ١٩٥٣ - ١٩٣٥ ق.م.

مأساة دموزي وطقوس العزاء:

بحسب النصوص السومرية، فإنَّ "أنانا - عشتار" هي من سلّمت الراعي الصالح "دموزي" إلى أعدائه الشياطين ليعذبوه ويقتلوه في مشهد مؤلم:

(..... ارتدى "دموزي" حلة فاخرة واعتلى جالساً على منصته،

فمسكه الشياطين من فخذه،

لقد هجم عليه الشياطين السبعة كما يفعلون بجانب الرجل المريض،

فانقطع الرعاة عن نفخ الناي والمزمار أمامه.

ثم صوبت (أي "أنانا") نظرها عليه، ثبّتت عليه نظرة الموت،

نطقت بالكلمة ضده، كلمة السخط والحنق،

وصرخت ضده بصرخة التجريم قائلة:

"أما هذا فخذه"،

وهكذا أسلمت "أنانا" الطاهرة الراعي "دموزي" إلى أيديهم.

إن من رافقه،

من رافق دموزي،

كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء،

لا يأكلون الطحين المبسوس (السويق)،

١- انظر: ديوان الأساطير- الكتاب الأول، أدونيس: ١٥٤ فما بعد.

ولا يشربون الماء المقرب (المقدم قرباناً)، ... (١).

لماذا هي ساخطة على "دموزي - تموز" كل هذا السخط وأسلمته إلى مخلوقات لا يوجد في قاموسها رحمة أو طهارة ولم ينتفعوا يوماً من مائدة السماء؟ لماذا بدت وكأنها في مواجهة شرسة معه تحتل أمرين لا ثالث لهما؛ إما موته هو أو موتها هي، فتختار أن يموت هو في العالم الأسفل؟

ما ذكره علماء السومريات كسبب يوضح مشكلتها معه وسخطها عليه غير مقنع حقيقة، وبعضه مجرد تحليل باهت (٢).

يقول د. فاضل عبد الواحد: (ومهما كان السبب الذي دفع إلهة الحب أنانا إلى النزول إلى عالم الأموات، والذي ربما ستكشف عنه البحوث المسماة في المستقبل، فإنه بكل تأكيد لم يكن من أجل استعادة حبيبها وزوجها دموزي لأنها هي التي سلمته إلى الشياطين ليأخذ مكانها في عالم الأموات مقابل خروجها من هناك) (٣).

أقول: لا أعتقد أن صفة الحب التي تنسب إلى "أنانا - عشتار" حقيقية، فمن يحب حباً حقيقياً لا يفعل بمحبوبه ما فعلته "أنانا" بالراعي الصالح، فلم يبق إلا أن يكون الحب الذي اتصفت بأنها إلهة له هو الحب المخادع والكاذب، وهو المناسب لنواميسها التي عرفناها سابقاً.

وعموماً، فقد ناح السومريون ومن تلاهم في بلاد الرافدين نياحة عظيمة على "دموزي - تموز" الراعي الصالح وما جرى عليه من مأساة كبيرة، وكانت لديهم طقوس خاصة للعزاء تتجدد في كل عام، فإضافة للحزن والبكاء كانوا يقيمون مواكب للعزاء

١- من ألواح سومر، كرىمر: ٢٧٨.

٢- على سبيل المثال قول الباحث آدم فلكنشتاين (باحث لغوي ألماني: ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م)، يقول: (دموزي لم يكن في الأصل إلهاً، بل رقي إلى مرتبة الألوهية، وكان من قبل إنساناً عادياً كغيره من البشر الفانين، ولهذا لا يمكن أن يتساوى وأنانا في مرتبة الألوهية أو أن يكون لها صنواً) أنبياء سومريون، خزعل الماجدي: ١١٦.

٣- عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٨٤.

تُحمل فيها المشاعل، وكانوا يُجرون ما يعرف اليوم في العراق بـ "التشابه" التي يجريها الناس في عزاء الإمام الحسين عليه السلام^(١).

وبقدر ما كانت بدعة "الزواج المقدس" التي تعرضنا لها مقتصرة في طقوسها على الحاكم والمعبود ورجالاته، فإنَّ طقوس العزاء والنوح على "دموزي" كانت ممارسات شعبية فقط ولم تعقد يوماً ما في معابد الكهان أو قصور الحكام^(٢)، وكأنَّ الأمر لا يعني الحاكم والكاهن، وهذا يؤشر إلى مدى انحراف الاثنين معاً عن الخط الذي كان يمثلُه الملك الإلهي "دموزي"^(٣).

وبخصوص طريقة النوح على دموزي فيغلب عليها طابع الحزن العميق والعاطفة الشديدة، وأيضاً لها نسق شعري معين^(٤).

١- يقول د. فاضل عبد الواحد: (هناك إشارات إلى البكاء والحزن على دموزي يرد ذكرها في النصوص المسمارية. فنقرأ في ملحمة جلجامش أن البكاء كتب على عشتار من أجل زوجها تموز كل عام. كما نقرأ في التقاويم البابلية أن الحزن والبكاء على الإله كان يبدأ في اليوم الثاني من شهر "Du uzi" أي تموز وأنه كانت تقام مواكب للعزاء تحمل فيها المشاعل وذلك في اليوم التاسع والسادس عشر والسابع عشر. وكان يقام في الأيام الثلاثة الأخيرة من هذا الشهر احتفال اسمه بالأكدية "Talhimtu" يجري خلاله عرض ودفن طقسي لدمية تمثل الإله تموز) عشتار ومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ٨٤.

٢- يقول د. فاضل عبد الواحد: (على الرغم من الأثر الذي تركته عقيدة موت الإله دموزي في المجتمع القديم في وادي الرافدين وخارجه فإنَّ الحزن عليه لم يصبح في يوم ما من طقوس المعبد بل ظل يقام سنوياً في نطاق الممارسات الشعبية على العكس تماماً من الزواج المقدس الذي كان له طابع الديانة الرسمية بدليل مشاركة المعبد والملك في إقامته) عشتار ومأساة تموز: ١٢٥.

٣- يقول كريمر: (لم يكن إحياء ذكرى موت دموزي يقتصر على الأسطورة والغناء، بل كانت تقام أيام مخصصة للمناحات في مختلف المدائن السومرية، في أثناءها كانت تؤدي الطقوس ومراسم الحزن المنصبة على موته) طقوس الجنس المقدس عند السومريين، صموئيل كريمر، ترجمة: نهاد خياطة.

٤- يصف د. فاضل عبد الواحد عزاءهم وشعرهم فيقول: (يلاحظ فيها تكرار مستمر إما لصدر البيت أو عجزه. وأحياناً يتكرر البيت الأول من المناحة بعد عدد معين من الأبيات كأن تكون ثلاثة مثلاً، ومن الأمثلة على هذا النوع من المناحات نقتبس المقطوعة التالية التي يقول فيها الشاعر السومري على لسان أنا: أنا:

"راح قلبي إلى "السهل" نأحاً نأحاً

أنا سيدة معبد أي - أنا التي تحطم بلاد الأعداء،

طريقة النوح على "دموزي - تموز" عند السومريين ومن تلاهم في بلاد ما بين النهرين تذكّرنا بطريقة النوح على الإمام الحسين صلوات الله عليه التي لا زالت قائمة عندنا في العراق^(١).

وأما سبب كل هذا النواح على "دموزي" وتجده سنوياً، فعلماء الآثار – بحسب تفسيرهم للنصوص الأثرية التي تحت أيديهم – يعتقدون أنّ "دموزي - تموز" يتصف بالموت والبعث سنوياً تبعاً لتغير الفصول، فلما كان "دموزي" في عقيدة السومريين يجسد ظاهرة الخصب ونماء الزرع والعشب الذي يقترن عادة بفصل الربيع فإذاً سيكون هذا الفصل فترة بعثه من الموت، ولكنه يموت مجدداً ويؤخذ إلى العالم الأسفل في فترة الجذب التي تصادف فصل الصيف عادة فيبدأ النواح عليه، وهكذا يتجدد عزاءهم عليه في كل

اني أنا ننسونا أم السيد (العظيم).

اني أنا كشتن - أنا أم الفتي المقدس،

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

راح إلى مكان الفتي،

راح إلى مكان دموزي،

إلى العالم الأسفل، مستوطن الراعي

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً

إلى المكان الذي ربط فيه الفتي،

إلى المكان الذي احتجز فيه دموزي ...

راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً ("عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي: ١٢٦ - ١٢٧).

١- هذا مثال لها أذكره باللهجة العراقية الدارجة:

"قلبك سفينة نوح

يا خامس أهل النّوح

ابّجر المصايب

شفت العجايب

يا خامس أهل النوح".

عام! وهكذا، فبحسب علماء الآثار: نواح أول حضارة إنسانية بحجم "سومر" على شخصية عظيمة مثل "دموزي" سببه ظاهرة الخصب والجذب ولا شيء آخر!

يقول السيد أحمد الحسن: (حقيقة إنَّ ظلماً كبيراً يطال السومريين الذين علّموا الإنسانية الكتابة ووضعوا القوانين وأسس العلوم، وهم أول من صنع العجلة ووضع نظم الحساب والجبر والهندسة عندما يصورهم د. كريمر ويتبعه بعض المختصين بالحضارة السومرية: إنهم ينوحدون على شيء أسطوري أو قصة أسطورية هم من ألفها، وهي مجرد تعبير عن الخصب والجذب اللذين يتعاقبان على السنة. وكأنهم شعب تعاطى كل أفرادها مادة مخدرة أفقدتهم عقولهم بحيث إنهم وورثتهم البابليون ينوحدون ويقيمون مجالس العزاء آلاف السنين على رمز في قصة هم ألفوها من ألفها إلى يائها.

آلاف السنين وسكان بلاد ما بين النهرين جيلاً بعد جيل وكل سنة يصورون جثة دموزي، وكل سنة يبكون على دموزي، وكل سنة يقرؤون قصائد رثاء دموزي.

كل هذا مجرد أوهام؟! ومجرد قصة هم ألفوها!! ولأجل ماذا؟! لأجل التعبير عن خصب يأتي في الربيع وجذب يتبعه في فصل آخر من السنة!!!

المفروض أن يكون هناك جواب معقول لنواح أول حضارة عرفت الإنسانية وطيلة آلاف السنين على دموزي "الابن الصالح" أو تموز) انتهى^(١).

حقيقة أنانا ودموزي من منظور آخر:

الرؤية التي ربما تكشف لنا من تكون "أنانا - عشتار" ومن يكون "دموزي - تموز" وترفع الغموض والتناقضات التي أخرجت الباحثين كما رأينا، تقدم بها السيد أحمد الحسن، وهي - كما سنرى - لم تغفل الرمزية التي ألفت بظلالها على النصوص السومرية بشكل واضح.

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٦٩ - ٣٧٠.

١ - أنانا - عشتار

تقدّم في وصفها أنها إلهة الحب والحرب، إنها لم تخلص لواحد من عشاقها، تقتل من هام بها، متزيّنة مغرية متلوّنة متقلّبة لا أمان لها، هذه هي نواميسها التي منحت لها كما عرفنا، وهذا هو حال (الدنيا) بكل وضوح:

يصف الإمام علي عليه السلام "الدنيا" بأنها: (دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَخْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ - لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا وَلَا يَسْلَمُ نَزْلُهَا - أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ - الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ - وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ - تَرْمِيهِمْ بِسَهَامِهَا وَتُقْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا) ^(١).

تتقلّب "الدنيا" بأهلها من حال إلى حال؛ بين حال حب ورخاء خادع وزائل، وحال حرب وموت وحزن وألم، ولكن رغم هذا فهي كانت ولا زالت تخدع الكثيرين بزيجها وزينتها فيمرعون لعبادتها: "..... وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ - وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ أَثَرُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى - فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا وَصَارَ عَبْدًا لَهَا" ^(٢).

إذن، ليس غريباً أن ينخدع الكثير من سكان بلاد ما بين النهرين كالسومريين ومن تلاهم بالدنيا ويتخذوها إلهاً يعبد!

الخصب والنماء الذي ترمز له "أنانا - عشتار" أو "الدنيا" حكاه الله سبحانه بقوله: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" الحديد: ٢٠، لكنه نماء زائل وفي يوم ما يصبح هشيماً تذروه الرياح. قال تعالى: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا" الكهف: ٤٥.

١ - نهج البلاغة: ٣٤٨، تحقيق: صبحي الصالح.

٢ - نفس المصدر: ٣٤٨، ٢٢٦.

نحن الآن فعلاً في العالم الأسفل، ومثل "الدنيا أو أنانا أو عشتار" فيه كماء أنزل من السماء (نزل أنانا أو عشتار إلى العالم الأسفل)، فاختلط به نبات الأرض ومنه الإنسان: "وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا" نوح: ١٧، قد يبدو للغافلين أنه مثل للحياة والخصب والنماء الحقيقي لكن سرعان ما يتضح أنه زائل كزوال الهشيم الذي تذروه الرياح في يوم عاصف.

يقول السيد أحمد الحسن: (وهكذا فإن عشتار - أنانا زوجة دموزي الملك سلّمته للشياطين ليقتلونه في مفارقة يصعب فهمها على من لا يعرفون معنى حاكمية الله أو التنصيب الإلهي، أو كما يُعبّر عنها السومريون - الأكاديون "الملوكية التي نزلت من السماء". ولكنها حقيقة تكررت كثيراً في الدين الإلهي، وهي أنّ عشتار - الدنيا منقادة في كثير من الأحيان للملوك الذين لم ينصّبهم الله؛ لأنهم ساجدون وخاضعون لها، فهم يعبدون شهواتهم الدنيوية. وعشتار - الدنيا متمردة على المنصّبين من الله للحكم فيها؛ لأنهم في الحقيقة متمردون عليها. فنصيب علي عليه السلام كان خمس سنوات مُرّة، هاجت فيها كل شياطين الأرض لمحاربتة في الجمل وصفين والنهروان، وما قرّوا حتى قتلوه في الكوفة. ونصيب الحسين عليه السلام الملك المنصّب للحكم في الدنيا مذبحه لم يسلم منها حتى الرضيع) انتهى^(١).

٢- العالم الأسفل

وصفته النصوص السومرية بأنه عالم الأموات، عالم اللارجعة، عالم الظلام "كور"، عالم الرذيلة^(٢). ومن صفاته أيضاً: أنّ جميع الناس لهم نصيب من الوجود فيه^(٣).

ثم إنه في الوقت الذي تضيفي النصوص الأثرية على ملوك السماء وأهلها صفات العظمة والطهروالتقديس، لكنها تنقلب تماماً لما تصف حال أهل العالم الأسفل فتصوّره

١- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٥٩.

٢- انظر: أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشايين: ٦٢.

٣- يقول د. فاضل عبد الواحد: (...) والعالم الأسفل في معتقدات سكان وادي الرافدين مكان أبدي تقيم فيه أرواح الناس على اختلافهم: الأخيار والأشرار، الأغنياء والفقراء، العبيد والأسبياد) من سومر إلى التوراة: ٢٧٣.

بشكل تشتمز منه النفوس، وهذا مقطع من أحد النصوص ^(١) وهو يصور نزول "أنا - عشتار" إلى العالم الأسفل "عالم الرذيلة"، فقد كانت النواميس فيه تقضي بأن من يختار الذهاب إليه لن يعود، فلما نزلت "أنا" إليه نُطق الحكم بحقها بالموت فتحوّلت جثة فاقدة للحياة، ولما أريد لها أن تحيا كان "الوسخ" والقذارة سبباً في حياة جثتها:

(..... اخرج الأب انكي من تحت أظفره وسخاً صنع منه "كوركرا" غير مذكرو مؤنث،
أخرج الأب انكي من تحت أظفره وسخاً صنع منه "جلاتور" غير مذكرو مؤنث،
أعطى "كوركرا" طعام الحياة،
أعطى "جلاتور" ماء الحياة،
الأب انكي قال لـ "كوركرا وجلاتور": اذهبا إلى العالم الأسفل،
ادخلا الباب مثل الذباب،
أحدكما سيرش طعام الحياة والآخر سيرش ماء الحياة على الجثة (أنا)،
أنا سوف تهض،
عادت أنا إلى الحياة،) ^(٢).

وبالرغم من أن النص مليء بالرمزية، لكن صار بوسعنا فهمه بضميمة ما تقدم، فالدنيا "أنا - عشتار" فعلاً حقيقتها جثة وجيفة بسبب نواميسها التي عرفناها ^(٣)، ولكن لأن الله سبحانه أراد لهذا العالم الذي نحن فيه (عالم الدنيا - العالم الأسفل) أن يكون دار امتحان واختبار، كان حتمياً - بمقتضى العدالة الإلهية - أن يتواجد فيه الجميع (الأخيار والأشرار، الأغنياء والفقراء، العبيد والأسياد) ليؤدوا امتحانهم، وكان لابد أن يكون خيار النجاسة والشر متاحاً كخيار الخير والطهر ليتحقق الامتحان فعلاً. ولما كانت الدنيا "أنا" - بحسب نواميسها المتقدمة - تمثل دائماً طرف الشر والرذيلة كان مناسب جداً أن تعاد الحياة لجثتها بالوسخ المشار إليه في النص "كوركرا، جلاتور"؛ لأنه ملائم تماماً لحقيقتها، وهما ليسا بذكرو ولا أنثى كما ورد في النص "غير مذكرو مؤنث"، ولعله رمز إلى "متاع الحياة الدنيا الباطل والزائل"، كما أن "ماء الحياة، طعام الحياة" الوارد في

١- انظر: أنانا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشاين: ١٠٩ فما بعد.

٢- انظر: أنانا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشاين: ١٢١ - ١٢٤.

٣- يقول الإمام علي عليه السلام: "الدنيا جيفة وطلاها كلاب" بحار الأنوار، المجلسي: ٢٨٩ / ٨٤.

النص لما كانا ممنوحين لـ "وسخ"، فالحياة وطعمها المرشوشين على أنانا "الدنيا" - لأجل إحيائها - لا يكون حقيقياً بكل تأكيد حتى وإن بدا لبعض المخدوعين أنه حياة، فواقعه وحقيقته وسخ وذنس مقترن بالزوال والفناء والموت المحقق في الظلام، ولهذا فرّ الصالحون من الدنيا كما فرّ "جلجامش" إلى جده نوح طالباً الخلود والحياة الحقيقية التي لا موت ولا دنس فيها.

هذه هي الحقيقة التي عرفها السومريون بفضل معلمهم الإلهيين قبل آلاف السنين وأشارت لها نصوصهم الدينية بصورة مرمزة كما هو حال الكثير من المفاهيم التي يشار لها بطريقة مرمزة في الأديان الإبراهيمية أيضاً.

٣- دموزي - تموز

هذا مقطع من نص سومري فيه بعض صفات الملك دموزي "الراعي الصالح":

(.... أنت راعي المزار المقدس المختار،

أنت، ملك أوروك الأمين،

أنت، مصباح مزار أن العظيم،

في كل العادات أنت صالح،

أن يدوم رأسك عالياً على المنصة المتكبرة،

أن تجلس على عرش اللازورد،

أن يغطي رأسك التاج المقدس،

أن ترتدي الثياب الطوال على جسمك،

ليزخرف جسدك بالثياب الملكية،

أن تحمل الصولجان والسيف،

أنت، العداء،

الراعي المختار،

في كل العادات أنت صالح،^(١).

١- انظر: أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشاين: ١٠٢ - ١٠٣.

دموزي بحسب النص ملك إلهي مقدس: "ملك، يغطي رأسك التاج المقدس"، وكونه "راعٍ صالح" يعني أنه رسول وخليفة من خلفاء الله في أرضه، فوصف "الراعي" ما بارح واحداً منهم؛ باعتبار أن واحدة من وظائف الملوك الإلهيين هي هداية الخلق ورعايتهم وإدارة شؤونهم^(١).

بحسب النص أيضاً: "دموزي" مختار من قبل الله سبحانه وفق مبدأ حاكمية الله، وليس هذا فقط، بل هو ملك وخليفة إلهي ثائر "تحمل الصولجان والسيف"، ومتقدم بين الخلق في سباق الاختبار والامتحان الإلهي "أنت العداء".

أيضاً: "دموزي - تموز" ورد وصفه في النصوص بأنه "إله"، وقد تقدم أن ألوهية ما سوى الله سبحانه هي ألوهية في الخلق، يتصف بها بعض الصالحين ممن كان على درجة عالية من الكمال والرقى.

الملوك الإلهيون (خلفاء الله) بعلمهم وتعاليمهم التي يبثوها بين الناس يقومون في الحقيقة بإحياء القلوب الميتة، فأهل الدنيا موتى القلوب: "أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" النحل: ٢١، لذا قرّر جلجامش الرحيل إلى جده نوح عليه السلام ليتعلم منه سرّ الحياة، حياة الروح لا حياة البدن التي يُفترض أنه يملكها، كما يفترض أن كانوا يعاصرون رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله أحياء بأبدانهم لكن الله سبحانه يخاطبهم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" الأنفال: ٢٤. ومن ثم لا عجب أن يُقرّن ذكر "دموزي - تموز" في بعض النصوص بالخضرة والعشب والحياة والنماء؛ لأنه الراعي الصالح الذي يبعث الحياة من جديد في القلوب والأرواح الميتة الجذبة التي يمتلك أصحابها - من البشر - حياة البدن فقط، وهي حياة لا يمتاز بها الإنسان عن سائر مخلوقات الله الأخرى بشيء أبداً.

١- قال الإمام علي عليه السلام: "أنا الراعي؛ راعي الأنعام، أفترى الراعي لا يعرف غنمه، ... بجار الأنوار، المجلسي: ١٧٦ / ٦٥. وقال عيسى عليه السلام: "أنا الراعي الصالح أعرف خرافي وخرافي تعرفني" الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية: ٣٢٢.

هذا - باختصار - مشروع الراعي الصالح الإلهي، وأكد أنه لو قدر له النجاح واستجاب له الناس وتمّ لا يُبقي للعشائر "عشتار- أناثا" شيئاً يذكر، سيجعلها مفلسة تماماً، فرصيدها وأهلها قائم بموتى القلوب (أهل الظلم والجور والفساد والشهوات وما شابه)، ومثل هؤلاء لو خسرتهم فمن سيبقى لها، لذا فهي تحملهم بقوة للقضاء على صاحب هكذا مشروع كبير يهدف إلى إنقاذ الناس من الموت المؤكد في الظلام.

صار بوسعنا أن نعرف الآن لماذا كانت طقوس العزاء والنواح في سومر شعبية وليست ضمن طقوس الديانة الرسمية لكنيسة المعبد والحكام؛ لأنهم أساساً من أهل الدنيا وقد تقدم أنّ أحد نواميسها "الكهانة اللاصقة بالجسم" فهم علماء غير عاملين، لا يفقهون غير البدن وشهواته وملذاته الدنيوية الفانية، في حين أنّ مشروع الراعي الصالح يهدف إلى إحياء القلب والروح بمعاني الخير والطهر والصالح. وهذا لا يلتقي مع نهج الكهنة وفكرهم الدنيوي المادي في شيء أبداً.

وإذا عرفنا أنّ "دموزي - تموز" ملك إلهي فهو بالتأكيد خاضع للخطة الإلهية، وكان معلوماً مسبقاً ومقدراً فيها أن يجري عليه ما جرى، وقد أعلم الله أنبياءه ورسله الأولين بذلك وأوحى لهم تلك المأساة العظيمة، فحزنوا وتألّموا وبكوا على "دموزي - تموز"، ونشر أنبياء الله في سومر كنوح عليه السلام (ومن قبله أبيه آدم وإدريس عليهما السلام ومن تلاهم من رسل الله) قصّته بين أقوامهم، فصارت ثقافة و أنشودة تتناقلها الأجيال شفاهة جيلاً بعد جيل، صار ذكر دموزي "الراعي الصالح" وما يجري عليه من مأساة تحمّلها لأجل إنقاذ الناس ترنيمة يترنم بها السومريون الأوائل في عصور ما قبل الكتابة والتدوين واستمر ذكره مكتوباً ومدوناً بعد اختراع الكتابة والتدوين ونقلته لنا الألواح والرقم الطينية، ولا زال ذكره وتخليد مأساته مستمراً في بلاد ما بين النهرين!

٤ - من يكون دموزي من بين خلفاء الله؟

ينبغي أن نعرف أنّ خلفاء الله - وخصوصاً الذين يعتبرون علامات مهمة في مسيرة الدين الإلهي وهداية الخلق - مذكورون في النصوص الدينية الإلهية. وبقدر تعلق الأمر بالملك الإلهي "دموزي - تموز" وما جرى عليه من مأساة فمن يريد تحديده بشخص معين

من خلفاء الله، إضافة لما ذكر، لابد - أيضاً - أن تكون حصته من المأساة كتلك المذكورة في نصوص سومر.

من جانب آخر: بعض الباحثين أثناء دراستهم للألواح الطينية التفتوا إلى مدى التشابه الكبير بين ما هو مدون في بعض الألواح وبين ما ورد في نصوص الكتب المقدسة اللاحقة في الأديان السماوية الثلاثة في مواضيع عديدة. ومن ثم، فليس أمراً مفاجئاً أن تكون النصوص السومرية أحياناً تتحدث عن أمر مستقبلي لم يحصل بعد في زمن تدوين وكتابة الحدث. وعلى هذا الأساس ذكر د. فاضل عبد الواحد^(١) محاولة بعض الباحثين (ويبدو أنه يرتضيها لأنه لم يعلق عليها) تجسيد مأساة "دموزي" بما جرى على السيد المسيح عليه السلام المتأخر - كما هو معلوم - عن زمن تدوين النص بفترة طويلة جداً.

وصحيح أن غرض الكثير منهم - أعني الباحثين الأثاريين؛ وخصوصاً الملحدون منهم - من ذكر أوجه التشابه تلك بيان الأصول السومرية لكثير من معتقدات اليهودية والمسيحية وحتى الإسلام، ولما كان دين سومر بنظرهم (الخاطئ) مجرد تأليف أسطوري بشري فالنتيجة الحتمية المترتبة هي أن يكون منشأ الدين بشري أرضي!

لكن، من الصحيح أيضاً إمكان استفادة العكس من مرامهم تماماً بمعنى أننا إذا وجدنا حقيقة دينية تم ذكرها في نصوص سومر ثم رأينا تحققها في المستقبل فهذا دليل أكيد على أن منشأها غيبي إلهي، فمثلاً: من يعتقد بوجود أيوب وعيسى عليهما السلام في زمن متأخر جداً عن السومريين لما يجد ذكر هذه الشخصيات في نصوص السومريين وهي نصوص سبقت الشخصيات المذكورة بالآلاف السنين ماذا بوسعه أن يقول غير أن الدين الإلهي كان موجوداً في سومر! وإلا فمن أين علم السومريون بخلفاء الله الذين يأتون بعدهم بالآلاف السنين ويجري عليهم ما هو مذكور في نصوصهم تماماً؟!

يقول د. كريم: (من بلاد الرافدين انتقل موضوع موت دموزي وقيامته إلى فلسطين، وليس عجباً بعد هذا أن نجد نسوة أورشليم يعولن على تموزي إحدى بوابات معبد أورشليم. ولا يستبعد أبداً أن تترك أسطورة موت دموزي وقيامته بصمتها على قصة

١ - انظر: من سومر إلى التوراة: ٢٧٨ - ٢٧٩.

المسيح، على الرغم من الفجوة الروحية العميقة بينهما. ولقد كانت عدة أفكار رئيسية في قصة المسيح مما يمكن إرجاعه إلى أصول سومرية،.....).

وبعد ذكره لأوجه الشبه ومنها لقب "الراعي" و"المسيح الممسوح رأسه بالزيت"، قال: (لعلنا نستطيع أن نضيف الآن العذاب الذي لقيه دموزي على أيدي العفاريت العتاة، مما يذكرنا إلى حدٍ ما بالآلام المسيح: شد وثاقه ودقت أطرافه بالمسامير؛ أجبر على خلع ثيابه والركض عارياً؛ جلد وضرب. وقد صرنا نعلم فوق كل هذا أن دموزي، وهو في هذا لا يختلف عن المسيح، لعب دور البديل الذي تعذب نيابة عن البشرية..... لكننا نسلم بأن نقاط الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء)^(١).

أقول؛ أولاً: غير صحيح القول بوجود فجوة روحية عميقة بين دموزي "الراعي الصالح" وبين عيسى، فالاثنتان معاً خلفاء الله ويجمعهما الطهر والصلاح وغيرها من صفات الرقي والكمال. نعم، الفجوة كبيرة وعميقة بين عيسى وبين دموزي المزيف الدنيوي "صياد السمك" الذي أشرنا له سابقاً، تماماً كالفجوة الموجودة بينه (أي المزيف) وبين دموزي الإلهي.

وثانياً: وصف "الراعي" يطلق على جميع خلفاء الله كما عرفنا؛ لأنهم يسوسون الخلق ويدبرون شؤونهم، كما أنّ وصف "المسيح" بمعنى الممسوح رأسه بالزيت (إشارة إلى العلم الثقيل الذي يتحلّى به صاحب الرأس الممسوح) هو الآخر وصف لجميع خلفاء الله، وليس الوصفان مختصين بعيسى ودموزي فقط، ومن ثم لا يمكن اعتبار الوصفين دليلاً على وحدة الشخصيتين كما ذكر د. كريم.

وثالثاً: وهو الأهم، إنّ ما جرى على المصلوب مأساة كبيرة، وهذا أمر صحيح، لكن ما جرى على دموزي - بحسب النصوص - مأساة أشد وأكبر، على أننا نعتقد أنّ المصلوب شخص آخر من خلفاء الله وليس عيسى الذي دعا الله أن ينحّي عنه كأس الصلب، ويمكن

١ - طقوس الجنس المقدس عند السومريين، صموئيل كريم، ترجمة: نهاد خياطة.

لمن يريد التحقق من المسألة بالتفصيل الرجوع إلى كتاب "الحواري الثالث عشر" للسيد أحمد الحسن.

أضف إلى ذلك: إنّ نصوص سومر ذكرت شخصية معذّبة أخرى في مأساة "دموزي"، كان لها دور كبير وهي أخته العالمة "جشتي - نانا"، كان لدموزي أيضاً عائلة وأطفال هاموا على وجوههم في البراري بعد مقتله، كان له أنصار قُتلوا قبله، إلى غير ذلك من تفاصيل أشار لها النص كما سنلاحظ، وهي تفاصيل مهمة تُبعد انطباق شخصية "دموزي" على عيسى الذي لم تُعرف له أخت أو عيال جرى عليهم ما هو مذكور في النص السومري.

د. كريم نفسه يعرف ذلك جيداً، لذا ختم كلامه بقوله: "كما نسلم بأنّ نقاط الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء".

إذن، "دموزي - تموز" ليس عيسى عليه السلام، فمن يكون إذن؟ لا مجال للبتّ في المسألة إلا بالعودة إلى نصوص المأساة وقراءتها لنرى مَنْ من خلفاء الله قُتل في بلاد سومر وجرت عليه فصول الألم والفاجعة التي يصوّرها النص السومري!

سأنقل الآن بعض النصوص من مقتل "دموزي - تموز" ولا أطلب من القارئ أكثر من أن يقارنها بفصول مأساة كربلاء - الواقعة ضمن حدود سومر - وما جرى فيها على الحسين وأخته زينب عليهما السلام:

(..... قلب دوموزي يسبح بالحزن والدموع،
مضى إلى السهول الممتدة الواسعة،
علّق الناي في عنقه وصاح يندب حظه،
أيتها السهول الواسعة الممتدة بعيداً رددى بكائي،)^(١)

بعد أن ترك محله ومضى إلى السهول البعيدة، تذكّر أمه الحزينة لأجله، والتي ما برحت تذرف الدموع عليه، ومثلها أخته الحزينة:

١- أنانا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشايين: ١٣٢.

(.... لتطلق أُمي صرخة عويل،
لتطلق أُمي (سرتور) صرخة عويل،
لتطلق أُمي التي لا تملك خمسة أرغفة، صرخة عويل،
لتطلق أُمي التي ليس عندها عشرة أرغفة، صرخة عويل،
عندما تفقدني لن تجد من يهتم بها،
وأنت يا عيني التائهة في السهول، ادمُعي مثل عين أُمي،
وأنت يا عيني التائهة في السهول، ادمُعي مثل عين أختي،^(١)).

ورد في الروايات أنَّ فاطمة عليها السلام كانت تبكي الحسين حتى تشهق بعبرتها^(٢).

في رحلته إلى السهل، استلقى دموزي ورأى رؤيا أزعجته، فطلب إحضار أخته ليقصها عليها، ولأنها العالمة فهي تعرف تأويل الرؤى:

(دوموزي استفاق وقال:
أحضروها لي، أحضروها، ا جلبوا أختي،
أحضروا (جشتي نانا) أختي الصغيرة،
أحضروا الكاتبة العالمة بسر الأرواح،
أختي التي تعرف معنى الكلمات،
المرأة الحكيمة التي تعرف معنى الأحلام،
يجب أن أتحدث لها،
يجب أن أخبرها بالحلم الذي رأيته)^(٣).

وصف علي بن الحسين عليه السلام عمته زينب عليها السلام – التي تصغر الحسين سنّاً – فقال: "عالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة"^(٤).

قص دموزي رؤياه على أخته العالمة:

١- أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشايين: ١٣٢.

٢- انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ٢٠٨ / ٤٥.

٣- أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشايين: ١٣٣.

٤- انظر: بحار الأنوار، المجلسي: ١٦٤ / ٤٥.

(دوموزي تحدث إلى أخته (جشتي نانا) قال:
 عن الحلم، أختي، استمعي إلى الحلم الذي رأيته،
 الأسل يطلع في كل ما حولي،
 الأسل يندفع من باطن الأرض كثيفاً،
 واحدة من ذاك النبات وقفت وحيدة وحننت رأسها أمامي،
 كل الأسل وقف في أزواج إلا واحدة أزيلت من مكانها،
 في البستان انتصبت في محيط الأرض حولي أشجار طويلة مرعبة،
 فوق أرض منامي لا ماء ينسكب،
 محفظة متاعي خالية وقد أخذ منها ما بها،
 وكوبي المقدس قد سقط من الوتد المعلق به،
 عصا الراعي اختفت،
 النسريحمل حملاً بين مخالبيه،
 والصقراختطف العصفور من سياج القصب،
 أختي: جدائي الصغار تجر في التراب ويغطيها الغبار،
 أغنامٌ حظيرتي تتحرك فوق الأرض بقوائم ملتوية،
 مخضبة اللبن محطمة خاوية فارغة،
 كوبي قد تهشم،
 دوموزي لم يعد بين الأحياء،
 حظيرة أغنامه صارت في مهب الريح^(١).

لما سمعت أخته منه رؤياه تأملت، وراحت تأوّل له رموز رؤياه: فالأسل الذي رآه هو
 عصابة من السفاحين الذين سينقضون عليه لقتله. أما الواحدة التي كانت واقفة
 بانفراد وحانية رأسها أمامه فهي أمه. ولما كانت أخته لم تفارقه في حياته أبداً فهما في الرؤيا
 بمثابة زوج من الأسل لا يفترقان، ولكن في الرؤيا واحدة من الأسل أزيلت من مكانها فكانت
 إشارة إلى أنّ أحدهما سيتوارى من الوجود ويؤول!

استمرت أخته في تأويل رؤياه: فالأشجار الطويلة المرعبة هم الأشرار الذين سوف
 يربعونه. وأما فوق أرض منامه وشهادته لا ماء ينسكب فمعناه: أنّ بيته ومن كان يرعاه

١- أنانا ملكة السماء والأرض، كريمر- ولكشاين: ١٣٣ - ١٣٤.

سيغدو خراباً بعد رحيله، نعم سيختفي دموزي ويرحل فمحفظته في الرؤيا باتت خالية وكوبه المقدس سقط وتهشم وعصاه وما يتقوى به اختفت.

(قالت جشتي نانا:
أواه يا أخي، لا تحك حلمك لي،
ليس مريحاً،
الأسل يطلع في كل ما حولك،
الأسل يندفع من باطن الأرض كثيفاً،
عصبة من السفاحين ستنقض عليك،
هو حلمك،
واحدة من ذاك النبات وقفت وحيدة وحننت رأسها أمامك،
هي أمك،
ستحني رأسها من أجلك،
كل الأسل وقف في أزواج إلا واحدة أزيلت من مكانها،
أنا وأنت،
أحدنا سوف يتوارى ويزول،
في البستان انتصبت في محيط الأرض حولك أشجار طويلة مرعبة،
الأشجار سوف يرعبونك،
فوق أرض منامك لا ماء ينسكب،
حظيرة الغنم سوف تغدو خراباً،
الأشجار سوف يضيّقون الخناق عليك) (١).

ضيّق الأعداء الخناق على الحسين، فقد روي: (لما عبَّأ عمر بن سعد أصحابه لمحاربة الحسين بن علي عليهما السلام ورتبهم مراتبهم، وأقام الرايات في مواضعها، وعبَّأ أصحاب الميمنة والميسرة، فقال لأصحاب القلب: أثبتوا، وأحاطوا بالحسين من كل جانب حتى جعلوه في مثل الحلقة ...) (٢).

١- أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشاين: ١٣٤ - ١٣٥.

٢- بحار الأنوار، المجلسي: ٤٥ / ٨.

تستمر أخته "جشتي نانا" في ذكر ما سيفعله الشياطين بدموزي:

(محفظة متاعك خالية وقد أخذ منها ما بها،
وكوبك المقدس قد سقط من الوتد المعلق به،
سوف تقع من ركبة أمك التي حملتك،
متاع الراعي،
مخضة الراعي، كل شيء يختفي،
الأشجار سوف يفعلون كل شيء يضعفك،
تجمعوا،
اليومة،
النسر،
الصقر،
العفريت الكبير،
كلهم يريدون أن يطردوك،
سيقضون عليك في حظيرة الغنم،
جداؤك الصغار تجرر في التراب يغطيها الغبار،
الغضب سوف يدوم في السماء مثل الإعصار)^(١).

من قتلوا "دموزي - تموز" قوم مجرمون قساة لا يعرفون الرحمة، هم في الحقيقة
مسوخ شيطانية وحقائقهم حيوانية وإن كانوا بصورة بشر! أما متى يسقط "دموزي"
قتيلاً؟ يسقط حينما يفقد أنصاره "غنمه" المدافعين عنه وهم عصارة و خلاصة الأمة
المتحنة به، التي دعاها إلى نصرته لكن القلة هي من لبّت نداءه وانتفعت بعلمه وهُداه
فقط "مخضة اللبن". نعم، عندما يسقط هؤلاء على الأرض مضرجين بدمائهم "قوائم
ملتوية" يُقتل "دموزي" ويكون كل شيء ذابلاً:

(أنت ستسقط إلى الأرض،
عندما أغنام حظيرتك تتحرك فوق الأرض بقوائم ملتوية،
عندما مخضة اللبن محطمة خاوية فارغة،

١- أنانا ملكة السماء والأرض، كريمر- ولكشاين: ١٣٤ - ١٣٥.

الشياطين ستجعل كل شيء ذابلاً^(١).

هل هذا كل ما فعلته أنا - عشتار "الدنيا" وأتباعها الشياطين المجرمون بدموزي؟ كلا، هذه المرة يخطف الشياطين القساة "الجالا"^(٢) منه حتى ابنه الصغير (رضيعه) فيقتلوه^(٣):

(حينما يأخذ النسر الخروف الصغير،
الجالا سيخدش حدودك،
عندما يمسك الصقرُ العصفورَ من سياج القصب،
الجالا سوف يتسلق السور ليأخذك بعيداً.
دوموزي،
شعري سيدور في السماء لأجلك،
الخراف ستحفّر الأرض بحوافرها،
أوه دوموزي أنا سوف أشقق خدودي بأسف عليك)^(٤).

حقّ - إذن - لأخته أن تحزن عليه وتخمش حدودها لأجله ويطيّر فكرها عليه "شعري سيدور في السماء لأجلك" من شدة الدهشة والذهول الذي أصابها لما يجري عليه وانتهاك حرمة من قبل الشياطين المجرمين:

(عندما وجدت جشتي نانا دوموزي في حظيرة الأغنام بكت،
رفعت فمها بجانب السماء،
أحضرت فمها بجانب الأرض،
مثل الثوب غطى حزنها الأفق،
مزقت عينها، مزقت فمها، مزقت أفخاذها،
صعد الـ (جالا) سياج القصب،

١- أنا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشاين: ١٣٥ - ١٣٦.

٢- الجالا: "نوع من الشياطين الأكثر شراسة". انظر: ديوان الأساطير - الكتاب الرابع: ٩٨.

٣- وقد روي أنّ الحسين: (دعا ابنه عبد الله فجعل يقبله وهو يقول: ويل لهؤلاء القوم إذا كان جدك محمد المصطفى خصمهم، والصبي في حجره، إذ رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه في حجر الحسين) بحار الأنوار، المجلسي: ٤٥ / ٤٦.

٤- أنا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشاين: ١٣٦.

ضرب ال (جلا) الأول دوموزي على الخد ونشب أظافره،
 ضرب ال (جلا) الثاني دوموزي على الخد الآخر،
 ال (جلا) الثالث حطم عجيذة المزبدة،
 ال (جلا) الرابع أنزل الكوب من وتده وحطمه،
 ال (جلا) الخامس حطم المزبدة،
 ال (جلا) السادس حطم الكوب،
 ال (الجالا) السابع بكى^(١).

هذا بالضبط ما جرى على الحسين المظلوم يوم عاشوراء عندما أثخن بالجراح
 وضعف عن القتال^(٢). والملفت أنّ النص يذكر بكاء أحد هؤلاء الشياطين، فمنّ من قتلة
 الحسين عليه السلام بكى؟ أكدت النصوص أنه عمر بن سعد^(٣).

لِمَ تهيم هكذا، أمها الراعي؟
 لقد أمسكوا بنعجاتك واستولوا على حملانك
 لِمَ تهيم هكذا؟
 لقد أمسكوا بعزاتك واستولوا على جديانك
 لِمَ تهيم هكذا؟ ...
 مخضتكم الجميلة، تم تفتيتها: لماذا غطيت
 رأسك بقطعة قماش؟
 جديانك الأكثر سمّة، بقيت في الحالة خَدَر

١- أنا ملكة السماء والأرض، كريم - ولكشايين: ١٤٢ - ١٤٣.

٢- لما أثخن الحسين صلوات الله عليه بالجراح وضعف عن القتال: (نادى شمر: ما وقوفكم؟ وما تنتظرون بالرجل؟ قد أثخنته الجراح والسهم احملوا عليه ثكلتكم أمهاتكم، فحملوا عليه من كل جانب، فرماه الحصين بن تميم في فيه وأبو أيوب الغنوي يسهم في حلقه، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه وكان قد طعنه سنان بن أنس النخعي في صدره، وطعنه صالح بن وهب المزني على خاصرته فوقع عليه السلام إلى الأرض على خده الأيمن،) بحار الأنوار، المجلسي: ٥٥/٤٥.

٣- لما أحاطوا بالحسين خرجت أخته زينب وقالت: (يا عمر بن سعد أبقِتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه، قال فكأنني أنظر إلى دموع عمروهي تسيل على خديه ولحيته قال وصرف بوجهه عنها..... وسلب الحسين ما كان عليه فأخذ سراويله بحربن كعب وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وكانت من خز وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود وأخذ سيفه رجل من بني نهشل بن دارم ... ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانهبوا قال ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه ...) تاريخ الطبري: ٤ / ٣٤٥ - ٣٤٦.

وجديانك الأصغر تثغو يائسة بجوار المعالف!
 وحملانك اليتامى تنوح بجوار قاعدة جدار الحظيرة!
 واختك ذات اللطف، وهي متأثرة بنواحيها^(١).

انهض يا حسين، فقد صودر مخيمك، انتهب رحلك، أطفالك وعيالك، بناتك ونساؤك
 سبايا، أيها القتيل المسلوب، المحزوز الرأس من القفا:

(انهض من نومك الزائف،
 نعاك صودرت،
 حملانك صودرت،
 عنزاتك صودرت،
 نمسك أطفالكم (جديانك صودرت)
 اخلع تاجك المقدس من رأسك،
 انزع ملايسك الملكية من جسدك،
 دع صولجانك الملكي يسقط على الأرض،
 اخلع نعليك المقدسة من أقدامك،
 عرياناً، تمضي معنا
 أمسك ال (جلا) دوموزي،
 أحاطوه،
 أوثقوا يديه،
 ربطوا رقبته،
 سكنت المزيدة،
 لا حليب ينزل منها،
 الكوب محطم،
 لا دوموزي بعد الآن،
 أصبحت حظيرة الغنم في مهب الريح)^(٢).

وهذا نداء زينب بعد مقتل أخيها الحسين عليه السلام:

١- ديوان الأساطير- الكتاب الرابع، أدونيس: ٩٦.

٢- أنانا ملكة السماء والأرض، كريم- ولكشاين: ١٤٤.

(يا محمداه بناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفي عليهم ريح الصبا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء، بأبي من عسكره في يوم الاثنين نهبا، بأبي من فسطاطه مقطع العرى، بأبي من لا هو غائب فيرتجى، ولا جريح فيداوى، بأبي من نفسي له الفداء، بأبي المهموم حتى قضى، بأبي العطشان حتى مضى، بأبي من شيبته تقطر بالدماء..)^(١).

وهذا مقطع يزور به الإمام المهدي جده الحسين الذبيح في يوم عاشوراء:

(..وقد عجبت من صبرك ملائكة السماوات، وأحدقوا بك من كل الجهات، وأثنخوك بالجراح وحالوا بينك وبين ماء الفرات، ولم يبق لك ناصر، وأنت محتسب صابر، تذب عن نسوانك وأولادك. فهويت إلى الأرض طريحا، ظمآن جريحا، تطوأك الخيول بحوافرها، وتعلوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانبساط والانقباض شمالك ويمينك، تدير طرفاً منكسراً إلى رحلك، وقد شغلت بنفسك عن ولدك وأهلك، وأسرع فرسك شارداً، وإلى خيامك قاصداً، محمحمماً باكياً. فلما رأين النساء جوادك مخزياً، وأبصرن سرجك ملوياً، برزن من الخدور للشعور ناشرات، وللخدود لاطمات، وللوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العز مذلات، وإلى مصرعك مبادرات، وشمر جالس على صدرك، مولغ سيفه في نحرك، قابض شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، وقد سكنت حواسك، وخمدت أنفاسك، وورد على القناة رأسك، وسي أهلك كالعبيد، وصفدوا في الحديد فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حرور الهاجرات، يساقون في الفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق..)^(٢).

واضح أنّ المستقبل الذي قصّه أنبياء الله في سومر لأقوامهم يشير إلى أنّ حادثة "الذبيح" ستكون في أرضهم "أرض سومر" وكما في النص التوراتي عند "نهر الفرات":

"٩ اصْعَدِي أَيْتُهَا الْخَيْلُ، وَهِيْجِي أَيْتُهَا الْمَرْكَبَاتُ، وَلْتَخْرُجِ الْأَبْطَالُ: كُوشُ وَفُوطُ الْقَابِضَانِ الْمَجْنَّ، وَاللُّودِيُّونَ الْقَابِضُونَ وَالْمَادُونُ الْقُوسُ. ١٠ فَهَذَا الْيَوْمَ لِلْسَيِّدِ رَبِّ

١- بحار الأنوار، المجلسي: ٤٥ / ٥٩.

٢- بحار الأنوار، المجلسي: ٩٨ / ٢٤١.

الْجُنُودَ يَوْمَ نَقَمَةٍ لِلْإِنْتِقَامِ مِنْ مُبْغِضِيهِ، فَيَأْكُلُ السَّيْفُ وَيَشْبَعُ وَيَرْتَوِي مِنْ دَمِهِمْ. لَأَنَّ
لِلسَّيِّدِ رَبِّ الْجُنُودِ ذَبِيحَةً فِي أَرْضِ الشِّمَالِ عِنْدَ نَهْرِ الْفُرَاتِ" (١).

ولهذا رأينا الحسين صلوات الله عليه ترك مكة "حرم الله" وتوجه إلى قرى سومر قرب
نهر الفرات حيث الموعد الإلهي المرتقب كما أخبر جده رسول الله ومن قبله أنبياء الله
صلوات الله عليهم قبل آلاف السنين!

وبخصوص بكاء ونواح أنبياء الله السابقين كآدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ففي
تراثنا الديني الكثير من الشواهد على ذلك (٢).

١- سفر أرميا - ٤٦.

٢- ساكتفي بمثاليين منها:

الأول: ورد في تفسير قوله تعالى "فتلقى آدم من ربه كلمات"، أن جبرئيل علم آدم عليه السلام اسم النبي وعلي
وقاطمة والحسن والحسين، (...) فلما ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: يا أخي جبرئيل في ذكر
الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟ قال جبرئيل: ولذلك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال: يا أخي
وما هي؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولوتراه يا آدم وهو يقول: وا عطشاء وا قلة
ناصره، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان، فلم يجبه أحد إلا بالسيوف، وشرب الحتوف، فيذبح ذبح
الشاة من قفاه، وينهب رحله أعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان، ومعهم النسوان، كذلك سبق في علم
الواحد المنان، فيكي آدم وجبرئيل بكاء الثكلي) بحار الأنوار، المجلسي: ٤٤ / ٢٤٥.

الثاني: (وروي أنّ نوحاً لما ركب في السفينة طافت به جميع الدنيا، فلما مرت بكريلاء أخذته الأرض وخاف نوح
الغرق، فدعا ربه وقال: إلهي، طفت جميع الدنيا وما أصابني فزع مثل ما أصابني في هذه الأرض، فنزل جبرئيل وقال:
يا نوح، في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمد خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء، ...

وروي أنّ إبراهيم مرّ في أرض كربلاء وهو راكب فرساً، فعثرت به وسقط إبراهيم وشج رأسه وسال دمه، فأخذ في
الاستغفار وقال: إلهي، أي شيء حدث مني؟ فنزل إليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم، ما حدث منك ذنب ولكن هنا يقتل
سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء فسال دمك مو أفقة لدمه ...) نفس المصدر: ٤٤ / ٢٤٣.

ملحق - ٢

جلجامش والمهدي (٤)

جلجامش السومري الذي ذاع صيته في بلاد سومر منذ آلاف السنين، وورد ذكره في النصوص السومرية، شخصية أسرت قلوب وفكر الباحثين منذ أن تم اكتشاف ألواح ملحمته في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي^(١)، وملحمته هي الأخرى كان لها وقع كبير في نفوس كبار الباحثين في حضارة بلاد ما بين النهرين، فصحيح أنها قصة شرقية ولكن ليست كسائر القصص التي تتناولها الشعوب عادة^(٢).

سنحاول المرور على أهم الأحداث التي تضمّنتها ملحمة جلجامش الشهيرة، وسنستخلص منها خارطة طريق الخلاص الإنساني، من خلال المقارنة بين الفهم السائد لها بين شراحها، فهم بالرغم من اختلافهم في بعض التفاصيل إلا أنهم يتفقون في كثير من الأمور العامة المهمة في الملحمة، وهو فهم يشبه إلى حد كبير ما طرحه علماء الأديان من تفسير للنصوص الدينية؛ إما من حيث كفاية الأخذ بالمدلول اللغوي للمفردات، أو من حيث عدم القدرة على فك الرموز بشكل صحيح. سنقارن بين هؤلاء وبين الفهم الذي قدّمه السيد أحمد الحسن للملحمة في كتابه "وهم الإلحاد"، وهو فهم لم يغفل رمزية النص وفك شفرته بشكل حفظ لنصوص الملحمة انسجامها ووحدة مضامينها.

١- يقول د. طه باقر: (عجباً من كان جلجامش هذا الذي أصبح مثلاً يحتذى به لدى أبطال الأمم الأخرى!) ملحمة جلجامش: ١٦ - ١٧.

ويقول د. نائل حنون: (فجلجامش هو الرجل الذي لم يخبُ ذكره على مر العصور، قديمها وحديثها، وسيظل ذكره قائماً لعصور قادمة قد لا نعلم مداها اليوم) ملحمة جلجامش: ١٨.

٢- يقول شارل فيروللو: (هي من معدن آخر، إنها قصة أسطورية فلسفية وكلما أوغلنا في تحليلها كلما حاسبنا أنفسنا وقلنا من هذه الناحية يجب أن ننطلق لا بل من تلك يجب أن نبحث) أساطير بابل وكنعان: ٤٧.

ملحمة جلجامش:

لم يخف الباحثون شدة إعجابهم بملحمة جلجامش وما تضمّنته من مواقف ومعاني إنسانية راقية ووقّادة، لم تكف آلاف السنين المتعاقبة - ولن تكفي - على تقليل جذوتها وأثرها في نفوس ملايين البشر جيلاً بعد جيل، ونحن في بحثنا فيها يمكننا أن نثير - ابتداءً - سؤالين:

- ١ - هل الملحمة نص أدبي محض أم ديني؟
- ٢ - هل نقرأ في الملحمة تاريخ الإنسانية الماضي أم القادم؟

بخصوص السؤال الأول، فإنّ الباحثين يرون أنّ الملحمة عبارة عن نص أدبي، نال من الشهرة والمكانة ما نالته الآداب العالمية الشهيرة إن لم يكن قد فاقها جميعاً^(١).

الملحمة - كما هو معروف عنها - مرت بمراحل تطورية كثيرة قبل أن تستقر على ما هي عليه، فهناك نصوص سومرية متفرقة عن جلجامش لم تجمع في نص واحد متماسك، لكنها رغم تفرقها دخلت في صياغة النص البابلي القديم (الذي استحق أن يوصف بالملحمة)، ثم تطور هذا الأخير وهكذا وصولاً إلى النص الآشوري للملحمة^(٢).

١ - يقوله د. طه باقر: (ومع أنّ هذه الملحمة قد دوّنت قبل ٤٠٠٠ عام، وترجع حقبة حوادثها إلى أزمان أخرى أبعد، فإنها، مثل الآداب العالمية الشهيرة، ما تزال خالدة وذات جاذبية إنسانية عامة في جميع الأزمان والأمكنة، لأن القضايا التي عالجتها لا تزال تشغل بال الإنسان وتفكيره وتؤثر في حياته العاطفية والفكرية مما جعل موافقها وحوادثها مثيرة تأسر القلوب) ملحمة جلجامش: ١٠ - ١١.

٢ - يقول شارل فيرولو: (وبمقارنة هذه القطع الأصلية المتنوعة مع النص النينوي بدت معلومات قيمة. ليس في سد الثغرات فحسب بل أظهرت تماماً بأن قصيدة "ملحمة" جلجامش لم تكن على شكل واحد في عهد الآشوريين. وهذا برهان على أنّ الأسطورة تطورت بصورة ملحوظة عبر الأجيال. وتعبير آخر فإن الكتّبة لم يكتفوا بنسخ النص القديم بشكل أمين وحر في بل وأضافوا وبتروا وحوّروا.) أساطير بابل وكنعان: ٣٧.

ويقول د. كريمر: (... ولكن تحليلاً مقارناً لهذه الملحمة البابلية ولأصولها السومرية سوف يبين لنا أنّ المؤلفين والجامعين البابليين قد استعملوا وحوّروا في الملاحم السومرية لأغراضهم الخاصة) من ألواح سومر: ٣٠٢.

إنّ محاولات التحريف والتصرّف في نص الملحمة يُنبئ - في إحدى مدلولاته - إلى أنّ أنها - أي الملحمة - لا تقتصر على كونها نصّاً أدبياً محضاً وإنما تعتبر نصّاً دينياً يحكي قصة شخصية مقدسة، وإلا فمن يهتم عادة لتحريف نص أدبي محض (١)؟؟!

وأيضاً: أحداث الملحمة لم تفارق ذكر الإله أو الآلهة التي تحتل موقع الريادة في ديانة وعقيدة السومريين كما عرفنا، بل حتى "الرؤى" التي احتلت مساحة في سور وأسفار الكتب المقدسة لدى الأديان السماوية، كرؤيا دانيال ورؤيا يوسف، كانت لها حصتها في الملحمة أيضاً. كما أنّ المضامين التي تسعى الملحمة إلى إيصالها - كما سيتضح - هي مضامين دينية، بل تعتبر من صميم الدين الإلهي الذي بُعث به خلفاء الله، بل إنّ مقوّمات النص الديني - كالترميز الذي يعد سمة أساسية للنصوص الدينية - نراه ماثلاً بوضوح في نصوص الملحمة كما سنعرف.

وأيضاً: اهتمام السومريين وشغفهم وتقديسهم لشخصية "جلجامش" وصل إلى حد حمل اسمه في تعويذاتهم الدينية (٢)، وهو أمر يرشد - هو الآخر - إلى أنّ ملحمة ليست مجرد مقطوعة أدبية وحسب. نعم، يمكن القول إنّ الملحمة نص ديني طاله التحريف - كأى نص ديني آخر - خصوصاً وأنّ القصة كانت متداولة قبل عصر الكتابة بزمان طويل!

يقول السيد أحمد الحسن: (فإذا كانت هناك محاولات تحريف مقصودة لنصوص مكتوبة فما بالك بالنصوص المنقولة شفاهة قبل عصر الكتابة، أكيد أنّ تعرضها للتحريف أكبر، وإنها لما دوّنت في عصور الكتابة والتدوين الأولى دوّنت بصورتها المحرّفة، وبالتالي فقصة الطوفان وقصة دموزي وقصة جلجامش وغيرها من القصص ذات الأصول السومرية - الأكادية يمكننا أن نجزم أنها لم تدوّن بالصورة التي تداولها القاص قبل عهد التدوين) انتهى (٣).

١- انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٥١ فما بعد.

٢- انظر: ملحمة جلجامش، طه باقر: ١٧ - ١٨.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٥٢.

وبخصوص السؤال الثاني، فإنّ بعض الباحثين الذين كتبوا في الملحمة اعتبروا أنها تحكي حال الزمن الماضي^(١).

هناك دراسات عديدة تناولت ملحمة جلجامش بالشرح والتحليل، وقد تأرجحت بين من نظر لها على أساس أنها تجسيد لصراع داخلي نفسي بين الإنسان والموت^(٢)، وبين من نظر لها بأفق أوسع ويرى أنها: (عالجت قضايا إنسانية عامة، كمشكلة الحياة والموت، وما بعد الموت، والخلود، ومثلت تمثيلاً مؤثراً بارعاً ذلك الصراع الأزلي بين الموت والزوال المقدرين وبين إرادة الإنسان المغلوبة المقهورة في محاولتها التثبت بالوجود والبقاء)^(٣).

هذا، ونحن سبق وأن ذكرنا أنّ كثيراً من الباحثين انتبه لأوجه الشبه بين نصوص سومرونصوص الأديان الإلهية اللاحقة، وألف كتباً خاصة فيه، وعلى هذا الأساس انتهينا - في الملحق السابق - إلى أنّ نصوص "دموزي" إنما تتحدث عن خليفة إلهي مستقبلي نسبة إلى وقت تداول قصته بين السومريين فضلاً عن وقت تدوينها، ونفس الأمر يمكن أن نقوله في شخصية "جلجامش" الملحي.

يقول السيد أحمد الحسن: (ملحمة جلجامش يمكن أن نقرأ فيها تاريخ الإنسانية الآتي وليس الماضي كما يتصور بعض شراحها، ويمكن أن نقرأ فيها قصة المنفذ للنوع الإنساني من حيوانيته التي كانت - وللأسف - حاضرة على الدوام وبقوة خصوصاً في المواجهات الكبرى) انتهى^(٤).

بل يمكننا استشراف "المستقبل" في الملحمة وكونها تتحدث عن تاريخ الإنسانية الآتي حتى من بعض معاني اسم "جلجامش"، يقول د. طه باقر: (هذا ولا يعلم معنى اسم

١- يقول د. حسين علوان حسين: (وتحتل هذه الملحمة، مع قصة الخليقة البابلية، مكانها المتميز بين أعظم ملاحم العالم القديم. فعلاوة على قيمتها الشعرية الخالدة، فإنّ نصّها مليء بالمعاني العميقة والقيم السامية والتي تفرض وجوب عدم قراءة الملحمة كمجرد حكاية أو أسطورة، وإنما كوثيقة عن القيم الإنسانية القديمة) الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة.

٢- سومرأسطورة وملحمة، فاضل عبد الواحد علي: ١٧٦.

٣- ملحمة جلجامش، طه باقر: ١١.

٤- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٧٤.

"جلجامش" بالضبط. وقد ذكرت بعض النصوص الأكديّة ترجمة له باللغة الأكديّة معناها "المحارب الذي في المقدمة". كما أنّ هناك احتمالاً لأسمه السومري معناه "الرجل الذي سيكون نواة لشجرة جديدة" أي "الرجل الذي سيولد أسرة" ^(١).

لاحظ: "سيكون، سيولد ..." في إشارة واضحة إلى المستقبل.

شخصية جلجامش:

يزعم بعض الباحثين أنّ جلجامش شخصية أسطورية غير حقيقية، ويعتقد البعض الآخر أنه شخصية تاريخية حكمت مدينة أوروك ^(٢)، فوق "تبت ملوك سومر" يعتبر جلجامش خامس الملوك الذين حكموا مدينة أوروك بعد الطوفان، حيث تتألف سلالة أوروك الأولى من اثني عشر ملكاً أولهم "مسكيا - جاشر" يليه ابنه "انيمركار" ثم "لوجال بندا"، وبعده "دموزي" صياد السمك الذي تقدم ذكره، ثم يأتي اسم "جلجامش" ابن لُلا (Lulla) الذي حكم ١٢٦ عاماً وخلفه ابنه "أور- نكال" ^(٣).

لكن: (تروي القصص "كما في ملحمة جلجامش" أنّ أمه كانت الإلهة "ننسون" زوجة الإله "لوكال بندا"، ولكن أبا البطل جلجامش لم يكن "لوكال بندا" وإنما ورد ذكره في أثبات الملوك السابقة الذكر بهيئة "للا" الذي يعني نوعاً من الشياطين وإنه كان كاهن كلاب) ^(٤).

هذا يعني وجود اختلاف على مستوى النسب بين جلجامش والملحمة وجلجامش التاريخ، ثم إنّ جلجامش التاريخ هذا لا يستحق أن يذيع صيته في مدن سومر الأخرى فضلاً

١- ملحمة جلجامش، طه باقر: ١٩.

٢- منهم: د. نائل حنون في كتابه "ملحمة جلجامش"، وفراس السواح في كتابه "قراءة في ملحمة جلجامش". يقول د. نائل حنون: (من المتفق عليه أنّ جلجامش عاش في جنوب بلاد الرافدين وكان ملكاً على مدينة أوروك "الوركاء" في حدود عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل، أي أنه كان أحد ملوك دويلات المدن التي قامت في بلاد الرافدين خلال عصر فجر السلالات) ملحمة جلجامش: ١٥.

٣- انظر: قراءة في ملحمة جلجامش، فراس السواح: ٢٦.

٤- ملحمة جلجامش، طه باقر: ١٧.

عن أن يكون شخصية أممية تأسر قلوب من سكن بلاد ما بين النهرين وما جاورها بل والعالم كله إلى يوم الناس هذا^(١).

الحقيقة إن ما حصل مع شخصية جلجامش الملحمة هو نفسه الأمر الذي حصل مع دموزي "الابن الصالح" تماماً، فمع دموزي رأينا كيف اشتبه الأمر على كبار الباحثين وأسقطوا شخصية الراعي الصالح على دموزي الوركاء "صياد السمك" وهنا أيضاً نراهم يُسقطون شخصية جلجامش الملحمة على جلجامش الوركاء ابن "لُلا" بالرغم من الاختلاف الواضح بينهما على مستوى النسب أو الأعمال الكبرى التي قام بها أيضاً.

يقول السيد أحمد الحسن: (لعل أعظم تشويه تتعرض له هذه الملاحم هو إسقاط الشخصيات الملحمية على مصاديق خاطئة نتيجة الاشتباه، كإسقاطها على ملوك وردت أسماؤهم في سجل الملوك، مثلاً عندما يتم إسقاط شخصية جلجامش الملحمية على الملك جلجامش رغم اختلاف أسماء الآباء والنسب فهذا تماماً كمن يقول اليوم وهو يقرأ قصة المهدي الملحمية التي ذكرها النبي محمد صلى الله عليه وآله في روايات كثيرة إن هناك ملكاً في دولة بني العباس قبل أكثر من ألف عام اسمه المهدي، وهو يعتقد أن المقصود بقصة المهدي الإسلامي الملحمية هو ذلك الملك العباسي) انتهى^(٢).

والنتيجة إنه لا يوجد اتفاق بين الباحثين على تحديد شخصية "جلجامش"، والأمر ليس كما ادّعى د. نائل حنون في قوله المتقدم. ثم إننا وبعد أن فتحنا نافذة لإمكانية أن تكون الملحمة نصاً دينياً يتضمن مضموناً مقدساً وليست نصاً أدبياً صرفاً، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن تكون شخصية جلجامش ذات طابع ديني مقدس لدى السومريين، وهذا ما ستكشفه بصورة أجلى قراءتنا لأهم أحداث الملحمة.

١- يقول شارل فيروللو: (وعلى أية حال، ليس "جلجامش" الذي كتب عنه التاريخ سطرين يستري انتباهنا، ولكن "جلجامش" الذي وصلتنا أسطوره الشعريّة) أساطير بابل وكنعان: ٤٠.

٢- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٧٧.

أحداث الملحمة بين رؤيتين:

سنستعرض الآن أهم الأحداث التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش ونجري مقارنة بين رؤيتين وقراءتين: لنرى أيّاً منهما أقرب للحقيقة، وأعني بالقرب للحقيقة هنا هو قدرة أي من الرؤيتين على تقديم صورة واضحة ومنسجمة لنصوص الملحمة بحيث لا يكون هناك سبيل للتناقض والتضارب فيما بينها، وبالتالي تحفظ للملحمة قيمتها: الملحمة التي تم ترجمتها إلى أغلب لغات العالم المعروفة، وقُدمت حولها المئات من الدراسات والبحوث في أرقى جامعات العالم المعاصر.

١ - هوية جلجامش:

ابتداءً، مطلع الملحمة يعطينا تعريفاً مختصراً بهوية بطلها:

(اللوحة الأولى:

هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي،
وهو الذي خبر جميع الأشياء و أفاد من عبرها،
وهو الحكيم العارف بكل شيء،
لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة،
وجاء بأنباء الأيام مما قبل الطوفان،
لقد أوغل في الأسفار البعيدة حتى حل به الضنى والتعب،
فنقش في نصب الحجر كل ما عاناه وما خبره) ^(١).

و أيضاً يخاطبه أنكيبدو في نص آخر قائلاً له:

(إنك الرجل الأوحده، أنت الذي حملتك أمك،
ولدتك أمك "ننسون"
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس،

١ - ملحمة جلجامش، طه باقر: ٣٥.

وقدر إليك الملوكية على البشر^(١).

"جلجامش" بحسب النصين ملك منصّب من الله، حكيم عارف بكل شيء عالم بخفايا الأسرار، ومعلّم للناس أيضاً. ومن ثمّ فليس من الصحيح ما ذهب إليه بعض الباحثين من انطباق هويته على جلجامش الذي حكم أوروك قبل ٤٦٠٠ سنة تقريباً؛ لأن شيئاً مما ذكر في تعريف هوية البطل لا يتصل بهذا الأخير في شيء أبداً.

يقول السيد أحمد الحسن: (واضح أنّ النص يصف شخصاً عالماً: "رأى كل شيء الذي خبر جميع الأشياء الحكيم العارف أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة"، ومُعلِّماً مهمّاً جاء بعلوم مهمة وسينقشها بحيث إنها ستبقى بين الناس "فنقش في نصب الحجر كل ما عاناه وما خبره") انتهى^(٢).

مما لا شك فيه أنّ البشرية (غالبيتها العظمى) منذ زمن آدم ونوح عليهما السلام ومن تلاهم من رسل الله في سومر وإلى يوم الناس هذا، لم تزل مصرة على الاتصاف بصفات "أسلاف البشر" والتطبع بالجانب الغريزي الحيواني بشكل عام، وهذه الصفات الأنانية بعيدة كل البعد عن المثل والقيم الإنسانية العليا كالإيثار والتضحية دون مقابل والخلود وما شابه، فكانت الحاجة ملحة إلى قصة معلّم ومنقذ رباني تُسهم قصته وأعماله في رفد الإنسان - سابقاً ولحقاً - بهذه المثل الراقية وتذكيره بها وبالتالي ترسم له طريق الإنقاذ والخلاص بنحو تشكّل له سداً عن الانحدار والتقهر، فكانت قصة المنقذ والمخلص خير معين له على نيل هذا الهدف السامي، لهذا وجدنا قصته تعويذة يتلوها الجميع ويشغفون بها! علماً، أنّ اعتبار "جلجامش" كـ "منقذ" أمر التفت إليه بعض الباحثين استناداً لبعض النصوص^(٣).

١- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٥٠.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٨٠.

٣- يقول كريم تعقيباً على قصيدة "جلجامش وآجا": (وتنتهي القصيدة بتسبيحة حمد لجلجامش كمنقذ للوركاء) السومريون: ٢٥٨.

والآن، وفق هذا التصور صار بوسعنا أن نقرأ ملحمة جلجامش بفهم آخر ربما غير مطروح في الساحة العلمية قبل السيد أحمد الحسن، حيث يقول:

(وسنحاول معاً قراءتها بصورة أخرى ربما ليست معهودة، سنحاول قراءتها على أنها قصة قصص آدم لأبنائه، وقصص نوح لأبنائه، وقصص إبراهيم لأبنائه، وانتشرت بين السومريين وبين شعوب العالم القديم وخصوصاً في الشرق الأدنى، وأصبحت القصة المفضلة لسكان بلاد ما بين النهرين mesopotamia وتناقلتها الأجيال حتى وصلتنا عبر آلاف السنين، ولكنها ربما شُوِّهت وحرِّفت - كما تبين لنا سابقاً - عندما تداولها الناس. قصة جلجامش الذي سيأتي يوماً ليحقق العدالة وينقذ النوع الإنساني من حيوانيته، ... انتهى^(١)).

٢- هل صدر من جلجامش ظلم واعتداء؟

"جلجامش" المنقذ والمخلص، العالم والحكيم، فهم بعض المختصين بالحضارة السومرية - استناداً لظواهر بعض نصوص الملحمة - أنه يقوم بظلم الناس ويعتدي عليهم:

(لازم أبطال "أوروك" حجراتهم متدمرين شاكين:

لم يترك جلجامش ابناً لأبيه

ولم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار

ولكن جلجامش هوراعي "أوروك"، السور والحمى

إنه راعينا: قوي وجميل وحكيم

لم يترك جلجامش عذراء لحبيها، ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل)^(٢).

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٧٢.

٢- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٣٩.

د. كريمروآخرون فهموا النص بأنّ جلجامش صدر منه الظلم والاضطهاد^(١)، وحاول بعضهم تبرير ذلك لكن محاولته غير مجدية بعد اعترافه بأنّ ما صدر من "جلجامش" ظلم وشذوذ بحسب فهمه للنص^(٢).

كان الأولى بهؤلاء الباحثين أن يعترفوا بأنّ فهمهم هذا يتناقض تماماً مع النص المتقدم المعرّف بجلجامش، وإلا فكيف لشخص عالم حكيم وعارف بكل شيء أن يظلم رعيته ويعتدي على أعراضهم من أجل إشباع رغباته؟! وماذا أبقى للحاكم الدكتاتوري المتسلّط الظالم إذن!!؟

يقول السيد أحمد الحسن: (من غير المعقول - كما فهم بعض المختصين بالحضارة السومرية - أن يكون المقصود بهذه المقاطع اعتداء جلجامش على أعراض الناس أو ظلمهم، وإلا لكانت الملحمة متناقضة تماماً، فجلجامش وصّف في بدايتها بأرقى ما يمكن أن يُوصّف به حاكم عادل، بل في نفس هذه الأسطر وصف بأنه حكيم، فكيف يعتدي ملك حكيم على أعراض رعيته ويظلمهم؟! ثم إنّ الجزء الآتي من الملحمة سيصف جلجامش بوصف مثالي، مثل: الإيثار والشجاعة والإخلاص، ولهذا فهكذا نصوص إما أن تكون تحريفاً مقصوداً حُشِر في النص، أو إنها رمزية وبالتالي تحتاج إلى تأويل وبيان) انتهى^(٣).

إنّ قصيدة تحريف النص يمكننا تفهّمه إذا ما عرفنا أنّ الملحمة نتاج ديني يحكي قصة شخصية دينية مقدسة، وليست نتاجاً أدبياً صرفاً، كما أنّ التأويل ممكن وفق ما انتهينا إليه من أنّ "جلجامش" مخلص ومنقذ للنوع الإنساني من حيوانيته التي تحول بينه وبين الرقي والتكامل.

١- يقول كريمر: (كان مطلق العنان، اضطهد سكان مدينته وسامهم العذاب. وكان أشد مطالبه ظلماً وبشاعة تعسفه وإشباع شهواته ولذاته الجنسية) من ألواح سومر: ٣٠٦.

ويقول نائل حنون: (ثم يأتي النص على ذكر واطة جلجامش على أهل أوروك وإراقه لهم في الحروب والأعمال الكثيرة ...) ملحمة جلجامش: ٣٣.

٢- يقول فراس السواح: (...) وسلوك الرجل الحكيم إن شذ ما شذ عن طيش أو هوى، بل عن بحث وتساؤل ومحاولة فهم وكشف) قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٤٢.

٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٧٥ - ٣٧٦.

يقول السيد أحمد الحسن: (وإذا قرأنا النص بتدبر سنجد أنّ المراد هو منقذ النوع الإنساني من حيوانيته، منقذ النوع الإنساني الذي رافقت قصته كلّ الأمم، لأنّ الذين يسبقون زمن بعثه إذا لم تكن أممهم مهياً لاستقباله فعلى الأقل هناك أفراد في تلك الأمم يمكن أن تنقذهم قصته التي يتداولونها، إنه الشخص الذي سيربطهم بالله وسيفتح باب السماء ليسمع كل من يريد أن يسمع وحيّاً عظيماً يُعرِّفه بالحقيقة فيشغف بها، الحقيقة التي أظهرتنا من العدم، الحقيقة التي خلّقنا لنعرفها، ولهذا فهو سيشغل الجميع بالله وليس بشخصه هو؛ لأنه لو شغلهم بنفسه أو تركهم ينشغلون به دون أن ينهمهم فلن يكون هناك فرق بينه وبين أي طاغية ظالم يريد الشهرة والسمعة.

الآن، يمكننا أن نفهم جيداً لماذا "لازم أبطال أوروك حجراتهم متدمرين شاكين"، ولماذا "لم يترك جلعامش ابناً لأبيه ولم يترك جلعامش عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل"، لأنهم جميعاً شَغِفُوا بالله وتعلّقوا به سبحانه، جاء جلعامش المخلّص وفتح لهؤلاء المخلّصين، الذين سيكونون في زمنٍ معيّن، باب وحي عظيم وعلمهم كيف يتعلّقون بالله وكيف يحبون الله وكيف يسمعون الله في كل شيء) انتهى^(١).

"جلجامش" لا يريد أن يصحبه من له تعلّق بغير الله، ولذلك فهو لم يقرب إليه غير من كان "أعزباً" في إشارة إلى أنه ليس له تعلّق بالدنيا أو أي شيء يصرفه عن الله:

(إن من اقتلع الأرز؛ كان يغمره السرور؛

السيد "جلجامش" غمره السرور؛

وعباً (رجال) مدينته كرجل واحد؛

وحشّد (رجالها) كرفيقين توأمين؛

من كان يملك بيتاً؛ فليعد إلى بيته!

ومن كان له أم؛ فإلى أمه!

وليقف الذكور من العزاب الذين سيفعلون ما أفعل إلى جنبي!

من كان يمتلك بيتاً؛ (عاد) إلى بيته!

ومن كان له أم؛ (عاد) إلى أمه!

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٧٦.

ووقف خمسون من العزاب من الذين كانوا سيفعلون ما يفعل إلى جانبه) (١).

أعتقد جازماً أنّ أيّ قراءة يمكنها أن تحفظ للنصوص والملاحم المهمة وحدتها وانسجامها بشكل يليق بخلودها وشغف الأمم بها منذ العصور الغابرة، كملحمة جلجامش في بحثنا، لهي أولى بالقبول من التي تسلب نصوص الملحمة الخالدة الانسجام والتناسق بين مضامينها، ولا أعتقد أنّ باحثاً منصفاً يخالفني في هذه النتيجة!

٣- جلجامش ثلثاه إله وثلثه بشر:

لعل واحدة من الأسباب التي دفعت بعض الباحثين إلى اعتبار "جلجامش" شخصية أسطورية هي الصفات والإشارات "الخارقة" التي وصف بها في نصوص الملحمة، والتي لم يتمكنوا من حل شفرتها وفهمها بشكل صحيح ينسجم مع الشخصية الإنسانية الحقيقية، كصفة "ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر" مثلاً:

(فنادى "الرجل العقرب" زوجته وقال لها:

إنّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة،

فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:

أجل إنّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر، ...) (٢).

بعض الباحثين الذين يعتقدون بأنّ "جلجامش" شخصية حقيقية تاريخية حكمت الوركاء أيضاً لم يستطيعوا أن يقدّموا فهماً مقبولاً لهذه الإشارة، فهم بين من تجاهلها أصلاً ولم يذكر عنها شيئاً، وبين من أرجعها إلى الإرث النسبي الذي حظي به "جلجامش" من جهة أمه "ننسون" (٣).

١- السومريون، كريم: ٢٦٩.

٢- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٧٥.

٣- يقول فراس السواح: (تجعل النصوص السومرية من جلجامش ابن للآلهة "ننسون" زوجة الملك لوجال بنداء، إلا أن أبا جلجامش لم يكن لوجال بنداء، بل كاهن غامض يلقب بالكاهن الأعلى لمنطقة كولا، وهي من أعمال أوروك. من هنا جاءت الإشارة إلى جلجامش على أنه مزيج من إله وبشر) قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٨ – ٢٩.

هذا، مع أنّ الإشارة المذكورة - أيّاً كان معناها - واضح أنها تضفي كمّالاً على شخصية "جلجامش"، ومعلوم أنّ الكمّال والرقى الإنساني لا ربط له مطلقاً بالنسب ومكانة الأم أو الأب، وإنما له علاقة بسعي الإنسان وجدّه وإخلاصه هو لا غير. إذن، ما معنى أن يكون ثلثا جلجامش إله وثلثه المتبقي بشر؟

الجواب: يمكننا فهم هذا "الرمز" إذا استحضرنّا قصة خلق الإنسان السومرية، حيث تقدم أنّ نصوص السومريين تفيد بأنّ الإنسان خُلِقَ على "صورة المعبود"، وهو معتقد توحيدى أصيل وصحيح حتى وفق نظر الديانات الإلهية اللاحقة. وكون الإنسان مخلوق على "صورة الله" يعني بالضرورة أن تكون فطرته هي الأوسع والأكبر من بين بقية الخلق: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَمًا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" الروم: ٣٠، وهذا يعني أنّ بوسع الإنسان أن يتخلّق بأخلاق الله ويكون مظهرًا ومراًة تتجلّى فيه الصفات الإلهية كالعدل والعفو والرحمة والكرم والعلم والحكمة... الخ بشكل واضح وكبير، وحينئذٍ سيغطي النور مساحة أكبر في وجوده بحسب نسبة التجلي والإظهار، والعكس صحيح أيضاً أي يمكنه أن يترك ذلك ويدس فطرته في التراب فتتسع مساحة الظلمة في وجوده بكل تأكيد،

ونحن لما عرفنا أنّ "جلجامش" ملك إلهي عادل وعالم عارف وحكيم، فأكيد أنّ نسبة النور في وجوده أكبر من الظلمة لذا كان ثلثاه "إله":

يقول السيد أحمد الحسن: (جلجامش الشخصية المقدسة عند السومريين أو الأكاديين (البابليين - الآشوريين) وكثير من شعوب العالم القديم يوصف بدقة في ملحمة جلجامش "ثلثان منه إله وثلثه الباقي بشر" أي: أنّ النور في وجوده غالب على الجانب المظلم أو الأنا، ولكنه يبحث في النهاية عن سرّ الخلاص النهائي من هذه الظلمة) انتهى^(١).

وبقدر تعلق الأمر بالباحثين، فمن الطبيعي أن يجدوا صعوبة في حل هكذا نصوص مرّمة؛ نتيجة ابتعادهم عن المنهج الصحيح في فهم النصوص الدينية.

١- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٧٦.

٤ - الصراع بين جلامش وأنكيدو:

أمر آخر لم تفارقه الرمزية في ملحمة جلامش، هو المعركة التي حصلت بينه وبين أنكيدو، حيث يرى أغلب الباحثين أنها عبارة عن عراك وشجار بالأيدي داربينهما في طرقات "أوروك" ثم أعقبه فجأة صداقة بينهما صارت مضرباً للأمثال فيما بعد:

(وظل جلامش وأنكيدو يتصارعان

وحيثما ثنى جلامش زكبته وقدمه ثابتة في الأرض (ليرفع أنكيدو)

هدأت سورة غضبه واستدار ليمضي

ولما استدار يريد الذهاب بعد أن هدأ غضبه كلمه أنكيدو قائلاً له:

إنك الرجل الأوحده،

أنت الذي حملتك أمك،

ولدتك أمك ننسون

ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس،

وقدر إليك الملوكة على البشر^(١).

فهم د. كريمر وآخرون من هذا النص وأمثاله أن قتالاً واشتباكاً بدنياً حصل بين الطرفين^(٢)! ولك أن تتصور أن "جلامش" المقدس العادل، العالم والعارف والحكيم بحسب مطلع اللوح الأول للملحمة، يتصارع مع شخص في الطرقات بحسب لوح الملحمة الثاني، ولأجل ماذا؟ لأجل أنه جاء ليحد من نزواته وظلمه لرعيته كما يفهم هؤلاء الباحثون؟! لا أعتقد أن انسجاماً ونسقاً سليماً سيبقى قائماً بين نصوص الملحمة، بل ولا حتى أدنى وجوه الترابط لحفظ هيبة نص بحجم "ملحمة جلامش" التي أبدى نفس

١- ملحمة جلامش، طه باقر: ٤٩ - ٥٠.

٢- يقول كريمر: (فاشتبك البطلان العملاقان في القتال - "جلامش" الحضري المتفتن، و"أنكيدو"، ابن السهول الساذج) من ألواح سومر: ٣٠٨. وانظر أيضاً: ملحمة جلامش، طه باقر: هامش رقم (٣١ - ٣٢): ٤٩: قراءة في ملحمة جلامش، فراس السواح: ص ٢٤٨.

ويقول د. نائل حنون: (في اللحظة التي هم فيها جلامش بالدخول إلى "بيت الأعراس" يسد أنكيدو بقدمه الباب فينشب الصراع بين البطلين ويتشابكان بالأيدي في الشارع) ملحمة جلامش: ٣٨.

هؤلاء الباحثين قبل غيرهم شدة انبهارهم بها! والأشد غرابة من ذلك، أنّ الصراع بين الطرفين بالرغم من احتدامه نراه يبدأ فجأة وينتهي معه كل شيء ما أثار دهشة الباحثين من أمثال د. كريم الذي اكتفى بتبرير الهدوء^(١)!

ليس هذا فقط، بل إنّ النص أعلاه يحكي لنا قول "أنكيديو" بعد هدأة الصراع مباشرة قائلاً لجلجامش بكل احترام:

(إنك الرجل الأوحّد،
أنت الذي حملتك أمك،
ولدتك أمك ننسون
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس،
وقدر إليك الملوكة على البشر).

وإذا كان أنكيديو يعرف هذا ابتداءً فلماذا صارعه إذن؟! إلا أن يكون الصراع الذي حصل بينهما من نوع آخر، وليس صراعاً بدنياً كما فهم أغلب الباحثين المختصين!

يقول السيد أحمد الحسن: (إذن، فمن غير المعقول أن يكون المقصود بتلك المعركة هو صراع بدني بين جلجامش وأنكيديو. نعم، يمكن أن نقول إنه صراع عقائدي أدى بأنكيديو أن يعترف في النهاية بأنّ جلجامش هو ابن ننسون وابن أنليل الذي أوصى أن يكون جلجامش ملكاً. ونطق أنكيديو - بعد الصراع - بهذه الكلمات يُبين بوضوح أنّ أنكيديو يُقدِّس ننسون وأنليل، ولكنه لم يكن يُقرّ أنّ جلجامش من سلالتهم، والآن هو يُقر... انتهى)^(٢).

٥- رفض جلجامش الزواج من عشتار:

حدث مهم آخر في "ملحمة جلجامش" لفت أنظار الباحثين بقوة، هو رفض "جلجامش" الزواج من "أنانا - عشتار"، فبعد عودة "جلجامش" من غابة الأرز وانتصاره

١- يقول كريم: (ولكن - لسبب لم يذكر في الملحمة - زال عن "جلجامش" غضبه وحدّته، فأخذ البطلان يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر) من ألواح سومر: ٣٠٨.

٢- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٨١.

في المعركة التي دارت بينه وبين الشيطان ورمز الشر والجور والفساد (خمبابا - هواوا) ^(١)،
وبعد أن لبس تاجه عرضت عليه "عشتار" الزواج:

(ولما لبس جلعامش تاجه
رفعت "عشتار" الجلييلة عينها ورمقت جمال جلعامش فناداته:
تعال يا جلعامش وكن عريسي،
وهبي ثمرتك أتمتع بها،
كن زوجي وأكون زوجك،
سأعد لك مركبة من حجر اللازورد والذهب،
وعجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز،
وستربط لجرها شياطين الصاعقة بدلاً من البغال الضخمة،
وعندما تدخل بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه،
إذا دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة،
سينحني لك الملوك والحكام والأمراء
ففتح جلعامش فاه وأجاب عشتار الجلييلة وقال:
أي خير سأنا له لو تزوجتك؟
أنتِ!

ما أنتِ إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد،
أنتِ كالباب الناقص لا يصد عاصفة ولا ريحاً،
أنتِ قصر يتحطم في داخله الأبطال،
أنتِ فيل يمزق رحله،
أنتِ قبر يلوث من يحمله وقرية تبلل حاملها،
أنتِ حجر مرمر ينهار جداره،
أنتِ حجر يشب يستقدم العدو ويغريه،
وأنتِ نعل يقرص قدم منتعله،

١- يمكن اعتباره رمزاً للشر والظلم والجور، انظر: وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٨١؛ من ألواح سومر، كريم: ٣٠٩. لكن بعض الباحثين اعتبر رحلة جلعامش لغاية الأرز تهدف - إضافة إلى نيل الشهرة والمجد - إلى البحث عن الحجر والخشب! انظر: أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو: ٤٤ - ٤٥.

أي من عشاقك من بقيت على حبه أبداً؟
 وأي من رعاتك من رضيت عنه دائماً؟
 ولما سمعت عشتار هذا استشاطت غيظاً
 يا أبي إن جلجامش قد عززني وأهانني،
 لقد سبني وعيرني بهناتي وشروري، ... (١).

جواب جلجامش لـ "عشتار" وإهانته لها بهذه الصورة يكشف عن أنه - بحق - يخوض معركة أخرى جديدة لا تقل شراسة عن تلك التي خاضها مع الشيطان "خمبابا"، والسؤال: لماذا رفض طلبها، بل وأهانها بشدة كما هو واضح في النص؟

كثير من علماء السومريات مرّ على الموضوع بصمت، واكتفى ببيان رفض "جلجامش" طلب "عشتار" دون أن يشير إلى سبب الرفض، كما فعل د. كريمر (٢)، فيما عدّه البعض الآخر تمرّداً على الطبيعة التي ترمز لها "عشتار" بعد أن كان الإنسان خاضعاً لها طيلة عشرات ألوف السنين (٣)، لكنه لم يوضح سبب تمرّد جلجامش أيضاً، والمحاولة - بحسب ما أرى - مجرد إبدال "الرفض" بـ "التمرد" لا أكثر. في حين اعتبر ثالث (د. حسين علوان) أن سبب الرفض هو الثقافة السائدة في مجتمع أوروك الذي كان "جلجامش" يتزعمه، فهو - بحسب صاحب هذا الرأي - مجتمع ذو نزعة ذكورية بامتياز تقوم على ثقافة دونيّة المرأة وإلصاق الفرية بها لحرقها اجتماعياً؛ منعاً لعودة المجتمع الأمومي الذي كان يسود سابقاً بحسب رأيه (٤)!

١- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٦٠ - ٦٣.

٢- من ألواح سومر، كريمر: ٣٠٩.

٣- انظر: قراءة في ملحمة جلجامش، فراس السواح: ٢٦٠.

٤- يقول د. حسين علوان: (ولكن دعوة عشتار لجلجامش بالزواج لا تلقى أذاناً صاغية منه، فلماذا؟ ربما لأنها دعوة إلى العودة إلى سيادة المجتمع المشاعي الأمومي المفكك، وهذا ما يرفضه الملك لجلجامش انسجاماً مع مصالح وأسس ثقافة المجتمع الرجولي الذي يترأسه، والقائم على فرية إلصاق كل العورات بالمرأة لـ "حرقها اجتماعياً" بتلوين سمعتها أو تلبيسها لبوس إبليس - مثلما يحصل في الصراع مع خمبابا - لمنعها من التسيّد اقتصادياً من جديد على حساب مجتمع أوروك الذكوري. ولا يمكن تصوّر وجود سبب مقنع آخر لرفض جلجامش الزواج بعشتار، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن عشتار إلهة قوية، وأن لجلجامش ليس إلا ثلث إله، وأن زواجه منها يمكن أن يهبه الخلود

د. علوان واضح أنه تعثر في أولى خطواته عندما وصف "عشتار" بوصف الأنثى الحقيقية وبالتالي حملها تبعات نظرة المجتمع الأوروبي للمرأة (إن كان فعلاً كما ذكر)، مع أنّ صفات "عشتار" في النصوص لا تنطبق على الأنثى الحقيقية نهائياً، وقد فهم ذلك الكثير من الباحثين المختصين فهي بنظرهم ترمز إلى الطبيعة أو الخصب الموجود فيها بالتحديد، كما أنّ فرية إلصاق التهم بالمرأة التي يتحدث عنها إن افترضنا شيوعها في المجتمع الأوروبي عموماً، لكن كيف يمكن توقع انحدار شخصية بحجم "جلجامش" لمثل هذا الخلق المشين الظالم وهو الرجل العادل العالم والحكيم العارف بأسرار كل شيء؟! أقل ما يقال عن هكذا طرح إنه يجعل من نصوص الملحمة متناقضة ومتضاربة فيما بينها! على أنّ النظرة الدونية للمرأة التي يتصورها د. علوان جزافاً نحن نرى عكسها تماماً، ولا أقل بالنسبة لجلجامش، فهي هو يفتخر بأمه "ننسون" المرأة المقدسة بل ويعتز بانسابه لها، كيف وهي إحدى علاماته المعرفة بشخصيته الحقيقية، كما وصفه صديقه أنكيديو بذلك "ولدتك أمك ننسون" أمام الجميع.

ولا أريد هنا مناقشته فيما طرحه بخصوص المجتمع الأمومي "المشاعي" على حد قوله، بافتراض أنه الخطوة الأولى التي خطتها البشرية قبل الانتقال إلى المجتمع الذكوري لاحقاً بعد اكتشاف الزراعة، فهي مجرد فرضية قائمة على حجج واهية ولا تستند إلى أساس علمي رصين.

وبالنسبة لنا، فإنّ سبب رفض "جلجامش" عرض الزواج الذي تقدمت به "عشتار" واضح جداً، فقد عرفنا في الملحق السابق تحديد هوية "أنا - عشتار" وما ترمز إليه في النصوص السومرية، وعرفنا أنّ صفاتها تنطبق تماماً على "الدنيا" التي رفض دموزي "الابن الصالح" السجود لها فعاقبته وأسلمته للذبح في مأساة فظيعة، وما هو "جلجامش" السائر على نفس النهج الإلهي يرفض السجود والانقياد لها ولزخرفها

الذي ينشد. ولكن الملحمة لا تتحدث بالقلم العريض هنا، وتكتفي بالترميز الملحمي، وإن كانت تنوّه تلفيقاً إلى خشية گلجامش من خيانة عشتار له (مثلما فعلت مع أزواجها السابقين) وتدنيها لجسده (كناية القبر الملوّث للبدن) وذلك ضمن ثقافة "دونية المرأة" التي تمارس حرية الاتصال الجنسي بالنسبة للرجل وارتباطها بالشر) الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة.

وشهواتها الخادعة، فرجل عالم وحكيم وعارف بالأسرار مثله هيهات أن يُخدع وينقاد لدار هويتها الزوال والفناء والغدر والخيانة!

٦- موت أنكيديو أو تعثره في مسيرة رفيقه:

لأن أغلب الباحثين يعتبرها نصاً أدبياً، فقد مثّل لهم موت "أنكيديو" ودفنه وحزن "جلجامش" عليه في نص الملحمة البابلية نهاية دراماتيكية تبلغ بالقصة مرحلة الذروة في إضفاء المأساة والحزن عليها. لكن كبير الباحثين في النصوص السومرية يرى أنّ مشهد موت "أنكيديو" لم يكن أصله سومرياً وإنما هو إضافة حصلت من قبل البابليين لاحقاً، والموجود في النصوص السومرية أنّ "أنكيديو" تم احتجازه في العالم الأسفل نتيجة ارتكابه المعاصي ومخالفته أمر سيده "جلجامش" ^(١).

وهذا مقطع من القصيدة المشار لها:

(هبط أنكيديو إلى العالم السفلي،

إلا أنه لم يلتزم بكلمات سيده -

ولبس ثياباً نظيفة،

فهجم أصحاب السلطة عليه كأنهم أعداء،

ومسح جسمه بزيت الكأس العذب،

فتجمعوا من حوله من جراء رائحته،

ورمى عصا الرماية في العالم السفلي،

فأحرق به أولئك الذين أصيبوا بها،

وحمل عصا بيده،

فاضطربت أشباح الموتى من حوله

١- يقول د. كريم: (وأخيراً فإن قصة موت "أنكيديو" ودفنه هي على أرجح الاحتمالات من أصل بابلي غير سومري. فموجب القصيدة المعنونة "جلجامش وأنكيديو والعالم الأسفل" لم يمت "أنكيديو" موتاً بالمعنى المألوف للموت وإنما احتجزه في العالم الأسفل "كور"، وهو ذلك الشيطان الموكل بالعالم الأسفل والشبيه بالتنين، لأنه ارتكب المحرمات الخاصة بالعالم الأسفل، وهو عارف بها) من ألواح سومر: ٣٢٣.

وليس نعلًا في قدميه،
وأحدث صوتاً في العالم السفلي،
وقبل الزوجة التي أحبها،
وصفع الزوجة التي كرهها،
وقبل الابن الذي أحبه،
وصفع الابن الذي كرهه،
فأمسكت به صيحة العالم السفلي بقوة - ...
إنه لم يسقط في المعركة "مكان الرجولة"،
إن العالم السفلي هو الذي يمسك به بقوة^(١).

لم يسقط "أنكيدو" ميتاً في معركة رجولية كتلك التي سقط فيها "دموزي"، إنما سقوطه وموته بمعنى احتجازه في العالم الأسفل "عالم الظلمة"؛ لأنه خالف وصايا سيده "جلجامش" وارتكب المحرمات والمعاصي، فالموت هنا هو موت الروح والقلب:

يقول السيد أحمد الحسن: (وبما أنَّ الخلود والموت المذكور في القصة يراد منه خلود وموت الروح، فيكون موت أنكيدو كذلك، فلم يتمكن أنكيدو من إتمام رحلة الخلود دون أن يسقط أو يتعثر في الطريق ويرتكب المحرمات ويخالف وصايا جلجامش له، فتكون النتيجة أنه سقط في برائن العالم الأسفل ويحاول جلجامش إنقاذه من برائن العالم الأسفل وإقامته من عثرته ... انتهى)^(٢).

١- السومريون، كريم: ٢٨٨ - ٢٨٩.

٢- وهم الإلحاد، أحمد الحسن: ٣٨٥ - ٣٨٦.

٧- رحلة جلجامش لطلب الخلود:

سفر "جلجامش" إلى جده "زيوسودرا - أوتونبشتم - نوح" لطلب الخلود يُعدّ أهم أحداث الملحمة، لكن أغلب الباحثين يرون أنه خلود مادي مقترن بالشهرة ودوام الذكر وما شابه (١)!

لكن هذا الموضوع – أعني كون الناس يموتون وأنهم غير خالدين في هذه الدنيا – أمر يعرفه جميع الناس فما بالك بالحكيم العارفين بكل شيء والعالم بخفايا الأسرار، كما ورد وصفه في الملحمة! ثم أوليس "جلجامش" نفسه من وصف لصديقه "أنكيدو" حال أهل الدنيا وأن أيامهم معدودات، فما معنى أن يتحمّل التعب والمشاق في رحلة يطلب فيها خلوداً جسمانياً يعرف مسبقاً بعدم تيسره مطلقاً، وهل هذا إلا عبث، حاشا الحكيم الإلهي أن يفعله!

(وفتح جلجامش فاه وقال لانكيدو:

يا صديقي، من الذي يستطيع أن يرقى أسباب السماء؟

والآلهة (الصالحين) وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع شمش،

أما أبناء البشر فأيامهم معدودات،

وكل ما عملوا هواء عبث) (٢).

١- يقول د. كريم: (... لأن ما كان ينشده "جلجامش" ويتشوق إليه في حياته إنما هي الشهرة الدائمة والاسم الخالد وليس مجرد الوجود والحياة الطويلة الخالية من البطولة. ... إن الخلود المادي المحسوس هو الذي كان يعذب روحه التي حفزته رغبته الملحة فيه إلى تحقيقه، فعليه أن يبحث ويجد سر الحياة الخالدة) من ألواح سومر: ٣٠٨ - ٣٠٩.

ويقول د. نائل حنون: (ويعد كل ما قام به جلجامش وما كابده في رحلته عن الخلود عاد ليوواجه الحقيقة التي ما كان يريد أن يواجهها، وهي أن البشر غير خالدين وأن الموت قدر لا مفر منه) ملحمة جلجامش: ٢٥٣.

٢- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٥٣.

ربما لأجل ذلك، عمد بعض الباحثين – رغم اعترافه بأنّ سفر "جلجامش" إلى نوح كان رحلة سيكولوجية لا واقعية – إلى حرف الخلود إلى معنى آخر غير معناه المتعارف، فالخلود بنظره = أن يكون للحياة معنى^(١)!

لكن إذا كان كل همّ "جلجامش" من رحلته المضنية أن يكون لحياته معنى فلماذا سفره إلى "أوتونبشتم - نوح" بالذات دون غيره، مع علمه بأنه ميت منذ زمن بعيد، وعلمه بنفس الوقت أنّ موته الجسدي لم يمنعه من الاتصاف بصفة الخلود الذي تتصف به الآلهة؟!!

إنّ ما قدّمه أغلب الباحثين من فهم لمعنى الخلود الذي كان ينشده "جلجامش" لا يتناسب وشخصية عظيمة بحجمه كما هو واضح، لذا ترك بعض الباحثين الباب مفتوحاً للزمن الذي ربما وجود بشعبيّ يُحسن بحث وتدقيق مسألة "الخلود" الذي أتعّب "جلجامش" نفسه لنيله^(٢)!

بحسب نص الملحمة، واضح جداً أنّ "جلجامش" ينشد خلوداً وحياة أبدية كذلك التي تتحلّى بها الآلهة ومُنحت لبعض البشر كنوح عليه السلام نتيجة سببٍ ما مكّنه من الحصول على المفتاح والسر الذي استطاع بواسطته من أن ينقش اسمه في سجل تلك الحياة الخالدة، وما كان سفر "جلجامش" المتعب إلا لأجل أن يسأله عن كيفية الحصول على ذلك المفتاح، أن يحصل على سرّ الخلاص من ثلثه البشري الذي أرهقه ليملاً النور صفحة وجوده وينقش اسمه في سجل الخلود والحياة الأبدية!

١- يقول فراس السواح: (فجلجامش لم يكن باحثاً عن الخلود حقيقة، كما تؤكد معظم التفسيرات التي وضعت حتى الآن، بل كان باحثاً عن المعنى في الحياة، وعودته إلى أوروك في النهاية لم تكن هزيمة للإنسان أمام هدف محكوم سلفاً بالهزيمة، بل انتصاراً لحياة وجدت المعنى فيها والغاية) قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٧١.

٢- يقول شارل فيروللو: (إننا واثقون بأنّ شعوباً أخرى ستأخذ في يوم ما هذه المسألة - مسألة الخلود - وتوسعها بحثاً وتدقيقاً وربما أعطت جواباً يختلف تماماً عن جواب الجنية "سابيتو" لجلجامش ملك "أوروك") أساطير بابل وكنعان: ٥٦. وسابيتو: هي صاحبة الحانة في الملحمة التي دعت جلجامش إلى ترك سفره المضني والاهتمام بنفسه. وصاحبة الحانة: "كأنها رمز لسكر الناس بحب الدنيا والأنا" انظر: وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٩٠.

يقول السيد أحمد الحسن: (... ربما أهم أسفار جلجامش في الملحمة هو سفره ليلتقي بجده نوح - أوتو نبشتم الخالد مع الآلهة ويسأله عن السرّ الذي يمكنه أن يتخلّص من ثلثه الإنساني ليخلد مع الآلهة كجده نوح عليه السلام، أو بعبارة أخرى: ليكتب اسمه في سجلّ الحياة الأبدية بجدارة ويكون من الخالدين روحياً، فالمسألة متعلقة بروحه، فثلاثه إله وأراد أن يجعل ثلثه الباقي كذلك، ولا علاقة للأمر بالخلود الجسماني كما توهم شراح الملحمة) انتهى^(١).

(لقد وجه السيد فكره نحو "أرض الأحياء"،
السيد "جلجامش" وجه فكره نحو "أرض الأحياء"،
فقال لخادمه "أنكيدو":
يا "أنكيدو"، إن الأجرة والختم لم يجلبا بعد النهاية المقدرة،
أريد أن أدخل "الأرض" وأريد أن أخلد اسمي،
في مواضعها التي أقيمت فيها الأسماء، أريد أن أقيم اسمي،
وفي مواضعها التي لم تقم فيها الأسماء، أريد أن أقيم أسماء الآلهة)^(٢).

جلجامش يريد أن يسجل اسمه في سجلّ الحياة الأبدية؛ سجلّ الخالدين، والخلود - كما قال هو - غير متيسر لغير الآلهة ومن اصطفتهم من البشر، فهي إذن رحلة لطلب الخلود الروحي لا الجسماني، وهي رحلة إلى عالم آخر غير عالم الأجسام هذا؛ الذي لا تعدو حقيقته الفناء والزوال!

يقول السيد أحمد الحسن: (وتبدأ رحلة جلجامش إلى جده نوح "أوتو- نبشتم" والتي يطلب فيها الخلود، خلود الروح وليس خلود الجسم، فجلجامش منذ البداية يعرف أن لا خلود للجسم، ... وجدّه نوح ميت منذ زمن بعيد، وهو يعلم هذا جيداً. إذن، هي رحلة إلى العالم الآخر).

١- أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٣ - ٣٧٤.

٢- السومريون، كريم: ٢٦٧.

وفي هذه الرحلة يسحق جليجامش نفسه، فيحقق الخلود الذي سافر في طلبه. يحقق مراده في نفس الرحلة وحتى قبل أن يصل إلى جده نوح "أوتو- نبشتم":

"سأطلق شعري وسألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في البراري".

ويدخل جليجامش عالم الحقيقة ويرى الأمور على ما هي في رحلته إلى جده أوتو- نبشتم نوح عليه السلام:

"لقد بلغ جبل "ماشو"

الذي يحرس كل يوم مشرق الشمس ومغربها،

والذي يبلغ علوه سمك السماء

وفي الأسفل ينحدر صدره إلى العالم الأسفل،

ويحرس بابه "البشر العقارب"

الذين يبعثون الرعب والهلع ونظراتهم الموت

ويطغى جلالهم المرعب على الجبال،

الذين يحرسون الشمس في شروقها وغروبها،

ولما أبصرهم جليجامش اصفر وجهه خوفاً ورعباً،

ولكنه تشجع و اقترب أمامهم

فنادى "الرجل العقرب" زوجته وقال لها:

إنّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة،

فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:

أجل إنّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر،

ثم نادى "الرجل العقرب" جليجامش

وخاطب نسل الآلهة بهذه الكلمات:

مالذي حملك على هذا السفر البعيد؟

وعلام قطعت الطريق وجئت إليّ عابراً البحار الصعبة العبور،

فأبني لي القصد من المجيء إلي

فأجابه جليجامش قائلاً:

أتيت قاصداً أبي (أوتو- نبشتم) (نوح)

الذي دخل في مجمع الآلهة
 جئت لأسأله عن لغز الحياة والموت
 ففتح الرجل العقرب فاه وقال مخاطباً جليجامش:
 لم يستطع أحد من قبل أن يفعل ذلك يا جليجامش
 لم يعبر أحد من البشر مسالك الجبال
 حيث يعم الظلام الحالك في داخلها مسافة اثنتي عشرة ساعة مضاعفة ولا يوجد نور
 جزء مخروم من الملحمة
 فأجاب جليجامش: عزمت على أن أذهب ولو بالحنز والألام
 وفي القرو والحروفي الحسرات والبكاء
 فأفتح لي الآن باب الجبال،
 ففتح الرجل العقرب فاه وأجاب جليجامش:
 مريا جليجامش ولا تخف،
 فقد أذنت لك أن تعبر جبال "ماشو"،
 وعساك أن تقطع الجبال وسلاسلها،
 وعسى أن تعود بك قدماك سالماً،
 وها هو باب الجبل مفتوح أمامك" (١) انتهى (٢).

جليجامش حارب "الأنا" ببسالة عالية جداً، وكان مستعداً أن يهيم على وجهه في
 البراري دون تحقيق هدفه المتمثل بـ "الخلاص والخلود" الذي ينشده في درس بليغ يضعه
 بين يدي الإنسانية جمعاء إذا ما أرادت الكمال والرقى والحياة الأبدية. لم يثن عزمته قول
 صاحبة "الحانة" (تمثل سكر الناس بحب الدنيا والأنا) التي صادفها في سفره ودعوتها إياه
 إلى الراحة والدعة والاهتمام بنفسه وترك سفره المضني والشاق:

(فأجابت صاحبة الحانة جليجامش قائلة له:
 إن الحياة التي تبغي لن تجد

١- ملحمة جليجامش، طه باقر: ٧٥ - ٧٦.

٢- وهم الإلهاد، أحمد الحسن: ٣٨٧ - ٣٩٠.

إذ لما خلقت الالهة البشر قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة *

أما أنت يا جلجامش فاجعل كرشك مملوءاً *

وكن فرحاً مبهجاً ليل نهار *

و أقم الأفراح في كل يوم من أيامك

وارقص والعب ليل نهار *

واجعل ثيابك نظيفة زاهية *

واغسل رأسك واستحم في الماء *

ودلل الطفل الذي يمسك بيدك *

و افرح الزوجة التي بين أحضانك *

وهذا هو نصيب البشر،

ولكن جلجامش أردف مخاطباً صاحبة الحانة:

يا صاحبة الحانة أين الطريق إلى اوتو- نبشتم

دليني كيف أتجه إليه؟

فإذا أمكنني الوصول إليه فأني حتى البحار سأعبرها،

وإذا تعذر الوصول إليه فسأهيم على وجهي في البراري (١).

والآن، من يريد أن يعرف سرّ الحياة والخلود ويكتب اسمه في سجل الحياة الأبدية فليقتدي بجلجامش "المنقذ والمخلص" ويتبع خطواته ويقترب من صفاته وإخلاصه وهمته وهيامه الذي انطوت عليه نفسه في سفره. إنه سفر شاق ومتعب بطبيعة الحال، يفترض أن يتسلح الإنسان فيه بالعلم والحكمة والإخلاص والصبر والإيثار والعمل والتفاني للمبدأ والهدف الحق، ويتجاوز فيه "الأنا" المقيتة والرغبات الحيوانية التي تدعوه لها جيناته، ويقف من الدنيا وزخرفها والشيطان والظلم والشر والفساد موقف المحارب الذي في المقدمة. وبكلمة مختصرة: عليه أن يتخلق بأخلاق الله ليملاً النور صفحة وجوده، حينها يكون قد حظي بخارطة طريق الإنقاذ والخلاص من براثن العالم الأسفل وظلمته وهلاكه الأبدي ونال مفتاح الخلود والحياة الأبدية في العالم الآخر، ويكون بهذا

١- ملحمة جلجامش، طه باقر: ٧٩ - ٨٢.

قد تعلّم الدرس الذي جادت به سومر وابنها جلجامش للناس جميعاً منذ فجر الإنسانية المتحضرة.

وطالما انتهينا إلى أنّ "جلجامش" شخصية دينية مستقبلية تحكي قصة المخلص والمنقذ الإلهي، إذن فهي تحكي شخصية مهدي آل محمد الرجل الإلهي الموعود به منذ آدم عليه السلام مروراً بجميع رسل الله وصولاً إلى الرسول محمد صلى الله عليه وآله ثم آل محمد الأوصياء الذين وعدوا بأنّ الدنيا لو لم يبقَ فيها إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله المهدي ليملا الأرض قسطاً وعدلاً ونوراً وعلماً بعدما ملئت ظلاماً وجوراً وفساداً وظلاماً، وقد أشارت نصوصهم أيضاً إلى أنه يبعث في الشرق "بلاد سومر" ويكون الشرق "بلاد ما بين النهرين" عاصمة دولته الإلهية العادلة.

المصادر

أولاً: الكتب المقدسة:

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الكتاب المقدس - العهد القديم
- ٣- الكتاب المقدس - العهد الجديد
- ٤- الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية

ثانياً: كتب السيد أحمد الحسن:

- ٥- إضاءات من دعوات المرسلين، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد.
- ٦- بريد الصفحة، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد. ط١.
- ٧- كتاب التوحيد، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد. ط١.
- ٨- الجواب المنير عبر الأثير، أجوبة السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد.
- ٩- عقائد الإسلام، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد. ط١، ٢٠١٦.
- ١٠- المنشآت، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد.
- ١١- مراسي مختارة في موانئ سومروأكاد، أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد.
- ١٢- مع العبد الصالح، السيد أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد.
- ١٣- وهم الإلحاد، أحمد الحسن، شركة نجمة الصباح - بغداد. ط٢، ٢٠١٧ م.

ثالثاً: تفسير القرآن وعلومه:

- ١٤- الاحتجاج، أحمد بن علي "الطبرسي"، تعليق: السيد محمد باقر الخراسان، دار النعمان للطباعة والنشر- النجف الأشرف، ١٩٦٦ م.
- ١٥- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي.
- ١٦- البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، قم.
- ١٧- التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن "الطوسي"، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

- ١٨- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف بن علي "أبو حيان الأندلسي"، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد المحمود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠١ م.
- ١٩- تفسير العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران.
- ٢٠- تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم، تحقيق: محمد كاظم، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - طهران، ط ١، ١٩٩٠ م.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تقديم: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٩٩٢ م.
- ٢٢- تفسير القمي، علي بن إبراهيم، تعليق: السيد طيب الموسوي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر - قم، ط ٣، ١٤٠٤ هـ.
- ٢٣- جامع البيان عن أي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تخريج صدق جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥ م.
- ٢٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- ٢٥- سعد السعود، علي بن موسى "ابن طاووس"، منشورات الرضي - قم، ١٣٦٣.
- ٢٦- مجمع البيان، الفضل بن الحسن "الطبرسي"، تعليق: لجنة من العلماء والمحققين، تقديم: السيد محسن الأمين، منشورات مؤسسة الأعلي للمطبوعات - بيروت، ١٩٩٥ م.
- ٢٧- مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"، محمد بن عمر "الفخر الرازي"، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٢٠ هـ.
- ٢٨- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

رابعاً: كتب الحديث وشروحه:

- ٢٩- إقبال الأعمال، رضي الدين علي بن موسى "ابن طاووس"، تحقيق: جواد القيومي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٣٠- الأمالي، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: السيد هاشم الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- ٣١- الأمالي، محمد بن الحسن "الطوسي"، تحقيق: مؤسسة البعثة - قم، ط ١، ١٤١٧ هـ.

- ٣٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- ٣٣- بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، تعليق: ميرزا محسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي طهران، ١٤٠٤ هـ.
- ٣٤- تهذيب الأحكام، محمد بن الحسن "الطوسي"، تعليق: السيد حسن الموسوي الخراسان، دار الكتب الإسلامية - طهران.
- ٣٥- التوحيد، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: السيد هاشم الحسيني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.
- ٣٦- الجواهر السنية، محمد بن الحسن بن علي "الحر العاملي"، منشورات مكتبة المفيد، قم - إيران.
- ٣٧- الخصال، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٣ هـ.
- ٣٨- الدروع الواقية، علي بن موسى ابن طاووس، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، ط ١، ١٤١٤ هـ.
- ٣٩- دعائم الإسلام، النعمان بن محمد القاضي المغربي، تحقيق: آصف فيضي، دار المعارف - مصر، ١٩٦٣.
- ٤٠- روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري، تقديم: محمد مهدي حسن الخراسان، منشورات الرضي - قم.
- ٤١- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ٤٢- سنن الترمذي، محمد بن عيسى "الترمذي"، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.
- ٤٣- شرح أصول الكافي، محمد صالح المازندراني، تحقيق: الميرزا أبو الحسن الشعراني، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- ٤٤- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين "البيهقي"، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
- ٤٥- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل "البخاري"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١ م.
- ٤٦- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار الفكر - بيروت.
- ٤٧- الصحيفة السجادية، أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام، دفتر نشر الهادي - قم، ط ١، ١٤١٨ هـ.

- ٤٨- علل الشرائع، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف الأشرف، ١٩٦٦ م.
- ٤٩- العوالم (الإمام الحسين)، عبد الله البحراني، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام - قم، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- ٥٠- عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، محمد بن علي بن إبراهيم "ابن أبي جمهور الأحسائي"، تحقيق: مجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء - قم، ط ١، ١٩٨٣.
- ٥١- عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: الشيخ حسين الأعلي، منشورات مؤسسة الأعلي - بيروت، ط ١، ١٩٨٤ م.
- ٥٢- الغيبة، محمد بن الحسن "الطوسي"، تحقيق: عباد الله الطهراني، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، ط ١، ١٤١١ هـ.
- ٥٣- الغيبة، محمد بن إبراهيم "النعمان"، تحقيق: فارس حسون، منشورات أنوار الهدى - قم، ط ١، ١٤٢٢ هـ.
- ٥٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، شهاب الدين ابن حجر العسقلاني، دارالمعرفة للطباعة والنشر - بيروت، ط ٢.
- ٥٥- فرحة الغري، عبد الكريم ابن طاووس، تحقيق: السيد تحسين الموسوي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ٥٦- قرب الإسناد، عبد الله بن جعفر الحميري، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لأحياء التراث - قم، ط ١، ١٤١٣ هـ.
- ٥٧- الكافي، محمد بن يعقوب "الكليني"، تعليق: علي أكبر الغفاري، دارالكتب الإسلامية - طهران، ط ٣.
- ٥٨- كامل الزيارات، جعفر بن محمد بن قولويه القمي، تحقيق: جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- ٥٩- كمال الدين وتمام النعمة، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٥ هـ.
- ٦٠- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي المنتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٩ م.
- ٦١- مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثي، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٨ م.
- ٦٢- المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد "البرقي"، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دارالكتب الإسلامية - طهران، ط ١، ١٣٧٠ هـ.

- ٦٣- المحتضر، حسن بن سليمان الحلي، تحقيق: سيد علي أشرف، انتشارات المكتبة الحيدرية، ط ١، ١٤٢٤ هـ.
- ٦٤- مختصر بصائر الدرجات، حسن بن سليمان الحلي، منشورات المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ط ١، ١٩٥٠ م.
- ٦٥- المزار، محمد بن جعفر المشهدي، تحقيق: جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ط ١، ١٤١٩ هـ.
- ٦٦- مستدرك الوسائل، حسين النوري الطبرسي، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧ م.
- ٦٧- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله النيسابوري، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشي.
- ٦٨- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار صادر - بيروت.
- ٦٩- المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شعبة الكوفي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م.
- ٧٠- معاني الأخبار، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٣٧٩ هـ.
- ٧١- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف، ١٩٥٦ م.
- ٧٢- من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن بابويه "الصدوق"، تعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.
- ٧٣- نهج البلاغة، تحقيق: صبيح الصالح.
- ٧٤- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، ط ٢، ١٤١٤ هـ.

خامساً: كتب العقيدة:

- ٧٥- الاقتصاد، محمد بن الحسن "الطوسي"، منشورات جامع جهل ستون - طهران، مطبعة الخيام - قم، ١٤٠٠ هـ.
- ٧٦- خلاصة علم الكلام، عبد الهادي الفضلي، دار المؤرخ العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٧٧- النكت الاعتقادية، محمد بن محمد بن النعمان "المفيد"، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط٢، ١٩٩٣ م.

سادساً: كتب التاريخ والسيرة:

٧٨- أخبار الزمان، المسعودي، تحقيق: لجنة من الأساتذة، دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت، ط٢، ١٩٦٦ م.

٧٩- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق، تحقيق: رشدي الصالح، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط٣، ١٩٨٣ م.

٨٠- أسد الغابة في معرفة الصحابة، علي بن أبي المكارم "ابن الأثير"، دار الكتاب العربي - بيروت.

٨١- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، تقديم: محمد بحر العلوم، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف، ١٩٦٨ م.

٨٢- البداية والنهاية، إسماعيل ابن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ١٩٨٨ م.

٨٣- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٨٤- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية - ديار بكر، تركيا.

٨٥- تاريخ الكوفة، حسين بن أحمد النراقي، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية، انتشارات المكتبة الحيدرية، ط١، ١٣٩٩ هـ.

٨٦- تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن "ابن عساكر"، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٥ هـ.

٨٧- الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، مطابع بهمن.

٨٨- قصص الأنبياء، سعيد بن هبة الله "الراوندي"، تحقيق: الميرزا غلام رضا اليزدي، مؤسسة الهادي، ط١، ١٤١٨ هـ.

٨٩- قصص الأنبياء، إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة - مصر، ط١، ١٩٦٨ م.

٩٠- الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم "ابن الأثير"، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٦٥ م.

- ٩١- المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفدا)، إسماعيل أبي الفدا، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
- ٩٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، منشورات دار الهجرة - قم، ط ٢، ١٩٨٤.
- ٩٣- المعارف، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: د. ثروت عكاشة، دار المعارف - مصر، ط ٢، ١٩٦٩ م.
- ٩٤- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.
- ٩٥- نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة، محمد بن جرير بن رستم الطبري، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام - قم، ط ١، ١٤١٠ هـ.

سابعاً: كتب الآثار والسومريات:

- ٩٦- آثار بلاد الرافدين، سيتون لويد، ترجمة: محمد طلب، دار دمشق، ط ١، ١٩٩٣ م.
- ٩٧- الأساطير السومرية، صموئيل نوح كريم، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف - بغداد، ١٩٧١ م.
- ٩٨- الأساطير السومرية، د. الحسيني الحسيني معدي، كنوز للنشر والتوزيع - القاهرة، ط ١، ٢٠١٢ م.
- ٩٩- أساطير بابل وكنعان، شارل فيروللو، تعريب: ماجد خيريك، ١٩٩٠ م.
- ١٠٠- أنا ملكة السماء والأرض، صموئيل نوح كريم - دايان ولكشتاين، ترجمة: شاكرا الحاج مخلف، خطوات للنشر والتوزيع - دمشق، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- ١٠١- أنبياء سومريون، خزعل الماجدي، المركز الثقافي للكتاب - المغرب، ط ١، ٢٠١٨ م.
- ١٠٢- بلاد ما بين النهرين، ديلا بورت، ترجمة: محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.
- ١٠٣- الحضارات القديمة، ف. دياكوف وس. كوفاليف، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، منشورات دار علاء الدين - دمشق، ط ١.
- ١٠٤- حضارة ما بين النهرين العريقة، ك. ماتيف وأ. سارونوف، ترجمة: د. حنا آدم، مطبعة دار المجد - دمشق، ١٩٩١.
- ١٠٥- ديوان الأساطير، أدونيس، تعريب وتعليق: قاسم الشواف، دار الساق - بيروت، ط ١، ١٩٩٦.

- ١٠٦- السومريون؛ تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، صموئيل نوح كريم، ترجمة: د. فيصل الوائلي، مكتبة الحضارات - بيروت، ط ١.
- ١٠٧- سومر أسطورة وملحمة، فاضل عبد الواحد علي، دار الشؤون الثقافية - العراق، ط ٢، ٢٠٠٠ م.
- ١٠٨- الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة، د. حسين علوان حسين.
- ١٠٩- طقوس الزواج المقدس عند السومريين صموئيل نوح كريم، ترجمة: نهاد خياطة، مؤسسة رسلان، ٢٠١٧.
- ١١٠- عشتارومأساة تموز، فاضل عبد الواحد علي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، ط ١، ١٩٩٩.
- ١١١- قراءة في ملحمة جلجامش، فراس السواح، سومر للدراسات والنشر والتوزيع - قبرص، ط ١، ١٩٨٧.
- ١١٢- مختصر تاريخ العراق - العصر السومري، علي شحيلات وعبد العزيز الحمداني.
- ١١٣- مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، دار الكلمة، ط ١١.
- ١١٤- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. د. طه باقر، شركة دارالوراق للنشر المحدودة، ط ٢، ٢٠١٢.
- ١١٥- ملحمة جلجامش، د. طه باقر، كتاب الكتروني، متاح على الإنترنت.
- ١١٦- ملحمة جلجامش، د. نائل حنون، دار الخريف للنشر والتوزيع - دمشق، ط ١، ٢٠٠٦.
- ١١٧- من ألواح سومر، صموئيل نوح كريم، ترجمة: طه باقر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- ١١٨- من سومر إلى التوراة، فاضل عبد الواحد علي، سينا للنشر، ط ٢، ١٩٩٦.
- ١١٩- هنا ابتداء التاريخ، صموئيل نوح كريم، ترجمة: ناجية المراني، منشورات دار الجاحظ للنشر - بغداد، ١٩٨٠.

ثامناً: كتب علمية:

- ١٢٠- البدايات ١٤ مليار عام من تطور الكون، نيل ديجراس تايسون ودونالد جولدميث، ترجمة: محمد فتحي خضر، نشر مؤسسة هنداي، ٢٠١٣ م.
- ١٢١- تاريخ موجز للزمان، د. ستيفن هوكنج، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، سلسلة جدران المعرفة، مصر، ٢٠٠٦ م.
- ١٢٢- التصميم العظيم، د. ستيفن هوكنج، ترجمة: أيمن أحمد عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م.

- ١٢٣- الجينة الأنانية، د. ريتشارد دوكنز، ترجمة: تانيا ناجيا، دار الساقى، بيروت.
- ١٢٤- العقل والحاسوب وقوانين الفيزياء، روجر بنروز، ترجمة: محمد وائل الأتاسي ود. بسام المعصراني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ م.
- ١٢٥- الكون الأنيق، برايان غرين، ترجمة: د. فتح الله الشيخ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- ١٢٦- الكون في قشرة جوز، د. ستيفن هوكنج، ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٣ م.
- ١٢٧- اللون الحي، بحث د. نينا جابلونسكي، بيركلي، لوس أنجلوس، لندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠١٢ م.
- ١٢٨- مبدأ الرية، ديفيد ليندلي، ترجمة: نجيب الحصادي، دار العين للنشر، أبو ظبي، ٢٠٠٩ م.

تاسعاً: كتب لغة:

- ١٢٩- الألفاظ والحروف، الفارابي، تحقيق: د. محسن مهدي، دار المشرق - بيروت، ١٩٧٠.
- ١٣٠- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب وكلامها، أحمد بن فارس بن زكريا، تعليق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ١٣١- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: د. يونيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية - بغداد، ١٩٨٥ م.
- ١٣٢- العوامل التي أسست لظهور اللغة الإنسانية، د. عباس الحسيني، إصدارات معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية، ٢٠١٩ م.
- ١٣٣- الغريزة اللغوية، ستيفن بنكر، تعريب: حمزة بن قبلان المزيبي، دار المريخ للنشر - الرياض، ٢٠٠٠ م.
- ١٣٤- اللغة والمجتمع، د. علي عبد الواحد وافي، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٩٨٣ م.
- ١٣٥- المزهرفي علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، شرح محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٨٦ م.
- ١٣٦- مشكلات حياتنا اللغوية، أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ م.

- ١٣٧- المعرفة اللغوية طبيعتها أصولها واستخدامها، د. نعيم تشومسكي، ترجمة: محمد فتوح، دار الفكر العربي - القاهرة، ط ١، ١٩٩٣ م.
- ١٣٨- نظريات في اللغة، أنيس فريجة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط ٢، ١٩٨١ م.
- ١٣٩- نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، ترجمة: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية، ١٩٨٥ م.

عاشراً: كتب عامة:

- ١٤٠- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن حزم الأندلسي الظاهري، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة العاصمة - القاهرة.
- ١٤١- اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، محمد بن الحسن "الطوسي"، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - قم، ١٤٠٤ هـ.
- ١٤٢- الأديان الوضعية، مناهج جامعة المدينة العالمية، ٢٠١٠ م.
- ١٤٣- أصل الأخلاق الإنسانية، د. توفيق مسرور، إصدارات معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية، ٢٠١٧ م.
- ١٤٤- أستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، د. خليل عبد الرحمن، روافد للثقافة والفنون - دمشق، ط ٢، ٢٠٠٨ م.
- ١٤٥- البلدان، أحمد بن محمد الهمداني، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ١٤٦- البوذية مقدمة قصيرة جداً، داميان كيون، ترجمة: صفية مختار، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٦ م.
- ١٤٧- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، طبع على مطابع هيدلبرغ - بيروت، ط ٢، ١٩٨٤ م.
- ١٤٨- شرح الكتاب المقدس - العهد القديم، أنطونيوس فكري، منشور على موقع: الأنبا تكلا هيمانوت، تراث الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.
- ١٤٩- الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، ط ٤، ١٩٧٩ م.
- ١٥٠- فن الحرب، سون اتزو، إعداد أحمد ناصيف، تدقيق: طه عبد الرؤوف، دار الكتاب العربي - حلب، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م.

- ١٥١- ماني والمانوية، جيوايد نغرين، تعريب: د. سهيل زكار، دارحسان للطباعة والنشر، ١٩٨٥ م.
- ١٥٢- مجموع فتاوى ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جمعه وطبعه: محمد بن سعيد الشويعر، متاح على جامع الكتب الإسلامية.
- ١٥٣- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٧٩ م.
- ١٥٤- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- ١٥٥- الهندوسية في الميزان، جواد تقي الزعابي، إصدارات أنصار الإمام المهدي عليه السلام، العدد ٢١٩.

حادي عشر: مجلات ومتاحف علمية ومواقع إلكترونية:

- ١٥٦- مجلة Nature
- ١٥٧- Natural History Museum
- ١٥٨- Skeptical Briefs مجلة
- ١٥٩- Scientific American مجلة
- ١٦٠- Science Advances مجلة
- ١٦١- بناس pnas
- ١٦٢- <https://www.nature.com>
- ١٦٣- <https://www.esa.int>
- ١٦٤- <http://www.sciencenews.org>
- ١٦٥- <https://pubs.usgs.gov>
- ١٦٦- <http://bahisoon.com>
- ١٦٧- <https://nasainarabic.net>
- ١٦٨- <https://phys.org>
- ١٦٩- <https://www.edge.org>
- ١٧٠- <https://ibelieveinsci.com>
- ١٧١- <https://www.aqaed.com>
- ١٧٢- <https://arabi21.com>
- ١٧٣- <https://www.arageek.com>

<https://www.space.mit.edu> -١٧٤

<https://www.jw.org> -١٧٥

<https://humanorigins.si.edu> -١٧٦

<https://www.bbc.com> -١٧٧

<https://www.britannica.com> -١٧٨

<http://www.youtube.com/watch?v=١QEzv٥OE٥nA> -١٧٩

<https://www.nhm.ac.uk> -١٨٠

<https://www.pnas.org> -١٨١

<https://education.nationalgeographic.org> -١٨٢

<https://doi.org> -١٨٣

<https://journals.plos.org> -١٨٤

<https://www.sci.news> -١٨٥

<https://whc.unesco.org> -١٨٦

<https://st-takla.org> -١٨٧

<https://www.worldhistory.org> -١٨٨

<https://pmc.ncbi.nlm.nih.gov> -١٨٩

الفهرست

تقديم:	٥
(١) أدلة إثبات المرسل وهدف الكون والحياة الأرضية	١٧
أولاً - الإنسان هدف الكون:	١٨
١ - الكون حادث وبحاجة إلى محدث:	١٨
المحدث القديم ضرورة:	١٨
بداية الكون وتشكله:	٢٠
دلالة قرآنية وروائية على نشوء الكون وتعدد الأكوان:	٣١
ما بعد الانفجار العظيم وصولاً إلى تشكّل كوكب الأرض:	٣٣
أطروحة البداية اللاحدية للكون والمبدأ الإنساني:	٣٥
٢ - دقة التقنين في الكون تكشف عن وجود مقنن:	٣٩
نسبة تفوق المادة على المادة المضادة:	٤٠
ضبط الثابت الكوني (لامدا = λ):	٤٢
ثوابت أخرى في الكون:	٤٦
٣ - للكون هدف ووراؤه هادف:	٥٠
الإنسان فيزيائياً:	٥١
الإنسان كائن واعي ومريد:	٥٣
الإنسان في الكون هدف لا فاعل:	٥٦
٤ - التطور على الأرض له هدف ووراؤه هادف:	٥٨
قدم السبق في الإشارة لبعض حقائق الكون:	٥٨
١ - ازدواجية عالم الحياة الدنيا:	٦٠
٢ - الإنسان مشروع الله في الكون:	٦٢
٣ - رب العالمين "العوالم":	٦٣
٤ - حدوث الكون:	٦٤
٥ - البدء:	٦٥

- ٦٧..... ٦- التأثير والتأثر للأجساد والأرواح عن بُعد:
- ٦٩..... ثانياً - الإنسان هدف الحياة الأرضية:
- ٦٩..... نشوء الحياة على الأرض:
- ٧٠..... تطور الحياة على الأرض:
- ٧٥..... دلالة قرآنية وروائية على التطور:
- ٧٧..... هدف التطور الأرضي:
- ٨١..... ظهور الإنسان العاقل على الأرض:
- ٨١..... سجل الإنسان الأحفوري:
- ٨٢..... العصور الحجرية:
- ٨٧..... (٢) الإعداد الإلهي للمشروع الرسالي
- ٨٧..... تمهيد:
- ٩٠..... نشوء الحياة الاجتماعية واللغة والتفكير:
- ٩٠..... تكوين الأسرة المستقرة:
- ٩٢..... الحياة الاجتماعية العامة واللغة:
- ٩٤..... الإنسان واللغة والتفكير:
- ٩٥..... بحث في نشوء وتطور اللغة الإنسانية وتأثير الدين عليها:
- ٩٥..... نشوء اللغة الإنسانية وتطورها:
- ١٠٣..... تأثير الدين الإلهي على اللغة الإنسانية:
- ١٠٨..... الهجرة من أفريقيا واستيطان الوادي الخصيب:
- ١٠٨..... الهجرة من أفريقيا نحو الشرق الأوسط ومنه إلى العالم:
- ١١٣..... استقرار المهاجرين في الوادي الخصيب:
- ١١٥..... خلق آدم والنفس الإنسانية:
- ١١٥..... عالم الأنفس:
- ١١٧..... خلق آدم في عالم الأنفس والعالم الجسماني:
- ١١٧..... ١- حقيقة النفس الإنسانية والامتحان الإلهي المقدر لها:
- ١٢٠..... ٢- خلق الأنفس وأداء الامتحان الأول في السماء الأولى وعالم النذر:
- ١٢١..... ٣- الامتحان الثاني في الأرض وعالم الأجسام:

١٢٧.....	بيان معنى الرفع:
١٣١.....	مجتمع آدم وتاريخ ظهوره على الأرض:
١٣١.....	مجتمع آدم:
١٣٦.....	تاريخ ظهور آدم على الأرض:
١٤٤.....	ذرية آدم وسبيل تكاثرها:
١٥٢.....	ظهور الزراعة:
١٦١.....	(٣) بعثة آدم عليه السلام.....
١٦١.....	الحاجة إلى الرسل ودليل التعرف عليهم:
١٦١.....	الحاجة إلى الرسل:
١٦٥.....	دليل معرفة الرسل:
١٧٠.....	نبوة آدم (ع):
١٧٠.....	دليل نبوة آدم:
١٧٠.....	١- النص:
١٧٥.....	٢- العلم:
١٨٠.....	٣- الدعوة إلى الله:
١٨١.....	دين آدم (ع):
١٨٧.....	آدم والرسول محمد (ص):
١٩٣.....	آدم والحسين:
١٩٤.....	معصية آدم (ع) وتوبته:
١٩٩.....	هل تؤثر معصية آدم على عصمته؟
٢٠١.....	ولدا آدم:
٢٠٣.....	١- الوصية سبباً لحسد قابيل وقتله أخيه:
٢٠٤.....	٢- قابيل أول من عبد النار وبني بيوتها:
٢٠٤.....	٣- هل تعلّم قابيل الدفن من غراب؟
٢٠٨.....	٤- طرد قابيل:
٢٠٩.....	الدين الإلهي والتحضر الإنساني (الثقافة والأخلاق):
٢١٦.....	وفاة آدم ووصيته وصحفه:

٢١٦.....	وصية آدم:
٢١٧.....	نص آخر لوصية آدم:
٢١٩.....	وصية آدم بنوح:
٢٢١.....	الوصية قبل اكتشاف الكتابة:
٢٢٥.....	صحف شيث وإدريس وزبر الأولين:
٢٢٨.....	وفاة آدم (ع):
٢٣٢.....	موضع دفن آدم والتابوت:
٢٣٢.....	موضع دفن آدم:
٢٣٤.....	التابوت:
٢٣٦.....	أنبياء بعد آدم:
٢٣٧.....	إدريس (ع):
٢٣٩.....	نبوة إدريس:
٢٤٠.....	بدء نبوته:
٢٤٤.....	مسجد السهلة بيت إدريس:
٢٤٥.....	غيبة إدريس:
٢٤٦.....	رفع إدريس وموته:
٢٤٧.....	رسل الله الأوائل والكوفة "بلاد ما بين النهرين":
٢٥٣.....	(٤) بعثة نوح عليه السلام
٢٥٣.....	رسالة نوح (ع):
٢٥٤.....	دليل صدق رسالته:
٢٥٦.....	شيء من سيرته:
٢٥٩.....	دين نوح (ع):
٢٦٢.....	نوح والرسول محمد (ص):
٢٦٣.....	نوح والحسين:
٢٦٤.....	قوم نوح:
٢٦٥.....	عبادة الأصنام:
٢٦٧.....	الغربة سنة إلهية:

٢٦٩.....	طوفان نوح:
٢٦٩.....	قصة الطوفان من منظورين:
٢٦٩.....	الطرح التقليدي لطوفان نوح:
٢٧٢.....	قصة الطوفان ببيان السيد أحمد الحسن:
٢٨٦.....	طوفان نوح في روايات آل محمد (ع):
٢٨٦.....	موضع نجارة السفينة وفوران التنور:
٢٨٩.....	مرسى السفينة:
٢٩٢.....	المحمولون في السفينة:
٢٩٥.....	امراة نوح وامراة لوط:
٣٠٢.....	نوح وقومه بعد الطوفان حتى الوفاة:
٣٠٢.....	الإقامة في الكوفة بجانب الفرات:
٣٠٤.....	أبناء نوح:
٣٠٦.....	وصية نوح (ع):
٣٠٨.....	وفاة نوح (ع) وموضع قبره:
٣١٠.....	معنى رفع جسد المعصوم إلى السماء:
٣١٧.....	طول العمر والأرقام في النصوص الدينية:
٣٢٠.....	أنبياء بعد نوح (ع):
٣٢٠.....	هود (ع):
٣٢١.....	هود؛ قائم آل نوح:
٣٢٢.....	أذى قومه له:
٣٢٣.....	مكان بعثته:
٣٢٦.....	وصية هود:
٣٢٦.....	صالح (ع):
٣٣١.....	قبرا هود وصالح (ع):
٣٣٣.....	(٥) الدين السومري وما يتصل به
٣٣٣.....	تمهيد: لماذا البحث في سومر؟
٣٣٣.....	الشرق الأوسط مهد الدين والرسول:

- دين الله بين ثنايا سومر: ٣٣٥
- الدين السومري: ٣٣٧
- حضارة سومر: ٣٣٧
- السرفى ثقافة سومر: ٣٤٠
- حقائق العلم والدين يحددان السبب: ٣٤٤
- شفرة "ذوي الرؤوس السود": ٣٤٨
- موقف العلماء من نتاج سومر: ٣٥٠
- موقف علماء الآثار: ٣٥١
- موقف رجال الدين: ٣٥٢
- أنبياء سومر: ٣٥٦
- إدريس ونوح بين ملوك سومر: ٣٥٧
- ثبت الملوك السومريين: ٣٦٠
- دين سومر: ٣٦٢
- الألوهية وخلق الكون في الدين السومري: ٣٦٤
- تعدد آلهة أم إله واحد؟ ٣٦٦
- هل الآلهة من عالمنا أم من عالم آخر؟ ٣٧١
- السومريون وحاكمية الله: ٣٧٤
- هل يؤمن السومريون بالديمقراطية؟ ٣٧٩
- قضايا من صميم الدين السومري: ٣٨٢
- الإخبارات الماضية والمستقبلية: ٣٩٤
- تأثر أديان الشرق وفلسفتهم بالدين السومري: ٣٩٩
- الهندوسية: ٣٩٩
- الزرادشتية: ٤٠٦
- المانوية: ٤١٤
- حكماء الشرق: ٤١٨
- سون تزو: ٤١٨
- بوذا: ٤٢١

٤٢٥.....	كونفوشيوس:
٤٢٦.....	لاوتزو:
٤٢٨.....	جذور الحكمة الشرقية:
٤٢٩.....	ملحق - ١: مأساة دموزي ومذبحة الحسين (٤)
٤٢٩.....	من تكون أنانا ومن هو دموزي؟
٤٣٤.....	مأساة دموزي وطقوس العزاء:
٤٣٨.....	حقيقة أنانا ودموزي من منظور آخر:
٤٣٩.....	١- أنانا - عشتار
٤٤٠.....	٢- العالم الأسفل
٤٤٢.....	٣- دموزي - تموز
٤٤٤.....	٤- من يكون دموزي من بين خلفاء الله؟
٤٥٧.....	ملحق - ٢: جلجامش والمهدي (٤)
٤٥٨.....	ملحمة جلجامش:
٤٦١.....	شخصية جلجامش:
٤٦٣.....	أحداث الملحمة بين رؤيتين:
٤٦٣.....	١- هوية جلجامش:
٤٦٥.....	٢- هل صدر من جلجامش ظلم واعتداء؟
٤٦٨.....	٣- جلجامش ثلثاه إله وثلثه بشر:
٤٧٠.....	٤- الصراع بين جلجامش وأنكيبدو:
٤٧١.....	٥- رفض جلجامش الزواج من عشتار:
٤٧٥.....	٦- موت أنكيبدو أو تعثره في مسابقة رفيقه:
٤٧٧.....	٧- رحلة جلجامش لطلب الخلود:
٤٨٥.....	المصادر
٤٩٧.....	الفهرست

ونحن إذا عرفنا دور الرسالة الإلهية في تطور الإنسان في بعده الروحي والمادي وبلوغه الهدف المرجو من خلقه ووجوده ومن ثم تمييزه عن غيره من الأحياء التي تشاركه العيش على الأرض (وسيتضح ذلك جلياً في بحوث الكتاب)، نعرف قيمة عطاء الرسل وقدر تضحياتهم في هذا الدرب الطويل وعظم ما لاقوه من عناء وآلام لإنقاذ الإنسان من "البهيمية" التي رافقته دوماً، وانتشاله من الحالة التي نفّرت عنه ملائكة الله في لحظة الاختبار بخليفة من جنسه، لكن الرسل بصبرهم وعزيمتهم صمّموا على الأخذ بيده نحو الرقي والتكامل والعروج به عالياً نحو الطهارة والقدس بحيث لا يدانيه ملك مقرب، وتلك هي إرادة الله!

الشيخ علاء السالم

منشورات شركة نجمة الصباح للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد/ كرادة داخل / هاتف +964781564368
البريد الإلكتروني: contact@najmatalsabah.com

